محاضرات تمهيدية فى

التحليل النفسى

ألفـهـا

سجمند فرويـد

ترجمـهـا

دكتور أحمد عزت راجح

راجعـهـا

محمـد فتحى




مكتبة
طريق العلم

محاضرات تمهيدية
فى التحليل النفسى

تأليف

سجمند فرويد

ترجمة

دكتور أحمد عزت راجح

راجعه

محمد فتحى



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، إدارة الشئون الفنية .

فرويد ، سجمند .

محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى / تأليف : سجمند فرويد

ترجمة : احمد عزت راجح - مراجعة : محمد فتحى .

القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ، ٢٠٠٨.

٥١٢ ص ، ١٧× ٢٤ سم

١- التحليل النفسى   أ- راجح ، احمد عزت (مترجم)

ب- فتحى ، محمد (مراجع)   ج- العنوان

رقم الإيداع : ٥٣٠٠

ردمك : ٠-٢٣٨٦-٠٥-٩٧٧   تصنيف ديوى : ١٥٠,١٩٥

المطبعة : محمد عبد الكريم حسان

تصميم غلاف : ماستر جرافيك

الناشر: مكتبة الانجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد فريد

القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت : ٢٣٩١٤٣٣٧ (٢٠٢) ؛ ف : ٢٣٩٥٧٦٤٣ (٢٠٢)

E-mail : angloebs@anglo-egyptian.com

Website : www.anglo-egyptian.com

مقدمــة المترجم

كثر الحديث عن «سجمند فرويد» وعن مدرسته التى تدعى مدرسة «التحليل النفسى»، وانقسم جمهرة الناس والمثقفين إزاءها بين مهلل محبذ مسرف فى التحبيذ، ومناهض منكر مسرف فى الإنكار. وأكبر الظن أن هؤلاء وأولئك قد جمعوا آراءهم عنها من نتف من معلومات متناثرة بتراء ظفروا بها عن طريق السماع، أو من الكتب أو الصحف الرخيصة المزجاة، أو مما يصوره بعض الكتاب فى رواياتهم دون تحرج أو تحر للحقيقة، ولو صدر القوم عما كتبه مؤسس مدرسة التحليل نفسه فقرأوا له كتبه الخاصة ورأوا كيف نشأت نظرياته وكيف تحورت وتطورت. نقول لو فعلوا لخرجوا من ذلك بفكرة سليمة تجافى فى الكثير ما يذهبون إليه. من أجل هذا أحسنت وزارة المعارف حين رأت نقل هذا الكتاب إلى العربية، فهو خير كتاب يبدأ به من يريد دراسة «التحليل النفسى» لأنه ملخص مكتمل واستيعاب موجز للنظريات الأساسية التى قال بها «فرويد» وقامت على قواعدها مدرسته فى «التحليل النفسى».

الحق أن «سجمند فرويد» كان أكثر من مؤسس مدرسة. فقد أحدث انقلابا فى علم النفس وفى نظرة الناس إلى الطبيعة البشرية، بل إنه صاحب رسالة عرف كيف يذود عنها من خصومه وأصحابه على السواء، وقد صمدت مدرسته لأعنف معارضة لقيتها أية نظرية علمية أخرى، ومما أعانه على ذلك قوة فى الحجة، وجاذبية فى العرض، وثقافة عريضة، وجرأة فى الاستمساك بما يراه حقًا، هذا إلى نفاذ فى الملاحظة، وبراعة فى صوغ الفروض، حتى ليمكن القول بأن هذه المدرسة، أكبر من أية مدرسة أخرى، من صنع رجل واحد. وكان فى أفكاره أكثر من الجدة والطرافة، ذلك أنها اصطدمت بآراء ومعتقدات متسلطة مشاعة بين القوم ذات نفوذ قوى، ولاح أنها تغض من شأن الإنسان وكبريائه كما كانت آراء «دارون» من قبله. والحق أنه هتك كثيراً من أسرار النفس الإنسانية، وكشف عن مستور من أمورها ود غرور الإنسانية لو ظل خفياً عن العيون والعقول!، كما بين للناس أن كثيراً مما يؤمنون به لايعدو أن يكون أوهاماً عاجلة لا تثبت على المراجعة والتمحيص.

وليس بمستغرب ما لاقته هذه المدرسة من كيد وعنت، فهذا مصير النظريات الجديدة، فى ميدان الطب خاصة، فقد جاهد كل من «مورتن» و«سمسن» جهاداً عنيفاً

كى يقنعا الناس «بالتخدير» أثناء العمليات الجراحية، وكان بين القوم من يعتقد أن فى التخدير ما يخالف إرادة الله. كما لقى كل من «پاستير» و«لستر» كثيراً من السخرية من جراء كشوفهم فى البكتريا وعمليات «التعقيم». ولعل الناس لم يعترفوا بعد بمكانة «فرويد» الحقة فى ميدان الطب ولم يعدوه من أكبر رواده، لكنه يمكن القول، على الأقل، أنه لولاه لما كان علم النفس الحديث، أو علم الطب النفسى الحديث.

أما مدرسة التحليل النفسى فقد بدأت طريقة لعلاج بعض الاضطرابات النفسية، ثم أصبحت نظرية ونظاماً سيكولوجيّا لم يقف أثره عند علم النفس وحده بل أحدث انقلابا فى سائر العلوم الإنسانية من اجتماع وفلسفة وسياسة، ولم يحفل أنصاره كثيراً بتنظيم مبادئهم أو ربطها بمبادئ علم النفس الأكاديمى أو العلم بوجه عام، وقنعوا بأن وجدوا الدليل على صحة طرقهم ومبادئهم فى نجاح علاجهم من هذه الاضطرابات النفسية، ومع هذا فقد ثبت كثير من مبادئهم وأضحى معالم هادية فى التشخيص والعلاج. وفى تفسير كثير من الظواهر العجيبة للنفس الإنسانية، ونسارع إلى القول بأنها مدرسة قامت على وقائع كلينيكية مستمدة من علاج المرضى، فمن العبث نقدها والاعتراض عليها ـ كما يفعل الكثيرون ـ إلا عن طريق هذه الوقائع نفسها، وإذا عرفت أن موضوعاتها فنية دقيقة، قدرت أنه لايحتمل أن تنتفع من المناقشات الدارجة، التى تلوكها الألسن إلا بمقدار ما ينتفع علم الجراحة وفنها من كلام نفر غير مختصين.

والكتاب الذى بين أيدينا قوامه محاضرات ألقيت على الأطباء وطلاب الطب بجامعة فيينا فى موسمى الشتاء من عامى ١٩١٥ – ١٩١٧. وهو على ثلاثة أقسام لايتطلب الأولين منها معرفة بموضوع التحليل النفسى، وقد كتبا بأسلوب هو خير ما يمكن أن يقدم به الموضوع للمبتدئ فيها أما القسم الثالث وهو المخصص «للاضطرابات النفسية» فأكثر عمقاً وتركيزاً يستند فيه المحاضر إلى ما عرفه السامع من مقدمات وما حصله من معلومات، وما كسبه من تجارب وخبرات، والحق أن الكتاب فى جملته ليس من الكتب التى تقرأ قراءة عابرة على عجل، بل من تلك التى ينبغى أن تقرأ فى بطء وتأمل وإمعان، ومما يهون قراءته على ما به من عسر عارض، ذلك الأسلوب البديع للعرض الذى تفرد به المؤلف فى كتابته من الناحيتين العلمية والأدبية، حتى ليخيل للقارئ أن المؤلف يفكر مرتين: مرة للفكرة، ومرة لتطويعها والتلطف بها حتى تسكن وتلين، فإن لم يكن ترجيح فليكن تريث وانتظار،

وإن لم يكن القول مأموناً على الجزم والتوكيد، فليكن مأموناً على الجواز والاحتمال، هذا إلى قدرة على التدليل والاستشهاد وتحليل الشواهد تحليلا تسطع فيه الحجة وتمتلخ به الشبهات.

وقد التقى المترجم فى ترجمته بصعوبتين ظاهرتين، أولاهما أن المؤلف يزجي كثيرا من الأمثلة للإيضاح والتقريب، ولئن نقلت هذه الأمثلة بحرفيتها إلى العربية، لم يكن لها من الدلالة والوقع فى نفس القارئ العربى ما يرجوه المؤلف. فلم يكن ثمة بد من أن نلجأ إلى أمثلة مختارة من العربية، تشاكل الأصل وتقصد إلى ما يريده المؤلف من حيث موضوعه وروحه ومغزاه فى غير ما تجوز أو ترخص غير مشروع.

أما الثانية فهى أن الكتاب يزخر بكثير من الاصطلاحات الجديدة أو القديمة التى خلع عليها المؤلف دلالات خاصة، فكان علينا أن نجد لها اصطلاحات عربية تناسبها عن طريق الاشتقاق أو النحت أو التحكم فى اللفظ أو غير تلك من الوسائل التى تتطلب من المترجم مشقة وعناء لا يعرفها إلا من كابد تعريب أمثال هذا الكتاب على هذا النحو.

أما الترجمة فقد روعى فيها أن تكون دقيقة تعكس الأصل على قدر المستطاع حتى إنها لتعد تصويراً صادقاً لأسلوب المؤلف وطريقة عرضه لأفكاره لو أنه كان يعبر عنها بلغة عربية سليمة.

وإنى لأشكر كل الشكر أستاذنا الجليل محمد فتحى، أستاذ علم النفس الجنائى بمعهد الدراسات الجنائية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، الذى تفضل وراجع الترجمة بما عرف عنه من دقة وأمانة ودراية واسعة بنظريات التحليل النفسى وتطبيقاته، فكان له الفضل فى ظهور هذا الكتاب على نحو نرجو أن يجد فيه القارئ العربى متعة وفائدة.

المترجم

عزت راجح

فهرس الكتاب

القسم الأول

صفحة

القسم الثانى

الأحلام

القسم الثالث

النظرية العامة للأمراض النفسية

القسم الأول

المحاضرة الأولى

تمهيد

لست أعرف مبلغ ما لدى كل منكم من معرفة سابقة بالتحليل النفسى، ظفر بها عن طريق القراءة أو عن طريق السماع؛ لذا أرانى مضطراً إلى أن أتناول الموضوع كما لو كنتم لا تعلمون عنه شيئاً، فأنتم فى حاجة إلى التبصرة بمبادئه الأولى. فعنوان أحاديثى هذه : **محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى.**

على أن هناك شيئًا واحداً، على الأقل، أفترض أنكم تعرفونه، ذلك أن التحليل النفسى طريقة للعلاج الطبى لمن يكابدون اضطرابات عصبية، وفى وسعى أن أبيّن لكم على الفور فيم تختلف خطة التحليل النفسى عن غيرها من الخطط المألوفة فى فروع الطب الأخرى، بل وفيم تنقضها أيضاً فى الكثير الغالب من الأحيان.. لقد جرت العادة أننا إذا أخذنا نعالج مريضاً بخطة طبية جديدة، فإننا نهوّن عليه من وعورة هذه الخطة،، ونبث فى نفسه الثقة فى نجاحها والطمأنينة إليها، وأرى الخير كله فى اتباع هذا، فيه يزداد الأمل فى النجاح، بيد أننا إذا أخذنا نعالج عُصابيا[1] بالتحليل النفسى فإننا نسلك سبيلا آخر غير هذا؛ إذ نشرح له صعوبة هذه الطريقة، وما تقتضيه من وقت طويل، وما تتطلبه من جهود وتضحيات من قِبله، كما نذكر له أننا لا نستطيع أن نقطع بوعد من حيث نتيجة العلاج، فنجاح العلاج مرهون بما يبذله من جهد وبما يبديه من استبصار ومثابرة وقدرة على التكيُّف، ولدينا بطبيعة الحال أسباب وجيهة تحملنا على اصطناع هذه الطريقة غير المألوفة، لعلكم أن تحيطوا بشىء منها فيما بعد.

ثم أستميحكم العذر إن بدأت بأن أعاملكم كما أعامل مرضاى من العصابيين، فنصحت لكم عن يقين ألا تعاودوا الكرة إلى الاستماع إلى مرة أخرى[2]، وعلى هذا سأبيّن لكم كيف أنكم لا تستطيعون بالضرورة أن تأخذوا عنى إلا معرفة غير كاملة عن التحليل النفسى، وسأشرح لكم كذلك الصعاب التى تعترضكم أن تكوّنوا لأنفسكم

---

(١) Neurotic هو المصاب بمرض نفسى «المترجم».

(٢) كان فرويد ينصح مرضاه ألا يترددوا على محاضرات للتحليل النفسى «المترجم».

حكماً شخصيّاً مستقلا عن هذا الموضوع، بأن أبين لكم كيف أن أساليبكم المعهودة فى التفكير، وكيف أن تدريبكم المهنى فى جملته سيؤدى بكم حتما إلى أن تتخذوا من التحليل النفسى موقفاً عدائيّا، ثم أوضح لكم مبلغ ما تحتاجون إليه من جهد للتغلب على هذه المقاومة الغريزية فى نفوسكم، وليس فى وسعى بطبيعة الحال أن أتنبأ بما سيكون عليه فهمكم للتحليل النفسى من محاضراتى هذه، غير أنى أستطيع أن أؤكد لكم، على الأقل، أن هذه المحاضرات لن تكفى لتعلمكم كيف تقومون ببحث فى التحليل النفسى أو بعلاج تحليلى، وفضلا عن هذا، فلو أن أحدكم لم يرض بمعرفة سطحية إجمالية عن التحليل، فأراد أن يعقد به صلة دائمة، فلن أشجعه على هذا، بل سأحذره بالفعل من المضى فى هذا السبيل، ذلك أن من يختار هذه المهنة، فى مثل الظروف الحاضرة، يكون بهذا قد ختم على ما لديه من فرص للنجاح فى السلك الجامعى الإقاديمى، بل سيجد نفسه بين قوم يظنون به ظن السوء فيسيئون فهم غاياته ومقاصده، وينظرون إليه بعين الريبة والعدوان، ويسلطون عليه كل ما تنطوى عليه نفوسهم من دوافع كامنة للشر، وعساكم قد لمستم من الحرب التى تعصف بأوروبا اليوم وفيما يكتنفها من مظاهر للشر، أن هؤلاء قوم كثيرون.

ومع هذا، فمن الناس من يجدون فى المعرفة الجديدة من الفتنة والإغراء ما يجعلهم لا يحفلون بأمثال هذه المساوئ والشرور، فإذا كان بيننا أمثال هؤلاء ممن سيختلفون إلى محاضراتى فى الثانية، على الرغم من حذرت، فإنى أرحب بهم، لكن من حقكم جميعاً أن تحيطوا بتلك الصعوبات اللاصقة بالتحليل النفسى والتى أشرت إليها.

أما الصعوبة الأولى فتتصل بعرض الموضوع وتعليمه، لقد كنتم فى دراساتكم الطبية تستخدمون أعينكم فترون بها العيِّنات التشريحية ورواسب التفاعلات الكيميائية، وتقلص العضلات بتنبيه الأعصاب. ثم اتصلتم بعد هذا بالمرضى، فعرفتم أعراض الأمراض، وأدركتموها بحواسكم، وبانت لكم نتائج العمايات الباثولوجية، بل كثيرا ما رأيتم رأى العين الأسباب المثيرة لهذه العمليات منعزلة عن العمليات نفسها، وفى الجراحة كنتم تشاهدون الإجراءات التى تتخذ لمعونة المريضة، كما كان يتاح لكم أن تقوموا بها بأنفسكم، وحتى فى الطب العقلى، كان يُعرض عليكم المرضى فتلاحظون ما فى تعبيراتهم، وأحاديثهم وسلوكهم من زيغ وانحراف يترك فى نفوسكم آثارا

عميقة، فعلى هذا النحو كان يقوم أستاذ الطب، فى أغلب الأحيان بالإرشاد والإيضاح، كما لو كان يقودكم خلال متحف تتصلون فيه بالأشياء المعروضة اتصالا مباشراً، وتعتقدون أنكم اقتنعتم عن طريق خبراتكم الخاصة بوجود الحقائق الجديدة.

أما فى التحليل النفسى فمما يؤسف له أن الأمور تجرى على خلاف هذا. فالعلاج بالتحليل لايزيد على أن يكون ألفاظًا تتبادل بين المرضى والمحلل، إذ يتكلم المريض ويروى خبراته الماضية وانطباعاته الحاضرة، ويشكو ويفصح عن رغباته وانفعالاته، على حين يصغى الطبيب ويعمل على توجيه مجرى الأفكار عند المريض، كما أنه يستثير ذكرياته ويفسر انتباهه فى اتجاهات معينة، ويدلى إليه بشروح وتفاسير، هذا وهو يلاحظ ما يستثار فيه من استجابات تدل على فهمه أو على رفضه وإنكاره، أما أقارب المريض من غير المستنيرين - وهم قوم لايؤمنون إلا بالأشياء الملموسة المحسوسة كتلك التى ترى على شريط سينمائى - فلا يفوتهم البتة أن يعربوا عما يخامرهم من شك فى «إمكان الشفاء بمجرد الكلام، ولا ريب فى أن نظرتهم تلك تجانب المنطق كما تنطوى على التناقض. أليسوا هم أنفسهم من يوقنون بأن آلام العصابى مصدرها «خياله الخاص» ليس غير؟، لقد كانت الألفاظ والسحر، قديما، شيئا واحداً، وما برحت الألفاظ، حتى اليوم، تحتفظ بكثير من قوتها السحرية، فبالألفاظ يستطيع الفرد أن يسعد صاحبه أو أن يشقيه، أن يتيح له أوفر قسط من اليسر، أو أن يزج به فى أوعر مضايق العسر، وبالألفاظ ينقل المدرس معلوماته إلى تلاميذه، وبالألفاظ أيضًا يمتلك الخطيب ناصية سامعيه، ويوجه أفكارهم وأحكامهم، كذلك الألفاظ تستثير الانفعالات، وهى الوسيلة العامة التى نؤثر بها فيمن يحيطون بنا من الناس. من أجل هذا يجب ألا نغض من استعمال الألفاظ فى الطب النفسى، وألا نجزع أن أتيح لنا أن نستمع إلى ما يدور بين المحلل والمريض من حديث.

غير أن الاستماع إلى ما يدور بين المحلل والمريض من حديث، أمر محال، فالمحاورة التى يقوم عليها التحليل لايؤذن لأحد بشهودها، وعملية التحليل لايمكن أن توضح للناس علانية، صحيح أننا نستطيع أن نعرض على طلابنا مصابا بالهستريا أو بالنوراستينيا فى محاضرة عن الطب العقلى، فيقص عليهم حالته ويسرد عليهم ما لديه من أعراض، وهذا كل ما يستطيع أن يفعله المريض، أما المعلومات التى تتطلبها عملية التحليل فلا يفضى بها إلا إذا قامت بينه وبين الطبيب صلة عاطفية خاصة، فإن آنس المريض وجود شخص لا يأبه له ويكترث به، لم ينبس ببنت شفة، ذلك أن

تلك المعلومات تمس أخص ما لدى المريض من أفكار ومشاعر حميمة، وتتناول كل ما يجب أن يخفيه عن غيره من الناس بوصفه شخصاً مستقلاً يعيش فى مجتمع، بل وكل ما يجهد فى أن يخفيه حتى عن نفسه، لأنه لا يتماشى مع فكرته الخاصة عن نفسه.

من أجل هذا كان من المحال عليكم أن تشهدوا بالفعل جلسات للعلاج التحليلى، وكل ما تستطيعون هو أن تستمتعوا إلى ما يقال عنه، فتتعلمون التحليل النفسى - بأدق ما يحمله هذ الاصطلاح من معنى - عن طريق السماع ليس غير. والحق أن هذه الوسيلة غير المباشرة من التعلم تضعكم فى موضع صعب غير مألوف، من حيث تكوين أحكامكم الخاصة عن الموضوع، ومن ثم فستكون هذه الأحكام مرهونة، إلى حد كبير بالثقة التى تولونها محدثكم.

تصوروا أنكم تستمعون إلى محاضرة فى التاريخ لا فى الطب العقلى، وأن المحاضر يتحدث عن حياة الإسكندر الأكبر وفتوحه، فما الأسباب التى تدعوكم إلى تصديق ما يقول؟ يبدو لأول وهلة أن هذا الموقف أكثر حرجا من موقف المتحدث عن التحليل النفسى، فالمحاضر لم يكن له، كما لم يكن لكم، نصيب فى هذه الفتوح، فى حين أن المحلل يستطيع أن يحدثكم، على الأقل، عن أمور خبرها بنفسه، ثم ما هى الأدلة التى يمكن أن تساند المحاضر فيما يقول؟ فى وسعه أن يحيلكم إلى ما كتبه المؤرخون ممن عاصروا الاسكندر أو ممن عاشوا بعد تلك الحوادث بزمن غير طويل، أمثال ديودورس وبلوتارخ وآريان وغيرهم، كذلك يستطيع أن يعرض عليكم نسخاً من العملة المحفوظة وتماثيل الملك، وأن يريكم صورة شمسية من فسيفساء پومپى التى تمثل موقعة إسّوس، والحق أن هذه الوثائق جميعها لاتنهض دليلا إلا على أن الأجيال السالفة كانت تؤمن بوجود الإسكندر وبحقيقة ما قام به من أعمال، وتلك مسألة قد تكون منكم موضع اعتراض ونقد آخر؛ إذ قد تجدون عندئذ أن ليس كل ما روى عن الإسكندر جديراً بالتصديق، أو أنه لايمكن الاعتماد عليه تفصيلا، غير أنى لا أظن مطلقاً أنكم تنفضون من حجرة المحاضرة وأنتم فى شك تام من وجود الإسكندر وحقيقته، أما النتائج التى ستخرجون بها فيعيّنها اعتباران رئيسيان: أولهما أن ليس لدى المحاضر من داع معقول يحمله على أن يقنعكم بأشياء لايعتقد بصدقها هو نفسه، ثانيهما أن جميع المراجع التاريخية التى بين أيدينا تكاد تتفق فى عرضها تلك

الوقائع، فإذا عنّ لكم أن تمتحنوا دقة الروايات التى يقول بها الكتاب الأقدمون، فعليكم أن تطبقوا المعيارين المذكورين، وهما: الدوافع التى يمكن أن يصدر عنها المؤلفون، ومبلغ اتفاقهم فى هذا الموضوع، ولاشك فى أن نتيجة هذا الامتحان ستكون مقنعة فى حالة الإسكندر، وإن كان من المرجح أن تكون أقل اقناعا إذا كنا بصدد شخصيات أمثال موسى ونمرود، وستتضح لكم فيها بعد مواطن الشك التى تمكن أن تستثار فتجعل الناس فى ريب مما يقوله أصحاب التحليل النفسى.

يحق لكم أن تسألونى الآن: إذا لم يكن ثمة دليل موضوعى على التحليل النفسى. ولم يكن من المستطاع بيان عمليته علانية، فكيف السبيل إلى تعلمه، أو إلى أن نؤمن بصحته ويصدق ما يقول؟ الحق أن تعلم التحليل ليس بالأمر الهيّن، وأن من أحسنوا تعلمه بالكثير، غير أن هناك، مع هذا، سبيلا إلى دراسته وتعلمه، ففى وسع المرء أن يتعلمه أولا بتطبيقه على نفسه إذ يقوم بدراسة شخصيته، وليس هذا، على التحديد، ما يسمى بالتأمل الباطنى، وإن كنا نستطيع أن نسميه كذلك لحاجتنا إلى اصطلاح أدق منه، وثَم طائفة من الظواهر النفسية المألوفة الذائعة يمكن أن تتخذ مادة لتحليل الإنسان نفسه متى عرف شيئا عن طريقة التحليل، فعلى هذا النحو قد يظفر المرء بما يرجوه من اقتناع بحقيقة العمليات التى يصفها التحليل ويصدق آراءه، ولو أن ما يصل إليه عن هذا السبيل ليس بالشيء الكثير، وفى وسع المرء أن يكوّن لنفسه عن التحليل فكرة أشمل من تلك إن قام بتحليل نفسه على يد محلل ماهر، وانتهز هذه الفرصة فلاحظ التفاصيل الدقيقة للخطة التى تبعها المحلل، وغنى عن البيان أن هذه الطريقة الممتازة طريقة فردية، فلايمكن اتباعها فى فصل أمام انطلاب.

أما الصعوبة الثانية التى تتصل بالتحليل النفسى فليست لاصقة به ملازمة له، بل صعوبة تُسألون عنها بمقدار ما هيأتكم دراساتكم الطبية على الأقل. فقد بثت فيكم هذه الدراسات اتجاها عقلياً يباعد بينكم وبين التحليل النفسى فى كثير. ذلك أنكم درجتم على إقامة وظائف الجسم واضطراباته على أساس تشريحى، وعلى تفسيرها فى ضوء الكيمياء والفيزياء[1]، وعلى النظر إليها من الناحية البيولوجية، ولم تولوا ببعض اهتمامكم قط، المظاهر النفسية للحياة التى ينتهى إليها، آخر الأمر، تطور ذلك الجسم

---

1. Physics

المعقد العجيب. لذا فالنظرة السيكولوجية مازالت غريبة عنكم، وقد ألفتم أن تقفوا منها موقفًا تكتنفه الريبة وأن تنكروا عليها طابعها العلمي وأن تذروها للعامة وللشعراء، والصوفية والفلاسفة، ولاشك فى أن قصوركم هذا ضار بجدارتكم الطبية، لأن المظاهر النفسية هى أول ما يلمسه الطبيب فى المريض، كما هى الحال فى كل الصلات البشرية، وأخشى أن تكون عاقبة هذا إقصاركم عن ناحية من التأثير العلاجى الذى تهدفون إليه، تتركونها للدجالين والمتصوفة والذين يعالجون عن طريق الإيمان، وأولئك قوم لا تنظرون إليهم نظرة احترام.

لست بغافل عن الأسباب التى قد تساق اعتذاراً عن هذه الثغرة فى إعدادكم السابق، فليس ثمة فرع من العلوم الفلسفية يمكن أن يعينكم على بلوغ الأهداف التى تنشدها مهنتكم الطبية، إذ ليس فى الفلسفة التأملية ولا فى علم النفس الوصفى، بل وليس فيما يسمى علم النفس التجريبى الذى يدرس متصلا بفسيولوجيا الحواس - ليس فى كل تلك الفروع من المعرفة - كما تدرس فى المدارس - ما يقدم لكم شيئا مفيداً عن العلاقات بين النفس والجسم، صحيح أن الطب العقلى يعمل على وصف الأشكال المختلفة للاضطرابات النفسية المعترف بها، وجمعها فى جداول كلينيكية، غير أن علماء الطب العقلى أنفسهم يساورهم الشك فيما إذا كانت هذه التصانيف الوصفية البحتة خليقة أن تسمى علمًا، فأصل الأعراض التى تتألف منها تلك الجداول الكلينيكية، وكيفية تكوينها، والصلات المتبادلة بين بعضها وبعض - كل أولئك لايزال فى طى الخفاء: فليس ثمة ارتباط يمكن الكشف عنه بين الأعراض وبين أية تغييرات واضحة المعالم فى المخ، إذ أن الأعراض ترتبط بتغييرات لا تفسرها بأى وجه من الوجوه، وهذه الاضطرابات النفسية لايمكن أن تمتثل للعلاج إلا إذا أمكن تشخيصها كنتائج ثانوية لمرض عضوى معين.

تلك هى الثغرة التى يعمل التحليل النفسى على ملئها، فهو يرجو أن يتيح للطب العقلى الأساسى السيكولوجى الذى يعوزه، وأن يكشف عن الدستور المشترك الذى يتضح فيه الارتباط بين الاضطراب الجسمى والاضطراب النفسى. لذا كان على التحليل النفسى أن يتحرر من كل رأى دخيل مقرر من قبل - سواء كان هذا الرأى صادراً عن نطاق التشريح أو الكيمياء أو الفسيولوجيا - وأن تكون دعائمه فى البحث سيكولوجية محضة. ولهذا السبب نفسه أخشى أن يبدو لكم التحليل النفسى لأول وهلة أمراً غريباً.

وثم صعوبة ثالثة لا تسألون عنها أنتم ولا تدريبكم السابق؛ ذلك أن من بين مقدمات التحليل النفسى رأيين يستثيران استياء العالم أجمع وسخطه أيضاً، أما أولهما فيصطدم بالأحكام الفكرية السابقة عند الناس، فى حين يصطدم الآخر بأهوائهم الخلقية والجمالية، ونحن لا نغضُّ من شأن هذه الأحكام السابقة فهى عوامل قوية مكينة، وبقايا من عهود قيمة بل ضرورية فى التطور الإنسانى، أى إنها أحكام وأهواء ترتكز على قوى انفعالية، فإعلان الحرب عليها ليس أمراً هيناً.

وأول هذين الرأيين البغيضين أن العمليات النفسية لاشعورية فى لبها وجوهرها أما العمليات الشعورية فليست إلا أفعالا منعزلة، وفُتاتا من الحياة النفسية جميعاً، وهنا أطلب إليكم أن تذكروا أن هذا عكس ما نألف، فقد جرينا على أن توحد بين ما هو نفسى وما هو شعورى، وكان الشعور عندنا الخاصة التى تُعرف بها الحياة النفسية وتحدد على وجه التحقيق.

فعلم النفس فى نظرنا هو العلم الذى يدرس محتويات الشعور.. بل إنا نرى فى هذا أمرا طبيعياً بديهياً، ونعد ما يناقضه لغوا وسخفًا لايعتد به. لكن التحليل النفسى يستحيل عليه أن يتغاضى عن مثل هذا التناقض، أو أن يسلم بهذه المطابقة بين ما هو شعورى وما هو نفسى؛ فهو يعرف النفس بأنها تنطوى على عمليات من قبيل الشعور والتفكير والإرادة، كما يؤكد أن هناك تفكيراً لا شعورياً ورغبات لا شعورية. وقد خسر التحليل من أجل هذا، فى أول الأمر، عطف العقول العلمية الرزينة وجرّ على نفسه الشبهات، فقال الناس هذا مذهب خيالى مُغرب، يريد أن يعمل فى الظلام وأن يصطاد فى الماء العكر، ولابد أنه يشق عليكم أن تدركوا السبب فى أنى أصم عبارة مجردة كالتى تقول: «إن النفسى هو الشعورى» بأنها حكم سابق يكتنفه التشيع والانحياز، كما أنكم لا تستطيعون بعد أن تحدسوا كيف تطورت الأمور حتى أفضت إلى إنكار اللاشعور (إن كان يوجد حقا)، أو أن تحزروا الفائدة التى نجمت عن مثل هذا الإنكار، إن الجدل فيما إذا كانت الحياة النفسية تتساوق فى مجالها ومداها مع الشعور أو أنها تتجاوز حدودها، يبدو جدلا عقيما مداره الألفاظ ليس غير، ومع هذا ففى وسعى أن أوكد لكم أن قبول فكرة العمليات النفسية اللاشعورية، خطوة حاسمة فاصلة فى سبيل توجيه جديد للعلم وللعالم.

هذه هي الخطوة الجريئة الأولى التي خطاها التحليل النفسي، وثمة خطوة أخرى لا أخالكم تقدرون صلتها الوثيقة بالأولى، هذه الخطوة الثانية- التي تعتبر كشفا من كشوف التحليل - فحواها أن النزعات التي يمكن أن توصف بأنها جنسية ليس غير (بالمعنى الضيق والمعنى الواسع لهذا الاصطلاح) تقوم بدور خطير في تسبيب الاضطرابات النفسية والعقلية لم يلق ما هو جدير به من التقدير في الماضي، بل هنالك ما هو أكثر: فهذه النزعات الجنسية قد أفضت بالشيء الكثير القيم إلى ما أنجزه العقل البشري من آثار ثقافية وفنية واجتماعية رفيعة.

وعندي أن نفور الناس من هذه النتيجة الأخيرة أهم أسباب المعارضة التي لقيها التحليل. فإن أردتم أن تعرفوا كيف يفسر أصحاب التحليل هذه الواقعة، ذكرت لكم أننا نعتقد أن الحضارة قامت ، في زحمة تنازع البقاء، على تضحيات قام بها الإنسان إذ حدّ من إشباع نزعاته البدائية، وأن هذا الحرمان موصول أبداً وإلى حد بعيد. فكل فرد في مجتمع يعيد هذه المأساة ويكرر التضحية بلذاته الغريزية في سبيل الصالح العام، والنزعات الجنسية من أهم القوى الغريزية التي يضحى بها على هذا النحو، فهو تُعلى أي إن طاقتها تتجرد من صبغتها الجنسية، وتتجه شطر أهداف اجتماعية سامية ليست جنسية الصبغة.

غير أن البناء المشيد على هذا النحو بناء غير مكين، فالنزعات الجنسية ليس من اليسير ضبطها، وكل فرد يساهم بقسط في بناء الحضارة يخشى عليه من ثورة هذه النزعات، ومن تمردها على ما أصابها من تحول وحيود في طاقتها، ثم أن المجتمع لايستطيع أن يتصور خطراً يهدد حضارته أعظم من الخطر الذي ينجم عن تحرير النزعات الجنسية، ورجعتها إلى هدفها الأصلي.

ومن ثم فالمجتمع يُبغض كل ما يمس هذه الناحية الحساسة من نواحي رقيه، ويُعرض إعراضاً بعيداً عن الاعتراف بعنفوان الغريزة الجنسية، أو إماطة اللثام عن خطر الحياة الجنسية للفرد، ويرى أن خير وسيلة لضبط هذه الغريزة هي تسريح الانتباه عن هذا الأمر برمته. لذا فهو لا يرحب بكشوف التحليل في هذه الناحية، ويؤثر أن يصمها بالقبح والنشوز على معايير الجمال، وبخطورتها ومروقها عن معايير الأخلاق من جهة أخرى، غير أن أمثال هذه الاعتراضات لايمكن أن تنهض حججاً

صادقة على النتائج الموضوعية المستمدة من البحث العلمى، ولابد لها من أن تُصاغ فى قالب فكرى قبل أن يستمع الناس إليها، ومن خصائص الطبيعة البشرية أنها تميل إلى اعتبار ما لا تقبله ولا تستسيغه شيئا غير صادق ولا صحيح... ومن ثم لا يشق عليها أن تقع على حجج تناهضه وتنال منه، وهكذا يصم المجتمع ما لا يستسيغه من أمور بأنه باطل، ويجادل فى نتائج التحليل بحجج منطقية عيانية[1]، لكنها تقوم على أساس من الهوى والعاطفة، ثم يتشبث بهذه الحجج، بكل ما تنطوى عليه أحكام الهوى من قوة، إن سعى أحد إلى تفنيدها.

أما نحن فنصرح بأننا لم نتشيع لرأي فى بسط هذه النظرية التى يعترض عليها، ولم نرم إلا إلى الاعتراف بالوقائع كما ألفيناها خلال بحوث شاقة. فيحق لنا إذاً أن ننبذ، دون قيد أو شرط، أية محاولة لحشر أمثال هذه الاعتبارات العملية فى مجال البحث العلمى، حتى قبل أن نتحقق ما إذا كانت تلك المخاوف التى يراد باسمها أن تفرض علينا هذه الاعتبارات، لها أو ليس لها ما يبررها.

تلك بعض الصعوبات التى تعترضكم بادئ الأمر حين تُقبلون على التحليل النفسى، وأكبر الظن أن فى ذلك ما يكفى المبتدئ بل وما يزيد عن حاجته. فإن استطعتم أن تظهروا على الأثر المثبط الذى خلقته هذه الصعوبات فى أنفسكم، مضينا فى أحاديثنا.

---

1. Concrete.

المحاضرة الثانية

سيكولوجيا الهفوات

لن نبدأ اليوم بفروض وقضايا مسلمة، بل ببحث موضوعه طائفة معينة من الظواهر المشاعة المألوفة، لا يعيرها الناس اهتماماً كافياً. وهى بعد ظواهر غير مرضية لأنها مذاعة بين الأسوياء من الناس. وأعنى تلك الظواهر التى نطلق عليها اسم **الهفوات**[1] والتى يقع فيها كل واحد منا: من أمثالها أن ينطق المرء أو أن يكتب كلمة غير التى يريد أن ينطق بها أو أن يكتبها ـ سواء لاحظ ذلك أم لم يلاحظه ـ وتلك ما تسمى فلتات اللسان وزلات القلم.. أو أن يقرأ القارئ شيئًا غير ما هو مسطور أمامه بالفعل، أو أن يسمع السامع غير ما يقال له، دون أن يكون لديه عيب فى حاسة السمع بطبيعة الحال.

وثمة نوع آخر من تلك الظواهر يقوم على نسيان الأشياء نسياناً مؤقتًا لا دائمًا، كما يعجز الإنسان مثلا عن تذكر اسم يعرفه حق المعرفة ويستطيع أن يتعرفه متى رآه، أو كما ينسى تنفيذ شيء قصد إليه ثم يتذكره فيما بعد، فيكون بذلك قد أنسيه فترة محدودة فقط. وثمة نوع ثالث من هذه الظواهر لايكون مؤقتًا كالنوع السابق، كما يعجز الإنسان عن العثور على أشياء حفظها فى مكان ما. وهذا ضرب من النسيان لاننظر إليه كما ننظر إلى نسيان المألوف، بل ندهش له أو نضيق به ولا نفهم له معنى، وتتصل بهذه الظواهر **أخطاء** معينة[2] تدوم وقتًا قصيراً ثم تزول، كأن يعتقد الإنسان بصحة شيء برهة من الزمن، فى حين يراه باطلا قبل هذه البرهة وبعدها، هذا إلى عدد كبير من الظواهر المشابهة، تعرف بأسماء كثيرة مختلفة.

هذه الهفوات تكاد تكون جميعها أفعالا من نوع غير مهم، وهى فى أغلب أحوالنا مؤقتة وليست لها دلالة كبيرة أو أهمية عملية فى الحياة، اللهم إلا فى حالات نادرة كما لو فقد المرء شيئاً معينا مثلا. لذا لايكترث الناس بها كثيراً فلا تستثير منهم وجداناً ظاهراً.

---

1. Errors
2. Mistakes

تلك هى الظواهر التى أطلب منكم الآن أن تتأملوها وأن تنظروا فيها. غير أنى أسمعكم تتهامسون وتعترضون غير راضين: «إن دنيا النفس الفسيحة والضيقة تزخر بألغاز معقدة، كثيرة، وإن مجال الاضطراب النفسى حافل بمعميات شتى بها حاجة إلى التفسير وهى جديرة به. أفليس من السخف أن نضيع جهودنا ونصرف اهتمامنا إلى هذه التوافه من الأمور؟ لو كان فى وسعك أن تفسر لنا كيف يتسنى لشخص سليم السمع والبصر أن يرى وأن يسمع فى رابعة النهار أشياء لا وجود لها فى الواقع، أو أن تفسر لنا كيف ينقلب المرء على حين فجأة فيعتقد أن أقرب الناس إليه وأعزهم عليه يكيدون له ويتربصون به الدوائر، أو أن تعلل لنا بحجج بارعة هجاساً[1] يبدو هراء وسخفا فى نظر أى طفل ـ لو استطعت هذا، إذاً لأقبلنا على التحليل النفسى، ولكان حرياً أن نضعه موضع اعتبار. فإن لم يستطع التحليل أن يشغلنا بشىء أكثر خطراً من أن نبحث عن السبب فى خروج اللفظ بالمتكلم عما يريد، أو فى عجز ربة البيت عن العثور على مفاتيح لها، إلى غير تلك من التوافه، إذاً لانصرفنا عنه إلى ما يشغل أوقاتنا واهتمامنا بما هو خير من ذلك».

فأوصيكم بالصبر! إن اعتراضكم ليس فى الاتجاه السليم، صحيح أن التحليل لايستطيع أن يزهو بأنه لم يتناول قط أشياء تافهة، بل الأمر على خلاف هذا، فالملاحظات التى يقوم بها تستمد عادة من أحداث الحياة الجارية المألوفة، التى أعرضت عنها العلوم الأخرى فلم تر فيها أشياء ذات بال يعتد بها بل نفاية من نفايات علم الظواهر، إن جاز التعبير، لكن ألستم فى نقدكم هذا تخلطون بين أهمية المشكلة وبين مظاهرها وأماراتها؟ ألا تبدو الأمور المهمة الجسيمة، فى بعض الظروف وفى بعض الأحيان، فى صورة أمارات طفيفة زهيدة جداً؟ ولا يشق علىّ أن أضرب لكم أمثلة عدداً على هذا، فلو أن شابا منكم حاز رضاء سيدة من بين من يستمعن إليه مثلا، ففى أى صورة ينكشف هذا الرضاء؟ أتراه ينتظر منها تصريحاً سافراً بهذا، أم يتوقع أن تهجم عليه فتعانقه عناقاً حاراً، أم تراه يقنع بنظرة لايكاد يحسها الغير أو بإيماءة عابرة أو بمصافحة يطول أمدها بعض الطول؟ ولو أن أحدكم كان يقوم بتحقيق جنائى فى جريمة قتل، فهل ينتظر أن يترك له القاتل فى مكان الجريمة، صورته يكشف بها عن هوية القاتل؟ فخليق بنا ألا نغض من شأن العلامات الطفيفة

(١) Delusion.

المستصغرة، فقد تتيح لنا الوقوع على أشياء أعظم منها خطراً، ثم إنى أرى عزما نهائيا على تكريس جهده لبحث هذه المشكلة الكبرى أو تلك.. فكثيرا ما يمسى فى حيرة من أمر توجيه خطواته فى هذه الحالة، وخير لمن يقوم ببحث علمى أن يتناول كل شىء يعرض له من تلقاء نفسه، متى كان السبيل إلى ارتياده ميسوراً، فإذا ما أحسن القيام به والمضى فيه، دون أن ينقاد للأحكام السابقة أو للآراء المقررة من قبل، فقد يجد فى مثل هذا العمل المتواضع - إن صاحبه التوفيق - ما يفضى به إلى دراسة المشكلات الكبرى، وذلك لما بين الأمور جميعها، وبين صغيرها وكبيرها من صلات وروابط.

هذا ما أردت أن أسوقه إليكم فى أن أظفر باهتمامكم إذ أعالج تلك الهفوات التى تبدو فى ظاهرها زهيدة لا يعتد بها والتى يتورط فيها الأسوياء من الناس. وهنا أقترح أن أسأل بعض من ليست له معرفة بالتحليل النفسى أن يفسروا لنا هذه الهفوات.

لاشك أنه سيجيبنا أول الأمر بقوله: «إنها أشياء لا تستأهل أى تفسير، إن هى إلا حوادث مستصغرة غير ذات بال». ترى ماذا يعنى بقوله هذا.. أيعنى أن هناك أحداثا على درجة من الصغر والضآلة بحيث تفلت من الخضوع للتتابع العلىّ للظواهر، وبحيث يمكن أن تكون غير ما هى عليه؟ أما من حاول أنه يتملص، على هذا النحو، من حتمية الظواهر الطبيعية، حتى فى ناحية فردة منها، فقد قلب النظرة العلمية إلى العالم برمتها، وعلينا أن نذكره أن النظرة الدينية إلى العالم أكثر تماسكا وأبعد عن التناقض مما يقول؛ فهى تؤكد لنا بصورة قاطعة «أنه ما من عصفور يهوى إلى الأرض، إلا إذا شاء الله». وهنا أخال صاحبنا يعرض عن استخلاص النتيجة المنطقية التى تترتب على جوابه الأول، بل يمتثل فيقول إنه لو درس هذه الأشياء فسرعان ما يقع لها على تفسير، فلابد أننا بصدد اضطرابات وظيفية طفيفة أو خلل فى بعض أوجه النشاط النفسى يمكن الكشف عن شروطه وظروفه، فالإنسان الذى يتكلم عادة فى غير تعثر، قد يزل لسانه (١) متى كان متعبا أو كانت به وعكة خفيفة (٢) أو متى كان مهتاجا (٢) أو متى كان انتباهه مركزاً فى شىء آخر غير ما يقول، وإثبات هذا ليس بعزيز، ففلتات اللسان كثيرة الحدوث بالفعل متى كان الإنسان متعبا أو يشكو من صداع، أو كان على وشك أن تصيبه نوبة من نوبات الشقيقة[١].

---

(١) Migraine ألم يأخذ فى نصف الرأس والوجه (المترجم).

ونسيان أسماء الأعلام غالبا ما يحدث فى هذه الأحوال، بل كثيراً ما يكون العجز عن تذكر هذه الأسماء نذيراً بحلول الشقيقة، وفى حالات الاهتياج الشديد يخلط الفرد بين الألفاظ بل وبين الأشياء بعضها وبعض، ويصيبه الخرق فى أداء الأعمال، ثم إن نسيان الفرد ما ينوى القيام به، أو قيامه بأعمال لا يقصد إليها، مما يكثر تواتره فى لحظات الغفلة بوجه خاص، أى حين يكون انتباهه مشتتا فى أشياء أخرى، ومن الأمثلة المعروفة لهذه الغفلة حالة الأستاذ فى أوبريت «الأوراق الطائرة» Fliegende Blätter إذ ينسى مظلته ويأخذ قبعة غير قبعته لأنه كان يفكر فى أمور ستكون موضوع كتابه التالى. وكلنا يعرف من خبرته الخاصة ما ينساه من وعود أو مشروعات عليه أن ينجزها، إذا جد شيء يستحوذ على انتباهه فى تلك الفترات استحواذاً كبيراً.

كل هذا يلوح لكم واضحًا مفهومًا وفى منأى عن الاعتراض والنقض. وربما لايكون على جانب كبير من الطرافة، أو لا يكون من الطرافة ما كنا نتوقع. فلننعم النظر إذاً فى هذا التفسير للهفوات، إن الظروف المختلفة التى يقال إنها لازمة لحدوث هذه الظواهر ، ليست كلها من نوع واحد، فالمرض واضطرابات الدورة الدموية أسس فسيولوجية لاختلال الوظائف السوية، فى حين أن الاهتياج والتعب والغفلة ظروف من نوع آخر، يمكن أن توصف بأنها ظروف سيكوفسيولوجية، وليس من العسير أن تستقيم هذه الظروف الأخيرة نظرية فحواها أن التعب وغيبة الذهن، وربما كان الاهتياج العام أيضًا، تؤدى إلى شرود الانتباه، فلا يستطيع الفرد أن يوجه إلى الفعل الذى يقصد إليه قدراً كافيا من الانتباه.. وعندئذ يكون من اليسير جداً أن يضطرب الفعل أو أن يؤدى أداء غير محكم، وقد يكون للمرض الطفيف أو لتغير توزيع الدم فى الجهاز العصبى المركزى هذه النتيجة فى هذه الحالة، فالمسألة فى كل هذه الأحوال لاتعدو أن تكون نتيجة لاضطراب الانتباه لأسباب عضوية أو نفسية.

غير أن هذا كله لا تبدو له أهمية من شأنها أن تستثير اهتمامنا بالتحليل النفسى وهذا قد يميل بنا، مرة أخرى، إلى أن ننفض أيدينا من هذا الموضوع، والحق أننا لو محّصنا الحقائق تمحيصًا دقيقا، لظهر لنا أنها لا تتماشى جميعها مع «نظرية الانتباه» هذه أو أننا على الأقل لا نستطيع أن نستنتج كل شيء من هذه النظرية مباشرة، فأمثال هذه العفوات وذلك النسيان تقع أيضًا من أناس ليسوا متعبين أو مهتاجين، بل فى حالة سوية من جميع الوجوه، اللهم إلا إذا عزونا إليهم من أجل هذه الهفوات

بذاتها، حالة من الاهتياج لا يعترفون بها أنفسهم، كما أن الأمر ليس من البساطة ما يجعلنا نقول إن الأداء الصحيح للأفعال مرهون بتركيز الانتباه، وإن الخطأ فيها مصدره نقصان الانتباه، فكثير من الأفعال يقود بها الفرد بصورة آلية محضة لا يكاد يصاحبها انتباه، وهذا لايمنع من أن يؤديها أداءً حسناً. من تلك أن السائر فى الطريق قد لا يكاد يعرف أين هو ذاهب، ومع هذا فهو يتخذ الطريق الصحيح حتى يقف عند غايته دون أن يضل.

هذا يحدث على الأقل عادة، والعازف المدرب تنساب أصابعه على المفاتيح الصحيحة من البيانو دون تفكير فيها، وقد يقع بطبيعة الحال فى خطأ عارض، لكن العزف الآلى لو كان من شأنه أن يزيد من الأخطاء، لكان هذا العازف أكثر تعرضا لها من غيره، فقد جعله تدريبه الموصول يعزف بصورة آلية محضة، بل المشاهد عكس هذا، إذ نرى أن كثيرا من الأفعال يؤديها صاحبها أداة صحيحا حين لا يكون انتباهه مركزاً فيها بوجه خاص، وأن الأخطاء قد تقع بالتحديد حين يحرص الحرص كله على مراعاة الدقة فى عمله؛ أى حين لايكون ثمة شرودٍ فى انتباهه البتة، ورب قائل يقول إن الخطأ نتيجة «لاهتياج» الفرد. لكنا لانفهم لِمَ لايكون هذا الاهتياج خليقا بإرهاف الانتباه وتركيزه فى الهدف الذى يحرص الفرد على بلوغه الحرص كله. وعلى هذا فلو أن خطيبا كان يلقى حديثا مهماً، فخرج به اللفظ إلى عكس ما يريد، لعز علينا أن نفسر هفوته تلك بالنظرية السيكوفسيولوجية أو كما نسميها نظرية الانتباه.

ثم إن هناك ظواهر ثانوية صغرى تصاحب الهفوات نفسها، ولايمكن فهمها وإيضاحها بأمثال هذه التفاسير.. من تلك أن ينسى المرء اسما معينا نسيانا مؤقتا فيضيق صدرهِ بذلك، ويصمم على استحضار هذا الاسم، فيدأب فى ذلك ولايرتاح إلا إذا وجده، فلم لا يفلح على الأغلب، على الرغم من ضيق صدره ومن تلهفه ورغبته فى توجيه انتباهه إلى تلك الكلمة التى يقول إنها «على طرف لسانه»، والتى يتعرفها من فوره إن ذكرت له؟.

وثمة حالات أخرى تكثر فيها الهفوات، ويتشابك بعضها مع بعض، أو يقوم بعضها بدلا عن بعض، فقد ينسى المرء موعداً ما فيعزم على ألا ينساه مرة أخرى، غير أنه يكتشف أنه أخطأ يوم الموعد أو الساعة المحددة له؛ أو أن يلجأ أحدنا إلى شتى الحيل ليتذكر كلمة ثانية قد تفيده فى استحضار الكلمة الأولى، فذا أخذ يبحث عن الكلمة الثانية، أُنسى كلمة ثالثة وهكذا. ويحدث مثل هذا أيضاً فى الأخطاء المطبعية،

وهى ما يمكن اعتبارها هفوات يقع فيها صفاف الحروف، من أمثال هذه الهفوات الملحة ما حدث لجريدة ديمقراطية اشتراكية أرادت أن تعلق على حفلة من الحفلات فقالت: «وكان وزر الدولة من الحاضرين» (بدل أن تكتب وزير الدولة). فحاولت فى اليم التالى أن تصحح هذا الخطأ وتستدركه فاعذرت قائلة: **«وكان زير الدولة من الحاضرين»**[١]. نحن نميل إلى أن نعزو أمثال هذه الهفوات إلى روح شريرة تساكن آلة الطباعة، أو إلى شيطان رجيم إلى غير تلك من التعبيرات المجازية، التى تتضمن، على الأقل، شيئا أكثر من التفسير السيكوفسيولوجى للخطأ المطبعى.

لست أدرى ما إذا كنتم تعرفون أن فلتات اللسان يمكن استثارتها، بصورة ما، عن طريق الإيحاء، فإليكم فكاهة توضح ما أريد: عُهد إلى ممثل مسرحى ناشئ أن يقول العبارة الآتية فى موقف جدى من مواقف الرواية « من علامات الرحمة أن تكون خيارا لا اضطرارا». فأراد أحد زملائه أن يداعبه أثناء التجربة بأن أخذ يعيد عليه هذه العبارة محرِّفةً على النحو الآتى: «من علامات الرحمة أن تكون خياراً لا فشاراً». فلما كان المساء وبدء فى التمثيل إذا بذلك الممثل الناشئ يتورط مكرها فى العبارة المحرّفة، بالرغم من أنه حذر من ذلك تحذيراً كافيا قبل التمثيل، أو لعله تورط فى الخطأ من جراء هذا التحذير بعينه[٢]. إن كل هذه الخصائص الصغيرة التى تتسم بها الهفوات لاتنجلى كثيراً فى ضوء نظرية الانتباه الشارد. غير أن هذا لايوجب حتما أن تكون النظرية خاطئة، فقد تكون هناك حلقة مفقودة إن وقفنا عليها، أمست النظرية مقبولة قبولا تاما، على أن كثيرا من الهفوات نفسها يمكن النظر إليها من ناحية أخرى.

ولنختر من الخفوات فلتات اللسان على أنها خير مثال يلائم الغرض الذى ننشده، وقد كان فى وسعنا أن نختار زلات القلم أو عثرات القراءة، فهى فى الأمر سواء. ولنذكر أننا لم نتصدَّ حتى الآن إلا للظروف التى يعثر فيها اللسان، ومتى يعثر، وأننا لم نتلق جوابا إلا عن هذه الناحيةِ ليس غير. على أنه من الممكن أن ننظر إلى الموضوع من ناحية أخرى فنتساءل: ولِمَ تقع هذه الفلتة بذاتها من دون غيرها من الفلتات؟ أى

---

(١) مثال معرب يعكس الأصل ويقصد إلى ما يرجوه المؤلف من حيث موضوعه وروحه ومغزاه، إلا فيما تقتضيه الألفاظ. «المترجم»

(٢) مثال مأخوذ من المسرح المصرى، لكنه يتماشى مع النص الألمانى الأصيل، ويحمل فكرة المؤلف على وجه التحديد، فى غير ما ترخص أو تجوز إلا فيما تقتضيه روح الفكاهة للقارئ العربى «المترجم».

من الممكن أن ننظر في طبيعة الهفوة نفسها **والشكل** الذى تتخذه. وسترون أننا ما دمنا لم نعثر على جواب لهذا السؤال، وما دمنا لم نفسر **صدى** الهفوة ونتيجتها، فستظل هذه الظاهرة مجرد حادثة عارضة من الناحية السيكولوجية، حتى إن وجدنا لها تفسيرا فسيولوجيا، ومن الواضح الجلي أن زلة اللسان التى أتورط فيها، يمكن أن تتخذ أشكالا لا عداد لها، فقد استبدل بالكلمة الصحيحة آلافا غيرها، وقد أحرفها وأمسخها بطرق شتى. ترى هل ثمة أسباب حاسمة تقسرنى على أن أرتكب، فى موقف معين، فلتة خاصة بعينها من بين ذلك القدر الضخم من الفلتات الممكنة، أم أن الأمور تجرى تعسفا واعتباطا، بحيث لا نجد للسؤال الذى طرحناه جوابا معقولا؟.

لقد حاول مرنجر Meringer وماير Mayer (أولهما من فقهاء اللغة والآخر من علماء الطب العقلى) أن يتناولا مشكلة فلتات اللسان من هذه الناحية، وكان ذلك فى عام ١٩٨٥. فجمعا أمثلة وعالجاها أول الأمر من ناحية وصفية محض، فلم يتح لهما هذا الاتجاه، بطبيعة الحال، أى تفسير وإن كان قد هداهما إلى طريق يمكن أن يسلم إلى بعض التفاسير. ثم ميزا بين أنواع مختلفة من التحريف الذى يصيب العبارة المقصودة، فمنها: **القلب**[١] (فى وضع الكلمات أو المقاطع أو الحروف) **والسبق**[٢] **والاستتباع**[٣] **والإدغام**[٤] أو **التضمير**[٥] **والابدال**[٦].. فمن الأمثلة على «القلب» ـ فى وضع الكلمات ـ أن يقول المرء: «على عزم أهل القدر تأتى العزائم» بدل أن يقول: «على قدر أهل العزم...» ومنها تلك الفلتة المعروفة لنادل الفندق الذى طرق باب غرفة يقطنها أحد الأمراء فلما قيل له «من الطارق؟»، أجاب «الأمير، أيها النادل!» أو أن يقول القائل: «استثار فيهم رهبة غائلة بدل أن يقول: «رغبة هائلة»[٧].

ومن أمثلة «السبق» أن يقول الإنسان: «صدرت هذه الفكرة..» بدل أن يقول: «ثقلت هذه الفكرة على صدرى»، وأن يهفو الخطيب فيقول: «تفزعون عند الفزع» بدل أن يقول «تكثرون عند الفزع»[٨]. أما «الاستتباع» فيتضح من تلك الحالة الشهيرة التى

1. Intervhange.
2. Anticipation.
3. Perseveration .
4. Compounfing.
5. Contraction.
6. Subetitution.

(٧)، (٨) أمثلة تبين ما يريده المؤلف على وجه التحديد «المترجم».

قال فيها أحد المدعوين إلى حفل ما، وهو فى معرض كلامه عن تكريم رئيسه: «قدمت لكم أن سرورنا لا يقدر **بفقر** رئيسنا» بدل أن يقول **بفوز** رئيسنا[1]. فورود «قد» مرتين قبل أن ينطق الخطيب بالهفوة استتبع الوقوع فيها.

هذه الطرز الثلاثة من الفلتات ليست على جانب كبير من الذيوع، وأكثر منها تلك الفلتات التى تنجم عن اندماج كلمتين بعضهما فى بعض بعد أن تنضمر كل واحدة منهما، وهذا هو «الإدغام» أو «التضمير»: كما لو تقدم رجل إلى سيدة يريد أن يرافقها فى طريقها فقال لها: «هل تأذنين لى فى أن أراقبك فى الطريق». فهنا حدثت الإدغام بين كلمتين هما **أرافقك وأعاتبك**[2]. (ونذكر بهذا الصدد أن رجلا يخاطب امرأة على هذا النحو لايكون له فى نفسها من الرضا ما يريد). وأما «الإبدال» فمن الأمثلة عليه أن يقال إن فلانا **يغفو** عن كثير من أخطاء مرؤوسيه، بدل أن يقال يعفو، وقد أراد رجل أن يقول إن ابنه محروس هو الذى كسر الإناء فقال: إن الذى كسره هو **محروق**[3].

أما التفسير الذى يحاول هذان الباحثان أن يستخلصاه مما جمعا من أمثلة، فتفسير قاصر على وجه غريب. فهما يريان أن مقاطع الكلمة والأصوات التى تتألف منها تتفاوت أهميتها من حيث فاعليتها العصبية وقوتها. وأن الأصوات ذات الأثر الأكبر قد تتداخل فى أخرى أقل منها أثراً فتظهر عليها. من الواضح أنهما يصدران عن هذه النتيجة من حالات السبق والاستتباع، وهى حالات قليلة الحدوث، على حين أننا لانلاحظ هذه الغلبة التى تكون لبعض الأصوات على بعض - حتى إن وجدت - ولانلمس لها أثرا فى الأنواع الأخرى من الفلتات، فأكثر الفلتات ذيوعا تلك التى يهفو فيها اللسان بكلمة تشبه الكلمة المقصودة، حتى أن كثيراً من الناس يرون فى هذا التشابه تفسيراً كافياً للفلتة، من ذلك أن أستاذاً قال لطلابه وهو يحيى الأستاذ السابق فى المحاضرة الافتتاحية: «لا يسعنى إلا أن أشير إلى **جموده** ففى البحث» بدل أن يقول: «إلى **جهوده** فى البحث»[4].

إن أظهر فلتات اللسان وأكثرها استرعاء للانتباه، تلك التى ينطق فيها المتكلم

---

(١)، (٢) أمثلة تبين ما يريده المؤلف على وجه التحديد «المترجم».
(٣). (٤) أمثلة عربية (المترجم).

بالكلمة المضادة لما يريده تماما، وتلك حالات بعيدة كل البعد عن أن تكون نتيجة لأية علاقات بين الأصوات، أو لأى تخليط يرجع إلى التشابه، فإذا أخرجنا هذين العاملين من حسابنا، صح لنا أن نستأنس بحقيقة معروفة، هى أن الأضداد يقوم بين بعضها وبعض صلات قوية فى الذهن، وأنها وثيقة الارتباط بعضها ببعض من الناحية النفسية، وثم أمثلة مشهورة لما نقول. فقد حدث مرة أن افتتح رئيس مجلس النواب إحدى الجلسات بقوله: «العدد القانونى، فأعلن **انفضاض** الجلسة».

ثم إن أى نوع آخر من أنواع التداعى المألوفة قد يكون له من الأثر الخادع ما لتداعى الأضداد، وقد يؤدى فى بعض الظروف إلى ما تؤدى إليه تلك من عواقب غير مناسبة.. من أمثال ذلك ما يحكى من أن ديبوا ريمون Dubois Reymond الفسيولوجى الشهير كان يتحدث فى حفل أقيم لزواج أحد أولاد هلمهولتز Helmholtz من ابنة سيمنز Siemens المخترع المعروف وأحد كبار رجال الصناعة: وقد اختتم حديثه البارع دون شك بقوله: «أرجو التوفيق للشركة الجديدة بين سيمنز وهالسكة Halske!» وقد كان هذا فى الواقع اسم الشركة القديمة «سيمنز - هالسكه»، والتداعى بين هذين مألوف لكل من يقيم فى برلين.

من أجل هذا لامناص من أن نُدخل تأثير التداعى اللفظى فى حسابنا، كما أدخلنا تأثير التشابه اللفظى والتأثير العصبى للأصوات، وحتى إن فعلنا، فلست أرى فى هذا تفسيراً كافيا.. ذلك أن هناك طرزاً من الفلتات لايمكن تفسيرها تفسيراً سديداً إلا إذا رأينا إلى العبارة التى نطق بها المتكلم أو التى كان يفكر فيها سبقًا. وهنا يؤكد «مرنجر» مرة أخرى أننا بصدد حالات من «الاستتباع»، ولو أنها تنشأ من مصدر بعيد، وعلى هذا يتعين علىّ أن أصرح لكم أنه يلوح لى أننا الآن أبعد عن فهم الفلتات مما كنا عليه من قبل.

على أنى أرجو ألا أكون مخطئا إن زعمت أننا خرجنا من فحص الأمثلة السابقة بانطباع جديد، ربما كان حرياً أن نعيره اهتماماً أكبر، لقد كنا نبحث فى الظروف فى الظروف العامة التى تقع فيها فلتات اللسان، ثم بحثنا فى العوامل التى تعيّن نوع التحريف فيها، لكنا لم نفحص إلى الآن صدى الفلتة نفسه، كموضوع جدير بالاهتمام فى ذاته بغض النظر عن منشأها وأصلها، ولئن فعلنا، رأينا أنفسنا مضطرين أن

نصرح، آخر الأمر، فى جُرأة بأن الفلتة يكون لها فى بعض الأحيان معنى[١]. لكن ماذا يعنى حين نقول إن للفلتة معنى؟ نعنى أن صدى الفلتة قد يكون جديراً بأن ننظر إليه فى ذاته على أنه فعل نفسى[٢] مكتمل يهدف إلى تحقيق غرض خاص به، وعلى أنه مظهر له مضمونه ودلالته، إننا لم نتحدث بعد إلا عن الهفوات، غير أنه يلوح لنا الآن أن الهفوة قد تكون فى بعض الآونة سلوكا يتسم بما يتسم به كل سلوك سوى، إلا أنه زج بنفسه مكان السلوك الذى يتوقعه الفرد أو يقصد إليه.

وقد يبدو المعنى الذى تنطوى عليه الفلتة نفسها واضحًا لا يخطؤه التقدير فى بعض الأحوال فعندما أعلن رئيس مجلس النواب انفضاض الجلسة فى حديثه الافتتاحى، كانت الظروف التى وقعت فيها الفلتة مما يبيح لنا أن نرى فيها معنى، فقد كان الرئيس لايرجو خيراً من هذه الجلسة، وكان يود أن تنفض على الفور، وهنا لايعز علينا أن نكشف عن معنى الفلتة أو تأويل مدلولها، ومن أمثال ذلك أيضًا قول سيدة معروفة بصرامة خلقها وإصرارها: «سأل زوجى الطبيب عن نوع الغذاء الذى ينبغى أن يقدم له، لكن الطبيب أجابه بأنه ليس فى حاجة إلى غذاء خاص، وأنه يستطيع أن يأكل وأن يشرب ما أريد أنا». وهكذا كانت الفلتة إفصاحا ظاهرا لا يخطؤه التقدير عن الخطة التى تنتجها المرأة بإزاء زوجها.

ولنفرض الآن أن ظهر لنا أن المعنى الذى تنطوى عليه فلتات اللسان والهفوات بوجه عام، ليس من حظ حالات معدودة بل من حظ الكثرة الكثيرة منها. عندئذ يصبح معنى الهفوة - ولم نلق له حتى الآن بالا فى بحثنا - المركز الذى نوجه إليه أكبر قسط من اهتمامنا، والجانب الذى تكون له الصدارة على غيره من الجوانب الأخرى جميعًا، وعندئذ يكون فى وسعنا أن نتجاهل كل الظروف الفسيولوجية، وأن نقصر اهتمامنا على البحث السيكولوجى المحض فى **معنى** الهفوات أى عما تنطوى عليه

---

(١) يريد المؤلف أن الفلتة تنطوى على مغزى وقصد (المترجم).

(٢) آثرنا أن نستخدم كلمة «نفسية» ترجمة الكلمة Mental بدل أن نترجمها بكلمة «عقلية» أو «ذهنية» إلا حين يقتضى المقام التخصيص، لما قد تشعر به كلمة «عقلية» من اقتصارها على عمليات التفكير والتدبير، ولما قد تشعر به «ذهنية» من وصف للعمليات الماثلة فى الشعور دون غيرها، أما كلمة «نفسية» فأشمل منهما جميعًا، إذ يقصد بها العمليات الفكرية والوجدانية النزوعية، وكذلك العمليات الشعورية وغير الشعورية (المترجم).

من مغزى وقصد ـ وهكذا يتاح لنا أن نمضى فى بحثنا ننظر فيه من هذه الناحية.

وأود قبل أن أبدأ بهذه، أن أوجه أنظاركم إلى ناحية أخرى، هى أن الشعراء كثيراً ما يستعملون فلتات اللسان وغيرها من الهفوات وسيولة من وسائل التعبير الفنى، وفى هذا وحده ما يدل على أنهم يرون أن للهفوة ـ كفلتة اللسان مثلاً ـ مغزى، لأنهم يصوغونها على قصد، ومن المستبعد أن يزل قلم الشاعر عرضاً وهو يكتب روايته، فيدع هذه الزلة تنطلق فلتة على لسان الشخصية التى يصورها. بل يريد الشاعر أن يستغل الهفوة للإشارة إلى شيء لا يشق علينا أن نفطن إليه ـ كالإشارة إلى أن الشخص الذى يصوره شارد اللب أو متعباً أم أنه يوشك أن تصيبه نوبة صداع، على أننا يجب ألا نغلو بطبيعة الحال، فى أهمية الهفو، إن اصطنعها الشعراء ليعبروا بها عن معان يقصدون إليها؛ فالهفوة قد تكون بالفعل غفلاً من المعنى، فلا تعدو أن تكون عرضاً فى الحياة النفسية أو لا يكون لها معنى إلا فى أحوال طارئة ليس غير، وذلك دون أن ننكر على الشعراء حقهم فى صقلها وتهذيبها بأن يفرغوا عليها من المعانى مايحقق أغراضهم الخاصة، ولا تعجبوا إن ذكرت لكم أن الشعراء يعلموننا عن فلتات اللسان أكثر مما يعلمنا فقهاء اللغة وأطباء العقول.

ففى إحدى روايات شلر وهى (والنشتين Wallenstein) مثال لفلتة من هذا القبيل (بيكولوميني ـ الفصل الأول، المنظر الخامس). ففى المنظر السابق كان بيكولومينى الشاب يدافع دفاعًا حاراً عن قضية الدوق والنشتين، فكان يصف فى حماسة، محاسن السلم ومزاياه وقد فطن إليها خلال رحلة كان يرافق فيها ابنة والنشتين الجميلة إلى المعسكر. ثم يخرج من المسرح تاركا أباه (أكتافيو) ونديم الملك (كوستنبرج) فى دهشة كبيرة، ثم يجرى المنظر الخامس على النحو الآتى:

كوستنبرج ـ تعساً لك! أين نحن يا صديقى؟ أنتركه يذهب بوهمه هذا دون أن نذكره وأن نفتح عينيه من فورنا؟

اكتافيو «وهو ينتزع نفسه من تفكير عميق»: إن عينى مفتوحتان، وما أراه يبعد أن يسرنى.

كوستنبرج ـ ما الأمر يا صديقى؟

اكتافيو ـ لعنت هذه من رحلة!

كوستنبرج ـ ولم هذا ما خطبك؟

اكتافيو ـ تعال يا صديقى! لا مفر من أن أتتبع هذا الأثر المشئوم، الذى أراه بعينى دون إبطاء. تعال معى الآن!

كوستنبرج ـ ما بك؟ وأين تريد أن تذهب؟

اكتافى.و «فى عجلة» ـ إليها، إليها بذاتها!

كوستنبرج ـ إلى..

اكتافيو «متداركا» ـ إلى الدوق ! تعال فلنذهب.

لقد كان اكتافيو يريد أن يقول: «إليه، إلى الدوق»، لكن خانه لسانه (فى نظرنا على الأقل)، فكان فى قوله «**إليها**» ما يميط اللثام عن أنه أدرك فى وضوح أى عامل كان يؤثر فى نفس ذلك المحارب الشاب، وهو يحلم بمحاسن السلم.

وقد وقع أ. رانك O. Rank على مثال أكثر من هذا روعة فى رواية «تاجر البندقية» لشكسبير، وذلك فى المنظر الشهير، الذى كان يتعين على خاطب الفتاة ذى الحظوة أن يختار فيه بين ثلاث علب للحلى. وأرى أن أقرأ عليكم وصف رانك نفسه لهذه الواقعة:

«فى المنظر الثانى من الفصل الثالث من رواية «تاجر البندقية» تقع فلتة من فلتات اللسان على جانب كبير من الدقة واللطف وذلك من حيث الحس الشعورى الذى تفصح عنه، كما أنها على درجة كبيرة من البراعة من حيث الصنعة الفنية وهى ـ كتلك الفلتة فى رواية والنشتين التى يرويها «فرويد» فى كتابه **الظواهر النفسية المرضية فى الحياة اليومية** ـ تبين لنا أن الشعراء يعرفون أن النظارة سيفهمونها أيضًا. فالفتاة بورشيا» Portia التى أراد أبوها أن يختار لها زوجا عن طريق لعبة «الحظ والنصيب» قد نجت بفضل حظها الحسن من كل من لم ترض عنهم من الخطاب. فلما رأت آخر الأمر أن «باسانيو» Bassanio هو الخاطب الذى تميل إليه وترتضيه، خشيت أن يخيب رجاءها فيقع هو الآخر على العلبة غير الموفقة، فودت أن تقول له أن يطمئن إلى حبها له حتى إن وقع هذا. لكن يمينها كانت تمنعها من ذلك. ووسط هذا الصراع النفسى الداخلى، نرى الشاعر يجعلها تقول لخاطبها المختار:

أتوسل إليك أن تصبر يوما أو اثنين قبل أن تجازف، لأنك إن كان اختيارك غير ميمون، فقدت صحبتك، فصابر وتحمل: ثمة شىء يقول لى «لكنه ليس الحب» إنى لن

أفقدك... أستطيع أن أعلمك كيف يكون اختيارك موفقًا ، لكنى أكون إذًا حانثة، ولن أكون كذلك، وهكذا قد لا أكون من حظك، وعندها أظل فى حسرة أنى لم أحنث فى يمينى، تبًا لعينيك، ما لهما أغضيتا عنى فانشطرت شطرين: أحدهما لك والآخر لك. أريد أن أقول لى. لكنه إن كان لى فهو لك أيضاً. وهكذا أكون لك كلى.

«لقد رسم الشاعر فى دقة رائعة وحس سيكولوجى بديع ما كانت تريد پورشيا الإشارة إليه وحده فى حذق ودهاء، لأنها كان ينبغى لها فى الحق أن تخفيه عمن تحب قاطبة، ألا وهو أنها كانت من قبل الاقتراع وأنها كانت تحبه ـ كل هذا صوره الشاعر وعبر عنه فى فلتة لسانها، كما استطاع بهذه الحيلة الفنية أن يخفف عن المحب ما كان يعانيه من شك لا يطاق، وألم يخفف عن السامعين ما هم فيه من ضيق ترقبا لنتيجة الاقتراع».

ولنلاحُظ كذلك كيف استطاعت پورشيا فى آخر كلامها أن توفق بين التصريحين اللذين تنطوى عليهما الفلتة، بأن تزيل ما بينهما من تناقض، بل كيف استطاعت أن تبرر الفلتة نفسها: «لكنه إن كان لى فهو لك أيضًا. وهكذا أكون لك كلى».

لقد اتفق لأحد المفكرين ممن لا صلة لهم بالطب أن لاحظ ملاحظة كشف بها عن مغزى هفوة من الهفوات، فكان بهذا من السابقين لنا فى هذا الميدان: وأخالكم تعرفون جميعا ليشتنبرج Lichenberg (١٧٤٢ – ١٧٩٩) ذلك الساخر المازح الذى قال عنه «جوته» إن كل نكتة من نكاته تخفى فى طياتها مشكلة. لقد كتب ليشتنبرج فى **مذكراته** الساخره الماجنة أن تعمقه قراءة هوميروس أدى به إلى أن يقرأ كلمة Agamemnon [١] كلما التقى بكلمة Angenommen (وهى فعل يونانى معناه يسلم) والحق أنه جمع فى هذا نظرية عثرات القراءة برمتها[٢].

وسنرى فى المحاضرة التالية ما إذا كان نستطيع أن نتفق مع الشعراء فى نظرتهم إلى مغزى الهفوات السيكولوجية.

---

(١) أجاممنون: رئيس الأبطال اليونانيين الذين حاصروا طرواده «المترجم».

(٢) انظر المحاضرة الرابعة. «المترجم».

المحاضرة الثالثة

تابع سيكولوجيا الهفوات

انتهينا من المحاضرة السابقة إلى أن ننظر إلى الهفوة فى ذاتها، لا فى صلتها بالفعل المقصود الذى تداخله وتفسده، فظهر لنا أنها تكشف فى بعض الحالات عن معنى خاص بها. ثم قلنا لأنفسنا: لو صححت هذه النتيجة ـ وهى أن للهفوة معناها الخاص ـ وأمكن إثباتها على نطاق واسع، لكان هذا المعنى خليقا أن يستثير من اهتمامنا ما لا تستثيره الظروف التى تقع فيها الهفوة.

وأرجو أن نتفق ، مرة أخرى، على ما نعنيه حين نتكلم عن «معنى» عملية نفسية، ليس هذا «المعنى» إلا القصد الذى تستهدفه العملية، وموضعها فى سلسلة نفسية متتابعة الحلقات، وقد تسنى لنا فى أغلب الحالات التى فحصناها أن نستبدل بكلمة «المعنى» كلمتى «القصد» أو النزعة»، ونتساءل الآن عما حملنا على الاعتقاد بأن الهفوة تنطوى على قصد: أكان الأمر مجرد مظهر خادع، أم كان من قبيل تهويل الشعراء؟

لو أننا لزمنا فلتات اللسان نستعرض عدداً أكبر من الملاحظات التى تتصل بها، لوجدنا أصنافا برمتها من الحالات يبدو فيها معنى الفلتة ومغزاها فى جلاء ووضوح، خاصة فى الحالات التى ينطبق فيها المتكلم بعكس ما يريد، لقد قال رئيس المجلس فى كلمته الافتتاحية: «أعلن **انفضاض** الجلسة» وهى عبارة لا لبس فيها ولا إبهام. فمعنى هذه الفلتة ومقصدها أنه يريد إنهاء الجلسة، هذا ما قاله المتكلم نفسه، وما علينا إلا أن نأخذه بقوله، وهنا أرجو ألا يقاطعنى أحد فيعترض بأن هذا أمر محال، وبأننا نعرف حق المعرفة أنه كان يريد افتتاح الجلسة لا فضها، وبأنه نفسه ـ مع اعتراف أنه خير من يحكم على قصده ونيته ـ سيؤكد أنه كان يريد افتتاح الجلسة. فلا يعزب عن بالكم، أننا اتفقنا على أن ننظر إلى الهفوة فى ذاتها، أما صلتها بالقصد الذى تفسده، فأمر سنناقشه فيما بعد، ولو فعلتم غير هذا، ارتكبتم خطأ منطقياً يسميه الإنكليز «Begging the Question»[1].

---

(١) هذا ما يسميه مناطقة العرب «المصادرة على المطلوب» وهو التسليم بما يجب البرهنة عليه، وتقرير ما يطلب إثباته عن طريق إضمار النتيجة فى المقدمة «المترجم».

وفي الحالات التى لا ينطق فيها المرء على التحديد بعكس ما يريد، لا تنفك تعبر الفلتة عن معنى مضاد يتعارض مع ما ينبغى أن يقال، ولعلكم على ذكر من ذلك الأستاذ الذى قال فى محاضرته الافتتاحية: «لايسعنى إلا أن أشير إلى **جموده** فى البحث» بدل أن يقول: «إلى **جهوده** فى البحث». فكلمة «جموده ليست على التحديد عكس كلمة «جهوده»، لكن فى القول اعترافًا صريحًا يتعارض تعارضًا صارخًا مع موقف المتكلم وواجبه.

وثمة حالات أخرى لا تعدو فيها الفلتة أن تضيف إلى المعنى المقصود معنى آخر، هنا تبدو العبارة كأنها نجمت عن إدغام أو تضمير أو تكثيف عدة جمل فى واحدة، مثال ذلك تلك الزوجة الصارمة التى قالت عن زوجها: «يستطيع أن يأكل وأن يشرب **ما** أريد» فكأنها بهذا قد قالت: «يستطيع أن يأكل وأن يشرب ما يريد، لكن ماذا يغنيه ما يريد، فأنا التى أختار وأريد» وكثيراً ما تبدو فلتات اللسان فى هذه الصورة من الاختزال، من أمثال ذلك أن أستاذاً للتشريح سأل تلاميذه فى نهاية محاضرة له عن التجاويف الأنفية، عما إذا كانوا قد فهموه، فلما جابوه بالإيجاب جميعًا، أضاف يقول: «لا أكاد أصدق هذا، لأن من يستطيعون فهم التجاويف حق الفهم، يمكن أن يعدوا، حتى فى بلد تعداده مليون نسمة، على **إصبع واحدة**... أعنى على أصابع اليد الواحد». فالجملة المختزلة هنا لها مغزاها الخاص: فهى تعنى أن هناك شخصاً واحداً يفهم الموضوع.

فى مقابل هذه الأنواع من الفلتات التى يتكشف فيها المعنى فى سهولة ووضوح، ثم حالات لاينكشف فيها المعنى عن شيء واضح مفهوم، فتبدو كأنها تتعارض مع مانرجوه ونتوقعه، فالخطأ فى نطق أسماء الأعلام، ونطق أصوات غفل من المدلول، ظواهر مشاعة تجعلنا نتساءل على الفور عما إذا كانت الهفوات جميعها تنطوى على معنى، غير أننا لو فحصنا هذه الحالات عن قرب، لبان لنا أنه من الممكن أن نفهم أمثال هذه التحريفات فى غير عناء. والواقع أن الفرق بين هذه الحالات الغامضة وبين الحالات الواضحة التى ذكرنا من قبل ليس فارقاً كبيراً كما نظن لأول وهلة.

سئل رجل مرة عن حصان مريض له فأجاب: «ربما **يصبعش** شهرا آخر... أم ربما **يعيش** شهرا آخر» . فلما سئل هذه اللفظة الغريبة، قال إن مرض حصانه **مصيبة**

حلت به، فإذا به قد أدغم على الرغم من كلمتى **مصيبة** **ويعيش** معاً، فكانت منهما كلمة **يصبعش** (عن مرنجر وماير)[١].

وبينما كان رجل يروى طرفاً من وقائع بعثت فى نفسه الاشمئزاز والنفور، إذا به يقول: «عندئذ **انكشرت** أمور كثيرة».. وقد فسر فلتته هذه بأنه كان يريد أن يقول إن هذه الأمور **منكرة**. فاندمجت كلمة **انكشفت** **ومنكرة** فنتج عن ذلك تلك اللغة الغريبة (عن مرنجر وماير)[٢].

ولعلكم تذكرون ذلك الشاب الذى أراد أن يرافق سيدة فى طريقها، فقال لها «أتأذنين أن **أراقبك** فى الطريق». وقد أجزنا لأنفسنا أن نحل هذه الكلمة إلى كلمتين هما **أرافق** **وأعاتب**، وكنا على يقين من ذلك التأويل فلم يكون داعياً إلى توكيده[٣]. فأنتم ترون من هذه الأمثلة أننا نستطيع أن نفسر حتى هذه الحالات الغامضة بالتقاء أو بتداخل تعبيرين يفصحان عن قصدين مختلفين. والفارق الوحيد بين هذه الطرز المختلفة من الفلتات، أن القصد فى بعضها، يستبدل به قصد آخر استبدالا كلياً، كما هو الحال حين ينطق الفرد بعكس ما يريد، فى حين لا يفلح القصد، فى حالات أخرى، إلا فى تحريف القصد الآخر أو تحويره، وبذا تصاغ ألفاظ مدغمة تنطوى على قدر كبير أو قليل من المعنى.

على هذا النحو نعتقد أننا كشفنا الغطاء عن سر عدد كبير من فلتات اللسان، فإذا جعلنا هذا ماثلا أمام أعيننا، استطعنا أن نفهم طرزاً أخرى ما برحت حتى الآن لغزا مستغلقا، من تلك مثلا أننا ـ فى حالات تحريف الأسماء ـ لا نستطيع أن نفترض دائما أن الأمر يتلخص فى تعارض بين اسمين متشابهين ومختلفين فى الوقت ذاته، إذ لايشق علينا أن نكشف عن القصد الثانى حتى إن لم يتضح هذا التعارض. فتحريف الأسماء أمر مشاع فى غير نطاق فلتات اللسان، حين يحاول المرء، مثلا، أن يشبه الاسم بشىء يحط من قدره، أو حين يفرغ عليه جرسًا ليقارن بينه وبين شىء غير مستساغ، وهذا لون شائع من ألوان التنابذ، سرعان ما يعرض عنه الشخص المثقف،

---

(١) مثال عربى يشاكل الأصل «المترجم».

(٢) مثال مشتق من العربية «المترجم».

(٣) إن لفظة begleidigen الألمانية يتضح فيها إدغام كلمتى begleiten و begleidigen أكثر مما فى الترجمة «المترجم».

وإن كان لايذره رغبة منه فى كثير من الأحيان، فقد يزجيه في صورة نكتة مسفة مغرقة الإسفاف.

ومن هنا يبدو أننا لا نغلو إذا سلمنا بأن فلتات اللسان تنجم فى كثير من الأحيان عن قصد مشين يلبس لبوس الاسم المحرف، ولو أننا تمشينا مع رأينا هذا، استطعنا أن نفسر به، على هذا النحو، تلك الفلتات التى تبدو ماجنة أو حمقاء، كقول الخطيب فى ذلك الحفل المهيب: «قدمت لكم أن سرورنا لا يقدر بفقد رئيسنا»، فقد بدهت هذه الكلمة الدخيلة الحاضرين وأثارت فى النفوس حالة غير مستساغة تتنافر مع جو الحفل المرح، فلو ذكرنا إلى جنب هذا بعض ما يهفو به اللسان من عبارات لاذعة ممضة، لحق لنا أن نسلم بوجود نزعة تحول أن تفصح عن نفسها فى تناقض صارخ مع الموقف الجدى الذى يبدو فيه المتكلم، كأن المتكلم، فى باطن الأمر وحقيقته، يريد أن يقول: «لاتصدقوا ما أقول، فأنا لست جاداً فيه، وليذهب صاحبنا إلى جهنم!». كذلك الحال فى فلتات اللسان التى تستحيل بها الألفاظ البريئة المساغة إلى أخرى مستكرهة بذيئة.

هذه النزعة إلى التحرى أو بالأصح إلى المسخ والتحريف نلحظها عند من يقلبون الكلم البرىء إلى كلم بذىء عن قصد، طلباً للمداعبة والتندر، فيرسلونه على سبيل النكتة، والواقع أننا حين نستمع إلى أمثال هذه النكات، لاندرى أيقصد بها إلى الدعابة، أم أنها وقعت من غير قصد، فلتة من فلتات اللسان.

يلوح لنا الآن أننا استطعنا أن نحل لغز الهفوات فى غير عناء كبير! فليست الهفوات وليدة المصادفة، بل أفعال نفسية جدية لها مغزاها، وتنجم عن تضافر قصدين مختلفين، أو على الأصح عن تعارضهما، غير أنى ألمح على وجوهكم فيضا من الأسئلة والشكوك تريدون أن تلتمسوا لها أجوبة وحلولا قبل أن يتاح لكم أن تبتهجوا بباكورة جهودنا هذه، ولست أريد البتة أن أفرض عليكم أية نتائج مبتسرة متعجلة، فلنناقش كل شىء بدوره وفى تأن وهدوء.

وماذا عساكم أن تسألوا؟ عما إذا كنت أرى صلاحية هذا التفسير لكل فلتات اللسان، أم أنه ينسحب على طائفة منها ليست غير؟ وعما إذا كان من الممكن أن تستوعب هذه النظرة شتى أنواع الهفوات الأخرى، كزلات القلم وعثرات القراءة والخطأ فى تنفيذ بعض الأفعال، والنسيان، واستحالة العثور على أشياء حفظها الإنسان

من قبل، وغير تلك؟ وما الدور الذى يقوم به التعب وشرود الذهن والاهتياج وتشتت الانتباه حيال الطبيعة النفسية للهفوات؟ وقد تزيدون على هذا فتقولون إن أحد المعنيين المتنافسين فى الهفوة يكون ظاهراً جلياً على الدوام على خلاف الآخر، فكيف السبيل إلى إظهار المعنى الخبيء؟ وإذا اعتددنا أننا أفلحنا فى الكشف عن هذا المعنى، فما الدليل على أنه المعنى الحقيقى الوحيد وليس مجرد احتمال؟

هذا ما عساكم أن تسألوا عنه، ولئن كان هذا كل ما لديكم، فسأزيد عليه أسئلة من عندى، وأود أن أذكركم أننا لا نهتم فى الواقع بالهفوات من حيث هى، بل نريد أن ننتزع من دراستها نتائج ذات قيمة من وجهة نظر التحليل النفسى.. لذا سأطرح عليكم السؤال الآتى: ما تلك الأغراض أو النزعات التى تتدخل على هذا فى شئون نزعات ومقاصد أخرى؟ وما الصلة بين النزعة الدخيلة والنزعة الأصيلة؟ وعلى هذا النحو نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نستأنف جهودنا من جديد، بعد أن وقفنا على حل للمشكلة.

ترى هل يصدق التفسير الذى قدمناه على كل حالة من فلتات اللسان؟

أرانى أميل كل الميل إلى الاعتقاد بهذا، فنحن نلتقى بهذا التفسير فى كل حالة نفحص فيها فلتة لسان، غير أننا لانستطيع أن نقيم الدليل على أن ليس ثمة فلتات تحدث عن طريق عمليات أخرى، حتى إن كان الأمر كذلك، فتلك مسألة لا تعنينا من الناحية النظرية، لأن النتائج التى نريد أن نظفر بها تمهيداً للتحليل النفسى تبقى صحيحة صادقة حتى إن لم ينتظم تفسيرنا إلا نسبة ضئيلة من فلتات اللسان كافة، وهذا غير الواقع على وجه التحقيق، أما سؤالكم الثانى عما إذا كان هذا التفسير ينسحب على الأنواع الأخرى حين نضطلع بفحص أمثلة من زلات القلم والخطأ فى تنفيذ الأعمال وغير تلك . على أنى أقترح إرجاء هذا، لأسباب تتعلق بخطة البحث، حتى ننتهى من تمحيص فلتات اللسان وتعمق دراستها.

نعرض بعد هذا للدور الذى تقوم به العوام التى يضعها بعض الباحثين فى المقام الأول ـ كاضطرابات الدورة الدموية والتعب والاهتياج وشرود الذهن واضطراب الانتباه ـ إزاء العملية النفسية التى نفترضها تفسيراً للهفوات. وتلك مسألة جديرة بفحص مسهب مستفيض، فاذكروا أننا لا ننكر أثر هذه العوامل بحال، والحق أن التحليل النفسى، فى أغلب أمره، لاينكر شيئا فى ميادين أخرى من البحث، وأنه بوجه

عام لا يصنع أكثر من أن يضيف شيئا جدياً إلى ما سبق أن قيل، بل قد يحدث أحيانا أن ما تغفل عنه الميادين الأخرى فيضيفه التحليل النفسى يكون بالفعل أهم ما فى الموضوع وأمسه بصميمه، ولا مفر من أن نعترف دون تحفظ أو احتياط، بتأثير أمثال هذه الحالات الفسيولوجية التى تنشأ من المرض الطفيف أو اضطرابات الدورة وحالات التعب والإعياء، فخبراتنا الشخصية فى كل يوم تعزز وجود هذا التأثير، غير أنه تفسير لايغنى إلا فى القليل النادر من الأحوال، فهذه الحالات الفسيولوجية ليست، قبل كل شىء، شروطا ضرورية لحدوث الهفوات؛ إذ إن فلتات اللسان تحدث أيضاً فى تمام الصحة، وفى ظروف سوية لا أقر فيها للمرض أو للاضطراب، وما تلك الحالات الجسيمة إلا عوامل مساعدة لا تعدو أن تيسر وأن تعزز الإجراء النفسى الخاص الذى يحدث الفلتة.

وأذكر بهذا الصدد أنى مثّلت لهذه الحال بتشبيه أعيده الآن فلم أجد خيراً منه، سأفترض أنى بينما كانت أسير ليلا فى مكان موحش، إذ هاجمنى قاطع طريق سلبنى نقودى وساعتى، ولم أتبين وجهه بوضوح، فذهبت إلى المخفر فقلت لهم: «لقد سلبنى الظلام والوحدة منذ لحظة ما معى». عندئذ قد يجيبنى الضابط بقول: «يبدو أنك مولع بتفسير الحقائق تفسيرا ميكانيكيًّا مفرطا، ولو أنك عرضت الموقف بالصورة الآتية فقلت : اجترأ أحد اللصوص على أن يسرق متاعى لأن الظلام يحميه والوحدة تشجعه، لو عرضت شكواك على هذا النحو، لكان بيت القصيد عندى هو البحث عن السارق، ولعلنا نستطيع حينئذ أن نسترد منه ما سلبك إياه».

يتضح من هذه أن العوامل السيكوفسيولوجية كشرود الذهن والغفلة والاهتياج لاتستقيم تفسيرا للهفوات إلا على قلة وندور، فما هى إلا غلالات يجب ألا تحجب عنا رؤية ما وراءها، والأجدر أن نتساءل عن سبب الاهتياج أو الشرود فى الحالة الخاصة التى نكون بإزائها. كما يجب ألا ننكر ما لجرس الألفاظ وما بينها من تشابه وما للأنواع المألوفة من التداعى اللفظى من خطر وتأثير، فهذه العوامل كلها تيسر حدوث فلتة اللسان إذ تشير عليها بالطريق الذى يمكن أن تتخذه .

لكن أيكفى أن يكون أمامى طريق ليتعين علىّ حتما أن أسير فيه؟ لابد إلى هذا من دافع يحملنى على التصميم، ومن قوة تحفزنى على المضى، فهذه الأوجه من التشابه اللفظى والتداعى اللفظى ليست ـ شأنها فى ذلك شأن الحالات الجسمية ـ إلا الأسباب التى تسهل ظهور الفلتات، دون أن تفسرها تفسيراً حقيقيا، وحسبكم أن تتأملوا

ذلك القدر الضخم من الحالات التى تعرض فى حديثى، والتى يتشابه فيها جرس الألفاظ التى استخدمها أو التى ترتبط فيها ألفاظى بأضدادها ترابطاً وثيقا، أو تلك التى تستدعى فيها الألفاظ أعدالها المألوفة، ثم لايزال لسانى، على الرغم من هذا كله، ولنشر آخر الأمر إلى ذلك الفرض الذى ذهب إليه الفيلسوف «فنت» Wundt[1] وفحواه أن الإنسان يتورط فى فلتة اللسان متى تغلبت النزعة إلى التداعى اللفظى على قصده الأصلى من جراء تعب جسمى. وهو فرض مقبول فى ظاهره لولا أن التجربة تنقضه، فهى ترينا أن الفرد يزل لسانه فى حالات لايكون فيها للعوامل الجسيمة المهيئة أثر ما، وفى حالات أخرى كثيرة لايكون فيها التداعى مسئولا بأية حال.

أما سؤالكم الآخر عن الوسيلة التى نتحقق بها وجود النزعتين المتداخلتين، فهو سؤال يعنينى بوجه خاص. وأكبر الظن أنكم لاترون إلى ما ينطوى عليه من عواقب جسيمة هائلة، فأما أولى النزعتين وهى النزعة التى يدخل عليها، فلا يمكن أن يكون ثمة شك فى أمرها، إذ إن من يرتكب الفلتة يعرفها ويعترف بها، وأما النزعة الأخرى، وهى النزعة الدخيلة، فهى وحدها التى تستثير الشك وتستدعى التردد.

وقد أسلفت لكم وأنا موقن الظن أنكم لم تنسوا بعد، أن هذه النزعة الدخيلة تكون هى الأخرى ظاهرة واضحة فى حالات معينة، فهى تبدو واضحة فى عاقبة الفلتة وصداها، متى كانت لدينا الجرأة على أن نواجه هذه العاقبة فى ذاتها وأن نجعل الفلتة تتكلم عن نفسها، فمن الواضح أن رئيس المجلس الذى قال عكس ما يقصد إليه؛ كان يريد افتتاح الجلسة، غير أنه من الواضح أيضاً أنه كان يريد انقضاض الجلسة وهذا بين لا يحتاج إلى تفسير، أما فى الحالات التى لا تعدو فيها النزعة الدخيلة أن تحرف النزعة الأصيلة، دون أن تفصح عن نفسها إفصاحا تاما، فكيف السبيل إلى انتزاعها والكشف عنها من ثنايا هذا التحريف؟

نستطيع فى طائفة من الحالات أن نظفر بتلك الدخيلة بطريقة محققة جد بسيطة، هى عين الطريق التى تنكشف بها النزعة الأصيلة، فنحن نعرفها من فم المتكلم حين يسارع إلى النطق بالكلمة الصائبة بعد أن يتورط فى الفلتة مباشرة كما فى المثال الذى أسلفنا ـ «ربما **بصيعش** شهرا آخر... لا، ربما **يعيش** شهرا آخر». فقد سئل الرجل عما

---

[1] (١) أول من أنشأ معملا لعلم النفس التجريبى، وكان ذلك فى جامعة ليبزج بألمانيا عام ١٨٧٩ «المترجم».

دعاه إلى استعمال كلمة «يعيش»، فقال إنه كان يريد أن يقول: «إن مرض حصانى مصيبة حلت بى». كذلك الحال فى المثال الآخر: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة» فقد أجاب الرجل بأنه كان يريد أن يقول أصلا إنها أشياء «منكرة» لكنه أمسك عن هذا واستعاض عنه بتعبير آخر، وهكذا يمكن تعيين النزعة الدخيلة بالتحديد كما تعين النزعة الأصيلة، ولأمر ما قد اختيرت عن عمد، أمثلة من حالات لا يعزى مصدرها ولاتفسيرها إلىّ ولا إلى أحد من أنصارى، ومع هذا فقد اقتضى تفسير الفلتة فى كلتا الحالتين أن يتدخل الباحث فيسأل المتكلم عن السبب فى عثرة لسانه، وعما يستطيع أن يقول وأن يفسر به ما حدث. فبغير هذا قد يمر المتكلم على زلة لسانه دون أن يلتمس لها تفسيراً، لكنه لما سئل فيها فسرها بأول خاطر طرأ على باله - إن هذا التدخل البسيط وما أدى إليه من نتيجة، هو التحليل النفسى، هو صورة مصغرة لكل بحث تحليلى نفسى قد نضطلع به فيما بعد.

والآن هل أكون مسرفا فى الريبة إن زعمت أنكم ستقومون على التو بمناهضة التحليل النفسى فى اللحظة نفسها التى أطالعكم به فيها؟

ألستم تواقين إلى أن تعترضوا بأن المعلومات التى يدلى بها من تورط فى الفلتة، ليست دليلا يجوز الاعتماد عليه كل الاعتماد؟ بل قد تظنون أنه يود بطبيعة الحال، أن يستجيب لنداء من يطلب إليه تفسير فلتته، فيقول أول شيء يخطر له، إن بدا له أنه يغنى فى التفسير المطلوب، وهذا كله لايستقيم فى نظركم دليلا على أن الفلتة تنطوى على المغزى الذى يعزى إليها بالفعل، إذ من الجائز أن يكون لها هذا المغزى، ومن الجائز أيضًا أن يكون لها مغزى غيره، أليس من الممكن أن تخطر له فكرة أخرى تصلح لتفسير صلاحية الفكرة الأولى أو تكون أصلح منها؟

مما أعجب له حق العجب أنكم لا تحملون للوقائع النفسية فى قلوبكم إلا قدراً قليلا من الاحترام والتقدير! لو أن كيميائيا قام بتحليل مادة معينة، فوجد بها عنصرا له وزن معين، ملليجرامات معدودة، فاتخذ هذا الوزن أساسًا استخلص منه نتائج معينة محدودة، أكان لكم أن تتصوروا أن يقوم كيميائى آخر بنقض هذه النتائج بحجة أنه من الجائز أن يكون للمادة المعزولة وزن آخر أيضاً؟.

أم يتقبل كل إنسان هذه الوقعة، ويؤمن بأن ذلك الوزن هو الوزن الحقيقى، ثم يستند إلى هذه الواقعة دون تردد، ليصل إلى نتائج أخرى، لكنا إذا كنا إزاء واقعة نفسية

قوامها فكرة معينة طرأت على ذهن شخص يسأل، لم نُطبق القاعدة نفسها بل قلنا من الجائز أن تطرأ على ذهنه فكرة أخرى! الحق أنكم تتوهمون وجود حرية نفسية[١]، ولا تودون أن تهجروا هذا الوهم وأن تتخلوا عنه، وإنى آسف إذ لا أملك أن أشاطركم رأيكم هذا، بل أخالف عنه كل المخالفة.

قد تسلمون بهذه النقطة، لكن لتستأنفوا اعتراضكم على نقطة أخرى، فتقولون «نحن نعلم أن الخطة الخاصة للتحليل النفسى تتلخص فى أن يُنتزع من فم الشخص المحلل نفسه حل المشكلات التى يتناولها التحليل، فلنأخذ مثلا آخر، ذلك الذى يذكر فيه خطيب الحفل أن «سرورنا لا يقدر (بفقر) رئيسنا»، إنك تقول إن النزعة الدخيلة فى هذه الحالة هى السخرية أو العدوان، وقد قامت تناصب القصد من الترحيب والتكريم، لكن هذا لايعدو أن يكون تأويلا شخصيا من جانبك قام على ملاحظات مستقلة عن الفلتة خارجة عنها، ولو قد سألت مرتكب الفلتة، لم يؤيد رأيك البتة، بل أنكر ما تدعيه عليه من السخرية أو العدوان بكل ما لديه من قوة، إذاً فلم لا تذر تأويلك الذى لاينهض على دليل إزاء هذا الإنكار الذى لا يُنْقَض؟».

ها أنتم أولاء قد رفعتم هذه المرة على حجة ذات وزن، وها أنا ذا أتصور ذلك الخطيب المجهور، وأكبر الظن أنه مساعد للرئيس المكرم، وربما كان محاضراً ناشئا وشابا ذا مستقبل زاهر، وسأسأله فى إلحاح عما إذا كان لم يشعر فى أعماق نفسه بشىء من المقاومة حين طلب إليه أن يقول كلمة ترحيب وتكريم لرئيسه، لكن ها هو ذا يرد على صاخباً غاضباً، فينفجر قائلا: «أرجو أن تكف عن استجوابك هذا، وإلا استعديت عليكم، إن شبهاتك هذه خليقة أن تحطم عملى وتضر بمهنتى، لقد نطقت بكلمة **فقر** بدلا من **فوز** لأنى ذكرت قبلها **فر** مرتين فى عباراتى هذه. وهذا كل ما فى الأمر. وهذا ما يسميه «ميرنجر» Meringer بالاستتباع، فلا داعى لاغتصاب تأويل آخر، أفهمنى؟ وحسبك ما ذكرت لك!» الحق أنه رد عنيف وإنكار أعنف، ولست أجد شيئا آخر أستطيع أن أنتزعه من هذا الشاب، لكنى أعتقد أنه يحرص الحرص كله على ألا

---

(١) يصرح فرويد بأن النشاط لنفسى يخضع لحتمية سيكولوجية، فليس فى العالم النفسى مجال للمصادفة الطارئة، ومن ثم فكل ما يصدر عن الفرد من سلوك إنما هو منحتم مقدر بما سبق أن خبره فى أطوار حياته «المترجم».

يَخلع على فلتة لسانه معنى من المعانى، وقد ترون أنه اشتط فكان فظاً غليظاً مع أن الأمر لا يعدو أن يكون بحثا نظريا خالصًا، لكنكم قد تقولون آخر الأمر، أنه لا بد يعرف ما يريد أن يقول وما لا يريد.

أفكذلك هو؟ هذا ما نريد أن نتحققه بعد.

أخالكم تظنون الآن أنكم أوقعتمونى فى شرك، وكأنى بكم تقولون: «تلك إذاً خطتك، كلما تورط شخص فى فلتة فقدم لك تفسيراً يتماشى مع آرائك، أعلنت أنه الحجة الأخيرة فى الموضوع، وأنه ليقول نفسه بهذا، فإن لم يقل شيئا يطابق رسالتك، فسرعان ما تدعى أن تفسيره لا وزن له ولا قيمة، وليس من داع للأخذ به».

هذا حق لاريب فيه، غير إنى أستطيع أن أسوق إليكم مثالا آخر تجرى فيه الأمور على هذا النحو الشاذ الغريب، ذلك أن المتهم إن اعترف بما فعل صدقه القاضى، لكنه إن أنكر لم يصدقه القاضى، ولو جرت الأمور على غير هذا، ما استقام القضاء، بل نحن مضطرون إلى الأخذ بهذا النظام، على الرغم مما يتورط فيه من أخطاء عارضة.

«ولكن هل أنت قاض، وهل من يقع فى فلتة لسان متهم فى نظرك؟ وهل فلتة اللسان جريمة؟» ـ تشبيه بعيد، وربما كان من الخير أن تحتفظ به وألا نعرض عنه، لكن رأيتم إلى هذه الفوارق البعيدة التى تبدو وتتضح كلما تعمقنا بحث هذه لمشكلات البريئة فى ظاهرها، التى تستثيرها الهفوات، وإنها لفوارق لا نستطيع فى هذه المرحلة من البحث أن نوفق بين بعضها وبعض، فاقترح أن نصطلح على حل وسط مؤقت أساسه هذا التشبيه بالقاضى والمتهم ـ على حلٍ تسلمون فيه لىّ بأن مغزى الهفوة فى منأى عن أية شبهة، متى اعترف به الشخص المحلل نفسه، وفى مقابل هذا، أسلم لكم بأنه لايمكن الظفر بدليل مباشر عن المغزى الذى يشتبه فيه، متى رفض المحلّل الإدلاء بأية معلومات، أو متى كان غائبا بطبيعة الحال.

وبذا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن تقنع ـ كما هى الحال فى التحقيق القضائى ـ بعلائم وأمارات للبت فى الموضوع يختلف صدقها ورجحانها باختلاف الظروف . غير أن المحاكم ـ لاعتبارات عملية ـ يتعين عليها أن تدين المتهم أيضاً على أساس من القرائن والأدلة القائمة على الاستنتاج، ومع أننا لسنا فى حاجة إلى هذا، إلا أننا يجب ألا نعرض عن النظر فى مثل هذه الأدلة واستغلالها، فمن الخطل أن نعتقد أن العلم لايتألف إلا من قضايا أحكم برهانها إحكاما صارمًا، ومن غير الإنصاف أن نتطلب

منه أن يكون كذلك. فهذا مطلب لايلتمسه إلا من يشعرون برغبة فى النفوذ والتسلط على وجه من الوجوه، ومن يشعرون بحاجة إلى الاستعاضة عن التعاليم الدينية بأخرى، وإن كانت تعاليم علمية فتعاليم العلم لا تنطوى إلا على قليل من القضايا والمبادئ الثابتة المقررة التى لا تقبل الجدل والاعتراض، وأغلب ما يقرره وما يثبته ، على درجات متفاوتة من الاحتمال والرجحان، ومن أمارات العقل العلمى قدرته على أن يقنع بما يقارب اليقين، وقدرته على القيام بعمل إنشائى والمضى فيه، حتى إن أعوزته الأدلة النهائية.

فإن لم نستطع أن نظفر بمعلومات تفسر مغزى الهفوة من فم الشخص المجلل نفسه، فأنى لنا أن نقع على ركائز تستند إليها تفاسيرنا، وأدلة يرتكز عليها برهاننا؟ لدينا مصادر شتى لذلك، أولها مقارنة الهفوة بظواهر مشابهة لها لا تنجم عن خطأ، كما هى الحال مثلا عندما نقرر أن تحريف اسم من الأسماء زللا، ينطوى على القصد الساخر نفسه الذى ينطوى عليه التحريف المتعمد لهذا الاسم، كما نستطيع أن نظفر بعلائم وركائز من الموقف النفسى الذى وقعت فيه الهفوة ، ومن معرفتنا بخلق الشخص الذى تورط فيها، ومن المشاعر التى تكتنفه قبل أن نقع على مغزى الهفوة، فى أول الأمر، تبعاً لمبادئ وقواعد عامة، وما نصل إليه بهذه الطريقة ليس إلا مجرد تخمين وافتراض نعمل على تأييده وتوكيده فيما بعد بفحص الموقف النفسى، وقد تضطر أحياناً، لتوكيد ما افترضه، إلى أن نرقب، وقائع معينة، كأن الهفوة تنبئ بها وتعلن عنها.

ليس من اليسير أن أقدم الدليل على ما أقول، إن قصرت بحثى على فلتات اللسان وحدها، ولو أنى لا أعدم بضعة أمثلة جيدة أسوقها حتى من هذاالمجال نفسه. فالشاب الذى أراد أن يرافق السيدة فقال لها هل تأذنين أن «أراقبك»، هو فى الحقيقة شاب جد خجول، والزوجة التى يجب أن يأكل زوجها وأن يشرب ما تريده هى، أعرف أنها من ذلك الطراز الذى يسيطر على البيت بعصا من حديد. وإليكم مثلا آخر: بينما كان شاب يخطب فى اجتماع عام لجمعية من الجمعيات، وقد اندفع يهاجم ويعارض فى عنف شديد، إذا به يخاطب الأعضاء بقوله «من **يعبرون** الجمعية» بدل من أن يقول «من **يديرون** الجمعية»[١].

---

(١) مثال عربى صيغ على غرار الأصل «المترجم».

ومن الممكن أن نفترض هنا أن هجومه العنيف قد اصطدم بنزعة دخيلة فعالة تتصل فى نفسه بفكرة الإعارة، الحق أننا علمنا من بعض من يعرفونه أنه فى حاجة موصولة إلى افتراض المال، وأنه يسعى بالفعل إلى استعارة شيء منه فى الموقف الحاضر، ومن هنا نستطيع أن نترجم النزعة الدخيلة إلى الفكرة الآتية: «خير لك أن تكون معتدلا فى معارضتك وهجومك، فأنت تخاطب من تريد أن يعيروك ما طلبت».

ولو سمحت لنفسى اسم شخص آخر يعرفه، أو حين يشق عليه أن يحتفظ به فى ذاكرته، حتى أن بذل فى ذلك جهده، فنحن فى حل من أن نظن أنه يحمل لصاحب الاسم شيئا فى نفسه، فهو لا يحب أن يفكر فيه، ولننظر فى الأمثلة الآتية على ضوء هذا، فهى تتناول الموقف النفسى الذى حدثت فيه هفوات من هذا النوع:

«أحب السيد س سيدة لم تبادله حبه، ثم تزوجت من ص، ومع أن السيد س يعرف ص من زمن طويل، بل ويتصل به فى أعمال تجارية، فهو ينسى اسمه أبداً، حتى أنه ليضطر إلى أن يطلبه من أشخاص آخرين كلما أراد الكتابة إليه[١]».

من الواضح هنا أن السيد س لا يود أن يعرف شيئاً عن غريمه السعيد.

مثال آخر: استخبرت سيدة من طبيبها عن سيدة أخرى يعرفانها سويا، وكانت فى استخبارها هذا تسمى الأخرى باسم أسرتها، فقد نسيت الاسم الذى تحمله منذ زواجها نسياناً تاماً، ولما سئلت فى هذا، صرحت بأنها باخعة نفسها على زواج صديقتها، وأنها تكره الزوج كرهاً شديداً[٢].

وسنشيع القول فيما بعد عن نسيان الأسماء، أما الآن فالذى يعنينا بوجه خاص هو «الموقف النفسى» الذى يقع فيه النسيان.

إن نسيان تنفيذ القررات والمشروعات يمكن أن يعزى بوجه عام إلى دافع مضاد يتعارض مع تنفيذ القرار أو المشروع، وليس هذا رأى أصحاب التحليل النفسى وحدهم، بل رأى كافة الناس أيضاً، فهو رأى يسلم به كل إنسان فى حياته اليومية الجارية، وإن كان ينكره من الناحية النظرية، فالمرؤوس الذى يطلب إلى رئيسه قضاء حاجة له،

---

(١) عن يونج Jung.

(٢) عن بريل Brill.

فيعتذر الرئيس بالنسيان، لا يغنيه اعتذار رئيسه شيئا، بل يقول لنفسه من فوره، «هذا أمر لا يعنيه بطبيعة الحال، لقد وعد لكنه لم يقصد إلى أن ينجز ما وعد»، لذا كان النسيان من الأمور التى يؤاخذ عليها فى بعض مواقف الحياة وظروفها، ويبدو أن الفارق بين نظرة الناس ونظرة التحليل النفسى إلى هذه الهفوات قد أمحى وزال، تصوروا ربة بيت استقبلت ضيفا لها بالعبارات الآتية:

«ما هذا؟ هل هذا يوم زيارتك؟ لقد أنسيت نسياناً تاما أنى دعوتك لهذا اليوم» أو تصوروا شابا عليه أن يعترف للفتاة التى يحبها أنه نسى كل شىء يتصل بالموعد الذى اتفقا عليه فى آخر لقاء لهما، تروه لا يجرؤ على الاعتراف السافر الصريح، بل يختلق من فوره أبعد الموانع احتمالا مما حال دون حضوره ودون اتصاله بها من ذلك الحين إلى اليوم، وكلنا يعرف أن الاعتذار بالنسيان فى الحياة العسكرية لا يغنى فتيلا ولا يعفى صاحبه من العقاب، ومع هذا فنحن نجد هذا النظام ما يبرره، لأننا نعرف أن لبعض الهفوات فى الحياة العسكرية دلالة ومعنى، ونعرف ما هو هذا المعنى فى أغلب الأحوال، ترى لم لا نلزم جانب المنطق فننظر إلى الهفوات الأخرى نظرتنا هذه، ونعترف بذلك فى صراحة ودون قيد، لابد أن يكون لهذا السؤال جواب بطبيعة الحال.

لئن كان المعنى[1] الذى ينطوى عليه نسيان تنفيذ الأمور المقصودة شيئاً محققاً لايرتاب فيه حتى عامة الناس، فليس بدعا أن نرى الكتاب يصطنعون أمثال هذه الهفوات للغرض ذاته: ومن قرأ منكم أو رأى رواية شو Shaw عن **قيصر وكليوباترة** يذكرون دون ريب أن يتذكره، ثم يتضح آخر الأمر أن هذا الشيء هو تحية كليوباترة تحية الوداع، فقد أراد المؤلف بهذه الحيلة البسيطة أن ينسب إلى قيصر العظيم شعورا بالتعاظم والتعالى لم يكن من خلق قيصر ولم يكن يرنو إليه قط، ولعلكم تعرفون من التاريخ أن قيصر استدعى كليوباترة إلى روما حيث عاشت مع قيصرونها الصغير حتى قتل قيصر ثم ولت عن المدينة.

إن نسيان تنفيذ القرارات والتصميمات تكون حالاته فى العادة واضحة جلية بحيث لا تغنى فيما نهدف إليه، وهو استنتاج أمارات وأدلة على معنى الهفوة من

---

(١) يلاحظ أننا نستخدم كلمة «المعنى» على أنها مرادفة «للمغزى» و«للقصد» وهذا ما أراد إليه المؤلف «المترجم».

الموقف النفسى، لذا سنعالج فرعا آخر من الهفوات يعوزه الوضوح ويكتنفه اللبس والإبهام بوجه خاص، ذلك هو «ضياع الأشياء» و«استحالة العثور عليها». من المحقق أنكم هيهات أن تصدقوا أن ضياع الأشياء ينطوى على قصد وغرض، فهو مما نضيق به ونألم له في أغلب الأحوال..

لكن هناك أمثلة لا عداد لها تقوم شواهد على ما أقول، منها أن شابا فقد قلما عزيزا عليه، وكان قد تسلم ، قبل هذا بأيام، خطابا من زوج أخته يختتم بالعبارة الآتية: «ليس فى الوقت الحاضر فسحة أو ميل فأشجعك على بلادتك واستهتارك»(١). لقد كان القلم هدية من زوج أخته هذا، وليس فى وسعنا بطبيعة الحال أن نؤكد - من دون هذا الاتفاق بين تسلم الخطاب المؤلم وفقدان القلم - أن هذا الضياع يتضمن أى قدر للتخلص من الهدية، على أن أمثال هذه الحالة شائعة كثيرة التواتر، فنحن نفقد الأشياء متى اختلفنا وتخاصمنا مع من قدموها إلينا، فلا نريد أن نذكرهم أو أن نفكر فيهم بعد. كما نفقدها أن مللناها فالتمسنا عذراً لكى نستبدل بها خيرةً منها، يضاف إلى هذا أن كسر الأشياء وإسقاطها وإتلافها يؤدى أغراضا شبيهة بالأغراض السابقة بطبيعة الحال. أنستطيع أن نقول إن التلميذ الذى يضيع أو يتلف شيئا مما يستعمله كل يوم، كساعته أو حافة كتبه مثلا، فى أمسية عيد ميلاده تحديدا، أنستطيع أن نقول إن هذا من فعل المصادفة المحضة ليس غير؟.

لاشك أنه يعز على من يضيق صدره لفرط ما يضيع من أشياء حفظها بنفسه أن يعتقد أن هذه الظاهرة تنطوى على قصد منه أيا كان هذا القصد، ومع هذا فثمة حالات عدة تشير الظروف المصاحبة لهذا النسيان فيها إلى ميل لنبذ الشيء المفقود أبداً أو إلى حين . وربما كانت الحالة الآتية خير مثال عرف أو نشر عن هذه الظاهرة حتى اليوم:

قص عليٍّ شاب القصة التالية: «لقد دب سوء التفاهم بينى وبين زوجتى منذ بضعة أعوام، وكنت أقدر أنها فاترة باردة أكثر مما يجب. ومع أننا كنا نعيش جنبا إلى جنب دون ودٍ مشبوب، إلا أنى كنت أعترف بما لها من صفات ممتازة. وإذ أنا عائد ذات يوم من نزهة لى، إذا بى أجدها قد اشترت لى كتابا حسبت أنه يشوقنى، فشكرتها على اهتمامها ووددتها أن أقر الكتاب، ثم وضعته بين متاعى ولم أستطع أن أعثر عليه

---

(١) من داتنر Dattner.

بعد هذا قطعا، ومرت أشهر ذكرت فيها الكتاب المفقود مرات عدة، وحاولت العثور عليه فى غير طائل، وبعد ستة أشهر من هذا، مرضت والدتى وكنت أحبها كثيراً فسارعت زوجتى إلى السفر إليها لتمريضها والعناية بأمرها، ثم اشتد المرض بوالدتى، فأتيح لزوجتى أن تظهر ما لديها من صفات راضية ممتازة، وقد عدت إلى منزلى مساء يوم وأنا ممتلئ غبطة واعترافا بجميل زوجتى لما أسدته من خير كثير، فجلست إلى مكتبى ثم رأيتنى أفتح درجا دون قصد معين منى لكن فى وثوق تام، فكان أول شيد يثب إلى عينى ذلك الكتاب المفقود الذى طالما افتقدته فلم أجده».

وهكذا ظهر المفقود باختفاء الدافع.

فى وسعى أن أكثر من هذه الأمثلة إلا ما لا حد له، لكن لن أفعل ذلك الآن. وللمستزيد أن يرجع إلى كتابى «الظواهر النفسية المرضية فى الحياة اليومية» (وقد طبع بالألمانية أول مرة عام ١٩٠١) ففيه فيض من الأمثلة يعين على دراسة الهفوات(١)». وهى أمثلة تتمخض جميعها عن نتيجة واحدة بعينها، هى أن للهفوات مغزى، كما أنها تبين كيف يمكن حدس هذا المغزى أو القطع به من الظروف المصاحبة للهفوة، ولا أطيل عليكم اليوم فنحن لا ندرس هذه الظواهر إلا لتكون تمهيداً للتحليل النفسى المتكررة والمتجمعة، وأخرى يتأكد بها التفسير الذى نقدمه عن طريق أحداث تحصل بعد وقوع الهفوة.

أما الهفوات المتكررة والمتجمعة فهى على وجه التحقيق أجمل طراز من طرز الهفوات جميعا، ولو كان هدفنا مقصورا على أن نبين للهفوات دلالة ومغزى، لوقفنا أنفسنا من أول الأمر على هذا الطراز من الهفوات وحده، ذلك أن المغزى الذى تتضمنه على درجة من الوضوح والجلاء بحيث لاتخطؤه أشد العقول بلادة وكلالا. وعلى درجة من القوة بحيث يؤثر فى أرفعها حكما ونقداً. إن الأحداث والظواهر إن تكررت وتواترت كان هذا دليلا على صدورها عن نزعة ملحة، وكان من الصعب أن تعزى إلى مجرد المصادفة، لكنها تتلاءم كل التلاؤم مع فكرة القصد والتصميم، ثم إن حلول نوع من الهفوات محل نوع آخر يبين لنا أن العنصر الجوهرى فى الهفوة وأهم

---

(١) كذلك فى كتابات مايدر A. Maeder «بالفرنسية» وبريل Brull وأرنست جونز Earnest Jonses «بالإنجليزية» وستاركه Starche «الهولندية» وغير هؤلاء.

شيء فيها لا يجب التماسه في شكل الهفوة أو في الوسائل التي تستخدمها، بل في القصد الذي يستغل الهفوة، والذي يمكن أن يتحقق بطرق شتى، وإليكم مثالا لنسيان متكرر:

يروي أرنست جونز Earnest Jones أنه ترك ذات مرة خطابا على مكتبه عدة أيام لسبب لا يعرفه، ولما عزم على إرساله وألقاه بالفعل في صندوق البريد، وإذا بالخطاب يرد إليه، لأنه نسي أن يكتب العنوان عليه، فعنونه وألقاه مرة أخرى، لكنه كان غفلا هذه المرة من طابع البريد، وعندئذ اضطر إلى أن يعترف لنفسه أنه لم يكن راضيا قط عن إرسال هذا الخطاب.

وها هي ذي حالة أخرى يقترن فيها أخذ الأشياء خطأ بتفقدها دون جدوى في العثور عليها: رحلت سيدة إلى روما مع زوج أختها، وهناك احتفل به الألمان المقيمون في روما، وقدموا إليه فيما قدموا، هدية من ذهب مدلاة قديمة العهد، وقد ساء السيدة أن زوج أختها لم يقدر هذه القطعة النفيسة حق قدرها، فلما جاءت أختها إلى روما رحلت السيدة إلى بلدها، وبينما هي تفض حقيبة متاعها، إذ بها تجد المدلاة فيها، دون أن تعرف كيف حدث هذا الأمر، فسارعت بالكتابة إلى زوج أختها بأنها سترد إليه بضاعته في اليوم التالي، ولما جاء اليوم التالي حاولت السيدة عبثا أن تجد المدلاة لترسلها، وهنا فطنت إلى دلالة وشرود ذهنها، فقد كانت تود أن تحتفظ بالمدلاة لنفسها[1].

لقد سقت إليكم فيما سلف مثالا يقترن فيها النسيان بهفوة من الهفوات، وكانت تلك حالة شخص أنسى موعداً، فعزم عزما أكيداً على ألا يسهو عنه في المرة التالية، فلما ذهب إلى الموعد الثاني، رأى أنه جاء في غير الساعة المحددة، وقد قص على أحد أصدقائي ممن يهتمون بالعلوم والآداب، قصة من خبرته الخاصة تكاد تشبه هذه الحالة كل الشبه: «منذ أعوام خلت، قبلت أن أكون عضواً في مجلس إدارة جمعية أدبية، طمعا في أن تعينني على تمثيل إحدى رواياتي، وكنت أواظب أيام الجمعة على حضور جلساتها، على غير رغبة كبيرة مني. ومنذ بضعهة أشهر تأكد لي أن روايتي يتمثل على مسرح ف.

غير أني ظللت منذ ذلك الحين أنسى حضور الجلسات أبداً، فلما قرأت كتاباتك

---

(١) عن ريتلر R. Reitler.

فى هذا الموضوع، خجلت من تصرفى هذا، ولمت نفسى على الانقطاع عن الحضور مذ قضيت حاجتى، ثم عزمت على ألا تفوتنى جلسة الجمعة التالية، وظللت أذكر نفسى بهذا حتى نفذت عزمى ووجدتنى أمام بهو الاجتماع، ولشد ما كانت دهشتى إذ رأيت البهو مغلقا، وليس ثمة اجتماع ـ فقد أخطأت وأنسيت فذهبت فى السبت بدل الجمعة!» .

قد يشوقكم أن أمضى فى ذكر أمثلة من هذا النوع، لكنى أكتفى بهذا القدر، لأستعرض بعض الحالات، التى لا يتأكد تفسيرها إلا بفضل أحداث تقع بعد حدوث الهفوة بحين.

والشرط الأساسى فى هذه الحالات ، يتلخص ـ كما قد نتوقع ـ فى أن الموقف النفسى الحالى فيها غير معروف أو لايمكن التيقن منه، عندئذ لا يعدو تفسيرنا أن يكون مجرد افتراض لانقيم له وزنا كبيراً، ثم تمر الأيام فيقع حدث جديد يتضح منه أن تفسيرنا السابق كان له ما يبرره، من هذا أنى دعيت يوماً إلى بيت زوجين شابين، فقصت على الزوجة مستضحكة أنها فى اليوم التالى لعودتها من رحلة شهر العسل، ذهبت تزور أختها غير المتزوجة لتصطحبها، كما كانتا تفعلان من قبل إلى السوق لشراء بعض الأشياء، وكان الزوج إذ ذاك قد خرج إلى عمله وعلى حين فجأة لحظت رجلا يسير فى الجانب الآخر من الطريق، فأشارت إلى أختها قائلة: «انظرى هاهو ذا السيد ك» ناسية أن هذا السيد كان زوجها منذ بضعة أسابيع، وقد اعترتنى هزة وأنا أستمع إلى هذه القصة، لكننى لم أجترئ أن أنتزع منها النتيجة التى لاح لى أنها تتضمنها، وقد عادت هذه القصة الصغيرة إلى ذاكرتى بعد سنوات عدة، حين علمت بما آلت إليه هذه الزيجة من نهاية تعسة.

ويحدثنا «مايدر» Maeder عن سيدة أنسيت فى اليوم السابق لحفلة قرانها أن تذهب إلى الحائكة لتجرب ثوب زفافها، فلم تذكر هذا إلا بعد أن تقدم المساء. وهو يربط بين هذا النسيان وبين طلاقها الذى أعقب الزواج بوقت غير طويل. وأعرف امرأة ـ هى اليوم مطلقة ـ كانت تمضى وثائقها المالية باسمها لأسرتها حتى قبل

طلاقها بزمن طويل. كما أعرف نساء أضعن خاتم الزواج فى أثناء شهر العسل. وقد أفرغت الوقائع التالية على هذه الحوادث دلالات لا لبس فيها ولا إبهام، وإليكم مثالا آخر رائعا، كانت نهايته خيراً منها فى الأمثلة السابقة: يروى عن كميائى ألمانى شهير أنه أنسى ساعة الاحتفال بزواجه، فذهب إلى معمل بدل أن يذهب إلى الكنيسة، وقد كان على درجة كافية من حصافة الرأى فلم يزد على هذه التجربة، وظل أعزباً حتى مات وهو فى أرذل العمر.

لعل خاطراً وثب إلى أذهانكم فى هذه اللحظة فحواه أن العفوات تبدو، فى هذه الأمثلة كأنها النذر والفؤول والطير فيما يعتقده الأقدمون، الحق أن بعض أنواع التفاؤل والتشاؤم لا تخرج عن أن تكون من قبيل الهفوات، من تلك تعثر الفرد أو سقوطه على الأرض، وإن كان الآخر طابع الحوادث الموضوعية لاطابع الأفعال الذاتية، وقد لاتصدقون كيف يشق علينا أحياناً أن نقطع بما إذا كان حدث معين ينتمى إلى الصنف الأول أو إلى الثانى، فالفعل يعرف فى كثير من الأحيان كيف يتنكر ويلبس لبوس الحدث السلبى.

ولعل الذين خلفوا من ورائهم ماضيًا حافلا بخبرات الحياة، كانوا يجنبون أنفسهم كثيراً من ألوان خيبة الأمل والمفاجآت الأليمة، لو كان لديهم من الشجاعة والعزم ما يتيح لهم أن يؤولوا ما يرون من هفوات يسيرة فى صلاتهم بالناس، على أنها مستترة فى طى الخفاء، لكنا لا نجرؤ فى الكثير الغالب من الأحيان على أن نفعل هذا، إذ نخشى أن نظهر بمظهر من ينكص إلى الخرافة ويلتمسها عن طريق على فيه لف ودوران ، على أن البشائر والنذر لا تتحقق جميعها، وسترون حين يزيد إلمامكم بنظرياتنا أنه ليس من الضرورى أن تتحقق جميعاً.

المحاضرة الرابعة

سيكولوجية الهفوات «خاتمة»

للهفوات دلالة ومعنى: هذه هى النتيجة التى يجب أن نعترف بأننا استخلصناها من تحليلنا السابق، والتى يجب أن تكون أساسًا لبحوثنا التالية، ونود أن نقول مرة أخرى: إننا لانؤكد (فالهدف الذى نرمى إليه لا يقتضى هذا التوكيد) أن لكل هفوة معنى، ولو أنى أعتقد أن هذا هو المرجح، وحسبنا أن نبرهن أن هذا المعنى شائع نسبياً فى الصور المختلفة من الهفوات ، وأذكر بهذا الصدد أن هناك فوارق معينة بين صورها المختلفة من هذه الناحية. فبعض فلتات اللسان وزلات القلم وغيرها قد تكون نتيجة لأسباب فسيولوجية محضة، ولو أنى أعتقد أن هذا ضعيف الاحتمال فى الأنواع المختلفة من الحالات التى تقوم على النسيان (فنسيان الأسماء، أو تنفيذ أمور مقصودة، واستحالة العثور على الأشياء وغير ذلك) . وثمة حالات لضياع الأشياء أكبر الظن أنها لاتنطوى على قصد أياً كان هذا القصد، على أنه يتعين على أن أضيف إلى هذا أن الأخطاء التى تقع فى الحياة اليومية لايمكن أن نحكم عليها بناء على وجهات نظرنا إلا إلى حد معين، فأرجو أن يظل هذا التحديد ماثلا فى أذهانكم حين نمضى فى بحوثنا على فرض أن الهفوات أفعال نفسية تنشأ عن تداخل قصدين.

تلك هى النتيجة الأولى للتحليل النفسى، فقبل اليوم لم يكن علم النفس يعرف شيئاً عن مثل هذه الأنواع من التداخل وعن الظواهر التى تنجم عنها، وهكذا تكون قد أفسحنا مجال الظواهر النفسية إلى حد جد بعيد، وأضفنا إلى علم النفس ظواهر لم تكن تنتسب إليه فيما مضى.

ولنقف لحظة عند العبارة التى تقول إن الهفوات **أفعال نفسية**. ترى هل تعنى شيئا أكثر من عبارتنا الأولى. وهى أن للهفوات دلالة ومعنى؟ لا أظن ذلك، بل أرى، على العكس من هذا، أنها عبارة أقل تحديداً وأدنى إلى سوء الفهم، فكل شىء يمكن ملاحظته فى الحياة النفسية يوصف على الدوام بأنه ظاهرة نفسية، والمهم هو أن نعرف ما إذا كانت ظاهرة نفسية معينة ترجع مباشرة إلى عوامل جسمية، عضوية أو مادية، وبذا تخرج من نطاق البحث السيكولوجى، أم أنها تنبعث مباشرة عن عمليات نفسية أخرى، تبدأ من ورائها سلسلة العوامل العضوية فى مكان ما، هذه الحالة الثانية

هى التى نقصد إليها حين نصف ظاهرة بأنها عملية نفسية، لذا يجدر بنا أن نضع عبارتنا فى الصيغة الآتية: للظاهرة معنى، ونقصد بهذا أن لها دلالة، وأنها تصدر عن قصد، عن نزعة، وأنها تحتل مكاناً معيناً فى سلسلة من العلاقات النفسية.

وثم مجموعة أخرى من الظواهر تشبه الهفوات شبهاً كبيراً، لكنها غير جديرة أن تسمى بهذا الاسم، وسنسميها الأفعال **العارضة**(١) أو **العرضية**(٢). وهى أفعال تبدو، هى الأخرى، كأن لا دلالة لها ولا دافع وراءها ولا أهمية لها، هذا إلى أنها تبدو فضلة زائدة عن الحاجة، لكنها تتميز عن الهفوات الحقة بأن ليس من ورائها قصد ثان، يناصب القصد الأصلى ويتعارض معه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهى تتداخل وتلتبس مع الحركات والإيماءات التى تعبر عن الانفعالات، ويندرج فى هذا الصنف من الأفعال العارضة، كل ما نقوم به من أفعال لا هدف لها فى الظاهر: كما يعبث الإنسان بملابسه أو بأجزاء من جسمه، أو بأشياء فى متناول يده، أو تلك الألحان التى يغنيها الإنسان لنفسه، إلى غير تلك من الأفعال التى نبدأها أو نكفها دون سبب ظاهرى، ولاأتردد فى أن أؤكد لكم أن لهذه الظواهر معنى، وأنها يمكن تفسيرها على النحو الذى تفسر به الهفوات. كما أنها علائم صغيرة تشير إلى عمليات نفسية أخرى أهم منها، فهى أفعال نفسية بالمعنى الكامل لهذا الاصطلاح، على أنى أؤثر ألا أطيل الوقوف عند هذه الظواهر الجديدة، بل أعود إلى الهفوات، فمن تحليلها تتضح لنا أخطر مسائل التحليل النفسى كل الوضوح.

إن أهم الأسئلة التى طرحناها ونحن ننظر فى الهفوات، والتى لم نجب عنها حتى الآن هى: أن الهفوات تنشأ من تداخل قصدين أو نزعتين مختلفتين، يمكن أن تسمى إحداها بالنزعة الدخيلة والأخرى بالنزعة المدخول عليها، فأما النزعات المدخول عليها فلا تستثير سؤالا ما ، وأما الأخرى فنريد أن نعرف عنها شيئين ـ أولهما: نوعها وبعبارة أخرى نوع النزعات التى تداخل فى أخرى وتناصبها، وثانيهما ما بين هذين النوعين من النزعات من صلات.

---

(١) Accidental.

(٢) Symptomatic.

وأرجو أن تأذنوا لى فى أن أتخذ فلتات اللسان مرة أخرى لتمثيل الهفوات جميعاً، وأن أجيب عن السؤال الثانى قبل الأول.

فالنزعة الدخيلة فى فلتة اللسان قد يكون بينها وبين القصد المدخول عليه صلة فى المعنى والمضمون، وفى هذه الحال قد تناقض النزعة القصد أو تصححه أو تكمله، وقد لا يكون بين الاثنين صلة ما فى المعنى، وهنا تكون الحالة أكثر غموضاً وأكثر طرافة فى دراستها، وهكذا يكون لدينا نوعان من الصلات.

أما النوع الأول منهما ،فيتضح فى سهولة ويسر من الأمثلة التى نعرفها من قبل ومن أخرى شبيهة بها، ففى الغالبية العظمى من الفلتات التى ينطق فيها المرء بعكس ما يريد، تعبر النزعة الدخيلة عن المعنى المضاد لمعنى القصد المدخول عليه، وتكون الفلتة علامة على صراع بين دافعين متنافرين لايتفقان، وعلى هذا يكون معنى الفلتة التى تورط فيها رئيس المجلس - فى الأمثلة التى أسلفنا: «أعلن افتتاح الجلسة لكنى كنت أفضل انتهاءها». ولقد حدث مرة أن كتبت جريدة سياسية متهمة بالارتشاء تدافع عن نفسها فى مقال كان يجب أن يلخص فى الكلمات الآتية: «يشهد قراؤنا بأنا كنا نعمل أبدا للصالح العام بأكثر الطرق **ميلا عن** الغرض»، غير أن المحرر المكلف بكتابة هذا الدفاع كتب يقول: «بأكثر الطرق **ميلا إلى** الغرض»[1]، وعندى أن المحرر قد كشف بهذا عن دخيلة نفسه، فكأن لسان حاله يقول: : «لامناص من أن أكتب شيئا، لكنى أعرف ضده». واتفق أن كان أحد النواب على وشك أن يقترح أنه لابد من أن تقال الحقيقة لقيصر «دون تحفظ أو حرج» Zückhaltslos ، لكنه سمع من فوره صوتاً يهيب له من أعماق نفسه فيحذره من اجترائه هذا، فإذا به يقول: «فى خشوع وانحناء» zückgratslos بدلا مما كان يريد قوله[2].

وفى فلتات اللسان التى يلوح أن قوامها «الإدغام» و«التضمير» - وقد ضربنا لها أمثلة من قبل - تكون العملية عملية تصحيح أو إضافة أو استمرار، تظهر فيها نزعة ثانية إلى جانب النزعة الأولى، فذلك الرجل الذى قال: «عندئذ **انكشرت** أمور كثيرة» كان يريد أن يقول إنها أمور منكرة، فاندمجت الكلمتان «انكشفت» و«منكرة» فنجم عن

---

(١) مثال معرب «المترجم».

(٢) جلسة الريخشتاغ الألمانى نوفمبر سنة ١٩٠٨ «المترجم».

ذلك تلك اللفظة الغربية، أو ذلك الأستاذ الذى قال: «الذين يفهمون هذا يعدون على أصبع واحدة... أريد أن أقول على أصابع اليد الواحدة». فقد كان يعتقد أنه لايوجد بالفعل إلا شخص واحد يفهم هذه الأشياء ، فنجم عن هذا أن تورط فى فلتة لسانه، أو تلك الزوجة التى قالت: «يستطيع زوجى أن يأكل وأن يشرب ما أريد» بدل أن تقول «ما يريد» فقد كانت تعرف منها ألا تسمح له بما يريد، وبذا زل لسانها رمزاً إلى ما تنطوى عليه سريرتها، ونرى من هذه الحالات جميعاً أن الفلتة تنشأ من مضمون القصد المدخول عليه أو أنها تتصل به اتصالا مباشراً.

أما النوع الثانى من الصلات بين النزعتين المتداخلتين فيبدو غريباً.. ذلك أنه إذا لم يكن بين مضمونيهما صلة ما، فمن أين تأتى النزعة الدخيلة إذاً، وكيف يتأتى أن يظهر أثرها فى لحظة بذاتها؟ تدلنا المشاهدات - وهى وحدها الكفيلة بالإجابة عن هذا السؤال - أن النزعة الدخيلة تتولد من مجرى من الأفكار كان يشغل بال الشخص قبيل الفلتة، ولئن أفصحت عن نفسها فى الحديث بهذه الطريقة الخاصة، فقد كان من الممكن أيضاً (وليس من الضرورى) أن تلتمس لنفسها مخرجاً آخر. فكأن هذه النزعة فى الواقع نتيجة وصدى، ولو أنها لا تكون دائما وبالضرورة صدى كلمات نطق بها الشخص، أى إن هناك صلة تداع بين النزعة الدخيلة والمدخول عليها فى هذه الحالة أيضاً، لكنها صلة لا توجد فى المضمون، بل صلة اصطناعية محضة تنشأ من تداع قسرى مُكره.

وإليكم مثالا بسيطاً لهذا لاحظته بنفسى: التقيت يوماً فى جبال الدولوميت الجميلة بسيدتين من فُيينا كانتا تلبسان ملابس السياح، فصاحبتهما بعض الطريق نتحدث عن متعة السياحة ومتاعبها، فقالت إحداهما: إن يوم السائح المتجول لايخلو من كثير من المضايقات، قالت: «الحق أن مما يجلب الضيق أن يضرب الإنسان فى الأرض طول النهار فى وقدة الشمس حتى يبتل قميصه.... وأشياؤه من العرق».. قالت هذه الكلمات الأخيرة فى شىء من التردد. ثم مضت تقول: «غير أنه حين يعود بعد ذلك إلى بنطلونه Hose ويبدل...» (Hose معناه بنطلون، قالتها السيدة بدل أن تقول إلى منزله House)(١). هذه فلتة لم نحللها لكنى على يقين أنه لا يشق عليكم فهمها، لقد

(١) يلاحظ ما بين كلمتى «بنطلون» و«منزل» الألمانيتين من تشابه كبير فى النطق «المترجم».

كانت السيدة تنوى فى عبارتها الأولى أن تذكر من ملابسها أكثر مما ذكرت «قميصه وسترته وبنطلونه» غير أنها استحيت أن تذكر اللباس الأخير منها، فلما قالت العبارة الثانية ـ وهى مستقلة من حيث مضمونها عن الأولى كل الاستقلال ـ انطلقت الكلمة المعتقلة (Hose) فبدت تحريفاً لكلمة تشبهها فى الجرس (House).

فى وسعنا الآن أن نعود إلى السؤال الأساسى الذى أرجأنا مناقشته وقتًا طويلا وهو: ما نوع تلك النزعات التى تفصح عن نفسها على هذا النحو الغريب بتدخلها فى النزعات الأخرى؟ من البداهة أنها نزعات مختلفة شتى، وسنعمل على أن نجد عنصراً مشتركاً بينها جميعاً. لئن فحصنا طائفة من الأمثلة لهذا الغرض، فسرعان ما نجد أنها تقع فى مجموعات ثلاث: فالمجموعة **الأولى** تدخل فى نطاقها الحالات التى تكون فيها النزعة الدخيلة معروفة للمتكلم، وفوق هذا فقد كان يشعر بها قبل أن يزل لسانه، فى المثال: «عندئذ انكشرت أمور كثيرة»، اعترف المتكلم بأنه كان يشمئز من بعض الأمور فوصفها بأنها «منكرة»، هذا إلى أنه قد اعترف بأنه كان ينوى التعبير عن رأيه باللفظ، والمجموعة **الثانية** تندرج فيها الحالات التى يعترف فيها المتكلم بأن النزعة الدخيلة هى نزعته هو، لكنه لايفطن إلى أنها كانت نشطة عاملة فى نفسه قبل أن يزل لسانه. لذا فهو يتقبل تفسيرنا للفلتة، لكنه لايستطيع أن يخفى دهشته منها.

وإنه لأيسر علينا فى أكبر الظن، أن نجد أمثلة لهذه الحالات من هفوات أخرى غير فلتات اللسان، أما المجموعة **الثالثة** فتشتمل على الحالات التى يحتج فيها المتكلم على التفسير الذى نعره عليه احتجاجًا شديداً: فهو لايكتفى أن ينكر وجود القصد الدخيل لديه قبل الفلتة، بل يؤكد، إلى هذا، أنه قصد غريب عنه كل الغرابة، ولعلكم على ذكر من ذلك الشاب الذى قال «إن سرورنا لا يقدر لفقد رئيسنا»، وكيف كان رده جافياً غليظاً حين كاشفته بقصده الدخيل، وتعرفون أنكم لم تتفقوا فى شيء احتجاج هذا الشاب، ولايمنعنى أن أستمسك بتفسيرى، فى حين أتصور أنكم قد ارتعتم لما فيه من تعنيف وإنكار، وربما ترون من الخير أن نعرض عن تفسير أمثال هذه الهفوات، وأن ننظر إليها على أنها أفعال فسيولوجية محضة، كما كانت قبل عصر التحليل النفسى.

على أنه لا يشق على أن أستشف ما يروعكم من هذا . فالتفسير الذى أقدمه يتضمن أن المتكلم قادر على أن يفصح عن نزعات ومقاصد يجهلها نفسه جهلا تاما،

وإنى قادر على استنتاج هذه المقاصد من أمارات وعلائم شتى، من أجل هذا تحجمون عن قبول هذه الدعوى المغربة المثقلة بالعواقب، ومع هذا فإذا أردتم أن تلزموا جانب المنطق فى النظرة إلى الهفوات، وهى نظرة قامت على كثير من الأمثلة، تعيّن عليكم ألا تترددوا فى قبول هذه الدعوى وإن بدت لكم على جانب كبير من الإغراب، فإن لم تستطيعوا فما عليكم ألا تذروا فهم الهفوات، وقد بذلتم فى سبيله جهداً كبيراً.

لنقف لحظة ننظر فيما يربط بين هذه المجموعات الثلاث، وفيما هو مشترك بين العمليات الثلاث التى تتكون بها فلتة اللسان، ومن حسن التوفيق أن يكون هذا العنصر المشترك ظاهراً لا يحتمل الخطأ ولا يستثير الجدل، ففى المجموعتين الأوليين يعترف المتكلم نفسه بالنزعة الدخيلة، هذا إلى أنها تفصح عن نفسها قبل الفلتة مباشرة فى المجموعة الأولى، لكن هذه النزعة فى كلتا الحالتين **تُكره على الارتداد والتراجع**[1]**. فقد عزم المتكلم على ألا يبديها فى كلامه فحدث أن تورط فى فلتة لسان، وبعبارة أخرى، فإن النزعة التى يحال بينها وبين التعبير عن نفسها تؤكد وجودها، على الرغم من إرادة المتكلم فتبدو فى كلامه، إما بأن تغير الصيغة اللفظية للقصد الذى يعترف به، أو بأن تختلط وتلتبس بها، أو بأن تحل محلها بالفعل، هذه هى العملية التى تتكون بها فلتة اللسان.**

إن وجهة نظرى فى هذه تتيح لى أن أفسر فلتات المجموعة الثالثة بهذه العملية ذاتها، فما على إلا أن أفترض أن الفارق الوحيد بين هذه المجموعات الثلاث، فارق فى درجة التراجع والارتداد التى يكره عليها القصد الدخيل، ففى المجموعة الأولى يكون القصد ماثلا فى ذهن المتكلم قبل أن ينطق، ثم يحدث الإكراه والإبعاد فيقتص القصد لنفسه من ذلك بفلتة اللسان، وفى المجموعة الثانية يكون الإكراه أشد وأعمق، فلا يفطن المتكلم إلى القصد حتى قبل النطق، ومما يستلفت النظر أن هذا الإكراه لايمنع القصد إطلاقا من أن يكون السبب الفعال فى استحداث الفلتة! وفى هذا ما يسهل علينا تفسير ما يحدث فى المجموعة الثالثة. بل سأكون جريئا إلى حد أن أذهب

---

(١) يلاحظ أن فرويد لا يستعمل هذا اصطلاح «الكبت» بل يؤثر أن يستخدم اصطلاحاً قريباً منه، ذلك أن الكبت عملية لا شعورية، فى حين أن منع القصد الدخيل من التعبير عن نفسه - ذلك فى المجموعات الثلاث - قد يكون قمعاً شعوريا متعمداً أو كبتاً تلقائياً لا شعورياً أو بين ذلك. «المترجم».

إلى أن فلتة اللسان قد تكون مظهراً لنزعة أعيقت عن التعبير عن نفسها منذ زمن طويل، بل منذ زمن بعيد جدا، بحيث لايعود المتكلم يفطن إلى وجودها أصلا، فيكون مخلصًا كل الإخلاص إن أنكر وجودها، وحتى إن صرفنا النظر عن مشكلة المجموعة الثالثة، فلا مناص من أن نخرج من المجموعتين الأخريين بالنتيجة الآتية، وهى أن **قمع القصر ـ القصد إلى قول شيء ـ هو الشرط الضرورى لحدوث فلتة اللسان.**

فى وسعنا الآن أن نقول إننا خطونا خطوات أبعد فى سبيل فهم الهفوات. فنحن نعرف الآن أنها ظواهر نفسية تنطوى على معنى، وترمى إلى غرض، وأنها تنتج من تداخل قصدين مختلفين، وفضلا عن هذا، فنحن نعرف أن أحد القصدين لابد أن يكون قد تعرض لشيء من المنع والحظر حتى يستطيع أن يعبر عن نفسه بتداخله فى القصد الآخر، أى إنه لابد أن يضيِّق عليه قبل أن يضيق على غيره.

وغنى عن البيان أن هذا لا يتيح لنا تفسيراً كاملا للظواهر التى نسميها الهفوات، بل سرعان ما تعرض لنا أسئلة أخرى، وكلما تقدمنا فى الدراسة والفهم، شعرنا بأن المجال ينفسح لأسئلة جديدة، ففى وسعنا أن نتساءل مثلا: لِمَ لاتجرى الأمور على منوال أبسط من هذا بكثير، فإذا كان الفرد يقصد إلى أن يعتقل نزعة معينة بدل أن يدعها تعبر عن نفسها، فالمرتقب أن يكون الأمر على وجهين: إما أن يفلح الاعتقال فلا يظهر شيء من النزعة المعتقلة، أو أن يخفق الاعتقال فتظهر هذه النزعة سافرة بأكملها؟».

لكن الهفوات تنتج عن **حلول وسطى**[1]؛ فهى تدل على أن الاعتقال قد كسب نصف المعركة وخسر نصفها الآخر؛ أى إن القصد المحظور لم يقمع برمته فلا يبدو منه شيء، ولم يبق بكامل قوته فيظهر سافراً كما هو عليه ـ هذا باستثناء حالات خاصة، ويحق لنا أن نفترض أنه لابد أن تكون هناك شروط خاصة لكى يحدث هذا التداخل (أو الحل الوسط)، لكننا لانستطيع أن نكشف عن هذه الشروط المجهولة إذا تعمقنا فى دراسة الهفوات، فلبلوغ تلك الغاية، لابد من أن نجوب قبلها مناطق غامضة أخرى من الحياة النفسية، فسنلتقى هناك بأوجه للشبه تشجعنا على أن نصوغ فروضا من شأنها أن تهدينا إلى تفسير أكمل للهفوات، لكن هناك شيئا آخر: ذلك أن عملنا

---

1. Compromises.

ينهض على أدلة صغيرة وعلائم طفيفة ـ كما هو شأننا أبداً فى هذا المجال ـ ومن ثم فلسنا بمنجاة من أن نتورط فى محظورات معينة.

وأذكر بهذا الصدد أن هناك اضطرابا عقليا يسمى **البرانويا المجمعة**(١)، يستغل فيه المريض العلامات الطفيفة استغلالا لا حد له، ولا أقرر بطبيعة الحال أن النتائج التى تستخلص على هذا النحو تكون بأسرها نتائج صحيحة مضبوطة، فلن يتسنى لنا أن نعصم أنفسنا من الوقوع فى هذ المحظور، إلا إذا قامت ملاحظاتنا على أساس عريض ما وسعنا الأمر، واجتمعت لدينا أوجه للشبهة من ميادين مختلفة شتى فى الحياة النفسية.

لذا سنترك الآن تحليل الهفوات، غير أن هناك شيئا أريد أن أوصيكم به، و أن تحتفظوا فى أذهانكم بالطريقة التى درسنا بها هذه الظواهر على أنها طريقة نموذجية للبحث، وبذا يتسنى لكم أن تحكموا، الآن وفيما بعد، على أهداف علم النفس الذى نرفع قواعده، إن هدفنا لايقتصر على وصف الظواهر وتصنيفها، بل يتعدى ذلك إليها على أنها نتيجة لفعل قوى فى النفس، وعلى أنها تعبيرات عن نزعات تعمل، متضافرة أو متنافرة، للوصول إلى غاية؛ أى إننا نجهد فى أن نكون لأنفسنا نظرة ديناميكية إلى الظواهر النفسية، نظرة تتضاءل فيها الظواهر التى تشاهدها وتدركها حيال النزعات التى نستنتجها ليس غير.

لذا فلن نمضى فى دراسة الهفوات، غير أننا ما زلنا نستطيع أن نلقى نظرة عابرة على هذا الميدان الفسيح، نلتقى خلالها بأشياء نعرفها من قبل، وبأخرى تكشف عن جديد، وسنستمسك فى نظرتنا هذه بالتقسيم الثلاثى للهفوات الذى أشرنا إليه فى بدء دراستنا إياه:

(أ) فلتات اللسان وما يناظرها فى الأهمية من أخطاء فى الكتابة والقراءة والسمع.

(ب) النسيان ومكا ينصب عليه من موضوعات «كأسماء الأعلام، والكلمات الأجنبية، وتنفيذ الأمور المقصودة والانطباعات».

(جـ) ضياع الأشياء، واستحالة العثور عليها، وأخذها خطأ، على أن الهفوات لاتعنينا إلا من حيث صلتها بالنسيان وبالأفعال الخاطئة (كأخذ الأشياء خطأ... وغيرها).

---

(١) Combinatory Paeanoïa والبرانويا يمكن تسميتها أيضاً بالجنون الهجاسى «المترجم».

وإنا وإن كنا أسهبنا فى تفصيل فلتات اللسان، فما يزال لدينا شيء نرى أن نضيفه، فالفلتات تقترن عادة بمظاهر وجدانية بسيطة ليست غفلا من الأهمية والطرافة، من تلك أن الإنسان لايميل إلى أن يعترف عن طيب خاطر بأنه تورط فى فلتة لسان، بل يحدث فى كثير من الأحيان أن يفوته سماع فلتة زل بها لسانه، فى حين لايفوته البتة سماع فلتة وقع فيها غيره، ثم إن فلتات اللسان تنتقل بالعدوى إلى حد ما؛ فليس من اليسير أن يتحدث الإنسان عنها دون أن يتورط نفسه فيها. والفلتة المزجاة التى لايعتد بها والتى لا تعلمنا شيئا خاصًا عن العمليات النفسية الخفية، لها مع ذلك أسبابها ودوافعها التى يمكن الكشف عنها فى غير صعوبة أو عناء، فلو فرضنا مثلا أن شخصا أصابه اضطرابا أيًا كان سببه وهو ينطق كلمة معينة، فاختلس حركة مُشبعة، فإنه لايلبث أن يشبع أول حركة مختلسة تليها مباشرة وبذا يقع فى فلتة أخرى ترمى إلى تعويض الفلتة الأولى.

والأمر بالمثل إن أدغم حرفان متتاليان عن خطأ أو إهمال، فإنه يعمل على تصحيح خطئه بأن يفك أول حرفين مدغمين يلتقى بهما. فكأن المتكلم يريد بهذا أن يبين للمستمع إليه أنه يعرف لغة قومه، وأنه يهتم بنطقها الصحيح، والواقع أن التحريف الثانى الذى يصح أن نسميه «التحريف التعويضى» يرمى تحديداً إلى توجيه نظر المستمع إلى التحريف الأول، وتعريفه بأن هذا التحريف لم يفت المتكلم، إن أبسط أنواع الفلتات وأتفهها وأكثرها ذيوعًا تتلخص فى ضروب من «التضمير» و«السبق» تبدو فى أجزاء غير ظاهرة من الحديث، فلو كان المرء ينطق جملة طويلة بعض الطول مثلا، فالفلتة التى يحتمل أن يقع فيها هى أن يسبق لسانه فيبادر بنطق الكلمة الأخيرة فيما يريد أن يقول، أو أن تؤثر هذه الكلمة فى نطق أخرى سابقة لها. وهذا يوحى بأن المتكلم ضجر بالجملة يريد أن ينهيها بفروغ صبر، ويشير إجمالا إلى نوع من المقاومة والعزوف عن توصيل هذه الجملة أو عن الحديث قاطبة.

وهكذا نجد أنفسنا إزاء حالات وسط تتلاشى فيها الفوارق بين نظرة التحليل النفسى إلى الفلتات وبين النظرية الفسيولوجية المعتادة إليها، ونحن نفترض، فى أمثال هذه الحالات، وجود نزعة دخيلة تناصب الكلام المقصود، لكنها نزعة تعلن عن وجودها ولا تنم عن غرضها، أما الاضطراب الذى تسببه فمرده إلى تأثير جرس الألفاظ أو إلى ضروب مألوفة من التداعى اللفظى، ويمكن اعتباره ذريعة لصرف الانتباه عما يراد قوله. غير أن حيود الانتباه لا يكفى؛ ولا التداعى اللفظى أيضًا،

لتشخيص طبيعة الفلتة وجوهرها، فكلاهما يشهد بوجود قصد دخيل، لكنه قصد لايمكن الكشف عن طبيعته من نتائجه فى هذه الحالة، كما نستطيع ذلك فى الحالات الواضحة المحققة.

سأعالج الآن زلات القلم.. وهى تشبه فلتات اللسان (من حيث طريق تكوينها) شبهًا كبيراً ، لذا لا ننتظر منها أن تزودنا بجديد، ومع هذا فلنحاول أن نحلق بعض التحليق فى الميدان، إن أكثر الزلات الطفيفة تواتراً، ومنها ضروب «التضمير» و«السبق» - سبق الكلمات التالية وخاصة الكلمات الأخيرة - تشير إلى إعراض عام عن الكتابة وإلى شجر منها ورغبة في الانتهاء، فإذا كانت نتائج الزلة أكثر وضوحا وبروزاً، أتاحت لنا الكشف عن طبيعة النزعة الدخيلة ومقصدها. ونحن نعرف بوجه عام، حين تقع على زلة قلم فى خطاب، أن ذهن الدخيلة الكاتب لم يكن يعمل فى سلاسة ويسر ساعة الكتابة، لكنا لا نستطيع دائما أن نعرف ماذا كان أمره وخطبه فى تلك الساعة.

ولنذكر أن زلات القلم يندر أن يلحظها صاحبها، مثلها فى ذلك مثل فلتات اللسان. ومما يبهر ويروع فى هذا الصدد أن هناك أناساً يعيدون قراءة الخطابات التى يكتبونها قبل ختمها وإرسالها؛ وآخرين لا يفعلون هذا. فإذا اتفق أن أعاد أحد من هؤلاء قراءة ما كتب، فإنه لابد واجد فيه زلةً تستوقف النظر. فعلام يفسرها؟ يكاد يلوح أن هؤلاء كانوا يعرفون أنهم تورطوا فى زلة وهم يكتبون، فهل لنا أن نسلم بهذا حقاً؟

وإليكم مشكلة طريفة تشهد بما قد يكون لزلات القلم من قيمة عملية: فعساكم تذكرون قصة السفاح (هـ) الذى حشر نفسه فى زمرة المختصين بدراسة البكتريا، فاستطاع أن يظفر من المعاهد العلمية بمزارع لميكروبات مرضية على جانب كبير من الخطورة، فيسخرها للخلاص ممن يتصلون به من الناس، لقد أرسل هذا الرجل فى يوم خطاباً إلى إدارة أحد هذه المعاهد، يشكو فيه عقم المزارع التى أرسلت إليه، غير أن قلمه زل، فبدل أن يكتب «فى تجاربى على الجرذان»، إذا به يكتب بخط لاخفاء فيه «تجاربى على الجيران[1]»، حتى لقد استرعت هذه الزلة أنظار الأطباء بالمعهد. لكنه، فيما أعلم، لم يخرجوا منها بنتيجة ما.

فما ترون فى هذا؟ ألم يك من الخير أن يتخذ الأطباء من هذه الزلة اعترافا،

(١) تعديل طفيف فى الترجمة لا يذهب بروح الأصل «المترجم».

فيقوموا بتحرٍّ، كان من شأنه أن يوفر الحياة لكثير من ضحايا هذا السفاح؟ ألا ترون أن الجهل بنظراتنا إلى الهفوات كان ، فى هذه الحالة، سببًا فى إهمال وتسويف على جانب كبير من الخطورة؟ إن أمثال هذه الذلة لم تكن لتفوتنى دون أن تستثير فى نفسى، على وجه التحقيق، ريبة كبرى، لكن اتخاذها اعترافا مما يثير اعتراضات خطيرة، فالأمر ليس من السهولة على ما يبدو، فزلة القلم علامة ومظنة لا مراء فيها، لكنها لاتكفى وحدها لتبرير إجراء تحقيق، فهى تشهد فى الواقع بأن الرجل تشغل باله فكرة نقل العدوى إلى الناس، لكنها لاترينا على وجه التحقيق ما إذا كانت هذه الفكرة خطة مبيتة لعمل الشر، أو أنها مجرد تخييل[1] ليس له خطر عملى، بل من الممكن أن يجد الرجل خير الحجج الذاتية (أى غير الموضوعية) لإنكار هذا التخييل ولنبذه والتنصل منه كما لو كان شيئا غريبا عنه كل الغرابة، وسنرى فيما بعد، حين نعرض لفرق ما بين الواقع النفسى[2] والواقع المادى[3]، أن سيزداد فهمنا لهذه الإمكانات وتقديرنا لها، على أن هذا لايمنع أن تكون هذه الحالة التى بين أيدينا، من الحالات التى تكتسب فيها الهفوة، من الوقائع التى تتلوها، دلالة لامراء فيها.

فإذا انتقلنا إلى عثرات، اختلف الموقف النفسى اختلافا بيّناً عنه فى فلتات اللسان وزلات القلم، وذلك أن إحدى النزعتين المتصارعتين يحل محلها، فى هذه الحال. تنبيه حسى قد يكون أقل منها مقاومة وإلحاحاً، إن ما يقرؤه الإنسان لايكون غالباً من نتاج عقله، كما هى الحال فيما يكتب، لذا فالغالبية العظمى من عثرات القراءة تنجم عن عملية «إبدال» تام، فالكلمة المقروءة تُستبدل بها أخرى، دون أن تكون هناك بالضرورة صلة بين مضمون النص المقروء ومضمون نتيجة الخطأ، بل يحدث الإبدال عادة عن طريق تشابه بين الألفاظ، وخير مثال لهذا الصنف من العثرات، مثال ليشتنبرج الذى أصبح يقرأ كلمة أجاممنون Agamemnon بدل انجينونمن An-genommen.

فإذا أردنا أن نكشف عن النزعة الدخيلة التى تسبب العثرة، تعين علينا أن نذر النص الأصلى بأجمعه جانبا، وأن نبدأ الفحص التحليلى بسؤالين: ما أول فكرة تخطر ببال القارئ فى عملية «التداعى الطليق» بصدد العثرة (أى البديل)، وفى أية ظروف

1. Phantasy.

2. Psychical reality.

3. Material reality .

حدثت هذه العثرة، وقد تكفي معرفة الظروف وحدها أحيانا لتفسير العثرة: من ذلك أن رجلا كان يسير في بلد غريب، فألحّت عليه «الحاجة»، وبينما هو يتلفت، إذا به يقرأ على لوحة كبيرة بالطابق الأول من بناء Closethaus ، ولا تكاد تأخذه الدهشة من وجود اللافتة على هذا الارتفاع، حتى يرى أنها في الواقع Corsethaus[1].

أما في الحالات الأخرى التي لا توجد فيها صلة بين العثرة ومضمون النص، فلابد من تحليل عميق لايتسنى إلا لشخص درب بخطة التحليل النفسي وآمن به، على أن تفسير عثرات القراءة أيسر بكثير من هذا في أغلب الأحوال، ففي حالة ليشتنبرج مثلا، تكشف الكلمة البديلة، في غير عناء، عن مجرى الأفكار الذي ترتب عليه الخطأ، وذائع مشاعٌ في أثناء الحرب أن يقرأ المرء حيثما حل أسماء المدن والقواد والتعبيرات العسكرية التي تقرع سمعه في كل مكان، كلما التقى بكلمات بها ما هو غريب عن أنفسنا وعن ما لا نحفل به. وهكذا يضل الفكر السابق الإدراك الجديد.

وثمة صنف آخر من عثرات القراءة يستثير فيه النص المقروء نفسه نزعة دخيلة تُحرفه، وكثيراً ما تقلبه إلى ضده، كما لو طُلب إلى أحد أن يقرأ شيئا يمجه ولا يسيغه، فيتضح من التحليل أن المسئول عن التحريف في هذه الحالة، رغبة قوية في نبذ ما يُقرأ.

ونشير هنا إلى أن أكثر عثرات القراءة ذيوعا، وهي تلك التي ذكرنا في بدء هذه الفقرة، لا يقوم فيها العاملان اللذان عزونا إليهما أهمية بالغة في تكوّن الهفوات إلا بدور ثانوي غير واضح: ونعني بهما الصراع بين نزعتين، وإكراه إحداهما على التراجع إكراها يترتب عليه حدوث الهفوة، وهذا لا يعني أن في عثرات القراءة ما يتعارض مع هذين العاملين ، بل إن إلحاح مجرى الأفكار الذي يؤدي إلى الخطأ، أشد بكثير وأعنف من الكبح الذي عانته هذه الأفكار من قبل، وإنا لنلحظ هذين العاملين واضحين كل الوضوح في المواقف المختلفة التي تنشأ فيها الهفوات من جراء النسيان.

أما نسيان تنفيذ الأمور المقصورة فظاهرة لاينطوي تفسيرها على صعوبة ما، وهي كما أسلفنا ليست مثار إنكار أو جدل حتى من عامة الناس. فالنزعة التي تُداخل في تنفيذ الأمر نزعة مضادة معارضة أبداً، وتتلخص في نوع من الإعراض

---

(١) الكلمة الأولى معناها «مراحيض عامة»، والثانية «محل مشدات الخصر» «المترجم».

والعزوف. وبما أنه لامراء فى وجود هذه النزعة، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف لِمَ لايفصح هذا العزوف عن نفسه بطريقة أخرى وبصورة أقل تنكراً وخفاء..

وقد نوفق أحيانا إلى معرفة شيء عن الدوافع التى تقتضى إخفاء هذا العزوف؛ ذلك أنه إن لم يلجأ إلى التنكر، وعمل على أن يعلن عن نفسه سافراً صريحا، فهو مقضى عليه لا محالة، فى حين أنه يظفر بغرضه أبداً إن لجأ إلى الحيلة فظهر فى الهفو، أما إذا طرأ تغير مهم فى الموقف النفسى بين التصميم على شيء وتنفيذه، فترتب على هذا عدم الحاجة إلى التنفيذ، لم يدخل النسيان فى نطاق الهفوات. وهو نسان ليس بمستغرب، لأن تنفيذ الأمر فى الموقف النفسى الجديد مما لا طائل فيه؛ فنسيان تنفيذ القرارات والأمور المقصودة لايمكن اعتباره من الهفوات إلا فى الحالات، التى لا نعتقد فيها بتغير فى الموقف.

ونسيان تنفيذ القرارات يكون فى العادة على درجة من الشفوف ووحدة الوتيرة؛ بحيث لا تنتفع منه بحوثنا هذه فى شيء، على أن هناك ناحيتين نستطيع أن نخرج منهما بشيء جديد من دراسة هذا الصنف من الهفوات، لقد قلنا إن نسيان تنفيذ أمر مقصود يشهد بوجود نزعة مناصبة لهذا الأمر. وهذا حق لا ريب فيه.. غير أنه يتضح من بحوثنا أن هذه الرغبة المضادة، قد تكون مباشرة وغير مباشرة، ولبيان ما نعنى بالرغبة المضادة غير المباشرة، إليكم مثالا أو مثالين: فالرئيس عندما أنسى أن يوصى على مرءوسيه بكلمة طيبة لدى شخص آخر، قد يكون دافعه إلى هذا أنه لايبالى فعلا بمرءوسيه، فلا يجد فى نفسه ما يحمله على التوصية بهب. هذا على الأقل ما يظنه المرءوس ويؤول به النسيان، غير أن الأمر قد يكون أعقد من هذا. فالعزوف عن تنفيذ القرار قد يرجع إلى سبب آخر لا صلة له البتة بالمرؤوس، وربما كان يتصل بما بين الرئيس والشخص الآخر من علاقات، وهنا يبدو لنا، مرة أخرى، ما ينطوى عليه التطبيق العملى لتفاسيرنا من صعوبة وخطورة.

فعلى الرغم من أن المرؤوس قد يفسر الهفوة تفسيراً صحيحًا، لكنه يُخشى أن يتخذ من رئيسه موقف استرابة لا عدل فيه ولا إنصاف ، أو خذوا مثل رجل ضرب موعداً مع آخر، وعاهد نفسه على الذهاب، ثم أنسى تنفيذ وعده، فالسبب الذى يعزى إليه هذا النسيان عادة هو الميل عن لقاء الشخص الآخر والإعراض المباشر عن مقابلته.. غير أن التحليل قد يكشف أن النزعة الدخيلة فى هذه الحالة ، لا صلة لها بالشخص الموعود، بل بالمكان الذى ضرب فيه الموعد، فربما كان هذا المكان مما

يعافه الرجل لارتباطه بحادثة أو ذكرى مؤلمة..

مثال آخر؛ إذا أنسي شخص أن يُلقى خطابا كتبه فى صندوق البريد، فقد تكون النزعة المضادة ذات صلة بمضمون الخطاب نفسه، غير أن هذا لاينفى أن يكون الخطاب لابأس منه فى ذاته، لكنه يصبح مصدراً لنزعة مضاد؛ لأن فيه شيئًا يذكر صاحبه بخطاب آخر كتبه من قبل ، وكان مثار صدٍ ونفور مباشر له: هنا يقال إن النفور قد **تحول** من الخطاب الأول - وكان له إذ ذاك ما يبرره - إلى الخطاب الحالى الذى لا يبرره بحال، من هذا الذى نرى أنه لابد من مراعاة الحرص والحذر؛ حتى إن بدا لنا أن تأويلنا على جانب كبير من السداد والصواب، فالشيء الذى نراه واحداً من الناحية السيكولوجية، قد ينطوى فى الواقع على معان وتأويلات عدة من الناحية العملية.

قد يلوح لكم أن أمثال هذه الظواهر التى أتكلم عنها شاذة خارقة للعادة، وربما تميلون إلى الظن بأن تلك الرغبة المضادة «غير المباشرة» تكفى لكى تطبع الظاهرة بطابع باثولوجى: لكنى أستطيع أن أؤكد لكم أنها من الممكن أن توجد فى حالات الصحة والاستواء، وأرجو ألا تسيئوا فهم ما أقول، فليس هذا بأية حال اعترافاً منى بأن تأويلات التحليل لا يعتمد عليها ولايركن إليها، لقد قلت إن نسيان المرء تنفيذ أمر مقصود قد يحتمل معانٍ كثيرة، لكن هذا لا يستقيم إلا فى الحالات التى لا نجرى فيها تحليلا والتى نقنع فيها بتأويل يقوم على الافتراضات والمبادئ العامة التى نسير عليها، ولو أننا قمنا بتحليل نفسية الشخص الذى يدور عليه الأمر، أمكننا أن نتيقن تيقناً كافياً مما إذا كانت الرغبة المضادة رغبة مباشرة ، أو رغبة تنبعث من مصدر آخر.

وثم ناحية ثانية تتلخص فى أننا متى اتضح لنا بالدليل ، فى عدد ضخم من الحالات، أن نسيان تنفيذ القرارات والوعود يرجع إلى رغبة مضادة، كان فى هذا ما يشجعنا على أن نبسط هذه النتيجة حتى تنتظم حالات أخرى، لا يؤكد فيها الشخص وجود تلك الرغبة المضادة التى استنتجناها، بل ينكرها إنكاراً ، من أمثال ذلك، تلك الحالات المشاعة التى ينسى فيها المرء رد كتب استعارها أو ديون اقترضها، فلو أننا اجترأنا فطالعنا هذا الشخص بأنه يقصد إلى حبس ما لديه من عارية، فهو لابد منكرٌ هذا القصد، دون أن يستطيع أن يقدم لنا تفسيراً آخر لسلوكه هذا.

فإذا نحن ألححنا عليه أنه يقصد إلى ما فعل، لكنه لا يفطن إلى هذا القصد، فقد يجيب بأن الأمر لا يخرج عن مجرد نسيان، أما نحن فحسبنا أن ينم القصد عن نفسها فى صورة النسيان، ولعلكم تذكرون أنه قد مرّ بنا مثل هذا الموقف من قبل، فإذا أردنا أن نتماشى مع تأويلاتنا الهفوات إلى نتائجها المنطقية.. تلك التأويلات التى لقيت ما يبررها فى حالات شتى ، فلا مناص من أن نسلم بوجود نزعات عند الإنسان تتمخض عن آثار ونتائج، دون أن يكون متفطناً إلى وجودها، وهكذا قد اتخذنا موقفاً يتعارض مع كل الآراء المشاعة فى الحياة الجارية وفى علم النفس.

إن نسيان أسماء الأعلام والأسماء والألفاظ الأجنبية يمكن أن يفسر على هذا النحو بوجود نزعة مضادة، تناصب الاسم أو اللفظ المنسى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. وقد ضربت لكم من قبل أمثلة عددا للنفور المباشر من الأسماء والألفاظ. لكن الغالب فى هذه الحالات هو الأصل غير المباشر، الذى يحتاج إلى تحليل دقيق للكشف عنه..

من تلك أن الحرب الحاضرة وما اضطرتنا إليه من ترك كثير من ملذاتنا السابقة، قد خلقت فى نفوسنا طائفة من مترابطات[1] غريبة نجم عنها أن ضعف تذكرنا لأسماء الأعلام.. فقد حدث لى منذ عهد قريب أن عجزت عن أن استحضر اسم بلدة «بيسنز» Bisenzi فى أورفيتو، وقد أمضيت فيه أوقاتا هنيئة فيما سلف، وهنا نجد أنفسنا، للمرة الأولى، بصدد مبدأ هو قوام الدافع إلى نسيان الأسماء، وسنرى فيما بعد ما لهذا المبدأ من أهمية غالبة فى تسبيب الأعراض العصابية: ونعنى الذاكرة عن استحضار أى شىء يرتبط بمشاعر بغيضة من شأنها أن تستثير الألم، إن هو ظهر فى وضع الذهن، ولعلنا أن نرى فى هذه النزعة إلى **تفادى الألم**، الذى ينجم عن التذكر أو عن أفعال نفسية أخرى، وفى هذا الفرار النفسى من كل ما يكدر ويؤذى، لعلنا أن نرى فى هذا الغرض النهائى الفعّال فى نسيان الأسماء، بل وفى التورط فى كثير من الهفوات والأخطاء وضروب السهو الأخرى[2].

غير أنه يبدو أن هناك عوامل سيكوفسيولوجية تُسهل نسيان الأسماء بوجه خاص، إذ نستطيع أن نلحظه حتى فى حالات لاتنطوى على شىء يتصل بالألم، ويدلنا

---

(١) Associarions.

(٢) يقول المؤلف إنه أمضى أوقاتاً هنيئة فى القصر المشار إليه، ولابد أنه ختمها وهو كاره لذلك أو فارقها وهو يتحسر عليها مما ربط ذكرها الألم، فكان هذا الألم دافعاً إلى النسيان «المترجم».

البحث التحليلى دائما على أن النزعة إلى نسيان بعض الأسماء، لا ترجع فقط إلى مجرد كرهها وعدم استساغتها، ولا إلى أنها تذكر المرء بما يكدره ويؤذيه، بل لأن هذه الأسماء تتصل في نفسه بطائفة أخرى من المترابطات اتصالا أقوى وأوثق، فكأن هذه الأسماء قد سمرت بهذه الطائفة من المترابطات إن جاز التعبير، فرفضت أن تستجيب لمترابطات أخرى تقتضيها الظروف الجديدة، ولو كنتم تذكرون الحيل التى يلجأ إليها بعض الناس لتثبيت الأسماء فى الذاكرة، لأخذكم الدهش حين تعرفون أن الروابط التى يصطنعها المرء عن قصد للحيلولة دون نسيان الأسماء، هى بعينها الروابط التى تسبب نسيان هذه الأسماء.

وأظهر مثال على هذا، أسماء الأشخاص، فهى أسماء تختلف أهميتها ودلالتها إلى حد بعيد باختلاف الناس، خذوا اسم «تيودور» مثلا، تروا أن ليست له دلالة خاصة عند فريق منكم، فى حين يكون اسم أب أو أخ أو صديق أو اسم واحد منكم، وقد دلتنا خبرتنا بالتحليل على أن الفريق الأول بمنجاة من أن ينسوا أن شخصا غريبا يحمل هذا الاسم، فى حين ينزع الفريق الثانى أبداً إلى أن يضنّوا على الغرباء باسم، يبدو لهم أنه وقف على أقاربهم الأدنين، فإذا أضيف إلى هذا المانع الذى ينجم عن الترابط والتداعي.. ذلك الأثر الفعال لمبدأ «تفادى الألم»، وأثر نزعة غير مباشرة.. كذلك استطعنا إذاً أن نأخذ فكرة كافية عن مبلغ تعقد الأسباب التى تؤدى إلى النسيان المؤقت للأسماء، وإن التحليل الدقيق الذى يعطى كل حقيقة حقها ، كفيل أن يحل التشابك والتعقيد حلا تاماً.

إن صد الذاكرة عن استحضار ما من شأنه أن يؤذى الشعور، يبدو بصورة أكثر وضوحا واطراداً فى نسيان الحوادث والانطباعات[١] منه فى نسيان الأسماء.. هذا النوع من النسيان لايمكن اعتباره من الهفوات بطبيعة الحال إلا على قدر ما يبدو لنا، فى ضوء خبرتنا اليومية العامة، أمراً يستلفت النظر فلانجد له تعليلا معقولا، كما هى الحال حين ينسى الإنسان انطباعات حديثة أو ذات بال، أو حين ينصب النسيان على ذكرى واحدة دون غيرها فى سلسلة من ذكريات، يمكن استحضارها استحضاراً حسناً، هنا يبدو لنا أن نتساءل: لم أتيحت للإنسان القدرة على النسيان، وكيف يتاح له النسيان بوجه عام؟

بل كيف نستطيع أن ننسى، بوجه خاصة، خبرات لا ريب فى أنها تركت فى

(١) Impressions.

نفوسنا أعمق الآثار كأحداث الطفولة مثلا؟ تلك مشكلة تختلف عما نحن فيه كل الاختلاف، وقد يتسنى لنا تفسيرها بمبدأ «تفادى الألم» إلى حد ما، لكنه يبعد أن يفسرها جميعا، إن نسيان الانطباعات المتنافرة غير المقبولة واقعة لاجدال فيها، فقد لاحظها كثير من علماء النفس وكان لها فى نفس دارون العظيم أثر عميق حدا به أن يدوّن بعناية خاصة، ما يبدو له معارضًا لنظريته، بعد أن أيقن أن أمثال هذه الملاحظات أدنى إلى النسيان من غيرها.

سيعترض الذين يسمعون منكم لأول مرة أن النسيان وسيلة دفاعية تقى من الذكريات الأليمة، فيقولون إن الواقع خلاف هذا، إذ المشاهد المعروف أن أعصى الحوادث على النسيان هى الحوادث الأليمة، فهى تعاود المرء مراراً وتكراراً على الرغم منه، وتكون مصدر عذاب مقيم له، وتلك حال الذكريات التى يكتنفها الحزن والأسى، أو تلك التى تقترن بالضعة والصغار، هذه واقعة صحيحة، لكنه اعتراض متهافت سقيم. ويهمنا فى هذا المقام أن نتعجل الوقائع فنشير إلى أن الحياة النفسية ميدان حرب وساحة صراع يقوم فيها الكفاح بين نزعات متعارضة، ولو شئتم أن نعبر عن هذا بعبارة ديناميكية، قلنا إنها تتألف من متناقضات وأزواج من الأضداد، فقيام شاهد على وجود نزعة معينة لايتنافى بأية حال مع وجود نزعة مضادة لها، فثمة بحال لكل واحدة منهما، وبيت القصيد هنا هو أن نعرف موقف إحدى النزعتين من الأخرى، والآثار التى تترتب على كل واحدة منهما.

إن ضياع الأشياء واستحالة العثور عليها بعد حفظها ظاهرتان جديرتان بعناية واهتمام خاص، لما قد تنطويان عليه من معان ودلالات عدة، ولما تقومان عليه من نزعات شتى، فأما ما تشترك فيه هاتان الهفوتان جميعاً، فهو الرغبة فى فقدان شىء، وأما ما يختلف فيه بعضنا عن بعض فهو الداعى إلى هذه الرغبة والهدف الذى ترمى إليه، فنحن نضيع الأشياء إن رثت وبليت، أو إن دفعنا إلى أن نستبدل بها خيراً منها، أو إن انصرفت النفس عنها. كما نضيعها إن جاءتنا من أشخاص لم يعد بيننا وبينهم ود موصول، أو إن كنا حصلنا عليها فى ظروف لانحب أن نذكرها بعد.

وإن إسقاط الأشياء أو إتلافها أو تحطيمها يخدم هذه الأغراض ذاتها، ومما هو معهود فى الحياة الاجتماعية أن الأطفال غير الشرعيين الذين يفرضون على الغير، يكونون أضعف أجسامًا وأقل تحملاً بكثير من الأطفال الذين حملتهم أمهاتهم فى ظروف أسعد، وليس هذا نتيجة للأساليب الساذجة الغليظة التى تصطنعها المراضع،

بل مرده إلى بعض ما يلاقيه هؤلاء الأطفال من إهمال، فمن الممكن أن نفسر رعاية الأشياء أو فقدانها بالتفسير نفسه الذى ينسحب على الأطفال.

على أننا نلتقى بحالات أخرى يُقدَّر فيها للأشياء أن تضيع دون أن تكون قد فقدت شيئا من قيمتها - ونعنى تلك الحالات التى يكون من ورائها دافع إلى بذل شيء للقدر نتفادى به خسارة أخرى نخشى أن تحيق بنا وتدل كشوف التحليل النفسى على أن أمثال هذا التوسل إلى القدر ما يزال مشاعًا بيننا، ومن ثم فإن ما نضيعه ما هو إلا بذل أو قربان متعمد فى كثير من الأحيان، كذلك قد يكون الفقد مظهراً لدافع من الكيد أو التكفير عن الذنب. وجملة القول أن الدوافع البعيدة العميقة التى تتستر وراء النزعة إلى التخلص من الأشياء بفقدها، لايمكن حصرها وتعدادها بسهولة.

أما الخطأ فى أخذ الأشياء أو فى تنفيذ بعض الأعمال فغالبًا ما يُصطنع - كغيره من الهفوات الأخرى - وسيلة لتحقيق رغبة ينبغى سرها وإنكارها، هنا يلبس القصد لبوس المصادفة الموفقة، من أمثال ذلك أن أحد أصدقائنا كان عليه أن يقوم بزيارة إلى ضواحى المدينة، على غير رغبة منه، فركب القطار، وبينما هو يحاول الانتقال منه، فى محطة مركزية، إلى قطار الضاحية، إذا به يخطئ فيأخذ القطار الذى يعيده من حيث أتى، ويحدث أن يكون الإنسان مكلفًا القيام برحلة، فيود لو تسنى له أن يتخلف فى الطريق يستجم بعض الوقت، وهذا لا يتفق مع ما هو مرتبط به من مواعيد، فإذا به قد فاته قطار خاص أو أخذ آخر خطأ، وبذا يجد نفسه مكرها على التلف الذى يتوق إليه، ومن أمثال ذلك أيضاً أنى منعت أحد المرضى الذى يترددون علىّ من أن يتصل تليفونيا بالسيدة التى يحبها، فنجم عن هذا أنه كلما أراد أن يتصل بى، كان «يخطئ» رقم تليفونى «غير معامد» بآخر هو رقم السيدة تحديداً، وإليكم أخيراً مثالا رائعاً يقصه بعض المهندسين عن ظروف يترتب عليها إتلاف أشياء، كما يرينا الأثر العملى الخطير لأفعال يتورط فيها الفرد خطأ:

«منذ زمن مضى كنت أقوم مع نفر من زملائى بسلسلة من تجارب معقدة فى موضوع «المرونة»، فى معمل مدرسة عليا. وهو عمل كنا نقوم به طواعية واختياراً. لكنها بدأ يستنفد من وقتنا أكثر مما كنا نتوقع، وبينما أنا ذاهب فى يوم إلى المعمل مع صديقى ف. إذا بى أجده برمًا يشكو مما سيضيعه من الوقت فى ذلك اليوم، فلديه أعمال كثيرة تنتظره بالمنزل: فلم يسعنى إلا أن أوافقه، وقلت له ماجنًا أشير إلى حادثة وقعت لنا فى الأسبوع السابق: عسى أن تعطَّل الآلة اليوم كما عُطلت ذلك اليوم فيتسنى

لنا أن نكف عن العمل وأن نعود إلى منازلنا مبكرين، ثم وُزِّع العمل فكان من حظ صاحبى هذا تعديل صمام الكبّاس، أى فتح الصمام فى عناية وحذر حتى ينساب ضغط السائل ببطء من المركم إلى اسطوانة الكباس المائى.

وكان المشرف على التجربة يقف إلى جانب مانومتر، وعليه أن يأمر بالتوقف فوراً حين يصل الضغط حداً معيناً. فلما صاح المشرف، إذا بصاحبنا ف. يمسك الصمام ويديره بكل قوته... إلى اليسار! (فى حين أن الصمامات كلها دون استثناء تعمل بإداراتها إلى اليمين)، وبذا انتقل الضغط كله فجأة من المركم إلى الكباس مما لم تطقه أنابيب التوصيل، فانفجرت إحداها على التو: هذه حادثة لم ينجم عنها ضرر، لكنها اضطرتنا إلى أن نوقف العمل طول اليوم وأن نعود إلى منازلنا، والغريب فى الأمر أنى تحدثت مع صاحبى ف فى هذه الحادثة بعد وقوعها بزمن غير طويل، فرأيت أنه لا يذكر شيئا عن العبارة التى قلتها له مازحاً فى حين كنت على ذكر تام بها».

ربما كان فى أمثال هذه الحالات والحادث ما يجعلكم فى ريب من أمر خدامكم وما يحطمونه من آنية لكم بالمنزل، فترون أن أيديهم لاتحركها المصادفة المحضة على الدوام، بل أخالكم تتساءلون أيضًا عما إذا كانت المصادفة هى وحدها المسئولة أبداً عن تلك الحوادث التى يعرض الإنسان فيها نفسه للخطر، أو يعمل شيئا من شأنه إيقاع الضرر والأذى بنفسه ـ فى وسعكم أن تتحققوا صدق ذلك الظن وأن تجيبوا عن هذا السؤال إذا قمتم بتحليل ما يعرض لكم من مشاهدات وملاحظات متى أتيحت لكم فرصة لذلك.

إن ما قلته عن الهفوات يبعد أن يكون كل ما يمكن أن يقال. فثمة نواحٍ عدة ماتزال قيد البحث والاختبار، وإنى لمغتبط لو قد استطعت، بهذه البحوث، أن أزعزع بعض ما لديكم من أفكار قديمة عن الموضوع، وأن أهيأكم لقبول أفكار جديدة. أما عما تبقى، فحسبى أن أترككم إزاء بضع مسائل لم أحلها بعد فمبادؤنا لا تستمد أدلتها جميعا من دراسة الهفوات وحدها، وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نحصر بحوثنا حتى لا تتناول إلا المواد التى تتيحها لنا الهفوات، وقد كانت الهفوات ذات قيمة وأهمية كبيرتين لما تهدف إليه. فهى أفعال مشاعة مذاعة يستطيع كل إنسان أن يلاحظها فى نفسه، كما أنها ليست وقفاً على الحالات المرضية (الباثولوجية) بحال.

وأود أن أذكركم، وأنا أختتم، بأحد أسئلتكم الذى لم أجب عنه بعد: «إذا كان الناس يقتربون فى فهم الهفوات إلى هذا الحد ـ كما بدا لنا من أمثلة عدة ـ ويتصرفون في كثير من الأحيان كما لو كانوا يدركون معناها، فما بالهم ينظرون إليها، بوجه عام، كأنها ظواهر عرضية غفلٌ من الدلالة والأهمية وما بالهم يشتدون فى معارضة تفسيرها بمبادئ التحليل النفسى؟».

أنتم على حق فى هذا : فتلك واقعة خلقية بالنظر، حريةٌ إن نجد لنا تعليلا لكنى أؤثر ألا أطالعكم بهذا التعليل، بل أسير بكم وئيداً فى خطوات متتالية وحلقات يأخذ بعضها برقاب بعض، حتى يتاح لكم من تلقاء نفسه دون معونة منى.

القسم الثانى

الأحـــلام

المحاضرة الخامسة

صعوبات ومُقدِّمات

أُميطَ اللثامُ ذات يوم عن أن أعراض المرض عند بعض العصبيين[١] تنطوى على معنى[٢]. وعلى هذا الكشف نهضت طريقة التحليل النفسى فى العلاج. وقد لوحظ أن المرضى، وهم يتحدثون عن أعراضهم أثناء العلاج، يشيرون إلى أحلامهم كذلك، ومن ثم اتجه الظن إلى أن هذه الأحلام قد تنطوى، هى الأخرى، على معنى.

على أننا لن نسلك هذا الطريق التاريخى، بل سنتبع طريقًا مضاداً له؛ فنحن نهدف إلى أن نبين أن للأحلام معنى، تمهيداً لدراسة الأمراض النفسية. وثمة أسباب وجيهة تدعونا إلى أن نمضى على عكس التتابع التاريخى: فدراسة الأحلام خير تمهيد يمهد به لدراسة الأمراض النفسية، هذا إلى أن الحلم نفسه عرض عصابي، وهو عرض له عندنا ميزة لا تقدر، إذ إنه مما يمكن ملاحظته عند الأصحاء من الناس كافة. والحق أننا لو افترضنا أن كل الناس أصحاء من الناحية النفسية، لانعرف عنهم غير أحلامهم، لاستطعنا بفضل هذه الأحلام أن نظفر بكل ما ظفرنا به من معلومات عن طريق دراسة الأمراض النفسية.

وهكذا تصبح الأحلام موضوع بحث من بحوث للتحليل النفسى، وظاهرة أخرى من الظواهر المألوفة التى لا يلقى إليها الناس بالا كبيراً، والتى تبدو فى ظاهرها غفلا من أية قيمة عملية، شأنها فى هذا شأن «الهفوات»: تشترك معها فى أن كلتيهما مما يبدو لدى الأصحاء من الناس، وتختلف عنها فى أن ظروف البحث فيها ليست مواتية كظروف الهفوات. لقد كانت الهفوات هملاً فى نظر العلم، ولم يشغل الناس أنفسهم بأمرها كثيراً، غير أن الاشتغال بها لم يكن على الأقل شيئا يعاب على الفرد ويغض منه .

ولئن قال الناس إن هناك ما هو أهم منها وأجدى، فما انفكوا يرون أنه من الممكن استنباط شىء ذى قيمة منها. أما البحث فى الأحلام، فلم يكن نافلة غير ذى قيمة عملية فقط، بل كان فوق هذا أمراً معيباً: فكان يوصف المهتم بها بأنه يتطاول على

---

(١) يلاحظ أن المؤلف كثيرا ما يستعمل كلمة «عصبى» بمعنى «العُصابى» أى المصاب «بمرض نفسى» كما يحدده الطب العقلى اليوم «المترجم».

(٢) يوسف بروير Joseph Breuer ١٨٨٠ – ١٨٨٢ . راجع بهذا الصدد المحاضرات التى ألقيتها فى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٩ ، بعنوان: «(خمس محاضرات عن التحليل النفسى) .

العلم ويميل إلى جانب الغيبيات، أما أن يهتم بدراستها طبيب، وهو من تعرضٌ له فى علم الأمراض العقلية وباثولوجيا الجهاز العصبى ظواهر أكثر خطورة وجداً: كتلك الأورام التى تضغط «عضو العقل»، والت تكون فى حجم التفاحة أحيانا، أو نزف الدم أو حالات الالتهاب المزمنة التى تترتب عليها تغييرات فى الأنسجة يمكن رؤيتها تحت الميكروسكوب!. فلا! فالأحلام ظاهرة على جانب كبير من التفاهة بحيث لا تستأهل أن تكون موضوعا لبحث علمى.

ثم إن هناك عاملا آخر من شأنه أن يجعل موضوع الأحلام يتعارض مع مقتضيات البحث العلمى المضبوط جميعها. فموضوع البحث، وهو الحلم ذاته، موضوع مبهم غير محدد. فالهجاس[1] مثلا له معالم واضحة محدودة، إذ يقول المريض فى بساطة: «إنى إمبراطور الصين» ، أما الحلم فلايمكن روايته فى أغلب الأحيان إطلاقا، ولو قص علينا رجل حلماً رآه.. فأنّى لنا أن نتحقق أنه رواه رواية صحيحة، وما الدليل على أنه لم يحرف الحلم وهو يرويه، وعلى أنه لم يرغم على اختلاف جزء منه، نظراً لما يغشى تذكره من غموض وإبهام؟. إن أغلب الأُحلام لايمكن تذكرها البتة، فهى تنسى ولا تبقى منها فى الذاكرة إلا نتفاً زهيدة لا يعتد بها، فهل يصح لنا أن نقيم على أمثال هذه المادة علم نفس علمى أو طريقة لعلاج المرضى؟.

إن بعض الغلو فى الحكم والنقد، من شأنه أبداً أن يثير الريبة فى النفوس وواضح أن الاعتراضات التى وجهت إلى الأحلام، من حيث هى موضوع للبحث العلمى، لاتخلو منالشطط الإسراف، وقد سبق أن قيل إن «الهفوات» أشياء تافهة، فقلنا إن عظائم الأمور قد تكشف عنها أمارات صغيرة، أما أن الأحلام غير واضحة ولا متميزة، فتلك خاصة لها كغيرها من الخصائص الأخرى. وكيف لنا أن نُملى على الأشياء خصائصها، ثم إن هناك أحلاما واضحة محدودة المعالم، يضاف إلى هذا أن البحوث فى الأمراض العقلية والنفسية كثيراً ما تتناول موضوعات تعوزها صفة الوضوح والتحديد، من أمثالها الأفكار المستحوذة[2] فى كثير من الحالات.

---

(١) Delusion : اعتقاد أو حكم باطل يستعصى تطويعه للحقائق الواقعية «المترجم».

(٢) O bsessivei deas : أفكار وخواطر تستبد بالمريض وتلازمه كالظل فلا يستطيع منها فكاكا مهما بذل ومهما حاول إقناع نفسه بالعقل والمنطق «المترجم».

ومع هذا فقد اهتم بها نفر من أطباء الأمراض العقلية النابهين ذوى الرأى، وأذكر بهذا الصدد آخر حالة عرضت لى وأنا أزاول الطب: وكانت امرأة مريضة بدأت تقص حالتها فقالت: «أشعر كأنى آذيت مخلوقا حيا، أو كأنى قذفت به من أعلى جسر ـ أو كأنى آذيته بطريقة أخرى». وفى وسعنا أن نعالج العيب الذى ينشأ من التذكر المريب للحلم، بأن ننظر إلى ما يقصه الحالم تحديداً، على أنه الحلم، وأن نصرف النظر عن كل ما يمكن أن يكون قد نسيه أو حرّفه فى عملية التذكر، ثم نذكر أخيراً أنه لا يحل لأحد أن يقول ـ بهذه الصورة العاجلة ـ إن الأحلام ظاهرة غير ذات بال. فنحن نعرف من خبراتنا الخاصة أن الحالة المزاجية[1] التى نصحوا بها من حلم، قد تلازمنا طوال اليوم، كما يعرف رجال الطب حالات بدأ فيها الاضطراب العقلى بحلم، وكان مصدر الهذاء الذى ألح على المريض، فى هذا الحلم، يضاف إلى هذا أنه يحكى عن الشخصيات التاريخية العظيمة أنهم استمدوا من الأحلام تلك القوة التى أتاحت لهم القيام بأعمالهم الخطيرة..

وفى هذا ما يحملنا على التساؤل عن السبب الحقيقى الذى يحدو بالدوائر العلمية أن تغض من شأن الأحلام إلى هذا الحد؟ عندى أن هذا الغضّ ما هو إلا رد فعل للنظرة الغالية إلى الأحلام فيما مضى، من المعروف أن تصور الماضى وما كان عليه ليس بالأمر اليسير، لكنى أستطيع أن أسلّم عن يقين (واصفحوا عن هذه الدعابة!) أن أجدادنا منذ ثلاثة آلاف عام أو يزيد كانوا يحلمون بالطريقة نفسها التى نحلم بها اليوم..

وقد كانت جميع الشعوب القديمة فيما نعلم، ترى فى الأحلام دلائل كبرى، وتعلق عليها أهمية عملية فى استطلاع الغيب والتماس الفأل والطيرة، بل لقد أتى على الإغريق وغيرهم من الشرقيين حين من الدهر كانوا لا يتصورون فيه قيام حملة حربية لايصاحبها معبرون للأحلام كما لا نتصور اليوم قيام حملة لا يرافقها مستكشفون من الطيارين، فلما قام الإسكندر الأكبر بحملة فتوحه، كان فى ركابه أشهر معبرى الأحلام فى عصره، وكانت مدينة صور Tyre ماتزال قائمة فى جزيرة، فلما قاومته مقاومة عنيفة، عزم على رفع الحصار عنها، غير أنه رأى ذات ليلة، فيما يراه النائم، مسخا Satyr يرقص رقصة من رقصات النصر، فلما قص رؤياه على المعبرين، أكدوا له إن تلك بشرى النصر على المدينة، فأمر بالهجوم فأخذ المدينة عنوة

1. Mood.

وقسراً وقد كان الأترورويون Etruscans والرومان يصطنعون طرقا أخرى لاستنباه الغيب، لكن تأويل الأحلام ظل يؤخذ به ويرفع من شأنه طوال العهد اليونانى الرومانى.

ولم يبق لنا من المراجع عن هذا الموضوع إلا الكتاب الرئيسى لأرطميدورس الأفوسى[1] Artemidorus الذى يقال إنه كان يعيش فى عهد الإمبراطور هادريان، ليس فى مقدورى أن أخبركم ماذا حدث فترتب عليه أن تهافت فن تأويل الأحلام بعد ذلك، وخفت صيته وشهرته، على أنى لا أرى ذلك نتيجة لتقدم الدرس والعرفان، فقد احتفظت العصور الوسطى المظلمة، فى حرص وأمانة، بأشياء أكثر سخفا من فن تأويل الأحلام القديم.

والواقع أن الاهتمام بالأحلام أخذ يتضاءل على درج حتى أدرك مستوى الخرافة، فلم يجد مجالا إلا بين غير المتعلمين، على أننا ما نزال نلمح بقية من فن التأويل فى يومنا هذا، ربما كان آخر مرحلة من مراحل تدهوره وانحلاله: تلك هى محاولة بعض الناس أن يتعرفوا من أحلامهم الأرقام الرابحة فى لعب «الحظ والنصيب».

ومن جهة أخرى، تناولت العلوم المضبوطة الحديثة موضوع الأحلام مرات عدة، لكنها لم ترم قط إلا إلى إيضاح الأحلام بنظريات **فسيولوجية**. فالأطباء بطبيعة الحال لم ينظروا قط إلى الحلم على أنه عملية نفسية، بل على أنه مظهر نفسى لمنبه فيزيقى، وها هو ذا «بنز Binz» يصرح (عام ١٨٧٦):

«بأن الحلم عملية جسمية لا فائدة منها أبداً، بل إنه عملية مَرَضية بالفعل فى كثير من الأحيان، ولو أنها قيست إلى فكرة النفس المطلقة والخلود، لكانت النسبة بينهما كالنسبة بين رقعة رملية من الأرض، غطتها الأعشاب الضارة فى مكان سحيق وبين السماء الزرقاء التى تهيمن عليها من علٍ» . أما «موري» Maury فقد شبه الأحلام بالرجفات التشنجية فى مرض الزّفن[2]، إذا قيست إلى الحركات المتآزرة المتسقة عند

---

(١) وهو مؤلف من خمسة كتب عن «تفسير الأحلام» ترجم إلى لغات عدة قديمة وحديثة، فلا يكتب أحد عن تاريخ تعبير الأحلام إلا ويرجع إليه أو يشير إليه، ومما يذكر أن وجهة نظر مؤلفه تتفق مع وجهة نظر المسلمين، فهو يؤمن بالرؤى الصادقة التى تكون بوحى من الآلهة، هذا إلى ما يزخر به من معلومات أشتات عن أساطير الأولين وخرافاتهم «المترجم».

(٢) Chorea : اضطراب باثولوجى فى مراكز ضبط الحركة، يتميز برجفات غير منتظمة، وحركات تشنجية لاإرادية «المترجم».

الإنسان السوى. ثم إن هناك تشبيها قديماً يقارن الحلم «بالأصوات التى يحدثها شخص يجهل الموسيقى، حين يمر بأصابعه القسر على مضارب آلة العزف».

أما إذا كنا نقصد «بالتأويل» الكشف عن معنى خبىء، فلا مجال لأن تتكلم، بطبيعة الحال، عن تأويل للأحلام، ما دام يغض من شأنها إلى هذا الحد، اقرأوا وصف الأحلام فيما كتبه «فنت» Wundt و«جدل» Jodle وغيرهما من الفلاسفة المحدثين، تروا أنهم يقنعون بمجرد تعداد للنواحى التى يختلف فيها الحلم عن الفكر فى حالة اليقظة ، إذ يؤكدون تفكك المستدعيات[1] وتهلهلها فى الحلم وتعطل ملكة النقد، ومجانبة الحلم للحق والواقع إلى غير ذلك من الفوارق، التى ترمى إلى الغض من قيمة الأحلام، أما العلوم المضبوطة فلم تفض إلى موضوع الأحلام إلا بشىء واحد ذى قيمة، هو تأثير المنبهات الجسمية، أثناء النوم، فى محتوى الحلم ومضمونه، من هذا أن مؤلفاً نرويجياً مات حديثاً ـ هو مورلى فلد Mourly vold ترك مجلدين كبيرين عن بحوث تجريبية فى الأحلام (ترجما إلى الألمانية عامى ١٩١٠ و ١٩١٢) تكاد تدور كلها على الآثار التى تنتج عن تغيير وضع الأعضاء أثناء النوم..

وقد أطريت هذه البحوث على أنها نماذج للبحث المضبوط فى موضوع الأحلام، لكن ماذا يقول أصحاب العلم المضبوط لو علموا أننا نحاول الكشف عن **معنى** الأحلام؟ لعلهم قد أجابوا عن هذا من قبل!، بيد أننا لن ندع أنفسنا يروعها ما صوره من حكم تقدير. فلئن كانت الهفوات تنطوى على معنى مستتر، فليس هناك ما يمنع أن تكون الأحلام كذلك. والواقع أن للهفوات، فى حالات كثيرة شتى، معنى قد غاب عن بحوث العلم المضبوط، إذاً فلنجار الأقدمين والدهماء من الناس فيما كانوا يزعمون، ولنتتبع خطوات من كانوا يزعمون، ولنتتبع خطوات من كانوا يعبرون الأحلام فى الماضى.

وعلينا قبل كل شىء أن نحدد اتجاهنا فيما نريد عمله، وأن نستعرض ميدان الأحلام، فنتساءل: ما الحلم بالتحديد؟ ليس من اليسير تعريف الحلم فى عبارة واحدة، ومع هذا فليست بنا حاجة إلى البحث عن تعريف، لأن كل ما نريد هو الإشارة إلى شىء يعرفه كل إنسان، على أنه يتعين علينا أن نبرز الخصائص الأساسية للحلم فكيف السبيل إلى الكشف عن هذه الخصائص ، والميدان الذى نطرقه ينطوى على فوارق واختلافات شتى من كل نوع؟. فإن تسنى لنا أن نكشف عن خصائص تشترك فيها

1. Associations

الأحلام جميعها، فأكبر الظن أن تكون هى الخصائص الأساسية.

إن أول خاصة تشترك فيها الأحلام كافة، هى أننا نحلم ونحن نيام، وغنى عن البيان أن الحلم هو الحياة النفسية للفرد أثناء النوم، وهى حياة تشبه حياة اليقظة من بعض الوجوه، وتختلف عنها فى الوقت ذاته اختلافا بعيداً، وقد كان هذا تعريف أرسطو فى الواقع، على أنه من الممكن أن تكون الصلة بين الحلم والنوم أوثق من هذا وأقرب. فالحلم قد يوقظنا من النوم، وغالبا ما نكون بمشهد من حلم حين نستيقظ من تلقاء أنفسنا، أو حين نُكره على الاستيقاظ إكراها، من هذا يبدو أن الحلم حالة وسطى بين النوم واليقظة، وهكذا ينتهى بنا المطاف إلى النوم نفسه: فما هو النوم إذن؟

تلك مسألة فسيولوجسة أو بيولوجية لاتزال مثار جدل شديد، فلا نستطيع القطع فيها بشيء، لكنى أظن أننا نستطيع أن نصف خاصة سيكولوجية من خصائص النوم، فالنوم حالة لا يريد النائم فيها أن تكون له صلة البتة بالعالم الخارجى، حالة ينسلخ فيها اهتمامه من العالم الخارجى انسلاخا تاما، فأنا أنام كذلك حين أكون متعبا من هذا العالم، فكأنى أقول لهذ العالم وأنا أعالج النوم: «دعنى هادئا مستريحا فأنا فى حاجة إلى النوم» أما الطفل فيقول عكس هذا: «لا أريد أن أنام بعد، فلست متعباً، وأريد أن تحدث لى أشياء أكثر!» وهكذا يبدو أن الغاية البيولوجية من النوم هى الاستجمام واستعادة القوى، وأن خاصته السيكولوجية هى قطع الصلة والاهتمام بالعالم الخارجى.

إن صلتنا بهذا العالم الذى جئناه دون اختيار منا. صلة لا تحتمل فيما يبدو، لو أنها ظلت مستمرة طول الوقت دون انقطاع، لذا فنحن ننسحب منه بين حين وحين، ونتراجع إلى الحالة التى كنا فيها قبل أن نمثل فيه، أى إلى حالتنا داخل الرحم، أو أننا نحاول، على الأقل، أن نخلق ظروفا شبيهة بتلك الحالة ما وسعنا ذلك - كالدفء والظلام واتقاء المنبهات الخارجية، وغير تلك ما تتميز به تلك الحالة، بل إن بعضنا يلف نفسه ويتكور أثناء النوم حتى ليشبه وضع الجنين داخل الرحم، فكأننا نحن الكبار الناضجين لا ننتسب إلى هذا العالم إلا بثلثينا فقط، فى حين أنا ثلثنا الباقى لم يولد بعد، وكأننا كلما صحونا فى الصباح، فهذا لنا ميلاد جديد، ألسنا نقول لأنفسنا حين نستيقظ من النوم، «نحن نشعر كأننا ولدنا من جديد». ولو أننا، بوصفنا هذا، نخطئ خطأ بعيداً عما يشعر به الوليد من أحاسيس أكبر الظن أنها مزعجة مثيرة، كذلك نقول عن الولادة حين نتحدث عنها: «إن فلانا رأى ضوء النهار».

لئن كانت طبيعة النوم على ما نقول، فهيهات أن يكون النومُ للحلم مَرحبا، بل الأصح أن يكون الحلم ضيفًا ثقيلا على النوم، والحق أننا نعتقد أن النوم الخالى من الأحلام، هو خير نوم، أو هو النوم الحقيقى ليس غيره، وأن النشاط النفسى يجب أن يختفى أصلا خلال النوم. فإذا انبعث فى النوم نشاط نفسى، فذلك أننا لم نوفق إلى بلوغ حالة الهدوء والراحة التى ينعم بها الجنين، وأننا أخفقنا فى أن نتقى بعض مخلفات هذا النشاط وبقاياه، فلا تكون الأحلام إلا تلك البقايا.

والحق أن الأحلام لا تكون فى هذه الحال بحاجة إلى أن يكون لها معنى. لقد كان الأمر على غير هذا فى الهفوات، لأنها، على الأقل، أوجه نشاط تصدر من الإنسان فى حالة اليقظة، غير أنى حين أنام، بعد أن ألح فى وقف نشاطى النفسى إلا قليلا مما عجزت عنه، فليس ثمة ضرورة ما لأن يكون لتلك البقية معنى ما. والحق أنى لا أستطيع أن أنتفع من هذا المعنى - إن كان هناك معنى - لأن الجزء الأكبر من حياتى النفسية فى حالة نوم، ومن ثم لايمكن أن يعدو الأمر، فى الواقع، أن يكون استجابة اختلاجية، من أمثال تلك الظواهر النفسية التى تنجم مباشرة عن منبهات جسمية، وهكذا لاتكون الأحلام إلا بقايا من النشاط النفسى لحالة اليقظة، من شأنها أن تكدر صفو النوم، ومن هنا يتعين علينا أن نذر هذا الموضوع، فهو لا يدخل فى نطاق التحليل النفسى.

على أننا حتى إذا فرضنا أن الحلم فضلةٌ لا غناء فيها، فهذا لايمنع أنه شىء موجود، ولا يمنعنا أن نلتمس لأنفسنا تفسيرا لوجوده، فنتساءل: لماذا لاتنام الحياة النفسية؟ أكبر الظن أن يكون السبب فى هذا وجود شىء يحول بينها وبين الراحة والهدوء، فثمة منبهات تنوشها من كل جانب، ولا مناص لها من أن تستجيب، فالأحلام إذاً هى الأسلوب الذى تستجيب به الحياة النفسية للمنبهات التى تكتنفها فى شتى الأحلام، عن المنبهات التى من شأنها أن تزعج النوم، فيستجيب لها النائم بالأحلام، وهكذا نكون قد استخلصنا أول خاصة تشترك فيها الأحلام جميعا.

ترى هل ثمَّ خاصة مشتركة أخرى؟ نعم، هناك خاصة لا يخطؤها التقدير، وإن كانت أصعب تناولا وأعز وصفًا، إن العمليات النفسية فى أثناء النوم تختلف اختلافا كبيرا، من حيث طابعها، عن نظيراتها فى حالة اليقظة، فنحن نمر فى الأحلام بخبرات كثيرة وأحداث نعتقد بها كل الاعتقاد، فى حين قد لا يعدو الأمر فى الواقع أن يكون تنبيهاً من منبه واحد يقلقنا، وتبدو هذه الأحداث، غالباً، فى شكل صور ذهنية

بصرية، قد تصاحبها أحياناً مشاعر وأفكار وانطباعات من حواس أخرى غير البصر، لكن الصور البصرية هى الغالبة أبداً على ما سواها، وإن ما نلاقيه من صعوبة، حين نروى حلما، يرجع إلى حد ما، إلى أنه يتعين علينا أن نترجم هذه الصور إلى ألفاظ، من هذا ما يقوله الراوى فى أغلب الأحيان، من أنه يستطيع أن يرسم الحلم، لكنه يعجز عن صوغه فى ألفاظ.

وليس هذا بالتحديد تهافتًا فى القدرة العقلية كما نراه فى ضعيف العقل إن قيس إلى نابغ عبقرى، بل الأدنى إلى الصواب أن يكون الفارق فى النوع «والكيف»، وهو فارق يعز علينا تعيينه على وجه التحديد، وقد افترض «فخنر» Fechner ذات مرة أن المسرح الذى يدور عليه الحلم (فى النفس) ليس مسرح الأفكار فى حياتنا اليقظة، هو قول لا نفهمه فى الحق، ولا نعرف ماذا يقصد به قائله، لكنه يعبر تعبيراً حسناً عن ذلك الانطباع الغريب الذى تتركه أغلب الأحلام فى نفوسنا، ثم أن تشبيه النشاط الذى يبدو فى الأحلام بما تحدثه يد غير صناع فى الموسيقى، تشبيه لا يستقيم هنا، لأن الآلة الموسيقية ستستجيب قطعا بالأصوات نفسها - وليس من الضرورى بألحان - كلما مست اليد مضاربها مسّة اعتباطية، ولنجعل هذه الخاصة الثانية المشتركة بين الأحلام ماثلة فى أذهاننا، حتى إن لم نفهمها حق الفهم.

تُرى هل ثمة خصائص أخرى تشترك فيها الأحلام كافة؟ لا أستطيع أن أرى بعد هذه إلا فوارق واختلافات أنى نظرت وحيثما بحثت: فوارق فى ديمومة الحلم الظاهرية، وفى درجة وضوحه وتحديده، وأخرى ٠ن حيث الدور الذى تقوم به الحالات الوجدانية، ومن حيث بقائه فى الذهن وإلحاحه عليه، إلى غير تلك من الفوارق، وليس هذا ما يتوقع بطبيعة الحال لو كان الأمر مجرد استجابة قهرية، اختلاجية مؤقتة، لدرء منبه ما، أما فيما يتصل بطول الأحلام، فثمة أحلام قصيرة جداً، لا تتألف إلا من صورة ذهنية واحدة أو بضع صور، ولا تحتوى إلا فكرة واحدة أو حتى كلمة واحدة، وأخرى ذات مضمون وافر مستفيض، كأنها روايات حقيقية كاملة تستغرق زمناً طويلا جداً فيما يبدو.

وهناك أحلام واضحة متميزة كالخبرات الواقعية بحيث يصعب على الحالم عندما يستيقظ أن يتحقق أنها أحلام إلا بعد حين، وأخرى على درجة لا توصف من الشحوب والميوعة والانطماس، بل من الأحلام ما يبدو بعض أجزائها واضحاً ناصعاً إلى حد بعيد، والبعض الآخر على درجة كبيرة من الغموض والروغان، ومن الأحلام

ما هو متماسك غُفل من التناقض أو ملتئم على الأقل، بل منها ما تغشاه روح الفكاهة أو مسحة من جمال أخاذ، ومنها أيضاً ما يكون ملتبساً، سخيفا فى ظاهره، متناقضا أو على جانب كبير من الإغراب والحمق، وثمة أحلام لا تترك فى نفوسنا أثراً ما، وأخرى تستثير فينا حالات وجدانية وانفعالات - فيستبد بنا الألم فيها حتى نبكى، والذعر حتى نستيقظ، أو يغشاها الابتهاج والمرح أو الانذهال، إلى غيرِ تلك، وأغلب الأحلام لا يلبث أن يُنسى بعد الاستيقاظ، فإن لم تنس خلال اليوم، ضعف تذكرها وكثرت فيها الفجوات كلما تقدم النهار، فى حين تظل أخرى على درجة من الوضوح والنصوع (كأحلام الطفولة مثلا) بحيث يستطيع الفرد أن يسترجعها واضحة، بعد ثلاثين عامًا، كأنها بعض خبراته الحديثة، والأحلام كالناس، فمنها ما يراه الفرد مرة واحدة لا تعود طول حياته، ومنها ما تتواتر رؤياه مرات عددًا، إما بصورته الأُصلية أو بتغييرات طفيفة فيها، وموجز القول أن هذا النشاط النفسى الليلى الذى لا يعتد به، كشكول ضخم ومستودع هائل، وفى وسعه أن يخلق كل ما تستطيع النفس أن تخلقه فى حالة اليقظة - لكنها خلق آخر.

وقد نحاول تفسير هذه الأنواع المختلفة من الأحلام، بأن نفترض أنها تناظر الحالات المختلفة التى تتوسط النوم واليقظة، أى المستويات المختلفة للنوم غير الكامل.. لكن الأمر لو كان كذلك، لتعين أن تزداد قيمة الحلم ومضمونه وتميزه كلما اقترب النائم من حالة اليقظة، ولتعيّن أيضًا أن يزداد تفطن النائم وإدراكه أنه بصدد حلم ، ولما كان من الممكن، فضلا عن هذا، أن تظهر إلى جنب الأجزاء الواضحة المعقولة من الحلم، أجزاء أخرى غامضة غفل من المعنى، تتبعها أخرى واضحة غير سخيفة، فلو أخذنا بهذا التفسير، لكان تسليما بأن للحياة النفسية القدرة على أن تغير من عمق نومها فى سرعة وسهولة، تتنافيان مع ما هو مشاهد فى الواقع، ومن ثم فهو تفسير لا يُغنى، فالأمور لا تجرى على هذا النحو من البساطة بوجه عام.

لندع النظر مؤقتا فى «معنى» الحلم، ولنعمل على أن نستوضح طبيعته بادئين من العناصر المشتركة فى كل الأحلام، لقد خرجنا من دراسة الصلة بين الأحلام والنوم، بأن الحلم استجابة لمنبه يقلق النوم، وقد سمعنا أن هذه النقطة الوحيدة التى يستطيع علم النفس التجريبى أن يعيننا على تحققها، بأن يقدم لنا الدليل على أن المنبهات التى تؤثر فى النائم، تظهر فى أحلامه، فقد أُجريت، فى هذه الناحية، بحوث عدة منها

بحوث «مورلى فُلد» الذى سبقت الإشارة إليه، وفى وسع كل منا أن يؤيد نتائج هذه البحوث من ملاحظاته الشخصية العارضة..

وإليكم طرفًا من أقدم هذه التجارب التى كان يجريها مورلى على نفسه: فقد كلف بعض معاونيه أن يشمموه رائحة «ماء كولونيا أثناء نومه» فرأى فيما يراه النائم أنه فى القاهرة فى محل «جان ـ ماريا» وتبع هذا طائفة من مغامرات حمقاء مسرفة، كما كلفهم أن يقرصوه فى عنقه قرصًا خفيفا»: فما لبث أن رأى نفْطة تلصق بجسده وطبيبا كان يعالجه وهو طفل صغير، ومن تلك التجارب أيضًا أن كلف من يسكب قطرة من الماء على جبينه: فرأى أنه فى إيطاليا يستنشق الهواء الطلق ويشرب من نبيذ أورفيتو الأبيض.

إن مايستلفت النظر فى هذه الأحلام التجريبية ربما يزداد وضوحًا وجلاء فى المجموعة الآتية من الأحلام، التى تنبعث هى الأخرى فى إثر منبهات خارجية: وهى أحلام ثلاثة يرويها ملاحظ بارع هو «هلدربرانت» Hilderbrandt. وكلها استجابات لصوت ساعة منبه:

«أرى أنى اتنزه فى صباح يوم من أيام الربيع، أضرب فى الحقول وكانت على وشك الاخضرار، حتى أبلغ قرية مجاورة، أرى أهلها قد أخذوا زينتهم، واتجهوا زرافات إلى الكنيسة يحملون كتب الصلوات بأيديهم، إذاً فاليوم أحد بطبيعة الحال. وقد أوشكت أن تقام صلوات الصباح، فعزمت على أن أؤدى الصلاة، لكن الجو كان شديد الحرارة، فدلفت إلى المقابر المحيطة بالكنيسة ألتمس الراحة. وبينما أنا أقرأ بعض ما كُتب على القبور، إذا بى أستمع صوت قارع الناقوس وهو يصعد إلى برجه، ثم أرى فى قمة البرج ناقوس القرية الصغير الذى سيعلن عما قليل عن بدء الصلاة. لكنه يظل دون حراك بضع لحظات، ثم يبدأ فى الحركة، وعلى حين فجأة أسمع الدقات واضحة نافذة بحيث أيقظتنى من النوم، لكن هذا لم يكن سوى دقات الساعة المنبهة».

وإليكم مجموعة أخرى من الصور الذهنية لحلم آخر: «كان يوماً من أيام الشتاء الصافية، والشوارع مغطاة بطبقة سميكة من الثلج، وكنت على موعد أن أشترك فى رحلة للانزلاق على الجليد، لكنى مضطر أن أنتظر وقتًا طويلا قبل أن يقال لى إن المزلقة أمام منزلى، ثم ترد المزلقة، فألبس الفراء، وأضع مدفأة الرجلين، ثم أتخذ مكانى من العربة، لكن كان على الجياد أيضًا أن تنتظر الإيذان بالسير. ثم تهتز

السروج بأجراسها الصغيرة اهتزازاً عنيفاً، فتبدأ فى موسيقاها ذات الطابع الانكشارى المعروف، ترسلها فى عنف تمزقت فى أثره خيوط الحلم على الفور. ولم يكن ذلك - هذه المرة أيضاً - إلا صليل جرس الساعة المنبهة.

المثال الثالث: «أرى طاهية تحمل أطباقًا مرصوصة من الخزف، وهى فى طريقها إلى غرفة المائدة، ويخيل إلى أن هذا العمود من الأطباق الصينية فى خطر من أن يختل توازنه، فأهيب بها أن تأخذ حذرها؛ حتى لايسقط ما تحمله على الأرض هشيما، فأتلقى منها الجواب المألوف فى مثل هذه الحالة، وهو أنها ألفت هذا العمل واعتادته فلم يمنعنى هذا من أن أتبعها بنظرات قلقة، وقد حدث ما كنت أتوقع، إذ عثرت على عتبة الباب فهو ما كانت تحمله أمشاجاً من كسار شتى تصحبه قعقعة مدوّية وسرعان ما فطنت إلى أن هذه الضوضاء قرقعة وتهشيما، بل صوتا موصولا ودقات منتظمة - لم تكن غير دقات الساعة المنبهة ما تحققتها إلا حينما استيقظت».

تلك أمثلة لأحلام بديعة حافلة بالمعنى، وهى، على خلاف أغلب الأحلام، ملتئمة متماسكة إلى حد كبير، فليس لدينا اعتراض عليها من هذه الناحية.. أما السمة المشتركة فيها جميعاً، فهى أن الموقف، فى كل حالة منها، ينجم عن ضوضاء يعرف النائم عند استيقاظه أنها ضوضاء ساعة منبهة، ومن هنا نعرف كيف يحدث الحلم، ولا نعرف أكثر من ذلك، فالنائم لايتعرف دقات الساعة (أى إن الساعة لا تظهر على مسرح الحلم)، لكنه يستبدل بها ضوضاء أخرى، ويؤول المنبه الذى يقلق نومه تأويلا مختلفاً فى كل حالة. ترى ما السبب فى هذا؟

ليس ثمة جواب عن هذا؛ إذ يلوح أن الأمر مجرد اتفاق لايخضع لقاعدة، على أننا إذا أردنا أن نفهم الأحلام، فلابد من أن نكون قادرين على أن نعلل اختيار النائم نوعاً بعينه من الضوضاء - لا نوعا آخر - ليؤول به التنبيه الصادر من الساعة، ومن ثم يجب أن نعترض بالمثل على تجارب «مورى» بأنها، وإن كان يتضح منها ظهور أثر المنبهات فى صورة معينة بذاتها، وهى صورة لايمكن أن تقرها طبيعة المنبه الذى يقلق النوم، هذا إلى أننا نلحظ فى هذه التجارب، طائفة من آثار ثانوية تصاحب الأثر المباشر للمنبه، كتلك المغامرات المسرفة الحمقاء فى الحلم الذى استثاره «ماء كولونيا» وهى مغامرات يتعذر تعليلها.

أذكروا أن هذا الصنف من الأحلام الذى يوقظ النائم، هو خير مثال يبين تأثير المنبهات الخارجية المقلقة، أما فى أغلب الأحوال الأخرى، فالأمر أصعب من هذا،

فنحن لا نستيقظ فى إثر كل حلم، ولئن تذكرنا فى الصباح حلمًا رأيناه بليل، فكيف نستطيع أن نعزوه إلى المنبه المقلق الذى ربما كان يؤثر فينا أثناء النوم؟ لقد وفقت ذات مرة إلى تعرف منبه صوتى من هذا النوع، بعد أن استيقظت، لكن كان ذلك فى ظروف خاصة بطبيعة الحال: استيقظت ذات صباح فى مكان ما بجبال التيرول، موقناً بأنى رأيت فى نومى أن البابا قد توفى.

ولم أستطع تأويل هذه الرؤيا لنفسى حتى سألتنى زوجتى: «هل سمعت فى وجه الصباح المبكر تلك الأصوات المروعة ـ أصوات النواقيس فى الكنائس الكبيرة والصغيرة جميعا؟ فأجبتها بأنى لم أسمع شيئا.. لأنى أنام نوماً عميقاً». وقد كان فى سؤالها هذا ما أتاح لى أن أفهم رؤياى. ترى كم من أمثال هذا المنبه توحى إلى النائم بأحلام دون أن يعلم من أمرها شيئا مما بعد؟ قد يكون الأمر كذلك فى الكثير الغالب من الأحيان، أو لا يكون كذلك. فإن لم يتسن لنا أن نعرف شيئا عن المنبه، فليس فى وسعنا أن نقطع بشىء من أمره. وبغض النظر عن هذا، فليس لنا أن نطيل الوقوف هنا نناقش قيمة المنبهات الخارجية وأثرها من حيث هى مصادر لإقلال النوم، لأننا نعرف أنها لا تفسر إلا جانبا صغيراً من الحلم، وليس كل الاستجابة التى يتكون منها.

على أن هذا ليس سببا يحملنا على أن نذر هذه النظرية بأسرها، فلا يزال ثمة مجال لتأثيرها حتى النهاية، والحق أن ما يقلق النوم ويسبب الحلم ليس بالأمر الذى يعنينا، فإن لم يرجع هذا السبب إلى منبه خارجى يقرع حاسة من الحواس، فقد يكون منبهاً حشوياً مصدره الأعضاء الداخلية، وهو افتراض مرجح إلى حد بعيد، كما أنه يتماشى مع الرأى المشاع بين الناس عن نشأة الأحلام، إذ إننا كثيرا ما نسمع أن الأحلام تنشأ من المعدة.

غير أننا لسوء الحظ نلتقى هنا أيضاً بحالات كثيرة جداً لايترك فيها المنبه الحشوى الذى كان يعمل، فلاريب أن نغضى عما يؤيده كثير من الخبرات الموثوق بها من أن الأحلام قد تشتق من منبهات حشوية، فمما لانزاع فيه إجمالا أن حالة الأعضاء الداخلية من شأنها أن تؤثر فى الأحلام، وليس هناك سبيل إلى أن ننكر الصلة بين مضمون كثير من الأحلام وامتلاء المثانة أو تهيج الأعضاء التناسلية، وإلى جانب هذه الحالات الصريحة الواضحة.. هناك أخرى تجعلنا فى حل من الظن بتأثير المنبه الحشوى فى مضمون الحلم؛ ذلك أن هذا المضمون ينطوى على عناصر يمكن اعتبارها تصويراً أو تأويلا أو تعديلا لمنبه من هذا النوع.

وقد كان «شرنر» Scherner ـ الذى اهتم كثيراً بموضوع الأحلام (١٨٦١) ـ يؤكد بوجه خاص نشأة الأحلام من منبهات عضوية: وقد أفضى إلينا ببضعة أمثلة بديعة تعزز رأيه هذا، من تلك أنه رأى مرة «صفين من الأولاد حسان لهم وجوه لطيفة وشعر أشقر، وقد واجه بعضهم بعضاً فى موقف صراع يمسك بعضهم برقاب بعض حيناً، ثم ينفضون حيناً ليعودوا سيرتهم الأولى مرة أخرى». فكان أول تأويل عرض له، هو أن صفى الأولاد تصوير رمزى لصفى الأسنان، وقد تأكد له هذ التأويل، فقد رأى فى نومه قبل هذا المنظر «أنه ينزع سناً كبيرة من فكه». كما أنه رأى فى مرة «دهاليز طويلة ملتفة ضيقة»، فأوّل هذا بمنبه انبعث فى أمعائه، وهو تأويل سليم يستقيم مع مذهبه، الذى يرى أن الحلم يعمل قبل كل شىء على تصوير العضو الذى يصدر منه التنبيه بأشياء تشابهه.

وهكذا نرى أنه لامعدى عن التسليم بأن المنبهات الداخلية تقوم فى الأحلام بالدور نفسه، الذى تقوم به المنبهات الخارجية، وإن كان تأويلها لا يسلم، لسوء الحظ، من الاعتراضات نفسها. فى كثير جداً من الحالات، لا يكون التأويل بالمنبهات الداخلية أكيداً حقاً، أو مما يمكن البرهنة عليه. ثم إن الأحلام التى تدعو إلى الظن بأنها تعزى إلى منبهات داخلية ليست كل الأحلام، بل طائفة معينة منها ليس غير. وأخيراً فالمنبهات الحشوية الداخلية لا تفسر من الأحلام إلا ما يقابل الاستجابة المباشرة للمنبه، ولا تعلمنا شيئاً عن نشأة الأجزاء الأخرى من الحلم، شأنها فى ذلك شأن المنبهات الخارجية.

ومع هذا فثمة خاصة للأحلام تبدو من دراسة هذه المنبهات، هى خاصة جديرة بالنظر؛ فالحلم لا يصور المنبه كما هو عليه، بل يتناوله بالتحوير والتعديل أو يلمع إليه إلماعا، أو يدرجه فى إطار خاص وملابسات خاصة، أو يستبدل به شيئا غيره. وهذه ناحية من عملية صوغ الحلم، خليقة بأن تهتم لها؛ إذ من الممكن أن تهدينا وتقربنا من طبيعة الحلم وجوهره، ولتقريب هذا من الأذهان، نقول: إن مجال إنتاج الفرد يكون أوسع وأشمل بالضرورة من أن تحدده الظروف التى تسلم إليه مباشرة، فقصة «مكبث» لشكسبير مثلا، مأساة كتبت فى ظرف خاص، هو اعتلاء ملك كان أول من جمع بين تيجان ممالك ثلاث.

لكن هل يستوعب هذا الظرف التاريخى كل مضمون المأساة، أو يفسر ما تنطوى عليه من فخامة وجلال، وما تشتمل عليه من ألغاز ومعميات؟ فربما كانت الوجوه، إذ

تكون بمثابة الظرف الذى يستثير الحلم ليس غير، فلا تبصرنا بشىء عن طبيعته الحقة وجوهره.

أما الخاصة الأخرى التى تشترك فيها كل الأحلام، أعنى خاصتها النفسية فمما يصعب فهمها إلى حد كبير. هذا إلى أنها لايمكن أن تكون نقطة ارتكاز لبحوث أخرى فيما يبدو، فالأحداث التى تصاغ منها الأحلام تبدو غالبًا فى شكل صور بصرية، فهل تستطيع المنبهات أن تفسر لنا هذه الظاهرة وهل ما نخبره ونشعر به فى الحلم هو المنبه حقًا؟ إذا كان الأمر كذلك، فلم يبدو الحلم فى شكل صور بصرية، فى حين أن المنبهات البصرية لا تستثير أحلاماً إلا فى حالات نادرة غاية فى الندور؟ وإذا كان حلم من أحلامنا يدور على محادثة أو خطابة، فهل فى وسعنا أن نثبت أن آذاننا كانت تقرعها أثناء النوم أحاديث أو أصوات أخرى تشبه الحديث؟ إنى أبيح لنفسى أن أرفض هذا الفرض رفضاً باتاً من دون تردد.

لئن كانت الخصائص التى تشترك فيها الأحلام جميعًا قد عجزت أن تكون لنا عونا على تفسير الأحلام، فلعلنا نكون أسعد حظاً إن التجأنا إلى أوجه الاختلاف التى تفرق بين بعضها وبعض، إن الأحلام فى أغلب أمرها غفل من المعنى[١]، ملتبسة، متناقضة، لكن هناك أخرى تكون واضحة معقولة وغير سخيفة، فلننظر فى هذه الأحلام الواضحة المعقولة، فعساها أن تعيننا على تفسير الأحلام المتناقضة السخيفة.

وسأقص عليكم آخر حلم معقول روى لى وهو حلم لشاب من الشبان: «بينما كانت أسير فى شارع (كارنتنر) إذ قابلت السيد «س» فسرت معه خطوات، ثم ذهبت بعدها إلى مطعم، فإذا بسيدتين ورجل يقبلون فيجلسون إلى مائدتى، فضقت بهم أول الأمر، وأعرضت أن أنظر إليهم. لكننى شخصت إليهم أخيراً فألفيتهم على جانب كبير من الظرف». وقد علّق الشاب على هذا بأنه كان يسير بالفعل، ليلة الحلم، فى هذا الشارع، فهو الطريق الذى اعتاد السير فيه، وأنه التقى فيه بالسيد «س». أما الشطر الآخر من الحلم فلم يكن ذكرى مباشرة كشطره الأول، بل كان يشبه إلى حد ما حادثة وقعت له منذ عهد مضى.

---

(١) لايقصد بهذا أن الحلم لاينطوى على دلالة ومغزى، بل إنه يبدو فى ظاهره لغواً وعبثاً «المترجم».

وإليكم حلمًا ساذجًا(٢) آخر من النوع نفسه، قصته على سيدة، فقالت: سألنى زوجى «ألا تظنين أن البيانو فى حاجة إلى إصلاح لشد أوتاره ؟» فأجبت: «ليس من داع إلى هذا، فالمطارق فى حاجة إلى أغطية جديدة من الجلد بأية حال» فهذا الحلم، بألفاظ تكاد تكون هذه الألفاظ بذاتها، ترى ماذا نستطيع أن ننتفع به من هذين الحلمين الساذجين؟ لا شىء أكثر من أن هناك أحلامًا تتضمن ذكريات أحداث من حياة الفرد الجارية، أو أشياء تتصل بها. ولاريب أنها نتيجة ذات وزن، لو أنها صحت على كافة الأحلام دون استثناء، لكن الواقع غير هذا. فهذه الخاصة لا تنسحب، هى الأخرى، إلا على أقلية ضئيلة من الأحلام؛ إذ أن الأحلام لا صلة بينها وبين مجريات حياة اليقظة، فها نحن أولاء لم نفد شيئا من هذه الناحية يلقى بعض الضوء على الأحلام المتناقضة والمجردة من المعنى، بل كل ما أفدناه أننا التقينا بمشكلة جديدة، فما نريد أن نعرفه الآن لا يقتصر على ما يقوله الحلم ويدل عليه، بل نريد فوق هذا، أن نعرف لماذا ولأية غاية، نعيد فى الإحلام ـ متى كانت دلالتها واضحة كما فى الحلمين السابقين ـ وقائع نعرفها وقد حدثت لنا منذ عهد قريب.

لا ريب أنكم مللتم، كما مللت، المضى فى هذا النوع من البحث، فهو لم يزد على أن يبين أن الاهتمام بمشكلة ما، مهما كان دائبًا موصولاً، لا يكفى لحلها إن لم تصاحبه فكرة عن اتجاه معين يجب السير فيه ابتغاء الوصول إلى ذلك الحل. ونحن لم نعثر على هذا الاتجاه حتى الآن. فعلم النفس التجريبى لا يزودنا إلا بمعلومات طفيفة ـ وإن تكن ذات قيمة فى الحق ـ عن الدور الذى تقوم به المنبهات فى استثارة الأحلام . أما الفلسفة فلا ننتظر منها شيئا إلا نظرة متعالية ترى فى موضوعاتنا امتهانا للبحث الفكرى، كما أننا لا نريد أن نستعير شيئا من علوم السحر والتجامة، أما التاريخ وحكمة الشعوب فتخبرنا أن الأحلام تحفل بالمعانى وأن لها أهمية، وأنها تنبئ بالغيب، غير أن هذا مما يتعذر قبوله والبرهنة عليه من دون شك، وهكذا أخفق أول مجهود لنا، وكان برمته قاصراً عقيما.

ووسط هذه الحيرة، يأتينا العون من ناحية لم نتوقعها قط، ولم نتصد لها بعد، تلك

---

(١) Prosaic dream نقصد بالحلم الساذج ما برئ من التنميق والتهويل والتلفيق، فيما يبدو «المترجم».

هى اللغة الدارجة، التى ليست على التحقيق من خلق المصادف، بل مستودع تتبلور فيه المعارف القديمة وتتراكم، إن صح التعبير، (وإن تكن منهلا يجب ألا يستغل دون تحفظ واحتياط)، أقول إن هذه اللغة تعترف بوجود شيء تسميه «أحلام اليقظة»، وهى تسمية تثير الدهش حقا.. وأحلام اليقظة نوع من المتخيلات[1] (صور من خلق الخيال) وظواهر عامة مشاعة، تشاهد فى الأسوياء وغير الأسوياء من الناس، كما أن كل فرد فى مقدوره أن يدرسها بسهولة فى نفسه.

وأعجب ما فى منتجات الخيال هذه، أنها سميت «أحلام اليقظة»، فى حين أنها لا تتسم فى الواقع بأية خاصة من الخاصتين اللتين تشترك فيهما أحلام النوم، فاسمها ينقض أية صلة بينها وبين حالة النوم، هذا من ناحية، أما من ناحية الخاصة الثانية المشتركة بين الأحلام، فليس فى أحلام اليقظة أوهام وهلاوس[2] بل مجرد تصورات: فالفرد يعرف أنه يتصور ويتخيل، وأنه لا يرى بل يفكر، وتظهر أحلام اليقظة قبل سن البلوغ، بل تبدو غالبا منذ الطفولة المتأخرة، ثم تختفى فى سن النضج، أو تلازم الفرد طول حياته، أما محتوى هذه المتخيلات ومضمونه فتميله وتهيمن عليه دواقع شفافة غاية فى الشفوف، فما هى إلا مناظر وحوادث ترضى نزعات الفرد الأنانية إلى الطموح والسيطرة أو رغباته الشهوية، وتغلب التخيلات التى تدور على الطموح، عند الشباب من الرجال، فى حين تغلب المتخيلات الشهوية عند النساء، ممن يركزون كل طموح لديهن فى مغامرات الحب.

على أن الرغبات الشهوية كثيرا ما تكون مختفية وراء الستار عند الشباب: فكل ما يقومون به من مغامرات وبطولة، لايرمى فى الواقع إلا إلى كسب رضا النساء وإعجابهن، وفيما عدا ذلك، فأحلام اليقظة على درجة كبيرة من التنوع والتفاوت، كما تختلف مصائرها وتتباين، فمنها ما يذره الفرد بعد وقت قصير ليستبدل به غيره، ومنها ما يبقى ويحكم حتى تصاغ منه قصص طويلة تُوائم ظروف الحياة المتغيرة، فكأنها تساير الزمن، يدمغها الموقف الجديد بطابع يشير إلى أثره فيها.

---

1. Phantasies

2. Halluicnations

وأحلام اليقظة هى المادة الخام للإنتاج الشعرى؛ فالكاتب يأخذ فى تحويرها وتنكيرها أو اختزالها حتى يخلق منها المواقف التى يضمنها قصصه ورواياته ومآسيه. أما البطل فى حلم اليقظة؛ فهو الشخص الحالم نفسه دائما ، يقوم بدور البطل مباشرة أو بأن يتقمص شخصية غيره تقمصاً صريحاً.

ربما سميت أحلام اليقظة باسمها لأنه تشبه أحلام النوم من حيث صلتها بالواقع، فجاء اسمها يشير إلى أن مضمونها لايمكن اعتباره أكثر واقعية من مضمون أحلام النوم، غير أنه من الممكن أن يرجع هذا الاشتراك فى التسمية إلى خاصة نفسية معينة للحلم لانزال نجهلها وإن كنا نجد فى أثرها، ومن ناحية أخرى، قد نكون خاطئين إذ نقيم لهذا الاشتراك فى التسمية دلالة ووزناً، وتلك مسألة لايمكن الإجابة عنها إلا فيما يلى.

المحاضرة السادسة

فروض تمهيدية وخطة التأويل[1]

رأينا مما تقدم أننا فى حاجة إلى طريقة جديدة واتجاه محدد، إن كنا نريد أن نخطو ببحوثنا في الأحلام إلى الإمام، واقترح عليكم بهذا الصدد اقتراحًا واضحًا بسيطًا، هو أن نسلِّم فى كل ما سيلى من بحوثنا بالفرض الآتى ـ وهو أن الحلم ظاهرة نفسية وليست بدنية[2]، تعرفون ما أعنى بهذا..

لكن ماذا يبرر قبولنا هذا الفرض؟ لا شيء، لكن ليس ثمة ما يمنعنا من قبوله أيضًا. وبذا يتلخص الموقف فيما يلى: إذا كان الحلم ظاهرة بدنية فهو لا يعنينا. ولايمكن أن نهتم له إلا إذا سلمنا أنه ظاهرة نفسية، لذا فسنسلم بصحة هذا الفرض لنرى ما سوف يترتب على ذلك. وستعيِّن لنا نتائج بحثنا ما إذا كان يجب علينا أن نستمسك بهذا الفرض، وأن نتخذه بدوره نتيجة ظفرنا بها عن طريق سليم، ونتساءل الآن عن الهدف من بحثنا هذا، أو عن الغاية التى نوجه جهودنا إليها تحديداً؟ أما هدفنا ـ فهدف كل علم ـ فنحن نريد أن نفسر الظواهر، وأن نربط بعضها ببعض، وأن نزيد آخر الأمر من سيطرتنا عليها ما وسعنا ذلك.

لذا سنمضى فى بحثنا هذا على فرض أن الأحلام ظاهرة نفسية، والأحلام فى هذا الفرض نشاط يصدر عن صاحب الحلم، لكنه من نوع لا نفهمه ولا يعلمنا شيئا. افرضوا أن صدر منى الآن شيء لا تفهمونه، فماذا أنتم فاعلون؟ لاشك أنكم ستطلبون إلىَّ معنى ما أقول، فلم لا نفعل هذا مع صاحب الحلم؛ **فنسأله عن معنى حلمه ومغزاه؟.**

لعلكم تذكرون أننا التقينا بموقف شبيه بهذا من قبل. كان ذلك حين كنا نحلل بعض الهفوات، وكنا بصدد فلتة من فلتات اللسان، إذ قال بعض الناس: «عندئذ **انكشرت** أمور كثيرة». فسألناه ـ لا! لحسن الحظ لم نكن **نحن** الذين سأل، بل أناس آخرون لا صلة لهم بالتحليل النفسى ـ **فهم** يسألونه عما يعنى بهذه العبارة غير المفهومة، فأجاب من فوره أنه كان يقصد إلى أن يقول «إنها أمور منكرة»، لكنه أمسك

---

1. Technkue .
2. Somatic.

لسانه وضبط نفسه، فترتب على هذا الصراع بين القصدين أن نطق بهذه اللفظة الغريبة، وقد ذكرت لكم إذ ذاك أن هذا التحرى نموذج لكل بحث تحليلى نفسى، فلعلكم تدركون أن خطة التحليل النفسى تحاول ما استطاعت أن تدع المحلل نفسه يجيب عن مشكلاته الخاصة، إذاً فعلى صاحب الحلم نفسه أن يؤول حلمه.

غير أن الأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة فى حالة الأحلام، فقد أفلحت هذه الطريقة فى حالات كثيرة من الهفوات، وفى حالات أخرى كنا نسأل الشخص فيها فيرفض أن يقول شيئا، بل ويتبرأ حانقاً من الجواب الذى نكاشفه به». أما فى الأحلام فالأمر على غير هذا إطلاقًا ، إذ يجيب الحالم أبداً بأنه لا يعرف شيئا، كما أنه لايستطيع أن ينكر تأويلنا، فليس لدينا تأويل نعرضه عليه، أينبغى لنا إذاً أن نقلع عن محاولتنا هذه؟ إن **الحالم** لايعرف شيئاً، **ونحن** لا نعرف شيئا، وأى شخص ثالث ليس فى وسعه، يقيناً، أن يعرف شيئًا ، فأنّى لنا إذاً أن نعرف شيئا؟. لئن شئتم أن تذروا هذه المحاولة فذروها، أو فاتبعونى، فإنى أؤكد لكم أنه من الممكن جدّاً، بل من المرجح إلى حد كبير أن الحالم يعرف معنى حلمه حقًا، **غير أنه لا يعرف أنه يعرف، ومن هنا يعتقد أنه لا يعرف.**

أكبر الظن أنه ستوجهون نظرى إلى أنى أصوغ فرضًا جديداً، هو الثانى، فى فترة قصيرة، مذ بدأنا دراسة الأحلام، وأننى بهذا أغض إلى حد كبير من قيمة طريقتى فى البحث وأباعد بينها وبين الوثوق بها، فقد كان الفرض الأول: أن الحلم ظاهرة نفسية، وها هو ذا الثانى يقول: إن عقول الناس تحتضن أشياء معينة يعرفونها دون أن يعرفوا أنهم يعرفونها... وهلم جرا!، وربما قلتم: حسبك أن يقر فى ذهنك أن كلا الفرضين بعيد الاحتمال كل البعد، حتى تعرض الإعراض كله عن النتائج التى يمكن أن تستخلص منهما.

نعم، لكنى لم أدعكم إلى الحضور هنا لأخدعكم أو لأخفى شيئا عنكم، الحق أننى أعلنت أنى سألقى سلسلة محاضرات عنوانها، «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى»، غير أنى لم أكن أقصد بهذا قط أن أقوم بدور العرّاف أسرد عليكم طائفة من الوقائع تتعاقب فى سهولة ويسر، فى حين أخفى الصعوبات، وأسدُّ الثغرات شيئا جديداً، لا، فأنتم مبتدئون، وهذا بعينه ما حملنى على أن أعرض عليكم علمنا هذا

على ما هو عليه، وبكل ما فيه من فضوله وفجاجة وركاكة وادعاء، وبكل ما قد يستثير من أوجه للنقد، وأعرف حقا أن الأمر بالمثل فى كل علم من العلوم، وأنه لايمكن أن يكون غير هذا، خاصة فى مبتدأ العلم، كما أعرف أيضاً أن فى تعليم العلوم الأخرى، تبذل الجهود فى أول الأمر لإخفاء ما فيها من صعوبات ونواحى ضعف، غير أن هذا لايمكن الأخذ به فى تعليم التحليل النفسى.

لذا صُغت فرضين يتضمن أحدهما الآخر. فمن رأى منكم فى هذا الأمر أمراً شاقاً أكثر مما يجب، أو منبهاً أكثر مما يجب، أو من ألف منكم ألا يرتاح إلا إلى الدرجات العليا من التأكد واليقين، أو إلى أكثر الاستنتاجات صقلا وتهذيباً، فليست به حاجة إلى أن يمضى معى إلى أبعد من هذا، على أنه ينبغى لى أن أنصح لأمثال هؤلاء أن يذروا المسائل السيكولوجية كافة، خشية ألا يجدوا فى هذا المجال، تلك السُّبل المحققة المضبوطة التى هيئوا للسير فيها إلى هذا. إن أى علم يهف إلى أن يفضى بشىء حقيقى إلى المعرفة، لاينبغى له أن يلتمس أنصاراً أو مستمعين، فنتائجه هى التى يجب أن تتحدث بلسانه، وإنه لقادر على أن ينتظر حتى تكون هذه النتائج قد قسرت الناس على الانتباه إليها قسراً.

غير أنى أحب أحذر من يرون البقاء معى، من أن الفرضين اللذين قدمتهما، لايستويان أهمية ووزناً، فأما أولهما، وهو أن الأحلام ظاهرة نفسية، فهو الفرض الذى آمل أن أبرهن عليه نتائج بحثنا هذا، وأما الآخر، فقد سبق البرهان عليه فى ميدان غير هذا. ولست إلا مطلقاً لنفسى الحرية فى استعارته لحل ما يهمنا من المسائل هنا.

فى أى ميدان، وأين قام الدليل على أن الإنسان قد تنطوى نفسه على معرفة دون أن يعرف عنها شيئا، وهو ما نفترض فى حالة الحالم؟ لو صح هذا لكان من دون شك أمراً عجيباً يبهر ويروع، ولكان من شأنه أن يغير نظرتنا إلى الحياة النفسية تغييراً تاماً، ولكنا فى حاجة إلى أن يظهر فلا يظل خافياً، هذا إلى أن يكون واقعة تعبر عن شىء واقعى، مع ما بين طرفيها من تضارب وتناقض، والواقع أن ليست هناك أية محاولة لإخفاء هذه الواقعة، فنحن لانستطيع أن نلوم واقعة لأن الناس تجهلها، أو لا تهتم بها ، كما أننا لانستطيع أن نلوم أنفسنا لأن كل هذه المسائل السيكولوجية قد حكم عليها قوم أعرضوا عن الملاحظات والتجارب مع أنها وحدها الفيصل الحاسم فى هذا الموضوع.

إن الدليل الذى نتحدث عنه، وقع بالفعل فى مجال النوم المغناطيسى، ففى عام ١٨٨٩، كنت أختلف إلى تلك الجلسات الإيضاحية الرائعة التى كان يرأسها «ليوبول» Liébault و «برنهايم» Bernheim بمدينة نانسى (بفرنسا)[١]، فشهدت التجربة الآتية:

نُوِّم رجل إلى درجة التجوال النومى، ثم أوحى إليه وهو فى هذه الحالة بأنواع شتى من الأوهام والهلاوس. فلما استيقظ كان يبدو، بادئ الأمر، أنه لا يعرف البتة شيئا مما حدث أثناء نومه المغناطيسى، ولما سأله برنهايم» أن يقص عليه ما حدث أثناء نومه، صرح الرجل بأنه لايستطيع أن يتذكر شيئا.غير أن الأستاذ ألحّ عليه وأكد له أنه يعرف، وأنه لو أجهد نفسه قليلا استطاع أن يتذكر كل ما حدث، عندئذ رأينا الرجل قد أخذ يتردد، وشرع يستجمع أفكاره، ثم استرجع أول الأمر، كأنه فى حلم، إحدى الحوادث التى أوحى إليه بها، وبعدها تذكر شيئا آخر، ثم أخذ تذكره يطرد واضحاً مستكملا، حتى ظهر آخر الأمر غفلا من أى فجوة فيه. فبما أن الرجل قد نسى له أخيراً أن يعرف كل شيء دون أن يخبره به أحد، فنحن فى حل أنِ نستنتج أن هذه الذكريات والحوادث كانت فى نفسه من أول الأمر، حتى قبل أن يدفع إلى التذكر دفعًا، غير أنها كانت ممتنعة عليه، فلم يكن يعرف أنه يعرفها، وكان يعتقد أنه لايعرفها، والحق أن هذه الحالة شبيهة كل الشبه بما نفترضه لدى الحالم.

لاريب أنكم دهشتم أنى قدمت الدليل على هذه الواقعة، وإذا بكم تسألون: «ولِمَ لَمْ تُشر إلى هذا الدليل من قبل، يوم كنا نبحث فى الهوات، وجئنا على ذكر رجل تورط فى فلتة لسان، فأسندنا إليه مقاصد تستتر وراء كلامه، لم يكن يعرف عنه شيئا، وكان ينكرها، فإذا كان من الممكن أن يعتقد الإنسان بأنه لايعرف عنها شيئا، وكان ينكرها؟ فإذا كان من الممكن أن يعتقد الإنسان بأنه لايعرف شيئا عن أحداث يحمل ذكراها فى نفسه، فمما لايبعد احتماله البتة أن تجرى في نفسه عمليات أخرى لا يعرف عنها شيئا كذلك.

إنك لو كنت فعلت هذا لأثر تدليلك فى نفوسنا من دون شك، ولأتاح لنا فهم الهفوات». لا ريب أنى كنت أستطيع أن أورد هذا الدليل فى ذلك الحين، غير أنى

---

(١) كان العلاج النفسى عن طريق الإيحاء فى النوم المغناطيسى سائداً قبل ظهور التحليل النفسى، وكان أطباء مدينة نانسى يؤثرونه ويروجون له بشتى الوسائل «المترجم».

احتفظت به لفرصة أخرى تبدو فيها الحاجة أمسّ إليه، الواقع أن بعض الهفوات كانت تفسر نفسها بنفسها، وأن بعضها الاخر كان يوحى إلينا بأنه يجدر بنا ـ لكى نفهم الارتباط بين الظواهر ـ أن نفترض وجود عمليات نفسية يجهلها تماما، أما فى الأحلام، فنحن مضطرون إلى البحث عن تفاسير فى مكان آخر، هذا إلى أننى قدّرت أنكم تكونون أكثر استعداداً لتشبيهها بالنوم المغناطيسى، والتدليل عليها من مجاله، ذلك أن الحالة التى ترتكب فيها الهفوة، لابد أن تبدو لكم حالة سوية عادية، ليس بينها وبين حالة النوم المغناطيسى شبه البتة، أما حالة الحلم فعلى عكس تلك، إذ هناك تشابه واضح كل الوضوح بين حالة النوم المغناطيسى وحالة النوم الطبيعى، التى هى الشرط الأساسى لحدوث الأحلام، والواقع أننا نسمى النوم المغناطيسى **بالنوم الاصطناعى**، ونقول للشخص الذى نريد أن ننومه، «نم!» كما أن الإيحاءات التى نبثها فى نفسه، يمكن أن تقارن بأحلام النومِ الطبيعى، فالموقف النفسى متشابه حقا فى الحالتين.. ذلك أننا فى النوم الطبيعى نعرض عن العالم الخارجى بأسره ونصدٌّ عن كل اهتمام به.

والأمر بالمثل فى النوم المغناطيسى ـ باستثناء شخص واحد من الشخص الذى نومنا والذى نظل متصلين به: وفضلا عن هذا ، فما يسمى نوم المراضع ـ ونعنى به **نوم المرضِع** بحيث تظل متصلة بالرضيع فلا يوقظها شىء آخر غيره ـ ما هو إلا نظير سوي للنوم المغناطيسى، ومن هنا يبدو أن ليس من الاجتراء والتهور أن نستعير للنوم الطبيعى شيئا مما يتسم به النوم المغناطيسى، وعلى هذا فالفرض الذى يقول إن صاحب الحلم يعرف حلمه بعض المعرفة، وإن هذه المعرفة حريزة ممتنعة عليه، ليس بالفرض الذى يقوم على غير أساس، وهكذا ينفتح أمامنا طريق ثالث لدراسة الأحلام: فقد استطعنا أن نعالجها عن طريق المنبهات التى تقلق النوم، وعن طريق أحلام اليقظة، وها نحن أولاء نستطيع أن نتناولها من طريق الأحلام التى توحى أثناء النوم المغناطيسى.

ربما نستطيع أن نعود الآن إلى بحثنا بثقة أكبر من ذى قبل.. فقد رأينا أنها من الراجح أن يعرف الحالم شيئا عن حلمه، وبقى أمامنا أن نعرف كيف نمكنه من إدراك هذه المعرفة ونقلها إلينا، نحن لا ننتظر منه أن يخبرنا على الفور بمعنى حلمه، بل نريد أن نعينه على الكشف عن أصله، لنعرف من أية مجموعة من الأفكار والاهتمامات استقى هذا الحلم. ولعلكم تذكرون ذلك الرجل الذى كبا لسانه فذكر كلمة «انكشرت» بدلا من «انكشفت». لقد سئل كيف حدثت له هذه الفلتة، فكان فى أول

خاطر طرأ على ذهنه، تفسيرٌ لحدوث الفلتة، والخطة التى نسير عليها فى حالة الأحلكام بسيطة جداً، وقد صيغت على غرار هذا المثال.. فنحن نسأل الحاكم كيف تسنى له أن رأى حلمه هذا، ونعتبر جوابه الأول تفسيراً، ومن ثم فسواء لدينا اعتقد الحالم بأنه يعرف شيئاً عن حلمه، أو بأنه لا يعرف، ونعالج الحالتين على حد سواء.

هذه خطة على جانب كبير من البساطة على وجه التحقيق، غير أنى أخشى أن تستثير منكم معارضة عنيفة، فربما تقولون: «فرض آخر، هو ثالث الفروض وأبعدها احتمالا!. أن نسأل صاحب الحلم عما يتذكره بصدد حلمه، ونعتبر أول خاطر يعنٌ له تفسيراً؟ من المحقق أنه قد لايتذكر شيئا على الإطلاق، أو قد يتذكر أشياء لايعلم مداها إلا الله، إننا فى الحق لانستطيع أن نتصور الأساس الذى أقمت عليه ما تتوقعه من صاحب الحلم، وما ذاك فى الواقع إلا دليل على ثقة مسرفة بالأقدار، فى حالة خليقة أن تعالج بروح النقد، ثم إن الحلم لايمكن أن يقارن بفلتة لسان واحدة، فهو مكون من عدة عناصر.. فعلى أى خاطر فى هذه الحالة نعتمد؟».

أنتم على حق فى كل ما اعترضتم من اعتراضات ثانوية لاتمس الصميم. فالواقع أن الحلم يختلف عن فلتة اللسان من حيث كثرة عناصره ومن نواح أخرى، ولامعدل عن مراعاة هذا فى الخطة التى نسير عليها. لذا أقترح أن يفكك الحلم إلى عناصره المختلفة، وأن يفحص كل عنصر على حدة، وبذا نكون قد أعدنا التشابه بينه وبين فلتة اللسان، كما أنكم على حق كذلك؛ إذ تقولون إن الحالم متى سئل عن عناصر حلمه فرادى، فقد يجيب بأنه لايتذكر شيئا منها، وهذا جواب نقبله ونفيد منه فى حالات سنعرض لها فيما بعد.

ومن الغريب حقاً أن هذه الحالات بعينها هى التى يتسنى لنا أنفسنا أن نكوّن عنها فكرة محددة، بيد أننا بوجه عام لا نترك الحالم وشأنه متى صرح لنا بأن ليست لديه فكرة ما. بل نعارضه فى هذا ونلح عليه أن يجيب، ونؤكد له أنه لابد أن تكون لديه فكرة، فنجد آخر الأمر أننا على حق فى المعارضة والإلحاح، إذ نراه يقدم لنا خاطراً عنّ له ـ لايهمنا أى خاطر يكون ـ ولا يعز عليه أن يزودنا بمعلومات، لنسمها (المعلومات التاريخية) فقد يقول مثلا: هذا شيء حدث أمس (كما فى احلمين الساذجين اللذين ذكرناهما من قبل) ، أو يقول: «هذا يذكرنى بشيء حدث منذ عهد قريب». فإذا مضينا على هذا النحو، رأينا أن الحلم يرتبط بانطباعات تأثر بها الشخص فى الأيام الأخيرة التى سبقت الحلم ارتباطاً أوثق مما كنا نظن من قبل، وأخيراً قد

يستطيع الحالم إن اتخذ الحلم نقطة ابتداء أن يتذكر حوادث وقعت له فى عهد أبعد من هذا، بل قد يصل إلى أحداث ترجع إلى عهد جد بعيد.

أما اعتراضاتكم التى تمس أشياء جوهرية أساسية فلستم على حق فيها. فأنتم مخطئون إن ظننتم أن من التعسف أن نفترض أن أول خاطر يعرض للحالم لابد أن يزودنا بما نبحث عنه، أو أن يرشدنا إليه بحال. كما أنكم تخطئون إذ تقولون إنه قد يكون فِى أكبر الظن خاطراً أيا كان ، ولا صلة بينه وبين ما نبحث عنه إطلاقا، فإن توقعت غير ذاك. فهذا شاهد على ثقة عمياء بالأقدار، لقد سبق أن أبحث لنفسى أو أؤاخذكم على اعتقادكم الراسخ فى حرية الاختيار النفسية.

وذكرت لكم أنه اعتقاد غير علمى صريح، لابد أن يتلاشى إزاء حتمية تهيمن حتى على الحياة النفسية، لذا أرجو أن تحتموا **حقيقة واقعة** فحواها أن خاطر معينا واحداً، دون غيره، يبدر لصاحب الحلم حين يستجوب عن حلمه، ولست أعنى بقولى هذا أن أضرب اعتقاداً بآخر، إذ من الممكن أن نبرهن على أن هذا الخاطر لم يصدر من الشخص عن اختيار، ولم يعرض له عفواً، وأنه غير منقطع الصلة مما نحث عنه، والواقع أننى علمت منذ عهد قريب ـ دون أن أعلق على ما علمت أهمية كبيرة ـ أن علم النفس التجريبى قد جاء بأدلة من هذا النوع.

ولما كانت هذه الواقعة على درجة بالغة من الأهمية، فأرجو أن تعيروها التفاتا خاصاً، فحين أطلب إلى أحد أن يذكر لى ما يطرأ على ذهنه عن عنصر معين من حلمه، أدعوه إلى أن يستسلم لعملية (**التداعى الطليق) التى تبدأ من فكرة أو خاطر أصلى يكون فى ذهنه**، وهى تتطلب توجيها خاصّا للانتباه، يختلف بل ويتنافى مع ما يحدث فى حالة التأمل الباطنى.

وقد يشق هذا التوجيه على بعض الناس حتى ليعجزوا عنه عجزا بالغا، فى حين لايجد فيه آخرون صعوبة ما. وثمة ضرب آخر، من التداعى على درجة أكبر من الحرية، فلا يبدأ الشخص فيه من فكرة معينة تستثير سلسلة من المعانى والخواطر، بل أكتفى بِأن أذكر له نوع التداعى الذى أريد وجنسه، كأن أطلب إليه مثلا أن يذكرن لى اسم علَم أو عددا أيا كان، فرب قائل يقول إن الحرية والاختيار فى هذا الضرب من التداعى الذى نصطنعه فى خطتنا. غير أنه من الممكن أن نبيّن أن هذا التداعى تحتمه فى كل حالة، اتجاهات نفسية هامة، حتما صارما، وهى اتجاهات لا نفطن إليها فى اللحظة التى تؤثر فينا، مثلها فى ذلك مثل النزعات الدخيلة التى تسبب الهفوات، والنزعات التى تنجم عنها ما تسمى بالأفعال «الاتفاقية» وليدة المصادفة.

وقد أجريتُ - كما أجرى كثير بعدى - تجارب (نُشر بعضها) على الأسماء والأعداد التى تنبعث فى ذهن الفرد، دون أن يستثيرها مثير أو فكرة خاصة تكون نقطة البدء، وكانت الطريقة كالآتى: تستثار سلسلة من المستدعيات (الأفكار والخواطر) حول الاسم الذى يطرأ على ذهن الشخص المفحوص، فلاتكون عندئذ حرة حرية مطلقة، بل يرتبط بعضها ببعض كالأفكار التى تستثار بصدد عناصر الحلم، ثم نمضى فى التداعى حتى تستنفد جميع الخواطر. فإذا ما انتهت التجربة وخرجنا بتفسير يعرّفنا بالدوافع التى أشرفت على التداعى الطليق بصدد الاسم المعين، ويعيننا على فهم دلالة هذا الاسم وأهميته للشخص الذى تجرى عليه التجربة، وقد كانت نتائج هذه التجارب المتكررة واحدة على الدوام وزودتنا بمعلومات تنطوى غالبا على مادة وفيرة وتقتضى استقصاءها والبحث فى شعبها المختلفة.

أما التداعى بصدد الأعداد التى تنبعث تلقائيا فربما كان أكثر أنواع التداعى بيانا إيضاحا: إذ تتتابع المستدعيات فيه سراعا، تسعى فى تأكد ووثوق نحو هدف خاف حتى ليذهل الإنسان حقا من تداركها على هذا المنوال. وسأضرب لكم مثالاً واحدا لحالة من حالات التحليل الذى يدور على الأسماء، اخترته لأنه لايتضمن معالجة مواد كثيرة.

كنت أتحدث ذات يوم فى هذا الموضوع إلى أحد الشبان ممن كنت أعالجهم، فذكرت له أنه على الرغم من حريتنا الظاهرية فى الاختيار، فمن المحال أن يطرأ على ذهن الإنسان اسم ما، دون أن يكون من حتما، فى الواقع، انحتامًا دقيقًا بالظروف المباشرة للشخص وبمزاجه الخاص وبموقفه فى تلك اللحظة، فلما رأيته يتشكك فى الأمر ويرتاب فيه دعوته أن يقوم بتجربته من هذا النوع، ونحن ما نزال فى مجلسنا، وكنت أعرف أنه زير نساء، فظننت أنى لو طلبتُ إليه أن يذكر لى اسم امرأة لأضحى فى حيرة أيهن يختار.

ولشد ما كانت دهشتى، أو على الأصح شد ما كانت دهشته هو أن لم يهمَ بفيض من أسماء النساء، بل ارتج عليه لحظة، ثم صرّح بأن الاسم الوحيد الذى خطر بباله دون غيره هو Albine . فقلت له: «عجبا! وما يقترن فى ذهنك بهذا الاسم؟ وكم تعرف من نساء اسمهن Albine ؟» ومن العجيب حقا أنه لم يكن يعرف امرأة واحدة بهذا الاسم، ولم يجد فى ذهنه شيئا يرتبط به. فقد تظنون أن التحليل قد أخفق وفشل، لكن لا، فهو قد انتهى فقط، ولم يعدْ بنا حاجة إلى خواطر ومستدعيات جديدة: إن هذا

الشاب كان أشقر على جانب كبير من الرقة، وكثيراً ما كنت أداعبه أثناء التحليل فاسميه Albino (أى الأبيض المشرب بحمرة)، هذا إلى أننا كنا فى ذلك الوقت تحديداً نترسم ما فى طبيعته وتكوينه من طابع نسائى، إذاً فقد كان هو نفسه هذه الـ Albino، تلك «المرأة» التى كان يهتم بها من دون غيرها فى ذلك الحين.

والأمر بالمثل فى الألحان التى تثب إلى رءوسنا على حين بغتة ودون سبب ظاهر. إذ يتضح من التحليل أنها مشروطة بسلسلة معينة من الخواطر تشغل بال المرء لسبب ما، دون أن يعرف عنها شيئا. ولا يشق علينا أن نبين أن انبعاث اللحن ـ اللاإرادى فى ظاهره ـ يرتبط إما بألفاظه ونصه، أو بالأصل الذى جاء منه. غير أنى يجب أن احفظ فلا أستمسك برأيى هذا بصدد ذوى المواهب الموسيقية، فلم تتفق لى بهم خبرة. ويبدو أن قيمة اللحن الموسيقية تعلل انبعاثه الفجائى فى الشعور لديهم. ومن المحقق أن حالات الفريق أكثر تواترا وذيوعا: أعرف شاباً أمضى مدة من الزمن يحاصره حصاراً مطبقا، لحنٌ (لاشك أنه بديع) هو لحن أغنية باريس فى أوبريت «هيلين تراوده» Helen of Troy حتى كشف له التحليل فى يوم من الأيام، أن صراعا كان يدور فى نفسه، فى ذلك الحين، بين من يُدعى «إيدا» Ida ومن تدعى «هيلين».

فإذا كانت المستدعيات، التى تنبعث حرة دون قسر ودون مجهود، مشروطة منحتمة على النحو، وتنتمى إلى ملابسات معينة محددة، فنحن فى حل، على التحقيق، من أن نستنتج أن المستدعيات المرتبطة بفكرة واحدة ـ هى الفكرة الابتدائية المثيرة ـ لابد أن تكون منحتمة كذلك انحتاماً دقيقًا. والواقع أن التحليل يرينا أن هذه المستدعيات لاترتبط فقط بالفكرة الأولى المثيرة، بل إنها مرهونة أيضًا بمجموعات من أفكار وميول ذات شحنة وجدانية قوية (أو عقد، كما نسميها) لا نعرف شيئا عن تأثيرها فى اللحظة التى تؤثر فيها، وبعبارة أخرى أنها مرهونة بنشاط لا شعورى.

لقد كانت أمثال هذه المستدعيات موضوع تجارب، زودتنا بالكثير من المعلومات وقامت بدور ملحوظ فى تاريخ التحليل النفسى، فقد بدأت مدرسة «فنت» ما أسمته «تجارب التداعى»: وفيها يطلب إلى الشخص المفحوص أن يستجيب بأسرع ما يمكنه، وبأية كلمة تخطر على باله، بكلمة مُعينة تسمية «كلمة التنبيه Stimulus-Word» وعلى المجرب أن يلاحظ أثناء التجربة أشياء كثيرة منها الفترة الزمنية بين التنبيه والاستجابة، وطبيعة الكلمة التى يستجيب بها الشخص والأخطاء التى يقع فيها إذا

أعيدت التجربة نفسها مرة أخرى، إلى غير تلك، وقد استطاعت مدرسة زيورخ[١] برياسة «بلولر» و«يونج» أن تفسر الاستجابات، التى تصدر من المفحوص خلال هذه التجارب، بأن تتناول المستدعيات التى تبدو غريبة تستلفت النظر، فتطلب إلى الشخص أن يجعلها نفسها مثاراً لمستدعيات إضافية أخرى، وبذا يلقى عليها بعض الضوء، وتصبح أكثر صراحة ووضوحا، وقد اتضح من هذا أن الاستجابات الغريبة غير المعتادة كانت مشروطة منحتمة انحتاما صارمًا بالعقد النفسية، التى يكابدها من تجرى عليه التجربة، وبهذا الكشف أقام «بلولر» و«يونج» أول جسر يصل بين علم النفس التجريبى والتحليل النفسى.

أراكم تقولون بعد أن سمعتم هذا: «نعترف الآن بأن المستدعيات الحرة خواطر وأفكار منحتمة مقررة وليست وليدة الاختيار كما كنا نظن، كما نعترف بهذا أيضاً فيما يتعلق بالمستدعيات التى تتصل بعناصر الحلم. لكن ليس هذا ما يهمنا ويعنينا، فأنت تزعم أن المستدعيات التى يجلبها كل عنصر من عناصر الحلم، تحتمها بطانة نفسية خاصة بها، لكنها بطانة لا تعرف عنها شيئا، ولانستطيع أن نرى أى شاهد على هذا، ونحن ننتظر بطبيعة الحال أن ترينا أن المستدعيات التى يجرها عنصر الحلم مشروط بإحدى العقد النفسية لصاحب الحلم، لكن ماذا تفيد من هذا؟ إنه بدل أن يعيننا على فهم الحلم، لايعدو أن يزودنا ببعض المعرفة عما يسمى بالعقد، شأنه فى ذلك شأن اختبارات التداعى، لكن ما صلة هذه العقد بالأحلام؟».

أنتم على حق فى هذا، وإن فاتكم شيء هام، هو بعينه ما معنى أن أتخذ تجربة التداعى نقطة البدء فى هذه المناقشة، ففى هذه التجارب، نحن الذين نختار «كلمة التنبيه» كما نريد، وهى الشيء الوحيد الذى يعين الاستجابة، فتكون الاستجابة كأنها حلقة وسطى بين كلمة التنبيه والعقد التى تستثيرها هذه الكلمة فى الشخص الذى تجرى عليه التجربة، أما فى الحلم فيستعاض عن كلمة التنبيه بشيء يشتق من الحياة النفسية للحالم، من مصادر لا يعرفها، فأكبر الظن أن يكون هذا الشيء نفسه مشتقاً من عقدة نفسية، لذا فليس من الإسراف أن نفترض أن المستدعيات التالية المرتبطة بعناصر الحلم لا تحتمها عقدة أخرى غير التى أحدثت هذا العنصر بعينه، وأنها تعيننا

(١) يرجع الفضل إلى هذه المدرسة فى تحويل علم الأمراض العقلية القديم بصورته الوصفية لى علم حديث ذى طابع تأويلى ديناميكى، وكان زعيمها بلويلر من أوائل من رحب بحركة التحليل النفسى فى مطلعها «المترجم».

على الكشف عن تلك العقدة.

واسمحوا لى أن أسوق إليكم مثالا آخر قد يتضح منه أن الوقائع تعزز ما نرتقبه فى حالة الأحلام، إن نسيان أسماء الأعلام يتضمن عمليات هى نموذج بديع لما يحدث فى تحليل الحلم، إلا أنها فى حالة النسيان تكون مجتمعة فى شخص واحد، على حين تكون موزعة بين شخصين فى تأويل الحلم.. فحين أنسى اسما من أسماء الأعلام نسياناً مؤقتاً، فأنا ما أزال أوقن أنى أعرف ذلك الاسم.. ومثل هذا اليقين لايمكن أن نظفر به فى حالة الحلم إلا بطريقة غير مباشرة، كتجربة «برنهايم» Bern-heim. غير أن هذا الاسم الذى أنسيته، والذى ما أزال أعرفه مع نسيانه، يفرُّ منى فلاأستطيع إدراكه، وعبثاً أحاول اقتناصه مهما بذلت من فكر ومجهود.

هذا ما تدلنا عليه التجارب، ومه هذا ففى وسعى أن أستحضر، فى كل مرة أحاول فيها استرجاع الاسم المنسى، اسماً آخر أو عدة أسماء بدلا منه.

ومتى وثب الاسم البديل إلى ذهنى من تلقاء نفسه، أصبح التشابه بين موقفى هذا وموقف تحليل الحلم، واضحاً جلياً، كذلك الحال فى عنصر الحلم، فهو ليس ما أبحث عنه بالفعل، إن هو إلا بديل عن شيء آخر.. بديل عن الشيء الحقيقى الذى لا أعرفه والذى أحاول الكشف عنه بتحليل الحلم. والفارق الوحيد بين الموقفين هو أنى حين أنسى اسماً، فأنا أعلم علم اليقين أن الاسم البديل ليس بالاسم الحقيقى، فى حين أنه فى حالة الحلم لانظفر بهذا اليقين إلا بعد بحث شاق طويل، ثم إن لدينا طريقة يتسنى لنا بها أن نصل إلى الاسم المنسى، الهارب من الذهن، إن ابتدأنا من الأسماء البديلة، ذلك أننى إن ركزت انتباهى فى تلك الأسماء البديلة، وتركتها تستدعى أفكاراً وخواطر أخرى، استطعت أن أظفر بالاسم المنسى بعد محاولات تطول أو تقصر، فإن فعلت هذا، رأيت أن الأسماء البديلة التى انبعثت من تلقاء نفسها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ومنحتمة بالاسم المنسى.

وإليكم مثالا لهذا النوع من التحليل: وجدتُ نفسى ذات يوم لا أستطيع أن أذكر اسم ذلك القطر الصغير الواقع على ساحل الريفيرا، الذى تدعى عاصمته (مونت كارلو). وقد ضقت بهذا النسيان، لكن ما بيدى؟ عندئذ جعلت استعرض كل ما أعرف من هذا القطر، ففكرت فى الأمير (البرت) من بيت لوسينيان Lusignan، وفى زيجاته، وغرامه بتجواب أعماق البحار، وفى كل ما يتصل بهذا القطر ـ لكن فى غير جدوى، فوقفت تفكيرى فى هذه الناحية، واسلمته لاسمية بديلة. فسرعان ما انبعثت

فى ذهنى أسماء كثيرة: مونت كارلو نفسها Moute Carlo، ثم بيبى مون Pied-mont، البانيا، مونت فيديو Montevideo كولكو Colico.

وقد كان اسم البانيا أول ما استرعى انتباهى، لكنه ما لبث أن ابتدل «بمونت نجرو» Montenegro (لما بين الأبييض والأسود من تباين)[1] إذ ذاك لاحظت أن أربعة من الأسماء البديلة تشترك فى مقطع واحد هو «مونت» فتذكرت من فورى الاسم المنسى، وهتفت «ومناكو» Monaco. وهكذا كانت الأسماء البديلة مشتقة فى الواقع من الاسم المنسى: فقد جاءت الأربعة الأولى من مقطعه الأول، وجاء الاسم الأخير يمثل تتابع المقاطع فيه والمقطع الأخير كله. وقد استطعت فى الوقت عينه أن أعرف السبب الذى أنسانى اسم هذا القطر مؤقتاً، فموناكو هى الاسم الإيطالى لكلمة «ميونخ» الألمانية، وكان لى بهذا البلد ذكريات هى ما منعتى أن أتذكره.

لاشك فى أن هذا مثال بديع، لكن جد بسيط، فنحنُ نضطر فى حالات أخرى، أن نترك العنان لسلاسل أطول من المستدعيات تجتذبها الأسماء البديلة. فى تلك الحالات يتضح وجه الشبه بما يحدث فى تأويل الأحكام، ولدىٌ أمثلة خبرتها بنفسى عن هذا النوع أيضاً، فقد دعانى ذات مرة شخص أجنبى لأشرب معه شيئا من النبيذ الإيطالى كانت له به ذكريات سارة، فلما وردنا المشرب ألفيته نسى اسم النبيذ الذى دعانى إليه. فأخذ يسرد طائفة من أسماء بديلة، استطعت أن استنتج منها أن ما أنساه اسم النبيذ، هو ارتباطه بشخص اسمه «هِدْفج» Hedwig. فلما كاشفته بالأمر، أكد لى أنه شرب هذا النبيذ لأول مرة مع سيدة تدعى هدفج، بل قد أتاح له هذا الكشف أن يقع على الاسم المنشود، لقد كان الرجل، يوم التقينا، متزوجا سعيدا فى زواجه، وكانت صلاته بهدفج ترجع إلى أيام خلت لايود ذكراها.

إن ما أمكننا عمله فى حالة الأسماء المنسية، لابد أن يكون ممكنا كذلك فى تأويل الأحلام: ذلك أن نبدأ من الشىء البديل حتى تصل إلى الشىء الحقيقى الذى ننشده عن طريق سلسلة من المستدعيات، كما يجب أن نسلم ـ قياسًا على ما يحدث فى نسيان الأسماء ـ بأن المستدعيات التى يستحضرها عنصر الحلم، لايحتمها هذا العنصر وحده فقط، بل وتحتمها أيضاً الفكرة الحقيقية التى لاتوجد فى الشعور. ولئن صح فرضنا هذا، كان فيه بعض التبرير للخطة التى نسير عليها.

---

(١) Alba باللاتينية معناها «الأبيض» و Niger معناها الأسود «المترجم».

المحاضرة السابعة

المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة

رأيتم أن دراستنا الهفوات لم تكن عقيمة غير مثمرة، فبفضل الجهود التى بذلناها فى هذه الدراسة، ظفرنا بنتيجتين ابتداء من الفروض التى تعرفونها: هما فهم لطبيعة عنصر الحلم، وخطة لتأويل الأحلام.. أما فيما يتصل بعنصر الحلم فقد رأينا أنه ليس بطبيعته شيئاً أولياً أساسياً، ليس فكرة أصيلة، بل هو بديل عن شيء آخر يجهله الحالم - كما نجهل المقاصد المستترة وراء هفواتنا - بديل عن شيء يعيه الحالم، لكن تمتنع عليه معرفته، ونأمل أن نكون قادرين على بسط هذه الفكرة حتى تشمل الحلم بأسره، بوصفه مجموعة من العناصر.. أما خطتنا فتتلخص فى أن نتخذ هذه العناصر أساساً لتداع حر طليق، نستدرج به إلى الشعور أفكاراً، وخواطر بديلة نستطيع بها أن تحدس الأشياء الكامنة الخبيئة.

وأقترح عليكم الآن أن نستبدل بالمصطلحات، التى ألفناها أخرى تكون أكثر طواعية ومرونة. فبدل أن نستعمل كلمة **خفى** أو **ممتنع** أو **أصيل** سنصطنع أوصافا أدق منها، فنقول **ممتنع على شعور الحالم** أو **لاشعورى**، ولا نعنى بهذا أكثر مما كنا نعنيه فى حالة الكلمة المنسية، أو القصد المستتر وراء الهفوة، أى أن كليهما **لاشعورى بصورة مؤقتة**، وعلى هذا تكون عناصر الحلم ذاتها وتلك الأفكار البديلة التى نظفر بها عن طريق عملية التداعى، عناصر وأفكاراً شعورية، ولنذكر أن هذه التسمية لاتنطوى بعد على أى تضمين نظرى، فلا ضير علينا أن نستعمل كلمة **لاشعورى** على أنها وصف مناسب من السهل فهمه.

فإذا بسطنا وجهة نظرنا هذه من عناصر الحلم فرادى إلى الحلم فى جملته، خرجنا بأن الحلم فى جملته بديل محرّف عن شيء آخر، عن شيء لا شعورى، وأن تأويل الحلم يهدف إلى الكشف عن هذه الأفكار اللاشعورية، ومن هنا نستخلص ثلاث قواعد مهمة لابد من ملاحظتها عند تأويل الأحلام:

(١) لاينبغى لنا أن نهتم بالمعنى السطحى للحلم، واضحا كان أو ملتبساً، متناقضا كان أم غير متناقض فهو لايحتوى على الأفكار اللاشعورية، التى نبحث عنها بحال (وسنرى فيما بعد أن هذه القاعدة لا تسرى على إطلاقها).

(٢) يجب أن يقتصر عملنا على استدعاء أفكار بديلة عن كل عنصر من عناصر الحلم، دون أن نفكر أو نبحث لنعرف ما إذا كانت هذه البدائل تنطوى على شيء يناسب العنصر أو ينطبق عليه، ودون أن نشغل أنفسنا لنعرف إلى أى حد تباعد بيننا وبين العنصر.

(٣) يجب أن ننتظر حتى تنبعث الأفكار اللاشعورية الخافية التى نبحث عنها من تلقاء نفسها، كما كانت الحال فى كلمة «مناكو» المنسية فى المثال الذى سبقت الإشارة إليه.

وعسى أن نكون قد فهمنا الآن أن مقدار ما نتذكره من أحلامنا، وخاصة مبلغ ما هو عليه من دقة وصدق، ليسا يؤبه فى شيء، فالحلم كما نتذكره ليس الشيء الحقيقى الذى نبحث عنه، بل بديل محرف له نستدعى به أفكاراً بديلة أخرى، فيتيح لنا أن نقترب من لب الحلم وفكرته الحقيقية، وأن نستدرج الأفكار المستسرة فى الحلم من اللاشعور إلى الشعور، فإذا كانت ذكرانا الحلم خاطئة غير صحيحة، فكل ما هنالك أن البديل قد أصابه تحريف آخر، وهذا التحريف نفسه لايمكن أن يحدث من غير دافع.

وكما أننا نستطيع أن نؤول أحلام غيرنا من الناس، كذلك نستطيع أن نؤول أحلامنا نحن، والحق أننا نتعلم من تأويل أحلامنا أكثر مما نتعلمه من تأويل أحلام الغير، لأن عملية التأويل فى الحالة الأولى تكون أكثر بيانا وإقناعا، فإذا حاولنا هذا التأويل، لاحظنا أننا نرتطم بقوة داخلية تعرقل سير التأويل، صحيح أن الأفكار والخواطر تنبعث متداعية، لكننا لا نقبلها جميعا، فنحن مدفوعون إلى أن ننقدها وإلى أن نختار منها، إذ نقول لأنفسنا بصدد خاطر منها: «هذا لايتناسب، أو لايتعلق بالموضوع» أو بصدد آخر: «هذا سخيف متناقض» وبصدد خطر ثالث: «هذه ناحية ثانوية جداً»، ولايشق علينا أن ندرك أن أمثال هذه الاعتراضات تعوق المستدعيات، بل قد تكفُّها بالفعل آخر الأمر قبل أن تتضح وتبين، وهكذا نجد أنفسنا نميل من جهة إلى الاستمساك الوثيق بالفكرة الأصلية، أى عنصر الحلم نفسه، كما نجد أنفسنا من جهة أخرى، نفسد عملية التداعى الطليق بانحيازنا وانتقائنا، فإذا لم نقم بتأويل غير الجائز، إذ قد نقول لأنفسنا أحياناً: «لا، هذه فكرة كريهة أكثر مما ينبغى، فلا أريد أو لاأستطيع أن أذكرها له».

يتضح من هذا أن أمثال هذه الاعتراضات من شأنها أن تحول دون نجاح عملية التأويل، لذا يجب أن نأخذ حذرنا منها ونحن نؤول أحلامنا الخاصة، بأن نعزم عزماً أكيداً على ألا نستسلم لها استسلاماً، كما يجب أن نحتاط لها ونحن نؤول أحلام شخص آخر، فنفرض عليه قاعدة يجب ألا يحيد عنها: هى ألا يمسك أى خاطر يعن له، فيمتنع عن الجهر به إن بدا له أنه خاطر غير ذى بال، أو غير معقول، أو لا صلة له بالموضوع، أو إن بدا له خاطر منافر مستكره لا يحسن الجهر به. فإن وعد بأن يمتثل لهذه القاعدة، فلا يضيق صدرنا به، وإن رأيناه قد عجز عن أن يستمسك بوعده فيما بعد، وقد يخيل إلينا، بادى الرأى، أن تخليه عن وعده يرجع إلى عدم اقتناعه بما فى عملية التداعى الطليق من فائدة، بالرغم من تأكيدنا الجازم له بأن فى نتائج هذه العملية ما يبرر القيام بها.

وربما ظننا بعد أن ذلك أننا نستطيع أن نستميله ونجتذبه إلى نظريتنا بأن نعطيه كتبا يقرؤها، أو نوصيه بمحاضرات يختلف إليها. فإن فعلنا كنا خاطئين، وحسبنا ـ لكى لا نجشم أنفسنا أمثال هذا العمل ـ أن نعرف أننا أنفسنا لسنا بمنجاة ـ على الرغم من اعتقادنا واقتناعنا بما نقول ونوصى ـ من أن يكون موقفنا حيال بعض المستدعيات موقف نقد وانجياز وانتقاء، وأننا لانستطيع أن نظهر على هذا الموقف إلا فيما بعد. على أننا نستطيع ـ بدل أننا نستطيع ـ بدل أن نضيق بعصيان الحالم ـ أن نستغل هذه الظاهرة لعلنا نظفر منها بأشياء جديدة، قد تكون أكثر أهمية ووزنا كلما بعدت عما نتوقع.

من هذه الأشياء أن عملية لتأويل تعترضها **مقاومة** تفصح عن نفسها تحديداً بتلك الاعتراضات النقدية التى نتكلم عنها، وهى مقاومة لا صلة لها بما لدى الشخص من اقتناع نظرى، وفى وسعنا أن نعرف أكثر من هذا، إذ تدلنا الخبرة على أن هذه الاعتراضات ليس لها ما يبررها إطلاقا، بل الأمر على عكس هذا، فقد وجدنا أن الأفكار والخواطر التى يريد الإنسان أن يقمعها بهذه الصورة تكون **أبدا ودون استثناء** أهم الأفكار والخواطر، وأنها الحاسمة فى الكشف عن اللاشعور، فإذا ما اقترنت فكرة باعتراض من هذا النوع، كانت خليقة بالتفات خاص.

إن هذه المقاومة شىء جديد لم يكن فى الحسبان، وظاهرة لم تكن ضمن الفروض التى فرضناها من مبدأ الأمر، بل اكتشفناها أثناء البحث، والواقع أن هذا

العامل الجديد الذى دخل فى حسابنا مفاجأة لا يمكن أن توصف بأنها سارة، إذ أننا نشك فى أنه سيكون عوناً لنا على تيسير عملنا: بل إنه يكاد يميل بنا إلى أن نترك كل ما بذلناه من جهد فى حل مشكلة الأحلام، أليس عجبا أن نتناول موضوعا غير ذى وزن كبير، كالأحلام، فتعرضنا فى معالجته صعوبات فنية كبيرة كتلك التى نراها! لكن من يدرى؟ فربما كانت هذه الصعوبات من نوع يستحثنا على البحث، ويرينا أن عملنا هذا حقيق بما يتطلبه من جهود.. الحق أننا نلتقى أبدا بمقاومات كثيرة كلما حاولنا أن ننفذ إلى الفكرة اللاشعورية الخبيئة، ومن البديل الذى يزودنا به عنصر الحلم، لذا يحل لنا أن نفترضِ أن هناك شيئاً مهماً ذا دلالة يختفى وراء البديل، ذلك أن الأمر إن لم يكن كذلك، فلمَ نلتق بأمثال هذه الصعوبات التى تعمل على الاحتفاظ بالشىء الخبىء فى مخبئه؟ إن الطفل متى أصرّ على ألا يفتح قبضة يده ليظهر ما فيها، فأكبر الظن أنها تخفى شيئاً لاينبغى له أن يكون فى حوزته.

أما وقد أدخلنا فى موضوعنا تلك النظرة الديناميكية للمقاومة، فلابد أن نذكر أن هذا العامل الجديد عامل متغير من حيث الكم، فالمقاومة قد تكون كبيرة أو قليلة، وعلينا أن نوطن أنفسنا خلال بحوثنا وتأويلنا على أننا سنلتقى بمقاومات مختلفة متباينة، وربما نستطيع أن نربط بهذه الواقعة خبرة أخرى تعرض لنا أيضاً فى عملية تأويل الأحلام، ففى أحوال معينة، قد تكفى بضع مستدعيات - ربما لاتزيد عن واحدة - لتؤدى بنا من عنصر الحلم إلى الفكرة اللاشعورية المستترة وراءه، وفى أحوال أخرى يقتضى الوصول إلى هذه النتيجة، سلاسل طويلة من المستدعيات ، والتغلب على كثير من الاعتراضات النقدية، وأكبر الظن أن عدد المستدعيات اللازمة يختلف باختلاف قوة المقاومة، هذا هو الراجح.. فإذا كانت المقاومة طفيفة، لم تكن الشقة بعيدة بين البديل والفكرة اللاشعورية، أما المقاومة الشديدة فيترتب عليها تحريفات بالغة فى الفكرة اللاشعورية، من شأنها أن تباعد ما بين البديل وبطانته اللاشعورية.

قد يكون هذا ظرفا مواتيا، لنختار حلما فنجرب فيه خطتنا، لنرى أيتحقق ما نقول فيها وما نرتقبه منها؟ ولا أخالكم تعلمون ما ينطوى عليه هذا الاختيار من صعوبات لاأستطيع أن أبينها لكم، فمن الواضح أن هناك أحلاما لايصيبها فى جملتها تحريف كبير، وقد ترون أنه من الخير أن نبدأ بها. لكن أى الأحلام أقلها تحريفاً ؟ أهى الأحلام المعقولة غير الملتبسة، كتلك الأحلام الساذجة التى قدمت لكم مثالين منها؟ لو سلمنا بهذا لكان فيه خطر جسيم؛ إذ يرينا التحليل أن هذه الأحلام قد أصابها تحريف على

جانب كبير من الشطط والإسراف. فإن لم أتطلب فى الحلم الذى أريده شرطا خاصاً، ووضعت يدى على أول حلم يتفق لى، فمن المحتمل أن أخلف ظنكم إلى حد كبير، إذ قد يتعين علينا أن نلاحظ وأن نسجل قدراً ضخما من الخواطر والأفكار التى تستدعيها عناصره فرادى، بحيث يستحيل علينا أن نأخذ فكرة واضحة عما نريده فى جملته؛ ذلك أننا لو سجلنا الحلم ووازناه بكل ما يستدعيه من أفكار وخواطر، فأكبر الظن أن تتجاوز هذه المستدعيات لكثرتها أضعاف النص الأصلى للحلم، لذا يبدو أن الطريق العملى هو أن نختار للتحليل عدة أحلام. قصيرة يستطيع كل واحد منها أن يعطينا فكرة معينة على الأقل، أو أن يؤيد لنا افتراضا معينا، وهذا هو الطريق الذى عولت على السير فيه، إلا إذا أشارت علينا التجربة والخبرة أنّى ينبغى لنا أن نبحث عن الأحلام لاتكون محرفة تحريفاً كبيراً.

على أن فى وسعى أن أقترح وسيلة أخرى لتسهيل الأمور، وهى وسيلة فى متناولنا مباشرة، تلك أننا نستطيع بدل أن نؤول أحلاما بأكملها، أن نقتصر على عناصر منعزلة منها، نجمع طائفة منها لنرى كيف يمكن تفسيرها حتى نطبق عليها خطتنا:ـ

(١) روت سيدة أنها كانت تحلم كثيراً وهى طفلة «أن الرب يضع قبعة مدببة من الورق على رأسها» ـ كيف السبيل إلى فهم هذا دون معونة من صاحبة الحلم نفسها؟ ألا يبدو هذا العنصر سخفا وعبثا بالغين؟ غير أن هذا السخف يختفى حين تقول لنا السيدة إن أهلها كانوا يلبسونها، وهى صغيرة، قبعة من هذا النوع، حين تجلس إلى مائدة الطعام، لأنها كانت لاتنى تنظر ذات اليمين وذات الشمال لترى هل أصاب إخوتها وأخواتها من الطعام أكثر مما أصابها، أى إن القبعة كان يقصد بها أن تكون غمامة لعينيها، أو أذكر بهذا الصدد أن السيدة روت هذه «المعلومات التاريخية» دون صعوبة أو عناء. وقد أمكن تأويل هذا العنصر، وبالتالى تأويل الحلم بأسره، بفضل لُقيا أخرى وقعت عليها السيدة: «بما أنى كنت أسمع أن الرب يعلم كل شيء ويرى كل شيء، فحلمى هذا لايمكن إلا أن يعنى شيئا واحداً ، هو أنى أعلم وأرى كل شيء كالرب، حتى إن حاولوا أن يمنعونى من هذا» ـ غير أن هذا المثال ربما كان أبسط مما يلزم.

(ب) روت لى سيدة من المرضى المتشككات حلما أطول من هذا، رأت فيه بعض الناس يذكرون لها كتابى عن النكات «Swits» فيثنون عليه ثناء كبيراً ثم عرض

لها شيء «يتعلق بقناة، ربما كان كتابا آخر ذكرت فيه كلمة قناة Canal أو شيئا آخر يتصل بالقناة .... إنها لا تعرف .... فقد كانت نقطة غامضة كل الغموض».

من المحقق أنكم تميلون إلى أن تفترضوا أن القناة فى الحلم عنصر يتحدى التأويل لغموضه، وأنتم على حق إذ تتوقعون هذه الصعوبة، لكن الصعوبة لا تترتب عن الغموض، بل الأمر على خلاف هذا، فصعوبة التأويل ترجع إلى شيء آخر، إلى الشيء نفسه الذى جعل العنصر غامضاً، وقد عجزت السيدة عن أن تستدعى أية ذكرى تتصل بكلمة «قناة»، ولم أستطع أنا الآخر بطبيعة الحال أن أقول شيئا، وفى اليوم التالى لهذا تحديدا، عنّ لها خاطر ربما تكون له صلة بهذا العنصر من حلمها، ويتلخص فى نكتة سمعتها فحواها أن كاتباً معروفاً كان يتجاذب أطراف الحديث مع رجل انجليزى وهما على ظهر باخرة تبحر بين كاليه ودوفر، فذكر الإنجليزى فى حديثه العبارة الآتية: «ليس بين الشيء الرفيع الجليل والشيء التافع السخيف إلا خطوة واحدة» (خطوة = Pas de-calais) يعنى بذلك أن فرنسا هى الشيء الرفيع، وأن إنجلترا هى الشيء السخيف، وخطوة كاليه هذه قنا - هى قناة المانش أو ما تسمى مضيق المانش .

رب قائل يقول: «هل ترى صلة أيا كانت هذه الصلة بين ذلك الخاطر والحلم؟» أرى ذلك على وجه التحقيق: فهذا الخاطر قد زودنا بالمعنى الحقيق لذلك العنصر المحيّر من الحلم، أم تميلون إلى الشك فى وقوع هذه الغمزة قبل الحلم، وفى أنها الفكرة اللاشعورية للعنصر «قناة» فتصرون على أنها مجرد اختلاق لفق بعد الحلم؟ إن هذا الخاطر يشهد بما لدى السيدة من تشكك وارتياب يستتر وراء إعجابها الدخيل بالنكتة، ومن ثم نشأت مقاومة لا ريب فى أنها كانت السبب فى بطء ورود الخواطر اللاشعورية من صلة: فكأن العنصر فى هذه الحالة جزء صغير من هذه البطانة أو كأنه إشارة إليها فإذا فصل عن تلك البطانة، وعزل عنها، أصبح مستغلقا يستعصى على الفهم.

(جـ) قص علىّ أحد مرضاى حلماً طويلا بعض الطول منه «أن أفراداً كثيرين من أسرته كانوا يجلسون إلى مائدة ذات شكل خاص... إلخ» - فذكرته هذه المائدة (عند التأويل) بأنه رأى مائدة تشبهها حى كان يزور أسرة معينة. ثم تتابعت خواطره على النحو الآتى: لم تكن الصلة بين الأب وابنه فى الأسرة التى زارها

صلة ود بل صلة إعراض وجفاء، وسرعان ما أضاف أن صلته بأبيه شبيهة فى الحق بتلك الصلة. من أجل هذا أدمجت المائدة فى الحلم للإشارة إلى هذا التشابه.

لقد كان صاحب هذا الحلم ملماً منذ زمن طويل بما يتطلبه تأويل الأحلام. يتضح هذا من اهتمامه بذكر تفصيل طفيف فى حلمه، هو شكل المائدة، والواقع أننا نعتقد أن الأحلام لايمكن أن تحتوى إطلاقا على شيء من خلق المصادفة، أو على شيء لا يؤبه له ويهتمّ به. كما نعتقد أن مناقشة التفاصيل التافهة، وتمحيص التفاصيل التى تبدو (فى الظاهر) أن ليس من ورائها دافع، هو ما يعنينا تحديداً على الوصول إلى النتائج والمعلومات التى تهمنا، وربما تدهشون من أمر هذا الحلم؛ إذ يختار المائدة ليعبر عن الفكرة الآتية: «الصلة بيننا كالصلة بينهما»..

غير أن هذا يمكن تفسيره متى عرفتم أن لقب الأسرة المشار إليها هو «Tischler» (Tisch = المائدة بالألمانية). فهذا الحالم حين جعل أفراد أسرته يجلسون إلى هذه المائدة، كان يعنى بذلك أن حالهم حال أسرة Tichler، ونذكر بهذا الصدد آخر لعلكم قد لاحظتموه: هو أننا، فى تأويل الأحلام، مضطرون أحيانا إلى هتك الحجب وإفشاء بعض الأسرار، وهذه إحدى الصعوبات التى ألمعت إليها حين كنت أتكلم عن اختيار أمثلة للأحلام، لقد كانت أستطيع أن أسوق إليكم مثالاً آخر غير هذا، لكن أكبر الظن ألا يعفينى هذا مما أخشاه إلا ليوقعنى فى آخر غيره.

وأرى الظرف مواتيا لأقدم لكم اصطلاحين جديدين كنا نستطيع استخدامهما من قبل: سنسمى الحلم كما يرويه الحالم **المحتوى الظاهر للحلم** وسنسمى المعنى الخبيء الذى نظفر به عن طريق التداعى **الأفكار الكامنة للحلم**. فعلينا الآن أن نأخذ فى فحص الصلات بين المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة، كما تبدو فى الأمثلة السابقة. ثمة أنواع كثيرة من هذه الصلات، فالعنصر الظاهر فى المثالين (أ) و (ب) هو أيضاً جزء قائم بذاته من الأفكار الكامنة، لكنه لايعدو أن يكون جزءاً منها فقط، أو هو نتفة صغيرة من بناء نفسى كبير مركب من الأفكار اللاشعورية للحلم، تطرقت إلى الحلم الظاهر ونفذت فيه، فبدت جزءاً منه، وقد تبدو فى حالات أخرى كأنها إشارة أو تلميح[١]، أو كأنها تعبير رمزى أو اصطلاح تلغرافى مختزل.

---

1. Allusion.

ومهمة التأويل أن يكمل هذا الجزء أو أن يستجلى هذا التلميح كما وفقنا إلى ذلك فى المثال (ب). وعلى هذا فمن الطرق التى تصطنعها عملية تحريف الحلم، الاستعاضة عن الشيء بجزء منه أو بتلميح إليه، وفى المثال (جـ) نلمح فوق هذا صلة أخرى ممكنة بين المحتوى الظاهر والأفكار الكامنة، وهى صلة تبدو أكثر وضوحًا وتميزًا فى الأمثلة التالية(١):

(د) رأى الحالم «أنه ينتشل سيدة يعرفها من حفرة وقعت فيها». وقد وجد الحالم بنفسه معنى هذا العنصر من حلمه» عن طريق أول خاطر عرض له: فكان معناه أنه «يعمل على أن ينتشل هذه السيدة من ضلال توشك أن تتردى فيه».

(هـ) روى رجل «أن أخاه يسير فى الطريق وقد أمسك بصندوق من حديد». وكان أول خاطر عنَّ له، أن يستبدل بكلمة «صندوق» «خزانة نقود» أما الخاطر الثانى فسرعان ما أسلم إلى تأويل الحلم: ذلك أن أخاه قدِ أمسك على نفسه فى تلك الأيام.

(و) رأى الحالم أنه «وقد صعد جبلا، وأخذ يكشف ما حواليه من أرض منفسحة بعيد» ـ هذه قطعة من حلم تبدو طبيعية معقولة، فليست بها حاجة إلى تأويل، إلا أن تكون معرفة الذكرى التى تتصل بها والداعى الذى استثارها.. غير أن هذا خطأ بعيد! فهى فى حاجة إلى التأويل كغيرها من قطع الأحلام المعقدة الملتبسة، والواقع أن صاحب الحلم لم يتسنَّ له أن يتذكر شيئًا يتصل بصعوده الجبال، بل خطر له أحد أصحابه ممن ينتظمون فى سلك الكشافة ويقومون برحلات إلى أقطار نائية، ومن ثم فالفكرة الكامنة لهذه القطعة من الحلم تتلخص فى أن صاحب الحلم قد تقمص شخصية «كشاف» (وهذه الكلمة بمعناها الحرفى تشير إلى ما يرقى رباوة من الأرض فيجيل بصره فيما حوله من مناظر).

هنا نلتقى بطراز آخر من طُرز العلاقات بين العنصر الظاهر والعنصر الكامن للحلم. فالعنصر الظاهر ليس تحريفاً للعنصر الكامن بقدر ما هو تصوير له ـ فهو صورة عيانية لدنة(٢) له تنشأ من جرّس اللفظ، والحق أن الأمر لا يعدو أن يكون تحريفًا فى هذه الحالة أيضًا؛ لأننا حين ننطق بلفظة ما، نكون قد نسينا منذ أمد بعيد، والصورة

(١) غيرنا هذه الأمثلة فى الترجمة ـ مع الاحتفاظ بموضوعها ودلالتها ـ حتى يلمس القارئ العربى ما تنطوى عليه من تورية واشتراك لفظى «المترجم».

(٢) Plastic اللدن هو القابل للتشكل «المترجم».

العيانية التى نشأت اللفظة منها أصلاً، بحيث لانعود نتعرف اللفظة حين يستعاض عنها بالصورة، فإذا عرفنا أن الحلم الظاهر يصاغ، وفى الغالبية العظمى من الأحوال، من صور بصرية، ولا يتألف من أفكار وألفاظ إلا فى القليل النادر، لم يشقّ علينا أن ندرك ما لهذا الطراز من العلاقات من دلالة وأهمية خاصة فى بناء الحلم وتكوينه، ولرأينا كذلك أنه من الممكن بهذه الطريقة أن تخلق الأفكار الكامنة والتمويه عليها، هذه هى الكيفية التى تصاغ بها تلك الصور المُلْغزة التى يراها النائم، أما وجه الشبه بين هذه الطرز من التصوير وبين النكات[١] فمسألة أخرى ليس هذا مكانها.

وثمة طراز رابع من العلاقات بين العنصر الظاهر والعنصر الكامن للحلم، سأرجئ الحديث عنه حتى ينكشف لكم من تلقاء نفسه خلال ما نبسطه من خطتنا فى التأويل، وأود أن أشير إلى أن هذه الطرز لا تستنفذ كل العلاقات الممكنة، لكن ما لدينا منها يكفى لما نحتاج إليه.

تُرى ألدينا الآن من الشجاعة ما يتيح لنا تأويل حلم بأكمله؟ فلنحاول هذا لنرى إلى أى حد نستطيع أن نقوم بهذا العمل، ولن أختار لهذا الأمر، بطبيعة الحال، حلما يكون من أكثرها غموضاً واستغلاقاً، بل حلماً يظهر الخصائص البارزة للأحلام بشكل واضح:

قصت علىّ سيدة شابة تزوجت من أعوام عدة: «أنها ألفَتْ نفسها فى مسرح مع زوجها، وقد خلى شطر من المقاعد التحتانية فى القاعة خلوا تاما، وقد أخبرها زوجها أن «إليز» Elise وخطيبها كانا يريدان الحضور إلى المسرح أيضاً، غير أنهما لم يجدا إلا مقاعد لاتليق بهما (فقد كان أجر الثلاث منها كروناً ونصف كرون) فلم يرضيا بها بطبيعة الحال، فأجابته بأنهما لم يفتهما شيء كثير من جراء هذا».

لقد كان أول شيء طالعتنا به هذه السيدة، أن فى المحتوى الظاهر لحلمها هذا إشارة إلى الظرف الذى استثار الحلم: فقد أخبرها زوجها بالفعل أن «إليز» ـ إحدى معارفها اللائى يقارينها فى السن ـ قد عقد قرانها، فكان الحلم استجابة لهذا النبأ، ونحن نعرف من قبل أنه لايشق علينا، فى كثير من الأحلام، أن نشير إلى ظرف كهذا وقع اليوم السابق للحلم، وأن صاحب الحلم يرى هذه الصلة غالبا فى غير عناء....

ثم أدلت لنا السيدة بمعلومات أخرى، من النوع نفسه، عن عناصر أخرى فى

---

(١) يريد المؤلف بهذا، النكات التى تقوم على التورية والجناس واللعب بالألفاظ «المترجم».

الحلم الظاهر، أما ذلك العنصر من الحلم الذى يتلخص فى «خلو شطر من المقاعد التحتانية خلواً تاماً»، فقد قالت عنه إنه تلميح وإشارة إلى واقعة حقيقية حدثت لها فى الأسبوع الذى سبق الحلم، حين عزمت على مشاهدة رواية معينة، فذهبت تحجز المقاعد قبل يوم العرض بوقت طويل، كان أطول مما يجب، حتى اضطرت إلى أن تدفع أجراً إضافيا عن هذا التبكير، فلما ذهبت إلى المسرح مع زوجها، رأت أنه لم يكن ثم داع لهذا التبكير فى حجز المقاعد، فقد كان شطر من المقاعد التحتانية ، يكاد يكون خالياً بأمله، ولو أنها احتجزت المقاعد فى يوم العرض نفسه، لما خسرت شيئا، ولما تعرضت لِسخرية زوجها من تعجلها الزائد... ثم تأتى بعد هذا مسألة «الكرون ونصف الكرون». ترى ما مصدر هذا العنصر؟.

لقد ردّته صاحبة الحلم إلى ملابسات أخرى لا صلة بينها وبين الملابسات السابقة، وإن كان يتصل، هو الاخر، بأخبار سمعتها فى اليوم السابق لحلمها: تلك أن أخا زوجها، قدم لها زوجها هدية، ١٥٠ كرونا، فما أن تسلمت هذا المبلغ حتى أسرعت متعجلة فى حمق ورعونة، فاشترت به جميعا قطعة من المجوهرات... وما أمر العدد «٣» فى هذا الحلم، (ثلاثة مقاعد) ؟ إنها لم تعرف عنه شيئا إلا أن يكون خاطرّت نجم عن تداع: فقد كانت الفتاة المخطوة «إليز» تصغرها بثلا أشهر فقط، فى حين أن صاحبة الحلم متزوجة منذ عشر سنين... وكيف لنا أن نفسر ذلك السخف الذى يبدو فى حجز ثلاثة مقاعد لشخصين اثنين؟ لم تستطع السيدة أن تقول عن هذا شيئا، ثم رفضت أن تدلى بأية معلومات أو ذكريات أخرى.

على أن هذا القدر القليل من الخواطر والذكريات التى أفضت به إلينا، فيه ما يكفى كل الكفاية للكشف عن الأفكار الكامنة فى هذا الحلم، ومما يستلفت النظر بوجه خاص، أو أقوالها تشير فى مواضع كثيرة منها إلى «شيء» يبدو كأنه رباط مشترك بين الأجزاء المختلفة من أقوالها، «هذا الشيء» يدور حول **الزمن**» فقد فكرت فى حجز المقاعد قبل عرض الرواية **بوقت طويل** كما احتجزتها بالفعل **متعجلة** فيها، حتى اضطرت إلى أن تدفع أجراً إضافياً، وقد سخر زوجها من هذه **العجلة الزائدة**، كذلك أسرعت أخت زوجها **متعجلة**. فاشترت بمالها قطعة من مجوهرات، كأنها كانت تخشى أن تفوتها هذه القطعة، فلو ربطنا قولها **بوقت طويل** وقولها **متعجلة** - وقد نطقت بهما فى قوة وتوكيد - بالظرف الذى استثار الحلم (وهو ذلك النبأ حمل ليها أن صديقتها التى **تصغرها** بثلاث أشهر فقط، قد وجدت آخر الأمر زوجاً طيباً)، وربطنا

هذا أيضًا بذلك النقد اللاذع، الذى وجهته إلى أخت زوجها، إذ أسرعت متعجلة فى **نزق ورعونة** فاشترت قطعة المجوهرات ـ لو فعلنا ذلك، لانكشفت لنا الأفكار الكامنة للحلم من تلقاء نفسها، ولبان لنا أن الحلم الظاهر ليس إلا بديلا محرفا عنها مسرفا فى التحريف، فتكون الأفكار الكامنة كما يلى:

لقد كُنت **رعناء** حقا إذ تعجلت فى زواجى! وها هى ذى «إليز» تثبت لى أنى كنت أستطيع أن أنتظر وأن أجد زواجاً فيما بعد» (التعجل ممثَّل هنا فى تبكيرها بحجز المقاعد وفى اندفاع أخت زوجها، لشراء المجوهرات، أما ذهابها وزوجها إلى المسرح فبديل عن الزواج) . هذه الفكرة الرئيسية، وفى وسعنا أن نمضى فى التأويل إلى أبعد من هذا، لكنه لايكون تأويلا يقيناً كما كان من قبل، لأن التحليل لايكون مستنداً حينئذ إلى أقوال الحلم وذكرياتها، وهذا ما لا ينبغى له، من ذلك أن نفترض أن سريرتها تنطوى على الفكرة الآتية:

«وكنتُ أستطيع أن أحصل بالنقود نفسها على زوج خير من هذا مائة مرة!» (١٥٠ كرونا تساوى مائة مرة ١,٥ كرونا)، فلو استبدلنا كلمة **البائنة** بكلمة **النقود**، لكان معنى هذه العبارة أو الزوج يُشترى بالبائنة: فتكون قطعة المجوهرات والمقاعد غير اللائقة فى المسرح رموزاً إلى **الزوج**، والأجدر بنا أن ننظر فيما إذا كانت هناك رابطة بين العنصر، «ثلاثة مقاعد» وبين الزوج. غير أن ما لدينا من معلومات لا يبيح لنا الذهاب إلى هذا الحد، فكل ما وجدناه إذاً هو أن الحلم يعبر عن امتهان الزوجة لزوجها، وعن أسفها على **التعجل فى زواجها**.

على أنى أرى أن نتيجة هذه المحاولة الأولى لتأويل حلم، لا تُرضى نفوسنا بقدر ما تزيدنا حيرة واستغراباً؛ ذلك إننا نجد أنفسنا بصدد أفكار عدة تفرض نفسها علينا فى آن، مما يجعلنا فى حيرة من أمرها، وها نحن أولاء نرى أننا لا نستوعب كل ما يمكن أن ينكشف عنه هذا التأويل من معلومات، فلنسارع إذاً إلى إفراد تلك النقاط التى يمكن أن تسفر لنا عن معلومات جديدة محققة عن هذا الموضوع.

فأول ما نلاحظه أن الأفكار الكامنة للحلم تؤكد عنصر «التعجل» توكيدا بارزاً، فى حين لانجد لهذه السمة بذاتها أثراً فى المحتوى الظاهر، ولو أننا لم نقم بالتحليل، ما اشتبهنا قط فى وجودها وقيامها بدور أيا كان نوعه، ومن ثم فمن الممكن ، فيما يبدو، ألا تظهر النقطة الرئيسية التى تدور عليها ـ بذاتها ـ الأفكار اللاشعورية، وألا تبدو فى

الحلم الظاهر أصلا. وهذا من شأنه أن يُغير الفكرة التى نأخذها عن الحلم فى جملته تغييراً أساسياً، الأمر الثانى: أننا نجد فى الحلم مقاربات سخيفة متناقضة (ثلاثة مقاعد لشخصين)، كما نكشف فى أفكار الحلم عن المعنى الآتى: «لقد كنت رعناء (إذ تعجلت فى زواجى)». فهل نستطيع أن ننكر إنكاراً باتاً أن هذا المعنى قد صُور فى الحلم الظاهر بإدخال عنصر سخيف[1] فيه؟ الأمر الثالث: هو أن العلاقة بين العناصر الظاهرة والكامنة - كما يتضح من الموازنة بينها - ليست علاقة بسيطة، والمحقق أنها ليست علاقة من النوع الذى يستبدل فيه العنصر الظاهر دائماً بعنصر كامن، بل من نوع مركب، بحيث إن العنصر الظاهر قد يمثل عدة عناصر كامنة، وأن العنصر الكامن قد تحل محله عدة عناصر ظاهرة.

---

(١) يقصد بالسخف هنا أن يناقض الأمر البدهيات أو المسلمات أو القضايا اليقينية «المترجم».

المحاضرة الثامنة

أحلام الأطفـــال

يلوح لنا أننا سرنا بخطى أسرع مما يجب، فلنعد إذاً بضع خطوات إلى الوراء، لقد قلنا - قبل أن نقوم بمحاولتنا الأخيرة التى عملنا فيها على أن نقهر الصعوبات الناجمة عن تحريف الحلم، بفضل خطتنا فى التأويل - قلنا إن من الخير أن نظهر على هذه الصعوبات، بأن نقصر اهتمامنا على الأحلام التى تكون غفلا من التحريف، أو تلك التى لا يصيبها التحريف إلا بقدر طفيف جداً (على فرض أن يكون هناك مثل هذه الأحلام)، والواقع أن هذا الاتجاه فى البحث، عكس الاتجاه الذى تطورت فيها معارفنا عن الأحلام، فنحن لم نفطن إلى وجود أحلام خالية من التحريف، إلا بعد أن طبقنا خطتنا فى التأويل تطبيقاً موصولا على أحلام محرّفة، وبعد أن قمنا بتحليل مسهب مستفيض لهذه الأحلام.

والأحلام التى ننشدها هى أحلام الأطفال، فهى أحلام موجزة، واضحة ملتئمة[١]، غير ملتبسة ولا مبهمة، فلا يصعب فهمها، ومع هذا كله فهى أحلام ما فى ذلك شك، على أن الأحلام ليست كلها من هذا الطراز، فتحريف الأحلام يبدأ من عهد مبكر جداً فى الطفولة، وبين أيدينا أحلام لأطفال فيما بين الخامسة والثامنة من العمر، بدت فيها منذ تلك السن كان خصائص الأحلام فى الأعمار المتأخرة، غير أننا لو قصرنا ملاحظاتنا على الأحلام فى المرحلة التى تقع بين مطلع النشاط النفسى المشود عند الطفل، والسنة الرابعة أوالخامسة من عمره، استطعنا أن نميز طائفة من الأحلام ذات طابع يمكن أن نسميه «الطابع الطفلى». وهى أحلام قد تلاحظ أمثالها فى السنوات الأخيرة من الطفولة، بل قد نلتقى بها عند الكبار الناضجين فى ظروف خاصة.

ولو أننا قمنا بتحليل هذه الأحلام الطفيلية، استطعنا أن نظفر، فى غير ما صعوبة مطلقاً، بمعلومات نستطيع أن نركن إليها عن طبيعة الأحلام، ونأمل أن تكون معلومات حاسمة تصدق على مختلف الأحلام جميعا.

---

(١) Coherent.

١ - لكى نفهم هذه الأحلام، ليست بنا حاجة إلى التحليل أو إلى اصطناع خطة أيا كانت هذه الخطة، ولا يتعين علينا أن نستجوب الطفل الذى يروى لنا حلمه، غير أننا يجب أن نعرف شيئا عن حياته الخاصة، وسنجد فى كل حالة من الحالات أن هناك حدثاً خاصاً وقع طفل فى اليوم السابق لحلمه، من شأنه أن يفسر الحلم، فالحلم هو الاستجابة النفسية لذلك الحدث، أثناء النوم.

ولنتأمل بضعة أمثلة لنقيم عليها ما سنستخلصه من نتائج فيما بعد:

(أ) كلِّف ولد عمره اثنان وعشرون شهراً أن يقدم سلة من الكريز لآخر، هدية له فى عيد ميلاده. فقام بهذه المهمة وهو كاره لها كرهاً ظاهراً، على الرغم من أنه وعد أن ينال شيئا من هذه الفاكهة، وفى صباح اليوم التالى روى أنه رأى فى نومه أن «الطفل هرمان أكل كل الكريز».

(ب) قامت طفلة صغيرة عمرها عام وثلاثة شهور، بنزهة فى بحيرة، للمرة الأولى فى حياتها، ولما رست السفينة، رفضت الطفلة أن تغادرها، وبكت بكاءً مراً، فقد بدا لها أن النزهة أقصر بكثير مما يجب أن تكون عليه، وفى صباح اليوم التالى، روت أنها رأت فى منامها «أنها كانت فى نزهة على البحيرة هذه الليلة». وهى رواية أكبر الظن أنها تنطوى على رغبة عند الطفلة فى دوام النزهة أكثر مما دامت.

(جـ) اشترك ولد صغير عمره خمسة أعوام وثلاثة أشهر فى رحلة إلى إشترنتال Es-cherntal بالقرب من هولشتات Hallstatt[1]، وكان قد سمع أن هولشتات تقع فى سفح جبل داخشتين Daschatein، وهو جبل يهتم به كثيرا، وكان فى وسع الطفل أن يشهد منظراً جميلا لهذا الجبل من مسكنه بآوزى Aussée، وأن يرى بالمنظار المقرب فى أعلاه (كوخ سيمونى)[2]، وقد حاول الطفل عدة مرات أن يرصد هذا الكوخ بالمرقب، ولم يعرف ما إذا كان قد أفلح فى هذا، لقد بدأت

---

(١) بلدة من بلدان النمسا تقع على بحيرة باسمها، وقد اكتشفت فيها عدة مقابر، يرجع عهدها إلى ما قبل التاريخ «المترجم».

(٢) من الأكواخ المبثوثة فى جبال الألب وغيرها، يردها متسلقو الجبال طلبًا للراحة والدفء أو الطعام والشراب «المترجم».

الرحلة فى جو مرح، وكلما ظهر جبل جديد تساءل الطفل: «هل هذا هو الداخشتين؟»، فإذا أجيب بالنفى برِم وضاق صدره حتى انتهى به الأمر أن يلزم الصمت، وأن يرفض الاشتراك مع رفقائه فى الصعود مسافة قصيرة يرون فيها مسقطًا من مساقط الماء، فظنوه متعبًا، غير أنه فى صباح اليوم التالى قصّ عليهم، وعليه مسحة من البشر والسعادة أنه رأى «أنهم كانوا فى الليلة الماضية فى كوخ سيمونى». إذاً لقد اشترك الطفل فى هذه الرحلة طمعًا فى زيارة هذا الكوخ ـ فلما سئل فى حلمه هذا، لم يدلِ إلا بتفصيل واحد كان قد سمعه من قبل وهو «أنه لابد للوصول إلى الكوخ من الصعود على درج لمدة ست ساعات».

وحسبنا هذه الأحلام الثلاثة أن تزودنا بكل ما نحتاج إليه من معلومات فى هذه الناحية.

٢ – من هذا نرى أن هذه الأحلام الطفلية ليست غفلا من دلالة أو مغزى: فهى أفعال نفسية مفهومة مكتملة، ولو تذكرتم ما أسلفت لكم عن تصور رجال الطب للأحلام وعن تشبيهها بالأصوات التى تصدر من آلة موسيقية تجرى عليها يد غير صناع، فلن يفوتكم إدراك ما بين تلك النظرة وأحلام الأطفال من تناقض صارخ، أليس من العجيب المدهش حقًا أن يكون الطفل قادراً على أن يقوم فى أثناء نومه بعمليات نفسية تامة، فى حين يقنع الكبير الناضج، وهو فى الظروف عينها، باستجابات تشنجية اختلاجية؟ يضاف إلى هذا أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على أن نعتقد، بحق، أن الطفل ينعم بنومٍ أحسن وأعمق من نوم الكبير.

٣ – وبما أن هذه الأحلام الطفلية لا يصيبها أى تحريف، فهى لا تتطلب أى تأويل: فالمحتوى الظاهر هو بعينه المحتوى الباطن فى هذه الأحوال، ومن ثم **فالتحريف ليس خاصة جوهرية من خصائص الحلم**. وأرجو أن يكون فى هذا التصريح ما يخفف عن نفوسكم بعض ما تشعرون به من حرج بصدد تأويل الأحلام، ومع هذا فالتأمل الدقيق يضطرنا إلى التسليم بأن التحريف لا تسلم منه حتى هذه الأحلام، وإن يكُ طفيفا إلى حد بعيد، فثمة بعض الاختلاف بين محتواها وأفكارها الكامنة.

٤ – أن حلم استجابة لخبرة مرت به فى اليوم السابق، فخلفت من بعدها بعض الندم أو الشوق، أو رغبة لم تنل حظها من الإشباع . **فالحلم تحقيق مباشر سافر غير مقنع لهذه الرغبة**، وأرجو أن تذكروا فى هذا المقام ما قلناه عن الدور الذى

تقوم به المنبهات الخارجية أو المنبهات الداخلية البدنية فى إقلاق النوم وإحداث الأحلام، فقد خرجنا من ذلك ببضع حقائق محددة، غير أن هذا التفسير لم ينسحب إلا على عدد صغير من الأحلام، أما فى أحلام الطفولة التى بين أيدينا، فليس ثمة ما يشير إلى فعل أمثال هذه المنبهات البدنية، وليس ثمة مجال للخطأ فى هذا؛ لأنها أحلام مفهومة حق الفهم، فلا يشق علينا استيعاب كل حلم منها فى جملته.

لكن ليس فى هذا ما يدعونا إلى نبذ الرأى الذى يقول بأن المنبهات تسبب الأحلام، وبحسبنا أن نتساءل عما إنسانا، منذ البداية، أن المنبهات التى تقلق النوم قد تكون **نفسية** كما قد تكون بدنية، فنحن نعلم علم اليقين أن المنبهات النفسية هى المسئولة، على وجه التخصيص، عن إقلاق النوم عند الراشد الكبير، لأنها تحول بينه وبين تحقيق الشرط النفسى اللازم للنوم، وهو التحلل من كل اهتمام بالعالم الخارجى، فالراشد لاينام لأنه لا يود أن تقف حياته الناشطة وأن ينقطع مجراها، ويؤثر أن يمضى فى عمل ما يهمه ويشغله، أما عند الطفل، فالمنبه النفسى الذى يقلق النوم هو الرغبة غير المشبعة، وليس الحلم إلا استجابة منه لهذه الرغبة.

٥ - وهذا يُسلم بنا - عن أقصر طريق - إلى نتيجة عن وظائف الأحلام، فلئن كان الحلم استجابة لمنبه نفسى، فلابد أن تكون وظيفته إزالة التنبيه واستبعاده كى يستمر متصلا دون توقف وانقطاع، ترى بأية وسيلة ديناميكية يقوم الحلم بوظيفته هذه؟ ذلك مالانزال نجهله. غير أننا نستطيع أن نقول منذ الآن، إن الحلم يبعد أن يكون مصدراً لإقلاق النوم (كما يؤخذ عليه عادة) بل **إنه حارس النوم، يحميه من كل ما من شأنه أن يسبب له إزعاجا**. صحيح إننا نميل إلى الظن بأن النوم الخالى من الإحلام خير من النوم المصحوب بها، لكنه ظن خاطئ، والحق أننا دون معونة الحلم، لا نستطيع أن ننام البتة، فنحن مدينون إلى الحلم بذلك القدر من النوم الذى نستمتع به. على أن الحلم ليس بمنجاة من أن يسبب لنا بعض الإزعاج، مثله فى ذلك مثل حارس الليل، مضطر إلى أن يحدث لنفسه بعض الجلبة والضوضاء وهو يطارد من يتصدى لإزعاجنا، ويعمل على إقلاق راحتنا وإيقاظنا من النوم.

٦ - فالرغبة هى التى تستثير الحلم، ومضمون الحلم تعبير عن هذه الرغبة: تلك إحدى الحقائق الرئيسية للحلم. وهناك خاصة أخرى للحلم، ليست أقل ثباتا

واطرادا من الأولى، هى أن الحلم لايقتصر على التعبير عن فكرة، بل إنه يصور الرغبة مشبعة، فى صورة خبرة وهمية، فالرغبة التى استثارت الحلم فى أحد الأمثلة السابقة تتلخص فى العبارة: «أريد أن أتنزه فى البحيرة»، أما مضمون الحلم ذاته فهو «إنى أتنزه فى البحيرة».

من هذا نرى أننا حتى فى هذه الأحلام البسيطة للأطفال، لانزال نلحظ اختلافا بين الحلم الكامن والحلم الظاهر، وتحريفا للفكرة الكامنة للحلم من جراء **نقل هذه الفكرة وترجمتها إلى خبرة حية**، ولابد، فى تأويل الأحلام، من أن نعمل، قبل كل شىء، على رد هذا التحريف إلى الأصل الذى نشأ منه، ولو صح أننا بصدد خاصة من أعم خصائص الأحلام كافة وأشملها، لعرفنا كيف نترجم ذلك العنصر فى الحلم الذى عرض لنا من قبل، وهو : «أرى أخى وقد أمسك بصندوق من حديد». فهذا العنصر يجب ألا يترجم على النحو الآتى: إن أخى قد **أمسك على نفسه** فى هذه الأيام»، بل على أنه: «وددت لو أنه أمسك على نفسه» أو «**ينبغى له** أن يمسك على نفسه». ولنذكر أن الخاصة الثانية من هاتين لخاصتين العامتين للأحلام أدنى إلى أن يعترف بها وإلى أن يسلم بها دون معارضة من الخاصة الأولى، ذلك أنه يتعذر علينا أن نستوثق من أن مثير الحلم لابد أن يكون رغبة على الدوام، فلايمكن أن يكون فى بعض الآونة غرضاً خاصاً، أو شيئاً مما يشغل البال، أو ضرباً من اللوم والنقد مثلا.. نقول ليس هذا ممكناً إلا بعد بحوث عميقة مستفيضة، أما الخاصة الأخرى فلا تتأثر بشىء من هذا، ونعنى بها أن الحلم لايقتصر على استعادة المنبه دون قيد أو شرط، بل إنه يبطله أو يستبعده أو يخفف من حدته، وذلك بتمثيله تمثيلا يفرغ عليه الحياة.

٧ – فى وسعنا أن نعود مرة أخرى، ونحن بصدد هاتين الخاصتين، إلى الموازنة بين الأحلام والهفوات، فقد ميزنا فى الهفوات بين نزعة دخيلة مقلقة، وأخرى تناصبها الأولى، ورأينا أن الهفوة صلح وتراض بينهما، هذا الوصف نفسه مما ينسحب على الأحلام، فالنزعة المنزعجة فيها لايمكن أن تكون بطبيعة الحال إلا النزعة إلى النوم، أما النزعة المزعجة فتتلخص فى المنبه النفسى؛ أى فى الرغبة التى تلح طلبا للإشباع: فالواقع أننا لا نعرف حتى الآن منبهاً نفسياً آخر من شأنه أن يقلق النوم، وهكذا ينشأ الحلم، هو الآخر، نتيجة لعملية صلح وتراض، فنحن ننام ونشعر مع هذا بإرضاء رغبة ، ونحن نرضى رغبة ونستمر فى الوقت نفسه فى النوم. فثمة إرضاء جزئى وحرمان جزئى لكلتا النزعتين.

٨ – لعلكم تذكرون أننا كنا نأمل فيما مضى أن نجد منفذاً إلى فهم مشكلات الأحلام ، عن طريق **أحلام اليقظة** تلك المنتجات الخيالية الشفافة التى تواضع الناس على تسميتها بهذا الاسم، الواقع أن أحلام اليقظة لا تعدو أن تكون تحقيقا وتنفيذاً لرغبات شهوية أو لرغبات فى الطموح، لكنه تنفيذ نعرفه حق المعرفة من حيث هو. ومهما بلغ من الوضوح والنصوع، فهو لا يخرج من حيز الفكر والتصور، ولايتخذ شكل الأوهام والهلاوس على الإطلاق، وبذا لايتحقق هنا من الخاصتين الرئيسيتين للأحلام إلا أقلهما يقينا، أما الأخرى فلا أثر لها البتة، لأنها مرهونة بحالة النوم، ولايمكن أن تتحقق فى حالة اليقظة، فإذا اتجهنا إلى اللغة الدارجة ألفيناها تشير، هى الأخرى، إلى أن تحقيق الرغبات خاصة رئيسية من خصائص الأحلام، ولنذكر عابرين أن الأحداث والخبرات التى نمر بها فى الأحلام، إن لم تكن إلا نوعاً آخر من التصورات التى تتيحها الظروف الخاصة بحالة النوم ـ ولنسمها، أحلام يقظة ليلية، ـ لفهمنا على التوكيف تؤدى عملية صوغ الحلم إلى إبطال المنبه الليلى وإلى إرضاء الرغبة. ذلك أن حلم اليقظة، هو الاخر، أسلوب من النشاط وثيق الصلة بإرضاء الرغبات، وهذا هو السبب الوحيد، فى الواقع ، الذى يحمل الناس على الالتجاء إليه.

يضاف إلى هذا أن هناك تعبيرات لغوية أخرى تتضمن المعنى نفسه، فمن الحكم الشعبية ما يقول: «إن الجائع يحلم بسوق العيش»؛ ومنها «إن الكلب يحلم بقطعة العظم»[١] بل إن هذه الحكم لتذهب إلى أبعد مما ذهبنا، فتهبط كما نرى، دون مستوى الطفل إلى مستوى الحيوان، وتقرر أن مضمون الأحلام ارضاء لحاجات، هذا إلى عبارات شتى يبدو أنها تشير إلى المعنى نفسه: فنحن نقول «هذا جميل كأنه حلم» و«لم أكن أحلم قط بمثل هذا» و«لم أكن أتصور هذا حتى فى أغرب أحلامى». وواضح أن اللغة الدارجة لم تسلم من الانحياز فى أحكامها هذه. فثمة أحلام يغشاها قلق شديد[٢]، وأخرى ذات مضمون مؤلم أو مما لايبالى به الشخص ويهتم به، غير أن هذه الأحلام لم تلق من اللغة الدارجة ترحيبا، صحيح أننا نتحدث عن أحلام «ثقيلة، لكننا إن تحدثنا عن «الحلم» على إطلاقه، فنحن نعنى به، عادة، الحلم الذى يرضى لنا رغبة مرموقة ـ

---

(١) أمثلة من اللغة المصرية الدارجة «المترجم».

1. Anxiet .

وليس فى الحكم الشعبية أن حيوانا رأى فى نومه أنه يُذبح!.

مما يصعب إدراكه حقا كيف فات الباحثون فى الإحلام أن يلحظوا أن تحقيق الرغبات خاصة من خصائصها، الواقع أنهم كانوا يلاحظون هذه الخاصة فى الكثير الغالب من الأحيان، غير أن أحداً منهم لم يفطن إلى أنها خاصة عامة شاملة، وأن يتخذها مفتاحا لتفسير الأحلام، ولا يعز علينا أن نتصور ما منعهم عن هذا، على أن هذه مسألة سنناقشها فيما بعد.

ولننظر الآن فى كل تلك المعلومات النفيسة التى أتيحت لنا ـ أكاد أقول دون عناء ـ من دراسة أحلام الأطفال، فقد عرفنا أن وظيفة الأحلام هى حراسة النوم، وأنها تنشأ من صراع بين نزعتين تظل إحداهما، وهى الحاجة إلى النوم، ثابتة، فى حين تحاول الأخرى إرضاء منبه نفسى معين، كما قدمنا الدليل على أن الأحلام أفعال نفسية حافلة بالدلالة والمغزى، وأن لها خاصتين رئيسيتين: فهى تحقيق لرغبات، وهى خبرات وهمية مهتلسة، على أننا كدنا ننسى، فى زحمة هذا البحث، أننا ندرس التحليل النفسى، ففيما عدا الصلة التى أقمنا بين الأحلام والهفوات، لم يكن لعملنا طابع نوعى خاص به، وقد كان فى مقدور أى مختص بعلم النفس لايعرف شيئا عن مقدمات التحليل النفسى، وفروضه، أن يقدم هذا التفسير لأحلام الأطفال، فلمَ لمْ يقم أحد من هؤلاء بهذا العمل؟.

لو أن الأحلام كانت جميعها من طراز أحلام الطفولة، لحلّت المعضلة ولانتهى البحث، دون أن تكون بنا حاجة إلى استجواب الحالم، أو الرجوع إلى اللاشعور، أو الالتجاء إلى عملية التداعى الطليق، وغنى عن البيان أنه يتحتم علينا أن نمضى فى عملنا، فى هذا الاتجاه، على أننا قد التقينا أكثر من مرة بخصائص قدرنا أنها ذات صدق مطلق، ثم ظهر لنا بعد هذا أنها لا تصدق إلا على نوع معين وفئة محدودة من الأحلام، فالمسألة التى تطالعنا الآن هى أن نقطع بما إذا كانت تلك الخصائص العامة التى تتسم بها أحلام الأطفال أكثر ثباتا من سابقتها، وبما إذا كانت تصدق أيضاً على الأحلام التى يستغلق معناها، والتى يبدو محتواها الظاهر منقطع الصلة برغبة باقية من اليوم السابق، عندى أن هذه الأحلام الأخرى قد أصابها قدر كبير من التحريف والتشويه، فلا يجوز لنا إذاً ، أن نصدر عنها أحكاماً مباشرة، كذلك أرى أنه لابد لتفسير

هذا التحريف، من الالتجاء إلى خطة التحليل النفسى وإجراءاته فى التأويل، تلك الخطة التى انصرفنا عنها ونحن نجمع المعلومات عن أحلام الأطفال.

لايزال أمامنا صنف آخر من الأحلام يبدو سافراً غير محرّف ، كما أنه يشبه أحلام الأطفال فلا يشق علينا أن نعرف فيه تحقيقًا لرغبات، تلك هى الأحلام التى تثيرها الحاجات العضوية الأساسية للإنسان طول حياته - كالجوع والعطش والرغبة الجنسية، فهى تحقيق لرغبات بمعنى أنها استجابات لمنبهات بدنية داخلية، من تلك أن طفلة عمرها تسعة عشر شهراً رأت حلما مكونا من قائمة طعام مشفوعة باسمها (أنا ف.... Anna F.، شليك، فرمبواز، بيض، حساء): فكان هذا الحلم رد فعل ليوم أكرهت فيه على الامتناع عن الطعام، لسوء هضم أصابها من أكل تلك الفاكهة التى ورد ذكرها فى الحلم مرتين، فى هذا العهد نفسه، اتفق لجدة هذه الطفلة - ومجموع عمريهما معًا سبعون عامًا - أن اضطرت إلى الامتناع عن الطعام يومًا لاضطراب أصابها من كُلية سائبة، فرأت تلك الليلة فى منامها أنها دُعيت إلى حفل قُدِّم لها فيه أشهى الأطباق وألذها.

ومن المشاهد المعروف أن السجناء الذين يحرمون من الغذاء، وأن الجوّابين أو المستكشفين الذين تمر بهم أوقات يكابدون فيها الحرمان الشديد - من المعروف أن أحلامهم تدور فى هذه الظروف، على إرضاء الحاجات التى لم يستطيعوا إرضاءها فى الواقع، من هذا ما يذكره «أوتو نوردنسكلد» Outo Nordenskjold فى كتابه عن القطب الجنوبى (عام ١٩٠٤) «وهو يصف زمرة الرجال الذين أمضى معهم فترة لشتاء (المجلد الأول - ص ٣٣٦):

كانت أحلامنا تدل دلالة واضحة على اتجاه أفكارنا ولم تكن أحلامنا قط بهذه الكثرة والوضوح، كما كانت فى ذلك الوقت. حتى أن أصحابنا الذين لم يكونوا يحلمون فى العادة إلا نادراً، كانوا يقصون علينا قصصاً طويلة كل صباح، حين نجتمع لنتبادل خبراتنا الأخيرة فى عالم الخيال. ولقد كانت الأحلام جميعها تدور على العالم الخارجى الذى كنا بعيدين عنه كل البعد، لكنها غالبًا ما كانت تنصب أيضًا على حالتنا وموقفنا فى ذلك الوقت... فكان الطعام والشراب المحر الذى تدور عليه فى أكثر الأحيان..

وقد اشتهر أحد أصحابنا بأحلام له، يرى فيها أنه يدعى إلى ولائم حافلة، فكان يبتهج إذ يجيئنا فى الصباح يقص علينا أنه دعى إلى مأدبة تناول فيها طعاماً من أطباق ثلاثة. كما كان آخر يرى التبغ فى نومه، جبالا برمتها من التبغ!.. ورأى ثالث

سفينة تأتى باسطة أشرعتها، تجرى على الماء، بعد أن ذهب عنه الجليد، على أن هناك حلماً آخر جدير بالذكر: فقد جاء فيه موزع البريد، وأخذ يشرح فى إطناب، لم تأخرت الرسائل إلى هذا الحد، وذكر أنه أخطأ التوزيع ولم يفلح فى جمعها بعد توزيعها إلا بعد عناء كبير، لقد كانت تشغل أذهاننا أثناء النوم، أشياء أكثر استحالة من تلك بطبيعة الحال، لكن الأحلام التى كنت أراها أو أسمعها من غيرى كانت تتسم جميعا بِجذْب من الخيال، يثير العجب والدهش حقا.

ولو كان فى مقدورنا أن نسجل هذه الأحلام جميعا، لكانت من دون شك وثائق ذات أهمية كبرى من الناحية السيكولوجية، وليس من العسير أن يتصور الإنسان كم كنا نحنُّ إلى النوم ونتلهف إليه، فقد كان يتيح لكل فرد منا ما يرغب فيه وما يصبو إليه».

وإليكم عبارات أخرى أقتبسها من «دوبرل» Du Prel: «لقد كان منجو پارك Mungo Park يحلم على الدوام، وهو يوشك أن يموت ظمأً فى رحلة له بأفريقية بالتلال والويان المخضلة بالماء فى وطنه، وقد رأى «ترنك» Trenck حين كان يبرح به الجوع فى معتقل بمجدبورج، أنه إلى مائدة مثقلة بأطباق فخمة، كذلك كانت حال «جورج باك» George Back ، الذى اشترك فى رحلة فرانكلين الاستكشافية الأولى، فقد كان يرى فى نومه دائما، يوم كان بين براثن الموت من الجوع، أنه يأكل طعاماً وفيرا».

إن من يشعر بالعطش فى نومه، من طعام كثرت التوابل فيه، فأكبر الظن أن يرى فى نومه أنه يشرب، فإذا اشتد به العطش، أو برح به الجوع، صحا من نومه ظمآن يروى عطشه بماء حقيقى، إذ يستحيل على الحلم، بطبيعة الحال، أن يشبع حاجة مستبدة فالمهمة التى يؤديها الحلم فى هذه الحال، لاغناء فيها من الناحية العملية، لكنها ترينا مع هذا أن الحلم قد أهيب به لحماية النوم من المنبه الذى يقسر النائم على الاستيقاظ والقيام بعمل، فإن لم تكن الحاجة على درجة كبيرة من الشدة والإلحاح، فالأغلب أن تكفى «أحلام الإرضاء»[1] لسد هذه الحاجة.

والأمر بالمثل حين يكون المنبه رغبة جنسية، إذ يتيح الحلم للنائم إرضاء هذه الرغبة، لكنه إرضاء من نوع خاص جدير بالذكر، فمن خصائص الدفعات الجنسية[2]

---

1. Satisfaction - dreams.
2. Sexual impulses .

أنها لاترتبط بموضوعها ارتباطا وثيقا مباشراً، كما هى الحال فى الجوع والعطش. لذا قد يكون الإرضاء فى «أحلام الإمناء[1]» إرضاءً حقيقياً، بل قد يحدث فى كثير من الأحيان أن تقترن أحلامٌ ذات مضمون غامض أو محرّف بإرضاء حقيقى، من جراء صعوبات معينة تتصل بموضوع الدفعة الجنسية (وهى صعوبات سنعرض لها فيما بعد). ويرى «رانك» O. Ronk أن هذه الخاصة التى تتسم بها أحلام الإمناء مما يجعل هذه الأحلام موضوعات صالحة لدراسة تحريف الأحلام بوجه خاص، يضاف إلى هذا أن كل أحلام الكبار الناضجين التى تدور على حاجات ورغبات، تنطوى عادة على شيء آخر إلى جانب الارضاء، على شيء مصدره منبهات نفسية صرفة، ويتطلب تأويلا لكى يفهم.

على أنى لا أعنى بهذا أن أحلام تحقيق الرغبات ذات الطراز الطفلى، لا تعدو أن تكون - عند الكبار - استجابات للحاجات الحتمية السالفة، فإلى جانب هذه الأحلام، هناك أخرى موجزة واضحة، تحدثها بعض الظروف والمواقف المهمة الغالبة، ولانزاع فى أنها تنشأ من منبهات نفسية، من أمثالها «أحلام الاستعجال»[2] وتُرى حين يكون المرء بسبيل الاستعداد للقيام برحلة، أو لمشاهدة رواية تهمه بوجه خاص، أو لسماع محاضرة، أو لتأدية زيارة... فإذا به يرى أن ما يرتقبه قد تحقق قبل ميعاده، فى حلم من أحلامه، فيجد نفسه فى الليلة التى تسبق التنفيذ الفعلى لما عزم عليه، وقد انتهى من رحلته، أو يتحدث إلى الصديق الذى قصد إلى زيارته، أو جالسًا فى بهو المسرح...

ومن أمثالها أيضًا تلك الأحلام التى تسمى بحق أحلام التكاسل، أو «أحلام الاستسهال»[3]، وتُلاحظ عند من يؤثرون مواصلة النمو والاستجابة لأشياء وهمية تكلفهم عناء أقل من الاستجابة الفعلية، فيرى النائم من هؤلاء أنه قد نهض من فراشه، وأنه يغتسل، أو أنه فى المدرسة، فى حين أنه لايزال مستغرقًا فى نومه، فى هذه الأحلام، تبدو الرغبة فى النوم - وقد رأينا أنها تشترك أبداً فى إحداث الأحلام - ظاهرة واضحة، كأنها العامل الأساسى والمصدر الفعلى لهذه الأحلام، من هذا نرى أن

---

1. Pollution - dreams
2. Impativence - dreams
3. Comgort - dreams

الحاجة إلى النوم تتخذ مكانها بحق، إلى جانب الحاجات العضوية الملحة الأخرى.

وأود أن أشير فى هذا المقام إلى صورة نقلها الرسّام «شفيند Schwind توجد الآن ببهو شاك Schack فى ميونخ، وذلك لأبين لكم كيف استطاع الفنان بقوة حدسه أن يرد حلما من الأحلام إلى موقف خطير من المواقف الغالبة فى حياة فرد، تسمى هذه الصورة، «حلم سجين»، فلا بد أن يكون موضوع الحلم هو الهرب والفرار بطبيعة الحال، وقد كانت فكرة موفقة أن يفر السجين من النافذة، فمن خلالها تنفذ أشعة الضوء فتوقظه من نومه. أما تلك الأقزام التى يركب بعضها فوق بعض، فلا ريب فى أنها تمثل الوضعات المتتالية التى لابد أن يتخذها السجين حتى يبلغ النافذة، وعسى ألا أكون مخطئا فأنسب إلى الرسّام شيئا لم يقصد إليه، إذا قلت إن ملامح أعلى قِزم فى هذا السلم، ذلك الذى ينشر قضبان السلم - وهذا ما يصبو السجين نفسه إلى عمله - تشبه ملامح السجين شبها عجيبا!.

لقد أسلفت لكم أننا إذا استثنينا أحلام الأطفال والأحلام ذات الطراز الطفلى.. فإننا نلتقى فى سائر الأحلام بعقبة هى تحريف الحلم وتشويه، ولانستطيع أن نقول بادى الرأى، ما إذا كانت سائر الأحلام بدورها تحقيقا لرغبات - وهذا ما نميل إلى افتراضه - كما أننا لا نستطيع أن نحدس المنبه النفسى الذى صدرت عنه من محتواها الظاهر، أو أن نبرهن على أنها تعمل - كالأحلام الأخرى - على إزالة المنبه أو التخفيف منه، والحق أنها أحلام يجب أن تؤول أى تترجم، بأن يرد التحريف إلى الأصل، ويستعاض عن المحتوى الظاهر بالفكرة الكامنة: عندئذ نستطيع أن تقرر، على وجه التحدد، ما إذا كانت الخصائص التى تتسم بها الأحلام الطفلية مما يمكن أن يصدق على كافة الأحلام دون استثناء.

المحاضرة التاسعة

الرقابة فى الأحلام

كشفت لنا دراسة أحلام الأطفال عن كيفية نشوء الحلم، وعن وظيفته وخواصه الأساسية، فرأينا أنه **وسيلة لإزالة تأثير المنبهات النفسية التى تقلق النوم عن طريق الإرضاء الوهمى**، أما أحلام الكبار الناضجين، فلم نستطع أن نفسر إلا طائفة واحدة منها، هى ما أسميناها الأحلام ذات الطراز الطفلى، وأما غير تلك، فلا نعرف من أمرها حتى الآن شيئا، ولانزال عاجزين عن استيضاحها وفهمها، ومع هذا فقد ظفرنا بنتيجة ذات دلالة يجب ألا نبخسها أو أن نغض من شأنها: هى أننا كلما التقينا بحلم نفهمه حق الفهم، ظهر أنه تحقيق لرغبة من الرغبات، وهذا الاتفاق لايمكن أن يكون عارضاً أو مما لايؤبه له ويعتد به.

فإن التقينا بحلم من طراز آخر، افترضنا أنه بديل محرَّف عن مضمون نجهله، ثم نجد فى أثر هذا المضمون ونستقصيه قبل كل شيء. ولدينا أسباب كثيرة تدعو إلى هذا الافتراض، منها ما بين الحلم وتصورنا الهفوات من تشابه، وعلى هذا تكون الخطوات التالية فى بحثنا هى تمحيص التحريف فى الأحلام وفهمه.

إن تحريف الحلم هو ما يجعله يبدو لنا غريبا غير مفهوم، وثمة أشياء عدة بنا حاجة إلى أن نعرفها عن هذا الموضوع: أولا ـ مصدر التحريف، أى ديناميكيته، ثانيا ـ وظيفة التحريف، وأخيرا ـ كيف يؤدى هذه الوظيفة. ونستطيع أن نقول، فضلا عن هذا، إن التحريف هو نتيجة عملية إخراج الحلم[1]. فلنحاول إذاً وصف هذه العملية، ونرسُم القوى التى تؤثر فيها.

لنستمع الان إلى حلم سجلته سيدة معروفة، فى دوائر التحليل النفسى[2]، عن امرأة متقدمة فى السن، ذات ثقافة عالية وموضع تقدير عظيم: وهو حلم لم يحلل لأن السيدة التى روته لنا زعمت أن أصحاب التحليل النفسى ليست بهم حاجة إلى تأويله، كما أن صاحبة الحلم نفسها لم تؤوله، بل حكمت عليه وأدانته كما لو كانت تعرف ماذا يعنى، فكان من بين ما قالت: «.... امرأة فى الخمسين ترى فى نومها حلمًا بهذه الدرجة من الحمق والبشاعة، امرأة لاتفكر ليلها ونهارها إلا فى طفلها!».

---

(١) Dream-work : انظر المحاضرة الحادية عشرة (المترجم).

(٢) هى الدكتورة فون هج – هلموت Dr. Von Hug - Hellmuth.

يدور هذا الحلم حول إدارة شئون الحب أثناء الحرب[1]، وها هو ذا:

ذهبت الحالمة إلى المستشفى العسكرى رقم ١، وقالت لحارس الباب إنها يجب أن تراجع كبير الأطباء (وذكرت له اسما لا تعرفه)؛ لأنها تريد أن تهب نفسها للخدمة فى المستشفى، وقد ظهر للجاويش من كلامها أنها تؤكد كلمة «خدمة» Service وتشد عليها، بحيث أدرك من فوره أنها تتكلم عن الخدمة في «إدارة شئون الحب»، ولما رأى أنها سيدة كبيرة، تركها تدخل بعد شيء من التردد، لكنها بدل أن تبحث عن كبير الأطباء، دلفت إلى حجرة واسعة مظلمة، كان بها نفر من الضباط وأطباء الجيش وقوفا أو جلوسًا حول مائدة طويلة، ثم اتجهت إلى أحد أطباء أركان الحرب وأخبرته باقتراحها، وسرعان ما فهم ما تريد، وقد كان نص العبارة التى قالتها فى حلمها: «إنى وعدد لا يحصى من نساء ڤيينا وفتياتها على استعداد لأن نهب أنفسنا للجنود والرجال والضباط من أية رتبة كانوا...» وما كادت تنتهى من قولها هذا حتى سمعت (فى نومها) دمدمة ولغطاً، وقد أدركت مما بدا على وجوه الضباط من تعبير ينم عن الارتباك والخبث، أنهم فطنوا جميعا إلى ماتريد أن تقول.

ثم مضت السيدة تقول: «وأنا أعرف أن عزمنا هذا يبدو مستهجنا غريبا، لكنّا نحمله محملا جدياً غاية فى الجد، فالجندى فى ساحة القتال لا يُسأل عما إذا كان يريد أن يموت أو لا يريد»... وتلت هذا لحظة من صمت أليم، ثم لفها الطبيب بذراعه وقال: «افرضى يا سيدتى أن الأمر قد انتهى إلى هذا فعلا، أن...» (تسمع دمدمة ولغطا).. فانتزعت نفسها من ذراعه، وقالت لنفسها: «الرجال جميعا سواء» ثم أجابت: «رباه، إنى امرأة مُسنّة، وقد لا يتاح لي البتة أن أكون فى هذا الرجال، فثمة شرط يجب أن يلاحظ: ذلك أن السن لابد أن يحسب لها حسابها، بحيث أن سيدة عجوز وشاباً يافعًا قد لا يسمح لهما أن ... (دمدمة ولغط)، إنه يكون أمراً فظيعاً» - فقال طبيب أركان الحرب «إنى أفهمك حق الفهم».

وكان هناك بعض الضباط، فانفجر أحدهم ضاحكا، وكان يغازل هذه السيدة فى صباه، وهنا رغبت السيدة فى أن يرشدوها إلى كبير الأطباء فهى تعرفه، حتى يضع الأمور فى نصابها، ولشد ما كنت دهشتها حيت أدركت أنها لا تعرف اسمه، ومع هذا

---

(١) Love Sevice : منظمة من سيدات ڤيينا وفتياتها المحترمات يرفهن عن الجنود أثناء الحرب؛ ليجنبوهم الاتصال بالساقطات من النساء «المترجم».

فقد أشار إليها طبيب أركان الحرب: فى تأدب جم واحترام، إلى سلم حديدى ضيق لولبى يسلم إلى الطوابق العليا، وذكر لها أن كبير الأطباء فى الطابق الثانى. وبينما كانت تصعد السلم سمعت ضابطا يقول: «يا له من تصميم هائل، صغيرة كانت أم كبيرة، كل احترامى لهذه السيدة!» فمضت صاعدة على درج لانهاية له، يدفعها شعورها بأنها تؤدى واجبا عليها.

لقد تكرر هذاالحلم مرتين خلال بضعة أسابيع، بتغييرات ترى صاحبة الحلم أنها غير ذات بال، وأنها لاتنطوى على أى معنى.

مما يلاحظ أن هذا الحلم يطرد كأنه حلم من أحلام اليقظة، وأنه فى جملته متصل، فليس فيه إلا بضعة مواضع حدث فيها توقف وانقطاع، كما أن كثيرا من تفاصيل محتواه كان يمكن استيضاحها بالبحث والتحرى، غير أن هذا، كما تعلمون، لم يحدث، على أن أظهر شيء فى هذا الحلم، وأهم ما فيه، احتواؤه على كثير من الفجوات، لا فى تذكره واسترجاعه، بل فى مضمونه ومحتواه، فى مواضع ثلاثة، يرتج علىّ المضمون كما لو كان قد نفذ، وحينما تحدث الفجوات، ينقطع حديث السيدة بسبب **دمدمة ولغط**، وبما أننا لم نحلل الحلم، فليس لنا فى الحق أن نقول شيئاً عن دلالته ومعناه.

غير أن هنك بضع أمارات تبيح لنا أن نستخلص نتائج معينة، منها ما تتضمنه «إدارة شئون الحب» من إشارة وتلميح، وأهم من هذا كله أن أجزاء الحديث التى تسبق اللغط مباشرة، بها حاجة إلى أن تستكمل، وهذه التكملة لا تستقيم إلا فى اتجاه معين واحد. إذا نحن قمنا بالتكملة فى هذا الاتجاه، خرجنا من ذلك بفكرة مضمونها أن السيدة مستعدة لأن تهب نفسها حين يدعوها الواجب، لترضى الحاجات الجنسية للجنود والضباط دون نظر إلى رتبتهم، وليس من شك فى أن هذا أمرٌ فظيع مخزٍ، بل إنه نموذج لخيال شبقى فاضح. غير أن الحلم لا يفصح عن ذلك، ولا يقول عنه شيئا، وكل ما هنالك أنه فى اللحظات التى تقتضى فيها الملابسات ذكر هذا الاعتراف ـ تقول فى هذه اللحظات تحديداً ـ يبدو أن الحلم الظاهر لغطٌ مبهم، كأن الاعتراف قد استبدل به هذا اللغط: أى أن شيئا قد أمحى أو قمع.

أرجو أن يكون قد اتضح لكم أن فُحش الفقرات المحذوفة فى هذا الحلم، هو على وجه التحديد ما دعا إلى استبعادها وقمعها، ولعلنا أن نجد فيما يقع فى هذه الأيام[1]

(١) تذكر القارئ بأن هذه المحاضرات ألقيت إبان الحرب العالمية الأولى «المترجم».

شبيهاً بما يحدث فى الحلم، فأية جريدة نتصفحها، لانلبث أن نرى فيها فقرات حُذفت من هنا وهناك، فبدت مكانها أجزاء بيضاء من الورق، وتعرفون أن هذا من عمل رقيب الصحافة، فلابد إن كانت هذه المواضع البيضاء تشغلها في الأصل عبارات لم ترض عنها سلطات الرقابة لحظرت نشرها، وهذا أمر يدعو إلى الأسف حقًّا، إذ لابد أن يكون ما حذفه الرقيب «زبدة» الأخبار وأهم ما فيها جميعا.

على أن الرقابة - فى أحوال وظروف أخرى - لايبدو أثرها فى حذف فقرات بأكملها على هذا النحو، إذ يرى الكاتب أو المحرر أن هناك عبارات معينة، أكبر الظن أن يعترض عليها الرقيب، فيبادر إلى التلطف بها والتخفيف من حدتها، وتحويرها تحويراً طفيفا، أو يقنع بضروب من الإشارة والتلميح إلى ما يريد أن يكتبه فعلا. وفى هذه الحال، لاتبدو فى الصحيفة رقع بيضاء، لكن القارئ لايفوته أن يدرك، من اللف والروغان فى طريقه التعبير، أن الكاتب كان يتمثل الرقابة فى ذهنه أثناء الكتابة.

فإن تماشينا مع هذا التشبيه، استطعنا أن نقول إن العبارات التى حُذفت أو موّه عليها اللغط، فى حلم السيدة، كانت ضحية رقابة من نوع ما.. الواقع أننا نستخدم اصطلاح **رقابة الأحلام**، وننسب إليها بعض ما يصيب الحلم من تحريف وتشويه. فكلما بدت فى الحلم الظاهر فجوات وثغرات، عرفنا أن الرقابة هى المسئولة عن ذلك. بل لابد لنا فى الواقع من أن نذهب إلى أبعد من هذا، فنقول إننا كلما التقينا فى الحلم بعنصر شاحب ملتبس غير محدد، وسط عناصر تفوقه وضوحاً وتحديداً، فهذا شاهد على أثر الرقابة، على أنه يندر أن تتخذ الرقابة تلك الصورة المكشوفة الساذجة، إن صح التعبير، التى اتخذتها فى حلم تلك السيدة، فالأغلب أن يبدو أثرها بالصورة الأخرى: أى بأن تستحدث ضروباً من التحوير والتلميح والإشارة بدل المعنى الحقيقى.

ويتفصح أثر الرقابة فى صورة ثالثة، لا أجد لها مثيلا فى رقابة الصحف. غير أنى أستطيع أن أوضحها بوساطة الحلم الوحيد الذى قمنا بتحليله حتى الآن، فعسى أن تذكروا حلم «المقاعد الثلاثة فى المسرح، التى تستأجر بثلاثة كرونات ونصف». ففى الأفكار الكامنة لهذا الحلم، كان عنصر «التبكير والتعجيل» يحتل المكان الأول منها، وكان معناه: «من الحمق أن **أتعجل** فى زواجى، ومن السُّخف أيضاً أن أحتجز المقاعد قبل عرض الرواية **بوقت طويل**، ومن الرعونة أن تنفق أخت زوجى مالها **على عجل** كما فعلت». على أن هذا العنصر المركزى للأفكار الكامنة لم يُبد شيء منه فى

المحتوى الظاهرى، بل كان كل شىء فى هذا المحتوى يدور على الذهاب إلى المسرح وحجز المقاعد، وإن إزاحة مركز الاهتمام على هذا النحو، وإعادة تنظيم عناصر الحلم بهذه الصورة، قد جعل المحتوى الظاهر مغايراً للأفكار الكامنة بحيث تمتنع كل شبهة فى وجود تلك الأفكار من هذا المحتوى، هذه **الإزاحة لمركز الاهتمام**[1]، من الوسائل الرئيسية التى تُحرَّف بها الأحلام وهى ما يفرغ على الأحلام ذلك الطابع من الغرابة التى يجعلها تبدو فى عين صاحبها كأنها ليست وليدة عقله هو.

فالحذف، والتحوير، وإعادة تنظيم العناصر هى إذاً الأساليب التى تترتب على عملية الرقابة، والوسائل التى تستخدم لتحريف الأحلام وتشويهها، أما الرقابة نفسها وهى السبب الرئيسى أو أحد الأسباب الرئيسية للتحريف، فهى موضوع بحثنا هذا، وقد جرت العادة أن يعتبر التحوير وإعادة التنظيم وسيلتين من وسائل **الإزاحة**.

ولننظر الآن إلى الرقابة فى الأحلام من الوجهة الديناميكية، بعد أن قدمنا هذه الملاحظات عن نشاطها ونتائجها، وأرجو ألا تتخذوا اصطلاح «الرقابة» على معنى تشبيعى[2] أكثر مما يجب، فتتصوروا الرقيب قزماً صارماً غليظاً، أو روحا تسكن مقصورة فى المخ تصدر منها أوامرها وتقوم فيها بوظائفها، كما أرجو ألا تحاولوا تحديد مكانه بدقة أكثر مما يجب، فتحسبوه مستقرا فى مركز من مراكز الدماغ تنبعث منه التنبيهات رَصَداً، فإن أصاب هذا المركز عطب أو تلف تعطلت الرقابة، بل سننظر إلى الرقابة، مؤقتا، على أنها اصطلاح مناسب يعبر عن علاقة ديناميكية، وهذا لايمنعنا من التساؤل عن نوع النزعات الراصدة والنزعات المرصودة، بل لا تدهشوا إذا عرفتم أننا التقينا بهذه الرقابة من قبل، وربما لم تفطنوا إليها.

الواقع أن هذا قد حدث بالفعل، أتذكرون تلك الظاهرة المدهشة التى عرضت لنا حين بدأنا نطبق طريقة التداعى الطليق : لقد كنا نشعر إذ ذاك أن هناك مقاومة تعترض جهودنا؛ إذ نحاول النفاذ من عنصر الحلم إلى الفكرة اللاشعورية الأصيلة التى يقوم هذا العنصر بديلا عنها، وقلنا إن هذه المقاومة لاتكون دائما على درجة واحدة من الشدة، فهى تكون تارة عنيفة، وطوراً ضعيفة جداً، فإذا كانت طفيفة لم يتطلب

---

1. Displacement of accent.

2. Anthropomorphic.

التأويل إلا بضع خطوات وحلقات رابطة، وإن كانت الأخرى، فلابد من أن نبدأ من عنصر الحلم فنتأثر سلاسل فى طريقنا من المستدعيات، تبعدنا عنه كثيراً ولامناص من أن نتغلب ، ونحن فى طريقنا هذا، على كل الصعوبات التى تبدو فى صورة اعتراضات وألوان من النقد وجهها الشخص إلى الخواطر التى تتوارد بإزاء حلمه..

هذه المقاومة التى اعترضتنا خلال عملية التأويل، نلتقى بها مرة أخرى فى صورة رقابة، خلال عملية انصياغ الحلم وإخراجه: فليست المقاومة إلا الرقابة محسوسة مجسمة، وهى اهد على أن قوة الرقابة لا تستنفذ كلها فى تحريف الحلم وتشويهه، بل إنها لاتبرح تعمل بصورة دائمة موصولة، حتى يظل التحريف على ما هو عليه ويبقى كما بدأ، وكما أن شدة المقاومة أثناء التأويل تختلف باختلاف عناصر الحلم، كذلك تختلف درجة التحريف الذى تحدثه الرقابة، من عنصر لآخر فى الحلم نفسه، فلو أننا قارنا المحتوى الظاهر بالمحتوى الكامن، لبدا لنا أن بعض العناصر الكامنة يستبعد استبعاداً تامًّا، وأن بعضها الاخر يصيبه التحوير بقدر قليل أو كبير، فى حين تبدو عناصر أخرى فى المحتوى الظاهر للحلم دون أن ينالها تحوير، بل قد تبدو أشد وأقوى مما هى عليه.

لقد كان هدفنا أن نستوضح عن النزعات التى تفرض الرقابة، وعن تلك التى تُفرض عليها الرقابة، وهذه المسألة جوهرية لفهم الأحلام، وربما لفهم الحياة الإنسانية جميعاً، ومن اليسير أن نجيب عنها متى استعرضنا سلسلة الأحلام التى وفقنا إلى تأويلها، أما النزعات التى تفرض الرقابة، فتلك التى يرضى عنها النائم ويصادق عليها وهو فى حالة اليقظة، والتى يشعر أنه على وفاق ووئام معها. وكونوا على يقين من أنكم حين ترفضون أن تقبلوا تأويلا صحيحا لأحد أحلامكم، فإن الدوافع التى تملى عليكم هذا الرفض، هى بعينها الدوافع التى تملى على الرقابة عملها، والتى تسبب التحريف، وتجعل التأويل أمراً ضروريا، وحسبكم أن تتأملوا حلم تلك السيدة ذات الخمسين عاما: فقد بدا الحلم فى نظرها، من دون أن يؤول، معيباً مستنكراً. ولو كانت الدكتورة فون هج هلموث ذكرت لها شيئاً عن حقيقة دلالته ومغزاه، لكان وقعه فى نفسها أبغض مما كان، ولقد كان استنكارها هذا، على وجه التحديد، ما دعا إلى الاستعاضة عن الفقرات المنكرة فى الحلم بدمدمة ولغط.

أما النزعات التى تفرض عليها الرقابة، فيجب أن توصف من ناحية المعيار النفسى للنقد عند المرء، ولئن فعلنا هذا، تسنى لنا أن نقول إنها نزعات مستنكرة، تتنافر مع وجهة نظرنا الأخلاقية والجمالية أو الاجتماعية، وأشياء لانجرؤ على التفكير فيها أبداً، إلا أن يكون تفكيراً يقترن بالمقت والاستفظاع، ثم إن هذه الرغبات المرصودة التى تبدو محرفة فى الأحلام، هى قبل كل شىء، مظاهر لأنانية مستهترة لاحد لها، فليس ثمة حلم يظهر فيه أنا[١] الحالم ولايقوم فيه بالدور الرئيسى، حتى إن عرف كيف يتنكر تنكراً تاماً فى المحتوى الظاهر للحلم، وهذه «الأنانية المقدسة» للأحلام ليست، على التحقيق، منقطعة الصلة باتجاهنا النفسى اللازم للنوم، ألا وهو الانسحاب من العالم الخارجى جميعاً، وقطع الصلة بكل اهتمام فيه.

فإذا ما تحلل الأنا من كل قيد أخلاقى، امتثل لمطالب الغريزة الجنسية جميعاً، تلك التى حرمتها تربيتنا الجمالية منذ أمد بعيد، وتلك التى تتعارض مع قواعد الأخلاق كلها، عندئذ تنطلق الشهوة «اللبيدو»[٢] ـ وهو اسم نطلقه على النزوع إلى التماس اللذة ـ باحثة عن موضوعات لها، لاتعترضها فى ذلك مقاومة، ولا يصدها مانع.. بل إنها فى الواقع تؤثر من الأشياء والموضوعات المحرم المحظور منها: فلاتمتد عين الرجل إلى زوجة غيره، فقط، بل وإلى محارمه هو، ممن تواضعت الإنسانية جميعها على تقديسهم ـ فإذا بالرجل يشتهى أمه أو أخته، وإذا بالمرأة تشتهى أباها أو أخاها (حتى أن حلم تلك السيدة ذات الخمسين عاماً، ينطوى على اشتهاء المحارم، إذ كانت الشهوة منصبة فيه على الابن دون نزاع).

بل هناك رغبات نعتقد أنها مجافية للطبيعة البشرية، فإذا بها تبدو ذات قوة تكفى لاستثارة الأحلام، فالكراهية تنطلق من عقالها، وكذلك الرغبة فى الانتقام، وتمنى الموت لأشخاص هم أعز شىء علينا وأقربه إلينا ـ كالأبوين والإخوة والأخوات، والزوج أو الزوجة، والأطفال ـ كل أولئك يجد فى الأحلام مرتعاً رحباً، وهيهات أن يبدو فيها على قلة وندور، وإن هذه الرغبات المرصودة لتبدو كأنها تنبعث من جحيم حقيقى، حتى ليلوح لنا حين نستبطن معناها ونحن أيقاظ، أن كل رقابة مهما اشتدت، لا تكفى لصدها وحظرها.

---

1. Ego.
2. Libido.

ومع هذا فالحلم ذاته لايعاب من أجل هذا المضمون الرجيم، وأكبر الظن أنكم لم تنسوا أن للحلم وظيفة بريئة بل وظيفة نافعة، هى حماية النوم مما يزعجه ويقلقه، فالشر والفجور ليسا لاصقين بطبيعة الحلم ذاتها، والواقع أنكم تعرفون أن هناك أحلاما تدور على إرضاء رغبات مشروعة أو حاجات عضوية حتمية، وهى أحلام تظهر غفلا من أى تحريف، بل إنها ليست فى حاجة إليه، فهى تستطيع أن تؤدى وظيفتها دون أن تسيء النزعات الأخلاقية والجمالية للأنا، واعلموا أيضاً التى يجب أن ترصد مريبة معيبة، وكانت مطالب الرقابة فى ظرف معين ملحة شديدة، من ذلك أن الرقابة الصارمة عند فتاة صغيرة، نشأت على تربية محتشمة وخفر شديد، من شأنها أن تحرف ما تراه الفتاة فى نومها من ضروب للإغواء والاشتهاء.. نراها نحن الأطباء مظاهر بريئة لرغبات شهوية ضارة، كما تراها الفتاة نفسها كذلك بعد أن تتقدم فى السن عشرة أعوام.

ولنذكر أننا لم نخط بعد خطوات واسعة، حتى نسخط على هذه النتيجة التى أسلمنا إليها بحثنا فى تأويل الأحلام، واعتد أننا لم نفهم بعد هذا البحث حق الفهم، على أنه يتعيّن علينا، قبل كل شيء، أن نعصمه من أوجه معينة للنقد والاعتراض، إذ ليس من العسير إطلاقا أن نجد فيه نقاطاً ضعيفة، فقد قام تأويلنا للأحلام على فروض صغناها قبل منها: أن الحلم ينطوى إجمالاً على دلالة ومعنى، وأن النوم الطبيعى يزخر بعمليات نفسية، لاشعورية مؤقتة، شبيهة بتلك التى تبدو فى النوم المغناطيسى، ومنها أن كل الخواطر والأفكار التى تتوارد بصدد الأحلام منحتمة مشروطة ، فلو أننا بدأنا من هذه الفروض، فوصلنا إلى نتائج مقبولة معقولة فى تأويلنا، لحق لنا أن نستنتج أنها فروض صحيحة تستجيب لحقائق الأشياء، لكن ماذا تكون الحال إذا كانت النتائج من النوع الذى وصلنا إليه بالفعل.

طبيعى أن يقال فى هذا الحال: «إنها نتائج مستحيلة، متناقضة، أو إنها على الأقل ضعيفة الاحتمال إلى حد بعيد، فلابد أن تكون الفروض التى بنيت عليها خاطئة، فإما ألا يكون الحلم ظاهرة نفسية، وإما ألا يكون ثمة شيء لا شعورى فى حياتنا وحالتنا الطبيعية، أو أن هناك عيباً ما فى الخطة التى نسير عليها، أليس هذا الافتراض أبسط وأكثر إرضاء للنفس من تلك النتائج الفظيعة التى نعترف بأننا استخلصنا من فروض؟».

إنه فى الحق أبسط وأكثر إرضاء للنفس، غير أن هذا لا يستتبع بالضرورة أن يكون أكثر صحة وصدقا. فلنصبر: فالمسألة لم تنضج بعد للحكم عليها، وتعالوا بنا قبل كل شيء نجعل أوجه النقد التى يعترض بها على تأويلنا أكثر قوة مما هى عليه.. أما أن النتائج التى ظفرنا بها، مكدرة منفرة، فهذا شيء لانأبه له كثيراً ولا نحلفل به. على أن هناك حجة أقوى من تلك وأكثر وجاهة: هى أن الحالمين الذين نكاشفهم بالرغبات والنزعات التى ننتزعها من تأويل أحلامهم، يرفضونها رفضاً باتاً مدعماً بأسباب معقولة، فها هو ذا أحدهم يقول: «ما هذا، أتريد أن تبرهن لى من حلمى أنى آسف على المال الذى أنفقته فى بائنة أختى وفى تربية أخى؟ لكن هذا محال، فأنا لاأعمل إلا من أجل أسرتى، وليس لى همٌّ فى الحياة إلا تأدية واجبى نحوها وهذا ما وعدت به أمى المسكينة وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة». أو ما قالته امرأة: «وتجرؤ أن تدعى أنى أتمنى موت زوجى؟ يا له من لغو مثير! إن قلت لك إن حياتنا الزوجية سعيدة جداً، فقد لاتصدق، لكنى أقول لك أكثر من هذا، فلو مات زوجى، فقدت كل ما أملك فى الحياة»، وقد يجيبنا أحدهم بقوله: «هل تعنى أن أشتهى أختى شهوة جنسية.. يا له من هزل سخيف، إنها لاتهمنى فى شيء والصلة بيننا متداعية فلم نتبادل كلمة واحدة منذ سنين»..

تلك أمثلة مما نسمعه من الحالمين فلا نعبأ به بل إننا لانكترث كثيرا إذا هم لم يعترفوا أو لم ينكروا ما ننسبه إليهم من نزعات ورغبات، إذ نقول لأنفسنا إن تلك النزعات هى بعينها الأشياء التى يجهلونها ولا يفطنون إلى وجودها، فهى أشياء لاشعورية، لكنهم عندما يستشعرون فى نفوسهم عكس الرغبة التى ينطق بها تأويل أحلامهم، وعندما يبرهنون لنا بسيرتهم وسلوكهم الدائم فى الحياة على أن الرغبة النقيضة هى الغالبة عليهم، فمن المحقق أن نجد أنفسنا حيارى قد أسقط فى أيدينا، ترى أليس هذا الظرف مواتيا كى نطرح فيه كل ما بذلناه من جهد فى تأويل الأحلام، بعد أسلمت بنا نتائجه إلى «قياس الخلف»[1]؟.

كلا، لم يحن الوقت بعد فهذه الحجة القوية فى ظاهرها لاتلبث، هى الأخرى أن تتهافت حيال ما نوجهه إليها من نقد؛ ذلك أن القول بوجود نزعات لا شعورية فى الحياة النفسية، لا ينقصه وجود نزعات مضادة تصول وتجول فى حيز الشعور. فربما

---

(١) «قياس الخلف» Reductio and absurdum هو ما يستدل فيه بامتناع أحد النقيضين على تحقيق الآخر «المترجم».

كان فى الحياة النفسية متسع لنزعات متضادة ولمتناقضات، يقوم بعضها إلى جنب بعض. بل من المحتمل فى الواقع أن يكون بروز نزعة ما شرطاً لوأد النزعة المضادة لها واستبقائها فى اللاشعور، وهنا لا يبقى من الاعتراضات التى وجهت إلينا، إلا القول بأن نتائج تأويل الأحلام ليست بسيطة ولا مستساغة، أما فيما يختص بالبساطة، فأحب أن أذكر لكم أنكم مهما أغرمتم بها، فلن تكون عونا لكم على حل مشكلة واحدة من مشكلات الأحلام، إذ إن كل مشكلة من تلك تطالعنا من أول الأمر بعلاقات وظروف معقدة.

وأما فيما يتعلق بالنقطة الثانية، فلابد أن أقول لكم إنكم تخطئون لو اتخذتهم الميل والهوى رائداً لكم كريها غير مستساغ، ولئن بدا لكم أن نتائج تأويل الأحلام تنطوى على أشياء منافرة غير مقبولة، بل على أشياء يكتنفها الخزى والاشمئزاز، فما قيمة هذا، وما شأنه؟

لقد كنت أسمع استاذى «شاركوه» Charvot[1] وأنا لا أزال طبيبا ناشئا، يردد العبارة الآتية فى مثل هذه الأحوال: «**هذا لايحل دون وجود الأشياء**»، فعلينا أن نلزم التواضع، وأن نطرح العاطفة والهوى جانباً إن أردنا أن نعرف حقيقة الأشياء فى هذا العالم. ولو أن أحد علماء الطبيعة استطاع أن يبرهن لكم أن الحياة العضوية على الارض مآلها إلى الفناء بعد زمن غير بعيد، فهل فيكم من يجترئ أن يقول له: «لا، هذا غير ممكن، تبًا له من مصير أكرهها كل الكراهية». لا أظن أن فيكم من سيقول هذا، بل أعتقد أنكم ستلزمون الصموت حتى يظهر فيزيقى آخر يستطيع أن يقنع الأول بخطأ ارتكبه فى مقدماته و فى حسابه، فإن صددتم أو أعرضتم عما يبدو لكم غير مستطاب، فأنتم بهذا تمثلون ما يحدث فى عملية انصياع الحلم بدل أن تعملوا على فهمها والهيمنة عليها.

ربما ترون بعد هذا أن تتغاضوا عما تتسم به الرغبات المرصودة فى الأحلام من طابع كذر مزعج، وأن تتساءلوا: أمن الممكن أن تنطوى طبيعة الإنسان على مثل هذا القدر الكبير من الإثم والشر، غير أنى أسألكم : هل وجدتم فى خبراتكم الخاصة ما يبرر مثل هذا التساؤل؟ لن أقول شيئا عن آرائكم فى أنفسكم، لكن التقيتم بكثير مما يشير إلى

---

(١) أستاذ علم «الأمراض العصبية» بجامعة باريس فى أواخر القرن الماضى، كانت له مدرسة، وقد قرأ عليه فرويد، ويقال إنه هو الذى أوحى إلى فرويد بما بين الاضطراب العصبى والغريزة الجنسية من صلة مكينة (١٨٢٥ - ١٨٩٣) «المترجم».

السلام والوئام فى قلوب الناس، فى رؤسائكم ومنافسيكم، وبكثير مما يشير إلى الشهامة والمروءة فى خصومكم وأعدائكم، وهل اختفت الغيرة والحسد من نفوس معارفكم ومن يحيطون بكم من الناس، حتى تشعروا إزاء هذا كله أن من واجبكم أن تحتجوا على ما ننسبه إلى الطبيعة البشرية من ضعة وأنانية؟ ألا تعرفون إلى أى حد يعجز الفرد من سواد الناس عن ضبط نفسه حيال كل ما يتصل بحياته الجنسية، وإلى أي حد لا يوثق به أو يعول عليه فى هذه الناحية؟ أما تجهلون أن كل ضروب الزيغ والضلال التى نراها فى النوم أحلامًا، جرائم يرتكبها بالفعل فى كل يوم أناس وهم فى حالة يقظة تامة؟ وهل يصنع التحليل النفسى فى هذه الناحية أكثر من أنه يؤكد ذلك القول القديم لأفلاطون، وهو أن خيار الناس من يقنعون بأن يروا فى أحلامهم ما يرتكبه الأشرار منهم بالفعل فى حياتهم اليومية؟

فإذا انتهيتم من النظر إلى الأفراد وأحوالهم، فانظروا إلى هذه الحرب الضروس التى لاتزال تعسف بأوروبة، وتأملوا ما تطالع به العالم المتحضر، اليوم، من مظاهر للقسوة والوحشية والإفك، أيدخل فى روعكم حقًا أن قبضة من طلاب المناصب والجاه، وممن يقدمون الرشوة ويروجون للفساد، كانت تكفى لإطلاق كل هذا الشر الكامن من مكمنه، إن لم يشاركهم فى الإثم ملايين من أتباعهم، وهل تجترءون، حتى فى هذه الظروف، أن تحطموا سنانًا واحدًا فى سبيل طرد الشر من الحياة النفسية للإنسان؟

قد تتهمونى بأنى أنظر إلى الحرب من جانب واحد، فتقولون إن الحرب قد جلت كذلك كل ما تنطوى عليه الطبيعة البشرية من نبل وجمال، بطولة الإنسان، وجوده بالنفس، وعاطفته الاجتماعية هذا حق لكننى أرجو ألا تظلموا أنفسكم كما ظلم الناس التحليل النفسى كثيرًا، فعابوا عليه أنه ينكر شيئًا لأنه يؤكد شيئًا آخر، فهيهات أن ننكر ما فى الطبيعة البشرية من نزعات نبيلة، ولم يسبق لنا قط أن فعلنا شيئًا من شأنه أن يغض منها وأن يحط من قيمتها، بل الأمر على عكس هذا.

فها أنتم أولاء ترون أنى لاأقصر حديثى على الرغبات الخبيثة التى تُفرض عليها الرقابة بل وأحدثكم أيضًا عن الرقابة التى تقمعها وتموه عليها حتى لايتعرفها الفرد، فإذا نحن أكدنا ما هو شر فى طبيعة الإنسان، فما ذاك إلا لأن غيرها ينكرون هذا الشر على الإنسان، على أن دعوى الناس تلك، ليس فيها ما يجعل الحياة النفسية للإنسان

خيراً مما هى عليه، بل تجعلها أكثر غموضاً وإبهاماً، ولئن أعرضنا عن النظرة الأخلاقية التى تُقوِّم الإنسان من جانب واحد، فليس من شك أننا سنخرج بصيغة تعبر، بصورة أدق وأضبط، عن العلاقة بين الخير والشر فى طبيعة الإنسان.

ولنكتف بهذا القدر هنا، فإن بدا لنا أن نتائج تأويلنا الأحلام تنطوى على ما يثير الدهشة والغرابة، فليس فى هذا ما يحملنا على أن نهجرها وننصرف عنها. فلعلنا نستطيع فيما بعد أن نقترب من فهمها عن طريق آخر، أما الآن فليقر فى أذهاننا ما يأتى: إن تحريف الأحلام يرجع إلى رقابة تفرضها نزعاتٍ معينة (ترضى عنها الأنا) على رغبات معيبة تتحرك فى نفوسنا ليلا ونحن نيام، ترى لم تنبعث هذه الرغبات المريبة بالليل تحديداً من أين تنشأ؟ سؤال تتطلب الإجابة عنه استجلاء نواحٍ عدة وإجراء بحوث أخرى.

وثم نتيجة أخرى من نتائج بحوثنا، ليس من الإنصاف أن نتركها دون أن نقدرها بهذا الصدد، حق قدرها، ذلك أننا لا عرف شيئا عن الرغبات التى تنبعث فى أُحلامنا فتقلق نومنا، ولا نفطن إلى وجود هذه الرغبات إلا بعد تأويل الحلم، لذا يمكن أن توصف بأنها رغبات «لاشعورية وقتية»، وذلك المعنى الذى استعملنا فيه هذا الاصطلاح، غير أننا يجب أن نعترف أيضاً بأنها أكثر من لاشعورية وقتية، لأن الحالم ينكرها ـ كما رأينا فى حالات كثيرة ـ حتى بعد أن يظهرها له تأويل حلمه، وهذا يذكرنا بفلتة اللسان التى تورط فيها خطيب الحفل فقال... «إن سرورنا لايقدر فقد رئيسا». فقد أكّد الخطيب إذ ذاك فى حنق وغيظ أنه لم يفطن قط، فى ذلك الحين أو فى أى حين آخر، إلى عاطفة تتضمن كرهه لرئيسه، وقد ارتبنا فى صحة توكيده هذه، وفرضنا أنه لا يفطن إلى وجود هذه العاطفة فى نفسه البتة، ذلك الموقف نفسه يعرض لنا ،كلما قمنا بتحليل حلم على جانب كبير من التحريف، وهو أمر يزيد نظريتنا أهمية ودلالة فعسى أن نكون بهذا على أهبة لافتراض وجود عمليات ونزعات فى الحياة النفسية لانعرف من أمرها شيئا، ولانعرف عنها منذ عهد طويل شيئا، بل ربما لم نعرف عنها قط شيئا مطلقا، وهذا يضفى على اصطلاح **اللاشعورى** معنى جديدا: فها نحن نرى أن «الوقتية » ليست صفة جوهرية وخاصة أساسية له؛ إذ قد يفيد الاصطلاح معنى **اللاشعورى الدائم**، وليس مجرد «الكمون الوقتى»، وسنشيع القول فى هذه النقطة فيما بعد.

المحاضرة العاشرة

الرمزية فى الأحلام

رأينا أن التحريف الذي يعوقنا عن فهم الأحلام، يرجع إلى رقابة تُفرض على الرغبات اللاشعورية غير المستساغة، غير أننا لم نقرر بطبيعة الحال أن الرقابة هى العامل الوحيد المسئول عن هذا التحريف، ذلك أننا إن تعمقنا دراسة الأحلام، تسنى لنا، فى الواقع ، أن نكشف عن عوامل أخرى تفضى إلى هذه النتيجة وبعبارة أخرى، أو فرضنا أن الرقابة قد ألغيت وزال أثرها، لم نستطع مع هذا أن نفهم الأحلام، ولم يترتب على هذا أن يصبح الحلم الظاهر صورة طبق الأصل من الأفكار الكامنة للحلم.

هذه العوامل الأخرى التى تؤدى إلى مسخ الحلم وغموضه، تنكشف لنا إذا أدركنا أن هناك ثغرة فى خطة التأويل التى نسير عليها. لقد أسلفت لكم أن عناصر الحلم فرادى قد تعجز أحياناً عن أن تستدعى خواطر وأفكار أيا كان نوعها، فيمن نقوم بتحليلهم، والحق أن هذه الظاهرة أقل تواتراً وحدوثاً مما يؤكده هؤلاء الأشخاص، ففى أحوال كثيرة جداً، يمكن أن ترد المستدعيات إذا نحن ألححنا ومضينا فى الإلحاح، غير أن هذا لايمنع أن نستقصى المستدعيات فى بعض الأحيان استقصاءً تاماً، فإن انبعث بعضها آخر الأمر كرها واقتساراً، لم نكن هذا ما نريده وما نتوقعه، فإذا حدث هذا أثناء العلاج بالتحليل النفسى، كانت له دلالة خاصة لاتعنينا فى هذا المقام، بيد أنه يحدث أيضاً خلال تأويل الأحلام عند الأسوياء من الناس، أو حين نقوم بتأويل أحلامنا نحن، ومتى تأكد لنا فى أمثال هذه الظروف أن أى قدر من الإلحاح لايغنى فى استدعاء الخواطر والأفكار، ظهر لنا آخر الأمر أن هذا الامتناع يبدو على الدوام متى كنا بصدد عناصر معينة من الحلم، عندئذ يتضح لنا أننا حيال ظاهرة تحكمها قوانين معينة، وأن الأمر يبعد أن يكون حالة استثنائية أو عارضة عجزت عن تناولها خطتنا فى التأويل.

ويتفق أن نأخذ فى تأويل هذه العناصر «الصامتة» وأن نحاول ترجمتها بما لدينا من وسائل خاصة، والغريب أننا نصل، فى كل حالة تقدم فيها على مثل هذه الترجمة والتأويل، إلى معنى يبعث على الرضا، فى حين يبقى الحلم مهلهلا لا معنى له، إن لم نلجأ إلى هذه الطريقة، فلئن صحت هذه الطريقة فى عدد كبير من الحالات المتشابهة كل الشبه، تسنى لنا أن نمضى فى استعمالها فى غير تردد أو إحجام، وكان لنا ما نصبو إليه من تأكد ويقين.

ولئن عرضت عليكم هذا كله بصورة تخطيطية، فلا جناح على فى ذلك، فمنهج التعليم يأذن لى بمثل هذا النوع من العرض، ما دام يبسِّط الموضوع دون أن يزيفه وأن يحرفه.

فإذا سرنا على هذا المنوال، أمكننا أن نظفر بتراجم ثابتة لطائفة من عناصر الأحلام شبيهة كل الشبه بالتراجم التى نجدها فى الكتب الشعبية الدارجة عن الأحلام، والتى تفسر كل شىء يقع فى الأحلام، ولعلكم لم تنسوا أننا لانصل إطلاقا إلى أمثال هذه التراجم الثابتة لعناصر الأحلام، إن اصطنعنا طريقة «التداعى الطليق».

ستقولون من فوركم إن هذا الأسلوب فى التأويل يبدو لكم أبعد عن اليقين وأكثر تعرضا للنقد من أسلوب التداعى الطليق، غير أن هناك شيئًا آخر حرياً بالذكر: فلو أننا جمعنا من الخبرات الفعلية عدداً كافياً من أمثال هذه التراجم الثابتة، لرأينا أننا بصدد تأويلات كان من الممكن أن نصل إليها استناداً إلى ما لدينا من وسائل خاصة ليس غير، وأننا كنا نستطيع أن نفهمها دون أن نلتجئ إلى مستدعيات الحال. وسنرى فى النصف الثانى من استعراضنا هذا، كيف نظفر بمعرفة دلالتها ومعناها.

وسنسمى هذه العلاقة الثابتة بين عنصر الحلم وترجمته، بالعلاقة **الرمزية** أما عنصر الحلم نفسه **فرمز** للفكرة اللاشعورية فى الحلم، وعساكم أن تذكروا أننا حينما كنا نفحص العلاقات المختلفة التى يمكن أن توجد بين عناصر الحلم وبين الأفكار الحقيقية التى تستتر وراءها، ميزانا بين أنواع ثلاثة من العلاقات: استبدال الجزء بالكل، والتلميح، والتصوير المجازى، ثم ذكرت لكم إذ ذاك أن هناك علاقة ممكنة رابعة، لم أسمها ولم أبين لكم ما هى هذه العلاقة الرابعة... هى العلاقة الرمزية التى أقدمها لكم الآن، والتى تتصل بنواح كثيرة جديرة بالمناقشة وعلى جانب كبير من الطرافة، وسنتجه الآن إلى عرض هذه النواحى، قبل أن نبسط ملاحظاتنا عن الرمزية بوجه خاص، إن موضوع الرمزية ربما كان أظهر الفصول وأكثرها واسترعاء لنظر، فى نظرية الأحلام.

لنذكر قبل كل شىء أن العلاقة بين الرمز والفكرة والمرموزة علاقة ثابتة لاتتغير، كأن الفكرة ترجمة للرمز بوجه من الوجوه، فالرمزية إذاً ، تحقق إلى حد ما، المثل الأعلى للتأويل الشعبى للأحلام ولتأويلها القديم، وهو مثل تنأى عنه خطتنا نأيا

كبيراً، إن الرموز تمكننا فى أحوال معينة من أن نؤول حلما دون أن نسائل صاحبه الذى لايملك، فى الواقع، أن يخبرنا بشيء عن هذه الرموز، فمتى عرفنا الرموز المألوفة المشاعة فى الأحلام، وعرفنا كذلك شخصية الحالم والظروف التى تلابسه، وانطباعاته النفسية التى أعقبها الحلم، فأغلب الأمر أننا نستطيع أن نؤول الحلم رأساً، وأن نترجمه ارتجالا إن صح التعبير، ومثل هذه الحيلة من شأنها أن تتملق غرور المؤول، وأن تبهر صاحب الحلم وتروعه، كما أنها أقل مؤونة وعناءً إذا قيست إلى طريقة استجواب الحالم.

لكن حذار أن تغركم هذه الطريقة: فليس من شأننا أن نقوم بخُدعٍ وحيل، وليست هذه الطريقة فى التأويل التى تقوم على الإلمام بالرموز مما يمكن أن تستبدل بطريقة التداعى الطليق، أو مما يمكن أن تقارن بها. فهى لا تعدو أن تكون تتمة لطريقة التداعى، أما فيما يتعلق بمعرفة الحالة النفسية للحالم، فعليكم أن تذكروا أن الأحلام التى تقومون بتأويلها ليست على الدوام لأشخاص تعرفونهم حق المعرفة وأنكم بوجه عام لا تعرفون شيئا عن الأحداث التى وقعت للنائم فى اليوم السابق لحلمه فاستثارت الحلم، وأن المستدعيات التى ترد إلى ذهن الشخص المحلّل هى بذاتها المصدر الذى نتعرف منه ما نسميه «الموقف النفسى» لصاحب الحلم.

وفضلا عن هذا فمما يستلفت النظر بوجه خاص ـ لاسيما فيما يتصل باعتبارات معينة سنتناول فيما بعد ـ تلك المعارضة العنيفة التى أثارتها، هنا أيضاً، مسألة وجود علاقة رمزية بين الحلم واللاشعور، حتى أن قوماً من ذوى المكانة والحكم السديد، وممن سايروا التحليل النفسى فى نواحٍ أخرى سبحاً طويلا، أعرضوا عنه فى هذه الناحية، ورفضوا أن يجاوروه فى هذا السبيل، وإن موقف هؤلاء ليبدو أكثر غرابة إذا ذكرنا شيئين : أن الرمزية ليست وقفاً على الأحلام وحدها، وليست خاصة مقصورة عليها دون غيرها.

الأمر الثانى: أن الرمزية فى الأحلام ليست من كشوف التحليل النفسى، ولو أن هذا العلم لم يقصر، فى الحق عن الإتيان بكشوف رائعة، فإذا أردنا أن ننسب هذا الكشف إلى صاحبه فى العصر الحديث، فإن صاحبه هو الفيلسوف شرنر Scherner (١٨٦١) . وقد جاء التحليل فعزز هذا الكشف أو أيده، وإن كان قد تناوله بالتحوير فى نواح مهمة منه.

أخالكم تودون الآن أن تستمعوا إلى شىء عن طبيعة الرمزية فى الأحلام وأن تروا إلى أمثلة منها، فسأخبركم بما أعرف عن طيب خاطر، بيد أنى أعترف أن معارفنا فى هذه الناحية، دون ما نريد.

إن العلاقة الرمزية ، فى جوهرها، علاقة مقارنة، لكنها ليست مقارنة أياً كان نوعها، ولا معدل عن الظن بأنها مقارنة تتطلب شروطا معينة، وإن كنا لانستطيع أن نقول ما هى هذه الشروط تحديداً، فكل شىء يمكن مقارنته بموضوع من الموضوعات أو حدث من الأحداث، لايظهر فى الحلم رمزاً لهذا الموضوع أو لذاك الحدث، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأحلام لا تصطنع الرموز لأى شىء ولكل شىء، بل لعناصر معينة من الأفكار الكامنة للحلم، وهكذا تكون الرمزية محدودة من كلتا الجهتين.

ويتعين علينا أن نصرح أيضا بأنه ليس فى وسعنا فى الوقت الحاضر، أن نحدد فكرتنا عن الرمز تحديداً واضحًا لأنها تلتبس بفكرتى «الإبدال» و«التصوير» وغيرهما، بل إنها تقترب من فكرة «التلميح» قرباً كبيراً، ففى طائفة من الرموز، تكون المقارنة التى تقوم عليها واضحة جلية، غير أن هناك رموزاً أخرى تحتاج إلى البحث والتدقيق لمعرفة العامل المشترك، أو «الجامع»[1] فى هذه المقارنة المفترضة، وقد يهيىء لنا التأمل والتفكير العميق أحيانا، أن نكشف عن هذا العامل المشترك، أو يظل مختفيا عنا أصلا فى حين آخر، يضاف إلى هذا أن الرمز إن كان مقارنة حقًا، فمن العجيب ألا تكشف لنا عملية التداعى الطليق عن هذه المقارنة، وألا يعرف صاحب الحلم عنها شيئا، بل يستخدمها على غير علم منه بموضوعها، وأكثر من هذا أنه لايقبل بالفعل أن يعترف بها متى كوشف بأمرها، من هذا ترون أن العلاقة الرمزية مقارنة من نوع خاص غريب لانزال نجهل طبيعته وأسبابه، وعسى أن نجد فيما يلى دلائل تلقى بعض الضوء على هذا الكم المجهول.

إن عدد الأشياء التى تصوّر فى الأحلام تصويراً رمزياً ليس بكثير، منها جسم الإنسان فى جملته، والأبوان والأطفال والإخوة والأخوات والولادة والموت والعرى -

(١) Tertium Comparationis الطرف الثالث للمقارنة «المترجم».

(٢) الأعضاء التناسلية «المترجم».

وشيء أكثر من ذلك ....![٢] والتصوير النموذجي الوحيد؛ أى المطرد لجسم الإنسان فى جملته ، هو **المنزل** - هذا ما اعترف به الفيلسوف «شرنر» من قبل، وقد أراد أن ينسب إليه دلالة شاملة لا ترجع إليه فى الواقع، وكثيرا ما يرى النائم نفسه يهبط من واجهة منزل وقد لابسه شعور سار لذيذ، أو شعور بالرعب والفزع، فإذا كانت جدران المنزل ملساء، فالمنزل يعنى رجلا، وإن كانت تعترضها نتوءات وشرفات يمكن الإمساك بها، فالمنزل يرمز إلى امرأة، أما الأبوان فيبدوان فى الأحلام فى صورة **ملك وملكة** أو **إمبراطور وإمبراطورة** أو غير تلك من الشخصيات الفخمة، أى أن الحلم يحطيهما بما هما خليقان به من احترام وتبجيل. وهذا على خلاف ما يعامل به الأطفال والإخوة والأخوات؛ فهو لايتلطف فى الإشارة إليها، إذ يرمز لها **بالحيوانات الصغيرة** أو **الديدان** وأما الولادة فيكاد يصورها الحلم دائمًا بإشارة إلى الماء، فيرى النائم أنه يلقى بنفسه فى الماء، أو أنه يجهد فى الخروج منه، أو يرى أنه ينتزع شخصا من الماء، أو أن أحداً ينقذه منه، وفى هذا رمز إلى العلاقة بين الأم والطفل، والحلم يرمز إلى الموت المرتقب **برحلة** أو **سفرة فى قطار**، فى حين يرمز إلى حالة الموت بإشارات مختلفة، مبهمة مشئومة أما العرى فيرمز إليه **بملابس وبذات رسمية** من هذا نرى أن الحد الفاصل بين التصوير الرمزى وبين التصوير بالإشارة التلميح يميل إلى أن يتلاشى فى هذه الحالات.

فى مقابل هذه الرموز القليلة المحدودة، ثمة ميدان آخر يشار فيه إلى الأشياء والموضوعات فيه برموز تبهر وتروع لما هى عليه من تنوع وثراء، وأعنى بذلك ميدان الحياة الجنسية وما يحتويه من أعضاء تناسلية وأفعال جنسية وتواصل جنسى، فإذا عرفنا أن الغالبية الساحقة من الرموز فى الأحلام رموز جنسية، ألفينا أنفسنا بصدد مقابلة عجيبة لا تناسب البتة بين طرفيها: فالموضوعات التى يرمز إليها قليل عددها، فى حين أن الرموز التى تشير إليها على جانب كبير من الوفرة والتعدد، بحيث أن كل موضوع من هذه الموضوعات القليلة يمكن التعبير عنه بعدد ضخم من الرموز، تكاد تتكافئ جميعها من حيث قيمتها ودلالتها، فإذا ما أخذنا فى تأويل هذه الرموز، طالعنا أمر ليس مما يرتاح إليه، فبينما يمثل الشيء الواحد بصورة شتى فى الأحلام، إذا بالتأويلات جميعها تعتبر واحدة. وهذه واقعة لايبتهج بها من قُدّر له أن يخبرها لكن ما حيلتنا فى ذلك؟

وبما أن هذه هى المرة الأولى التى نتصدى فيها للحياة الجنسية فى محاضراتنا، فأرى لزاما على أن أشرح لكم الطريقة الطريقة التى أقترح أن أتناول بها هذا الموضوع: إن التحليل النفسى لا يرى داعيا إلى المواربة والكلام المستور، ولا يرضى بإشارات غير مباشرة، كما أنه لا يرى داعيا إلى الاستحياء والتحرج فى معالجة موضوع خطير كهذا. بل يرى من الخير والصواب أن يسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية، فهو يأمل بهذا أن يتفادى ضروب الرياء التى ليس من ورائها إلا اضطراب البحث وتهويشه. ولن يغير شيئا من هذا أنى أتحدث إلى مستمعين يمثلون الجنسين جميعًا. فليس ثمة علم يمكن أن يعالج على طريقة العرّافين الذين يبدون الحسن ويخفون القبيح، أو أن يكيف حتى يرضى الساذجات من تلميذات المدارس، والحاضرات من النساء بيننا يعبرن بحضورهن ضمناً، عن رغبة فى أن ينظر إليهم كما ينظر إلى الرجال سواء بسواء.

يرمز الحلم إلى الأعضاء الجنسية للرجل بطرق مختلفة شتى، يكون العامل المشترك للمقارنة فيها واضحاً جليًا فى أغلب الأحيان، فالجهاز التناسلى للرجل يشار إليه فى جملته بالرقم المقدس ٣. وإن أظهر جزء فيه، وأكثر ما يهم الجنسين جميعاً، وهو القضيب، يرمز إليه فى المقام الأول بأشياء تشبهه فى شكله بأشياء مستطيلة منتصبة **كالعصى والمظلات والأغصان والأشجار** وما يشبهها، كما يرمز إليه أيضاً بأشياء تشترك مع المرموز فى قدرتها على ولوج الجسم وإيذائه كالأسلحة المدببة بمختلف أنواعها: **المدى والخناجر والحراب والسيوف**، أو بالأسلحة النارية **كالبنادق والغدارات** وخاصة **المسدسات**، فهو رمز ملائم جداً للمقارنة نظرا لشكلها الخاص، ففى أحلام الجثام[1] عند الفتيات، كثيراً ما ترى الفتاة رجلا يطاردها وفى يده مدية أو بندقية، وربما كان هذا الرمز أكثر الرموز تواتراً فى الأحلام: وليس فى تأويله صعوبة ما . كذلك قد يشار إلى العضو الذكرى بأشياء يتدفق منها الماء **كالصنابير والنافورات والرشاشات** وهى إشارات لايصعب فهمها فى الأخرى، كما يستعاض عنه أيضًا بأشياء قابلة للاستطالة **كالمصابيح المدلاة فى بكر كالأقلام التى تطول وتقصر** وغيرها، وليس من شك فى أن **الأقلام وريش الكتابة ومبارد الأظافر والمطارق** وغير تلك من **الأدوات** رموز جنيسة ذكرية تقوم على فكرة عن عضو الذكورة لا يشق فهمها أيضاً.

---

(١) هى ما تعرف بأحلام الكابوس Anxiety-dreams «المترجم».

ولما يتسم به هذا العضو من خاصة غريبة هى قدرته على أن ينتشر إلى أعلى كأنه يتحدى قانون الجاذبية (وهى جزء من ظاهرة الانتصاب)، فقد يرمز إليه **بالمناطيد والطائرات**، على أن الأحلام تشير إلى الانتصاب بوسيلة أخرى شد تأثيراً وأبلغ فى التعبيد من تلك. فهى تجعل عضو التناسل يتقمص الشخص نفسه، فإذا **بالنائم يرى نفسه يطير**، فلا ترتاعوا إن ذكرت لكم أن أحلام الطيران التى تعرفونها جميعا، والتى تبدو غالباً على درجة كبيرة من الجمال يجب أن تؤول على أنها أحلام أساسها اهتياج جنسى عام، أى ظاهرة الانتصاب، وقد أيّد «فيدرن» P. Federn أحد أنصار التحليل النفسى صدق هذا التأويل بأدلة لا تقبل التفنيد، بل لقد قام أحد الباحثين مورلى فلد Mourly Vild ، وهو ممن يعرفون برزانة الحكم، وممن تبتعد نظراتهم عن نظريات التحليل بعدا كبيراً (بل ربما لم يكن يعرف عنها فى الواقع شيئا) - قام بتجارب تتلخص فى وضع الأذرع والسيقان أثناء النوم مصطنعة، فخرج من ذلك بالنتائج نفسها. وأخالكم تعترضون بأن النساء ترى فى النوم أنها تطير، فأرجو أن تذكروا أن غرض الأحلام تحقيق الرغبات، أو أن رغبة المرأة فى أن تكون رجلا، من الرغبات المشاعة عند النساء، سواء كانت رغبة شعورية أم لا شعورية، ومن كان منكم على علم بالتشريح، لم ير عجباً فى أن تكون المرأة قادرة على تحقيق هذه الرغبة، عن طريق إحساسات شبيهة بما يشعر به الرجل، ذلك أن الجهاز التناسلى للمرأة يشتمل على عضو صغير يشبه القضيب، وأن هذا العضو، وهو ما يعرف بالبظر، يقوم فى أثناء الطفولة وفى السنوات التى تسبق التواصل الجنسى بالدور نفسه الذى يقوم به القضيب عند الذكر الكبير.

ومن الرموز الجنسية الذكرية ما هو أعصى على الفهم من الرموز السابقة **كالزاحف والأسماك** وأهم هذه جميعا ذلك الرمز الشهير وهو الثعبان، أما الرمز **بالقبعات وبالمعاطف** لتلك المعانى، فمما يصعب حدسه دون ريب، وإن كانت دلالتها الرمزية مما لا مراء فيه، ويبدو لنا أن نتساءل أخيراً عما إذا كان تمثيل العضو الذكرى آخر **كاليد** أو **القدم** مما يمكن اعتباره تمثيلاً رمزيا، اعتقد أننا إذا نظرنا إلى الحلم فى جملته وملابساته، وإلى ما يقترن بهذين العضوين من رموز أنثية[1] وجدنا أنفسنا مرغمين على قبول هذه النتيجة والتسليم بهذه الدلالة.

---

(١) فكثيراً ما ترى القدم وهى تلج فى حذاء، واليد موضوعة فى الفم أو فى جيب؛ مما يشير إلى الدلالة الذكرية لهذين العضوين «المترجم».

أما الأعضاء التناسلية للمرأة فيرمز إليها بجميع الأشياء التى تشاركها من حيث وجود فجوة فيها، أو من حيث قابليتها لأن تكون أوعية ومستودعات: **كالحفر والتجاويف والكهوف وكالقوارير والمطريانات والصناديق** مختلفة الأنواع والأحجام **وكالصوانات والعلب والجيوب** وغيرها، كذلك **السفن** أيضاً،، وثمة رموز أخرى تشير إلى الرحم أكثر مما تشير إلى الأعضاء التناسلية الأخرى، منها: **خزانات الملابس والأفران**، وفوق هذه وتلك **الغرف**، والرمز بالغرف يرتبط هنا بالرمزية المنازل، وبذا تكون **الأبواب والبوابات** رموزاً تشير إلى الفتحات التناسلية يضاف إلى هذا أن هناك مواد مختلفة تستعمل رموزاً للمرأة - **كالخشب والورق** أو ما يصنع منهما **كالموائد والكتب**، فإذا اتجهنا إلى عالم الحيوان وجدنا **القواقع وبلح البحر** من الرموز الأنثية التى لايخطؤها التقدير، ولنذكر علاوة على هذا أن **الفم** هو أحد أعضاء الجسم التى يرمز بها إلى الفتحة التناسلية، وأن **الكنائس والمعابد** مما يشار به إلى المرأة، من هذا ترون أن هذه الرموز لا تستوى جميعها من حيث سهولة فهمها.

ومما يجب اعتباره ضمن الأعضاء الجنسية: الثديان وردفا المرأة، ويرمز عادة **بالتفاح والخوخ والفواكه** إجمالا، أما شعر العانة عند كلا الجنسين فيصوّر فى الأحلام **بغابات وأدغال**، على أن التكوين المعقد للجهاز التناسلى عند المرأة مما يجعله يبدو فى الحلم غالبا فى صورة **منظر طبيعى** تغشاه الصخور والأشجار والماء، فى حين أن التكوين المهيب للجهاز التناسلى عند الرجل مما يجعله يرمز إليه **بآلات** معقدة ذات أنواع شتى من العسير وصفها.

ومن الرموز الجديرة بالذكر للجهاز التناسلى للأنثى **عليه الحلى**. **فالحلية والكنز** مما يشار به، حتى فى الأحلام، إلى الشخص المحبوب، أما **الحلوى** فتقوم فى الغالب رمزاً إلى التلذذ الجنسى.. والإشباع الجنسى الذى يتاح من اللعب بالأعضاء التناسلية يرمز إليه فى الأحلام بكل أنواع اللعب ومنها اللعب على البيانو، فى حين يرمز إلى الاستمناء[1] **بالتزحلق والانزلاق وانتزاع غصن من الشجر**، ومن

---

(١) يلاحظ أن الكلمة الواردة فى النص هى «الأونانية» Onanism ومعناها الحرفى «العزل» لا«الاستمناء»، وهذا ما لا يريده المؤلف فى هذا المقام، لهذا آثرنا أن نترجمها بالاستمناء. «المترجم».

الرموز التى تسترعى الانتباه بوجه خاص **سقوط سن أو انتزاعها**: ومن المحقق أن الدلالة البدائية لهذا الرمز هى الخصاء عقابا على مزاولة الاستمناء، ومن الغريب أن الرموز الخاصة بالعملية الجنسية أقل شيوعًا فى الأحلام مما نتوقع، خاصة بعد أن سردنا ما سردنا من رموز، فمن الرموز التى يمكن أن تذكر بهذا الصدد، أوجه النشاط الموقَّع **كالرقص وركوب الخيل والتسلق**، وكذلك بعض الحوادث العنيفة، كأن يرى النائم أن **سيارة تدعه**، هذا إلى بعض **الأعمال اليدوية** وأن يرى النائم نفسه **مهددًا بسلاح**.

إن استخدام هذه الرموز فى الأحلام وترجمتها ليسا من السهولة ما قد تظنون فنحن نلتقى فى كلتا الحالين بأشياء وتفاصيل لانتوقعها، من تلك ما يشق علينا تصديقه، كأن لا يميز بين الجنسين الختلفين تمييزًا فاصلاً فى هذه التصاوير الرمزية غالبا، فكثير من الرموز يشير إلى الأعضاء الجنسية إجمالاً ـ ذكرية كانت أم أنثية: كتلك الرموز التى تبدو فى صورة طفل **صغير** أو ابن **صغير** أو ابنة **صغيرة**، وقد يستعمل الرمز الذكرى للإشارة إلى جزء من الجهاز التناسلى الأنثى، أو يحدث عكس هذا، وسيظل هذا الأمر مستعصيًا على الفهم حتى تزداد معرفتنا بتطور الجنسية ورموزها عند الإنسان، على من هذا التخليط فى الرموز قد يكون فى كثير من الأشياء ظاهريا أكثر منه حقيقيًا، يضاف إلى هذا أن أكثر الرموز ظهوراً وبروزاً، كالأسلحة والجيوب والصناديق، لا تستعمل على الإطلاق استعمالا خنثوياً.

والآن أقدم لكم بياناً موجزاً، استهله بالرموز ذاتها لا بما تُصوره حتى تتضح لكم المصادر التى تشتق منها الرموز الجنسية فى أغلب الأحوال، وسأضيف إلى هذا بضع ملاحظات تتصل خاصة بالرموز التى تكون صفتها المشتركة مع الأشياء المرموزة خافية يصعب فهمها والكشف عنها، ومن أمثال هذه الرموز الغامضة، القبعة، أوربما أغطية الرأس إجمالا، فهى رموز لها دلالة ذكرية عادة، لكنها تتخذ دلالة أنثية أحيانا. كذلك **المعطف** فهو يدل على الرجل عادة، ولو أنها دلالة لا تشير إليه من الناحية الجنسية أحيانا، وقد يكون لكم أنتتساءلوا عن السرف فى هذا، وواضح أنه يكون **رباط العنق** رمزاً ذكريا لأنه شىء يتدلى ولا تلبسه النساء، فى حين تكون الرقائق **الشفافة البيضاء**، بوجه عام، رموزاً أنثية، وقد أسلفنا أن **الملابس والبزة الرسمية** تمثل العرى أو شكل الجسم الإنسانى. كذلك تستخدم **الأحذية والأخفاف** رموزاً لأعضاء

التناسل عند المرأة، ولعلكم لم تنسوا أننا ذكرنا **الخشب والموائد** على أنها من الرموز المحيِّرة، بيد أنها تشير دون ريب إلى الأنثى، ولامراء فى أن **عملية الصعود** على سلم أو درج، أو ارتقاء جرف ، مما يرمز إلى العملية الجنسية، فلو أننا تأملنا الأمر، لوجدنا أن الطابع الإيقاعى للصعود هو الصفة المشتركة بين هاتين العمليتين، وربما كان اطراد الاهتياج وقصر التنافس اللذان يصاحبان هاتين العمليتين صفة مشتركة كذلك.

لقد قدمنا أن المناظر الطبيعية تمثل الجهاز التناسلى للمرأة، كذلك تُتخذ الجبال والصخور رموزاً للقضيب، كما أن الحدائق رمز كثير الذيوع لأعضاء التناسل للمرأة، أما **الثمرة** فرمز إلى الثدى لا إلى الطفل، **والحيوانات المتوحشة** تشير إلى أناس فى ثورة وهيجان، ومن ثم فهى تشير إلى الزهواء والاندفاعات الشريرة فالخبيثة، يضاف إلى هذا أن **البراعم والزهور** تصور الأعضاء الجنسية للمرأة فى عهد البكارة على التخصيص، وتذكر بهذا الصدد أن البراعم هى أعضاء التناسل فى النباتات بالفعل.

وقد أسلفنا إلى ما ترمز إليه الغرف، ومن الممكن أن يُبسط هذا التمثيل بحيث تصبح النوافذ والأبواب (مخارج الغرف ومداخلها) دلائل على فتحات الجيم، وبحيث تندرج الغرف المفتوحة والغرف المغلقة فى نطاق هذه الرمزية أيضاً، أما المفتاح الذى يفتحها فرمز ذكرى على وجه التحقيق.

هذا بعض ما أقدمه لكم من مادة تعيننا على دراسة الرمزية فى الأحلام، وهيهات أن تكون مادة كاملة، وإن كنا نستطيع تزويدها اتساعاً وعمقاً، على أنى أعتقد أنها تلوح لكم أكثر مما يكفى، بل ربما بدت فى أعينكم مستكرهة غير مستساغة، فتتساءلون: «أنعيش حقا فى عالم من الرموز الجنسية؟ أو كل ما يحيط بنا من مواد، وكل ما نلبسه من ملابس، وكل ما نتناول من أشياء، أكلٌ أولئك رموز جنسية ولا شىء غيرها؟» الحق أن هناك مجالاً لأسئلة يكتنفها الدهش والاستغراب، لعل أولها أن يقول أحدكم: «كيف نستطيع أن نتعرف دلالة الرموز فى الأحلا، ما دام الحالم نفسه لايزودنا بأية معلومات عنها إلا أن تكون معلومات زهيدة بتراء؟».

وأجيب عن هذا بأننا نستمد هذه المعرفة من مصادر شتى: من الأساطير والخرافات، من النكات والفكاهات ومن الأدب الشعبى؛ أى مما نعرف عن العادات

والعرف، ومن الحكم والأغانى فى الشعوب المختلفة، ومما نعرفه عن لغة الشعر واللغة الدارجة للقوم، فحيثما بحثنا فى هذه الميادين المختلفة، التقينا بالرمزية نفسها، حتى لنستطيع أن نفهمها، فى كثير من هذه الميادين، دون علم سابق بها. ولو أننا تأملنا هذه المصادر المختلفة واحداً بعد آخر، لوجدنا فيها أوجها كثيرة للشبه برمزية الأحلام، مما يحملنا على الاقتناع بصحة تأويلنا.

لقد قدمنا أن جسم الإنسان غالباً ما يرمز إليه بمنزل ، فيما يراه الفيلسوف «شرنر» فإذا بسطنا هذا التصوير الرمزى، كانت النوافذ والأبواب والبوابات وإشارات إلى مداخل تجاويف الجسم، أما واجهات المنزل، فإما أن تكون ملساء أو ذات شرفات وطنف يمكن الإمساك بها والارتكاز عليها، هذه الرمزية نفسها مما نلتقى به فى ثنايا اللغة الدارجة: فنحن نقول عن صديقنا القديم إنه «منزل قديم»، كما نصف أحداً من الناس فنقول إن «طابقه العلوى» ليس على ما يرام[١]، وفى عام التشريح أيضاً تسمى فتحات الجسم «بالأبواب[٢] Portals».

وقد ندهش بادئ ذى بدء إذ نرى الأبوين يظهران فى الأحلام على صورة ملك وملكة، أو إمبراطور وإمبراطورة، لكننا نجد شبيهاً لهذا فى القصص الخرافية، ألم يبد لكم فى كثير من هذه القصص التى تبدأ بالعبارة «ذات مرة كان هناك ملك وملكة» أن هذه الصيغة ما هى إلا بديل رمزى عن العبارة «ذات مرة كان هناك أب وأم»؟ وفى أحضان الأسرة، يداعب الأطفال أحياناً بأن يسموا أمراء، كما يسمى كبيرهم ولى العهد، ثم إن الملك نفسه يدعى أبو الرعية[٣] ، يضاف إلى هذا أن صغار الأطفال كثيرا ما يدعون، على سبيل التفكهة، بأسماء صغار الحيوانات» فيقال عنهم فى ألمانيا الديدان الصغيرة[٤].

---

(١) فى اللغة المصرية الدارجة أشباه بهذا: فيقال إن فلانا «خشبه» عريض أى هيكله العظمى، كما تسمى الرئة «بالمراوح»، والعظام «بالمواسير» والشرج «بباب البدن» «المترجم».

(٢) «وريد الباب» هو الوريد الذى يحمل الغذاء من الأمعاء إلى الجسم عن طريق الكبد و«البواب» Polyrus هو المدخل إلى الأمعاء الدقاق «المترجم».

(٣) يسمى فى الروسية «بالأب الصغير» «المترجم».

(٤) ويدعو فى (كورنوال) بإنجلترا «بالضفادع الصغيرة»، وفى مصر «بالقطط الصغيرة». و«الكتاكيت» «المترجم».

ولنعد إلى رمزية المنزل ومشتقاتها: فحين نحرى فى النوم أننا نتخذ من طُنُف المنزل مساند وركائز، ألا يذكرنا هذا بقول الدهماء فى ألمانيا، عندما يلتقون فى الطريق بامرأة بارزة الصدر: «لديها ما يمكن الاستناد عليه»[1]، وثمة عبارة دارجة أخرى يرددها هؤلاء أيضًا: «أمام منزلها خشب كثير»، كأن فى قولهم هذا ما يؤيد تأويلنا الذى يرى أن الخشب رمز مؤنث للأم.

وما دمنا قد عرضنا لموضوع الخشب، فثمة شيء يجدر أن يضاف إليه، ذلك أنه يشق علينا أن نفهم لِمَ يتخذ الحلم من الخشب رموزًا يشير إلى المرأة أو إلى الأم؟ ولعلنا نستطيع أن ندرك السبب فى هذا لو قارنّا بين الألفاظ فى لغات مختلفة، فالخشب يدعى بالألمانية Holg ، ويقال إن هذه الكلمة مشتقة من الأصل نفسه الذى اشتقت منه الكلمة اليونانية التى تعنى «مادة»، «مادة خام»، وهذا مثال لعملية شائعة تتطور خلالها معانى الكلمات، فإذا بالاسم الذى يطلق على المادة إجمالا قد انتهى، بها الأمر ألا يطلق إلا على مادة خاصة ليس غير، من تلك أن جزيرة بالمحيط الأطلسى تسمى «ماديرا» Madeira، وهو اسم أطلقه عليها البرتغاليون عندما استكشفوها، لأنها كانت فى ذلك الحين مغطاة بغابات كثيفة، وكلمة ماديرا Madeira معناها الخشب بالبرتغالية، ولاشك أنكم لاحظتم أن كلمة «ماديرا» هذه ليست إلا صورة محورة للكلمة اللاتينية Materia التى تعنى «مادة» Material بوجه علم، والواقع أن Materia مشتقة من كلمة Mater التى تعنى الأم، فالمادة التى يصنع منها أى شيء، يمكن اعتبارها كأنها تمخضت عن هذا الشيء وولدته، وهكذا نجد بقية من تلك الفكرة القديمة، فى الاستعمال الرمزى للخشب للدلالة على المرأة أو الأم.

أما الولادة فيعبر عنها فى الأحلام دائما بشيء أو فعل يتصل بالماء: فإذا رأى النائم أنه يغوص فى الماء، فهذا يعنى أنه يلد، وإذا رأى أنه يخرج من الماء، فهذا رمز إلى أنه يولد، ولا يعزب عن بالنا أن هذا الرمز يشير إلى الحقائق الثابتة فى نظرية التطور إشارة مزدوجة، ذلك أن كل الثدييات البرية التى نشأت منها السلالة الإنسانية، انحدرت من كائنات كانت تعيش فى الماء، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فكل جنين

(١) ونقول فى العربية إن فلانا «متعلق» بفلانة، فكأن الحلم يجسم هذه الفكرة«المترجم».

يكتنفه السائل الأمنيونى فى رحم الأم، فمولده إذاً يعنى خروجه من الماء، ولا أقول لكم إن الحالم يعرف هذا بل أرى أنه ليس فى حاجة إلى أن يعرفه، وأكبر الظن أنه يعرف شيئاً آخر مما يحكى له فى طفولته، غير أنى أؤكد لكم أن هذه المعرفة نفسها لم تفض إلى تكوين الرمز بشىء، لقد جرت العادة أن يقال للأطفال؟ إنه يجدها بركة أو فى بئر - أى أننا نعود دائما إلى الماء، لقد ذكرتُ هذه الخرافة لأحد مرضاى يوم كان طفلا (وكان إذ ذاك أميراً صغير)، ثم اتفق أن اختفى بعد ذلك أصيل يوم بأكمله، فألفوه آخر الأمر منبطحا على حافة بحيرة القصر ينظر بإمعان من فوق صفحة الماء الصافى، باحثاً فى قاعه عن أطفال صغار.

لقد قام أ. انك O. Rank بدراسة مقارنة للأساطير التى تدور على ولادة الأبطال - وأقدمها أسطورة تتناول ولادة «سرجون الأول[1]، ملك أكاد، حوالى سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد - فوجد أن الانغماس فى الماء والإنقاذ من الماء يقومان بدور مهم، كما فطن إلى أنهما يرمزان إلى الولادة بطريقة تشبه ما يحدث فى الأحلام، فمتى رأى النائم أنه ينقذ شخصاً من الماء، فإنه يكون بهذا قد جعل من هذا الشخص أمّا له أو أما باختصار، والأمر بالمثل فى أساطير الأولين: فمن أنقذت طفلا من الماء أقرت أنها أمه الحقيقية، وثم فكاهة معروفة عن ولد ذكى من اليهود سئل عمن كانت أم موسى، فأجاب من فوره: «إنها الأميرة»، فلما قيل له إن الأميرة لم تزد على أن انتشلته من الماء، أجاب: «هذا ما قالته هى» فأظهر بذلك أنه يدرك الدلالة الصحيحة للأسطورة».

ويعتبر «الرحيل» من الرموز التى تنوب فى الأحلام عن الموت، وهذا شبيه بما يقال للطفل حين يسأل عن شخص مات والطفل يفتقده، فنجيبه بأنه سافر ورحل، على أنى أود أن أصرح هنا، مرة أخرى، أن ذلك الجواب المراوغ ليس الأصل فى ظهور هذا الرمز فى الأحلام، كذلك نرى الشعراء يصطنعون هذا الرمز نفسه حين يتكلمون عن الدار الاخرة «كأنها منطقة مجهولة لا يعود منها سائح أبداً[2]»، هذا إلى

---

(١) مؤسس الدور الثانى فى ملك بابل القديم، انتصر على السومريين بعد كفاح شديد، ثم أقام من فتوحه ملكا واحداً وحكم خلفاؤه إلى ٣٢٠٠ ق. م «المترجم».

(٢) الأمر بالمثل فى الشعر العربى:

الحمد لله لاخطب ولا جلل ولا عزاء إذا أهل البلا رحلوا

خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به رجل «المترجم».

أننا فى أحاديثنا اليومية، قد ألفنا أن نتكلم عن الرحلة الأخيرة»(١)، وكل ما ألم بالحفلات الدينية فى العهود القديمة، يعرف أن القوم كانوا يعنون بتمثيل رحلة إلى أرض الموتى، وكانوا ينظرون إلى هذه الفكرة نظرة جدية إلى حد بعيد - كما كان الشأن عند قدماء المصريين، ولدينا اليوم نسخ عدة من «كتاب الموتى» الذى كان يعطى للموميا ء، كما يعطى دليل المدن للسائحين اليوم، كى يرافقها فى الرحلة الأخيرة. وبما أن قبور الموتى كانت تبنى بعيدة عن بيوت الأحياء، فقد أصبحت هذه الرحلة الأخيرة للموتى حقيقة واقعة.

والأمر بالمثل فى الرمزية الجنسية، فهى ليست وقفًا على الأحلام وحدها. فكلكم يعرف أن عبارة «علبة قديمة»(٢) مما تسب به المرأة وتشتم، لكن الناس قد لا يعلمون أنهم يستخدمون رمزاً تناسليًا، وفى الإنجيل «إن المرأة وعاء ضعيف»، هذا إلى أن الكتب المقدسة عند اليهود، تلك التى يقترب أسلوبها قربا كبيرً من أسلوب اشعر ، تزخر بتعبيرات مستعارة من الرمزية الجنسية، صيغ لم تفهم على الدوام فهما صحيحا، وقد أدى تأويلها فى سفر «نشيد الإنشاد» مثلاً، إلى ضروب كثيرة من سوء الفهم، وفى الآداب العبرية التى جاءت بعد ذلك تصور المرأة بمنزل فى كثير من الأحيان، كما يشار إلى الفتحة التناسلية بالباب، من ذلك أن الزوج يتشكى من زوجته حيث يجدها غير عذراء فيقول أنه «وجد الباب مفتوحا» كذلك رمز إلى المرأة بالمائدة فى هذا الأدب، فتقول المرأة عن زوجها لقد مهدت له المائدة لكنها قلبها» كما يحكى أن الأطفال المعدين تصيبهم هذه العاهة لأن الزوج «يقلب المائدة»، وأود أن أشير إلى أنى اقتبست هذه المعلومات من رسالة «ليفى ده برن» Levy in Brünn عن«الرمزية الجنسية فى التوراة والتلمود».

هذا وقد جاء علماء أصول الكلمات يؤيدون ما نعتقده من أن «السفينة» فى الأحلام، تصوير رمزى للمرأة : فكلمة Schiff (سفينة) التى كانت تستخدم أصلا للدلالة على وعاء من الآجر، ليس فى الواقع إلا تحويرا لكلمة Schaff (أى الدن أو الوعاء الخشبى) . أما ما نراه من **الفرن** رمز للمرأة أو لرحم الأم، فتأويل تعززه

---

(١) كما نقول فى النعى والتشييع «وكان الراحل الكريم ....» «المترجم».

(٢) هذا فى النمسا، أما فى مصر فيقال إنها «صندوق الهجى» أو «طشت مصدى» أو «برميل» «المترجم».

الأسطورة اليونانية عن «بريندروس»[١] الكورنثى Periander وزوجته ميليشا، فى هذا يقول هيرودوتس أن ذلك الجبار بعد أن دفعته الغيرة إلى قتل زوجته، وكان يحبها حباً جماً، أخذ يستحلف طيفها ويناشده أن يخبره بشيء عنها، إذ ذاك حضرت الزوجة المتوفاة وأخبرته (أى بريندوس) أنه «**كان يضع خبزه فى فرن بارد**» فعبرت بهذا، فى صورة مقنعة عن حالة لا يعرفها شخص آخر، ويحدثنا ف. س. كراوس F. S. Kraus فى كتابه «Anthropophyteia» - وهو مرجع لا يُستغنى عنه فى كل ما يتصل بالحياة الجنسية لمختلف الشعوب - أن فى بعض مناطق ألمانيا، يقال عن المرأة التى انتهت من الوضع «أن فرنها قد تحطم»، أما إشعال النار، وكل ما يتصل به، فمن الأشياء المشبعة بالرمزية النسوية تشبعاً كبيراً، فاللهب يرمز أبداً إلى القضيب، فى حين يرمز الموقد أو المدفأة إلى رحم المرأة.

لئن عجبتم أن تشيع المناظر الطبيعية فى الأحلام رموزاً إلى الجهاز التناسلى للمرأة فليس عليكم إلا أن تقرأوا ما كتبه علماء الأساطير عن الدور الكبير الذى قامت به أمنا الأرض فى أفكار الشعوب القديمة وعباداتها، وإلى أى حد كانت هذه الرمزية تعيّن تصورهم للزراعة وأفكارهم عنها، وقد تميل بكم اللغة الدارجة إلى أن تلتمسوا فيها الأسباب التى جعلت الغرفة فى الأحلام رمزاً إلى المرأة، ألسنا نقول Fraue-zimmer (ومعناها الحرفى «غرفة المرأة)»[٢] بدل أن نقول Frau (امرأة)، فنكون بهذا قد استعضنا عن الشخص بالمكان الذى يعمل فيه؟ كذلك نقول: «الباب العالى» للدلالة على السلطان وحكومته، وقد كان حاكم مصر قديما يدعى **فرعون**، وهى كلمة تعنى «الفناء الكبير» (فى الشرق كأماكن الأسواق فى العصور المأثورة[٣]).

غير أنى أعتقد أن هذا الاشتقاق سطحى أكثر مما ينبغى، وأكبر الظن عندى أن الغرفة جاءت رمزاً للمرة لأنها تحتضن الإنسان بين جنباتها، وقد سبق لنا أن التقينا «بالمنزل» فى هذا المعنى.

---

(١) بريندروس: زعيم كورنثوس وأحد حكماء اليونان السبعة، حكم من ٦٢٥ إلى ٥٨٥ ق. م وعلى الرغم مما عرف عنه من العلم والحكمة، فقد كان حاكمًا مستبداً ورجلا شكس الخلق غليظ الطبع، فقد قتل زوجته شر قتلة. «المترجم».

(٢) الكلمة بالألمانية معناها السيدة التى تقوم على شئون البيت وترتيبه، لاسيما معاونة ربة البيت أو ربه على زينته وتنظيمه ثيابه، فهى بكلمة (الوصيفة) فى اللغة المصرية الدارجة، «المترجم».

3. Classical Times.

ثم إن ما جاء بالشعر والأساطير ليبيح لنا أن نعتبر **المدن والقصور والقلاع والحصون** رموزاً أخرى إلى النساء، والقول الفصل في هذا ميسر لو رجعنا إلى أحلام قوم لايتكلمون الألمانية ولايفهمونها، من هذا أن قدر لى فى السنوات الأخيرة أن أعالج عدداً كبيراً من المرضى الأجانب، وأذكر أن الغرف كانت تنوب فى أحلامهم عن النساء، مع أن لغتهم لا تشتمل على كلمة تشبه Frauenzimmer فى الألمانية . وثمة أمارات أخرى على أن الرمزية قد تتجاوز نطاق اللغة ـ وهذه حقيقة سبق أن أعترف بها شوبرت Schubert معبر الأحلام القديم، عام ١٨٦٢ على أنه يجب أن أقول لكم أن أحداً من مرضاى لم يكن يجهل الألمانية جهلا تاماً، لذا يتعين علىّ أن أدع هذا الأمر يفصل فيه المحللون ممن يستطيعون أن يجمعوا ملاحظات، فى أقطار أخرى، من أشخاص يتكلون لغة واحدة فحسب.

أما فيما يتعلق بالرموز التى تشير إلى العضو التناسلى للرجل، فليس من بينها رمز واحد لاتعبر عنه اللغة الدارجة، ففى صورة هزلية أو عبارة مسدلة، أو فى صيغة شعرية، كما كان يفعل القدامى من الشعراء المأثورين، هنا لا نلتقى بالرموز التى تبدو فى الأحلام فحسب، بل وبرموز جديدة أيضاً، من أمثالها الأدوات التى تستخدم فى أنواع مختلفة من الأعمال، وخاصة المحراث[١].

والحق أن ميدان الرموز الذكرية متسع مسرف فى الاتساع، كما يكتنفه الجدل والنزاع من كل جانب، لذا سنتفاداه حتى لا نضيع وقتاً، بل أريد أن أدلى ببضع ملاحظات عن رمز يقوم بذاته، إن صح التعبير، ذلك هو الرقم ثلاثة، وسواء اشتق هذا الرقم طابعه المقدس من دلالته الرمزية، أم كان الأمر غير ذلك.. عدداً كبيراً من الأشياء المثلثة (كالنفل ذى الأوراق الثلاث مثلا) تستعار أشكالها فى تصميم الشارات والشعارات نظراً لدلالتها الرمزية، وإن زهرة الزنبق المسماة «بالفرنسية» ذات الشعب الثلاث وذلك الشعار الغريب الذى تتخذه جزيرتان متنائيتان، هما جزيرتا صقلية ومان[٢] (وهو شكل مكون من ثلاثة أرجل منحنية تنبعث من نقطة مركزية)، ليسا فى نظرى إلا صورتين مقنعتين لعضو الذكورة، فقد كانت صور هذا العضو، تعتبر فى العصور القديمة، أقوى ذريعة لدرء الأرواح الشريرة وإتقائها (تعاويذ)..

---

(١) يعبر عن العضو التناسلى للرجل فى اللغة الدارجة «بالآلة» «المترجم».

(٢) Isle of Man جزيرة فى جنوب انجلترا «المترجم».

وربما نجد بقية لهذا الاعتقاد فى أن التمائم التى يلبسها الناس، فى يومنا هذا، جلبًا للحظ الحسن، لاتعدو أن تكون كلها رموزاً جنسية أو تناسلية، فلو استعرضنا مجموعة من هذه التمائم التى تصاغ فى شكل تعاليق صغيرة من فضة، لوجدنا من بينها: نَفَلَة ذات أربع أوراق، وخنزيراً، ونبات عيش الغراب، وحدوة فرس، وسلّم، ومنظف مداخن، أما النفلة ذات الأوراق الأربع فقد قامت مقام ذات الأوراق الثلاث التى كانت رمزاً أنسب فى الواقع، وأما الخنزير فرمز قديم للخصب والإنتاج، فى حين أن عيش الغراب رمز لانزاع فيه للقضيب، حتى أن هناك فصائل من هذا الفطر تشتق اسمها من مشابهتها الأخاذة لهذا العضو Phallus impedicus.

ثم إن حدوة الفرس صورة لحافة الفتحة التناسلية للمرأة، أما انتماء «منظف المداخن يحمل سلمه»، إلى هذه المجموعة من التمائم، فيرجع إلى أنه يزاول مهنة يشبهها السوقة بالعملية الجنسية (انظر Anthropophyteia)، والواقع أننا نعرف من قبل أن السلم فى الأحلام رمز جنسى، وهنا تعيننا اللغة الألمانية إذ تبين لنا أن كلمة «يصعد» تستعصم بمعنى جنسى فى جوهره، فحين يقال بالألمانية إن فلانا «يصعد خلف النساء» فهذا يعنى أنه يكثر من ملاحقتهن، كما يقال عن المدمن على الاستهتار والفجور إنه «صعّاد قديم»، والأمر بالمثل فى اللغة الفرنسية إذ يقال فيها عن الخليع العجوز إنه «دراج قديم» Vieux marcheur (Marche بالفرنسية = درجة سلم) وربما كان هذا الترابط فى الأفكار يرجع إلى أن التواصل الجنسى عند كثير من الحيوانات الكبيرة يقتضى أن يصعد الذكر على الأنثى.

أما التمثيل الرمزى للاستمناء بانتزاع غصن من شجرة، فلا يتماشى مع وصف السوقة لهذه العملية فحسب، بل نجد بينه وبين ما يجرى فى أساطير الأولين أوجه شبه كثيرة، غير أن ما يسترعى الانتباه بوجه خاص، تمثيل الاستمناء، أو بالأصح، تمثيل الخصاء يوقع عقاباً على الاستمناء، بسقوط سنة أو باقتلاعها، لأننا نجد فى الآداب الشعبية نظيراً لهذا التمثيل الذى لايستطيع أن يعرفه إلا قليل جدا من الحالمين، وأعتقد أن ليس ثمة مجال للشك فى أن الختان ـ تلك السُّنَّة المشاعة فى كثير من الشعوب ـ هو عِدْل الخصاء وبديله، وقد سمعنا منذ عهد قريب أن بعض القبائل الأصيلة فى استراليا، يقيمون للختان حفلات دينية ابتهاجا ببلوغ الصبى سن الحُلُم، فى حين أن قبائل أخرى مجاورة لتلك تستعيض عن الختان باقتلاع سِنة من أسنان الصبى.

بهذه الأمثلة أختتم بيانى عن الرموز، وهى لا تعدو أن تكون أمثلة، فنحن نعرف عن الموضوع أكثر من هذا، ولا يعزُ علينا أن نتصور ما يمكن أن يكون عليه مثل هذه المجموعة من وفرة وطرافة، لو قام بجمعها خبراء حقيقيون فى علوم الأساطير والتاريخ الطبيعى للأنواع البشرية، وفقه اللغة، والأدب الشعبى، لا نفر من أمثالنا الهواة، على أن ذلك القليل الذى سردناه، يسمح لنا باستخلاص نتائج معينة، لاندعى أنها تستغرق الموضوع وتستوعبه، وإن كانت تنطوى على كثير مما هو جدير بالتأمل والتفكير:

وأولى تلك النتائج أن الحالم يقدر على أسلوب رمزى للتعبير ، لكنه لا يعرفه بل ولا يتعرفه فى حالة اليقظة، وليس هذا بأقل غرابة من أن تجد، ذات يوم، أن خادمة منزلك تعرف لغة الهنود القدماء وتفهمها، فى حين أنك تعلم عن يقين أنها ولدت فى قرية من قرى بوهيميا، فلم تدرس قط هذه اللغة، هذه واقعة ليس من اليسير أن نوفق بينها وبين آرائنا السيكولوجية، فكل ما نملك أن نقول هو أن معرفة صاحب الحلم بالرمزية، معرفة لا شعورية، وأنها تنتمى إلى حياته النفسية اللاشعورية، غير أن هذا الافتراض نفسه لا يعيننا كثيراً، فلم تكن بنا حاجة إلى الان إلا أن نفترض جود نزعات لاشعورية، وقتية أو دائمة، أما الآن فقد كبرت المسألة وامتدت، وأصبح لزاما أن نعتق بوجود معرفة لاشعورية، وعلاقات لا شعورية بين معان معينة، وموازنات لاشعورية بين أشياء مختلفة يترتب عليها أن يستبدل معنى بآخر على الدوام، وهى موازنات لا تعقد فى كل مرة من جديد، بل إنها رهن الإشارة، صالحة أبدا لكل وقت، وشاهدنا على هذا أنها تتشابه عند مختلف الناس تشابهاً تاما على الرغم من اختلاف لغاتهم.

تُرى من أين نستمد معرفتنا بهذه العلاقات الرمزية؟ فأما اللغة الدارجة فلاتزودنا إلا بقدر ضئيل من هذه المعرفة، وأما أوجه الشبه الكثيرة بما يوجد فى الميادين الأخرى، فلا يعرفها الحالم فى أغلب الأحوال، ونحن لم نستطع أن نجمع عدداً معينا منها إلا بعد جهد وعناء،

(١) انظر معنى هذا الاصطلاح فى المحاضرة التالية «المترجم».

النتيجة الثانية: أن هذه العلاقات الرمزية ليست وقفًا على الحالم وحده، أو على عملية إخراج الحالم[١] التى تعبر عن هذه ا لعلاقات، فقد وجدنا أن هذه الرمزية بعينها تستخدم فى الأساطير والخرافات وفى الأقوال والأغانى الشعبية، وفى اللغة الدارجة، وأخيلة الشعراء، والواقع أن نطاق الرمزية متسع بعيد الاتساع، وليست الرمزية فى الأحلام إلا جزءاً صغيرا منه، فلا يغنى أن نعالج هذه المشكلة بأسرها من ناحية الأحلام فحسب، ذلك أن كثيراً من الرموز المشاعة فى الميادين الأخرى لاتظهر فى الأحلام إطلاقًا، أو لا تظهر فيها إلا على قلة وندور، ومن جهة أخرى، فكثير من رموز الأحلام لا نلتقى بها فى ميدان آخر، بل نجدها مبعثرة هنا وهناك كما رأينا، حتى لنحسب أننا بصدد أسلوب قديم من التعبير قد هُجر واندرس، فبقيت منه آثار متناثرة فى ميادين مختلفة - نثرة هنا، وأخرى هناك، وثالثة فى نواح شتى وقد حُوِّرت بعض التحوير، وأذكر بهذه المناسبة خيالا من الأخيلة الطريفة عنّ لبعض المصابين بأمراض[١] عقلية ، إذ تصور أن هناك «لغة أولى أصلية»، ليست هذه الرموز كلها إلا بقايا متلكأة منها.

أما **النتيجة الثالثة** فتدور على ما يدهشكم من أن الرمزية فى الميادين الأخرى التى ذكرت، لاتنحصر فى دائرة الموضوعات الجنسية وحدها، فى حين أنها فى الأحلام تكاد تكون مقصورة على الرموز والصلات الجنسية، وهذه ناحية ليس من اليسير أن نجد لها، هى الأخرى، تعليلا، فهل لنا أن نفترض أن الرموز كانت فى الأصل ذات دلالة جنسية، ثم تغير استعمالها فيما بعد، وأن هذا التغيير فى الاستعمال قد ترتب عليه أن فقدت طابعها الرمزى تدريجيًا، حتى تلاشى ذلك الطابع أخر الأمر؟ من البديهى أننا لانستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة إن لم نتناول إلا رمزية الأحلام وحدها، وكل ما نستطيع أن نفعل هو أن نستمسك بالفرض الذى يقول بوجود علاقة وثيقة بين الجنسية والرموز الحقيقية بوجه خاص.

ومما يستأنس به فى هذا الصدد، رأى مهم طالعنا به أخيرا أحد فقهاء اللغة (هو سپربر Sperber من أبسالا[٢] ممن لايتصلون بالتحليل النفسى)، فحواه أن الحاجات

---

(١) المجانين Insane «المترجم».

(٢) Upsala أبسلا مدينة بالسويد، هى إحدى العواصم القديمة لأسكنديناقيا «المترجم».

الجنسية قامت بأهم دور وأخطره فى نشأة اللغة وتطورها، فأول أصوات نطق بها الإنسان ، كانت وسائل للاتصال بين الناس ولمناداة الجنس الآخر، ثم تطورت الحال فيما بعد وصارت عناصر الكلام (أصول اللغة) تصاحب الأعمال المختلفة التى يقوم بها الإنسان البدائى، فكان الإنسان البدائى يقوم بتلك الأعمال فى جماعات، ويقرن العمل بألفاظ وتعبيرات تكرر فى إيقاع، ومن هنا انتقل الاهتمام الجنسى وتحول إلى العمل نفسه، فكأن الإنسان البدائى قد حبب العمل إلى نفسه، بأن جعله عدل النشاط الجنسى وبديلا عنه، وهكذا كان للكلمة التى ينطق بها أثناء العمل الجمعى معنيان: معنى يتصل بالفعل الجنسى، وآخر يتصل بالعمل الذى أصبح مكافئاً لذلك الفعل، ثم انسلخت الكلمة على درج من دلالتها الجنسية، واقتصر استعمالها على العمل، وقد كان هذا موقف الأجيال التالية من كل كلمة جديدة ذات دلالة جنسية، إن كانت تطبق على نوع جديد من العمل.

وبذا نشأت طائفة من أصول الكلمات، كانت جميعها ذات مصدر جنسى، غير أنها فقدت معناها الجنسى، ولئن صح هذ الرأى، أتاح لنا منفذاً، على الأقل، يمكننا من أن نفهم رمزية الأحلام، ومن أن نفهم لِمَ تحتوى الأحلام - وهى تحتفظ بشيء من تلك الظروف البدائية - على هذا القدر الضخم من الرموز الجنسية، ولِم تتخذ الأسلحة والأدوات بوجه عام رموزاً ذكرية، فى حين تتخذ المواد والأشياء المصنوعة رموزاً أنثية، ومن ثم تكون العلاقات الرمزية بقايا ذلك التطابق القديم بين الألفاظ، وهكذا الأشياء التى كانت فى الماضى سمية أعضاء التناسل ومايتصل بها ، فى صورة رموز تشير إلى تلك الأشياء، فى أحلامنا اليوم،

إن جميع هذه المتشابهات التى أثارها موضوع رمزية الأحلام، قد تعينكم على تكوين فكرة عن التحليل النفسى، وتريكم أنه موضوع ذو أهمية عامة شاملة، وهذا ما لم يتوافر لعلم النفس أو لطب الأمراض العقلية، فالتحليل النفسى لهو صلة وثيقة بكثير من فروع العلوم الأخرى، كعلم الأساطير وفقه اللغة والأدب الشعبى وسيكولوجية الشعوب وعلم الديانات، وغير ذلك من العلوم التى يبشر البحث فيها بنتائج ذات شأن وخطر كبيرين، فلاتعجبوا إن عرفتم أن حركة التحليل النفسى قد أدت إلى إصدار نشرة دورية، ليس لها من هدف إلا معالجة هذه الصلات: وأعنى بتلك مجلة Imago التى أخرجها للمرة الأولى كل من «هانز ساكس» Hanns Sachs و«أوتو رانك Otto

Rank عام ١٩١٢ ، والتحليل النفسى فى جميع صلاته بالعلوم الأخرى يعطى أكثر مما يأخذ. من الصحيح أن النتائج التى يتمخض عنها التحليل والتى تبدو غريبة فى كثير من الأحيان، تصبح مساغة مقبولة حين تعززها البحوث فى ميادين أخرى، غير أن التحليل هو الذى تصدر عنه الطرق الفنية ووجهات النظر التى يبدو تطبيقها مثمرا فى العلوم الأخرى، إن بحث الحياة النفسية للفرد بطريقة التحليل النفسى يفضى إلى تفاسير تعيننا على حل كثير من الألغاز التى تكتنف حياة الجماعات البشرية ، أو على إيضاح هذه المعضلات وإظهارها فى ثوبها الحقيقى على الأقل.

على أنى لم أحدثكم بعد عن الظروف التى يتاح لنا فيها أن نجتلى أعماق تلك «اللغة الأصلية الأولى» المزعومة، أو عن الميدان الذى يحتفظ بأغلب بقاياه، وما دمتم لا تعرفون هذا فليس فى مقدوركم تقدير الدلالة الحقة للموضوعِ بأسره، هذا الميدان هو ميدان الأمراض النفسية، فمواده مكونة من الأعراض المرضية وأساليب التعبير الأخرى عند العصابيين ـ تلك الأعراض والأساليب التى ابتكر التحليل النفسى فى الواقع لتفسيرها وعلاجها.

أما وجهة نظرى الرابعة فتعود بنا إلى المكان الذى بدأنا منه، وتقودنا فى نفس الاتجاه الذى انتهينا من رسمه، لقد قلنا إن الحلم يستعصى على الفهم والتأويل حتى إن لم تكن ثم رقابة، لأنه يتحتم علينا فى هذا الحال أن نترجم اللغة الرمزية للأحلام إلى لغتنا فى حالة اليقظة؛ **فالرمزية** إذاً عامل ثان مستقل من عوامل مسخ الحلم وتحريفه، تقوم جنباً إلى جنبٍ مع الرقابة، على أننا لوا استنتجنا أن الرقيب يطيب له أن يستخدم الرموز، فلا جناح علينا فى هذا الاستنتاج، ذلك أن كلا من الرقابة والرمزية يخدم غرضاً بعينه هو جعل الحلم مستغلقا غير مفهوم،

وسنرى بعد قليل ما إذا كانت دراستنا التالية للأحلام، تكشف لنا عن عامل آخر من عوامل التحريف، على أنى لا أود أن أترك موضوع الرمزية فى الأحلام دون أن أذكركم، مرة إخرى، بذلك الموقف الغريب الذى وقفه منه المستنيرون من الناس: فقد كان موقف مقاومة ومعارضة لا هوادة فيها، وذلك على الرغم من ذيوع الرمزية فى الأساطير والديانات واللغة والفن ذيوعًا لا ريب فيه، ألا يغلب أن يكون السبب فى هذا هو صلة الرمزية بموضوع الجنسية؟.

المحاضرة الحادية عشرة

إخراج الحلم[١]

لو أن التوفيق حالفكم فاستطعتم أن تكونوا لأنفسكم فكرة عن الرقابة وعن التصوير الرمزى فى الأحلام، لأصبح فى وسعكم أن تفهموا أغلب الأحلام، لكنكم لن تكونوا بهذا قد استوعبتم، فى الواقع، موضوع التحريف فى الأحلام بأكمله، فلكى تفهموا الأحلام، أمامكم طريقتان تكمل إحداهما الأخرى: استدعاء خواطر الحالم وذكرياته، حتى يتسنى لكم النفاذ إلى الفكرة المستترة، وراء بديلها الظاهر، والكشف عن معانى الرموز من معلوماتكم الخاصة بالموضوع، وقد تعترضكم خلال هذا العمل، بضع نواح مريبة سنتحدث عنها فيما بعد.

نستطيع الآن أن نعود إلى ناحية حاولنا معالجتها من قبل ، ولم تكن لدينا وسائل كافية - وذلك حين كنا ندرس العلاقات القائمة بين عناصر الحلم والأفكار الحقيقية المستترة وراءها، فقد وجدنا أن هذه العلاقات على أربعة أنواع رئيسية: علاقة الجزء بالكل، والإشارة أو التلميح، والعلاقة الرمزية، وتصوير[٢] الألفاظ تصويرا لَدناً (الصور الذهنية) . وسنعمل الآن على معالجة هذا الموضوع على نطاق أوسع، بالمقارنة بين المحتوى **الظاهر** للحلم فى جملته، والحلم **الكامن** كما يكشفه لنا التأويل.

وأرجو ألا تُلبسوا هذين السببين أحدهما بالاخر مطلقاً، فإن وفقتم إلى التمييز بينهما، كنتم قد خطوتم فى سبيل فهم الأحلام خطوات أبعد فى أكبر الظن مما فعله أغلب من قرأ كتابى «**تأويل الأحلام**». وأذكركم مرة أخر **بأن العملية التى يتحول بها الحلم الكامن إلى حلم ظاهر أسمى «إخراج الحلم»** وأن العملية المضادة لتلك، والتى تلتمس الأفكار الكامنة من الأفكار الظاهرة هى عملية التأويل، فعملية التأويل إذاً تهدف إلى تقويض ما بنته عملية الإخراج وأشير إلى أن الأحلام ذات الطراز الطفلى، التى لا يشق علينا أن نعرف فى وجوهها تحقيق رغبات، لاتكون بمنجاة من أثر عملية الإخراج، ولو إلى حد محدود، فالرغبة تتحول فيها إلى واقعة كما تتحول الأفكار المستترة إلى صورة ذهنية بصرية فى أغلب الأحوال، هنا لا يتحتم

---

(١) Dream-Work.

(٢) يقال صور المعنى أو الشىء أى جعل له صورة وشكلا ورسمة ونقشة «المترجم».

التأويل، بل يكفى أن نلقى نظرة سريعة نستشف من ورائها هذه الرغبة وتلك الأفكار، أما فى الطُرز الأخرى من الأحلام، فثمة عمليات وحيل أخرى تتدخل فى إخراج الحلم ـ هى ما نسميه **تحريف الحلم**، وهذا التحريف لايمكن تقويمه وانتزاع الأفكار الأصلية من ثناياه إلا بعملية التأويل.

لقد أتيحت لنا فرص قارنا فيها بين تأويل لأحلام كثيرة ـ لذا أستطيع الآن أن أقدم لكم بياناً شاملا عن الحيل والأساليب التى يتناول بها إخراج الحلم المواد التى تتكون منها الأفكار الكامنة للحلم، على أن أرجو، مع هذا، ألا تسارعوا فى استخلاص نتائج مما سأقول، وألا تفهموا منه أكثر مما ينبغى: فما هو إلا وصف يتطلب أن تستمعوا إليه فى تيقظ وهدوء.

إن أول حيلة يتوسل بها إخراج الحلم هى « **تكثيف**[١] الحلم.. وهذا ما يجعل محتوى الحلم الظاهر أقل ثراء من محتوى الحلم الكامن، فكأن الحلم الظاهر ترجمة مختصرة للحلم الكامن، بوجه من الوجوه، وقد ينعدم التكيف أحيانا، لكنه يوجد عادة، وغالباً ما يوجد بقدر كبير جداً، كما أن أثره لا يبدو البتة فى الاتجاه المضاد، أى أنه لايتفق إطلاقا أن يكون الحلم الظاهر أوسع مدى أو أكثر ثراءً فى محتواه من الكلم الكامن، ويحدث التكثيف بإحدى الطرق الآتية:

(١) بأن تحذف بعض العناصر الكامنة برمتها.

(٢) بألا يبدو فى المحتوى الظاهر إلا جزء واحد فقط، من مركبات كثيرة فى الحلم الكامن.

(٣) بأن تلتحم العناصر الكامنة ذات الصفات المشتركة بعضها ببعض فى الحلم الظاهر.

فإن آثرتم أن تقصروا اصطلاح «التكثيف» على الطريقة الأخيرة التى تبدو نتائجها أكثر وضوحا من غيرها، فلكم ما أردتم، انظروا فى أحلامكم الشخصية، تروا فيها من دون عناء، أمثلة لتكثيف أشخاص مختلفة فى شخص واحد، فهذا الشخص المركب يشبه أ فى مظهره، لكنه يلبس ب ، ويعمل شيئا يذكرنا بـ ج، ومع هذا فنحن

(١) Condensation.

نعرف ، طوال الوقت، أنه حدث بالفعل، ومن الطبيعى أن يكون الغرض من هذه الصورة المركبة، إبراز صفة مشتركة بين الأشخاص الأربعة من الممكن أن تؤلف الصورة المركبة من أشياء أو أماكن كما تؤلف من أشخاص، على شرط أن يكون بين الأشياء أو الأمكان المفردة صفة مشتركة يريد الحلم الكامن أن يؤكدها بوجه خاص، فكأن ما يحدث هو تكوُّن فكرة جديدة عابرة نواتها الصفة المشتركة، وإن تراكب الأجزاء المنفصلة التى يتناولها التكثيف ينجم عنه عادة، صورة مبهمة مطموسة، كما لو أخذنا عدة صور فوتوغرافية على لوح واحد.

إن انصياع أمثال هذه الصور المركبة لابد أن تكون له أهمية كبرى فى إخراج الحلم، ففى وسعنا أن نبرهن على أن الصفات المشتركة اللازمة لتكوينها قد صيغت عمداً، حتى فى الحالات التى يلوح لنا فيها، بادئ الرأى، أنها غير موجودة كما هى الحال مثلاً، عند اختيار تعبير لفظى خاص لتمثيل فكرة، والواقع أننا التقينا من قبل بأمثلة للتكثيف ولصيغ مركبة من هذا النوع، ورأينا أنها تقوم بدور مهم فى أحداث كثيرة من فلتات اللسان.

ولعلكم تذكرون ذلك الشاب الذى أراد أن يراقب سيدة فى الطريق (فهذه الكلمة مكثفة من كلمتى يرافق ويعاتب) كما أن هناك نكات وفكاهات تبنى على تكثيف من هذا النوع، وبغض النظر عن هذه الحالات، فالتكثيف فى الأحلام عملية غريبة مسرفة فى الغرابة، صحيح أن تأليف صور مركبة من عدة أشخاص فى الأحلام، له ما يناظره فى كثير من منتجات الخيال التى تلتحم فيها أجزاء وعناصر لا صلة بين بعضها وبعض فى الواقع، مثال ذلك، حيوان القنطروس والحيوانات الخرافية التى تزخر بها أساطير الأولين أو لوحات «بُكلين Boeckling»[1]. وفضلا عن هذا فالخيال «الإبداعي» لايبتكر فى الواقع شيئا جديداً، فهو لا يعدو أن يؤلف بين عناصر من مصادر مختلفة، لكن المستغرب فى عملية الإخراج هو طريقتها فى صياغة الحلم: فالمواد التى فى متناولها تتلخص فى أفكار قد يكون بعضها مبتذلا غير لائق ولا مساغ، لكنها على الرغم من هذا تصاغ صوغاً صحيحاً ويعبر عنها تعبيراً صحيحاً، فإخراج الحلم يشكل هذه الأفكار شكلا آخر.

---

(١) أرنولد بُكلين رسّام سويسرى، ولُد فى مدينة بال، ويعتبر من أقوى الفنانين وأكثرهم إغراباً (١٨٢٧ - ١٩٠١) «المترجم».

ومما يسترعى الانتباه ويستعصى على الفهم أنه يستخدم فى عملية النقل هذه - وكأنها ترجمة من لغة إلى أخرى - أسلوب التجميع والإدماج، ففى حين يعمل المترجم عادة مع مراعاة خصائص النص الأصلى وما به، من فوارق، كما يعمل بوجه خاص على التمييز بين الأشياء المتشابهة غير المتطابقة، نرى الأمر على عكس هذا فى إخراج الحلم؛ إذ هو يعمل على تكثيف فكرتين مختلفتين، بأن يختار - كما هى الحال فى صوغ النكات - كلمة ذات عدة معان، من شأنها أن توحى بكلتا الفكرتين: هذه هى خاصة التكثيف فى الأحلام، وسوف يتاح لكم المزيد من فهمها فيما بعد، فقد يكون لها شأن كبير فيما يتصل برأينا عن إخراج الحلم.

إن التكثيف، ولو أنه يجعل الحلم غامضاً مُغلقاً، إلا أنه لا يلوح لنا أنه من عمل الرقابة، بل نجد أنفسنا أقرب إلى أن نردّه إلى عوامل ميكانيكية أو اقتصادية ومع هذا فهو أغراض الرقابة.

ونتائج التكيف قد تكون فى بعض الآونة غريبة خارقة للعادة: إذ قد يتيح لسلسلتين مختلفتين كل الاختلاف من الأفكار الكامنة أن تندمجا فى حلم ظاهر واحد، بحيث قد نظفر يلوح لنا فى ظاهره ، كافيا مرضياً، دون أن نفطن إلى أن هناك تأويلا ممكناً آخر.

ومن نتائج التكثيف أيضًا، أنه يعقد الصلة بين عناصر الحلم الكامن وعناصر الحلم الظاهر، إذ تتشابك هذه بتلك فيمثل العنصر الواحد فى الحلم الظاهر عدة عناصر كامنة فى الآن نفسه، أو تدخل الفكرة الكامنة ذاتها فى عدة عناصر من الحلم الظاهر، كما أننا كثيراً ما نلاحظ، أثناء تأويل الأحلام، أن الخواطر والأفكار التى يستدعيها عنصر بعينه من العناصر الظاهرة لايشترط أن تستخدم على حسب ترتيبها فى التوارد، بل لابد لنا ، فى كثير من الأحيان، أن ننتظر حتى يتم تأويل الحلم بأسره.

بإخراج الحلم إذاً يتبع أسلوباً على جانب كبير من الشذوذ فى نسخ أفكار الحلم، فهو لايقوم بترجمتها كلمة بكلمة، وعلامة بعلامة، كما أنه لا يقوم بعملية اختيار وفق قاعدة معينة كما هى الحال مثلا، عندما يريد الإنسان أن ينطبق بالحروف الساكنة وحدها، فى كلمة من الكلمات، دون أن ينطبق بالحركات، هذا إلى أنه لا يقوم بما يمكن أن نسميه عملية تصوير فينتزع عنصراً واحداً أبداً لتصوير عدة عناصر أخرى، بل إنه يتبع أسلوباً يختلف عن كل تلك ، ويزيد عليها تعقيداً.

أما الحيلة الثانية التى يصطنعها إخراج الحلم فهى النقل[1] وهى حيلة نعهدها لحسن الحظ من قبل، ونعرف أنها بأسرها من عمل الرقابة، ويتخذ النقل صورتين: أولاهما أن يُبدل عنصر كامن، لجزء منه، بل بشيء آخر أبعد من ذلك وأناي، أى بنوع من التلميح والإشارة. ثانيهما تحول التوكيد من عنصر مهم إلى آخر لا أهمية له؛ بحيث يزاح مركز الثقل فى الحلم، إن صح التعبير فيبدو الحلم فى مظهر غريب.

والإبدال عن طريق الإشارة والتلميح مما نعهده فى تفكيرنا ونحن أيقاظ، لكن مع فارق معين، ففى حالة اليقظة بمضمون الفكرة الأصلية، كما أن التلميح مشاع كذلك فى النكات والفكاهات: غير أن الارتباط بين المضمونين، يستعاض عنه فى هذه الحال، بارتباط خارجي غير مألوف، كتشابه الجرْس أو تعدد معانى الكلمة أو غير ذلك، ومع هذا فسهولة الفهم مما يجب أن يُراعى فى صياغة النكتة: فإن لم يتحقق هذا الشرط، أى أن لم نستطع أن نتعرف الشيء الحقيقى الذى يُلمع إليه دون جهد وعناء، فقدت النكتة أثرها وروحها، لكن التلميح بالنقل فى الإحلام لا يأبه لأى من هذين الشرطين ولايخضع لهما، فالتلميع، فى هذه الحال، يرتبط ارتباطاً سطحيا جداً بعيداً كل البعد عن العنصر الذى يُلمع إليه كأنه نكتة غير موفقة، أو كأنه تفسير مُكره مغتصب، وعلى هذا فإن الرقابة فى الأحلام لاتبلغ هدفها إلا إذا أفلحت فى سد الطريق بين التلميح والفكرة الأصلية التى يشير إليها.

أما نقل التوكيد فحيلة نستعملها فى حياتنا اليقظة أحياناً، طلباً للفكاهة والتندر ولو أنها حيلة غير مشروعة إن كنا نريد التعبير عن أفكارنا، وسأقص عليكم ملحة تكوّنوا لأنفسكم بها فكرة عما يحدثه النقل من ليس وتخليط فى هذه الحال: ارتكب حداد يعيش فى قرية ما جريمة خطيرة، فأدانته المحكمة، لكنه كان الحداد الوحيد فى القرية، فلم تكن القرية فى غنى عنه، وكان فيها ثلاثة حائكين، فجيء بأحدهم وأعدم بدلا من الحداد!.

الحيلة الثالثة من حيل إخراج الحلم، هى أهم الحيل جميعاً وأكثرها طرافة من الناحية السيكولوجية، وتتلخص فى تحويل الأفكار إلى **صور ذهنية بصرية**. على أن هذا لا يعنى أن كل ما ينطوى عليه الحلم من أفكار، مصيره أن يتحول على هذا النحو،

1. Displacement.

فكثير من هذه الأفكار يحتفظ بشكله الأصلى، ويبدو فى الحلم الظاهر كما هو، أو فى شكل معلومات أو أفكار تتصل بصاحب الحلم، ومن جهة أخرى، فالصور البصرية ليست الشكل الوحيد الذى يمكن أن تتخذه الأفكار، ولو أنها تقوم بالدور الأساسى فى صياغة الأحلام، وتعرفون أن هذا الجانب من إخراج الحلم هو أكثر جوانبه ثباتاً، وأقلها عرضة للتغير. أما التصوير اللفظى اللدن للعناصر الفردية من الحلم، فعملية نعرفها من قبل.

ومن البداهة أن هذا الأسلوب من أساليب إخراج الحلم ليس عملا سهلاً بأى حال. فإن شئتم أن تكوّنوا لأنفسكم فكرة عن صعوبتها، فحسبكم أن تتصوروا أنكم تقومون بإبدال مقالة سياسية رئيسية فى صحيفة ما، بطائفة من الرسوم الإيضاحية، أى تستعيضوا عن الحروف الأبجدية بعلامات تصويرية، إذ ذاك لايشق عليكم أن تستعيضوا عن الأشخاص والأشياء العيانية بتصاوير، بل قد ترون أن الصور أنسب لها من الحروف، غير أنكم لاشك ملاقون صعوبات جمة متى شرعتم فى التصوير العيانى[1] المحسوس لكلمات مجردة، ولتلك الأجزاء من الكلام، التى تعبر عن علاقات بين الأفكار، كالأدوات وحروف العطف وغيرها، وستلجأون إلى اصطناع شتى الحيل: فتعملون مثلا على نقل النص الأصلى للمقال إلى صيغ لفظية أخرى، قد لا تكون أكثر طواعية للتصوير، ولعل فى هذا ما يذكركم بأن أغلب الكلمات المجردة كانت شيئية عيانية أصلاً، ثم فقدت مدلولاتها الأصلية، فإذا بكم تلتمسون المعنى العيانى الأصلى لهذه الكلمات، ما وسعكم ذلك، من هذا أنكم إذا عرفتم أن المدلول الحرفى الأصيل «لامتلاك شىء» Possessing هو «الجلوس» على هذا الشىء، سارعتم إلى تصوير «الامتلاك» بأصله العيانى[2].

وهذا هو ما يحدث ، بالتحديد، فى إخراج الحلم، هنا يجب ألا نتطلب من الحلم دقة كبيرة فى التصوير، وألا نضيق بعملية الإخراج إن هى استعاضت عن عنصر يصعب رده إلى صورة عيانية - كفكرة هتك العهود الزوجية مثلا - بكسر أو هتك من

---

(١) Concrete.

(٢) من أمثال هذه الكلمات المجردة التى كانت تشير إلى موضوعات عيانية أصلاً، فى العربية: العقل والجنون والكفر والنفس والروح والقرآن والهتك وقولنا بالرفاء والبنين.... إلى غير ذلك . «المترجم».

نوع آخر كهتك فى الذراع أو الساق(١) إذا عرفتم هذا تسنى لكم أن تصححوا، إلى حد ما، قد يكون فى الكتابة التصويرية من خرق وارتباك حين تستدعى لتحل محل الحروف الأبجدية.

لنفرض أننا أخذنا الآن فى تصوير الكلمات التى تشير إلى علاقات بين الأفكار، مثل: «لأن» و«لذا»، و«لكن» وغيرها، فماذا يكون الأمر، إن أمثال الوسائل التى وصفنا، لايمكن أن تسعفنا فى هذه الحال، فلابد إذاً أن تضيع هذه الأجزاء من النص الأصلى فلا تتحول إلى صور عيانية. بمثل هذا ترى عملية الإخراج مضمون أفكار الحلم و«تحله» إلى «مادته الخام» المكونة من أشياء وأوجه نشاط. ولعلكم تبتغون وسيلة إيا

---

(٢) بينما كنت أقوم بتصحيح هذه الصفحات، وقعت عينى على فقرة فى جريدة، أوردها هنا تعزيزاً، لم أتوقعه، لما أقول:

«عقاب الله»

«كسر فى الذراع تكفيراً عن هتك عهد الزوجية»

اتهمت السيدة «أنا ـ م» زوجة جندى فى الجيش الاحتياطى، السيدة كليمانتين ك بخيانة زوجها، وقد قررت فى اتهامها أن السيدة ك كانت لها بكارل م صلات غير مشروعة أثناء تغيب زوجها فى الجبهة، فى حين أنه كان يرسل اليها قرابة سبعين كرونا فى الشهر، كما أنها تسلمت من زوج الشاكية مبلغا كبيرا من المال، بينما كانت الشاكية نفسها وأولادها يعانون البؤس ويتضورون من الجوع. وفضلا عن هذا فقد نمى إلى الشاكية من بعض أصحاب زوجها أنه (زوج الشاكية) كان يرتاد الأماكن العامة العامة مع السيدة ك يعاقران الخمر حتى ساعة متأخرة من الليل، وقد حدث ذات مرة بالفعل أن سألت السيدة المتهمة زوج الشاكية، أمام عدد من الجنود، عما إذا كان ينوى أن يترك «امرأته العجوز» فى القريب ليلحق بها. كما شهد صاحب المنزل الذى تسكنه السيدة ك بأنه رأى زوج الشاكية عدة مرات فى حجرتها بمنزله وهو فى حالة عرى تام.

وقد ادعت السيدة ك أمس أمام القاضى أنها لا تعرف كارل م إطلاقا، وأنكرت كل صلة حميمة به، كما شهدت البيرتين م أنها فاجأت السيدة ك وهى تقبل زوج الشاكية».

أما (م) وقد دعى شاهدا فى بعض الجلسات السابقة، فأنكر كل صلة حميمة له بالمتهمة، غير أنه حدث، أمس، أن تسلم القاضى خطابا يتراجع فيه الشاهد عن إنكاره الأول، ويعترف بأنه كانت له صلاته بالمتهمة، لأنها جاءته قبل أن تنظر الدعوى فى المحكمة، وتوسلت إليه راكعة أن ينقذها فلا يقول شيئا، ثم يقول الشاهد فى خطابه: «أما اليوم، فأشعر أنى مرغم أن أعترف اعترافا كاملا أمام المحكمة، فقد كسرت ذراعى اليسرى، واعتبر هذا عقابا من الله على جريرتى».

وقد قرر القاضى أن الجريمة ارتكبت منذ أكثر من عام، فلم يعد محل لإقامة الدعوى وبذا سحبت الشاكية شكواها، وأخلى سبيل المتهمة.

كانت تعدّل بها الصور تعديلاً أدق وأحكم، تعديلا يشير بوجه ما إلى العلاقات التى تستعصى على التصوير، فأذكر لكم أن إخراج الحلم يحتكم فى هذه الوسيلة تحديداً، إذ يفلح فى التعبير عن كثير من مضمون الأفكار الكامنة عن طريق الملامح الشكلية للحلم الظاهر، كوضوحه أو غموضه، وكتقسيمه عدة أجزاء وغير تلك، وإن عدد الأجزاء التى ينقسم إليها فى الحلم يقابل، بوجه عام: عدد موضوعاتها الرئيسية وسلاسل الأفكار المتعاقبة فى الحلم الكامن، فالحلم الموجز التمهيدى يكون فى الغالب بمثابة مقدمة أو سبب للحلم الرئيسى المفصل الذى يليه، فى حين أنه يعبر عن الفكرة الثانوية التى تضاف إلى الأفكار الرئيسية بإحداث تغيير فى منظر من مناظر الحلم الظاهر وغير ذلك، فشكل الحلم إذاً ليس غفلا من الأهمية فى ذاته، بل إنه ليتطلب بدوره تأويلا، وإذا حدثت عدة أحلام فى ليلة بعينها، فغالبًا ما يكون لها المعنى والدلالة نفسها، كما أن فى هذا إشارة إلى مجهود مطرد يبذله النائم لضبط منبه تزداد شدته إلحاحًا، أما فى الحلم الواحد نفسه، فقد يرمز إلى العنصر الذى يتفرد بصعوبته بعدة رموز.

فإذا مضينا فى الموازنة بين فكرة الحلم والأحلام الظاهرة التى تصورها، بدت لنا من كل صوب، أشياء لم نكن نتوقعها قط: من تلك أن التناقض والسخف ذاتهما لايخلوان فى الأحلام، من دلالة ومعنى، وهنا تزداد الشقة بين النظرة الطبية ونظرة التحليل النفسى إلى الأحلام، ويصبح الخلاف بينهما أظهر وأبرز مما كان من قبل.. ذلك أن الأطباء يعللون السخف فى الأحلام بأن النشاط النفسى يعجز أثناء الرؤيا أن يصدر حكما وعن أن يوجه نقداً مضمراً فى الأفكار الكامنة، وأن يصدر حكمًا فحواه «هذا سخيف»، والحلم الذى سبق أن بسطته لكم (زيارة المسرح واحتجاز ثلاثة مقاعد) مثال حسن لما أقول: فالحكم الذى يعبر عنه فى هذه الحال هو: «كان من السخف أن أعجل بالزواج كما فعلت».

ثم أننا نكشف، أثناء تأويل الأحلام، عن الدلالة الحقيقية لتلك الشكوك والشبهات التى يصرح بها الحالمون فى كثير من الأحيان، كأن يقول صاحب الحلم «ترى هل ظهر عنصر معين فى الحلم بالفعل؟ وهل هو هذا العنصر حقًا وليس عنصرا آخر غيره؟ فنحن لم نجد فى الأفكار الكامنة شيئا يقابل، بوجه عام، هذه الشكوك والشبهات، وما هى بأسرها إلا نتيجة لفعل الرقابة، ولامناص من اعتبارها محاولة لدرء بعض الأفكار أو استبعادها من منطقة الشعور، لكنها محاولة لم تنجح نجاحا تاما.

ومن أعجب الكشوف التى وقفنا عليها، تلك الطريقة التى يعالج بها إخراج الحلم الاضداد والمتقابلات فى الحلم الكامن.. لقد عرفنا أن العناصر المتشابهة فى المواد الكامنة يستعاض عنها فى الحلم الظاهر بضروب من التكثيف، وعلينا أن نعرف الآن أن الأضداد تعالج بالطريقة نفسها التى تعالج بها الأشباه، وأن إخراج الحلم يؤثر أن يعبر عنها بالعنصر الظاهر نفسه، لذا قد يشير العنصر فى الحلم الظاهر إلى نفسه أو إلى ضده ـ إن كان يحتمل ضداً ـ أو إليهما معاً، فلا نستطيع أن نقطع بتأويل نختاره إلا بتأمل المعنى العام، وهذا يفسر لنا لم لا نجد فى الأحلام تصويراً لمعنى «لا»، أو تصويراً لايكون مبهماً، على الأقل.

إن لهذا الاتجاه الغريب الذى تسلكه عملية إخراج الحلم شبيهاً مواتياً فى تطور اللغة، فقد لاحظ كثير من فقهاء اللغة أن الضدين، فى أقدم اللغات ـ مثل قوى وضعيف، واضح وغامض، كبير وصغير ـ كان يعبر عنهما معاً بأصل اللفظ نفسه (وهذا ما يعرف بتباين المعنى فى الكلمات البدائية)، من ذلك أن كلمة Ken فى لغة قدماء المصريين كانت تعنى أصلا «قوى» و«ضعيف»، وكان القوم يتفادون سوء التفاهم فى استعمال هذه الكلمات المتباينة المعنى بأن يقرنوا كلامهم بإيماءات خاصة أو بالنبر والتنغيم، أما فى الكتابة فكان يشفعون الكلمة بصورة لاينطقون بها حتى يتحدد المعنى. فكلمة Ken = قوى كانت تردف بصورة رجل واقف، فإذا أريد بها معنى «الضعف» أضيف إليها صورة رجل صغير يجلس القرفصاء فى وضع مسترخ، ولم تظهر كلمة خاصة بكل من المعنيين المتضادين، اللذين ينطوى عليهما الأصل إلا فى مرحلة متأخرة من تطور اللغة، بعد أن حُوِّر الأصل تحويراً طفيفاً لبلوغ هذه الغاية، وهكذا اشتقت من كلمة Ken = ضعيف، هذه الظاهرة ليست وقفاً على اللغات القديمة فى المراحل الأخيرة من تطورها، بل تشترك فيها بعض اللغات التى ليست عريقة فى القدم، حتى أن بعض اللغات الحية، فى يومنا هذا، لاتزال تحتفظ بكثير من بقايا هذه الكلمات الأولى التى تحتمل معنيين متضادين[١].

وإليكم بضعة أمثلة إيضاحية، اقتبسها من «أبل» Abel (١٨٨٤):

---

(١) من أسماء الأضداد فى العربية: الجون = الأبيض والأسود، والغابر = الماضى والباقى، والضد = النظير والمخالف، والصارخ = المغيث والمستغيث، المخالفة = الموافقة وضدها، والسدفة = الضياء والظلمة، والمولى = السيد والعبد ... «المترجم».

ففى اللغة اللاتينية نلتقى بكلمات من أمثال تلك:

م Altus = مرتفع أو عميق Sacer = مقدس أو ملعون.

ومن الأمثلة على التحوير الذى يصيب أصول الكلمات:

Clamare = يصيح . Clam = بهدوء، بصمت، خفية.

Siccus = جاف . Succus = عصير.

Siccus = جاف . Succus = عصير.

وفى الألمانية: Stimme = صوت، Stumm = أبكم

والمقارنة بين اللغات التى من أصل واحد تزودنا بأمثلة كثيرة:

ففى الإنجليزية: Lockيحبس، وفى الألمانية Lock = ثقب، Lück = فجوة
وفى الإنجليزية: Cleave = يشق، وفى الألمانية Kleben = يلصق.

وكلمة Without الإنجليزية (ومعناها بدون) كانت تمثل فى الأصل معنيين إيجابى وسلبى، لكنها تستعمل اليوم بالمعنى السلبى وحده، وواضح أن «Wuth» لاتفيد «الإضافة» فحسب، بل وتفيد «الطرح والانتزاع» أيضًا، كما يبدو من الكلمتين المركبتين Withdraw (يسترجع أو ينسحب) و withold (يمسك، يمنع عن)، والأمر بالمثل فى الكلمة Wieder الألمانية (أى مرة أخرى).

وثم خاصة أخرى من خصائص إخراج لها ما يناظرها فى تطور اللغة، ففى اللغة المصرية القديمة، وفى لغات أخرى أحدث منها، كثيراً ما تقلب أوضاع الحروف فى الكلمة الواحدة، فتنشأ من ذلك كلمات مختلفة تعبر عن الفكرة الأساسية نفسها، فإليكم بضعة أمثلة متنوعة من المقارنة بين الإنجليزية والألمانية:

Topf (ألمانية) = قِدر ، Pot (إنجليزية) = قِدر

Boat (إنجليزية = قارب ، Tup (إنجليزية) = دن

Hurry (إنجليزية) = تعجل ، Ruhe (ألمانية) = راحة

B olken (ألمانية) = رومية خشب، Kloben (ألمانيا) = كتلة خشب

Wait (إنجليزية) = ينتظر، täwen (ألمانية) = ينتظر

وأخرى من المقارنة بين اللاتينية والألمانية:

Packen = Capere (ألمانية) = يحزم

Nierre = Ren (ألمانية) = كُليةٌ

هذا القلب المكانى الذى نراه هنا فى حالة الكلمات المفردة، مما تقوم به عملية إخراج الحلم بطريق مختلفة، وقد مرت بنا من قبل أمثلة لقلب المعنى أى إبداله بضده، على أننا نلتقى فى الأحلام بحالات أخرى تقلب فيها المواقف، أو العلاقات بين شخصين، وبذا تنعكس الأوضاع وتبدو الأمور كأنها قلبت رأسا على عقب: فالأرنب هو الذى يطارد الصياد، لا العكس، ومما يلاحظ فى الأحلام أيضاً، قلب تتابع الحوادث بحيث تتلو العلة المعلول، وفى هذا ما يذكرنا بما يحدث أحياناً فى المسارح المزجاة، إذ نرى بطل الرواية يسقط صريعًا قبل أن تنطلق الرصاصة المعدة لقتله، هذا إلى أحلام ينقلب فيها ترتيب العناصر انقلاباً تاما، فإذا حاولنا الكشف عن مغزاها، تعين علينا أن نبدأ فى تأويلها من العنصر الأخير إلى أن ننتهى بالعنصر الأول، وربما تذكرون أننا رأينا، فى دراستنا رمزية الأحلام، أن الغوص فى الماء أو السقوط فيه يعنى الشيء نفسه الذى يعنيه الخروج من الماء، أى أن الشخص يلد أو يولد، وأن الصعود على سلم أو مرقاة له معنى الهبوط نفسه من أيهما، من هذا لا يشق علينا أن نرى المزايا التى يمكن أن تجنبها عملية تحريف الأحلام من تلك الحرية فى تصوير أفكار الحلم.

هذه السمات التى توصف بها عملية تحريف الزحلام، يمكن أن نسميها السمات الأثرية[1]. فهى ما تعرف به الأساليب البدائية للتعبير فى اللغات القديمة المنطوقة أو المكتوبة ومما تتمخض عن مشكلات بعينها سنعرض لها فيما بعد، حين نتناول هذا الموضوع بشيء من النقد.

ولننظر الآن فى مظاهر أخرى لهذا الموضوع، من الواضح أن إخراج الحلم يقوم بتحويل الأفكار الكامنة التى تتضمها الألفاظ إلى صور حسية عيانية أغلبها صور بصرية، والواقع أنها نشأت أصلا من أمثال هذه الصور العيانية، إذ ليست مادتها الأولى والمراحل الابتدائية من تطورها إلا انطباعات وتأثيرات حسية، أو على الأصح محفوظة لهذه التأثيرات . ثم تتصل الألفاظ بعد ذلك بهذه الصور، فيرتبط بعضها وبعض ، ومن ثم تنشأ الأفكار، وعلى هذا فإخراج الحلم يعود بأفكارنا أدراجها، ويتأثر خطوات تطورها إلى مراحلها الأولى، وفى أثناء هذا التراجع والنكوص[1] لامناص أن

---

1. Archaic.

يضيع كل تحصيل جديد اكتسبه الفرد خلال تطور هذه الصور المحفوظة وتحولها إلى أفكار.

هذا هو إخراج الحلم، وقد اتضح لنا من عملياته المختلفة ما يخافت من اهتمامنا الحلم الكبير الظاهر، لكن بما أن الحلم الظاهر هو الشطر الوحيد من الحلم الذى يتسنى لنا أن نعرفه مباشرة، فسنخصه ببضع ملاحظات أخرى.

من الطبيعى أن يفقد الحلم الظاهر بعض ما له من أهمية وخطر فى أعيننا، وسواء أكان مصوغا بدقة وإحكام، أم كان مفككا إلى سلسلة من صور لارباط بينها، فهذا أمر لا يعنينا، ذلك أننا نعرف أن الحلم، حتى إن بدا حافلا بالمعنى فى ظاهره، فمظهره هذا من فعل عملية التحريف، ولايمكن أن يكون بينه وبين المضمون الداخلى ارتباط عضوى وثيق، إلا كما يكون بين واجهة كنيسة إيطالية وبين تكوينها وتصميمها، ومع هذا فقد يكون **لواجهة** الحلم فى بعض الآونة، معنى ودلالة كذلك، حين تعلن عن جزء مهم من الأفكار الكامنة دون تحريف أو بتحريف طفيف، غير أننا لانستطيع أن نعرف هذا وإلا إذا أوّلنا الحلم فأتيح لنا أن نقدر مبلغ ما هو عليه من تحريف. وإنا لنلتقى بمثل هذه الشُّبهة حين نكون لصدد عنصرين يبدو أن أحدهما يرتبط بالآخر ارتباطا وثيقا، إذ قد يكون فى مثل هذا الارتباط إشارة إلى أن العنصرين المناظرين لهما فى الحلم الكامن يرتبطان كذلك أحدهما بالآخر. على أننا نستطيع فى حالات أخرى أن نستوثق من أن العناصر المرتبطة فى الأفكار الكامنة لارباط بينها فى الحلم الظاهر.

وعلينا أن نمتنع بوجه عام من أن نحاول تفسير شطر من الحلم الظاهر بشطر آخر منه، كما لو كان الحلم كلاً ملتئما وبناءً منسجم الأجزاء، فالحلم، فى أغلب الأحوال، أدنى أن يكون لوحة من فسيفساء قوامها قطع من أحجار شتى رُصّت إلى جوار بعض، بحيث لم تعد للصورة الناشئة من ذلك حواشي الأحجار الأصلية، والواقع أن من بين العمليات التى ينطوى عليها إخراج الحلم، عملية تسمى **بالصياغة** الثانوية[1] وظيفتها جمع النتائج المباشرة للإخراج، وصوغها فى كل واحد ملتئم إلى حد ما، وخلال هذه العملية ، ترتب المواد غالباً بحيث تستغلق على الفهم استغلاقا تاماً، كما تكمل وتسد ما

1. Regression.

بينها من ثغرات متى اقتضى الأمر ذلك،

ومن جهة أخرى، يجب ألا نعزو إلى إخراج الحلم أكثر مما يستحق، فنغلو فى تقدير أهميته، وخطره، ذلك أن نشاطه ينحصر فى تلك الحيل التى قدمنا، وهى: التكثيف، والنقل، والتصوير اللدن، والصياغة الثانوية للحلم بأسره، أما تلك المظاهر التى تصادفنا فى الأحلام، كإصدار الأحلام، وتوجيه النقد، والاستنتاج والاستغراب، فليست على الإطلاق من عمل إخراج الحلم، كما أنها ليست نتيجة للتأمل فى الحلم بعد حدوثه إلا فى القليل النادر، لكنها غالباً ما تكون نتفاً من الأفكار الكامنة اقتحمت الحلم الظاهر بعد أن أصابها تحوير قليل أو كبير، وبعد أن كُيِّفت لتناسب الظروف والملابسات، يضاف إلى هذا أن إخراج الحلم ليس فى وسعه أن يخلق فى الأحلام محادثات إلا فى بضع حالات استثنائية، فما يسمعه الحالم فى نومه أو ما ينطق به من أحاديث، ما هو إلا صدى للأشياء التى سمعها أو التى قالها نفسه فى اليوم السابق لحلمه، فاندمجت فى الأفكار الكامنة وكانت بمثابة مواد للحلم أو مثيرات له، كذلك لايدخل «الحساب الرياضى» فى مجال إخراج الحلم. فإن ظهر فى الأحلام شىء من هذا، فما هو بوجه عام إلا مجرد رصٍ لأعداد، وحساب زائف لاينطوى على معنى من حيث هو، أو لا يعدو أن يكون نسخة من حساب مضمر فى الأفكار الكامنة.

لهذا كله لايستغرب أن يتحول اهتمامنا من إخراج الحلم إلى الأفكار الكامنة التى تفصح عن نفسها فى الحلم الظاهر بدرجات متفاوتة من التحريف، غير أنه من الخطل أن نشتط فى هذا الاتجاه الجديد، بحيث لانعود نتكلم إن عرضنا للموضوع من الناحية النظرية، إلا عن الأفكار الكامنة نستعيض بها عن الحلم بأسره، وننسب إليه ما لايصدق إلا على هذه الأفكار وحدها، ومن العجيب أن يساء فهم الكشوف التى قام بها التحليل النفسى، فيخلط بين هذين الأمرين ويلبس أحدهما بالآخر، إن اصطلاح «الحلم» لايصح أن يطلق إلا على **نتائج إخراج الحلم**؛ أى على **الشكل** الذى تضفيه هذه العملية على الأفكار الكامنة.

إن إخراج الحلم عملية من طراز فذ لم نجد له إلى الآن نظيراً فى الحياة النفسية، فهذه الألوان من التكثيف والنقل والترجمة التراجعية للأفكار إلى صور مستحدثات

1. Secondary elaboration.

طريفة، فى معرفتها خير جزاء عن جهودنا فى ميدان التحليل النفسى، أما نظائر عملية الإخراج فى الميادين الأخرى، فقد كشفت لنا عن الصلات التى تربط التحليل النفسى بغيره من البحوث، وخاصة تلك التى تدور على تطور اللغة والفكر، على أنكم لن تستطيعوا أن تقدروا هذه الآراء حق قدرها إلا متى عرفتم أن الحيل[1] التى تشرف على إخراج الحلم، نماذج للحيل التى تهيمن على تكوين الأعراض العصابية.

وأعرف أيضاً أننا لا نستطيع بعد أن نستوعب كل ما يمكن أن يفيده علم النفس من هذه الجهود الجديدة، وحسبى أن أشير إلى هذه البراهين الجديدة التى تسنى لنا أن نؤيد بها وجود أوجه نشاط نفسى لا شعورى - فالأفكار الكامنة ليست فى الحق إلا أمثلة لهذه الأوجه - وإلى أن تأويل الأحلام يتيح لنا مدخلا إلى الإلمام بالحياة النفسية اللاشعورية ومنفذاً أفسح بكثير مما كنا ننتظر، وأظن أن الظرف موات كى أقدم لكم أمثلة لأحلام قصيرة مختلفة، تجلو النواحى التى فرغت من تهيئتكم لها.

1. Mechanisms.

المحاضرة الثانية عشرة

تحليل أمثلة من الأحــلام

ليس لكم أن تبتئسوا إذا أنا عدت مرة أخرى أقدم لكم نُتفاً من أحلام أؤولها، بدل أن أشكركم فى تأويل حلم طويل من الأحـلام الجـميلة، وربما تقـولون إنكم بعـد هذا الإعداد الطويل، على حق أن تتوقعوا هذا، وأن تتساءلوا: ألم يكن من الممكن بعد أن أُولت آلاف كثيرة من الأحلام تأويلا ناجحاً، ألم يكن من الممكن ـ منذ زمن طويل ـ أن تُجمع طائفة من الأحـلام النمـوذجية تكون شواهد على صـدق كل ما أسلفنا عن إخراج الحلم وعن أفكاره الكامنة ؟. قد تكونون على حق فى هذا، لكن ثمة صعوبات عدة تتعارض مع تحقيق رغبتكم هذه.

ويتـعين علىّ أن أصرح لكم، قـبل كل شيء ، أن ليس هناك شـخص يتـخـذ من تأويل الأحلام مهنته الرئيسية، فأيانَ إذاً يتاح لنا أن نؤول الأحلام؟ قد نقوم فى بعض الآونة بتـأويل حلم لصديق لنا، لا نرمـى من وراء ذلك إلى غـرض خـاص، أو نشـغل أنفسنا، فترة من الزمن، فأحلامنا نحن، لندرب أنفسنا على خطة التحليل النفسى. لكننا نتناول فى أغلب الأحـيـان أحـلام المرضى من العـصـابيين أثناء عـلاجـهم بطريقـة التحليل. وإن أحلام هؤلاء المرضى لتزودنا بمادة تبـهر وتروع، كما أنها ليست بأية حـال دون أحـلام لمقـتـضـيـات العـلاج وأن نذر التـأويل فى عـدد كـبـيـر منهـا، خـالما نستخلص منه شيئا يفيد منه العلاج. ثم إن كثيرا من الأحـلام التى تُرى إبان العلاج تستعصى قاطبة على التأويل التام، لأنها تصدر عن جملة المواد النفسية التى لانزال نجـهلها، فمن المحـال أننفهمـها إلا إذا تم الشفـاء، ولو أننا أخذنا فـى سوق أمثلة من هذه الأحلام، تحتم علينا أن نميط اللثام عن جميع أسرار الأمراض النفسية ومعمياتها، وهذا على عكس ما نسير عليه، فقد بدأنا بمشكلة الأحلام تمهيداً لدراسة الأمراض النفسية.

على أنه يلوح لـى أنكم لا ترحبون بأمثال هذه الأحلام، فتؤثرون الاستمـاع إلى تفسير أحـلام للأصحاء من الناس أو لأحـلامكم أنتم، لكن مضمون هذه الأحـلام يجعل هذا الاختيار أمراً مستـحيلا، فليس فى وسع المرء، وليس فى وسع أحد ممن يضع ثقته فينا أن يعترف بتلك الصراحة والأمـانة اللتين يتطلبـهما التـأويل المتقن للأحلام، ففى هذا كما تعلمون، ما يمس النواحى الحميمة الحساسة من شخصية الفرد، إلى جانب هذه

الصعوبة التى تتصل بمادة الحلم وطبيعته، ثمة أخرى تعترض رواية الحلم، فالحلم، كما تعرفون، يبدو لصاحبه شيئاً غريباً دخيلاً، فأحرى به أن يكون أكثر غرابة عند من لا يعرف شخصية الحالم، غير أن التحليل النفسى لا تعوزه أمثلة جيدة مفصلة لتحليل الأحلام.

وقد نُشرت بعض أمثلة من تلك بصدد ملاحظاتى عن بعض المرضى، وربما كان خير مثال لتأويل الأحلام، ما نشره أ. رانك O. Rank عن تحليل حلمين مترابطين لفتاة صغيرة، يقعان فى صفحتين تقريباً، فى حين يستغرق تحليلهما ٧٦ صفحة، فلو أردت أن أمضى بكم فى عمل كهذا، لكانت بنا حاجة إلى عدد من المحاضرات كذلك الذى أقدمه فى موسم بأكمله، ولئن اخترنا حلمًا طويلاً بعض الطوال، وعلى جانب كبير من التحريف، لتعين علينا أن نورد كثيرا من التفاسير ووسائل الإيضاح، وأن نعرض لكثير من مستدعيات الحالم وذكرياته، وأن نتورط فى كثير من الاستطراد، حتى أن محاضرة واحدة لايمكن أن تكفى البتة لإعطائكم فكرة واضحة عن الحلم فى جملته، لذا أرجو أن تقنعوا بما هو أيسر من هذا وأهون، فترضوا بأن أقص عليكم نتفًا من أحلام العصابيين، تمكننا من أن ندرس بعض عناصرها وسماتها مفردة، والرموز هى أسهل السمات التى يمكن إيضاحها، تليها فى ذلك بعض الخصائص التى يتسم بها التصور النكوصى فى الإحلام، وسأخبركم لِمَ كان كل حلم من الأحلام التالية جديراً بالرواية:

١ - إليكم حلماً يتلخص موجزتين فحسب: [رأى الحالم أن عمه يدخن سيجارة مع أنه فى يوم سبت - وامرأة تدلل الحالم وتداعبه كما لو كان طفلها].

أما فيما يتصل بالصورة الأولى، فيخبرنا صاحب الحلم، وهو يهودى، أن عمه على جانب كبير من التقوى فلم يرتكب قط، ولايمكن أن يرتكب البتة إثمًا كالتدخين فى أيام السبت(١)، وأما الصورة الثانية ، فلا يذكر الحالم بصددها شيئاً إلا أمه، ومما لاريب فيه أن هناك صلة بين هاتين الصورتين أو الفكرتين، تُرى أية صلة تكون؟ بما أن الحالم ينكر إنكاراً صريحًا أن يرتكب عمه، فى الواقع، أصلاً هذه الفعلة، فهذا يوحى إلينا من تلقاء نفسه بالربط بين الصورتين بإدخال حرف الشرط إذا علىّ الأولى

---

(١) التدخين وإشعال النار فى السبت بوجه عام، مما يعتبره اليهود إثما «المترجم».

منهما: «إذا كان لعمي، وهو التقى الورع، أن يدخن فى السبت، فلا جُناح على إذًا أن أدع أمي تداعبني». وغنى عن البيان أن يعنى هذا أن مداعبة الأم شيء محرم محظور عند كل يهودى متين، كالتدخين أيام السبت، ولعلكم تذكرون ما أسلفت من أن العلاقات بين أفكار الحلم تزول وتختفى قاطبة خلال عملية الإخراج، إذ تنحل هذه الأفكار إلى مادتها الخام، فتكون مهمة التأويل إعادة هذه العلاقات التى حذفت.

٢ – إن ما نشرته عن موضوع الأحلام، قد جعل منى مستشارا رسميًا عن هذا الموضوع بمقدار، فإذا بى أتلقى، منذ إعوام، رسائل عدة من كل مكان قصى، تقص علىّ أحلاما، أو تطلب رأيى. وإنى شاكر بطبيعة الحال كل من شفع أحلامه بمادة كافية تمكننى من تأويلها ، ولكل من كان يقترح نفسه تأويلا. من هذه الأحلام، حلم بعث ه إلىّ طالب طب فى ميونخ، عام ١٩١٠. وقد اخترته لأبيّن لكم أى إلى حد يشق علينا، إجمالا، فهم الحلم إن لم يردفه صاحبه بكل ما يستطيع من معلومات عنه. ذلك أنه يلوح لى أنكم تعتقدون فى قرارة نفوسكم بأن ترجمة الرموز هى الطريقة المثلى للتأويل، وأنكم تودون لو انصرفتم عن طريقة التداعى الطليق؛ لذا أريد أن أجنبكم هذا الخطأ الكبير:

(١٣ يوليو ١٩١٠: رأيت الحلم الآتى قبيل الصباح: رأيتنى راكبًا دراجة أهبط بها شارعاً فى توبنجن، فإذا بكلب أسود يلاحقنى ويمسك بأحد عقبىّ، فمضيت فى ركوبى قليلا ثم ترجلت وجلستٍ على درجة، فأخذت أدرأ الحيوان عنى، فقد كان أنشب أسنانه وثبتها فى عقبى «لم يثر عض الكلب ولا المنظر كله إحساسات منافرة فى نفسى»، وكان يجلس قبالتى سيدتان متقدمتان فى السن، تنظران إلىّ فى سخرية، عندئذ استيقظت، وكانت وقائع الحلم واضحة فى اللحظة التى استيقظت فيها، وهذا أمر أعهده من قبل كثيراً).

إن الرمزية لاتعيننا كثيراً على هذا المثال، لكن صاحب الحلم يمضى فيخبرنا بما يلى:

«منذ عهد قريب وقعت فى حب فتاة بمجرد أن رأيتها فى الطريق، ولم أملك وسيلة للتعرف بها، وكنت أرجو أن تتاح لى فرصة للتعرف بها عن طريق كلبها، لأنى أحب الحيوانات كثيراً، وقد راعنى أن رأيتها، من المغرمات بالحيوانات أيضًا». ثم يضيف إلى هذا أنه استطاع، أكثر من مرة، أنِ يفصل بين كلبين يتقاتلان، فى مهارة تعجب الناظرين، وكانت الفتاة التى سلبت لبه ترى على الدوام وهى تسير مع

ذلك الكلب الخاص» - مما يلاحظ أن الفتاة قد حُذفت من الحلم الظاهر، ويبقى الكلب الذى يصاحبها، وقد تكون السيدتان الكبيرتان اللتان تسخران منه، بديلا عنه، غير أن هذه النقطة لم تتضح مما ذكره لنا بعد هذا، أما ركوبه الدراجة فى الحلم، فكان استعادة مباشرة للموقف كما يتذكره، لأنه لم يلتق بالفتاة مع كلبها إلا وهو راكب دراجته.

٣ - إن الإنسان إذا فقد شخصاً عزيزاً عليه، فإنه يرى، لمدة طويلة بعدها، أحلاماً من طراز خاص غريب تتجلى فيه ألوان عجيبة من حلول وسطى للتوفيق بين معرفته بموت ذلك الشخص وبين الرغبة فى رده إلى الحياة، فتارة يرى الفقيد ميتاً، لكنها لايزال مع هذا حياً، لأنه (أى الفقيد) لايعرف أنه ميت، كأنه لايموت بالفعل إلا متى عرف ذلك، وطوراً يرى بين حى وميت، وكل حالة من هاتين تتميز بعلامات خاصة، وخليق بنا ألا نرى فى هذه الأحلام مجرد لغو وسخف، ذلك أن الردة إلى الحياة حدث مألوف، بل قدرٌ مشاع لم ترفضه خرافات الأساطير، فهو حرىٌ أن يكون كذلك فى الأحلام، ولقد أتيح لى أن أحلل طرفًا من هذه الأحلام، فبدا لى أنها قابلة لتفاسير معقولة، وإن كانت تلك الرغبة الورعة فى إحياء الموتى تفصح عن نفسها بأكثر الطرق إغراباً، وسأعرض عليكم حلمًا من هذا النوع، لاشك فى أنه سيلوح لكم على جانب كبير من السخف والتناقض، فستتضح لكم من تحليله نقاط عدة سبقت الإشارة إليها فى مناقشاتنا النظرية، أما صاحب الحلم فرجل فقد أباه منذ سنين عدداً:

[إن أبى ميت، لكنه أخرج من القبر، وكان يبدو بمظهر المرض، وهو لا يزال حياً منذ خروجه من القبر، وقد صنعت كل ما فى وسعى لأمنعه من أن يلاحظ ذلك (ثم يتناول الحلم عندئذ أشياء أخرى تبتعد فى ظاهرها عن هذا الموضوع بعداً كبيراً»] .

فأمّا موت الأب فنعرف أنه واقعة حاصلة، وأما خروجه من القبر فلا يطابق الواقع، شأنه فى ذلك شأن التفاصيل التالية فى الحلم، غير أن الرجل يمضى فيقول إنه بعد أن رجع من جنازة أبيه، بدأت إحدى أسنانه تؤلمه، فأراد أن يعالجها عملاً بسنة اليهودة: «إن آذتك سنك فاقتلعها، فذهب إلى طبيب للأسنان فقال له الطبيب: «ما هكذا تعالج السن، واصبر نفسك فسأضع لك فيها شيئاً يقتل العصب، وعليك أن تعود بعد أيام ثلاثة، أخرج لك هذا الشيء منها» . وهنا قال الحالم على حين فجأة: «هذا الإخراج هو إخراج الجثة من القبر» .

فهل كان الرجل مصيباً فيما قال؟ الحق أن التشبيه غير مضبوط لأن الشيء الذى كان يراد انتزاعه، لم يكن السن بل جزءاً ميتاً منها فقط. لكننا نعرف من خبراتنا أن عملية إخراج الحلم لاتراعى الضبط والدقة، بل تخبط على هذا النحو فى كثير من الأحوال، فلا مناص من أن نفترض أن الحالم قد شابه - عن طريق التكثيف بين الأب المتوفى وبين السن التى كانت ميتة، والتى كان يحتفظ بها من ذلك. فلا غرابة إذاً أن ينجم عن هذا سخف وتناقض فى الحلم الظاهر، إذاً من الواضح أن كل ما يقال عن السن لايمكن أن ينسحب على الأب، وقد يكون لنا أن نتساءل عن «الجامع» بين الأب والسن؛ أى عن ذلك العامل المشترك الذى أتاح المقارنة بينهما، ومكّن من التكثيف الذى نجده فى الحلم الظاهر.

هذا الجامع لابد أن يكون قائماً فى نفس الحلم، والواقع أنه أخبرنا أنه يعرف أن المرء إذا رأى فى نومه أنه يفقد سناً، فهذا يعنى أنه على وشك أن يفقد أحد أفراد أسرته.

نحن نعرف أن هذا التأويل الشعبى غير صحيح، أو أنه على الأقل لايصح إلا بمعنى خاص محرّف جداً، ومن ثم فستزداد دهشتنا بالفعل حين تكشف هذه الناحية التى مسها الحالم، مستترة وراء العناصر الأخرى لمضمون الحلم.

وهنا شرع الرجل - دون أن نلح عليه فى المضى - يتحدث عن مرض أبيه وعن موته وعن الصلات التى كانت قائمة بينهما، فقد كان مرضاً طويلاً، كلف الابن مالاً كثيراً أنفقه علاج أبيه والعناية به. ومع هذا فلم يضق الابن قط بهذه الحال، بل ثابر لها، ولم تساوره قط رغبة فى دنو المصير، بل كان يزهو بتبجيله اليهودى الصادق لأبيه، وبأنه يراعى شريعة اليهود مراعاة دقيقة، ترى ألم يبدلكم هنا شيء من التناقض فى الأفكار المتصلة بالحلم؟

لقد وحّد الحالم بين السن وأبيه، وأراد أن يتصرف حيال السن وفق شريعة اليهود، وهى تقضى باقتلاع السن إن آذت صاحبها وأوجعته، كما أراد أن يبر أبيه وفق الشريعة أيضاً، لكنها توصيه فى هذه الحال بألا يحفل بالنفقات وبالأذى، وبأن يحتمل العبء كله بنفسه، وألا يدع فى نفسه مجالاً لأية نبة عدوانية إزاء الشيء الذى يسبب له الأذى، ألا يكون التشابه بين الموقفين أكثر إحكاماً واقناعاً لو كان صاحب الحلم يشعر بالفعل نحو أبيه المريض بالمشاعر نفسها التى كان يجدها إزاء سنة المريضة، أى

لو كان يتمنى أن يجيء الموت وشيكاً فيقضى على أبيه، ويريحه من النفقة والعناء؟

لست فى شك من أن هذا كان، فى الواقع ، موقف الابن من أبيه إبان مرضه الطويل، وما تلك التوكيدات الصاخبة عن البر بالأب وتبجيله إلا حالة يقصد بها صرف ذهنه عن أية خواطر من هذا القبيل، وليس من النادر فى أمثال هذه الظروف أن تنبعث الرغبة من موت الأب وأن تتخفى فى غلالة ظاهرها الرحمة والعطف، وباطنها أن الموت خلاص مبارك للمريض مما يعانيه». على أنى أود أن تلاحظوا، بوجه خاص، أن داً قد انهار وتحطم فى الأفكار الكامنة نفسها هنا. فمن المحقق أن الجزء الأول من هذه الأفكار كان لا شعوريا بصورة وقتية فقط، أى إبان صياغة الحلم وإخراجه..

أما المشاعر العدوانية نحو الأب، فأكبر الظن أنها كانت فى حالة لا شعورية دائمة، أى منذ عهد بعيد، قد يرجع إلى طور الطفولة، وأنها كانت تنسل بين حين وآخر، فى استحياء ـ إن صح التعبير ـ وفى صورة مقنعة، إلى منطقة الشعور، وإنا لنستطيع أن نؤكد هذا بدرجة أكبر من اليقين، فيما يتصل بأفكار كامنة أخرى أفضت إلى مضمون الحلم، صحيح أننا لانجد فى الحلم، أى أثر لمشاعر عدائية نحو الأب، لكننا إن التمسنا أصل هذه العداوة فى حياة الطفل، ذكرنا أنها تنشأ عن الخوف من الأب، وهو خوف يبدأ منذ سنوات الأولى من الحياة حين يأخذ الأب فى كبح النشاط الجنسى[١] للولد ومقاومته، ثم يعود إلى هذا الكبح مرة أخرى بعد أن يدرك الطفل الحلم، مجاراة لتقاليد المجتمع وصوناً لها، تلك هى الصلة التى كانت قائمة بين صاحبنا وأبيه، فقد كان حبه لأبيه مصطبغاً بكثير من الاحترام والرعب، مصدرهما ذلك الخوف الذى أحاط بالتربية الجنسية فى عهد مبكر.

---

(١) نود أن نشير إلى أن «فرويد» قد بسط فى معنى الغريزة الجنسية حتى أخرجها عما تعارف الناس وعلماء النفس عليه، فهو يقصد بها مجموع الدفعات أو النزعات الغريزية التى تستهدف اللذة الجسيمة والحسية بمختلف أنواعها، مما يدخل أو لا يدخل فى نطاق التناسل. وبعبارة أخرى فكل نشاط يرى التخفف من تهيج جسمى أو توتر عضوى هو إشباع للغريزة الجنسية، فالغريزة الجنسية، بهذا المعنى، نشطة فعالة عند الفرد من ميلاده إلى موته، فالطفل يجد لذة جنسية، فى الرضاعة والمضغ والعض ومص الأصابع والتبول والتغوط والاحتضان والحركة الإيقاعية والجرى والقفز واللعب بالقاذورات وبأعضائه ومن رؤية الأشكال والألوان وكشف العورة... أى أن للغريزة صورها الطفلية التى تختلف عن نظائرها عند الراشد الكبير.. «المترجم».

فى وسعنا الآن أن نفسر التفاصيل الأخرى فى الحلم الظاهر «لعقدة الاستمناء» فالعبارة التى وردت فى الحلم «كان يبدو بمظهر المرض» قد تكون تلميحاً إلى ملاحظة أخرى ذكرها له الطبيب - هى أن ذهاب سن من هذا الموضع بذاته، تجعله يبدو بمظهر غير حسن - لكنها قد تكون فى الوقت نفسه إشارة إلى «مظهر المرض» الذى ينم عن النشاط الجنسى المسرف للفتى إبان مرحلة البلوغ، أو الذى يخشى الفتى أن يكون فيه إشارة إلى هذا النشاط، ولئن كان صاحب الحلم قد حوّل مظهر المرض من نفسه إلى أبيه فى الحلم الظاهر، فذلك أن فى هذا التحويل شيئا من التخفف والفرجة - وهذه هى ظاهرة «القلب» Invertion التى تعرفونها حيلة من حيل إخراج الحلم، أما العبارة، «وهو لايزال حياً» فتتماشى مع الرغبة فى عودة الأب إلى الحياة، كما تتماشى مع ما وعد به الطبيب من الإبقاء على السن، فإذا نظرنا فى العبارة: «صنعت كل ما فى وسعى لأمنعه من أن يلاحظ»، وجدنا أنها صورت بقدر كبير من الدقة والدهاء، بحيث توحى إلينا أن نكلمها بالكلمات: «إنه ميت» . على أن التكملة الوحيدة التى تجعل لهذه العبارة معنى ودلالة حقاً، يمكن أن ترد، هى الأخرى، إلى عقدة الاستمناء، ذلك أن الشاب يعمل كل ما فى وسعه بطبيعة الحال ليخفى حياته الجنسية عن أبيه، وأذكركم بهذا الصدد أننا نلجأ دائما إلى الاستمناء وإلى الخوف من مغبته، لتأويل الأحلام التى تدور على وجع الأسنان.

وهكذا ترون كيف صيغ هذا الحلم المستغلق غير المفهوم، فقد تدخلت فى إخراجه حيلٌ عدة: من تكثيف خادع أخاذ، إلى حذف لكل الخواطر التى تتصل بصميم الأفكار الكامنة ولبها، هذا إلى تلك البدائل المبهمة التى ابتكرت لتصور أعمق الأفكار وأبعدها عهداً.

٤ – حاولنا من قبل أكثر من مرة أن نتعمق ذلك الصنف «السادج» من الأحلام التى لاتبدو فى شكل غريب أو سخيف متناقض، والتى تجعلنا نتساءل: ترى لماذا نحلم بأمثال هذه التوافه؟ لذا سأقص عليكم مثالا جديداً من هذا الصنف، ثلاثة أحلام يرتبط بعضها ببعض، رأتها سيدة شابة خلال ليلة واحدة.

(أ) [كانت تجتاز البهو فى منزلها، فاصطدم رأسها بثريا دانية اصطداما أسال منه الدم].

هذه الحادثة اليسيرة لم تستدع إلى ذهن السيدة خواطر تتصل بأشياء وقعت بالفعل، بل اتجهت بملاحظاتها اتجاها آخر، فقالت: «أتعرفُ إلى أى حد يسقط شعر رأسى، لقد قالت لى أمى، أمس، إن الأمر إذا استمر على هذه الحال، فسرعان ما يصبح رأسك عاريًا كردفيك». من هذا نرى أن الرأس يرمز إلى الجزء المقابل من الجسم، أما ما ترمز إليه الثريا فلا يحتاج فهمه إلى عناء كبير: فكل الأشياء القابلة للاستطالة رموز للعضو الذكرى، ومن ثم فالموضوع الحقيقى للحلم، إدماء فى الجزء الأسفل من البدن نجم عن احتكاكه بالقضيب، على أن هذا الادماء قد تكون له معانٍ أخرى، فقد اتضح لنا من الذكريات والمعلومات الأخرى التى زودتنا بها الحالة، أن للحلم صلة باعتقاد سائد - هو أن الطمث ينجم عن الاتصال الجنسى برجل، وهى فكرة مشاعة بين غير الناضجات من الفتيات.

(ب) [رأت سيدة حفرة عميقة فى كرمة عنب، وهى تعرف أن الحفرة نشأت من اقتلاع شجرة] - فكانت ملاحظتها بهذا الصدد أن الشجرة «مفقودة» تريد بهذا أنها لم تر الشجرة فى حلمها، غير أن روايتها للحلم ترمى، فى جملتها، إلى التعبير عن فكرة أخرى لاتدعنا فى ريب من الدلالة الرمزية للشجرة، فحلمها هذا يشير إلى اعتقاد صبيانى آخر يتصل بالأمور الجنسية فى ذهنها: هو أن البنات يولدن بنفس الأعضاء التناسلية للبنين، ثم يصبحن على ما هن عليه، بعد استئصال هذه المذاكر (اقتلاع الشجرة).

(جـ) كانت تقف أمام درج مكتبها؛ وهى تعرف ما يحتويه حق المعرفة، بحيث إن مسّه إنسان فطنت إلى ذلك على الفور] - أما درج المكتب، فككل درج أو علبة أو صندوق، رمز إلى العضو التناسلى للمرأة، وأما صاحبة الحلم فكانت تعتقد أن التواصل الجنسى وأية ملامسة جنسية ينفضح أمرها بعلامات معينة تظهر فى أعضاء التناسل، وهذا ما كانت تخشاه منذ عهد طويل.

وعندى أن بيت القصيد فى هذه الأحلام الثلاثة يدور على تلك المعلومات الجنسية الراسخة فى ذهنها. فهى لاتزال تذكر ذلك العهد الذى كانت تستطلع فيه أسرار الحياة الجنسية استطلاعا صبيانياً، والنتائج التى ظفرت بها من استطلاعها هذا، وكانت نتائج تفاخر بها فى ذلك العهد مفاخرة كبيرة.

٥ – وإليكم مثالاً آخر للرمزية يتعين علىّ أن أقدم له ببيان موجز عن الموقف النفسى الذى حدث فيه الحلم: ذلك أن رجلا أمضى ليله إلى جوار امرأة يصفها بأنها ذات طبع يحن إلى الأمومة، أى أنها من تلك النساء اللاتى تنبعث فيهن إبان المغازلة رغبة عارمة فى إنجاب الأطفال، لكن الظروف التى حدث فيها هذا اللقاء حتمت عليهما أن يحتاطا للأمر، بما يحول دون وصول السائل المنوى إلى الرحم، فلما أفاقت المرأة فى الصباح، روت الحلم التالى

[ضابط ذو قبعة حمراء يطاردها فى الطريق، فهربت منه وصعدت درج منزلها وهو لايزال يتبعها، حتى وصلت غرفتها مبهورة الأنفاس، فدلفت إليها، وأغلقت الباب بالمفتاح: وقد لبث الرجل خارج الغرفة، فلما نظرت من ثقب المفتاح ألفته جالسا على مقعد يبكى].

لا شيء علينا أن نرى فى مطاردة الضابط ذى القبعة الحمراء، وفى صعود الدرج بأنفاس مبهورة، تصويراً للفعل الجنسى. أما احتجازها الضابط خارج الغرفة، فقد يكون مثالا لحيلة «القلب» الشائعة فى صياغة الأحلام، إذ الواقع أن الرجل هو الذى حجز نفسه عن أن يتم الفعل الجنسى، كذلك نرى أثر هذه الحيلة فى أنها أسقطت شعورها بالحسرة على شريكها، فقد كان هو الذى يبكى فى الحلم، ولايفوتنا أن نلحظ أن فى دموعه هذه، إشارة إلى السائل المنوى.

لا شك أنكم سمعتم من قبل ما يقال عن التحليل النفسى من أنه يرى أن الأحلام جميعها تنطوى على دلالة جنسية. ولعلكم تستطيعون الآن أن تروا إلى بطلان هذا الاعتراض، فقد رأيتم أن هناك أحلاما تقوم على تحقيق الرغبات، وتدور على إرضاء الحاجات الأساسية كالجوع والعطش والحاجة إلى الحرية، كما رأيتم كذلك أحلام الاستسهال، وأحلام الاستعجال، وأخرى تشير فى صراحة إلى الشره والأنانية، ومع هذا يجب أن تذكروا أن نتائج التحليل لنفسى قد أسلمت إلى أن الأحلام الشديدة التحريف تكون فى **الغالب** (ولا أقول على الإطلاق) تعبيراً عن رغبات جنسية.

٦ – أرانى مضطراً إلى أن أكثر لكم من الأمثلة على اصطناع الرموز فى الأحلام، يحملنى على ذلك دافع خاص. فقد شكوت لكم فى أولى محاضراتى ما سألقاه من عنت وعناء للتدليل على ما أقول، حتى أستطيع أن أقنعكم بكشوف التحليل

النفسى. وأكبر الظن أن قد تأكد لكم صدق هذه الشكوى.. الحق أن قضايا التحليل النفسى وثيقة الارتباط بعضها ببعض، وإن بدت مستقلة بعضها عن بعض، بحيث أن الاقتناع بجانب واحد منها يسلم فى سهولة إلى قبول الشطر الأكبر من النظرية بأسرها، حتى ليمكن القول بأنك لو مددت أصبعك الصغير إلى التحليل النفسى، لم يلبث أن يستحوذ على يدك بأجمعها. فمن تقبل منكم تفسير الهفوات وآمن به، فلا معدى له - إن كان لا يريد أن يتطاول على المنطق - عن أن يسلم ويعتقد بما عداها طراً كذلك، الرمزية فى الأحلام. فهى كالهفوات - تتيح لنا مثل هذا الاعتقاد. وسأقص عليكم حلماً نشر من قبل عن امرأة من الطبقات الفقيرة، زوجها حارس، ومن المحقق أنها لم تسمع قط عن الرمزية فى الأحلام أو عن التحليل النفسى، فانظروا هل ترون فى تأويله عن طريق الرموز الجنسية شيئاً ينطوى، بحق، على تعسف أو إكراه؟.

[... ثم اقتحم المنزل شخص وصاحت فى فزع تستدعى الحارس. لكن الحارس بصحبه إثنان من الأفاقين، دخل كنيسة يسلم إليها درج طويل، ومن وراء الكنيسة جبل تعلوه غابة كثيفة. وكان الحارث يلبس خوذة ومعطفاً ودرعا على عنقه، وله لحية سمراء كأنها قرارتان. وبين الكنيسة والجبل طريق تكثر الحشائش والشجيرات على جانبيه، ثم تزداد كثافتها حتى تنتهى بغابة حقيقية فى أعلى الجبل].

تتضح لنا الرموز فى هذا الحلم دون عناء: فقد أشير إلى أعضاء التناسل الذكرية بثلاثة أشخاص، فى حين قد رمز إلى أعضاء التناسل الأنثية بمنظر طبيعى فيه كنيسة وجبل وغابة، كما نرى الفعل الجنسى قد رمز إلى صعود الدرج، أما ذلك الجزء من الجسم الذى يسمى فى الحلم «جبلا»، فيطلق عليه فى علم التشريح اسم «جبل الزهرة».

٧ – وإليكم حلمًا آخر مما يمكن تفسيره على ضوء الرمزية، وهو حلم خليق بالملاحظة، كما أنه شاهد على صدق دعواى.. فقد ترجم الحالم نفسه كل ما به من رموز، دون أن تكون له بتأويل الأحلام معرفة نظرية، وتلك حالة على جانب كبير من الغرابة والطرافة، لم يتح لنا أن نلم بفكرة واضحة عن الظروف التى استثارتها:

[كان يسير مع أبيه فى مكان أكبر الظن أنه براتز Prater[١]، لأنهما كانا يريان بناء تعلوه قبة وأمامه بناء صغير قد شد إلى منطاد معتقل كان يبدو متخاذلا متراخيًا، وقد سأله أبوه عن السر فى هذا كله، فدهش الابن لسؤاله، لكنه أجاب مع هذا، ثم أتيا بعد ذلك فناء بسط عليه لوح كبير من المعدن، فأراد الأب أن ينتزع منه قطعة كبيرة، غير أنه أخذ يتلفت حوله ليرى هل يرقبه أحد، وقال لابنه يابنى حسبى أن أخبر الحارس حتى أستطيع أن آخذ ما أريد علانية، وكان هناك درج يصل هذا الفناء ببئر بطنت جوانبها بمادة ملساء كأنها كرسى بمساند من جلد، وفى قرارة البئر طوار طويل ينتهى ببئر أخرى].

وإليكم التأويل الذى قدمه صاحب الحلم نفسه: «أما البناء ذوالقبة فهو أعضائى التناسلية، وليس المنطاد المعتقل أمامه إلا القضيب الذى أشكو من ضعفه وتخاذله منذ حين». على أننا لو أردنا ترجمة أدق وأكثر تفصيلا، لكان البناء ذو القبة رمزاً للأرداف (التى يعتبرها الأطفال عادة جزءاً من الجهاز التناسلى). ولكان البناء الصغير فى قبالتها رمزاً لجراب الخصيتين.

أما سؤال الأب ابنه عن السر فى هذا كله، فمعناه: ما وظيفة الأعضاء التناسلية وما الغرض منها؟. على أننا نستطيع أن نقلب هذا الموقف - فالقلب حيلة معروفة فى إخراج الأحلام - وأن نسلم بأن الابن هو الذى يوجه السؤال. وبما أن الأب لم يتفق له قط فى الواقع أن يوجه إلى ابنه مثل هذا السؤال، فلا مندوحة عن تأويل هذه الفكرة، من أفكار الحلم على أنها رغبة، أو نضعها فى صيغة شرطية: «لو أنى سألت أبى أن يزودنى بمعلومات عن الأعضاء التناسلية...» وسنرى بعد لحظة ماذا يكون جواب الشرط.

أما الفناء الذى يُبسط فيه لوح المعدن، فلا داعى إلى تفسيره رمزا إذ هو إشارة إلى المكان الذى يقوم فيه الأب بتجارته وعمله (وقد استبدلتُ لوح المعدن، كتماً للسر، بالسلعة الحقيقية التى يتجر بها، دون أن أغير شيئا من الصيغة اللفظية للحلم). إن صاحب الحلم كان يعين أباه على تجارته، وكان يسوؤه أن يرى أباه يلجأ إلى أساليب شائنة طمعًا فى الربح الوفير. ومن هنا يتسنى لنا أن نكمل الفكرة التى ذكرنا منذ لحظة، وهى (لو أنى سألت أبى....)، فيكون جواب الشرط، لكان غشنى كما يغش زبائنه. أما رغبة الأب فى «شد» قطعة من المعدن، فمن الممكن أن نرى فيها إشارة

(١) ما يشبه «مدينة الملاهى» فى ڤيينا «المترجم».

إلى الغش فى التجارة، غير أن صاحب الحلم نفسه، يفسرها تفسيراً آخر: فهى تعنى فى نظره مزاولة الاستمناء، وهذا تفسير نعرفه منذ عهد طويل، فضلا عن أنه يتماشى مع ما نعهده فى التأويل من أن الممارسة السرية للاستمناء يعبر عنها بضدها (وقد قال الأب لابنه: «نستطيع أن ننتزعها علانية إذا أخبرنا الحارس») . كذلك لنا أن ندهش إذ نرى الابن يعزو الاستمناء إلى أبيه، فقد نسب إليه السؤال فى الشطر الأول من الحلم، أما فيما يتعلق بالبئر، فقد أولّها الحالم مباشرة بجدران المهبل، فجوانبها مبطنة ببطانة ملساء. أضيف إلى هذا من جانبى أن النزول، كالصعود، يرمز عادة إلى الاتصال الجنسى.

وأما ذلك الطوار فى قرارة البئر الأولى، والذى ينتهى ببئر أخرى، فيفسره الحالم نفسه بتفاصيل من تاريخه الخاص، فقد كان يلامس النساء حينا من الدهر ثم أقله عن ذلك لعنة أصابته، لكنه يأمل أن يعود سيرته الأولى بعد العلاج.

٨ – وإليكم حلمين لرجل أجنبى من الذين يسرفون فى مصاحبة النساء، أزجيهما لأبين لكم أن شخص الحالم نفسه ماثل فى كل حلم، حتى إن تنكر فى المحتوى الظاهر، أما الحقائب، أما الحقائب التى تبدو فيهما فرموز نسائية.

أ – [كان صاحبنا يزمع السفر، حُملت أمتعته على عربة إلى المحطة، وكانت تتكون من عدد من الحقائق بعضها فوق بعض، ومن بينها صندوقان كبيران أسودان كصناديق الرَّحل من التجار، وقد قال لبعض الناس فى نغمة تنوى على التأسى والسلوى «هذه الحقائب لن تذهب إلى أبعد من المحطة»] .

نحن نعرف أن هذا الرجل يصطحب معه فى أسفاره أمتعةً من حقائب كثيرة، وكان من عادته أن يفضى إلينا أثناء علاجه بقصص كثيرة عن النساء. أما الحقيبتان السوداوتان فتنوبان عن امرأتين سمراوتين كانتا تقومان فى ذلك الحين بدور خطير فى حياته، وقد أرادت إحداهما أن تتبعه إلى ڤيينا، لكنى نصحت له ألا يفعل فأبرق إليها بذلك.

ب – منظر لدار فى دور المكوس: [وقد فتح أحد المسافرين حقيبة له، وقال فى غير اكتراث، وفى فمه لفافة تبغ: «ليس فيها شىء يعلن عنه»، فبدا على موظف المكوس أنه صدق ما يقول، لكنه تحسس الحقيبة مرة أخرى فوجد فيها شيئًا من المحظورات التى يشتد فى حظرها، عندئذ قال المسافر مذعناً «لا حيلة لى فى هذا»] .

أما الحالم نفسه فهو المسافر، فى حين أننى موظف المكوس لقد كان من عادة هذا الرجل أن يكون على جانب كبير من الصراحة معى. غير أنه ارتأى أن يكتم عنى صلة عقدها منذ عهد قريب مع امرأة، لأنه ظن ـ وكان ظنه صحيحًا ـ أنى أعرفها، وهكذا يكون قد أبدل الموقف المربك، وهو افتضاح أمره، فنقله إلى شخص آخر، حتى لاتبدو له ـ نفسه ـ أثر فى الحلم.

وإليكم مثالا لرمز لم أذكره لكم إلى الآن:

التقى الحالم بأخته ومعه اثنتان من صاحباتها، وكانتا أختين، فمد يده يصافحهما لكنه لم يمد يده إلى أخته.

هذا حلم لم يتسن لصاحبه أن يربط بينه وبين أية حادثة معينة يعرفها، لكن ذكرياته رجعت به إلى عهد كان يدهش فيه لما يراه من تأخر أثداء الفتيات فى النمو والظهور، فالأختان فى هذا الحلم، تمثلان إذاً ثديين كان يود أن يقبض عليهما بيده، بشرط ألا يكون ثديى أخته.

١٠ – وها هو ذا مثال لرمزية الموت فى الأحلام:

رأى الحالم نفسه يعبر جسراً من حديد مسرفًا فى الارتفاع على هاوية سحيقة، ومعه شخصان يعرف اسمهما، لكنه نسيهما عندما استيقظ، ثم اختفيا على حين فجأة، فرأى رجلا كشبح الموتى يلبس قبعة ويرتدى مبذلا مما يلبسه العمال أثناء العمل، فسأله إن كان موزع البرقيات؟.. فأجابه بالنفى. فسأله إن كان الحوذى! ... فأجابه بالنفى. ثم مضى الحالم فى طريقه...

لقد كان الحالم يشعر برعب شديد إبان حلمه هذا، فلما استيقظ زاد على الحالم شيئا من خياله، هو أن الجسر الحديدى قد انقض فجأة، وأنه سقط فى الهاوية.

إن الأشخاص الذين يراهم النائم ولا يعرفهم، أو ينسى أسماءهم هم، على الأغلب، أشخاص يرتبط بهم ارتباطا وثيقاً، وقد كان لصاحب هذا الحلم أخ وأخت، فلو أن نفسه كانت تنطوى على رغبة فى موتهما، لم يكن فى خوفه من الموت شىء من الجور والظلم، بل كان قصاصاً بالقسط، أما فيما يتصل بموزع البرقيات، فقد ذكر لنا الحالم أن هؤلاء قوم يحملون الأخبار السيئة أبداً، على أن هذا العامل ببذلته الرسمية

ربما كان عاملا ممن يشعلون مصابيح الطرق، وهؤلاء العمال مكلفون أيضاً بإطفاء الأنوار، كما يطفى ملك الموت شعلة الحياة، وأما الحوذى فقد استدعى إلى ذهنه قصيدة أُهلند Uhland عن رحلة بحرية قام بها الملك شارل، وأعاد إلى ذاكرته رحلة بحرية خطيرة قام بها، نفسه، مع اثنين من رفاقه، وكان يمثل فيها دور الملك فى القصيدة، ولما سألناه عن الجسر الحديدى، ذكر حادثة خطيرة وقعت له منذ عهد قريب، كما ذكر أيضاً ذلك القول السائر السخيف: «الحياة جسر معلق».

١١ - والحلم التالى يمكن اعتباره مثالا آخر للتصوير الرمزى للموت:

رجل مجهول يضع على صاحب الحلم بطاقة من بطاقات الزيارة، مسودة الحواشى.

١٢ - وإليكم حلما آخر طريفًا من عدة نواحٍ، على أنه يرجع، إلى حد ما، إلى حال عصابية عند صاحبه:

كان الحالم مسافرا فى قطار توقف فى صميم الريف، فظن أن هناك حادثة، وأنه يجب أن ينجو بنفسه، لذا أخذ يجتاز دواوين القطار جميعها، ويقتل كل من يصادفه - السائق وحارس القطار وغيرهما.

هذا الحلم يذكّر صاحبه بقصة قصها عليه أحد أصدقائه، فحواها أن أحد المجانين كان يُنقل فى قطار من القطارات الإيطالية، وقد حُجز فى ديوان خاص. فأخذ أحد المسافرين، ودلف إلى هذا الديوان، فقتله المجنون - إذاً لقد تقمص الحالم شخصية المجنون. وهو يبرر فعلته هذه بأن وسواساً يساوره ويعذبه من حين إلى حين، فيسوّل له أن يتخلص من «كل من يتاح له أن يطلع على خفايا نفسه». غير أنه ما لبث أن وقف بنفسه على تعليل أوجه من هذا لحلمه، ففى اليوم السابق لحلمه، رأى فى مسرح فتاة كان يريد الزواج بها، لكنه عدل عن هذا لأنه كانت تستثير غيرته. وبما أنه كان يعرف وقع الغيرة وحزّها فى نفسه، فلا بد أن يكون مجنونًا بالفعل لو أنه أقدم على الزواج بها. وهذا يعنى: أنه كان يعتقد أنها لا يُركن إليها ولا يوثق بها، فلو أنه تزوج، لساقته غيرته إلى أن يقتل كل من كان يعترض طريقه. أما اجتيازه عدة غرف (أو

عدة دواوين فى هذه الحالة) فهو ، كما نعرف من قبل، رمز للزواج (تعبير عن وحدانية الزواج على حسب قاعدة الأضداد) .

أما فيما يتصل بوقوف القطار فى صميم الريف، والخوف من وقوع حادثة، فقد ذكرنا لنا بصدده القصة التالية: اتفق له أنه كان مسافراً ذات يوم، فوقف القطار فجأة بين محطتين، فقالت امرأة صغيرة كانت بجواره: ربما كان هذا نذيراً باصطدام، وخير ما يعمله الإنسان فى هذه الحال أن يرفع ساقيه فى الهواء، وإن كان عبارة «رفع الساقين» تتصل فى نفسه بذكريات عدة ورحلات كثيرة، قضاها لابد أن يكون مجنونا لو تزوجها الآن، وعلى الرغم من هذا كله، فإن ما عرفته عن هذا الموقف يبيح لى أن أؤكد أن هذا الرجل كانت تنطوى نفسه على رغبة فى أن يكون ضحية لهذا النوع من الجنون.

المحاضرة الثالثة عشرة

السمات الأثرية والطفلية فى الأحلام

لنعد إلى النتيجة التى وصلنا إليها من قبل، وهى أن إخراج الحلم يترجم الأفكار الكامنة للحلم إلى أسلوب آخر من التعبير، ومع أن تلك الأفكار الكامنة من نوع الأفكار الشعورية التى نعهدها، ونحن أيقاظ، إلا أن اللبوس الجديد الذى تلبسه يبدو لنا مُغلقاً غير مفهوم، من جراء ما تتسم به حِيل الإخراج من خصائص غريبة شتى، وقد أسلفنا أن هذا الأسلوب الجديد من التعبير يردُّ إلى مراحل بدائية فى تطورنا العقلى اجتزناها منذ عهد طويل ـ إلى مراحل اللغة التصويرية المجازية (كالهيروغليفية) والصلات الرمزية. بل ربما يرجع إلى ظروف كانت توجد قبل أن تنشأ لغة الفكر المجردة، وهذا هو السبب فى أننا سمينا هذا الأسلوب من التعبير، الذى يصطنعه إخراج الحلم بالأسلوب **الأثرى**[١] أو **النكوصى**[٢].

من هذا يتسنى لنا أن نستنتج أننا لو تعمقنا دراسة إخراج الحلم، فلابد أن نخرج بمعلومات قيمة عن المراحل الأولى من تطورنا العقلى، التى لا نعلم عنها الكثير فى الوقت الحاضر، وأرجو أن يكون الأمر كذلك، ولو أن أحداً لم يقم بعد بمثل هذه المحاولة، إن العهد الذى يعود بنا إلى إخراج الحلم عهد «بدائى» بمعنى مزدوج ـ فهو يعنى، الأيام الأولى من حياة **الفرد** أى طفولته، هذا من جهة، وبما أن كل فرد يلخص إبان طفولته نشأة السلالة الإنسانية وتطورها بصورة مختصرة، فإن هذا العهد يمثل طفولة **السلالة** من جهة أخرى[٣]. وأعتقد أنه ليس من المحال أن نميز بين العمليات النفسية الكامنة التى تنتمى إلى الأيام الأولى من حياة الفرد، وتلك التى تمتد أصولها فى طفولة السلالة نفسها. من هذا ما يلوح لى من أن الرمزية مثلا ـ وهى أسلوب لايتعلمه الفرد إطلاقاً ولايكتسبه بنفسه ـ يمكن اعتبارها ميراثاً من مواريث السلالة.

---

1. Archaic

2. Regressive

(٣) يعتقد فرويد وجمهور أصحاب التحليل النفسى «بنظرية التلخيص» التى تنص على أن الفرد يجتاز أثناء طفولته كل المراحل التى مرت بها السلالة البشرية، من الطور الحيوانى للإنسان الأول إلى طور المدنية الحاضرة. «المترجم».

على أن الرمزية ليست السمة الأثرية الوحيدة فى الأحلام، فكلنا يعرف من خبرته الفعلية، تلك الظاهرة الغريبة التى تسمى نساوة الطفولة[1]، وهى فقدان الذاكرة لأحداث الطفولة، فالأحداث التى تمر بالفرد فى طفولته، حتى الخامسة أو السادسة أو الثامنة من عمره، لا تترك فى ذاكرته الآثار نفسها التى تتركها الخبرات التى تلى هذا العهد، والحق أننا نلتقى بأفراد يباهون بأنهم يذكرون ما حدث لهم أو مر بهم من خبرات منذ الطفولة المبكرة إلى الوقت الحاضر. غير أن الشائع فى الكثير الغالب من الأحوال، هو عكس هذا، أى وجود ثغرات وفجوات فى الذاكرة، وعندى أن هذه الظاهرة لم تستثر ما هى خليقة به من دهش واستغراب، ففى الثانية من العمر، يكون الطفل قادراً على أن يتكلم على نحو لابأس به، وسرعان ما تبدو قدرته على تكييف نفسه للمواقف النفسية المعقدة، ثم أنه يعبر عن أفكاره وعواطفه بأفعال وأقوال، أن أعدناها عليه بعد سنوات، نجد أنه قد نسيها، مع أن الذاكرة فى السنوات الأولى تكون إذ ذاك مشحونة، كما هو شأنها فيما بعد، ومن جهة أخرى فليس ثمة ما يحملنا على أن ننظر إلى الذاكرة على أنها وظيفة عقلية سامية أو معقدة، بل الأمر على عكس هذا، فالذاكرة الممتازة قد تكون من حظ أناس فى مستوى عقلى جد حطيط.

وخليق بى أن أوجه أنظارك إلى خاصة أخرى تقوم على هذه الخاصة الأولى، وهى أن النسيان الذى يحجب السنوات الأولى من الطفولة، ليس نسياناً تاماً: إذ تنبعث من ثناياه ذكريات وعيت وعياً واضحاً فى شكل صور ذهنية لدنة غالباً، ليس هناك ما يدعو إلى وعيها والاحتفاظ بها فيما يبدو، إن الذاكرة تتناول الانطباعات التى يتأثر بها الفرد فيما بعد الطفولة بالاختيار والانتقاء، فتحتفظ بالمهم منها وتذر ما سواه، لكن الأمر على غير هذا فى الذكريات المحفوظة من عهد الطفولة، فتلك الذكريات لايتحتم أن تكون صدًى لأحداث وخبرات مهمة فى هذه المرحلة من الحياة، أو لأحداث قد تبدو مهمة فى نظر الطفل، وأعلب الأمر أن تكون صدى لأحداث تافهة لا دلالة لها فى ذاتها، حتى ليبدو لنا أن نتساءل فى دهشة عما جعل هذه التفاصيل الخاصة تفلت بعينها من ربقة النسيان، ولقد حاولت، مستعيناً بالتحليل، أن أحل اللغز الذى تنطوى عليه نساوة الطفولة وتلك النُتف من الذكريات التى تبقى على الرغم من هذا النسيان،

1. Amnesia.

فخرجت من هذا بأن الطفل - كالراشد الكبير - لايحتفظ فى ذاكرته إلا بالأشياء المهمة، وإن بدا الأمر على خلاف هذا فى بعض الأحيان، غير أن هذه الأشياء المهمة تتمثل فى الذاكرة بأشياء تبدو تافهة فى ظاهرها، بفعل حيلة «التكثيف» وخاصة حيلة «النقل» فيما نعرفه من قبل. من أجل هذا أطلقت على ذكريات الطفولة اسم **الذكريات الستائر**[1]، التى يستطيع التحليل العميق أن يستخلص منها كل ما طواه النسيان.

إن ملء الثغرات التى تبدو فى ذكريات الطفولة خطوة ضرورية فى كل علاج بالتحليل النفسى، وإن قدرتنا على إماطة اللثام عن محتويات هذه السنين الأولى التى لفها النسيان منذ عهد طويل، مرهونة بنجاح عملية التحليل، أياً كان مبلغ هذا النجاح (أى فى الغالب الكثير من الأحيان) .. وواقع الأمر أن هذه الانطباعات لاتكون منسية حقًا، بل تكون كامنة ممتنعة بعيدة المنال، فقد أمست جزءاً من اللاشعور، غير أنه يحدث أن تنبعث من اللاشعور من تلقاء نفسها، كما هو الشأن فى الأحلام، من هذا يتضح أن حياة الأحلام تعرف السبيل إلى هذه الخبرات الطفلية الكامنة، وفى كشوف التحليل النفسى أمثلة بديعة لهذا. بل لقد استطعت نفسى أن أؤيد هذا بمثال شخصى. فقد رأيت ذات ليلة فيما يراه النائم شخصاً معيناً كان قد صنع بى معروفا، وكنت أراه ماثلا أمام عينى فى وضوح: فقد كان رجلا أعور بديناً قصيراً عالى الكتفين، عرفت من ملابسات الحلم أنه طبيب، ومن حسن التوفيق أنى استطعت أن أسأل والدتى - وكانت ماتزال على قيد الحياة - عن هيئة الطبيب الذى كان يتردد علينا فى البلد الذى ولدتُ وتركته فى الثالثة من عمرى، فأخبرتنى أنه رجل بدين قصير ذو عين واحدة وهو مرتفع الكتفين، كما حدثتنى أيضًا عن الظرف الذى اقتضى استدعاء الطبيب وكنت قد نسيته، فعلى هذا يكون انبعاث المواد المنسية من السنوات المبكرة للطفولة سمة أخرى من السمات «الأثرية» للأحلام.

تتيح لنا هذه المعلومات أن نحل مشكلة من المشكلات التى اعترضتنا من قبل فلم نجد منها مخرجًا إلى الآن، فعسى أن تذكروا ما أصابكم من دهشة يوم كاشفتكم أن الأحلام تستثير رغبات آثمة شريرة، أو رغبات جنسية جامحة، وأن هذا ما يحتم فرض الرقابة والتحريف فى الأحلام، ولنفرض الآن أننا أوّلنا حلمًا من هذا النوع،

---

1. Screen-memories.

وجرت الأمور فى يُسر فلم يثر صاحب الحلم على التأويل، بل امتثل له دون أن يعترض عليه، ترى هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟ هيهات أن يكون كذلك فهو لاينى يتساءل: كيف نشأت مثل هذه الرغبة فى نفسه، وهى غريبة عنه تتنافى مع خلقه، وعلى الرغم من أنه يشعر برغبة مضادة لها كل التضاد؟ هنا تجب المبادرة بإخباره عن أصل هذه الرغبة التى يستنكرها: فهذه الدوافع الأثيمة يمكن أن تُقتص أصولها إلى الماضى لايكون فى أغلب الأحوال جد بعيد.

وفى وسعنا أن نقدم له الدليل على أنه كان يعرف هذه الدوافع وكان يستشعرها فى يوم مضى، حتى إن لم يعد يفطن إليها اليوم، من هذا أن امرأة رأت حلمًا يدل على أنها تتمنى الموت لابنتها الوحيدة (التى كانت إذ ذاك فى السابعة عشرة من عمرها)، وقد تسنى لها بمعونتنا أن تعرف أن هذه الرغبة كانت تساورها بالفعل فى عهد مضى، فقد كانت هذه الابنة ثمرة زواج غير سعيد، لم يلبث أن انفصمت عراه، وحدث ذات يوم ـ وهى ماتزال تحمل ابنتها جنيناً ـ أن استثارت غيظاً من زوجها لأمر ما، فأخذت تضرب أحشاءها بجمع يديها حتى تقتل الجنين الذى تحمله، وكأى من أم تحب أطفالها وتحنو عليهم، بل وتحنو عليهم فى عطف مسرف، قد حملتهم كرهاً وكانت تود ألا ترى أعينهم نور الحياة! وكم من أحالت هذه الرغبة ونحت بها مناحٍ أخرى لاتنطوى لحسن الطالع على ضرر! فنحن إذا تمنينا الموت لأشخاص أعزاء علينا، فإن هذه الأمنية التى تبدو غريبة مربكة، ترجع إلى لأيام الأولى لعلاقاتنا بهم.

وكم من أب نؤول له حلمًا، فيسفر عن رغبة فى موت طفله الأكبر الأثير لديه، ثم يضطر إلى أن يعترف آخر الأمر بأن تلك الرغبة لم تكن غريبة عنه فى يوم مضى، كأن كان زواجه مما أخلف ظنه، فكثيرا ما كان يرى فى موت طفله ـ وهو لايزال فى المهد ـ خلاصًا مما هو فيه واسترداداً لحرية يريد أن ينعم بها خيراً مما يفعل، إن عدداً كبيراً من حالات الكراهية يمكن أن تُرد إلى أصل شبيه بهذا: فما هى إلا ذكريات لأحداث وقعت فى الماضى، ولخبرات كانت شعورية من قبل، وقامت بدورها فى الحياة النفسية للفرد. وربما تميلون إلى أن تستنتجوا من هذا أن أمثال هذه الأحلام وتلك الرغبات لايمكن أن تستثار إن بدأت الصلة بين اثنين بالمودة وظلت على ذلك كيوم بدأت، فأسلم معكم بهذا، على أن أحذركم من أن تقفوا عند المغزى الحرفى والصيغة اللفظية للحلم، فلا تنظروا فيما يدل عليه بعد تأويله. فقد لايعدو موت

الشخص العزيز أن يكون قناعًا مروعًا تنكّر به الحلم الظاهر، فى حين أنه يعنى فى الواقع شيئاً آخر يختلف عن كل هذا الاختلاف.

على أن هذا الموقف بعينه يستثير فى أذهانكم سؤالا آخر أشد خطورة من سابقه. ستقولون: «إننا وإن سلّمنا بأن الرغبة في الموت كانت توجد بالفعل فى عهد مضى - وهذا ما تؤيده الذكرى المستثارة - فأى شيء يفسره لنا هذا ؟ لقد غلبت الرغبة على أمرها منذ زمن طويل، ولايمكن أن توجد اليوم فى اللاشعور إلا كذكرى عطلٍ من أية مسحة وجدانية، فهى ليست إذاً عاملا محركًا قوياً. وليس ثمة فى الواقع ما يبرهن على وجود مثل هذا العامل المحرك، إذاً لم تستثار هذه الرغبة فى الأحلام بأية حال؟» - لا ريب أنكم على حق فى هذا التساؤل، ولو أننا حاولنا الإجابة عنه، لباعد بيننا وبين ما نحن فيه بعداً كبيراً ، ولاضطررنا إلى أن نحدد موقفنا بصدد نقطة من أهم النقاط فى نظرية الأحلام، غير أنى مكره على أن أظل فى نطاق ما نعرضه وما نناقشه، وأن أمسك عن متابعة هذه المسألة، فأرجو أن توافقونى على تركها إلى حين، ولنقنع بما قدمنا من دليل على أن هذه الرغبة المغلوبة تقوم بدور المثير للحلم، ولنمض فى بحثنا لنرى هل ثمة رغبات خبيثة أخرى، يمكن أن تستقصى أصولها أيضًا إلى ماضى الفرد.

لو أننا مضينا فى فحص الرغبة فى موت الغير، لظهر لنا، على التحقيق، أنها تشتق فى الأغلب من الأنانية غير المحدودة لصاحبها الحلم، ولم يشق علينا أن نبين أنها من الرغبات التى تستثير الأحلام فى الكثير الغالب من الأحيان، فكلما اعترض طريقنا فى الحياة شخص ما - وما أكثر هذا حين تكون الصلات بين الناس على هذه الدرجة التى تعهدها من التشابك والتعقيد ! - أُعدّت العدة على الفور لاستثارة حلم يستبعد هذا الشخص ويزيله، حتى إن كان الأب أو الأم، الأخ أو الأخت، الزوج أو الزوجة، لقد أذهلنا أن تنطوى الطبيعة البشرية على مثل هذا الشر.

ولم نكن لنسلم قطعا بصحة هذه النتيجة، من نتائج تأويل الأحلام دون تحفظ، ودون مزيد من الأدلة والبينات، غير أننا حين رأينا أن أمثال هذه الرغبات يجب أن نلتمس أصولها من الماضى، ألفينا أنفسنا بصدد مرحلة فى ماضى الفرد ، لانستغرب فيها مثل هذه الأنانية وتلك الرغبات، حتى إن كانت موجهة إلى أعز الناس على الفرد وأقربهم إليه؛ فالطفل فى سنواته الأولى (التى يطويها النسيان فيما بعد) هو، على وجه

التحديد، ذلك الفرد الذى تتضح لديه غالباً مثل هذه الأنانية فى أجرأ صورها، والذى تبدو له أبدا نزعات من هذا النوع، أو آثار باقية منها على الأصل. ذلك أن الطفل يحب نفسه قبل كل شىء، ولا يتعلم أن يحب غيره، وأن يضحى من أجله بشىء مننفسه إلا فيما بعد. ولئن بدا أنه يحب شخصاً من أول الأمر، فهو لا يحبهم ، فى المقام الأول إلا لأنه فى حاجة إليهم فلايمكن أن يستغنى عنهم ـ أى بدافع من الأنانية كذلك، ثم لا يسلخ الحب لديه عن الأنانية إلا بعد ذلك: وإنها لحقيقة حرفية تلك التى تقول إن **الأنانية هى التى تعلم الطفل كيف يحب.**

ومما يزيدنا علماً بهذه الناحية التى نقارن بين موقف الطفل من إخوته وأخواته وبين موقفه من أبويه، فالطفل الصغير لا يحب إخوته وأخواته بضرورة الحال. وأغلب الأمر أنه يفصح عن موقفه هذا فى صراحة ووضوح، ولا مراء فى أنه يراهم منافسين لهم فيكرههم، وكثيراً ما يظل على اتجاهه العدائى منهم، حتى يصل إلى سن النضج أو ما بعد ذلك، كما هو مشاهد معروف، وقد يتغير هذا الاتجاه النفسى، بطبيعة الحال، فيحل محله فى الغالب اتجاه أكثر مودة ورفقاً، ويخفيه، ومهما يكن من أمر فالاتجاه العدائى أقدم الاتجاهين بوجه عام.

ومن اليسير أن نلحظ هذا الاتجاه عند الأطفال بين الثانية والنصف وبين الرابعة من العمر، حين تستقبل الأميرة مولوداً جديداً، فالوليد فى هذا الحال لا يستقبل عادة بمظاهر الود والترحيب، بل بعبارت واحتجاجات منها «أنا لا أحبه»، «وليذهب من حيث أتى!» ثم تنتهز كل فرصة بعد ذلك للغض من هذا الضيف البغيض والحط من شأنه، هذا إلى محاولات متكررة لإيذائه والاعتداء عليه بالفعل، فإذا كان فرق ما بينهما فى السن دون ذلك، وجد الطفل نفسه ـ حين يشتد نشاطه النفسى بعض الشىء ـ إزاء منافس له، وشرع يكيف نفسه للموقف، أما إذا كان الفارق فى السن أكبر من هذا، فقد يثير الوليد فيمن سبقه شعوراً بالعطف والرفق، لأنه يبدو إذ ذاك شيئا طريفاً كما لو كان دمية حية، فإن كان الفارق ثمانى سنين أو جاوزها ترفق الطفل ـ خاصة إن كان بنتاً ـ بالوليد، وحلت عليه تحميه وتذود عنه كما تفعل الأم بطفلها، بيد أننا إذا أمطنا اللثام عن رغبة فى موت الأخ أو الأخت وراء حلم من الأحلام، فليس لنا، فى الحق، أن نذهل لهذه اللقيا. ذلك أننا نجد أصل هذه الرغبة دون عناء كبير فى الطفولة المبكرة، أو نجده غالبًا فى السنوات التالية لهذه المرحلة، يوم كان هؤلاء الأفراد لايزالون يعيشون معاً.

ثم انظروا إلى الحجرات التى يرتع فيها الأطفال ويلعبون، فأكبر الظن ألا تجدوا حجرة واحدة منها لا تكون مسرحا لألوان عنيفة من الصراع، يستثيرها التنافس على الاستئثار بحب الأبوين، والتزاحم على استحواذ الأشياء، بل والتنازع على الأمكنة فيها. فى هذا الصراع، يوجه العدوان إلى الكبار من الإخوة والأخوات، وإلى الصغار منهم سواء بسواء. ولقد قال برنارد شو فيما أعتقد: «لو كان هناك أحد تكرهه الشابة الإنجليزية أكثر من أمها، فمن المحقق أن تكون أختها الأكبر منها». لكن ألا ترون فى هذا القول شيئا ترتاعون له: فنحن لانكاد نتصور أن تقوم العداوة والخصام بين الإخوة والأخوات، فكيف لعواطف الكراهية أن تجد سبيلا إلى الصلات بين الأم وابنتها، وبين الآباء وأطفالهم؟.

ليس من شك فى أن الأطفال أنفسهم يبدون لآبائهم من الود والتلطف أكثر مما يبدون لإخوتهم أو أخواتهم، وهذا يتماشى مع ما ننتظر ونتوقع: فنحن ننظر إلى فقدان الحب بين الآباء والأطفال على أنه ظاهرة تتنافى مع طبيعة الأشياء، وتزيد إغرابا عما يقوم بين الإخوة والأخوات من جفاء، وكأننا بهذا نسمو بالحب، فى الحالة الأولى، فنجعله حباً طهوراً، فى حين لانرى بأساً أن يكتنفه الرجس فى الحالة الثانية، إن جاز التعبير.

وعلى هذا فالمشاهدات اليومية ترينا كيف تقصر الصلات العاطفية بين الآباء وأطفالهم الكبار، فى كثير من الأحيان، عن بلوغ المثل الأعلى الذى يرتضيه المجتمع، وإلى أى حد تكمن العداوة فى الصدور، تريد أن تنفجر إن لم يكظمها اعتبارات يفرضها الواجب على أولئك وهؤلاء، أو دوافع أخرى رفيقة سمحة، أما الحوافز على هذا العداء فنعرفها حق المعرفة: فثمة نزعة تعمل على التباعد والتنافر بين أفراد الشق[1] الواحد من الأسرة نفسها ـ بين الأم وابنتها وبين الأب وابنه، فالبنت فى أمها سلطة تحد من إرادتها، وتلجم حريتها الجنسية ألا تحيد عما يتطلب المجتمع، هذا إلى حالات خاصة يقوم فيها تنافس فعلى وتزاحم بين الأم وابنتها، والأمر بالمثل بين الأب وابنه، وإن كان الصراع فى هذه الحالة أكثر جلبة واصطخاباً منه فى الحالة الأولى. فالابن يرى القسر الاجتماعى مجسماً فى شخص أبيه، وهو قسر يحتمله ويمتثل له

(١) Sex: لقد أجزنا لأنفسنا أن نترجم هذه الكلمة بكلمة «جنس» التى يقابلها Genus بالفرنجية، مع أن ترجمته بالشق أقرب وأدق وأبعد عن اللبس ـ عملا بقاعدة «الخطأ المشهور أولى من الصحيح المهجور» «المترجم».

على كره منه، كما يرى فى أبيه قيداً يغل إرادته، وسداً يحول بينه وبين إرضاء لذاته الجنسية، فإن كان ثمة ميزات، ففى وسع الأب أن يحرمه من التمتع به، وإن كان الأب صاحب عرش يتطلع إليه الابن، بلغت الرغبة فى موت الأب ذروتها القصوى، أما الصلة بين الأب وابنته، أو بين الأم وابنها، فيبدو أنها أبعد من أن تعسف بها هذه الألوان من الصراع ، ويلوح أنه أنقى مثال للمودة الثابتة غير المتقلبة لايكدر صفوها أى اعتبار أنانى.

ورب قائل يقول: وفيم تحدثنا عن هذه المعهودات، التى يعرفها كل واحد منا حق المعرفة؟ ذلك أن أذهان الناس تنطوى على نزعة قوية إلى إنكار دلالة هذه المعهودات وأهميتها فى الحياة الواقعية، وإلى الظن بأن الناس تتبع المثل الأعلى الاجتماعى، وتمتثل له أبداً، وفى كل الأحوال، وخليق بعلم التنافس أن يقول الحق، فهذا أولى به من أن يترك الأمر للأدعياء من الكلبيين[1] المستهترين، ومع هذا يجدر بنا أن نذكر أن ذلك الإنكار الذى نشير إليه، لاينسحب إلا على الحياة الواقعية وحدها، أما القصص الخيالى وروايات المآسى.. ففى حل من أن تستغل الدوافع التى يماط عنها اللثام والمواقف التى يزال عنها الستار، حين تنهك حرمة هذه المثل العليا.

فلا عجب إذاً أن تكشف الأحلام، عند كثير من الناس، عن رغبة فى استبعاد الوالدين، لاسيما الأب من ابنه، والأم من ابنتها، ويجوز لنا أن نفترض وجود هذه الرغبة فى حياتنا اليقظة أيضًا، وأنها قد تصبح رغبة شعورية أحيانا، إن هى استطاعت أن تلبس قناع دافع آخر، كما استطاع صاحب الحلم فى المثال الثالث من الأمثلة السالفة أن يلبس رغبته فى موت أبيه لبوس الإشفاق عليه من مرض لا حيلة فيه.

ويندر أن تظهر العداوة وحدها على الموقف بأسره، بل يتغلب أن تستتر وراء عواطف من المحبة والود تكظم هذه العداوة وتقمعها، فيقضى عليها، أوتظل متربصة فى الأسر حتى يأتى حلم فيفصلها ويعزلها فَردى، وأن ما يبدو فى الحلم مهولا مبالغاً

---

(١) Cynics : الكلبيون أصلا، مدرسة من فلاسفة اليونان أسسها أنتستانس الأثينى من تلاميذ سقراط، وقد جاءها هذا الاسم، من احتقارها لكل القيم والمواضعات الاجتماعية، ومن حياة أنصارها الشاردة وتحرشهم بالمارة يسخرون منهم ويهزؤون بهم، مما يشابه بينهم وبين الكلاب، ثم أطلق هذا الاسم على من يكسر القيم المعترف بها جميعاً . «المترجم».

فيه من جراء هذا العزل، لايلبث أن يتضاءل فيتخذ سمته الحقيقى، بعد أن يضعه التأويل فى موضعه الصحيح من جملة حياة الحالم (هـ. ساكس H. Sachs) . على أننا نلتقى بهذه الرغبة فى الموت حتى فى حالات لايكون لها فيها أساس من الحياة الواقعية، وفى أخرى لا يعترف فيها الراشد الكبير إطلاقا بأن نفسه تنطوى على مثل هذه الرغبة فى حالة اليقظة، والسبب فى هذا أن أعمق الدوافع إلى العداوة وأكثرها شيوعًا ـ لا سيما تلك التى تقوم بين أشخاص من شق واحد ـ تترسخ فى النفس إبان السنوات الأولى من الطفولة.

ليست تلك الدوافع غير التنافس العاطفى المصطبغ بصبغة جنسية[١] صريحة، فالابن يبدأ ـ وهو ما يزال طفلا صغيراً ـ بأن يشعر بنوع فذ من المودة نحو أمه التى يعتبرها متاعًا خاصاً بها ويرى فى أبيه خصماً ينازعه امتلاك هذا المتاع الوحيد له، كذلك ترى البنت الصغيرة فى أمها شخصاً يكدر صفو صلاتها الحبيبة بأبيها، ويشغل مكاناً تشعر البنت أنها تستطيع أن تشغله نفسها على خير وجه، أما موقف الابن فيستثير فى نفسه رغبتين فى آن واحد: رغبة فى استبعاد الأب وأخرى فى الاستئثار بالأم، وقد دلتنا المشاهدات على العهد الذى ينشأ إبانه هذا الاتجاه النفسى المزدوج، وهو ما نسميه عقدة أوديب. ففى أسطورة أوديب تتحقق الرغبتان ينطوى عليهما موقف الابن، بصورة صارخة، هى قتل الأب والزواج من الأم[٢]. ولست أؤكد لكم أن عقدة أوديب تستنفد كل الصلات التى يمكن أن تقوم بين الآباء وأطفالهم، فقد تكون

---

(١) نود أن نشير مرة أخرى إلى أن فرويد وأصحابه قد توسعوا فى مفهوم الجنسية فلم يروها على أنها حياة الفرد بعد البلوغ، بل إنها نشاطها ليبدو عنه الرضيع منذ أول عهده بالحياة، بيد أن «الجنسية الطفلية» تختلف عن الجنسية عند الراشد الكبير فى مظاهرها ومثيراتها، فاللذة الجنسية عند الطفل تنشأ من تنشيط بعض مناطق الجلد (التى يسمونها بالمناطق المشهوية) ومن نشاط بعض الوظائف البيولوجية (التغذية والإخراج)، ومن الاهتياج المصاحب لبعض الحالات الوجدانية التى تدور على علاقات الطفل بأبويه وأفراد أسرته الأقربين، وبهذا المعنى يصح أن نقول إن الطفل يقاسى حرماناً جنسيًا إن أهمله أبواه أو أساء إليه أحد ممن ينتظر منهم العطف والرفق. «المترجم».

(٢) فى أساطير الإغريق أن أوديب كان طفلا لملك من الملوك، فأخبره أحد المنجمين أنه سيموت على يد ابنه هذا، فأمر الملك أحد الرعاة أن يأخذ أوديب فيذره على جبل حتى يموت، بيد أن الراعى قد تلطف بالطفل فأهداه إلى يوليبوس ملك كورنثوس وكان محروماً من النسل، فلما بلغ الحلم أخبره بعض العرافين أنه سيقتل أباه وسيتزوج أمه، فعزم أوديب على ألا يعود إلى أبيه ـ

هذه الصلات أكثر تعقيداً من ذلك بكثير، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قد تختلف هذه العقدة قوة وضعفاً، بل قد ترتكس أحياناً، لكنها تكون أبداً، عاملا ذا خطر كبير فى الحياة النفسية للطفل. والذى أخشاه هو أن نكون أدنى إلى الاستهانة بها والغض من شأنها، من أن نغلو فى تقدير أثرها وأثر النتائج التى تنجم عنها، يضاف إلى هذا أن الآباء أنفسهم كثيراً ما يستفزون هذه العقدة ويؤرثونها فى نفوس أطفالهم، وذلك لما جِبل على كل شق منهم، من إيثار الشق الآخر من الأطفال فترى الأب يؤثر ابنته ويحبوها، وترى الأم تؤثر ابنها وتفضله، فإن فتر الحب الزوجى بين الأبوين، قد يتخذ بديلا عن موضوع الحب الذى لم تعد له من الفتنة ما كان له من قبل.

لانستطيع أن نقول إن العالمَ قد أثنى على التحليل النفسى جراء كشفه عن عقدة أوديب، بل كان الأمر على عكس هذا، فقد أثار هذا الكشف أعنف مقاومة وأشد اعتراض، فأما من تخلف من القوم عن إنكار هذه العواطف المحرمة الرجيمة التى تواضع الناس إطلاقا على تحريمها، فقد كفروا عن خطيئتهم تلك بأن يأخذوا يؤولون هذه العقدة تأويل كل قيمته، ويقينى الذى لايتزعزع أن ليس فى هذه العقدة شىء ينكر أو شىء يتعين صقله وتمويهه، وخليق بنا ألا نغمض أعيننا عن تلك الواقعة التى جهرت بها الأسطورة اليونانية، إذ رأت فيها قدراً مشاعًا بين الناس، ومن الطريف أن نذكر أن عقدة أوديب التى أريد بها أن تُستبعد من الحياة الواقعية إلى عالم الخرافة والخيال، قد وجدت فى هذا العالم ما يثبت أقدامها ويرفع من قواعدها، فقد بيّن أ. رانك O. Rank، فى دراسة دقيقة له عن هذا الموضوع، كيف أن هذه العقدة بعينها حبت الشعر الروائى يفيض من الدوافع والموضوعات، عالجها بأن تناولها بضروب شتى من التحوير والتغيير والتنكير، أى بألوان من التحريف تشبه، على وجه التحديد تلك التى تنجم عن الرقابة فى الأحلام، من أجل هذا، تقع على هذه العقدة حتى عند

= الذى تبناه، ثم أخذ يضرب فى الأرض، حتى اتفق له أن يلتقى بأبيه الحقيقى، وكان قد خرج للصيد. ولأمر ما تنازعا - ولم يكن أحدهما يعرف الآخر - فقتل أوديب أباه. ثم مضى حتى بلغ مدينة أبيه، فكافأوه على ذلك بأن زوجوه زوجة ملكتهم الأرمل - وهى أمه - دون أن يعلم أحدهما علاقتها الآخر، فعاشرها وأنجب منها بنتا، فلما علم بحقيقة الأمر، فقأ عينيه ، وشنقت أمه نفسها - تلك خلاصة الأسطورة التى استعار فرويد اسمها للإشارة إلى أخطر عقدة نفسية يخبرها الفرد، والتى لابد أن يكابدها كل طفل من الأطفال، وعلى حل هذه العقدة يتوقف المصير النفسى للفرد.. «المترجم».

أولئك الحالمين الذين أسعدهم الحظ، فجانبهم الصراع مع آبائهم فيما بعد مرحلة الطفولة، ونود أن نشير إلى أن هذه العقدة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقدة أخرى نسميها **عقدة الخصاء**[١] هى رد فعل للتخويف أو للتقييد «الذى يفرضه الأب على النشاط الجنسى للابن فى الطفولة المبكرة.

إن ما قررناه فى بحثنا السابق، قد هدانا إلى دراسة الحياة النفسية للطفل، ونأمل الآن أن نجد، بالطريقة عينها، تفسيراً لمصدر الفئة الأخرى من الرغبات المحظورة التى تتجلى فى الأحلام، أى الرغبات الجنسية الجامحة، ومن هنا يتعين علينا أن ندرس تطور الحياة الجنسية عند الطفل. إن المصادر المختلفة تزودنا بحقائق شتى عن هذا الموضوع، نلخصها فيما يأتى: من المغالطات التى لايمكن تأييدها أو الدفاع عنها أن ننكر وجود حياة جنسية عند الطفل، وأن نفترض أن الجنسية لاتبزغ إلا إذا أدرك الطفل الحلم، ونضجت أعضاؤه التناسلية، بل الأمر على عكس هذا. فالطفل منذ ولادته حياة جنسية حافلة، وإن كانت تختلف من نواح عدة عن الحياة الجنسية التى تليها والتى تعتبر طبيعية سوية، وإن من نسميهم **المنحرفين جنسيا**[٢] ـ فى عهد الكبر ـ هم الذين يحيدون عن الأسوياء فى النواحى الآتية:

(١) فى إغضائهم وعدم اكتراثهم بالحواجز التى تفصل الجنس البشرى عن مملكة الحيوان.

(٢) فى عدم حساسيتهم للحدود التى يقيمها الشعور بالاشمئزاز والتقزز.

(٣) فى تخطى سياج المحارم[٣] (أى ذلك القيد الذى يحرم التماس الإشباع الجنسى مع القربى ذوى الصلة الدموية بالفرد).

(٤) فى تورطهم فى الجنسية المثلية[٤].

---

(١) Castratio Complex : إن الكراهية التى يحتضنها الطفل (الذكر) لأبيه فى الموقف الأوديبى، ورغبته فى إزالة والده واستبعاده على أى نحو كان، من شأنها أن تزود من خشية الطفل من أبيه، ولما كانت مدرسة التحليل النفسى ترى أن اهتمام الطفل الجنسى يكون مركزاً فى قضيبه فى المهد، فإن الخوف من الأب يتخذ ـ عند الطفل ـ صورة الخوف من بتر القضيب، أى من الخصاء «المترجم».

2. Perverts.

3. Incest-barrier.

4. Homosexuality.

(٥) فى تحويل الإشباع الجنسى من الأعضاء التناسلية إلى أعضاء أخرى ومناطق مختلفة من الجسم

إن هذه الحواجز جميعها لاتوجد، من أول الأمر، بل تقام تدريجاً خلال عملية النمو والتربية، فالطفل الصغير لاعهد له بها؛ إذ إنه لايفطن إلى وجود هوة سحيقة بين الإنسان والحيوان، ولا يزهو بتلك الكبرياء التى يميز بها الإنسان نفسه عن الحيوانات الأخرى، إلا فيما بعد. كما أنه لايبدى فى مطلع حياته أى نفور واشمئزاز، ثم إنه لايعلق أهمية خاصة على ما بين الجنسين من فارق، بل إنه ظن، فى الواقع ، أن تكوين الأعضاء التناسلية واحد عند كليهما، يضاف إلى هذا أنه يوجه رغباته الجنسية الأولى واستطلاعه المبكر إلى أقرب الناس إليه، أو إلى الذين يحبهم حباً خاصاً لأسباب أخرى: كأبويه وإخوته وأخواته، أو إلى من ترضعه وترعاه.

وأخيرا تبدو لديه ظاهرة تفصح عن نفسها، مرة أخرى فى ذروة صلاته الحبية - تلك أنه لايلتمس الإشباع عند أعضائه التناسلية وحدها، بل يكتشف أن هناك مناطق أخرى كثيرة من جسمه لها نفس الحساسية، وأن فى وسعه أن يظفر منها بنفس الإحساسات اللذيذة، ومن ثم تستطيع أن تقوم بدور الأعضاء لتناسلية. وهكذا يبدو الطفل وقد تفصّحت لديه مظاهر **الانحراف الجنسى المتعدد الأشكال**[1]، ولئن لم تبد لديه هذه النزعات كلها إلا فى صورة بقايا وآثار فهذا يرجع، من جهة، إلى أن شدتها لديه أقل منها عند الراشد الناضج، وإلى أن التربية لاتلبث من فورها أن تقمع كل مظهر للنشاط الجنسى عنده فى شدة وعنف من جهة أخرى.

ولقد تحول هذا القمع من الناحية العملية حتى بدا كأنه نظرية من النظريات، فالكبار الراشدون يعملون على التغاضى عن بعض هذه المظاهر، وعلى أن يجردوا بعضها الآخر من طبيعته الجنسية بناء على تأويل خاطئ لها، حتى انتهى بهم الأمر أخيراً إلى إنكار هذه جميعًا، وهؤلاء الجاحدون أنفسهم هم الذين يبدأون، فى أغلب الأحوال، بالتنديد والقدح فى العبث، الجنسى عند الأطفال لهؤلاء فى دور الحضارة. ثم يجلسون بعد هذا إلى مكاتبهم ليدافعوا عن الطُهر الجنسى لهؤلاء الأطفال أنفسهم، إن الأطفال إن تركوا على سجيتهم أو إن أغراهم مغرٍ على الغواية والفساد، بدت لديهم على الأغلب مظاهر الانحراف الجنسى إلى حد يستعرى الانتباه حقًا، وليس من شك

1. Polymorphous perversion

فى أن الكبار على حق؛ إذ لاينظرون إلى هذا الأمر نظرة جدية أكثر مما ينبغى، وإذ يعتبرونه على حد قولهم «عبثا صبيانيا» و«لعبا». فالطفل لايمكن أن يسأل عن هذه الأفعال أمام محكمة القانون أو محكمة العرف والأخلاق كما لو كان راشداً مسئولا.

على أن هذا كله لا ينفى وجود هذه الأشياء فعلا، ولا ينفى ما لها من دلالة وأهمية من حيث هى أمارات على نزعات فطرية مجبولة، ومن حيث هى عوامل وأسباب تعين على توجيه التطورات الجنسية التالية هذا إلى أنها تبصرنا بالحياة الجنسية عند الطفل، وكذلك بالحياة الجنسية عند الإنسان بوجه عام، وعلى هذا فلئن كشفنا عن هذه الرغبات المحرفة جميعها وراء أحلامنا المحرّفة، لم يعن ذلك أكثر من أن الأحلام، فى هذه الناحية أيضًا، قد تراجعت ونكصت نكوصًا تاما إلى حالة الطفولة.

من بين تلك الرغبات الحُرُم، واحدة تستحق التنويه والتوكيد بوجه خاص هى «اشتهاء المحارم» أى الرغبة الموجهة إلى الاتصال الجنسى بالأبوين أو الإخوة والأخوات، تعرفون إلى أى حد يستبشع المجتمع الإنسانى مضاجعة المحارم، أو يعلن استنكارها ومقتها على الأقل، وإلى أى حد يؤكد حظرها وتحريمها، وقد بذل الباحثون جهوداً جبارة لتفسير الذعر من مضاجعة المحارم: فذهب بعضهم إلى أنه تحرّز من الطبيعة يستهدف حفظ النوع الإنسانى، فيتخذ سبيله إلى نفوس الناس على هذا النحو من التحريم، ذلك أن الزواج بالقربى يؤدى إلى انتكاس السلالة وانحلالها، ورأى آخرون أن التجاور فى المعيشة منذ الطفولة المبكرة يصد الرغبات الجنسية عن الأشخاص الذين يتصل بهم الفرد اتصالا دائمًا، غير أن لو صح هذا الرأى أو ذاك، لامتنع اشتهاء المحارم من تلقاء نفسه، دون أن تكون ثم حاجة إلى الالتجاء إلى هذه الضروب الصارمة من الحظر والتحريم، التى هى خليقة أن تشير إلى رغبة عارمة فارضة، وقد بينت بحوث التحليل النفسى، على وجه لا يرقى إليه الشك، أن هذا الحب المحرم هو فى الواقع أول ألوان الحب ظهوراً، وكل نفس ذائقته، وأنه لا يرتطم بأية مقاومة إلا فيما بعد، أما أسبابه فليست من شأن علم النفس المختص بدراسته الفرد.

لنلخص الآن ما ظفرنا به من نتائج، من دراستنا سيكولوجية الطفل، لنرى كيف تعيننا على فهم الأحلام، لقد وجدنا أن الحلم قادر على أن يتناول المواد التى تتكون منها خبرات الطفولة المنسية، كما عرفنا فوق ذلك أن الحياة النفسية للطفل، بما فيها من خصائص غريبة وأنانية ونزعات لاشتهاء المحارم وغيرها، تبقى فى اللاشعور

لتتكشف فى الحلم، هذا إلى أن أحلامنا تعود بنا فى كل ليلة إلى عهد الطفولة، وفى هذا ما يؤيد اعتقادنا بأن **اللاشعور فى الحياة النفسية هو طور الطفولة من هذه الحياة**، ولعل فى هذا ما يخفف عنا، إلى حد ما، ذلك الأثر الأليم الذى أحدثه فى نفوسنا أن تنطوى طبيعة البشر على هذا القدر الكبير من الشر والرجس، ذلك أن هذا الشر المروع لايعدو أن يكون العناصر الأصيلة البدائية الطفلية فى الحياة النفسية، وهى عناصر نجدها ناشطة عند الطفل، لكنا نغض النظر عنها لأنها تجرى فى نطاق ضيق من جهة، ولأننا لا ننظر إليها نظرة جدية من جهة أخرى، فنحن لا نتطلب من الطفل أن يكون على مستوى خلقى رفيع. فالأحلام تلوح لنا ـ إذ تتراجع بنا إلى هذه المرحلة الطفلية ـ أنها تكشف أن شر ما فى طبيعتنا، لكن هذا ليس إلا مظهرا خدّاعا لا يحق لنا أن نبخع أنفسنا من أجله، فنحن لسنا كلنا أشراراً بالقدر الذى قد يبدو لنا من تأويل أحلامنا.

وإذا كانت النزعات الأثيمة التى تبدو فى أحلامنا لا تعدو أن تكون مخلفات طفلية، ومظهر لرجعة إلى أوائل نمونا الخلقى ـ إذ يردنا الحلم أطفالا فى العاطفة وفى التفكير فليس ثمة سبب معقول يحملنا على أن نستخزى من هذه الأحلام الآثمة، لكن التفكير المعقول ليس إلا شطراً واحداً فقط من حياتنا النفسية التى تنطوى، إلى جانبه، على كثير مما لا يصح فى الأذهان، وهذا هو السبب فى أننا نشعر بالخجل من هذه الأحلام، فنحن نخضعها للرقابة، ونستحى بل ونحنق ساخطين إن شذت إحدى هذه الرغبات المحظورة، فاقتحمت منطقة الشعور فى صورة لم يحكم تنكرها وتمويهها، بما يؤدى إلى سهولة تعرفها، بل قد يحدث أحياناً أن يصيبنا الخجل من حلم محرّف، كما لو كنا نفهمه حقاً، وحسبنا أن نشير إلى ذلك التعليق الساخط الذى أصدرته تلك العجوز الوقور بصدد حلمها عن «إدارة شئون الحب»، على الرغم من أنه لم يؤول لها، من أجل هذا لايتسنى لنا أن نعتبر هذه المشكلة قد حلت، على أنه من الممكن إن مضينا فى دراسة عناصر الشر فى الأحلام، أن نظفر بنتيجة أخرى أو بتقدير آخر للطبيعة البشرية.

إن بحثنا هذا بأسره قد أسلمنا إلى نتيجتين لاتخرجان، فى الواقع، عن أن تكونا فاتحة لمشكلات جديدة وشكوك جديدة، الأولى: أن النكوص فى الأحلام ليس نكوصاً شكليا فحسب، بل نكوص مادى كذلك، فهو لايقف عند ترجمة أفكارنا إلى أسلوب بدائى من التعبير، بل يستثير، إلى هذا، خصائص حياتنا النفسية البدائية: السلطان

القديم للأنا، والدفعات الأولى لحياتنا الجنسية بل إنه يرد إلينا تراثنا العقلى القديم - إن اعتبرنا الرمزية من هذا التراث، الثانية: أن كل هذه الخصائص الطفلية القديمة التى كانت غالبة سائدة فى يوم من الأيام، والتى كانت سائدة وحدها ليس غير، لامناص من أن ننسبها اليوم إلى اللاشعور، وفى هذا ما يحور نظرتنا إليه ويفسح فيها. فلم يعد «اللاشعورى» اصطلاحا يطلق على الشىء الكامن بصورة مؤقتة: بل أصبح اللاشعور مجالا نفسياً خاصاً، له رغباته الخاصة، وأساليبه الخاصة فى التعبير، وحيله النفسية الخاصة التى لا تنشط فى مجال آخر غيره، على أن الأفكار الكامنة للحلم التى يكشف عنها التأويل، لاتنتمى إلى هذا المجال؛ إذ قد تعرض لنا هذه الأفكار عينها ونحن إيقاظ كذلك. ومع هذا فهى أفكار لاشعورية: كيف السبيل إذاً إلى حل هذا التناقض الظاهرى؟

هنا نشعر لامندوحة عن إقامة نوع من التفرقة والتمييز : فثمة شىء يصدر عن حياتنا الشعورية ويشاطرها خصلتصها - ولنسمه «بقايا» اليوم السابق وآثاره. هذا الشىء يلتقى بآخر مما ينتمى إلى مجال اللاشعور، فيصاغ الحلم من هذا التلاقى، أما إخراج الحلم فينجز ويتم بين هاتين المجموعتين من العناصر، ومن المرجح أن يكون تأثير اللاشعور فى بقايا اليوم السابق هو شرط النكوص، هذه أعمق فكرة نستطيع أن نكونها الآن عن طبيعة الأحلام إلى أن يتاح لنا أن نرتاد ميادين أخرى فى الحياة النفسية. وأعتقد أن الظرف موات أو يكاد، لنطلق اسما آخر على تلك الصفة اللاشعورية للأفكار الكامنة للحلم، حتى نميز بينها وبين العناصر اللاشعورية التى ترجع بأصولها إلى عهد الطفولة.

ونستطيع بطبيعة الحال أن نتساءل أيضاً عم يرغم نشاطنا النفسى أثناء النوم على هذا النكوص، وعم يمنعه من معالجة المنبهات النفسية التى تقلق النوم بطريقة أخرى غير النكوص. ولئن كان يتعين على النشاط النفسى أن يتنكر بسبب الرقابة فى صورة عتيقة من صور التعبير، يستغلق علينا فهمها اليوم، فعلام تستثار النزعات القديمة والرغبات والسمات التى مضى موسمها منذ عهد طويل؟ وبعبارة أخرى، ما الحكمة فى أن يكون هناك نكوص مادى إلى جانب النكوص الشكلى؟ والرد المقنع الوحيد على هذا، أن تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن يصاغ بها الحلم، فلو نظرنا إلى الموضوع، من ناحية ديناميكية، فمن المحال أن نتخلص من المنبه الذى يستثير الحلم بغير هذه الطريقة، على أنه ردّ لا تستطيع معلوماتنا الحاضرة عن الموضوع أن تبرره.

المحاضرة الرابعة عشرة

تحقيق الرغبات

هل لى أن أذكركم مرة أخرى بالخطوات التى اجتزناها حتى وصلنا إلى موقفنا الحاضر؟ لقد طبقنا خطتنا فى التأويل، فعرض لنا موضوع تحريف الأحلام، ثم انصرفنا عن هذه الناحية مؤقتًا، واتجهنا إلى دراسة أحلام الطفولة نلتمس فيها معلومات محددة عن طبيعة الأحلام بوجه عام، بعد هذا ، عالجنا تحريف الأحلام بصورة مباشرة مستعينين بالنتائج التى ظفرنا بها من ذلك البحث. وأرجو إن نكون قد ظهرنا كذلك على الصعوبات التى اعترضتنا فى هذه الناحية واحدة بعد واحدة، وحتّم علينا الآن أن نسلم بأن النتائج التى وصلنا إليها من اتجاهها الأول، لا تتفق كل الاتفاق مع النتائج التى خرجنا بها من الاتجاه الثانى. لذا يتعين علينا أن نواجه نتائج هاتين المجموعتين بعضها ببعض، وأن نوائم بين بعضها وبعض.

لقد ظهر لنا من كلتا الناحيتين أن السمة الجوهرية لإخراج الحلم هى تحول الأفكار إلى خبرات وهمية مهتلسة، والحق أن هذا التحول ظاهرة مرْبكة معمّاة، بيد أنها مشكلة من مشكلات علم النفس، فليس لنا أن نشغل أنفسنا بها فى هذا المقام، كما ظهر لنا من أحلام الأطفال أن إخراج الحلم يهدف إلى إزالة منبه نفسى يقلق النوم، وذلك بتحقيق رغبة ما، ولم نستطع أن نصدر مثل هذا الحكم على الأحلام المحرفة إلا بعد أن عرفنا كيف نؤولها، على أننا كنا نتوقع من أول الأمر أن تتماشى آراؤنا عن الأحلام المحرفة مع وجهة نظرنا عن الأحلام الطفلية، وقد صح ما نتوقعه عندما تحققنا، للمرة الأولى، أن الأحلام بأسرها هى فى واقع الأمر أحلام طفلية، وأنها تستخدم مواد طفلية، هذا إلى ما تتسم به من نزعات وعمليات (حيل) مما ينتمى إلى عقلية الطفولة، وبما أننا نعتبر أننا قد حللنا مشكلة تحريف الأحلام، فلابد لنا من أن نمضى فى بحثنا لنرى هلى تنطبق فكرة **تحقيق الرغبات** على الأحلام المحرفة أيضاً.

لقد قمنا قبل بتأويل سلسلة من الأحلام، دون أن نضع مسألة تحقيق الرغبات موضع اعتبار على الإطلاق، وأنا على يقين أنكم ساءلتم أنفسكم أكثر من مرة، ونحن نتكلم عن هذه الأحلام: «أين إذاً تحقيق الرغبات، وهو ما تدّعى أنه الهدف الذى

يرمى إليه إخراج الحلم. وهذا سؤال له أهميته ودلالته، لأن السؤال الذى يوجهه إلينا أبداً من يتصدى لنقدنا من غير ذوى الخبرة بالموضوع. إن الإنسان كما تعلمون، ينفر بطبعه ويصد بفطرته عن البدع الفكرية.. فمن المظاهر التى يتبدى بها هذا النفور أن الناس سرعان ما تتناول البدعة فتلوكها وتجملها فى صيغة موجزة مركزة أو كلمة سائرة، وعلى هذا النحو أصبح «تحقيق الرغبات» مضغة ولواكاً للنظرية الجديدة عن الأحلام، إذ ما لبث عامة الناس أن سمعوا أن الأحلام تحقيق لرغبات، حتى بادروا من فورهم إلى التساؤل: «وأين من هذا تحقيق الرغبات؟». وما كان سؤالهم إلا إنكاراً للفكرة ورفضاً لها. فهم لايعدمون أن يأتوا، على التو، بأحلام لاتحصى رأوها بأنفسهم، وكانت مصحوبة بأحاسيس كدرة متنافرة، حتى لتصل فى بعض الآونة إلى الذعر والشعور بالموت الداهم.

ومن ثَم يلوح لهم أن نظرية التحليل النفسى عن الأحلام بعيدة الاحتمال إلى حد كبير.. على أنه لا يعزُّ علينا أن نجيب عن هذا بأن تحقيق الرغبات فى الأحلام المحرفة لايبدو واضحاً صريحاً، بل يجب استقصاؤه والبحث عنه، وما دام الحلم لم يؤول، فمن المحال أن ينجلى ويبين، هذا إلى أننا نعرف أن الرغبات المضمرة فى الأحلام المحرفة، هى الرغبات التى تحرمها الرقابة وتنبذها، وأن وجود هذه الرغبات هو، على وجه التحديد، ما يدعو إلى التحريف وإلى تدخل الرقابة، بيد أنه من العسير أن تفهم الناقد غير المختص، بأن لامجال للتساؤل عن تحقيق الرغبات أن يؤول الحلم، فهو ينسى هذه الحقيقة أبداً، والحق أن إعراضه عن قبول نظرية تحقيق الرغبات لايعدو أن يكون نتيجة لرقابة الأحلام نفسها، تحمله على أن يستعيض عن أفكاره الحقيقية ببدائل عنها، وتنجم عن إنكاره هذه الرغبات المحظورة المرصودة.

من الطبيعى أن نشعر نحن بحاجة إلى أن نفسر وجود الأحلام الأليمة بهذه الكثرة، وخاصة أحلام الحصر (القلق الشديد)[١]. وهنا نلتقى للمرة الأولى بموضوع «الحالات الوجدانية»[٢] فى الأحلام، وهو موضوع خليق بدراسة خاصة، وإن كنا نأسف ألا تنطوى على انفعالات مؤلمة البتة: وهنا يبدو أن النقاد غير المختصين على حق فيما يعترضون، لكن الموضوع معقد من وجوه ثلاثة، غفل عنها أولئك النقاد:

---

(١) Anxiety dreams هى أحلام الجثام والكابوس، والحصر هو خوف مصحوب بضيق الصدر. «المترجم».

1. Affexts

أولها : قد يحدث أحياناً ألا يوفّق إخراج الحلم توفيقاً تاماً فى خلق تحقيق الرغبة، بحيث إن شطراً من الوجدان المؤلم فى الأفكار الكامنة يتاح له اقتحام الحلم الظاهر، وفى هذه الحالات. وفى هذه الحالات؛ يتعين على التحليل أن يبين لنا أن هذه الأفكار الكامنة أشد إيلامًا من الحلم الظاهر الذى يصاغ منها؛ وأن يبرهن لنا أن هذا هو ما حدث فى كل حالة، فنسلم حينئذ، على أن إخراج الحلم قد أخفق فى الوصول إلى غرضه، كما هو الأمر فى الحلم الذى يستثيره العطش، والذى لايفلح الشرب فيه، فى إطفاء ظمأ النائم؛ فهو يظل عطشاناً ولابد له من أن يصحو وأن يشرب.. فهذا حلم أصيل لم يفقد شيئا من طبيعة الأحلام الأساسية، على الرغم مما حدث بل يحق عليه القول اللاتينى: «لئن قصرت اليد فالقصد أحمد». فالرغبة وإن لم تشبع إلا أن القصد السليم لاغبار عليه..

وأمثال هذه الحالات التى يخفق فيها إخراج الحلم ليست نادرة بحال: ذلك أن إخراج الحلم يجد فى إحداث التغيير المطلوب فى طبيعة الحالة الوجدانية عناءه أشد بكثير مما يلاقيه فى تحوير مضمونها وفكرتها، فالحالات الوجدانية، فى أغلب أمرها، شموس عاتية يستعصى ترويضها وتطويعها ، لذا قد يفلح الإخراج فى تحويل المحتوى المؤلم للأفكار الكامنة إلى رغبة تتحقق، فى حين تلج الحالة الوجدانية المؤلمة، الحلم الظاهر كما هى. ومتى حدث هذا، لم تتسق الحالة الوجدانية مع الحلم الظاهر ولم تأتلف معه، وهذا ما يتيح لنقادنا أن يعترضوا بأن الحلم يبعد أن يكون تحقيق رغبة، بل قد يقترن محتواه الظاهر البرىء بمشاعر أليمة، وردنا على هذا التعليق الأخرق، أن النزعة إلى تحقيق الرغبات تكون أظهر وأوضح ما تكون عليه، فى أمثال هذه الأحلام بعينها، لأنها ترى فى هذه الحالة منعزلة مستقلة، على أن أوجه الخطأ فى هذا النقد يرجع إلى أن من لايعرفون الأمراض النفسية يخالون أن الصلة بينِ المحتوى الظاهر والحالة الوجدانية أوثق بكثير وأقرب مما هى عليه فى الواقع ، ومن ثم لايستطيعون أن يفهموا أن المحتوى قد يتغير ويتحور، فى حين تبقى الحالة الوجدانية التى تصاحبه دون أن يمسها تغيير.

وثمة اعتبار ثان أشد خطورة وأبعد أثراً من الأول، لكنه غاب، هو الآخر عن أذهان غير المختصين من النقاد، ذلك أن تحقيق الرغبة لابد أن يكون مصدراً لشىء من الارتياح والسرور، لكن لمن يتاح هذا السرور؟ لصاحب الرغبة بطبيعة الحال. غير أننا نعرف أن موقف الحالم من رغباته موقف فريد فى نوعه: فهو ينبذها ويقف لها

بالمرصاد ، وعلى الجملة لايريد أن يعرف عنها شيئا، فتحقيق هذه الرغبات إذاً لايمكن أن يتيح له الارتياح والسرور، بل عكس هذا هو الأجدر والأدنى إلى الصواب، وهنا تبين لنا التجربة أن هذا «العكس» يبدو فى صورة حصر وقلق شديد (وهذا مايزال فى حاجة إلى تفسير). فكأن صاحب الحلم يقف من رغباته كما لو كان شخصين مستقلين تربط بينهما رابطة مشتركة وثيقة، وبدل أن أتوسع فى هذه الناحية، سأذكركم بقصة خرافية معروفة تجلو لكم هذا الموقف:

تلك هى قصة الجنِّية الطيبة التى وعدت رجلا فقيراً وزوجته بأن تحقق لهما رغباتهما الثلاث الأولى، ففرحا بذلك وطفقا يفكران فى اختيار هذه الرغبات فى دقة وعناية، وبينما هما كذلك، إذ شمت الزوجة رائحة معى محشو يقلى فى كوخ جيران لما، فتمنت لو تصيب قطعتين منها، فما هى إلا لحظة حتى كان لها ما أرادت. وهكذا تحققت الرغبة الأولى فاستشاط زوجها غيظاً، وتمنى لو رأى هاتين القطعتين تتدليان من أرنبة أنف زوجته، فتم له ما تمنى، وإذا باصبعين من المعى المقلى قد لصقتا بأرنبة أنف زوجته لصقًا، وبذا تحققت الرغبة الثانية غير أن هذه أمنية زوج، وفى تحقيقها أذى زوجته أى أذى...وبما أن الزوج والزوجة ليسا آخر الأمر إلا شيئًا واحداً، فلابد أن تكون الرغبة الثالثة زوال الأصبعين من أنف الزوجة، هذه القصة الخرافية مما يمكن أن نتمثل به فى مناسبات أخرى كثيرة، لكنها تفيدها فى هذا المقام، لتبين لنا أن تحقيق رغبة شخص معين قد يكون فيه أذى كبير لشخص آخر، إن لم يكن كلاهما على وفاق تام مع الآخر.

لايشق علينا الآن أن يزداد فهمنا لأحلام الحصر، وسنورد ملاحظة أخرى فقط، نستطيع بعدها أن ننحاز إلى فرض تؤيده حجج كثيرة: تلك أن أحلام الحصر غالبًا ما يكون محتواها غفلا من التحريف، كأنه يفلت من عين الرقابة، إن جاز التعبير، هذا الطراز من الأحلام يكون فى الأغلب تحقيقًا غير مقنع ولا مستتر لرغبة لاتكون بطبيعة الحال مما يرحب به الحالم ويرضى عنه، بل مما ينبذه ويستنكره، فهو طراز يحل الحصر فيه محل الرقابة، ففى حين أن أحلام الطفولة تحقيق صريح سافر لرغبة يجيزها الحالم ويقبلها، وفى حين أن الأحلام المحرفة العادية تحقيق مقنع لرغبة مكبوته، إذ بأحلام الحصر تحقيق سافر صريح لرغبة مكبوتة، فالحصر شاهد على أن الرغبة المكبوتة أقوى مما يحتمله الرقيب، وعلى أنها تحققت أو كادت على الرغم

منه. ولايشق علينا أن ندرك أن تحقيق رغبة مكبوتة لايمكن أن يكون إلا مصدراً لانفعالات تؤلمنا - نحن الذين نقف فى صف الرقيب وإلى جانبه - وظرفاً يقتضى منا أن نتخذ موقف الدفاع، فالحصر الذى نشعر به فى الحلم هو - إن شئتم - حصر ينجم عن قوة الرغبات التى نعمل على كبحها وغلّها فى الظروف الأخرى، على أن دراسة الأحلام وحدها لاتبين لما لم يبدو هذا الدفاع فى صورة حصر، لذا يتعين علينا أن نعالج موضوع هذا الحصر فى مناسبات أخرى[1].

إن ما يصدق على أحلام الحصْر غير المحرفة، لابد أن ينسحب أيضاً على أحلام الحصر التى يصيبها قد معين من التحريف، وعلى الطُرز الأخرى من الأحلام الكدرة التى تقترن بانفعالات مؤلمة أكبر الظن أنها شبيهة بالحصر، إن أحلام الحصر توقظنا من النوم عادة، وأغلب الأمر أن ينقطع النوم قبل أن تتغلب الرغبة المكبوتة على الرقابة وتتحقق تحققًا تامًا، فى مثل هذه الحالات يكون الحلم قد أخفق فى تحقيق غرضه، دون أن يتغير طابعه الجوهرى من جراء هذا، وقد سبق لنا أن قارنا الحلم بحارس من حراس الليل، مهمته حماية النوم مما عساه أن يقلقه، لكن حارس الليل - شأنه فى ذلك شأن الحلم - مضطرٌ إلى أيقاظ النائمين متى شعر أنه عاجز عن أن يدرأ مصدر الإزعاج أو الخطر وحده، ومع هذا فنحن نفلح أحياناً فى وصل النوم حتى حين تبدأ أحلامنا فى أن أتحدث لنا بعض الضيق وأن تنقلب إلى حصر وقلق شديد، إذ نقول لأنفسنا ونحن نيام: «ليس هذا إلا مجرد حلم»، ونستمر فى النوم.

رب قائل يقول: ومتى تظهر الرغبة على الرقابة وتتغلب عليها؟ هذا أمر يتوقف إما على الرغبة أو على الرقابة: فقد تصل قوة الرغبة فى بعض الآونة، ولأسباب نجهلها، إلى درجة كبيرة، غير أنه يلوح لنا أن الرقابة هى المسئولة، فى أغلب الأحيان، عن هذا الانقلاب فى توازن القوى، فنحن نعرف من قبل أن الرقابة تختلف شدتها من حالة لأخرى، كما أنها تعامل العناصر المختلفة بدرجات متفاوتة من الحزم والصرامة، وفى وسعنا الآن أن نضيف إلى هذا أن الرقابة لاتعامل العنصر الواحد بالشدة نفسها فى جميع الأحوال، فإن اتفق أن ألفت الرقابة نفسها عاجزة حيال رغبة معينة يخشى أن تظهر عليها، لجأت الرقابة إلى آخر سلاح بقى لها - وقد امتنع عليها التحريف - فعطلت النوم بأحداث قلق شديد.

---

(١) انظر المحاضرة الخامسة والعشرين. «المترجم».

مما هو جدير بالدهش والاستغراب فى هذا الصدد، أننا لانزال نجهل السبب فى ظهور هذه الرغبات الأثيمة المنبوذة، أثناء الليل تحديداً، لكى تقلقنا ونحن نيام. ليس فى مقدورنا أن نجيب عن هذا إلا بالرجوع إلى طبيعة النوم نفسه. ففى أثناء النهار تكون هذه الرغبات خاضعة لرقابة صارمة شديدة تمنعها، عادة من أن تفصح عن نفسها إفصاحًا ظاهراً، أما أثناء الليل فأكبر الظن أن تكون هذه الرقابة معطلة أو مستضعفة إلى حد بعيد - شأنها فى ذلك شأن الوظائف النفسية الأخرى طراً - وذلك من أجل رغبة واحدة، هى الرغبة فى النوم، ومن ثم يتسنى للرغبات المحظورة أن تنشط، وأن تلح جاهدة فى الظهور، إن بعض العصبيين ممن يكابدون الأرق، يصرخون بأن أرقهم هذا كان، فى أول أمره إرادياً متعمداً، فقد كانوا يخشون النوم خوفا من أحلامهم - أى إنهم كانوا يخافون عواقب الرقابة حين تغفو وتغفل، وليس من العسير أن نرى أن تهافت الرقابة فى النوم لاينطوى على إهمال معيب: ذلك أن النوم يضعف من وظائف الحركة لدينا، فمهما تحركت فينا نوازع الشر، فلسنا نستطيع أن نصنع شيئا أكثر من أن نرى حلما لا ضرر منه بالفعل. وهذا الموقف المطمئن هو ما يجعل النائم يقول لنفسه أثناء النوم - وقوله هذا ليس جزءاً من حلمه - : «ليس هذا إلا مجرد حلم» وبما أن الأمر لايعدو أن يكون حلماً، فلندخل سبيله ولنمض فى النوم.

أما الاعتبار الثالث الذى عقّد الموضوع، فيتضح لكم أن ذكرتم تشبيهنا الحالم الذى يناضل رغباته الخاصة بشخصية وهمية من شخصين متميزين، لكنهما مع هذا يتصل أحدهما بالآخر اتصالا وثيقا، إذا ذكرتم هذا لم يشق عليكم أن تروا أن هناك سبباً آخر من شأنه أن يكون لتحقيق الرغبات أثر منافر مكدر إلى حد بعيد، هو أثر العقاب، وهنا تعيننا خرافة الرغبات الثلاث، مرة أخرى، على جلاء هذه الناحية: فبينما كان المعى المحشو تحقيقًا مباشراً لرغبة الشخص الثانى أى الزوج، وكان فى الوقت نفسه عقاباً وقع على الزوجة من أجل رغبتها الحمقاء أما عن الرغبة الثالثة فى هذه القصة الخرافية فسوف نلتقى فى دراستنا للأمراض النفسية برغبات تناظرها من حيث الدافع إليها. إن الحياة النفسية للإنسان تزخر بكثير من أمثال هذه النزعات العقابية، وهى نزعات على جانب كبير من العنف والقوة، ويمكن اعتبارها مسئولة عن بعض أحلامنا المؤلمة - فإن سلمتم بهذا كله، فأكبر الظن ألا تروا بعده من تحقيق الرغبات إلا النزر اليسير، غير أنكم لو أنعمتم النظر لعرفتم أنكم على خطأ فى ظنكم هذا.

صحيح أننا لو وازننا بين الأنواع المختلفة التى يمكن أن تكون عليها الأحلام (وسنناقشها فيما بعد) ـ تلك الأنواع التى يرى فيها بعض الكتاب حقيقة الأحلام بالفعل ـ لو وازنا بين تلك وبين تعريفنا الأحلام بأنها تحقيق لرغبة، أو لحصر، أو لعقاب، فمن المحقق أن يكون تعريفنا هذا ضيقاً مسرفاً فى الضيق، لكن يجب ألا يفوتكم أن الحصر هو الضد المباشر للرغبة، وأن الأضداد يقترب بعضها من بعض اقترابا كبيراً فى تداعى المعانى، بل يلتبس بعضها ببعض فعلا، كما نعرف، فى اللاشعور. هذا إلى أن العقاب نفسه تحقيق لرغبة.. لرغبة شخص آخر يقوم بالإشراف والرقابة.

من هذا كله ترون أنى لم أذعن لاعتراضكم على نظرية تحقيق الرغبات، غير أن من واجبى ـ ولا أريد أن أتنصل منه ـ أن أبين لكم أن كل حلم محرف، أياً كان نوعه، لايخرج عن أن يكون تحقيقًا لرغبة، فلنعد الآن إلى حلم أوّلنا من قبل، وعرفنا منه أشياء كثيرة طريفة، هو حلم «تتلخص ظروف هذا الحلم، كما تذكرون، فى أن رجلا أخبر زوجته، ذات يوم، أن صديقتها «إليز» التى تصغرها بثلاث أشهر فقط، قد تمت خطبتها، فرأت الزوجة فى الليلة التالية أنها كانت مع زوجها فى المسرح، وأن جانباً من المقاعد التحتانية كاد يكون خاليا.

وقد أخبر زوجها (فى الحلم) أن إليز وخطيبها كانا يريدان الحضور إلى المسرح أيضاً، لكنهما لم يستطيعا، لأنهما لم يجدا إلا ثلاثة مقاعد لا تليق، إذ كان أجرها كروناً ونصف كرون. فأجابته زوجته بأنهما لم يضع عليهما من جراء هذا شىء كثير ـ لقد رأينا أن أفكار الحلم تدور حول ندمها على التعجل فى زواجها، وعلى ضيقها بزوجها وامتهانها له. فعسانا أن نتطلع الآن إلى أن نعرف كيف استحالت هذه الأفكار القائمة إلى تحقيق رغبة، وأى أثر تركته فى المحتوى الظاهر. لقد عرفنا من قبل أن الرقيب قد حذف عنصر «التعجل والتبكير»، وأن المقاعد الخالية كانت تلميحاً إلى هذا العنصر. أما تلك العبارة المحيرة وهى **ثلاثة مقاعد بكرون ونصف كرون** فقد أصبحت الآن أكثر وضوحًا مما كانت عليه قبلُ، بفضل ما نعرفه اليوم عن الرمزية فى الأحلام[١]، ذلك أن الرقم ثلاثة يشير حقا إلى رجل، وهذا ييسر لنا أن نترجم ذلك العنصر الظاهر، فترى أنه يعنى : شراء رجل (زوج) بالبائنة «كنت أستطيع أن أشترى

(١) ثمة تأويل آخر للرقم ٣ فى حلم المرأة العقيم، لكنى لا أذكره هنا، لأن هذا التحليل لم يزودنا بأية معلومات توضحه.

بما لدى من بائنة زوجا أحسن منه عشر مرات». أما **الذهاب إلى المسرح** فبديل واضح عن الزواج، فى حين أن **التعجل فى احتجاز المقاعد** بديل مباشر عن «التعجل فى الزواج». والواقع أن هذا الإبدال من عمل تحقق الرغبة، فهذه السيدة لم يبلغ سخطها على زواجها العاجل ما بلغه أن علمت بخطبة صديقتها، فقد كانت تزهو بزواجها وتفاخر به قبل هذا النبأ، وكانت تظن أنه قد أُتيح لها من الحظ ما لم يتح لصديقتها والساذجات من الفتيات، متى تمت خطبتهن. فكثيرا ما يعبرون عن ابتهاجهن بهذا الأمر فقد أصبحن قادرات على ارتياد المسارح طراً ، وعلى رؤية ما كان محظوراً عليهن من قبل جميعا.

إن التطلع والشوق إلى رؤية كل شىء، كما يبدو فى هذه الحالة، يرجع أصلا ومن دون شك إلى استطلاع موجه نحو الحياة الجنسية، لا سيما الحياة الجنسية للأبوين، وهذا ما يسمى **بدفعة التطلع** أو **مد العين**[1]، وقد استبدت هذه الدفعة بالفتاة فيما بعد فحملتها على التعجل بالزواج، وهكذا يكون الذهاب إلى المسرح بديلا يشير إلى الزواج إشارة واضحة، فهذه السيدة إذاً، لما ابتأست فى الوقت الحاضر بزواجها المبكر، تراجعت ونكصت إلى العهد الذى كان فيه هذا الزواج يحقق رغبة لها، لأنه كان يرضى فى نفسها حب التطلع ورؤية المناظر، وهكذا ساقتها تلك الدفعة القديمة، فجعلتها تستبدل بفكرة الزواج فكرة الذهاب إلى المسرح.

ستقولون إن المثال الذى اخترته يكون إيضاحاً لتحقيق رغبة مستترة، ليس أبلغ الأمثلة وأنسب ما فيها، فأجيبكم بأنه ما كان لنا أن نتبع طريقة أخرى غير تلك، لو أخذنا فى تأويل أى حلم محرف آخر، وليس فى وسعى أن أقوم بهذا أمامكن إلا، فحسب أن أوكد لكم أن مثل هذه الطريقة تكلل بالنجاح أبداً، على أنى أريد أن أقف برهة عند هذا الجانب من نظريتنا؛ فقد علمتنى الخبرة أنه من أشد الجوانب وعورة وخطورة فى نظرية الأحلام جميعا، وأنه مدار لكثير من أوجه التناقض وسوء الفهم، هذا إلى أنه ربما يلوح لكم أنى تنازلت عن بعض ما صرحت به لكم، بقولى أن الحلم قد يكون تحقيقًا لرغبة، أو لضدها، أى لحصر أو لعقاب يتحقق، وقد تظنونها فرصة مواتية تكرهوننى فيها على أن أتنازل وأن أتحفظ أكثر مما فعلت، وفضلاً عن هذا، فقد

---

1. Gazing impulse.

أخذ علىّ أنى أعرض الحقائق التى تبدو بديهية فى نظرى، بصورة موجزة مركزة أكثر مما ينبغى، بحيث لا تحمل إلى السامعين إقناعاً كافياً.

إن كثيراً ممن تبعونى فى تأويل الأحلام وتقبلوا كل ما وصلت إليه من نتائج حتى الآن يقفون غالباً عندما انتهيت إليه من أن الحلم تحقيق لرغبة، ثم يتساءلون: «إذا سلمنا لكل حلم دلالة ومعنى، وأن هذا المعنى يمكن الكشف عنه بخطة التحليل النفسى، فلمَ يتحتم أن يُكره الحلم أبداً وعلى الرغم من قيام الأدلة المضادة، على أن يصاغ فى قالب رغبة تتحقق؟ ولمَ لايكون لأفكارنا أثناء النوم اتجاهات مختلفة متعددة كما هى الحال فى أفكارنا ونحن أيقاظ، فيكون الحلم، حيناً، تحقيقا لرغبة ما، ويكون حيناً آخر - كما تقول نفسك - تحقيقاً لضد الرغبة أو لقلق ورعب، ولمَ لايكون تعبيراً عن تصميم أو تحذير أو تقدير لمسألة ما بما لها وما عليها أن يقوم به إلى غير ذلك؟ تُرى لم لايكون الحلم دائماً إلا تعبيراً عن رغبة ليس غير، أو عن ضدها على أكثر تقدير؟».

من الممكن أن نفترض أن الاختلاف فى الرأى على هذه النقطة لا ضرر منه ولاأهمية له، متى اتفقنا على كل النقاط الأخرى، أليس يكفى أن نكشف عن معنى الحلم وعن الوسائل التى تكشف بها عنه، ثم لا يعنينا بعد ذلك أن نحدد هذا المعنى تحديداً يكون أدق مما ينبغى؟. لكن الأمر غير هذا، فسوء فهمنا لهذه الناحية من شأنه أن يصيب معلوماتنا عن الأحلام فى الصميم، وأن ينقص من قيمتها وأهميتها، يوم نستعين بها على فهم الأمراض النفسية، ولئن جاز للمرء أن يكون «سهلا طيعاً» فى المعاملات التجارية، فليس له الحق فى هذا حين يتصدى للمسائل العلمية، إلا إذا كان ممن يأخذون الأمور على غير وجوهها، فيكون موقفه ضاراً بالفعل.

إذاً، فلم لايكون الحلم على الدوام إلا تعبيراً عن رغبة ليس غير؟ أما جوابى الأول عن هذا السؤال، فهو الجواب المعتاد فى مثل هذه الحالة: وهو أنى لا أعرف لماذا يجب ألا يكون الأمر كذلك، ولئن كان هذا شأن الحلم فليس لدى اعتراض على ذلك، وعندى أن من الممكن أن يكون الأمر كذلك! لكن الأحلام غير ما تروم فى الواقع - وهذه هى العقبة الطفيفة الوحيدة فى سبيل النظرة الواسعة إليه، تلك النظرة التى تزيد

على غيرها ملاءمة وانفساحاً، وأما ردى الثانى فهو أنى لست بعيداً عن أن أسلم بأن الحلم يصور ضروباً كثيرة من التفكير[١] والعمليات العقلية، وهذه فكرة ليست جديدة عندى، فقد سجلت ذات يوم ـ أثناء دراستى حالة مرضية ـ حلماً تكرر ثلاث ليال تباعاً ثم انقطع ولم يعد، وفسرت هذا بأن الحلم كان صدى لمشروع ينوى صاحبه القيام به، فلما أنجز المشروع لم يعد ثمة داع لتكرار ظهور الحلم، كما نشرت بعد هذا حلماً يمثل اعترافا، فكيف أستطيع إذاً أن أناقض نفسى؛ فأصرح بأن الأحلام ليست على الدوام إلا تحقيقاً لرغبات ولا شىء غير هذا؟

إنى أؤثر أن أفعل هذا على أن أحدث فيكم ارتباكاً فى الفهم قد يذهب بكل الجهود التى بذلنا فى موضوع الأحلام، إذ من شأنه أن يجعلنا **نخلط الحلم بالأفكار الكامنة للحلم**، وأن نطبق على الحلم ما لا يصدق إلا على **أفكاره الكامنة ليس غير**. فحق اليقين أن الحلم يستطيع أن يصور كل ضروب التفكير التى أسلفنا،وأن يكون بديلاً عنها، وهى: التصميم والتحذير والتقدير والإعداد ومحاولة حل مشكلة وغير تلك، بيد أنكم إذا أنعمتم النظر، فلن يفوتكم أن تلحظوا أن هذا لا يصدق إلا على الأفكار الكامنة التى تحولت إلى الحلم الظاهر، إذ يعلمنا تأويل الأحلام أن التفكير اللاشعورى للإنسان يدور على ألوان من التصميم والإعداد والتأمل، تصوغها عملية الإخراج أحلاما، فمتى انصرف اهتمامكم، فى لحظة ما، عن عملية الإخراج وانصب على التفكير اللاشعورى للإنسان، أسقطتم الإخراج من حسابكم، وقلتم عن الحلم نفسه ـ وما تقولونه حق من الناحية العملية ـ أنه يصور تصميمات ومشروعات وتحذيرات إلى غير تلك، وهذا ما يحدث غالباً أثناء القيام بالتحليل النفسى: إذ أننا لا نخرج عادة عن أن نحاول تحطيم الشكل الظاهر للأحلام، وأن نستبدل به الأفكار الكامنة، التى نشأ منها الحلم.

وهكذا استطعنا أن نعرف طريقة عرضية، ونحن نحاول وزن الأفكار الكامنة للأحلام، أن كل تلك الأفعال النفسية المعقدة التى ذكرنا، يمكن أن يقوم بها الفرد لاشعورياً ـ ولا شك أنها نتيجة جسيمة رائعة بقدر ما هى محيّرة مربكة.

---

(١) التفكير هنا بالمعنى الواسع الشامل، الذى لاينحصر فى الاستدلال وحده. «المترجم».

فإن عدنا إلى الوراء قليلا، وجدنا أنكم على حق؛ إذ تقولون إن الأحلام تصور هذه الضروب المختلفة من التفكير، على شرط أن يقر فى أذهانكم أنكم تستخدمون صيغة موجزة للتعبير عن الحقيقة، فلا يذهب بكم الظن إلى أن تلك الضروب المختلفة من التفكير هى فى ذاتها جزء من الطبيعة الجوهرية للأحلام فمتى تحدثتم عن «حلم»، فيجب أن يكون ما تقصدون إليه أحد أمرين: إما الحلم الظاهر أى نتاج عملية الإخراج، وإما عملية الإخراج ذاتها على أكثر تقدير، أى العملية النفسية التى تصوغ الحلم الظاهر من الأفكار الكامنة للحلم، ذلك أن أى استعمال آخر لهذه الكلمة ، لا يترتب عليه إلا اللبس وسوء الفهم، فإن كنتم تقصدون إلى الأفكار الكامنة وراء الحلم، فاذكروا هذا فى صراحة ووضوح حتى لا تزيدوا من غموض المسألة بأسلوبكم المبهم فى التعبير، إن الأفكار الكامنة هى المادة التى تحولها عملية إخراج الحلم إلى حلم ظاهر، فماذا يجعلكم تخلطون أبداً بين المادة وبين العملية التى تتناولها وتشكلها؟ وبم تمتازون إذاً عن أولئك الذين لايعرفون إلا النتائج الأخيرة لهذه العملية، وهم عاجزون عن أن يفسروا من أين نشأ هذا النتاج، وكيف تمت صياغته وتركيبه؟

إن الشىء الجوهرى الوحيد فى الحلم نفسه، هو إخراج، وهذا الإخراج يعمل فى مادة مكونة من أفكار، فلا يحل لنا أن نغفل عن هذا، متى تناولنا الموضوع من ناحية نظرية، وإن كنا نستطيع أن نتغاضى عنه فى بعض المواقف العملية. وفضلاً عن هذا فالمشاهدات التحليلية ترينا أن إخراج الحلم لايتلخص البتة فى فى مجرد ترجمة الأفكار الكامنة إلى ما تعرفونه من الأساليب الأثرية أو النكوصية من التعبير، بل إنه يضيف إليها أبداً شيئا لاينتمى إلى أفكارنا الكامنة ونحن إيقاظ، لكنه القوة المحركة الفعلية فى صوغ الحلم. وليست هذه القوة اللازمة سوى الرغبة، وهى لاشعورية . أما إذا نظرنا إليه من حيث هو نتيجة لعملية الإخراج فهو لا يكون إلا تحقيقا لرغبة لاشعورية ليس غير، فالحلم إذاً لا يكون على الإطلاق مجرد تعبير عن تصميم أو تحذير... ولا شىء أكثر من ذلك: بل يعبر فيه عن التصميم أو التحذير أو غيرهما بأسلوب أثرى، وذلك بفضل رغبة لا شعورية، كما أنه يتبدل ويتحول بصورة تكفل تحقيق هذه الرغبة، وإن تحقيق الرغبة لا شعورية هو الخاصة الثابتة، وفى هذه الحال يصور الحلم رغبة كامنة من ساعات اليقظة، تحققت بمعونة لا شعورية.

إن كان ما ذكرت وسردت يبدو لى واضحا كل الوضوح، لكنى لا أعرف ما إذا

كنت أفلحت فى إيضاحه لكم. ومن العسير أن أبرهن لكم عليه، فالبرهان يتطلب أدلة تستمد من التحليل الدقيق لأحلام كثيرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهذه النقطة - وهى الحاسمة المرجحة فى تصورنا للأحلام وأكثرها أهمية ودلالة - لايمكن أن تعرض بصورة تقنع السامع، دون إشارة إلى اعتبارات لم تتناولها بعد. فإذا عرفنا أن الظواهر جميعها يرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقا، شق علينا أن نتعمق طبيعة إحداها دون أن نشغل أنفسنا بالظواهر الأخرى من نفس طبيعتها. وبما أننا لا نعرف حتى الآن شيئًا عن الظواهر التى تقترب من الأحلام أكثر من غيرها - ونعنى بتلك الأعرض العصابية - فلابد أن نقنع بما بين أيدينا من معلومات ظفرن بها فعلا، ولن أزيد على أن أوضح لكم مثالا آخر، وأعرض عليكم اعتبارا جديداً.

لنعد مرة أخرى إلى ذلك الحلم الذى تمثلنا به عدة مرات من قبل، وهو حلم «مقاعد المسرح الثلاثة»، وأؤكد لكم أننى حين اخترته مثلاً للإيضاح، فى المرة الأولى، لم يكن ذلك على قصد معين، تعرفون ما ينطوى عليه هذا الحلم من أفكار كامنة هى : استياء الزوجة بعد سماعها بخطبة صديقتها، وندمها على تعجلها فى الزواج، ثم ضيقها بزوجها وامتهانها له، هذا إلى فكرة تتلخص فى أنها لو انتظرت ولم تتعجل، لوقعت على زوج خير منه، كذلك تعرفون أن الرغبة التى جعلت من هذه الأفكار حلمًا، هى الشوق إلى «رؤية المناظر»، وإلى ارتياد المسارح - وأكبر الظن أنه شوق تفرع على حبها القديم لاستطلاع ما يحدث بالفعل بعد الزواج.

ومن المشاهد المعروف أن هذا الاستطلاع عند الأطفال يوجه عادة إلى الحياة الجنسية للأبوين، أى أنه نزعة طفلية، إن بقيت ولازمت الفرد فى نموه فإن أصولها ترجع دائما إلى عهد الطفولة، لكن النبأ الذى بلغ السيدة فى اليوم السابق لحلمها لم يتح أية فرصة لاستثارة هذا الاستطلاع الطفلى، ولم يزد على أن استثار استياءها وسرتها، فهذه الرغبة فى الاستطلاع لم تكن مرتبطة، بادئ ذى بدء، بالأفكار الكامنة.

وقد كان فى وسع التحليل أن يستخدم نتائج تأويل الحلم دون اعتبار لها على الإطلاق، كذلك الاستياء لم يكن فى ذاته قادراً على إحداث الحلم: فالفكرة التى فحواها «من الحمق أن أتعجل فى الزواج كما فعلت» لايمكن أن تكوّن حلمنا إلا بعد أن تكون قد حركت الرغبة القديمة فى «مد العين» إلى ما يحدث بعد الزواج، فهذه الرغبة إذًا كوّنت مضمون الحلم بأن استبدلت بالزواج، الذهاب إلى المسرح، وأظهرته فى شكل تحقيق لشوق قديم: «أستطيع الآن أن أذهب إلى المسرح وأن أمد عينى إلى كل ما كان

محرمًا علىّ، فى حين أنكِ لا تستطيعين ذلك، إنى متزوجة، أما أنت فعليك أن تنتظرى». على هذا النحو بدل الموقف الحاضر بضده، وحلّ الفوز القديممحل فشل حديث، وكان فى هذا إرضاء للاستطلاع ومد العين، وإرضاء أنانى من الفوز على شخص منافس. وهذا الإرضاء هو الذى يعيِّن المحتوى الظاهر للحلم، ففى هذا المحتوى، كانت السيدة ترى نفسها جالسة فى بهو المسرح بالفعل، فى حين أن صديقتها لا تستطيع الذهاب إليه، أما تلك الأجزاء من محتوى الحلم التى لاتزال تستتر وراءها الأفكار الكامنة، فنلمسها فى صورة تحويرات تستعصى على الفهم ولا تناسب الموقف الذى يجلب الرضا، وإن مهمة **التأويل** أن يغض النظر عن كل ما يستخدم لتصوير إرضاء الرغبة، وأن يعيد إنشاء الأفكار الكامنة المؤلمة للحلم من تلك التلميحات.

أما الاعتبار الذى أردت أن أذكركم به، فيرمى إلى توجيه اهتمامكم إلى هذه الأفكار الكامنة للحلم التى أصبحت لها الصدارة فى حديثنا الآن، فأرجو أن تكونوا على ذكر من أشياء ثلاثة: أولها، أن الحالم لا يفطن إلى هذه الأفكار. الثانى، أنها أفكار معقولة وملتئمة كل الالتئام بحيث يمكن اعتبارها استجابات طبيعية لأى منبه يثير الحلم، الأمر الثالث، أنها قد يكون لها من القيمة ما لأية نزعة نفسية أو عملية عقلية، وسأطلق على هذه الأفكار اصطلاحًا يحددها بصورة أدق من ذى قبل، فأسميها بقايا اليوم السابق. وهى بقايا يعرفها صاحب الحلم أو لا يعرفها، وهنا يتعين علينا أن نميز بين هذه «البقايا» وبين «الأفكار الكامنة للحلم» فلنسم كل شىء يكاشفنا به تأويل الحلم «الأفكار الكامنة للحلم» (بالمعنى الذى سرنا عليه من قبل لهذا الاصطلاح). أما بقايا اليوم السابق فليست إلا جزءاً من الأفكار الكامنة، وعلى هذا تجرى الأمور كما يأتى: ثمة شىء يضاف إلى بقايا اليوم السابق، شىء ينتمى أيضاً إلى منطقة اللاشعور. هذا الشىء هو رغبة قوية لكنها مكبوتة، وهى وحدها ما يجعل انصياع الحلم أمراً ممكناً، وإن تأثير هذه الرغبة فى «بقايا اليوم السابق» يخلق الجزء الآخر من الأفكار الكامنة للحلم، ذلك الجزء الذى لايعود فى حاجة إلى أن يبدو معقولا أو مفهومًا من وجهة نظرنا فى حالة اليقظة.

ولإيضاح العلاقة بين البقايا والرغبة اللاشعورية، استخدمت، فى غير هذا المكان تشبيهاً أعيده هنا فلم أجد خيراً منه. ذلك أن كل مشروع تجارى فى حاجة إلى ممول

يمده بالنفقات، وإلى مباشر أعمال (مقاول) يحتضن الفكرة ويعرف كيف ينفذ الشروع. فالرغبة اللاشعورية هى التى تقوم وحدها أبداً بدور الممول فى تكوين الحلم وصياغته؛ إذ هى التى تمده بالذخيرة اللازمة من الطاقة النفسية.. أما المقاول فهو بقايا اليوم السابق التى تعين طريقة الإنفاق وكيفية صرف هذه الذخيرة من النفقات، ومن الممكن بطبيعة الحال أن يكون الممول ملماً بالفكرة محيطاً بالمعلومات الخاصة التى يتطلبها التنفيذ، أو أن يكون لدى المقاول ما يلزم من المال. وهذا ييسر الموقف من الناحية العملية، لكنه يجعل فهمه النظرى أكثر صعوبة، وفى علم الاقتصاد، يميز عادة بين الشخص فى وظيفته كممول، والشخص نفسه فى قدرته على مباشرة العمل، وفى هذا التمييز صورة للموقف الأصلى الذى بنينا عليه تشبيهنا على أننا نلتقى بهذه الاحتمالات نفسها فى صياغة الأحلام: وسأترك لكم تتبعها وملاحظتها بأنفسكم.

ليس فى وسعنا أن نمضى إلى أبعد من هذا، فأنا على يقين أن فكرة تساوركم منذ برهة طويلة، وهى فكرة جديرة بأن نضعها موضع اعتبار، كأنى بكم تقولون «هل تلك البقايا لا شعورية حقًّا بالمعنى نفسه الذى يطلق على الرغبة اللاشعورية اللازمة لصياغة الحلم؟». فلا ريب أنكم على حق فيما تسألون، إذ إنه النقطة البارزة فى الموضوع كله. وأجيب عن هذا بأن البقايا ليست لا شعورية بالوعى نفسه الذى يطلق على الرغبة اللاشعورية، فهذه الرغبة تنتمى إلى طراز مختلف من اللاشعور ـ أعنى اللاشعور الذى رأينا أن أصوله توضع فى عهد الطفولة، وأن له عمليات وحيلاً خاصة به، وهنا يجدر أن نميز بين هذين الطرازين من اللاشعور بأن نطلق على كل منهما اصطلاحا خاصاً به. غير أنى أؤثر أن ننتظر حتى نتصدى لظواهر الأمراض النفسية ونلم بها، وأود أن أشير هنا إلى أن الناس قد أخذوا على نظريتنا أنها مغرية خيالية لأنها تفترض وجود لا شعور واحد، فماذا عساهم أن يقولوا لو سلمنا بأن بحوثنا نفترض طرازين من اللاشعور على الأقل؟

ولنقف عند هذا الحد.. إنكم لم تستمعوا إلا إلى أشياء وتقريرات غير كاملة. لكن أليس يبعث على الأمل أن نرى أن هذه المعلومات قد تزجيها ذات يوم بحوث نقوم به نحن، أو يقوم بها غيرنا ممن يأتون بعدنا؟ ونحن أنفسنا ألم نحظ من هذا كله بمعرفة على درجة كافية من الجدة والروعة؟.

المحاضرة الخامسة عشرة

مواطن شك وأوجه نقـــد

لا أريد أن أترك موضوع الأحلام دون أن أتعرض للنواحي الرئيسية التى تثير الشك والحيرة فيما كنا نناقشه من أفكار وآراء جديدة، ومن المحقق أن من تتبع منكم محاضراتى هذه بشىء من الانتباه، قد اجتمعت لديه طائفة من نقاط يدور عليها الشك وملاحظات وبعض أوجه للنقد.

١ - ربما لاح لكم أنه على الرغم من التزامنا خطتنا فى التأويل التزاما دقيقاً صارماً، فإن النتائج التى ظفرنا بها من التأويل تدع مجالا كبيراً للشك، بحيث يستحيل رد الحلم الظاهر إلى أفكاره الكامنة رداً محققاً يركن إليه فتقولون أولاً، دعماً لرأيكم، إن المرء، إذا كان بصدد عنصر معين فى حلم من الأحلام، فهو لايستطيع أن يعرف إطلاقًا ما إذا كان يتعين فهم هذا العنصر على معناه الحرفى أو على معناه الرمزى، لأن الأشياء التى تتخذ رموزاً لا تتغير طبيعتها فى كلتا الحالتين.

وبما أنه لا يوجد لدينا فى هذه الناحية معيار للحكم الموضوعى، فإن التأويل يكون رهناً بحكم يصدره المؤول تعسفاً، يضاف إلى هذا أن «الأضداد» تلتقى فى إخراج الحلم، فكيف لنا أن نستيقن مما إذا كان يتعين علينا أن نفهم عنصراً بعينه على معناه الإيجابى أو على معناه السلبى، أى ما إذا كان يتعين أن يؤخذ على ما هو عليه أو على ضده ـ وهذا ظرف آخر يفسح المجال لتعسف المؤول فى حكمه، الأمر الثالث أن ظاهرة «القلب» مشاعة بمختلف أنواعها فى الأحلام، وهذا يجعل المؤول عرضة لأن يرى هذه الظاهرة فى أية فقرة من فقرات الحلم.

وستشيرون أخيراً إلى ما سمعتموه من أنه يندر أن نقطع عن يقين بأن التأويل الذى وصلنا إليه، هو التأويل الممكن الوحيد، ومن ثم يخشى أن نغفل عن تأويل آخر للحلم نفسه قد يكون أكثر رجحانا، وأدنى إلى الصواب، ثم تخرجون من هذا كله بأن المجال جد فسيح، فى هذه الظروف، لتعسف المؤول فى أحكامه تعسفا يتنافى مع أية نتائج يمكن التيقن منها تيقنا موضوعيا، أو ربما افترضتم كذلك أن الخطأ لا يرجع إلى الأحلام ذاتها، بل إن شيئا غير صحيح فى نظراتنا ومقدماتنا يستتبع ذلك القصور فى تأويلنا الأحلام.

هذه الاعتراضات كلها مما لاينكر، لكنى أعتقد أنها لاتبرر ما خلصتم به لأنفسكم من نتائج فحواها أن تأويل الأحلام كما نقوم به، مرهون بتعسف المؤول فى حكمه، أو أن قصور نتائجنا وعدم استيفائها بالغرض، يدعو إلى الشك فى صحة الطريقة التى نسير عيها. على أنكم لو قلتم إن التأويل يتوقف على مهارة المؤول وخبرته وذكائه، بدل أن تتكلموا عن حكمه التعسفى، كنت عند رأيكم هذا فالعامل الشخصى لامناص من وجوده بطبيعة الحال، خاصة متى كان التأويل عويصا، وهذا ما يحدث بعينه في البحوث العلمية الأخر، إذ يتفاوت الباحثون في استخدام خطط البحث وتطبيقها، من حيث ما يبدون من حذق أو خرق. وهوأمر لا حيلة لنا فيه بحال، أما ما تخالونه تعسفاً فى تأويل الأحلام نركن إلى تأويل واحد من بين التآويل المختلفة طراً، ونذر ما سواه، تلك هى: إرتباط أفكار الحلم بعضها ببعض، والصلة بين الحلم نفسه وبين حياة صاحب الحلم، ثم جملة الموقف النفسى الذى حدث الحلم فى إبانه، أما النتيجة الثانية التى وصلتم إليها وهى التأويل المعيبة الناقصة مردها إلى فروضنا المضللة المغلّطة ، فنتيجة تتهافت وتتداعى إذا عرفنا أن الإبهام فى الأحلام أو احتمالها معانٍ كثيرة، خاصة لازمة لامناص من أن نتوقعها فى الأحلام.

لقد أسلفت أن عملية إخراج الحلم تقوم بترجمة الأفكار الكامنة إلى أسلوب بدائى من التعبير شبيه بالكتابة التصويرية، الهيروغليفية، والواقع أن كل الأساليب البدائية للتعبير يكتنفها بالضرورة الإبهام وعدم التحديد. لكن هذا لا يحول دون استعمالها ولايبيح لنا أن نشك فى فائدتها العملية، وتعرفون أن تلاقى الأضداد فى إخراج الحلم شبيه بما يسمى «تقابل المعنى» فى الكلمات الأُصلية من أقدم اللغات. وقد أوصانا فقيه اللغة أبِل Abel(١٨٨٤) وهو من ندين له بهذه اللحظة، ألا نظن أن التخاطب بالكلمات الثنائية المعنى، كان يترتب عليه أى إبهام أو تخليط، فيما يقوله شخص آخر، بل كان الأمر على خلاف هذا، إذ كان نبر الكلام والتلويح بالإشارة وملابسات الحديث من شأنها أن تنقل إلى المستمع أى المعنيين المتأدين يريد إليه المتحدث دون لبس أو إبهام.

أما فى الكتابة، حيث لايوجد مجال للإشارة بالحركة، فكان يؤكد المعنى المراد بإضافة علامة تصويرية صغيرة لا يقصد بها أن تنطق، كما كانت تضاف إلى كلمة Ken الهيروغليفية - وهى من أسماء الأضداد - صورة رجل صغير يجلس القرفصاء، أو

فى وقفة منتصبة، للدلالة على أن الكلمة تعنى «ضعيف» فى الحالة الأولى، و«قوى» فى الحالة الثانية، وهكذا لم يكن ثمة مجال لسوء التفاهم على الرغم من تعدد معانى المقاطع والعلامات.

وفى كثير من نظم التعبير القديمة - كما فى خطوط أقدم اللغات - مثلا - يشيع عدم التحديد بمختلف أنواعه شيوعاً لا تطيقه خطوط لغاتنا اليوم، من هذا أن الحروف الساكنة، فى كثير من الخطوط السامية، هى التى تُرسم وحدها، أما الحركات فتحذف، وعلى القارئ أن يستنبطها من خبرته ومعلوماته، أو من سياق العبارة، والأمر بالمثل فى الخط الهيروغليفى، فهو يسير على منوال شبيه بهذا وإن لم يكن مطابقاً له كل التطابق، وهذا هو السبب فى أننا لا نعرف شيئا عن كيفية نطق الألفاظ فى لغة قدماء المصريين، هذا إلى ضروب أخرى من عدم التحديد تبدو فى الكتابة المقدية لهؤلاء القوم أيضاً، منها أن يترك للكاتب اختيار رسم التصاوير من اليمين إلى الشمال، أو عكس ذلك، فلكي تُقرأ هذه الكتابة، لابد أن يسترشد القارئ باتجاه وجوه الأشكال والطيور وغيرها.

ومن تلك أيضاً أن الكاتب كان له أن يرتب التصاوير فى أعمدة رأسية، فإذا كان عليه أن يكتب على أشياء صغيرة، ففى وسعه أن يدخل تغييرات أخرى على ترتيب التصاوير تتحقق بها بعض أوجه الجمال والتماثل فيما يكتب، وأكثر ما يدعو إلى اللبس فى الخط الهيروغيلفى، عدم الفصل بين الكلمات، إذ تتابع التصاوير جميعها فى الصفحة على مسافات متساوية بعضها من بعض، وبذا يستحيل علينا، إجمالاً ، أن نعرف ما إذا كانت علامة ما تلحق بالكلمة السابقة لها أو أنها بداية كلمة جديدة، أما فى الخط المسمارى الفارسى، فترسم علامة مائلة للفصل بين الكلمات.

واللغة الصينية - المكتوبة والمنطوقة - من اللغات المسرفة فى القدم، لكن لايزال يستعملها اليوم أربعمائة مليون من الناس، ولايذهب بكم الظن أنى أفهم منها شيئا، لكنى رجعت إلى طرف منها طمعاً فى أن أجد فيه أوجهاً للشبه لضروب عدم التحديد فى الأحلام، ولم يخب ظنى فيما ذهبت إليه، فقد ألفيتها حاشدة بما يدعو إلى الحيرة والارتباك إلى حد نرتاع منه، والمعروف أن هذه اللغة تتألف من عدد من المقاطع تُنطق فرادى أو مزدوجة: وتشتمل إحدى لهجاتها الرئيسية على نحو أربعمائة من هذه

المقاطع، كما تقدم مفردات بنحو أربعة آلاف كلمة، وهذا يستتبع أن يكون لكل مقطع فيها عشرة معان مختلفة فى المتوسط ـ لبعض المقاطع معانٍ أقل، وللبعض الآخر معانٍ أكثر، لذا ابتكر القوم ذرائع وحيلا عدداً لتفادى اللبس وسوء الفهم، فسياق الحديث لايكفى وحده ليبين للمستمع أى المعانى العشرة التى يحملها المقطع، يريده المتكلم، من هذه الذرائع ضم مقطعين فى كلمة واحدة، ونطق المقاطع نفسه بأربع «نغمات» مختلفة، وثم حقيقة أكثر طرافة من هذا كله، يصح أن نستأنس بها فى المقارنة التى نعقدها ـ هى أن اللغة الصينية ليست لها قواعد أو لا تكاد، فمن المحال أن نقول عن أية كلمة من ذوات المقطع الواحد فيها، ما إذا كانت اسما أو فعلا أو صفة، كما أنها لغة «غير متصرفة»[1] فلا يميز فيها بين نوع الكلمة وجنسها وزمنها ووظيفتها فى الجملة.

وبعبارة أخرى فهى لغة تتكون من موادها الخام، إن صح التعبير، شأنها فى ذلك شأن لغتنا المجردة حين تنحل بفعل إخراج الحلم، إلى موادها الخام، إذ يحذف التعبير عن العلاقات فيها. فحثيما وقع ارتباك أو حيرة، فالبت فى الأمر رهن بذكاء المستمع الذى يسترشد بالسياق والملابسات. ولقد وقعت ذات مرة على حكمة صينية ترجمتها الحرفية: «قليل ما يرى، كثير ما عجيب» وهى عبارة ليس من العسير فهمها، فقد تعنى: «كلما قل ما يراه الإنسان من أشياء كثر ما يعجب له». أو قد تعنى: «هناك أشياء كثيرة يعجب لها من لم ير إلا قليلا». وواضح أن ليس ثمة مجال للمفاضلة بين هاتين الترجمتين من حيث المعنى، فهما لاتختلفان إلا من حيث التركيب اللغوى، ويؤكد لنا العارفون أن اللغة الصينية أداة ممتازة للتعبير والتبادل الفكرى، على الرغم مما يكتنفها من ضروب عدم التحديد، ومن هذا يتضح أن عدم التحديد لا يؤدى بالضرورة إلى الإبهام واحتمال أكثر من معنى واحد.

---

(١) تتميز اللغات غير المتصرفة من ناحية «البنية والصرف» Morphology بأن كلماتها لا تتصرف ولا تتغير معانيها، ومن ناحية «التنظيم» Syntax بعدم وجود روابط بين أجزاء الجملة للدلالة على وظيفة كل منها وعلاقته بغيره، بل تستفاد وظائفها وعلاقاتها من ترتيبها أو من سياق الكلام (ككثير من اللغات البدائية)، أما اللغات المتصرفة أو التحليلية فتتغير فيها معنى الكلمات بتغير معانيها، كما أن أجزاء الجمل فيها يتصل بعضها ببعض بروابط مستقلة تدل على مختلف العلاقات (اللغة العربية). «المترجم».

على أننا يجب أن نسلم، مع هذا، بأن نظام التعبير فى الأحلام أقل ملاءمة من نظام التعبير فى اللغات والخطوط القديمة، ذلك أن تلك اللغات والخطوط وضعت أصلا لتكون وسيلة للاتصال بالغير، أى كان يقصد بها أن تكون وسية مفهومه، مهما كانت الأساليب التى تستخدمها. لكن هذه الخاصة بذاتها ليست مما تتسم به الأحلام. فالأحلام لا ترمى إلى أن تقص شيئا على أحد من الناس، وهى ليست أداة للتواصل بين الناس، بل الأمر على عكس هذا؛ إذ المهم أن تظل غير مفهومه، لذا يجب ألا ندهش أو ننخدع إن ترتب على هذا أن عجزنا عن تعيين عدد كبير من ضروب الإبهام والشك فى الأحلام، والنتيجة المحققة الوحيدة التى نخرج بها من المقارنة التى عقدنا، هى أن عدم التحديد (الذى أراد الناس أن يحتجوا به على صحة تأويلنا للأحلام ودقته) صفة ثابتة لازمة لكل النظم البدائية فى التعبير.

إن فهمنا الأحلام فهمًا صحيحاً لايمكن تعيين مداه، فى الواقع ، إلا عن طريق الخبرة والممارسة وحدهما، وعندى أن من الممكن أن نصل فى هذا السبيل إل مدى بعيد جداً، والموازنة بين النتائج التى ظفر بها المحللون من ذوى التدريب الصحيح تعزز رأيى هذا. ومن المعروف أن جمهرة غير المختصين، حتى فى الدوائر العلمية يطربون إذ يقومون بنوع من التشكيك الساخر فى وجه الصعوبات، ومواطن الريب التى تكتنف عملا علميًا جديداً، وأرى أنهم مخطئون فى هذا، ربما غاب عن كثير منكم أن شيئا من هذا حدث، عندما أخذ الباحثون فى حل رموز الكتابة البابلية والآشورية، فقد أتى على الرأى العام حين من الدهر ذهب فيه إلى أن الذين يحلون رموز الكتابة المسمارية ضحايا وهم من الأوهام، وأن بحثهم هذا بأسره شعوذة وزيف. لكن «الجمعية الآسيوية الملكية» قامت فى عام ١٨٥٧ باختبار كان له القول الفصل، فقد طلبت إلى أربعة من المختصين المبرزين فى هذا البحث ـ وهم رولنسن Rawlin-son وهنكس Hincks وفكس طالبوت Fox Talbot وأوبيرت Oppert ـ أن يرسلوا إليها فى مظاريف مختومة تراجم مستقلة لوثيقة مسمارية كان قد كشف عنها حديثاً، وبعد الموازنة بين التراجم الأربع، أعلنت الجمعية أن بينها من الاتفاق ما يبرر الثقة فى النتائج، وما يبشر بتقدم هذه البحوث.. عندئذ خفتت سخرية المثقفين غير المختصين تدريجيًا، وزاد اليقين فى صحة قراءة الوثائق المسمارية منذ ذلك العهد زيادة كبيرة.

٢ - وثم سلسلة أخرى من الاعتراضات تتصل اتصالا وثيقا بانطباع أكبر الظن أنه لم يفتكم أيضاً، وهو أن كثيرا من الحلول التى تسلم إليها طريقتنا فى تأويل الأحلام، تبدو مبتسرة، متكلفة، مغتصبة أى إنها مكرهة، بل كثيرا ما تبدو ماجنة أو مضحكة، وأمثال هذه الاعتراضات متواترة مشاعة فلا أذكر لكم منها إلا آخر ما سمعت، فاستمعوا له إذاً: منذ عهد قريب، طلب إلى ناظر مدرسة فى سويسرة - ذلك القطر الحر - أن يستقيل من منصبه لاهتمامه بالتحليل النفسى، فاحتج على هذا، ونشرت صحيفة تصدر فى برن القرار الذى أصدرته السلطة التعليمية بشأنه، وحسبى أن أذكر لكم منه بضع عبارات تتصل بالتحليل النفسى هى: «وفضلا عن هذا، فكثير من الأمثلة المضروبة فى الكتاب المذكور للدكتور فستر Pfster من علماء زيوريخ، تدعو إلى الدهش والانذهال لما توسم به من طابع متكلف اصطناعى، ومما يدعو إلى العجب حقًا أن يتقبل ناظر مرسة للمعلمين كل هذه التوكيدات والأدلة المموهة فى سذاجة ودون تمحيص» - ثم يراد بنا أن نقبل هذه العبارات على أنها قرار «حكم رزين غير منحاز»، أما أنا فأميل إلى الاعتقاد أن هذه «الرزانة» هى الأحرى أن تكون «متكلفة اصطناعية». ولننعم النظر فى هذه الملاحظات، فشىء من التأمل والإلمام بالموضوع لا ضرر منه، حتى «لحكم رزين غير منحاز».

مما يبعث على التفكه حقاً، أن نرى كيف يعتمد الناس على انطباعاتهم الأولى ليس غير، فيقيمون عليها فى تعجل وفى تيقن، رأيا عن مسألة حرجة شائكة من مسائل علم النفس فى أكثر جوانبه غموضاً وإبهاماً، عندئذ يبدو لهم التأويل متكلفة مكرهة لا ترضيهم، ومن ثم فهى خاطئة ولا وزن لكل ما بذل فى سبيلها من جهد، إن أمثال هؤلاء النقاد لا تمرد بأذهانهم البتة فكرة عابرة توحى إليه أنه من الممكن أن تكون هناك أسباب وجيهة تجعل التأويل تبدو فى هذا المظهر - وهى فكرة قد تفضى إلى التماس هذه الأسباب.

الواقع أن الداعى إلى هذا النقد متصل فى صميمه بظاهرة «النقل»، وهى كما تعرفون أقوى أداة تصطنعها الرقابة فى الأحلام.. فبفضلها تخلق الرقابة تلك الصيغ البديلة التى أسميناها التلميحات.. غير أن هذه التلميحات من نوع لا يسهل تعرفه من حيث هو، ولا يسهل الكشف عن الفكرة الحقيقية التى يقوم عليها، لأنه مرتبط بهذه الفكرة بروابط عارضة خارجية على أكبر درجة من الغرابة ومجانية المألوف. بيد أن

الأمر كله يتعلق بأشياء يقصد بها أن تظل خافية مستترة: وهذا هو هدف الرقابة فى الأحلام على وجه التحديد. وإذا كان علينا أن نجد شيئا قد أُخفى وستر، فمن العبث أن نتوقع العثور عليه فى المكان الذى يوجد فيه عادة. والحق أن سلطات الرقابة على الحدود، فى أيامنا هذه، أكثر دهاءً ومكراً فى هذه الناحية من السلطات التعليمية بسويسرة، ذلك أنها لا تقنع بتفتيش الجيوب ومحافظ الأوراق، إن كانت تريد أن تقتفى بعض الوثائق والخطط، بل تفترض أن المهربين والجواسيس قد يخفون كل ما هو مريب، فى أماكن يتعذر الكشف عنها، بل وقد لا تخطر على البال، كأن يضعوا الأوراق المحظورة، مثلا، فى ثنايا النعال من أحذيتهم، فإن وجدت الأشياء المخبوءة فى تلك المواضع، حق القول بأنها «أُكرهت» على الظهور وألقى عليها الضوء، لكنها تكون مع هذا لقيا قيمة ثمينة.

فإذا كنا سلمنا بأن الارتباط بين عنصر كامن من عناصر الحلم وبديله الظاهر، قد يبدو بعيداً وعلى أكبر درجة من الغرابة ومجانبة المألوف حتى ليكون فى بعض الآونة أدنى إلى الفكاهة والمجون، فنحن لم نصدر إلا عن خبرة عريضة بحالات لم نقع على حلولها ولم نكف بوجه عام عن معانيها بأنفسنا، ومن المحال غالباً أن نصل إلى أمثال هذه التأويل بجهودنا الخاصة: فليس هناك شخص سليم العقل فى وسعه أن يحدس تلك الصلة التى تربط عنصراً كامناً من عناصر الحلم ببديله الظاهر. فإما أن يحل صاحب اللغز ويزودنا بالترجمة من فوره، بفضل خاطر يطرأ على ذهنه مباشرة بصدد الحلم (وهو يستطيع ذلك لأن الصيغة البديلة نشأت فى نفسه)، أو أن يقدم لنا مادة كافية فلا تعود بنا حاجة إلى تعمق خاص لحل هذا اللغز. بل يثب الحل إلى أعيننا كأنه شىء ضرورى لابد منه، فإن لم يعنينا الحالم بإحدى هاتين الطريقتين، ظل العنصر الظاهر الذى نحن بصدده غير واضح ولا مفهوم أبداً.

وسأضرب لكم بهذه المناسبة مثلا آخر من هذا النوع لاحظته حديثاً، فقد كانت تتردد علىّ مريضة توفى أبوها أثناء علاجها، ومن ذلك الحين وهى لا تبرح تراه حياً فى أحلامها، من هذا أنها رأته فى مناسبة خاصة فقال لها: «الساعة الحادية عشرة وربع الساعة، الحادية عشرة ونصف ساعة، الثانية عشرة إلا ربع الساعة»، وكانت التفاصيل الأخرى للحلم مما لا يكون الانتفاع به فلما أخذت فى تأويل هذا التفصيل الغريب من حلمها، لم تستطع أن تذكر شيئا إلا أن أباها كان يحب أن يرى أطفاله الكبار يجلسون إلى مائدة الطعام ظهرا فى الوقت المحدد له تماماً. ومن المحقق أن هناك صلة بين هذه الذكرى وعنصر الحلم، لكنها ذكرى لا تلقى شيئا من الضوء على

أصل الحلم. غير أن سير العلاج زودنا بأسباب وجيهة تبعث على الظن أنها كانت تحمل لأبيها، الذى كانت تحبه حبًا جمًا وتجله، اتجاها عدائيًا أحكم قمعه، وأن هذا الاتجاه قام بدور فى استثارة الحلم. وبينما هى ماضية فى استرجاع ذكريات وخواطر أخرى لا صلة لها، فى الظاهر، بالحلم، إذ بها تقص علينا أنها كانت تستمع فى اليوم السابق، إلى مناقشة طويلة عن مسائل سيكولوجية، وأن أحد أقاربها قال فى أثناء هذه المناقشة: «إن الإنسان الهمجى البدائى Urmensch يساكن كل واحد منا». وهنا ظهر لنا بصيص من النور يعيننا على فهم الحلم، فقد كانت هذه المناقشة مناسبة بديعة أتاحت لنا أن تحيى أباها المتوفى وأن تبعثه من جديد، إذ أحالته فى حلمها فجعلته «معلن الوقت»[١] Uhrmensch ، يعلن عن أرباع الساعات، وقت الغذاء فى الظهيرة.

بديهى أن يذكرا هذا بالجناس واللعب بالألفاظ. والحق أن الجناس فى الأحلام غالباً ما كان ينسب إلى المعبِّر لا إلى الحالم نفسه، هذا إلى أمثلة أخرى يعز علينا فيها أن نقطع بما إذا كان الأمر مُلحة من المُلح أو حلمًا من الأحلام. ولعلكم تذكرون أننا كنا نلتقى بمثل هذا الشك حيال بعض فلتات اللسان وقد قص علىّ رجل ذات مرة أنه رأى فى نومه أنه يجلس مع عمه فى سيارة هذا الأخير auto(moblie) ، وأن عمّه قبّله، ثم تطوع صاحب الحلم يتندر على حسابنا، فقال إن هذا يعنى شهوية ذاتية[٢]. فهل كان هذا الرجل يتندر على حسابنا، ويقدم لنا جناسا (محرّفًا) من عنده، على أنه حلم من الأحلام؟ لا أعتقد ذلك فالرجل قد رأى الحلم بالفعل، لكن ما مصدر هذا التشابه العجيب بين الأحلام والملح؟ لقد استوقفتنى هذه المسألة من قبل بُرهة طويلة، وحملتنى على أن أقوم ببحث مستفيض عن موضوع النكات نفسها، فخرجت من بحثى هذا بأن النكتة تنشأ متى تأثرت سلسلة من الأفكار القبلشعورية[٣]، وفى لحظة

---

(١) معلن الوقت: موظف تبعث به دور البلديات فى البلاد الصغيرة يتجول فيها ويعلن الناس بالوقت، ويلاحظ ما بين كلمتى «الإنسان الهمجى» و«معلن الوقت» - بالألمانية - من تشابه كبير فى الجرس، حتى كأننا بصدد «جناس محرف» «المترجم».

(٢) Auto-erotiem : اصطلاح استخدمه أصحاب التحليل النفسى ويعنون به أن يشبع الفرد ميوله الجنسية على أجزاء من جسمه ككفه أو أذنه لا على موضوعات العالم الخارجى «المترجم».

(٣) Preconscient : ما قبل الشعور - فى عرف أصحاب التحليل ، جانب الحياة النفسية الذى لايفطن إليه المرء فى لحظة ما، لكن يمكن استدعاؤه إلى وضح الشعور بمجهود قليل أو كبير. وهو لا شعورى بالمعنى الوصفى وحده، أى على أساس تكوين الجهاز النفسى، لا بالمعنى الديناميكى «المترجم».

ما، بعملية تعديل وتحوير لا شعورى، فهى تخضع - حين تكون فى قبضة اللاشعور - لتلك الحيل المعروفة، وهى التكثيف والنقل، أى للعمليات نفسها التى وجدناها ناشطة فعالة فى إخراج الحلم، فالتشابه الذى نلحظه أحياناً بين الأحلام والنكات يرجع إلى هذه الصفة المشتركة بينها. لكن «الحلم المنكوت» - والفكاهة فيه غير مقصودة - لايطربنا كالنكتة العادية، فما السبب فى هذا؟ إن الدراسة العميقة لموضوع النكات كفيلة وحدها أن تكشف لنا عن هذا السبب.. فيما تعرف لم يبدو «الحلم المنكوت» فاترا لا روح فيه: فهو لا يستثير فينا الضحك ولا يحرك فينا ساكناً.

على هذا النحو نجد أنفسنا نقترب من الطريقة القديمة فى تأويل الرؤى - تلك الطريقة التى زودتنا بأمثلة كثيرة قيمة عن التأويل، لم نستطع أن ندخل عليها تحسيناً، هذا إلى ما كانت تزخر به من أشياء لا خير فيها. وحسبى أن أقص عليكما حلماً واحداً ذا أهمية تاريخية، هو حلم الإسكندر الأكبر، اختلف فى روايته كل من بلوتاريخ وأرطميدورس الأفسوسى اختلافًا يسيراً: فبينما كان الإسكندر يحاصر مدينة صورالقديمة Tatyr وكانت تقاومه مقاومة عنيفة (عام ٣٢٢ ق.م) رأى فى نومه، ذات ليلة، مسخًا Satyr يرقص. فأوّله له أريستاندروس - وهو المعبِّر الذى كان يصاحب الجيش فى حملاته - أن فك كلمة مسخ اليونانية Satyros إلى كلمتين تعنيان «صور لك Tyre is thine »، وتنبأ من هذا بنصر الملك وتغلبه على المدينة، فأدى هذا التأويل بالإسكندر إلى العزم على المضى فى حصار ا لمدينة حتى سقطت فى يده آخر الأمر، وقد كان هذا التأويل الذى يبدو متكلفاً مصطنعا هو التأويل الصحيح.

٣ - اشك أنكم ستنذهلون إذا عرفتم أن نفراً - حتى ممن شغلوا أنفسهم زمنًا طويلاً بتأويل الأحلام، بوصفهم محللين نفسانيين - قد وجهوا إلى تصورنا للأحلام ونظرتنا إليها اعتراضات كثيرة، فمما يدعو إلى الدهش حقاً، أن نغفل عن هذه الفرصة الفذة ولا ننتهزها فنشير إلى ما فى هذه الاعتراضات من أخطاء جديدة: فقد صيغت تقريرات وتوكيدات لحمتها التخطيط فى الأفكار وسداها تعميمات ليس لها ما يبررها، ولم تكن هذه التوكيدات أقل خطأً من النظرة الطبية إلى الأحلام، من هذه الدعاوى، فيما تعرفون، أن الأحلام تدور على محاولات للتكيف وفق الموقف الراهن ولحل مشكلات مقبلة، أى إنها ترمى إلى «هدف مستقبل» (كما يرى مايدر) وقد سبق لنا أنا بيّنا أن هذه الدعوى تقوم على خلط

بين الحلم والأفكار الكامنة للحلم، وتغفل عن إخراج الحلم، فإذا كان يقصد بهذا «الهدف المستقبل»، وصف الحياة النفسية اللاشعورية التى تنتمى إليها الأفكار الكامنة للحلم، فهو وصف غير جديد من جهة، كما أنه وصف غير جامع من جهة أخرى، لأن النشاط النفسى اللاشعورى يشغل نفسه بأشياء أخرى كثيرة إلى جانب الإعداد للمستقبل وثمة تقرير آخر يقوم على لبس أسوأ من هذا، فحواه أن «داعى الموت»[1] مستتر وراء كل حلم من الأحلام، والحق أنى لا أعلم على التحديد ما يقصد إليه بهذا ، وإن كنت أشتبه من وراء ذلك خلطاً بين الحلم وشخصية الحالم بأكملها.

ومن التعميمات التى ليس لها ما يبررها، والتى تنتزع من بضعة أمثلة أخّاذة، ما يقال من أن كل حلم يحتمل أن يكون له نوعان من التأويل: تأويل التحليل النفسى كما وصفناه، وتأويل «صوفى»[2] بغض النظر عن الرغبات والنزعات الغريزية، ويهدف إلى تمثيل أسمى الوظائف النفسية (سليرز) . الواقع أن هناك أحلاماً من هذا النوع، لكن من العبث أن نحاول توسيع هذه النظرة حتى تشمل كل الأحلام فضلا عن أغلبها، ثم أنكم بعد كل ما سمعتموه لن يصح فى أذهانكم ما يقال من أن الأحلام جميعا يجب أن تؤول تأويلا خنثوياً، كأنها خليط من نوعين من النزعات أحدهما ذكرى والآخر أنثى (كما يرى آدلر A. Adler) . لا شك أننا نلتقى ببضعة أحلام من هذا النوع، متناثرة هنا وهناك، وسنرى فيما بعد أنها تشبه بعض الأعراض الهسترية فى مبناها ـ لقد عرضت عليكم كل هذه الكشوف من الخصائص العامة الجديدة للأحلام، كى أحذركم منها، أو لكى أزيل من نفوسكم، على الأقل، أى أثر للشك فى رأيى عنها.

٤ – لقد قامت محاولات للغض من القيمة الموضوعية للبحث فى الأحلام، بحجة أن المرضى الذين يعالجون بطريقة التحليل النفسى، يلفقون أحلامهم وفق النظريات الأثيرة لدى أطبائهم، فيزعم بعضهم أنهم يرون أحلاماً جنسية فى أغلب الأحوال، ويزعم البعض الاخر أن أحلامهم يغشاها طابع القوة والسيطرة بوجه خاص،

---

1. Death Clause.

(٢) Anagogic اصطلاح يطلقه سلبرر ويونج على النزعات اللاشعورية الروحية والخلقية أو السامية «المترجم» .

بل يرى فريق ثالث أن أحلامهم تدور حول ولادة الفرد مرة أخرى (كما يرى شتكل Stekel) . وأن هذا الاعتراض ليتهافت إذا ذكرنا أن الناس ترى فى نومها أحلاما من قبل أن يكون هناك شيء اسمه العلاج بالتحليل النفسى من شأنه أن يؤثر فى أحلامهم وأن يوجهها، وأن المرضى الذين يعالجون اليوم، كانوا هم الآخرون يرون أحلاما قبل أن يبدأوا العلاج، أم الوقائع التى يستند إليها هذا الاعتراض الجديد، فمن اليسير إدراكها وفهمها بداهة، وهى ليست ذات وزن وأثر فى نظرية الأحلام، بأى وجه من الوجوه، ذلك أن مخلفات اليوم السابق و«بقاياه» التى تستثير الأحلام، هى بقايا من أوجه اهتمامنا الشديدة فى حياتنا اليقظة.

إذا أصبح لكلمات الطبيب أو لاقتراحاته أهمية كمنبهات نفسية تستثير الحلم - شأنها فى ذلك بالتحديد شأن أوجه الاهتمام الوجدانية الأخرى التى أثيرت فى اليوم السابق ولم تشبع بعد - أى كان تأثيرها كتأثير المنبهات الدنية التى تصيب النائم أثناء نومه .. فالأفكار التى يبتعثها الطبيب قد تبدو فى المحتوى الظاهر للحلم - كتلك العوامل الأخرى التى تثير الأحلام - أو قد يكشف عنها فى الأفكار الكامنة للحلم، ونحن نعرف، فى الحق، أن الأحلام يمكن إحداثها بطريقة تجريبية، أو بعبارة أدق أن جزءاً من مادة الحلم يمكن أن يدلج بهذه الطريقة فى الحلم، فالمحلل، من حيث تأثيره فى مرضاه، يقوم بدور شبيه بدور المجرب، ولعلكم على ذكر من تجارب «مورلى فلد» التى سبق أن أشرنا إليها: إذ كان يضع أعضاء من يجرى عليهم التجربة من النائمين فى مواضع معينة.

نحن نستطيع فى أغلب الأحيان أن نوحى إلى الحالم بموضوع حلمه وما سيدور عليه، لكننا لا نستطيع البتة أن يكون لنا سلطان على ما سيراه فى الحلم. ذلك أن عملية إخراج الحلم والرغبة للاشعورية للحلم لاينال منها أى تأثير خارجى أيا كان نوعه، وقد اتضح لنا حين كنا نفحص الأحلام الناشئة من منبهات بدنية، ما تتميز به حياة الأحلام وما تتسم به من استقلال ذاتى، فى استجابة الحالم للمنبهات البدنية أو النفسية التى تصيبه، وهكذا يكون الاعتراض الذى نناقشه والذى يرمى إلى التشكيك فى موضوعية البحث فى الأحلام، قائماً، هو الآخر على نوع من الخلط وبين المادة التى يصاغ منها.

هذا كل ما أردت أن أقوله لكم عن المشكلات المتصلة بموضوع الأحلام، ولعلكم لاحظتم، أننى أغفلت ذكر أشياء كثيرة، وأننى اضطررت إلى أن أتناول كثيراً من النقاط، وإلى أن أعالجها معالجة بتراء غير كاملة، غير أن هذا القصور فى العرض، يرجع إلى أن ظواهر الأحلام متصلة اتصالا مكيناً بظواهر الأمراض النفسية، لقد اتخذنا دراسة الأحلام تمهيداً لدراسة الأمراض النفسية، وكان ذلك، دون شك، خيراً وأصح مما لو عكسنا الوضع، وكما أن الحلم يمهد الطريق لفهم الأمراض النفسية، فهو لايمكن أن يفهم، بدوره فهماً صحيحاً، وأن يقدر تقديراً دقيقاً إلا بعد أن نلم بعض الإلمام بالمظاهر العصابية.

ولا أعرف ما قد تظنونه فى سلوكى هذا الاتجاه، لكنى أستطيع أن أؤكد لكم أننى غير آسف على ما استنفدت من اهتمامكم ، وما استحوذت من وقتكم، لدراسة مشكلات تتصل بالأحلام، والحق أنى لا أعرف طريقاً آخر، غير أن أستطيع أن أثل منه فى سرعة إلى إقناعكم بصحة القضايا التى يقول بها التحليل النفسى. ذلك أننا فى حاجة إلى شهور كثيرة بل إلى سنين عدداً من الجهد الشاق الموصول، إذا أردنا أن نبين أن الأعراض فى حالة من حالات المرض تنطوى على دلالة ومعنى، وتخدم غرضاً، وتنشأ من خبرات المرض فى الحياة، لكننا لسنا فى حاجة إلا إلى بضع ساعات لنجلو فيها هذه الأشياء نفسها فى حلم يبدو ، بادئ الرأى، على درجة كبيرة من اللبس والاستغلال، ولنؤكد بهذه الطريقة كل المقدمات التى يستند إليها التحليل النفسى - فيما يتعلق بوجود العمليات النفسية اللاشعورية، والحيل الخاصة التى تهيمن على هذه العمليات، والقوى الغريزية الدافعة التى تتضح من ثناياها، فإذا ذكرنا ذلك التشابه بين انصباغ الحلم وتكُّن العرض العصابى، وذكرنا بأية درجة من السرعة، يتحول النائم الحالم إلى شخص يقظ متعقل، أيقننا أن المرض النفسى لا يتوقف، هو الاخر، إلا على اختلال فى توازن القوى التى تؤثر فى الحياة النفسية.

القسم الثالث

النظرية العامة للأمراض النفسية

المحاضرة السادسة عشرة

التحليل النفسى والطب العقلى

يسرنى كثيرا أن أراكم مرة أخرى نستأنف فيها أحاديثنا ومناقشاتنا بعد أن مضى عام على محاضراتنا الأولى، لقد تحدثت إليكم فى العام الماضى عن نظرة التحليل النفسى إلى الهفوات وإلى الأحلام وتصوره إياها، وأريد أن أعرفكم هذا العام بظواهر عصابية تشترك مع هذين الموضوعين فى كثير من السمات، كما سترون، على أنه يتعين علىّ قبل أن أبدأ محاضراتى هذه أن أطالعكم بأنى لا أستطيع أن أقف منكم هذا العام ذلك الموقف الذى اتخذته فى العام الماضى. فقد كانت لا أخطو خطوة إلا بموافقتكم، كما كنت أكثر من مناقشتكم وأمتثل لاعتراضاتكم، بل لقد كنت أرى فيكم وفى «ذوقكم الفطرى السليم»، العامل الحاسم والدليل المرجح، غير أن هذا لم يعد أمراً ممكناً، وذلك لسبب بسيط جداً، فقد كانت الهفوات والأحلام ظواهر مألوفة لكم، بل ربما كان لكم بها من الخبرة ما كان لى، أو كنتم تستطيعون أن تظفروا بهذه الخبرة فى غير عناء، لكن ميدان الظواهر العصابية غريب عنكم، فمن لم يكن منكم طبيباً فليس له إلى هذا الميدان من سبيل إلا ما أقدمه من معلومات وبيانات، وفيم تغنى أكثر الأحكام سداداً فى الظاهر، إذا كان من يصدرها على غير علم بالموضوع الذى يتناوله الحكم والنقاش؟

ومع هذا فلا تحسبوا أنى سألتزم جانب التعسف والجزم فى أحاديثى هذه، فأفرض عليكم معلومات تتقبلونها دون قيد أو شرط، ولو فعلتم أسأتم إلىّ ولم تنصفونى فيما أريد إليه، فأنا لا أهدف إلى أن أرغمكم على الاقتناع إرغاما، بل أهدف إلى حفزكم على البحث والتحرى، وإلى نقض ما لديكم من انحياز وأفكار سابقة، فإن لم يتح لكم جهلكم بالموضوع فرصة للحكم، فليس لكم أن تؤمنوا أو أن تكفروا، وما عليكم إلا أن تستمعوا وأن تذروا ما يقال لكم يؤثر فى نفوسكم، إن الظفر بالاقتناع ليس أمراً هيناً، فإن قُدر للمرء أن يقتنع دون جهد وعناء، فأغلب الأمر ألا يكون لاقتناعه وزن أو أن يكون قد خبره كما فعلت، سنين عدداً، ولمس بنفسه تلك الكشوف الجديدة الأخاذة التى سأحدثكم عنها، إذ ما قيمة الاقتناع السريع والانقلاب الخاطف والرفض الفورى حين يدور الأمر على مسائل فكرية؟ أو لم تروا إلى أن الحب الصاعق الذى يسمونه «الحب من أول نظرة» شىء ينتمى إلى مجال الوجدانيات لا إلى مجال الأمور

الفكرية، وهو مجال بعيد الاختلاف عما نحن فيه؟ نحن لا نتطلب حتى من المرضى الذين يتناولهم بالعلاج أن يأتوا إلينا مقتنعين بجدارة التحليل النفسى، عاقدين زمام الولاء له، فإن كان هذا شأنهم ، كنا فى ريب من أمرهم. وكل ما نرجوه هو أن يكون موقفهم موقف المتشكك السمح الذى يرجو رويدا رويدا فى عقولكم إلى جانب آراء الطب العقلى أو الآراء الشعبية حتى يهيأ للصلات أن تنعقد بين هذه الآراء جميعًا، فيتاح لكم أن تخرجوا من ذلك آخر الأمر برأى حاسم.

وتخطئون من ناحية أخرى إن ظننتم أن وجهة نظر التحليل النفسى التى سأبسطها لكم، تنهض على أفكار قامت على النظرة والتأمل، إذ هى على عكس هذا ثمرة لخبرة قامت على ملاحظات مباشرة أو على نتائج مستمدة من الملاحظة.

والتقدم المرتقب فى العلم كفيل بأن يُبين لنا ما إذا كانت هذه النتائج مغنية ولها جهود شاقة موصولة استأثرت بسنوات طوال من عمرى، ومهنة أمضيت فيها عقدين ونصف عقد من الزمان، وكنت أشعر فى كثير من الأحيان أن خصومنا يعرضون عن وضع هذا المصدر الذى خرجنا منه بتقاريرنا موضع اعتبار، ظنا منهم أنها أفكار ذاتية محضة يمكن أن تدحض بأخرى حين يحلو للمرء أن يمارى فيها، والحق أنى لم أستطع أن أفهم هذا الموقف الذى يقفه خصومنا حق الفهم، فلعله نتيجة للموقف الذى يتخذه الأطباء من مرضاهم العصابيين عادة؛ إذ لا يعيرونهم ما هم أحرياء به من عناية واهتمام، ولايكترثون لما يدلون به من أقوال، حتى استحال على الأطباء أن ينتزعوا مما يقوله المرضى معلومات ذات قيمة، أو أن يجروا عليهم ملاحظات يمكن أن تكون أساساً لاستنتاجات عامة.

وأنتهز هذه الفرصة لأؤكد لكم أنى لن أتعرض فى محاضراتى هذه لمناقشات جدلية مع هذا الباحث أو ذاك بوجه خاص، فأنا لست ممن يؤمنون بصدق العبارة التى تقول: «إن الأشياء جميعا وليدة الخصام والنزاع»، فهى عبارة مصدرها فلسفة السوفسطائيين من الأغريق فيما أعتقد، وهى خاطئة خطأ هذه الفلسفة، لأنها تغلو فى تقدير قيمة الجدل، بل يبدو لى، على عكس هذا، أن ما يسمى بالجدل العلمى هو، فى جملته، أمر عقيم غاية فى العقم، هذا إلى ما يصطبغ به دائمًا من صبغة شخصية ذاتية، وأستطيع أن أفاخر بأنى لم أصطنع سلاح الجدل إلا مع باحث واحد هو «لونفلد» من ميونخ Löwenfeld ، وكان ذلك منذ بضع سنين، فخرجنا من ذلك الجدل

صديقين، وظلت صداقتنا قائمة إلى اليوم، غير أنى لم أعد هذه التجربة فترة طويلة من الزمان، فقد كنت أشك فى أنها ستؤدى إلى ما أدت إليه فى المرة الأولى.

ستحسبون من دون شك أن مثل هذا الإعراض عن النقاش العلنى يشهد بعجز وتخاذل إزاء الاعتراضات، أو بنوع من التعنت والعناد المسرف، وأجيب عن هذا بأن المرء حين يقتنع بشىء فى ناحية ما، بعد أن يبذل فى ذلك جهداً مضنياً شاقًا، فله بعض الحق فى أن يستمسك بهذا الشىء وأن يذود عنه فى تشبث وإصرار، على أنى أود أن أقول لكم أنى كنت أثناء عملى هذا، أتناول بعض آرائى بالتغيير والتحوير والتبديل فى نواحٍ مهمة منها، ولم أتوان قط عن التصريح بهذا علانية، فماذا كانت عاقبة هذه الصراحة؟.

لقد فات البعض ما قمت به من تصحيح وتصويب، فلا يزالون يوجهون إلىّ حتى اليوم نقداً عن وجهات نظر، لم يعد لها عندى ما كان لها من معنى ومفهوم بالأمس، وآخرون يؤاخذوننى على هذا التغيير والتحوير تحديداً، ويرون عدم الركون إلى والوثوق بى من أجل هذا، فكأن من يتناول آراءه بالتغيير والتعديل بين حين وحين غير خليق أن يضع الناس ثقتهم فيه، فأكبر الظن أن يكون خطأً فى الأخرى كما كان فى الأولى، وكأن من يستمسك بما قاله أول مرة أو من لا يحيد عنه فى سهولة، متعنت عنيد؟ فماذا عساى أن أصنع إزاء هذين الوجهين المتناقضين من النقد إلا أن أبقى على ما أنا عليه، وأن أتبع ما يبدو لى خيراً، وهذا ما عقدت العزم على المضى فيه، فلن يصدنى شىء عن تنقيح نظرياتى وتحسينها بما يقتضيه تقدم خبرتى وتجاربى، أما فيما يتصل بآرائى الأساسية، فلم أر فيها بعد ما يستحق التغيير، وأرجو أن يكون الأمر كذلك فى المستقبل.

فعلىّ إذاً أن أعرض عليكم نظرية التحليل النفسى عن الظواهر العُصابية ، ومن الأيسر أن أربط بين هذه الظواهر وبين الظواهر التى تكلمت عنها من قبل، لما بين هذه وتلك من أوجه للتشابه والتباين، سأسوق إليكم مثلا «فعلا عارضياً» يقوم به كثير من المرضى أثناء استشارتى، إن المحلل النفسى لا يستطيع أن يصنع شيئًا لهؤلاء الذين يفدون إليه فيقصون عليه فى نصف ساعة كل ما لقوه من بؤس وشقاء طول حياتهم، وإن معرفته العميقة بحالتهم لا تأذن له أن يتخلص من أحدهم كما يفعل غيره ـ بأن يهون عليه الأمر ثم يصف له شوطاً قصيراً من المعالجة بالمياه.

ولقد سئل أحد زملائنا عما يفعله مع المرضى الذين يستشيرونه ، فأجاب وهو يهز كتفيه: «أوقع على الواحد منهم غرامة بضعة كرونات لتضييع وقت المحكمة!» فلاتدهشوا إذاً إن عرفتم أن عيادات المحللين، حتى أكثرهم عملاً لا تزخر فى العادة بكثير من الزائرين، لقد أقمت فى عيادتى، بين غرفة الانتظار وغرفة الاستشارة، باباً آخر يعزز الباب الأصلى، وكسوته باللباد، وهو احتياط لا يعز علينا فهم معناه، فكان الزائرون ينسون دائما، حين آذن لهم فى الدخول إلىّ، أن يغلقوا البابين بعد دخولهم، وكنت لا أتوانى فى هذه الحالات أن أطلب إلى الزائر أو الزائرة، فى شيء من العنف، أن يلاحظ ما غفل عنه وأن يعود فيغلق البابين، مهما بدا الزائر لطيفاً أو بدت الزائرة فى زينة، أنفقت فيها ساعات عدداً، قد ترون فى هذا نوعاً من التعمل والتحذلق، والحق أنى كنت ألوم نفسى أحياناً على هذا الطلب، حين كان يظهر لى أن الزائر عاجز عن أن يقبض على مقبض الباب، ويسره أن يقوم غيره بهذا التكليف، غير أنى كنت على حق فى أغلب الأحيان، لأن من يسلك هذا السبيل، فيذر الأبواب مفتوحة بين مكتب الطبيب وغرفة الانتظار، شخص غير مهذب فلا يستحق أن يُلقى لقاء حسنا، وأرجو منكم ألا تصدروا عن هذا حكما حتى تستمعوا إلى بقية القصة، إن هذا الإهمال من جانب المريض لا يحدث إلا متى وجد نفسه وحيداً فى غرفة الانتظار، فهو يذره آمنا أن ليس فيها أحد، أما إن كان بها أحدٌ غيره لا يعرفه، اهتم فأوصد البابين إثر دخوله، لأنه يعرف حق المعرفة، فى هذه الحالة، أن ليس من صالحه أن يستمع أحد إلى ما يقوله للطبيب.

وهكذا لايكون إهمال المريض وليد الصدفة والاتفاق، ولا يكون غفلا من الدلالة والمعنى، بل ومن الأهمية أيضاً، لأنه يكشف عن موقفه من الطبيب كما سنرى، مثل هذا المريض ينتمى إلى تلك الفئة الكبيرة من الناس الذين يلتمسون الأطباء ذوى الشهرة العريضة، والذى يفتشون عمن يبهرهم ويروعهم، وربما قد اتصل تليفونيا قبل مجيئه بعيادة الطبيب يستفسر عن أنسب وقت يتسنى له فيه رؤية الطبيب، أو خُيل إليه أنه سيجد أمام منزل الطبيب صفاً طويلا من الناس كذلك الذى نراه أمام حانوت البقال فى زمن الحرب، فإذا به يلج حجرة خاوية، غلاف من أى أثاث فاخر، وهكذا يجد أن ظنه قد أُخلف، فيود لو أتيح له أن يقتص من الطبيب على ما كان يكنُّه له من احترام زائد لم يُكتب له أن يفصح عنه، وإذا به يغفل عن قفل البابين بين غرفة الانتظار

وغرفة الطبيب، فكأن لسان حاله يقول: «وما الفائدة من غلق البابين، ليس فى غرفة الانتظار أحد، ولا يحتمل أن يدخلها أحد ما دمت فى مكتبك؟» بل إنه قد يبدو بمظهر الاستخفاف والتشامخ أثناء الاستشارة إن لم يوقف عند حده من أول الأمر.

إن تحليل هذا الفعل العارضى البسيط لايعلمنا شيئا لم نعرفه من قبل، فهو ليس وليد المصادفة والاتفاق، بل ينطوى على دافع ومغزى ودلالة وقصد، وهو جزء من سياق نفسى معين، كما أنه فيه إشارة طفيفة إلى حالة نفسية أهم منه، غير أنه يتضمن، قبل كل شيء، أن الحالة النفسية التى يعبر عنها لا يفطن إليها الشخص الذى يقوم بالفعل، فليس من بين المرضى الذين لايوصدون البابين، واحد يعترف بأنه يريد من إهماله هذا الغضَّ من الطبيب، ومن المحتمل أن يسلم كثير من هؤلاء بأن ظنهم قد أخلف عند دخولهم غرفة الانتظار، لكن المحقق أنهم لايفطنون إلى ما بين شعورهم وبين فعلهم العارضى من صلة وارتباط.

وإليكم حالة لإحدى مرضاى، أضعها إلى جنب ذلك الفعل العارضى البسيط لنقارن بينهما، وهى حالة اخترتها لأن ذكراها ما تزال غضة فى ذهنى، ولأنها مما يمكن أن يوصف فى إيجاز، على أنى أصرح لكم أن وصف أمثال هذه الحالات يقتضى قدراً معينا من الإطالة والتفصيل:

دعانى ضابط شاب، إبان عطلة له، أن أتعهد حماته بالعلاج، وهى سيدة تعيش فى جو يحفه النعيم من كل جانب، لكنها تنغص حياتها وحياة أسرتها بفكرة سخيفة باطلة، وقد وجدتها ماتزال محتفظة بكيانها، وهى فى الثالثة والخمسين من عمرها سيدة ذات لقاء ودود بسيط، لم تتردد أن تفضى إلى بقصتها التالية:

إنها تعيش سعيدة جداً فى الريف مع زوجها الذى يدير مصنعًا كبيراً، وهى لاتستطيع أن توفى زوجها ما هو جدير به من الثناء على رفقه وعنايته، فقد تزوجا عن حب منذ ثلاثين عاما، ولم تعش حياتهما قط سحابة من خلاف أو شقاق أو مما يستوجب الغيرة، وكان لها منه طفلان تزوجا زواجًا حسناً، أما الزوج فيدفعه شعوره بالواجب إلى أن يمضى أعماله حتى النهاية، ومنذ عام واحد حدث لها شيء لايُصدق ولا يصح فى الأذهان، شيء لم تستطع أن تفهمه: فقد تسلمت خطابا غفلا من الإمضاء يتهم زوجها الممتاز بأن له صلات حبيبة بفتاة، فصدقت بما فيه من فورها،

ومنذ ذلك الحين تحطمت سعادتها تحطيما ، وقد ظهر من المناقشة وتقليب الموضوع أن لهذه السيدة خادمة، وأنها كانت تناقش أمورها الخاصة الحميمة معها فى صراحة أكثر مما ينبغى، وكانت هذه الخادمة تحمل غلا شديدا لفتاة أخرى برزت عليها فى الحياة، مع أنهما من طبقة اجتماعية واحدة، فبدل أن تمارس الخدمة فى البيوت، أخذت الفتاة تدرب نفسها تدريبًا تجاريا، حتى أتيح لها أن تعين مستخدمة فى المصنع، وقد أعانتها ظروف الحرب وذهاب كثير من رجال المصنع إلى جبهة القتال على أن تشغل فيه منصباً طيبًا: فكانت تسكن المصنع نفسه، ولا تتعرف إلا «بالسادة» من القوم، وكان الناس جميعاً يسمونها «الآنسة»..

أما الخادمة التى تخلفت عنها فى موكب الحياة، فكانت على استعداد لأن تفرغ ما تحتويه الدنيا من شر على تلك الفتاة، زميلتها القديمة فى المدرسة، وذات يوم أخذت السيدة تتحدث مع خادمتها فى أمر رجل عجوز زار المنزل، كان يعرف بأنه يعيش منفصلا عن زوجته ويتخذ خليلة من النساء، ولا تعلم السيدة ماذا دفعها أن تقول لخادمتها بهذا الصدد إنه لا شىء أفظع من أن يترامى إلى سمعها أن زوجها يتخذ خليلة له، وفى اليوم التالى لهذا تسلمت السيدة ذلك الخطاب الغفل مكتوبا بخط خفى منكر ، يحمل إليها الخبر الذى جال فى خاطرها تحديداً، فاستنتجت أنه من فعل خادمتها الحقود؛ لأن الفتاة المتهمة بأنها خليلة الزوج هى عين الفتاة التى تحمل لها الخادمة كرهاً كبيراً.

ومع أنها سرعان ما فطنت إلى ما ينطوى عليه الأمر من دس ووقيعة، وقد علمتها الخبرة أن أمثال هذه الاتهامات النذلة غير جديرة بالتصديق، إلا أنها رغم هذا كله لم تلبث أن انهارت أعصابها مما ورد فى الخطاب، فأصابتها نوبة من اهتياج شديد، فأرسلت من فورها تطلب زوجها فكالت له ألوانًا من السباب، غير أن زوجها تقبل هذا الاتهام ضاحكاً وعمل ما فى وسعه لتهدئة حالتها، ثم استدعى طبيب الأسرة (وكان فى الوقت نفسه طبيب المصنع) ليعينه على خطبه هذا. وقضى الأمر بأن طردت الخادمة من المنزل، لكن الخليلة المزعومة ظلت فى مكانها، ومنذ ذلك اليوم تزعم السيدة فى كثير من الأحيان أن هدوءها قد ردّ إليها وأنها لم تعد تعتقد بما جاء فى هذا الخطاب الغفل، لكنها كان هدوءاً ضحلا موقوتًا، فقد كان يكفى أن تسمع باسم هذه الفتاة أو أن تصادفها فى الطريق لكى تصيبها نوبة من الارتياب والكرب والتعنيف.

هذه هى الصورة الكلينيكية لتلك السيدة الطيبة، ولايحتاج المرء إلى خبرة كبيرة بالطب العقلى ليعرف أنها كانت - على عكس غيرها من العصابيين - تميل إلى التخفيف من وصف أعراضها؛ أى إنها كانت تميل إلى التصنع كما نقول، وأنها لم تفلح قط فى التغلب فعلا على اعتقادها بما جاء فى الخطاب الغفل.

أى موقف يتخذه الطبيب العقلى فى مثل هذه الحالة؟ لقد عرفنا قبلُ موقفه من الفعل العارضى للمريض الذى لا يغلق الأبواب عند دخوله، فهو يرى أن يتخذ هذا الموقف نفسه حيال هذه السيدة الغيور، فلئن بدا الفعل العارضى غير ذى أهمية، فالعرض المرضى يسترعى الانتباه كظاهرة خطيرة، ذلك أنه مصدر ألم وكرب شديدين للمريض، كما أنه يهدد بتحطيم الأسرة من جهة أخرى فلا نزاع إذاً فى أنه يتطلب العون والاهتمام من الطب العقلى، والطبيب العقلى يحاول، بادئ ذى بدء، أن يميز العرض بخاصة من خصائصه الجوهرية، ثم إن الفكرة التى تساور المريضة وتنغص حياتها لايمكن أن توصف بأنها سخيفة متناقضة فى ذاتها، فقد يحدث بالفعل أن يعقد الأزواج الذين تقدم بهم العمر صلات مع نساء صغيرات غير أن الأمر شيئا آخر يستعصى على الفهم ولا يصح فى الأذهان، فليس لدى هذه السيدة داع مطلقاً - إلا ذلك الخطاب الغفل - لتعتقد أن زوجها المخلص ينتمى إلى هذه الشرذمة من الأزواج غير المخلصين، وهى تعرف أن الخطاب لايمكن أن ليس هناك ما يبرر غيرتها، والواقع أنها تقول ذلك لنفسها، لكنها على الرغم من هذا تتألم كما لو كانت لديها أدلة لا تدحض على خيانة زوجها، هذه الأفكار التى تستعصى على الحجج المنطقية والحجج المستمدة من الواقع هى ما تسمى **بالأهجسة**، فهذه السيدة إذاً تكابد من **هجاس الغيرة**. تلك هى السمة الجوهرية لهذه الحالة المرضية.

إن تحديد هذه النقطة الأولى، من شأنه أن يزيد اهتمامنا بهذه الحالة من ناحية الطب العقلى؛ فالهجاس إذا كان يستعصى على الأدلة الواقعية، فأكبر الظن أنه لا ينشأ من الواقع، فمن أين ينشأ إذاً ثم إن محتويات الهجاس شتى تختلف اختلافا كبيراً، فلم كانت الغيرة بعينها محتوى الهجاس فى هذه الحالة؟ وما نوع الأشخاص الذين يصيبهم الهجاس، وخاصة هجاس الغيرة؟ نريد أن نستمع الآن إلى ما يقوله الطبيب العقلى، فهل لديه شيء يقوله؟

شيء! وهو بعد هذا لا يهتم إلا بسؤال واحد من أسئلتنا هذه.. فسيقوم بفحص تاريخ أسرة هذه السيدة، وربما أجابنا بقوله إن الهجاس يصيب الأشخاص الذين تكشف سوابقهم الوراثية عن اضطرابات نفسية شبيهة به أو مختلفة عنه، وبعبارة أخرى لقد أصاب الهجاس هذه السيدة لأن استعدادها الموروث هيأها لذلك، لا شك أنها ملاحظة طريفة، لكن أهي كل ما نريد أن نعرف عن الموضوع؟ وهل هي السبب الوحيد للمرض؟

إننا بصدد هجاس اتخذ سبيله إلى نفس المريضة في صورة غيرة لا في صورة شيء خلاف الغيرة، فهل هذه واقعة تعسفية لا وزن لها ولا سبيل إلى تفسيرها؟ وهل لنا أن نفهم ذلك بالرأي الذي يقضي بأن الاستعداد الموروث هو العامل الحاسم ـ هل لنا أن نفهمه بمعنى سلبي كذلك، أي هل يجوز لنا ألا نقيم وزناً للخبرات والتجارب الانفعالية التي مرت بها السيدة، ما دام استعدادها الوراثي يهيؤها للهجاس؟ لا شك أنكم تريدون أن تعرفوا لِمَ يعجز الطب العقلي العلمي عن أن يزودنا بتفسير أكثر من هذا فأجيبكم بأن من يعطي أكثر مما يملك فهو غاش غير أمين. والطب العقلي لايملك وسيلة ينفذ بها إلى تفسير أوسع وأشمل لمثل هذه الحالة، فهو يقنع بتشخيصها ويقتصر ـ على الرغم من خبرته الواسعة ـ على أن يتنبأ بسيرها في المستقبل تنبؤاً غير يقيني.

أعند التحليل النفسي ما هو خير من هذا وأكثر؟ ما في ذلك شك. وأرجو أن أوفق، فأبيّن لكم أنه يستطيع أن يلقي الضوء، حتى في حالة غامضة كتلك التي بين أيدينا، على وقائع تزيد من فهمنا لها.. ثم أطلب إليكم أولاً أن تنظروا في تفصيل غير مفهوم من تفاصيل هذه الحالة، وهو تفصيل يبدو أن لا دلالة له ـ ذلك أن المريضة نفسها هي التي أوحت في الواقع بهذا الخطاب الغفل الذي كان بدء هجاسها، فقد قالت لخادمتها الدساسة في اليوم السابق لتسلمها الخطاب إنه لا شيء أفظع من أن تسمع بأن زوجها يتخذ خليلة، أو ليس في قولها هذا ما يوحي إلى الخادمة بإرسال الخطاب؟

إذاً لقد كان الهجاس مستقلاً عن الخطاب إلى حد ما، وكان يوجد في نفسها من قبل في صورة خشية (أو في صورة رغبة) يضاف إلى هذا بضع أمارات يسيرة شاهدتها خلال ساعتين من التحليل، فبعد أن قصت عليّ المريضة قصتها، لم تكن راغبة في الواقع، في أن تستجيب إلى ما طلبت إليها من أن تفضي إليّ بأفكار وذكريات وخواطر أخرى، وزعمت أن ليس لديها شيء آخر تقوله، وقد تعين عليّ أن

أقف عن هذه المحاولة بعد ساعتين، عندما صرحت بأنها خيرٌ مما كانت عليه، وأنها على يقين من أنها تحررت من تلك الفكرة المرضية، وغنى عن البيان أن تصريحها هذ يرجع إلى مقاومة وإلى خوفها من أن أمضى فى التحليل. بيد أنها خلال هاتين الساعتين قد أفلتت منها بضع ملحوظات تبيح لنا بل تفرض علينا تأويلا معيناً، وهو تأويل يلقى كثيراً من الضوء على أصل هجاس الغيرة لديها، فقد كانت تحتضن بالفعل عاطفة عميقة لشاب معين، هو صهرها الذى ألح عليها أن تلتمس معونتى لها على حالتها، ولم تكن تفطن البتة إلى وجود هذه العاطفة، أو ربما لما تكن تفطن إليها إلا فى القليل.. ونظراً لما بينهما من قرابة، لم يك من الصعب على هذه العاطفة أن تتنكر فى زى ود برىء وعطف لابأس منه.

لا يشق علينا بعد ما عرفناه عن هذه الحالة أن ننفذ فى الحياة النفسية لهذه السيدة الطيبة والأم الممتازة ذات الثلاثة والخمسين عاماً. لقد كانت عاطفتها نحو صهرها أفظع من أن يتاح لها أن تصبح عاطفة شعورية، فظلت لا شعورية تبهظ المريضة بضغط شديد، وكان لابد للسيدة من شىء يخفف عنها ذلك الضغط، وأبسط وسيلة لهذا التخفف هى حيلة «النقل»[1] التى تقوم على الدوام بدور فى تكوين هجاس الغيرة، فلو أنها لم تكن وحدها ـ وهى المرأة المسنة ـ تحب شابا صغيراً، بل كان زوجها أيضاً يحب فتاة صغيرة، لكان فى هذا خلاصاً لها من وخز ضميرها على خيانتها تلك، وهكذا كان توهمها خيانة زوجها بلسماً يهدئ من جراحها المحرقة، لقد كانت غير شاعرة بأنها تحب ذلك الشاب. غير أن هذا الحب قد انعكس على الهجاس الذى كان برداً وسلاماً عليها، فأمسى هذا الانعكسا قهرياً هجسياً شعورياً، ومن ثم فلا جدوى من محاجة السيدة بالمنطق أو الواقع؛ إذ إن الحجج لا تتناول إلا الصدى الخارجى للفكرة المرضية الأصيلة، لا الفكرة المستترة الممتنعة فى اللاشعور التى يستمد منها الصدى قوته وتسلطه.

ونحاول أن نلخص النتائج التى وصلنا إليها من هذا التحليل النفسى الموجز العويص، فقد تعنينا على فهم هذه الحالة المرضية، والمفروض بطبيعة الحال أن المعلومات التى ظفرنا بها صحيحة، وإن كانت هذه نقطة لايتسنى لكم أن تحكموا عليها هنا؛ فالنتيجة الأولى أن الهجاس لم يعد شيئا مستغلقاً غفلا من المعنى، بل إن له

1. Displacement.

معنى ودافعا منطقياً، هذا إلى أنه يرتبط بخبرة وجدانية كابدتها المريضة، النتيجة الثانية أن الهجاس رد فعل ضرورى على عملية نفسية لا شعورية، تسنى لنا أن نميط اللثام عنها من أمارات أخرى، وأنه اتخذ طابعه الملحّ الباطل، وأصبح مستعصياً على المنطق والواقع، لارتباطه بهذه العملية النفسية اللاشعورية..

الأمر الثالث أن الهجاس هجاس غيرة وليس هجاساً من نوع آخر، فقد استثارته، دون مراء، تلك البطانة النفسية للمريضة التى حدت بها أن تقص على خادمتها ماقصته، ولعلكم لاحظتم أن بين هذه الحالة والفعل العارضى الذى حللناه من قبل، وجهين مهمين من وجوه الشبه، هما وجود معنى أو قصد وراء العرض، وصلته بعنصر لاشعورى هو جزء من الموقف.

غنى عن البيان أننا لم نجب عن كل الأسئلة، التى تدور على هذه الحالة، بل هى حالة تزخر بمشكلات أخرى، بعضها لا نستطيع أن نجد له حلا البتة، وبعضها الآخر مما لايتسنى حله بسبب الظروف غير المواتية، الخاصة بهذه الحالة، فما السبب، مثلا، فى أن تقع هذه السيدة التى تسعد بزواجها فى حب صهرها، ولِمَ لم تأتها النجدة والتخفف مما هى فيه من ضيق إلا بإسقاط حالتها النفسية على زوجها، فى حين أن هناك أشكالا ممكنة أخرى للفرجة والخلاص غير هذا الشكل؟ ولا تحسبوا أن هذه أسئلة فارغة أو دخيلة، فهى تحتمل أجوبة بين أيدينا مادة كافية لصوغها، فقد كانت السيدة فى تلك السن الحرجة التى تلح فيها الرغبة الجنسية على المرأة إلحاحًا مباغتا غير مساغ: وهذا وحده يكفى فى تفسير بقية القصة، أو أن تكون القدرة الجنسية لزوجها الطيب المخلص لها قد قصرت منذ سنوات عن أن تجارى حاجة زوجته التى ماتزال فى عنفوانها.

وقد علمتنا الخبرة أن أمثال هؤلاء الأزواج ـ الذين لايحتاج إخلاصهم لزوجاتهم إلى تفسير آخر ـ يعاملونهن بحنان خاص وينصفونهن إنصافا خاصا حين تضرب أعصابهن.. يضاف إلى هذا أمر آخر لا يخلو من الأهمية بحال: هو أن تتخذ السيدة صهرها، على التحديد، موضوعا لحبها الشاذ. إن التعلق الشهوى بالابنة، وهو تعلق يمكن ردّه آخر الأمر إلى الجبلة الجنسية الخاصة للأم، يسعى غالبا إلى الاحتفاظ بنفسه

(١) انظر كتاب «الطوطم والطابو» عام ١٩١٣.

عن طريق هذا التحول، وهل أذكركم فى هذا الصدد بأن الإنسانية تنظر منذ عهد سحيق إلى العلاقة بين الحماة وزوج ابنتها، نظرة حساسة بوجه خاص، وقد أقامت هذه النظرة عند الشعوب البدائية طائفة من التحوطات وضروب الطابو[1] (المحرمات) الصارمة، كما أن هذه العلاقة غالبا ما تتجاوز - فى اتجاهها الإيجابى كما فى اتجاهها السلبى - الحدود التى يرتضيها المجامع المتحضر، على أنى لا أستطيع أن أقول أية هذه العوامل الممكنة الثلاثة هو المسئول عن هذه الحالة، أو واحد منها، أم اثنان معاً، أم العوامل الثلاثة جميعًا.. هذا ما لا أستطيع أن أجزم فيه بشىء، فلم يتسن لى أن أواصل التحليل أكثر من ساعتين.

أدرك الآن أنى كنت أحدثكم عن أشياء لم تكونوا مهيئين بعد لفهمها، وقد فعلت هذا لأوزان بين الطب العقلى والتحليل النفسى. فهل لاحظتم شيئًا من التعارض والتناقض بينهما؟ إن الطب العقلى لا يستخدم الطرق الفنية للتحليل النفسى، ولايحفل بالنظر فى محتوى الهجاس، كما أنه يقنع بأن نشير إلى أن الوراثة عامل علىٍّ عام بعيد، بدل أن يسعى إلى التماس العلل العلمية الخاصة والقريبة. لكن هل فى هذا شىء من التعارض أو التناقض؟ ألا ترون أن الطب العقلى والتحليل النفسى يكمل أحدهما الآخر، كما أن العامل الوراثى وخبرة الفرد يكمل بعضهما الآخر فى غير ما تعارض أو تناقض، بل يتضافران تضافراً فعالا لإحداث النتيجة نفسها؟.

ستسلمون بأن ليس فى جوهر الطب العقلى وطبيعته شىء يمكن أن يناهض بحوث التحليل النفسى؛ فأطباء العقول إذاً - لا الطب العقلى نفسه - هم الذين يعارضون التحليل، إن التحليل النفسى يقع من الطب العقلى موقع علم الأنسجة من علم التشريح: يدرس أحدهما الشكل الخارجى للأعضاء فى حين يدرس الآخر الأنسجة والخلايا التى تتكون منها هذه الأعضاء، فكيف يصح فى الأذهان أن يقوم التناقض بين هذين النوعين من البحث اللذين يتم أحدهما عمل الآخر؟ إن التشريح يقوم اليوم أساسًا للدراسة العلمية للطب. بيد أنه أتى على الناس حين من الدهر، كان يعتبر فيه تشريح الجثث الإنسانية لمعرفة البناء الداخلى للجسم، من المحرمات الصارمة، شأنه فى ذلك شأن مزاولة التحليل النفسى اليوم ابتغاء الكشف عن البناء الداخلى للنفس الإنسانية، على أن مجرى الأمور يحملنا على أن نعتقد بأنه لن يمضى وقت طويل حتى نرى أن الطب العقلى بمعناه العلمى الصحيح، لايمكن أن ينهض دون معرفة مستفيضة بالعمليات اللاشعورية العميقة للحياة النفسية.

قد يكون للتحليل النفسى الذى طالما بهته الناس بغير ما اكتسب.. قد يكون له أنصار بينكم يسرهم أن يثبت وجوده فى اتجاه آخر أيضاً، هو اتجاه العلاج، تعرفون أن أساليب الطب العقلى التى نملكها، لاتزال عاجزة إلى اليوم عن التأثير فى الهجاس بأنواعه، فهل يكون التحليل النفسى، وهو الذى يعرف كيف تتكون هذه الأعراض، أكثر توفيقًا فى هذه الناحية ؟ لا، إنه ليس أجدى فى تناول هذه الأمراض من أية وسيلة أخرى للعلاج، هذا هو الواقع على الأقل فى الوقت الحاضر..

صحيح أننا نستطيع أن نفهم ماذا يحدث فى نفس المريض، لكن ليست لدينا أية وسيلة تمكننا من أن نجعل المريض نفسه يفهم ذلك.. لقد ذكرت لكم أنى لم أستطع أن أمضى فى تحليل الهجاس السابق إلى أبعد من طبقاته السطحية، فهل لنا أن نستنتج من هذا أنه لا مندوحة عن ترك التحليل فى أمثال هذه الحالة لأنه لا يغنى فيها شيئًا؟. لست ممن يرون هذا الرأى.. فمن حقنا، بل من واجبنا أن نمضى فى بحوثنا دون نظر إلى فائدتها المباشرة، وسيأتى يوم لا نعرف متى يكون وأيّان يكون - يتحول فيه كل جزء يسير من المعرفة إلى قوة، وإلى قوة علاجية، وحتى إن أخفق التحليل النفسى فى تناول الأمراض العصبية والنفسية الأخرى جميعاً، كما أخفق فى تناول الهجاس، فإنه سيظل مع هذا وسيلة لها ما يبررها وأداة لايمكن أن تستبدل فى البحث العلمى..

صحيح أننا لن نكون قادرين يومئذ على مزاولته، لأن الناس الذين نريد أن نتعلم عليهم، أناس أحياء لهم إرادته الخاصة ولابد لهم من دوافع شخصية ليعينوننا على عملنا هذا - نقول إن هؤلاء سوف يرفضون التعاون معنا؛ لذا لا أريد أن أختتم محاضرتى اليوم، دون أن أخبركم أن هناك مجموعات كبيرة من الاضطرابات النفسية قد ظهر فى نطاقها بالفعل أثر ذلك التحول، الذى تصبح به المعرفة المتزايدة قوة علاجية، وأن التحليل النفسى يظفر - فى ظروف خاصة - إذ يتناول هذه الاضطرابات المستعصية، بنتائج لايمكن أن يظفر بها أى فرع آخر من فروع العلاج الطبى.

المحاضرة السابعة عشرة

معنى الأعراض

بينت لكم فى المحاضرة السابقة أن الطب العقلى الكلينيكى لا يشغل نفسه بالمظهر الفعلى لكل عرض أو بمحتوى هذا العرض، فى حين أن التحليل قد ركز اهتمامه الرئيسى فى هاتين الناحيتين، وأفلح فى أن يقرر أن لكل عرض معنى وأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة النفسية للمريض. لقد كان بروير Breuer أول من كشف عن معنى الأعراض العصابية فى دراسته وعلاجه الناجح لحالة هستيريا أصبحت من الحالات الشهيرة التى يشار إليها منذ ذلك الحين (عام ١٨٨٠ - ١٨٨٢).

والحق أن جانيه Janet قد ظفر بهذا الكشف نفسه مستقلا عن بروير، بل لقد كان لهذا العالم الفرنسى أسبقية النشر، لأن بروير لم ينشر ملاحظاته إلا بعد أكثر من عشر سنوات (عام ١٨٩٣ - ١٨٩٥) يوم كنا نعمل معا، ولا يعنينا كثيراً أن نعرف إلى من ينتمى هذا الكشف، فكل كشف يصنع أكثر من مرة، وليس ثمة كشف صيغ كله دفعة واحدة، والنجاح لا يعزى دائمًا إلى من يستحقه، فأمريكا لم تسم باسم مكتشفها كولومبس، وقبل بروير وجانيه صرح لوريه Leuret الطبيب العقلى العظيم بأنه من الممكن أن نقع على معنى حتى فى أهجسة المجانين، إذا عرفنا كيف نترجمها، وأعترف أنى كنت أتوق حيناً طويلا إلى أن أطالع جانيه بتقدير رفيع لقاء تفسيره الأعراض العصابية بأنها تعبيرات عن **أفكار لا شعورية** تهيمن على نفس المريض. غير أنه ظهر بعد هذا بمظهر المتحفظ المسرف كما و كان يريد أن يفهم الناس أن اللاشعور لا يعدو أن يكون فى نظره «مجرد صيغة من صيغ الكلام»، وأن هذا الاصطلاح لا يقابل عنده شيئا «واقعيا»، ومنذ ذلك الحين لم أفهم بعد آراء جانيه، واعتقد أنه لم يحسن بهذا إلى نفسه بل حرمها من كثير مما تستحق.

للأعراض العصابية إذاً معنى، كالهفوات والأحلام، كما أنها ترتبط بحياة الشخص الذى تبدو لديه، هذا موضوع مهم أريد أن أجلوه لكم ببضعة أمثلة، وفى وسعى أن أؤكد لكم وإن كنت لا أستطيع أبرهن لكم على أن هذا الواقع فى كل حالة وعلى الدوام. فمن كان منكم يقوم بملاحظات لنفسه، سينتهى به الأمر إلى أن يقتنع بما أقول، على أن لديهم أسباباً خاصة تحملنى على ألا أختار أمثلة من حالات الهستريا

بل من عصاب آخر يستلفت النظر إلى حد كبير، ويقترب من الهستريا اقترابا وثيقاً من حيث منشؤه، فسأقدم له بكلمة تمهيدية، هذا هو ما يسمى بالعصاب الحوازى[1] أو الحواز، وهو عصاب لست له من الشهرة ما للهستريا التى يعرفها كل الناس، وليست له ما لها من مظاهر الجلبة والصخب، إن صح التعبير بل هو أدنى أن يكون «شأناً» من الشئون الخاصة بالمريض، فهو يكاد يستغنى عن المظاهر الجسمية ويركز كل أعراضه فى المجال النفسى، والحواز والهستريا هما العصابان اللذان نهض على دراستهما التحليل النفسى فى أول أمره، واللذان عالجهما فأحرز فى علاجهما أجمل ما كسب من نصر ونجاح، غير أن الحواز ـ وهو عصاب لايتسم بهذا التحول الغريب للظواهر النفسية إلى جسمية ـ قد جلاه لنا التحليل حتى أصبح أكثر وضوحا وشفوفًا من الهستريا، فاستطعنا أن نعرف أن يفصح عن بعض الملامح المتطرفة للاضطرابات العصابية افصاحاً أظهر وأبرز.

ويفصح الحواز عن نفسه بالصورة الآتية: فترى المريض تشغل باله أفكار لا تهمه فى الواقع، ويشعر بدفعات تبدو غريبة عنه، كما يجد نفسه مندفعاً إلى القيام بأفعال لايناله منها أى سرور، لكنه لا يستطيع منها فكاكا، وقد تكون هذه الأفكار المتسطلة غفلا من المعنى فى ذاتها، أو مما لا يكترث له المريض، وغالباً ما تكون سخيفة مزجاة، على أنها تستثير فى كل حالة من حالاتها نشاطا عقلياً مقتسراً ينهك المريض الذى لايملك إلا أن يذعن لها كرها، فإذا به يبحث ويتأمل قلقًا كما لو كانت المسألة مسألة حياة أو موت له.

وقد تبدو الدفعات التى يجدها فى نفسه سخيفة صبيانية كذلك، إلا أنها تنطوى فى الأغلب على محتوى مزعج، فيشعر المريض أنه مندفع إلى اتكاب جرائم خطيرة، وإذا به يقصيها ويستبعدها عن نفسه استبعاده لشىء فضولى دخيل، بل إنه ليفر منها خائفاً يتقى الإغراء بضروب شتى من التحويط والتحرز والحظر وتقييد الحرية، والواقع أنه لا يساير البتة هذه الدفعات ـ ولو مرة واحدة ـ حتى تصل إلى حيز التنفيذ الفعلى، فحرصه وفراره يكسبان المعركة على الدوام. وكل ما يقوم به بالفعل أعمال بريئة تافهة غير ذات بال ـ هى ما تسمى بالأفعال الحوازية ـ تكون فى أغلب الأحوال تكراراً وتنميقًا للأعمال العادية فى الحياة الجارية كالنوم والاغتسال واللبس والخروج للتنزه

1. Obsessional Neurosis.

إلى غير تلك، لكنها يحيطها بحواشي وملابسات وتعقيدات تجعل منها مشاكل عويصة وأعمالا شاقة مضنية، هذه الأفكار والدفعات والأفعال المرضية لا تمتزج بنسبة واحدة فى كل حالات الحواز وأشكاله ـ وأغلب الأمر أن يبرز أحد هذه المظاهر على غيره، فيطبع المرض بطابعه، فيسمى المرض باسمه، على أن لكل حالات المرض وأشكاله سمات مشتركة لايخطؤها التقدير.

إنه مريض عجيب حقاً، ولا أعتقد أن الطب العقلى بقادر ـ حتى فى أبعد بدواته وشطحاته ـ على أن يبتدع شيئاً مثله، ولو أنا نرى بأعيننا حالات منه فى كل يوم، لشق علينا أن نؤمن بوجوده، فإذا أردتم أن تعينوا مريضًا من هؤلاء على أمره، فلن يغنيه أن تنصحوا له بأن يسرى عن نفسه، وألا يلتفت إلى هذه الأفكار السخيفة، أو بأن يستبدل بأفعاله المُغرية أخرى معقولة، فهذا ما يتوق إليه نفسه لأنه شاعر بحالته كل الشعور، وهو يشارككم الرأى فما تقولون عن أعراضه، بل فى وسعه أن يعبر عن هذا الرأى حتى قبل أن تقدموه له، غير أنه لايملك لنفسه شيئا، فالأفعال التى يقوم بها فى سورة المرض يساندها نوع من الطاقة، أكبرالظن أن ليس له نظير فى الحياة النفسية السوية، وكل ما يستطيعه شىء واحد: هو النقل والاستبدال ـ فيستبدل بفكرة سخيفة أخرى قد تكون أقل منها سخفاً، أو يستعيض عن نوع من التحوط والتحرز أو الحرمان بنوع آخر، أو ينصرف عن تكليف معين إلى تكليف آخر.. أى أنه يستطيع أن يزيح شعوره بالقسر والاندفاع، إلى شىء آخر، لكنه لا يستطيع إبطاله، فمن الخصائص الرئيسية لهذا المرض «نقل» الأعراض بحيث تبدو فى صورة بعيدة كل البعد عن صورها الأصلية..

وفوق هذا فمما يبهر ويروع أن ظاهرة **القطبية**[1] (القيم المتقابلة) التى تتميز بها الحياة النفسية، تبدو على أظهر ما تكون عليه فى هذا المرض، فإلى جانب الدفعات القهرية الموجبة أو السالبة، يبدو الشك فى المجال الفكرى، ويمتد على درج حتى ينشب أظفاره فيما يعلمه المريض فى العادة علم اليقين، وينجم عن تضافر هذه الأشياء جميعاً، ازدياد مطرد فى الحيرة والتردد، ونقص فى النشاط ، وحد فى الحرية، على الرغم من أن المريض كان من قبل جم النشاط، صلب الرأى، ذا مستوى عقلى

---

1. Polarity.

يزيد عن المتوسط بوجه عام. كما أنه يكون عادة قد بلغ مستوى رفيعًا من الرقى الخلقى، ذا ضمير صارم، وعلى درجة نادرة من الاستقامة والسداد.. ولعلكم تحدسون الآن مبلغ ما يلاقيه الباحث من عناء لكى يشق لنفسه طريقا وسط هذه المتاهة من السمات الخلقية المتباينة والأعراض المرضية، لذا فلنقنع مؤقتًا بأن نفهم بعض هذه الأعراض، وأن نؤولها.

ربما تودون أن تعرفوا ما يستطيع الطب العقلى فى وضعه الخاص أن يصنعه فى حالات العصاب الحوازى، والواقع أن الباب الذى يتناول هذا الموضوع فيه بابا ضئيلاً غير ذى بال. فقد خلع الطب العقلى على الدفعات القهرية المختلفة أسماء مختلفة، ولم يتسن له أن يقول عنها بعد هذا إلا أن ضحايا هذه الأعراض أشخاص «منتكسون»[١] منحلون. وهو تصريح لا يشفى غليلا، فهو حكم تقويمى وإدانة للمرضى أكثر من أن يكون تفسيراً للمرض.

لاشك فى أن من ينحرفون عن سواء الناس قد تبدو لديهم كل ضروب الشذوذ الممكنة، ولابد أن يكون الحوازيون مختلفين بعض الاختلاف من حيث تكوينهم وجبلتهم عن غيرهم من الناس، لكنا نريد أن نعرف هل هم أكثر «انتكاسا» من غيرهم من العصابيين كالمصابين بالهستريا أو بالجنون؟ هنا يتضح لنا بالبداهة أن هذه السمة مسرفة فى التعميم؛ بل إن أمثال هذه الأعراض تبدو لدى أناس ممتازين من ذوى المكانة الاجتماعية الرفيعة، وإن كنا لا نعرف إلا القليل عن الحياة الخاصة لرجالنا العظماء عادة: إما لحرصهم على كتمانها، أو لتنكب كُتّاب السير عن مراعاة الحق فيما يكتبون، بيد أنه يحدث أحياناً أن يقوم أحدهم ممن يتحمسون لإظهار الحق، كإميل زولا[٢]، فيكتب عن حياته بما يفصح فيها عن كثير من العادات الحوازية التى كانت تستبد به وتعذبه.

لقد أراد الطب العقلى أن يجد لنفسه مخرجًا إزاء هؤلاء الممتازين من العصابيين فأطلق عليهم اسم المنتكسين النابين، وخيراً فعل، لكن التحليل النفسى قد بيّن لنا أن فى مقدوره إزالة هذه الأعراض الحوازية الشاذة إلى غير رجعة، شأنها فى ذلك شأن

---

1. Degenerates.

2. E. Toulous - Emile Zola. Enquête médico-psycho logique paris 1986.

غيرها من أعراض الأمراض الأخرى، ومن الأعراض التى تبدو لدى غير المنتكسين من الناس، وقد وقفت نفسى إلى هذا أكثر من مرة.

وسأضرب لكم مثالين لتحليل عرض حوزى، أحدهما قديم، لكنى لم أجد خيراً منه، والآخر حديث، وسأقتصر عليهما إذ إن عرض حالات من هذا النوع لابد أن يكون واضحا غاية الصراحة لا يغنى عن أى تفصيل.

سيدة فى الثلاثين من عمرها تقريبًا، كانت تكابد أعراضًا حوازية على جانب كبير من الشدة والخطورة، ولعلى كنت أستطيع أن أخفف عنها ما تكابد، لولا أن ظرفا طارئا أفسد كل ما صنعت من أجلها (وربما أتيح لى أن أخبركم بهذا الطارئ يوما ما)، لقد كانت تقوم عدة مرات فى اليوم الواحد بفعل حوازى غريب فيما تقوم به من أفعال أخرى: فكانت تثب من غرفتها إلى غرفة مجاورة لها، فتتخذ وضعة خاصة من مائدة فى وسط الغرفة، ثم تنادى خادمتها، فتلق إليها أمراً أيا كان هذا الأمر، أو ترسلها من دون أمر، ثم تكر راجعة إلى غرفتها.

والحق أنه عرض غير مخوف، لكن من شأنه أن يثير الاستطلاع، وقد انجلى تفسيره من أبسط طريق وأقربه دون تدخل أيا كان من المحلل، بل لا أرى كيف كان يتسنى لى بغير هذا حتى أن أحزر معنى هذا الفعل الحوازى أو أن أجد إلى تأويله سبيلا. فقد كنت كلما سألت المريضة: «علام تفعلين هذا؟ وما معناه» تجيبنى، «لا أعرف»، حتى أفلحت ذات يوم فى أن أتغلب على تردد شديد، عندما كان مبعثه التحرج ولزمت الصمت، فما لبثت أن وقعت على تفسير لفعلها على حين فجأة لأنها روت قصته وتاريخه.

لقد كانت متزوجة منذ أكثر من عشر سنين من رجل يكبرها فى السن بكثير، فأصابته عنة فى ليلة الزفاف جعلته يمضى ليلته بين حجرته وحجرتها جاهداً فى أن يظهر تخاذله على هذا، لكن فى غير طائل. حتى إذا ما تنفس الصبح، قال وهو غضبان أسفا: «إنى خجل من الخادمة التى تقوم بتمهيد الفراش». ثم أمسك بزجاجة من مداد أحمر اتفق له أن يراها فى الحجرة، فأفرغ منها على ملاءة السرير، فلم يصب المداد المكان الذى تكون فيه بقع الدم تحديداً ..

لم أستطع بادئ الرأى أن أفهم ما قد يكون بين هذه الذكرى والفعل الحوازى من

صلة، إذ لم أجد وجها للشبه بين الموقفين إلا الوثوب من حجرة إلى أخرى، وظهور الخادمة على مسرح القصتين، ثم اقتادتنى السيدة إلى المائدة فى الحجرة المجاورة، فوجدت على غطائها بقعة حمراء كبيرة، قال إنها تتخذ من المائدة حين تنادى خادمتها وضعة خاصة، بحيث لا يفوت الخادمة أن ترى هذه البقعة. إذ ذاك لم يعد مجال للشك فى الصلة بين الفعل الحوازى الحاضر ومنظر ليلة الزفاف، وإن كانت هذه الحالة ماتزال تنطوى على كثير مما يمكن معرفته.

من الواضح أولاً أن المريضة تتقمص شخص زوجها بدوره، إذ تحاكيه فى اختلافه من حجرة إلى أخرى. ولكى يتم التشابه بين الموقفين، يتعين علينا أن نفترض أنها تستبدل المائدة وغطائها بالسرير وملاءته، فإن بدا هذا التأويل متعسفًا فلنذكر أننا لم ندرس رمزية الأحلام عبثًا، وغالبًا ما تكون المائدة فى الأحلام رمزًا إلى السرير. أما المائدة والسرير مجتمعين فيعنيان الزواج، فليس من العسير إذًا أن ينوب أحدهما عن الآخر.

فى هذا كله دليل كاف على أن للفعل الحوازى معنى: فهو **يبدو** تصويرا وتكرار لذلك المنظر المهم الذى وصفنا. لكن ليس ثم ما يحملنا على أن نقتصر على هذا الظاهر، إذ لو فحصنا ما بين الموقفين من صلات فحصاً أدق وأعمق، فالمحتمل أن نظفر بشىء آخر هو الغرض من الفعل الحوازى، ومن البديهى، أن نواة هذا الغرض ولبه هو استدعاء الخدامة وتوجيه نظرها إلى البقعة، وهذا عكس ما تنطوى عليه عبارة الزوج: «إنى خجل من الخادمة التى ستقوم بتمهيد السرير». منهذا نرى أنها لم تكتف بتكرار المنظر، بل تناولته بالتحوير والتصحيح حتى يصبح على ما كان ينبغى أن يكون عليه، وهكذا لا يعود بالتحوير ـ الذى تقوم الزوجة بدوره ـ أن يخجل من الخادمة، فالبقعة الحمراء فى المكان الذى يجب أن تكون فيه، يضاف إلى ذلك أنها تصحح بعملها هذا ذلك الحدث المؤلم لليلة الزفاف، وهو الحدث الذى اقتضى الالتجاء إلى المداد الأحمر، ألا وهو تخاذل الزوج، فكأن الفعل الحوازى يقول: «لا، ليس هذا صحيحًا، ليس للزوج أن يخجل فهو ليس عنينا ، وهكذا تحقق المريضة تلك الرغبة كما هى الحال فى الأحلام ـ فى صورة حوازى حالى يهدف إلى تأهيل زوجها ورد اعتباره بعد فشله السابق.

إن ما أستطيع أن أخبركم به من أشياء أخرى عن هذه السيدة ينطبق على هذا

التأويل ويتماشى معه، وبعبارة أصح إن ما أعرفه عنها يفرض علينا هذا التأويل لفعلها الحوازى الذى يستغلق فهمه فى ذاته، فقد كانت تعيش منفصلة عن زوجها منذ أعوام، وكانت تقاوم عزمها على الطلاق الشرعى منه، لكن لم يكن ثمة رجاء فى أن تتحرر منه تحرراً نفسيا، فهى تشعر أنها مرغمة على أن تظل مخلصة له، وهى تعيش معتكفة عن العالم وعن الناس ألا تذهب ضحية الإغراء والإغواء، هذا إلى أنها تجد له العذر وتكبره فى خيالاتها، والسر الدفين لمرضها أنه قد أتاح لها أن تقى زوجها من القيل والقال، وأن تبرر انفصالهما عنه، وأن تمكنه من حياة رحبة وهو بعيد عنها، وهكذا يفضى بنا تحليل فعل حوازى برىء، ويسلم بنا مباشرة إلى صميم حالة مرضية ولبها الخبئ، كما يميط اللثام فى الوقت ذاته عن كثير من أسرار العصاب الحوازى بوجه عام.

لقد أطلت الوقوف عند هذا المثال عن طيب خاطر لأنه يجمع بين ظروف ليس من المعقول أن نتوقعها فى كل الحالات، فقد كشفت المريضة نفسها على التو عن تأويل العرض، دون إرشاد أو تدخل من جانب المحلل، وكان هذا العرض مرتبطا بحادثة لا تنتمى - كما تنتمى هذه الحوادث عادة - إلى عهد منسى من عهود الطفولة، بل بحادثة وقعت للمريضة وهى ناضجة راشدة، وكانت واضحة فى ذاكرتها، إن كل الاعتراضات التى يوجهها النقاد عادة إلى تأويل الأعراض، لتتهافت وتنقض بإزاء هذه الحالة وحدها، والحق أن التوفيق لا يصاحبنا دائما كما صاحبنا فى هذه الحالة.

بقى شىء آخر: ألم يرعكم أن يزج بنا هذا الحواز البرىء فى أخص النواحى الحميمة من حياة هذه السيدة؟ وأى شىء أمس بالحياة الخاصة للمرأة من ليلة زفافها؟ وهل هو مجرد اتفاق لا دلالة له أن يسلم بنا التحليل رأساً إلى أخفى الأسرار من حياتها الجنسية؟ قد يرجع هذا، من دون شك، إلى طبيعة المثال الذى اخترته، غير أنى أرجو ألا نسارع إلى القطع بهذا، فلنتناول المثال الثانى، وهو من نوع يختلف كل الاختلاف عن سابقه، وينتمى إلى طراز كثير الذيوع: هو طراز الطقوس التى تؤدى قبيل النوم.

تلك حالة فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها، على قدر ملحوظ من الذكاء، وهى الطفلة الوحيدة لأبويها، لكنها تعلو عليهما فى ثقافتها ونشاطها العقلى، كانت فى طفولتها ذات خلق عرم مرح، لكنها أصبحت فى السنوات الأخيرة على جانب كبير من الاهتياج العصبى دون سبب ظاهر، فهى تهتاج من أمها على التخصيص وتبدو

ساخطة منهبطة، يساورها الشك والتردد والحيرة، وانتهى أمرها إلى أن تعترف بأنها لم يعد لها قبل باجتياز الميادين والشوارع الفسيحة وحدها. هذه حالة مرضية معقدة تحتمل التشخيص على الأقل: العصاب الحوازى وموجسة[1] الأماكن المفتوحة، على أننا لن نقف طويلا عند هذين التشخيصين، فالذى يعنينا من هذه الحالة هو تلك الطقوس[2] التى تقوم بها الفتاة قبيل النوم بما أحزن والديها.

الواقع أن كل شخص سوى يقوم قبيل النوم بطائفة من أفعال خاصة يألفها، أو أنه على الأقل يهيئ ظروفًا معينة لا يستطيع النوم دونها، أى إنه ينتقل من حالة اليقظة إلى حالة النوم فى طقوس خاصة يعيدها كل ليلة على منوال بعينه، لكن ما يتطلبه الشخص السوى من شروط وظروف قبيل النوم، يمكن أن يفسر بأسره تفسيراً معقولا يصح فى الأذهان، فإن فرضت عليه الظروف الخارجية تغييراً ما، لم يشق أن يكيف نفسه لهذا التعبير دون أن يضيع فى ذلك وقتا..

أما الطقوس والتكاليف المرضية فتعوزها المرونة، ولا محيد عن القيام بها مهما بذل المريض من جهد فى ذلك، هذا إلى أنها تعرف كيف تتنكر فى زى من أسباب معقولة، فإن نظرنا إليها نظرة سطحية، لم يبد أنها تختلف عن الطقوس السوية إلا من حيث الدقة الغالية فى تنفيذها، غير أنه يتضح من الفحص الدقيق أن هذا التنكر غير كاف، وأن الطقوس المرضية تشتمل على أفعال وأشياء، لا سبيل إلى تبريرها بأى سبب، وعلى أفعال أخرى تجانب المعقول بصورة صريحة سافرة، والمريضة التى بين أيدينا تبرر ما تتخذه من احتياطات قبيل النوم بأنها فى حاجة إلى الهدوء والسكون، فلابد إذاً من استبعاد كل ما من شأنه أن يحدث الضوضاء، أما ما تقوم به تحقيقًا لهذا الغرض، فشيئان:

أولهما أن تقف حركة الساعة الكبيرة فى حجرتها وأن تخرج كل الساعات الأخرى حتى ساعة معصمها الصغيرة التى تشعها على نضد مجاور لفراشها، ثانيهما أن تضع على مكتبها كل أصيص للزهر وكل آنية الزينة، ثم ترتبها فى عناية حتى لاتقع أثناء الليل فتتحطم فيقلق نومها، وهى تعرف حق المعرفة أن الحاجة إلى الهدوء ليست إلا تبريراً خادعًا لهذا الإجراءات: فدقات ساعتها الصغيرة لايمكن أن تسمع حتى إن كانت على نضد السرير، وكلنا يعرف أن الحركات الرتيبة لبندول ساعة

---

1. Phobia.

2. Rituals .

الحائط لاتقلق النوم إطلاقا، بل هى أدنى إلى أن تداعبه أو تناديه، كما أنها تسلم أيضاً أن خوفها من سقوط أصيص الزهر والانية، إن هى تركت فى أماكنها بالليل، خوف لايقوم على أساس البتة، فأما الطقوس الأخرى التى تنجزها لها صلة بطلب الهدوء والسكون، بل تبدو على العكس سبيلاً إلى جلب الضوضاء: فهى تصر على أن يظل الباب الذى يصل حجرتها بحجرة أبويها مفتوحاً بعض الشيء بأن تضع فى سبيله أشياء مختلفة حتى لا يحكم إرتاجه؛ وأما أهم الاحتياطات جميعها فيتصل بالسرير نفسه، فالوسادة المستطيلة فى رأى السرير يجب ألا تمس عارضته الخشبية، والمخدة الصغيرة لابد أن توضع على الوسادة فى وضع منحرف موروب لا فى وضع آخر، ثم تضع الفتاة رأسها على منتصف الزاوية المكونة من الوسادة والمخدة تحديداً، أما اللحاف المبطن بالريش فتهزه عدة مرات قبل أن تلتحف به حتى يرسب كل ما به من ريش عند موضع قدميها، ثم لا تلبث بعد هذا أن تضغط الريش المتجمع.. فتعيد توزيعه على أقطار اللحاف كما كان من قبل.

وثمة تفاصيل أخرى غير ذات بال فى هذه الطقوس، لكنى سأتجاوز عنها فهى لاتعنينا شيئاً جديداً، كما أنها تباعد بيننا وبين ما نهدف إليه فى كثير، واعلموا أن هذه الإجراءات جميعاً لا تتم فى سهولة ويسر كما قد تظنون ، فى كل شيء فيها يصحبه قلق شديد ألا يكون قد تم على ما ينبغى أن يكون عليه من دقة وعناية، وكل شيء فيها يجب أن يجرب وأن يختبر، وكل إجراء يكون موضع التشكك والارتياب، فتمضى الفتاة فى أفعالها هذه ساعة أو ساعتين قبل أن يتاح لها أن تنام، وقبل أن يستطيع أبواها الملتاعان أن يناما.

إن تحليل هذه الأفعال المعذبة لم يكن من السهولة واليسر مثلما كان عليه تحليل الفعل الحوازى للمريضة السابقة، فقد كان على أن أُزجى إلى الفتاة إشارات واقتراحات للتأويل كانت ترفضها أبدا بالنفى الجازم أو بالارتياب فى استخفاف، غير أن هذه الاستجابة بالرفض والإنكار أعقبتها فترة، أخذت الفتاة نفسها تنظر فيها إلى الإمكانات التى كنت أقترحها، وتلاحظ المستدعيات التى تستثيرها هذه الإمكانات، وتسترجع ذكريات، وتقيم صلات وروابط، حتى انتهى بها الأمر إلى أن تقبل كل ما قدمت لها من تأويل، لكن بعد أن تفكرت فيها بنفسها، وعلى قدر ما كانت تقوم بهذا العمل، كانت وطأتها الحوازية تخف من غلوائها، فما أوشك العلاج أن ينتهى حتى كانت قد تخلت عن كل ما كانت تبهظ به نفسها من طقوس.

وأحب أن تعرفوا أيضًا أن إجراءات التحليل ، كما نزاوله اليوم، لاتركز اهتمامنا فى عرض واحد بحيث لا تذره حتى يتضح معناه اتضاحًا تامًا، بل نرى أنفسنا مضطرين مرة أخرى فى ملابسات أخرى، لذا فتأويل الأعراض الذى سأقدمه لكم اليوم، هو جماع لنتائج ظفرنا بها بعد أسابيع وأشهر، تخللها تناول التحليل لنقاط أخرى.

لقد أخذت الفتاة تفهم تدريجيًا أنها تقف الساعات وتستبعدها من حجرتها؛ لأنها رموز للأعضاء التناسلية للمرأة. فالساعات ـ فوق ما نعرف لها من دلائل رمزية أخرى ـ تكتسب هذه الدلالة من أن عملها موقوت بفترات منتظمة متساوية، وكثيراً ما نسمع المرأة تزهو بانتظام الدورة الحيضية لديها انتظام الساعة. إن مريضتنا هذه تخشى من دقات الساعات أن تقلقها أثناء نومها، وهذه الدقات يمكن اعتبارها تصويراً رمزياً لضربات البظر أثناء التهيج الجنسي.. فهذا الإحساس الأليم قد أزعج الفتاة من نومها بالفعل عدة مرات، وقد حدا بها خوفها من انتصاب البظر أن تقف ساعة الحائط، وأن تستبعد ساعة اليد من جوارها أثناء الليل..

أما أصص الزهر وآنية الزينة فهى ـ ككل الآنية والأوعية ـ رموز للعضو التناسلى للمرأة، لذا فالتحوط لها أثناء الليل ألا تسقط فتتحطم لا يخلو من دلالة ومغزى، وكلكم تعرفون تلك العادة المشاعة: وهى كسر إناء أو طبق عند عقد القران، ثم يستحوذ كل رجل من الحاضرين على قطعة من هذا الكسار. كأن فى ذلك اعترافًا رمزياً بأنه لم تعد له حقوق على المخطوبة ـ وهى عادة يحتمل أنها نشأت مع سنة الزواج برجل واحد فقط، لقد استطاعت الفتاة أن تسترجع بصدد هذه الناحية من طقوسها، ذكريات ومستدعيات كثيرة، فقد اتفق لها وهى طفلة أن وقعت، وكانت تحمل كوباً من زجاج أو إناء من خزف، فجرح إصبعها وسال منه دم كثير، فلما كبرت وأحاطت بشئون الصلات الجنسية، اعتراها خوف وقلق ملازم ألا تدمى ليلة زفافها بما يجعل زوجها يرتاب فى بكارتها، إذاً لقد كان فى حرصها على الآنية ألا تتحطم نوعًا من الاعتراض على كل ما يتصل بالبكارة وبالإدماء ليلة الزفاف، وإشارة إلى نبذها واطراحها الخوف والقلق الشديد من أن تدمى وكذلك من ألا تدمى، والواقع أن هذه الاحتياطات لا صلة لها بمنع الضوضاء أو لا تكاد.

وقد كشفت الفتاة ذات يوم عن الفكرة المركزية لما تقوم به من طقوس، حالما فهمت السبب الذى يحملها على ألا تمس المخدة عارضة السرير، إذ قالت: إن المخدة تلوح لها على الدوام على أنها امرأة، وإن الحاجز الرأسى للسرير رجل، إذاً فهى تريد أن تفصل بين الرجل والمرأة بفعل سحرى، إن صح التعبير، وبعبارة أخرى فهى تريد أن تمنع أبويها من الاتصال الجنسى، وقد حاولت قبل أن يستحوذ عليها هذا الطقس بزمن طويل، أن تصل إلى هدفها هذا بطريقة مباشرة أكثر من تلك فكانت تتصنع الخوف، أو تستغل خوفًا حقيقيًا حتى لا يغلق الباب الذى يصل حجرتها بحجرة أبويها، وظلت تحتفظ بهذا الإجراء فيما تقوم به من طقوس راهنة، وبذا كان يتاح لها أن تسترق السمع لما يدور بين أبويها، وقد أدى بها هذا إلى أرق ظل مستبداً بها عدة أشهر، على أنها لم تقنع بإزعاج أبويها على هذا النحو، بل كانت تزج بنفسها فى ذلك الوقت فتنام بين أبيها وأمها من حين إلى حين.

وهكذا كانت تحول بالفعل بين اتصال «المخدة»، «بحاجز السرير». فلما كبرت ولم يعد لها أن تنام مع أبويها، كانت تتصنع الخوف عامدة فتحمل أمها على أن تنام فى سريرها الخاص؛ كى تترك لها مكانها بجوار أبيها، ولا شك فى أن هذا الموقف كان نقطة البدء لبضعة أخيلة عندها مما نلمس أثره فى طقوسها.

لئن كانت المخدة رمزاً إلى المرأة، فلابد أن يكون ثمة معنى أيضًا لهزها اللحاف حتى يرسب ما به من ريش فى ركنه الأسفل فيبرز ويتكون: إنه يعنى تحبيل المرأة، غير أن الفتاة لا تلبث أن تبطل هذا الحمل، لأنها قضت عدة سنوات فى خوف من أن يؤدى التواصل الجنسى بين أبويها إلى طفل جديد يكون منافساً لها، ومن جهة أخرى، لئن كانت الوسادة المستطيلة رمزاً أنثياً يمثل الأم، فلا يمكن أن تكون المخدة الصغيرة إلا رمزاً للابنة، وهنا نتساءل: لِمَ تضع الفتاة المخدة الصغيرة على الوسادة الكبيرة بحيث يتكون منهما ضلع مُعين، ثم تضع رأسها على منتصف الزاوية الناشئة منهما تحديداً؟ لم يشق على الفتاة أن تتذكر بهذا الصدد أن المُعين هو الشكل الذى يستعمل دائما لرسم الجهاز التناسلى المنفرج للمرأة على الحيطان، إذن لقد كانت هى نفسها التى تقوم بدور الرجل (الأب)، وكان رأسها يقوم مقام العضو التناسلى للرجل (يلاحظ أن قطع الرأس تصوير رمزى للخصاء).

كأنى بكم تقولون: يا لها من خواطر فظيعة تنساب فى رأس هذه الفتاة العذراء. أوافقكم على هذا، لكن لاتنسوا أنى لم أختلق هذه الخواطر، بل لم أزد على عرضها وتأويلها، كذلك الطقوس فإنها لا تقل عن هذه الخواطر إغراباً ولعلها لم يفوتكم أن تدركوا ما بين تلك الطقوس وبين الخواطر والأخيلة من تناظر وتشابه.. لكن ما يهمنى أكثر من هذا، هو أن تلحظوا أن هذه الطقوس ليست وليدة خيال مفرد واحد، بل عدة أخيلة مجتمعة، لابد أنها تنبعث من بؤرة فى مكان ما، ولاشك أنكم لاحظتم أيضاً أن تفاصيل الطقوس تعكس الرغبات الجنسية، تارة فى اتجاه إيجابى فتبدو فى صورة بدائل، وطوراً فى اتجاه سلبى تبدو فى صورة وسائل دفاعية تدرأ هذه الرغبات.

لقد كان فى وسعنا أن نظفر بنتائج أخرى من تحليل هذه الطقوس، إذا نحن بحثنا عما بينها وبين الأعراض الأخرى للمريضة من صلة وارتباط، لكن ليس هذا ما نهدف إليه فى هذا المكان، وحسبنا أن نشير إلى أن هذه الفتاة موثقة بأبيها بوثاق شهوى[1]، يرجع إلى عهد مبكر جداً من طفولتها، وهو وثاق يستبد بها ويستعبدها، وربما كان السبب فى أنها لا تتخذ من أمها موقفا ودياً، وهكذا يؤدى بنا تحليل هذا العرض، مرة أخرى، إلى نطاق الحياة الجنسية للمريضة. وهو شىء لايستغرب. فكلما زاد استبصارنا فى دلالة الأعراض وأغراضها، قل دهشنا لهذه الحقيقة.

لقد بينت لكم بهذين المثالين المختارين أن للأعراض العصابية دلالة ومعنى، شأنها فى ذلك شأن الهفوات والأحلام، وأنها ترتبط ارتباطاً وثيقًا بالحياة الحميمة للمريض وبالأحداث التى مرت به. فهل لى أن أنتظر منكم أن تؤمنوا بهذا الإقرار الخطير الفذ فى دلالته، ولم أقدم لكم إلا مثالين له؟ لا، وهل لكم أن تنتظروا أن أمضى فى سوق أمثلة حتى تصرحوا آخر الأمر بأنكم اقتنعتم به؟. لا، مرة أخرى فكل حالة فردية تتطلب بحثاً مسهباً مستفيضاً يزخر بالتفاصيل، حتى ليتعين علىّ أن أكرس خمس ساعات فى الأسبوع لموسم بأكمله إن أردت أن أجلو لكم هذه النقطة وحدها من نظرية الأمراض النفسية، فحسبى هذين المثالين شاهداً على ما قررت، وأحيل المستزيد إلى المراجع الأولى لبروير «هستريا»، وإلى التفاسير الأخّاذة للأعراض المسرفة فى الغموض فيما يسمى بالخبل المبكر، وهى تفاسير قدمها يونج Jung يوم

---

1. Erotic

كان هذا الباحث مجرد محلل نفسى لم يصبُ أن يكون نبيًا، كما أحيله فوق هذا إلى الإضافات الأخرى التى حفلت بها منشوراتنا الدورية منذ ذلك الحين، وهذه البحوث بعينها ذائعة مستفيضة. فتحليل الأعراض العصابية، وتأويلها وتجمتها قد استحوذ على اهتمام المحللين النفسيين حتى صرفهم عن المشكلات الأخرى للأمراض النفسية.

فمن أجهد نفسه منكم فى الاطلاع على هذه الأسانيد، فهو لا شك مأخوذ بما سيراه من وفرة البيّنات عن هذه المسألة، لكنه سيلتقى بصعوبة أيضًا. فقد رأينا أن معنى العرض مستسرّ فى صلته وارتباط بحياة المريض، وكلما كان العرض نتيجة لخبرات مرت بالفرد نفسه، فالمنتظر أن تنجلى هذه الصلة فى وضوح، وبذا يتلخص عملنا، حين نلتقى عند المريض بفكرة لغو أو بفعل عشوائى، فى أن نبحث عن الموقف الماضى يوم كان لهذه الفكرة ما يبررها، وحين كان الفعل يخدم غرضاً مفيداً، ولدينا مثال رائع لهذا النوع من الأعراض فى الفعل الحوازى لتلك المريضة التى كانت تجرى إلى المائدة فتنادى خادمتها، غير أننا نلاحظ، فى الكثير الغالب من الأحوال، أعراضاً من طراز يختلف عن هذا كل الاختلاف، تلك ما تسمى بالأعراض النموذجية العامة للمرض، فهى تكاد تتشابه به تشابهًا تاما فى كل الحالات، كما تتلاشى فيها الفروق والأفراد أو تتضاءل على الأقل، بحيث يشق علينا أن نربط بنها وبين حياة المريض، أو أن نردها إلى مواقف خاصة فى ماضيه.

وفى الطقوس التى كانت تمارسها المريضة الأخرى قبل النوم، كثير من هذه الأعراض النموذجية العامة، وإن كنا نلحظ فى هذه الحالة أيضًا كثيراً من الأعراض الفردية التى يمكن أن تؤول تأويلا تاريخيا إن صح التعبير، على أن كل الحوازيين ينزعون إلى تكرار أفعال بعينها وإلى القيام بأعمال إيقاعية، وعزل بعض هذه الأفعال عن غيرها، فأغلبهم يسرفون فى غسل أنفسهم، والذين يتوجسون من الأمكان (الأماكن المفتوحة أو المغلقة أو المنحصرة وغيرها) - وهومرض لايدخل بعد فى نطاق العصاب الحوازى بل ينخرط فى سلك «الهستريا الحصرى» - تعاودهم السمات المرضية بصورة رتيبة مضنية غالباً: التوجس من الأماكن المنحصرة، ومن الميادين الفسيحة المفتوحة، ومن الطرق والشوارع التى تترامى على مدى النظر، وهم يشعرون بالزمن إن صاحبهم أحد من معارفهم أو إن سمعوا صوت عربة تسير كل مريض يتجه اتجاها فردياً خاصًا به، أو تبدو لديه حالة مزاجية خاصة، إن صح التعبير تتباين من حالة

مرضية لأخرى تباينا مباشراً، فهذا يخشى الشوارع الضيقة ليس غير ، وذاك يخشى الشوارع الفسية وحدها، وثالث لا يقوى على السير فى الطريق إلا إذا لم يكن حافلا بالناس؛ وآخر لايطمئن إلا إذا كان به خلق كثير.

والأمر بالمثل فى الهستريا، ففضلا عما تزخر به من سمات فردية، نراها تحفل دائما بكثير من الأعراض النموذجية المشتركة التى تجعل التأويل التاريخى أمراً صعباً فيما يبدو ومع هذا فلا يعزب عن بالكم أن هذه الأعراض النموذجية هى التى تعيننا وترشدنا فى التشخيص، فلو أننا أفلحنا أو بالفعل فى أن نرد عرضاً نموذجيًا فيحالة هستريا مثلاً إلى حدث شخصى إلى سلسلة من أحداث شخصية متشابهة (كما لو رددنا قيئا هستريا من حالات القيء، عن سلسلة من أحداث علِّية فى ظاهرها، تختلف الاختلاف كله عن السلسلة الأولى، وفى هذا ما يبعث على الحيرة والارتباك، ومن ثم يكاد يبدو أن المصاب بالهستريا لابد أن يقيء، وذلك لأسباب لا نعرفها وأن العوالم التاريخية التى يجلوها التحليل ليست إلا تعلة نستغلها «ضرورة نفسية داخلية» لتحقيق غرضها حين تسنح الفرصة.

وهذا يُسلم بنا إلى نتيجة غير مشجعة، هى أننا وإن تسنى لنا أن نظفر عن يقين بتفسير كاف لمعنى لأعراض العصابية الفردية فى ضوء الخبرات والأحداث التى كابدها المريض، فإن فننا التحليلى لا يسعفنا فى الوقوع على معنى الأعراض النموذجية العامة، فى الحالات عينها، وهى أعراض أكثر تواتراً وشيوعا من قسيمتها، يضاف إلى هذا أنى لم أشرح لكم كل الصعوبات التى نلتقى بها حين نجدُّ فى أثر المعنى التاريخى للأعراض ونلاحقه لحاقا لا هوادة فيه، ولن أفعل هذا، لا لأنى أريد أن أخفى الأمور عنكم أو أن أموه عليها، بل لأنى لا أريد أن أوقعكم فى حيرة وارتباك ونحن فى بدء دراساتنا معا صحيح، أننا لم نخطئ بعد فى سبيل فهمنا تأويل الأعراض إلا الخطوات الأولى، لكنها يتعين علينا أن نستمسك مؤقتا بما ظفرنا به من نتائج، وأن نمضى على درج فى سبيل الظهور على صعوبات المجهول، لذا سأحاول أن أشرح صدوركم فأقرر لكم أنه من العسير أن نقيم فارقا أساسيا بين هذين النوعين من الأعراض، ولئن كانت الأعراض الفردية تتصل، دون مراء، بخبرات المريض، فمن الممكن أن تكون للأعراض النموذجية العامة صلة بخبرات نموذجية عامة كذلك، أى إلى خبرات يشترك فيها كل الناس، فقد تكون السمات التى تلاحظ بإطراد فى

الأمراض النفسية - كالتكرار والتشكك فى العصاب الحوازى - استجابات عامة شاملة يرغم المريض على تفخيمها والغلو فيها نتيجةً لطبيعة التغير المرضى، وعلى الجملة ليس ثمة داع إلى القنوط السريع قبل أن نعرف ما يمكن أن نصل إليه من نتائج فيما بعد.

لقد التقينا فى نظرية الأحلام بصعوبة شبيهة بتلك لم أستطع أن أعالجها خلال مناقشاتنا السابقة عن الأحلام، ذلك أن المحتوى الظاهر للأحلام تبدو فيه فوارق فردية بعيدة شتى، وقد بيّنا فى إسهاب ما يمكن أن ينتزعه التحليل من هذا المحتوى. لكن هناك أحلاماً أخرى يمكن أن تسمى كذلك أحلاماً **نموذجية عامة**، فهى أحلام يراها كل الناس، ويتشابه محتواها تشابهاً تاماً، فتعرض للتحلل بالصعوبات نفسها: منها أحلام السقوط والطيران والسباحة والطفو وتلك التى يرى النائم نفسه فيها عارياً، أو التى يشعر فيها بأن شيئا يعوقه ويعرقله، هذا إلى أحلام جثامية أخرى، وكلها أحلام يختلف تأويلها باختلاف الأفرا،د دون أن نستطيع تفسير حدوثها على هذا المنوال الشامل الرتيب، على أننا نلحظ أن الأساس المشترك فى هذه الأحلام - كما فى الأعراض النموذجية - مطرزّ بتفاصيل فردية متغيرة، وأكبر الظن أننا نستطيع - لو انفسحت نظرتنا إلى هذه الأمور وزاد فهمنا إياها - أن ندرج هذه الأحلام، دون قسرٍ أو إكراه فى الإطار الذى ظفرنا به من دراسة الأحلام الأخرى.

المحاضرة الثامنة عشرة

التثبيت على الصدمات النفسية اللاشعور

قدّمت لكم فى المحاضرة السابقة أنى أريد أن نبدأ بحوثنا التالية من المعلومات التى ظفرنا بها لا من أوجه الشك التى أثارتها فى نفوسنا، لقد تمخض تحليل، المثالين اللذين سقتهما فى المحاضرة الماضية عن نتيجتين على جانب كبير من الطرافة ، لم أحدثكم عنهما بعد.

الأولى: أن كل واحدة من المريضتين تُشعر بأنها مثبتة[1] موثقة إلى فترة معينة من حياتها الماضية، وأنها لا تقدر على أن تنتزع نفسها منه، ومن ثم فهى مغتربة عن الحاضر والمستقبل، فكأنها قد اعتصمت بالمرض ولاذت به كما كانت عادة القوم فى الماضى أن ينسحبوا إلى الدير يمضون فيه مصائرهم التعسة: ففى الحالة الأُولى، كان الزواج الذى انفصمت عراه فى الواقع منذ أمد طويل هو السبب فيما حل بالزوجة من شقاء، وقد أعانتها الأعراض على أن تمضى فى صلتها بالزوج، بل نستطيع أن نسمع من ثنايا هذه الأعراض أصواتاً تهيب به وتعتذر له، وتكبره وتأسى لفقده، وعلى الرغم من أنه لاتزال شابة تستطيع أن تغرى الرجال، فهى تلجأ إلى كل تحوط ممكن، واقعى أو خيالى (سحرى) ليتسنى لها أن تبقى محتفظة بعهود الزوجية، فهى لا تقابل الغرباء ولا تحفل بمظهرها، وتجد عناءً فى أن تنهض عن كرسى جلست عليه، وترفض أن توقع باسمها شيئا، كما أنها لا تقدر على أن تقدم هدية لأحد، بحجة أنه ليس لأحد أن يحصل على شىء مما تملك.

أما المريضة الثانية، فقد كانت لتعلقها الشهوى بأبيها قبيل البلوغ نفس الأثر الحاسم فى حياتها المستقبلة، وقد فطنت هى الأخرى إلى أنها لا تستطيع أن تتزوج ما دامت مريضة، بيد أنه يجوز لنا أن نشتبه في أنها تورطت فى المرض إلى هذا الحد لكى لايتسنى لها الزواج إلى جوار أبيها.

والسؤال الذى لابد منه هنا هو: كيف يستطيع الإنسان أن يتخذ مثل هذا الموقف الخاسر الغريب من الحياة، وبأية وسائل يصل إليه، وما الدوافع التى تحمله على ذلك.

---

1. Fixated.

هذا على فرض أنه صفة عامة لكل الأمراض النفسية، وليس صفة خاصة بهاتين المريضتين ؟.

واقع الأمر أن هذا الموقف سمة شاملة مشترك فى كل مرض نفسى، وله دلالة عملية خطيرة، وقد كانت المريضة الهسترية الأولى التى عالجها «بروير» مثبتة موثقة على هذا النحو إلى العهد، الذى كان المرض يلح فيه على أبيها إلحاحا شديداً، وكانت تقوم بتمريضه إذ ذاك، والرغم من أنها شفيت من مرضها، فقد ظلك معرضة عن الحياة إلى حد ما، فمع أنها استردت صحتها ونشاطها، إلا أنها لم تسلك الطريق الطبيعى الذى تسلكه كل امرأة، لقد علمتنا خبرتنا بالمرضى وتحليلهم أن الأعراض المرضية وما ينجم عنه من عواقب تتراجع بالمريض إلى مرحلة ماضية من حياته، ففى أغلب الحالات يختار المريض بالفعل مرحلة مبكرة جداً من حياته قد تكون مرحلة الطفولة الأولى، بل قد تكون مرحلة الرضاعة، وإن بدا لكم هذا أمر غريبًا لايصح فى الأذهان.

هذا السلوك الذى نلحظه فى مرضانا نجد له شبهاً قريبًا فى الأمراض التى ذاع صيتها منذ الحرب الأخيرة ـ وهى التى تسمى **بالصدمة**[1] أو «الأمراض النفسية الصدمية»، لقد كنا قبل الحرب نلتقى بطبيعة الحال بحالات من هذا النوع فى أثر حوادث السكك الحددة أو الكوارث المروعة الأخرى التى تهدد حياة الفرد، على أن هذه الأصدمة ليست فى جوهرها كالأمراض النفسية التلقائية، التى تتمثل بوجه عام للفحص والعلاج التحليلى، ولم نوفق بعد إلى أن نربط بينها وبين آرائنا عن الموضوعات الأخرى، وآمل أن أبيّن لكم السبب فى هذا فيما بعد.

بيد أن هناك تشابها تاماً بين هذين النوعين من الأمراض فى ناحية واحدة: هى أن الأصدمة كالأمراض النفسية التلقائية أساسها تثبيت على اللحظة التى وقعت فيها الحادثة الصدمية . فنرى المرضى باطراد يعيدون موقف الصدمة فى أحلامهم، وفى الحالات التى تصاحب بنوبات من الطراز الهستيرى، والتى لايمكن أن يتناولها التحليل، يبدو أن النوبة استعادة تعبيراً كافياً. وأن الموقف لايزال قائما بالفعل أمامهم، كما لو كان مشكلة تعذر عليهم حلها. ونحن ننظر إلى اتجاههم النفسى هذا نظرة جدية

---

(١) Traumatic neuroses : الأصدمة جمع صدام (بضم الصاد).

كل الجد، فهو يُسلم بنا أن ننظر إلى العمليات النفسية نظرة يمكن أن نسميها النظرة **الاقتصادية**[(١)]. بل إن كلمة **الصدمة** ليس لها بالفعل معنى آخر غير هذا المعنى **الاقتصادى**، فالحادثة التى نسميها صدمية هى تلك التى تحشد الحياة النفسية، فى فترة وجيزة جداً من الزمن، بفضل ضخم من التنبيه لايمكن تمثيله أو تعديله بالطرق العادية، مما يترتب عليه اضطرابات دائمة فى توزيع الطاقة النفسية واستهلاكها.

كذلك يميل بنا هذا التشابه إلى أن ندرج الأحداث التى يبدو أن مرضانا مثبتون عليها، فى زمرة الأحداث الصدمية، ومن ثم نخرج بشرط بسيط للاضطراب العصابى: فالعصاب يمكن أن يشبه بالاضطراب الصدمى، وينجم عن عجز المريض عن أن يستجيب بطريقة سوية إلى خبرة انفعالية لا قبل له بها. والواقع أن الصيغة الأول التى لخصنا بها ـ برويرو أنا عام ١٩٨٣ – ٩٥ ـ نتائج ملاحظاتنا الجديدة، كانت كبيرة الشبه بما أقوله الآن، وإن حالة كحالة مريضتنا الأولى المنفصلة عن زوجها لتتفق اتفاقًا كبيراً مع هذا الموقف، فهى لم تستطع أن تظهر على الخيبة فى زواجها وظلت موثقة إلى هذه الصدمة، غير أن الحالة الثانية، حالة الفتاة التى كانت متعلقة بأبيها تعلقًا شهويا، ترينا على الفور أن هذه الصبغة ليست على درجة كافية من الشمول، فحب بنت صغيرة لأبيها حدث جار عادى، وعاطفة لا يصعب الخلاص منها غالبًا، بحيث أننا إن وصفناها بأنها خبرة صدمية، فقد هذا الاصطلاح كل ما يحمله من معنى..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتضح لنا من تاريخ هذه الحالة أن التثبيت الشهوى كان يلوح فى باكورته بريئا لا ضير منه إطلاقا، ولم يفصح عن نفسه فى صورة عصاب حوازى إلا بعد عدة سنوات، وهكذا يتراءى لنا أن الموضوع يكتنفه التعقيد، وأن هناك أنواعا معدة مختلفة من الشروط أساس الصدمات لا يجب أن تترك على أنها نظرة خاطئة: فقد تنطبق على حالات أخرى وتخضع لشروط أخرى.

هنا يتعين علينا مرة أخرى أن نترك الطريق الذى كنا نسلكه، فهو لا يمضى بنا الآن إلى أبعد مما نحن فيه، وعلينا أن نلم بأشياء كثيرة قبل أن يتاح لنا أن نتابع سيرنا

---

(١) economic تتلخص النظرة الاقتصادية عند أصحاب التحليل النفسى فى أن إنتاج الطاقة النفسية وتوزيعها واستهلاكها يسير وفق قاعدة: أكبر فائدة بأقل مجهود. «المترجم».

فيه متابعة تبعث على الرضا، وقبل أن نترك موضوع التثبيت عند مرحلة معينة من مراحل الماضي، يجب أن نلاحظ أنه ظاهرة تتجاوز نطاق الأمراض النفسية: فلئن كان كل مرض نفسي ينطوي على تثبيت من هذا النوع، فكل تثبيت ا يسلم بالضرورة إلى مرض نفسي، ولا يلتبس به أو يحدث في أثنائه، فالحزن نموذج رائع لتثبيت وجداني على كل شيء في الماضي، وهو يتضمن ـ كالأمراض النفسية ـ حالة من الانفصال عن الحاضر والمستقبل، لكنه يتميز تميزاً واضحاً عن العصاب حتى في نظرة عامة الناس، ومن جهة أخرى، هناك أمراض نفسية يمكن اعتبارها صوراً مرضية منالحزن.

ومن الناس من تبهظه خبرة صدمية تهز كيانه النفسي من أساسه هزاً، حتى لتجعله يصد عن كل اهتمام بالحاضر والمستقبل، فيظل مستغرقا أبداً في ذكرياته وماضيه، لكنه لا يصبح بالضرورة عصابياً من أجل هذا، لذا يجب ألا نغلو في قيمة هذه السمة (التثبيت) حين نحاول أن نحدد خصائص المرض النفسي، مهما كانت دلالتها وأطرادها في غير مجاله.

ولنعرض الان للنتيجة الثانية من النتيجتين اللتين ظفرنا بهما من تحليل المثالين في المحاضر السابقة، وهي نتيجة نرى أن ليست بنا حاجة إلى أن نحيطها بعد بشيء من الحصر والتقييد، لقد رأينا أن الفعل الحوازي في حالة المريضة الأولى كان في ظاهره لغواً وعبثاً، كما عرفنا تلك الذكريات الحميمة التي استرجعتها بصدد هذا الفعل، ثم نظرنا في العلاقة بين هذه الذكريات وذاك الفعل، وكشفنا من طبيعة هذه الذكريات عن الغرض الذي يستهدفه الفعل، غير أن هناك ناحية أغفلناها كل الإغفال مع أنها جديرة أن نعيرها أكبر قسط من اهتمامنا، تلك أن المريضة لم تكن تفطن إلى أن فعلها الحوازي يرتبط بخبرتها السابقة على أي وجه من الوجوه، فقد كان هذا الارتباط خافياً عنها، وكانت في الحق صادقة حين قالت إنها لا تعرف شيئا من أمر ما يدفعها إلى القيام بهذا الفعل، ثم اتفق لها بتأثير العلاج أن كشفت عن هذا الارتباط على حين فجأة، واستطاعت أن تخبرنا به، غير أنها حتى تلك اللحظة لم تكن تعرف شيئا عن الغرض الذي يستهدفه الفعل: ألا وهو تصحيح حادثة مؤلمة وإكبار زوجها الذي تحبه، ولم يتسن لها ، إلا بعد وقت طويل وجهد كبير، أن تدرك وأن تسلم بأن مثل هذا الدافع وحده يمكن أن يكون القوة المحركة لفعلها الحوازي.

إن ارتباط الفعل المرَضى بالمنظر الذى أعقب ليلة الزفاف الفاشلة، يؤلف مع محبة المريضة لزوجها ما أسميناها «معنى» الفعل الحوازى، وقد كان هذا المعنى خافياً على المريضة وهى تقوم بفعلها، لم تكن تفهم شيئا عن **مصدره** أو عن **الغرض** منه، إذاً لقد كانت هناك عمليات تعتمل فى نفسها فنشأ الحواز نتيجة لها. وقد كانت تفطن إلى هذه النتيجة من حيث مظهرها العادى، لكنها لم تكن شاعرة بشىء من المقدمات والسوابق النفسية لهذه النتيجة، فكان مثلها على التحديد كمثل ذلك الرجل الذى نوّمه «برنهايم» نوما مغناطيسيا، ثم أمره أن يفتح مظلة فى قاعة العرض بعد أن يصحو بخمس دقائق، ففعل الشخص ما أمره به دون أن يعرف شيئا مما حمله على فعله هذا.

إن أمثال هذه المواقف هى ما نعنيه حين نتكلم عن وجود عمليات نفسية لاشعورية، ونحن نتحدى أى إنسان فى العالم أن يقدم لهذا الموقف تفسيراً علمياً أصح مما قدمناه، فإن استطاع انفضضنا عن طيب خاطر عما استنتجناه من وجود عمليات نفسية لا شعورية، أما نحن فسنظل مستمسكين بهذا الاستنتاج حتى يظهر مثل ذلك التفسير، فإن اعترض بأن اللاشعور ليس له وجود واقعى بالمعنى العلمى، وما هو إلا مجرد قول نتخلص به من مأزق حرج، أعرضنا عنه نهز أكتافنا، وأغضينا عن هذا الاعتراض غير المفهوم، أيصح فى الأذهان أن يتمخض شىء واقعى ملموس كالفعل الحوازى؟.

هذا الموقف بعينه ينطبق فى جوهره على حالة المريضة الثانية. فقد فرضت على نفسها تكليفا ألا تمس الوسادة عارضة السرير، وكان عليها أن تمتثل لهذا التكليف دون أن تعرف مصدره أو مغزاه أو الدوافع التى يستمد منها قوته، وسواء عليها عدته أمراً لايكترث له، أم تحفزت له، أم ثارت دونه، أم أزمعت الظهور عليه، فكل ذلك لايغنى عن إنجازه شيئا، إذ لا محيد عن القيام به وتنفيذه، وعبثاً تسائل نفسها عن السبب فى هذا، إن هذه الأعراض التى يتسم بها العصاب الحوازى وتلك الخواطر والدفعات التى لا يدرى أحد من أين تنبعث، والتى تستعصى على كل ما يؤثر فى الحياة النفسية السوية، تبدو لنا بل وتبدو للمرضى أنفسهم كأنها ضيافن متسلطة تأتى من عالم غريب، أو كأنها كائنات خالدة جاءت تزج بنفسها فى غمار الحياة عند الناس، فكيف لنا ألا نرى فيها شاهداً بيّنا على وجود منطقة نفسية خاصة، منعزلة عن كل مظاهر الحياة النفسية وأوجه نشاطها الأخرى؟.

الواقع أنها تؤدى بنا إلى أن نقتنع، غير خاطئين، بوجود حياة نفسية لا شعورية، ولهذا السبب نفسه لايستطيع الطب العقلى الكلينيكى ـ الذى لايعترف إلا بسيكولوجيا الشعور ـ أن يصنع شيئا إزاء هذه الأعراض إلا أن يصمها بأنها أمارات على نوع خاص من الانتكاس والانحلال، وغنى عن البيان أن الخواطر والدفعات الحوازية ليست فى ذاتها لا شعورية، مثلها فى ذلك مثل الأفعال الحوازية، فهى لايمكن أن تصبح أعراضاً إذا لم تقتحم منطقة الشعور. غير أن شروطها وسوابقها النفسية التى يكشف عنها التحليل، وكذلك الإطارات التى تندرج فيها بعد التأويل شروط وإطارات لا شعورية، وهى تبقى كذلك حتى يفطن إليها المريض ويشعر بها أثناء التحليل على الأقل.

إذا أضفتم إلى هذا أن الأمور تجرى فى كل عرض من كل مرض نفسى كما تجرى فى حالتى هاتين المريضتين، وأن معنى الأعراض يكون خافيا على المريض دائمًا أبداً، وأن التحليل يكشف لنا على الدوام أن هذه الأعراض مشتقة من عمليات نفسية لا شعورية يمكن أن تصبح شعورية فى ظروف مواتية شتى ـ إذا عرفتم هذا لم يشق عليكم أن تفهموا أن التحليل النفسى لايمكنه أن يستغنى عن افتراض اللاشعور، وأنا درجنا على أن نتناوله كما نتناول شيئا واقعيًا ملموسًا، وربما لم يعزٌ عليكم كذلك أن تدركوا أن جميع من لا يعرفون عن اللاشعور إلا لفظه، ومن لم يقوموا قط بتحليل حلم وتأويله، لو بترجمة أعراض عصابية إلى أغراضها ومعانيها ـ نقول إن أمثال هؤلاء جميعا لايملكون أن يكونوا لأنفسهم فكرة عن هذا الموضوع، وأعيدها مرة أخرى حتى تقر فى التأويل التحليلى، وهذه حقيقة واقعة، فهى دليل لا يدحض على وجود عمليات نفسية لا شعورية ، أو إن شئتم فهى دليل لا يدحض يحملنا على ضرورة الاعتراف بوجود هذه العمليات.

غير أن هذا ليس كل ما هنالك.. فثمة كشف ثان لبروير يستحق عليه الثناء وحده. وإنى لأجده أشد خطراً ودلالة من الكشف الأول، لأنه يزيد من علمنا بالصلات بين اللاشعور والأعراض العصابية، ذلك أن معنى العرض لايكون على الدوام لاشعوريا فحسب، بل إن بين اللاشعور إمكان وجود العرض صلة استبدال أيضًا، وستفهمون ما أقصد إليه بعد لحظة، فأنا أقرر مع بروير أننا كلما التقينا بعرض، كان لنا أن نستنتج وجود عمليات لا شعورية معينة عند المريض، تحتوى على معنى هذا

العرض، كذلك يجب أن يكون هذا المعنى لا شعوريا، وحالما يزاح الستار عن العمليات اللاشعورية فتصبح شعورية، لا تلبث الأعراض أن تنقشع، وهنا نلمس منفذاً إلى العلاج ووسيلة إلى إزالة الأعراض، والواقع أن هذه كانت الوسيلة التى أعانت بروير على شفاء مريضته الهسترية؛ أى على تخليصها من أعراضها، فقد وقع على خطة تسنى له بها أن يستدرج إلى شعور المريضة العمليات اللاشعورية التى تخفى معنى الأعراض، ومن ثم اختفت الأعراض.

لم يكن هذا الكشف نتيجة تأمل منطقى قام به بروير، بل نتيجة ملاحظة موفقة أتاحها تعاون المريضة معه، ولاتحاولوا فهم هذ الكشف برجعه إلى شىء آخر شبيه به مما تعدونه من قبل، والأجدر بكم أن تقبلوه على أنه واقعة أساسية جديدة تعين على تفسير وقائع كثيرة غيرها، لذا أرجو أن تأذنوا لى فى أن أعبر لكم عنها بصيغة أخرى.

إن العرض يقوم بديلا عن شىء آخر لم يفلح فى الإفصاح عن نفسه. وتفصيل ذلك أن بعض العمليات النفسية لايتاح لها أن تنساب وتطرد فى مجراها الطبيعى حتى تصبح شعورية، فينجم عن هذا ظهور العرض العصابى، فالعرض إذاً نتيجة لعمليات نفسية قاطعها أو تدخل فى انسيابها سبب بكيفية ما، فقضى عليها بذلك أن تبقى لاشعورية، وهكذا نكون بصدد شىء حدث بدلا من شىء آخر، فلو أفلح العلاج فى قلب هذه العملية الاستبدالية، لانقشعت أعراض العصاب.

إن كشف «بروير» لايزال إلى اليوم أساس العلاج بالتحليل النفسى. فقد عززت جميع البحوث اللاحقة ذلك المبدأ الذى يقول بزوال الأعراض حين تصبح شروطها ومقدماتها اللاشعورية شعورية، وذلك على الرغم مما يصادفنا فى تطبيقه من صعاب وتعقيدات غير مرتقبة وغاية الإغراب، إن العلاج التحليلى يتلخص فى تحويل شىء لاشعورى إلى آخر شعورى، وهو لا يفلح فى مهمته إلا بمقدار ما يتسنى له من هذا التحويل.

وأرجو أن تأذنوا لى هنا فى استطراد موجز حتى لا يتطرق إلى أذهانكم أن هذا الإجراء العلاجى هيّن ميسور. لقد أسلمت بنا النتائج التى ظفرنا بها حتى الآن إلى أن العصاب نتيجة نوع من الجهل، من عدم العلم بعمليات نفسية يجب أن يعرفها، وفى هذا ما يذكرنا بمذهب سقراط الذى يقول إن الرذيلة نفسها نتيجة الجهل، الواقع أن من

درب بممارسة التحليل لا يعز عليه في العادة أن يحدس المشاعر التى لا يفطن إليها المريض، ومن ثم لا يكون الشفاء أمراً شاقاً، فما على المحلل إلا أن يكشف على الأقل عن وجه واحد من وجهى المعنى اللاشعورى للعرض، أما الوجه الآخر وهو الصلة بين العرض والخبرات السابقة للمريض فمما يتعذر حدسه بهذه الطريقة، لأن المحلل لا يعرف كيف يستطيع فى كثير من الأحيان أن يظفر بمعلومات فى هذه الناحية عن طريق غير مباشر، كأن يستخبر أصدقاء المريض وأقاربه عن حياته الماضية، ففى وسعهم أن يدلوا بحوادث لا يعرفها المريض وأقاربه عن حياته الماضية، ففى وسعهم غالباً أن يعرفوا من الحوادث ما كان له أثر الصدمات فى نفسه، وربما استطاعوا أن يدلوا بحوادث لا يعرفها المريض لأنها وقعت فى عهد مبكر جداً من طفولته، فإذا جمع المحلل بين هاتين الوسيلتين، فقد يظفر بغايته المنشودة فى وقت قصير ودون عناء كبير - ألا وهى إزالة الجهل المسبب للمرض عند المرضى.

لكن حبذا لو كان الأمر كذلك!. إنها كشوف وقعنا عليها ولم نكن على أهبة لها بادئ ذى بدء، وشتان بين معرفة ومعرفة، لقد قال موليير: «هناك حطب وحطب»، كذلك نقول «هناك معرفة ومعرفة»، بل ثمة أنواع شتى من المعرفة ليست سواء من حيث تأثيرها السيكولوجى بحال، فمعرفة الطبيب ليست كمعرفة المريض، وليس لها نفس الأثر. ولئن نقل الطبيب معرفته إلى المريض وأخبره بما يعلم لم يظفر الطبيب بأى نجاح، أو الأدنى إلى الصواب أن نقول إنه لا يظفر بإزالة الأعراض، بل بشىء آخر هو تنشيط التحليل وتحريكه، وأول أثر لهذا التنشيط غالباً ما يكون إنكاراً عريضاً من جانب المريض.

لقد عرف المريض شيئاً لم يكن يعرفه من قبل - وهو معنى العرض - ومع هذا فهو لا يعرفه خيراً من ذى قبل، فثم إذن أكثر من نوع واحد من الجهل بالأمور، وإن الإحاطة بما بين هذه الأنواع من فوارق لتقتضى درجة رفيعة من الاستبصار وفهماً عميقاً للمسائل السيكولوجية ومع هذا فالمبدأ الذى جئنا به - وهو انقشاع الأعراض عند العلم بمعانيها - لايزال صحيحاً، هذا شرط أن يكون أساس المعرفة تغييراً داخلياً فى نفس المريض لاسبيل إلى حدوثه إلا بمجهود عقلى موصول موجه إلى هذه الغاية، وهنا تواجهنا مشكلات سنرى عما قليل أن جماعها يدور على العمليات الديناميية التى تؤدى إلى تكون الأعراض.

يتعين عليّ الآن فى الحق أن أقف برهة أسائلكم فيها: ألم تجدوا أن كل ما ذكرت لكم كان غامضًا معقداً أكثر مما ينبغى؟ ألم يكن مبعث الحيرة والارتباك فى نفوسكم أن ترونى أكثر من استرداد ما أقدمه، ومن إحاطة ما أقول بكل أنواع الحصر والتقييد، ومن أن أسلك سبلا فلا ألبث أن انتكب عنها؟ لو كان الأمر كذلك أسفت له، غير أنى لا أستسيغ التبسيط إطلاقاً على حساب الحق، ولا أرى بأسًا فى أن تعرفوا أن الموضوع الذى نعالجه متعدد الجوانب وعلى درجة كبيرة من التشابك والتعقيد، كذلك لا أرى ضيراً فى أن أتحدث إليكم عن كل نقطة بأكثر مما يستطيعون تمثيله والانتفاع به فى اللحظة الحاضرة، وأعرف أن كل مستمع وكل قارئ يرتب ما يقدم له من أفكار بما يناسب عقله، وأنه يقتضيه ويبسطه وينتزع منها ما يريد أن يحتفظ به.

ومن الحق، إلى حد محدود، أن البداية كلما كانت ثرية حافلة، كثر ما يبقى منها فى النهاية، لذا دعونى آمل، على الرغم مما اضطررت إلى حشده فى عرض الوضوع، أنكم قد استوعبتم لُب ما قدمت لكم عن معنى الأعراض واللاشعور، وعن الصلة بينهما، وأكبر الظن أنكم أدركتم كذلك أننا سنبذل جهودنا التالية فى اتجاهين: أولهما أن نعرف كيف يصبح الناس مرضى ، كيف ينتهى بهم الزمر أن يتخذوا من الحياة ذلك الموقف الذى يتميز به العصاب، وهذه مسألة كلينيكية، ثانيهما أن نعرف كيف تتخلق أعراض المرض من شروطه وأسبابه، وهذه مسألة عمليات نفسية ديناميكية، ولابد أن تلتقى هاتان المسألتان فى نقطة ما.

لا أريد أن أمضى اليوم إلى أبعد من هذا، لكنى سأنتفع بما بقى من وقت قليل فأوجه أنظاركم إلى خاصة أخرى تبدو فى الحالتين اللتين أجرينا تحليلهما، وهى خاصة لن يظهر لكم كل ما تنطوى عليه من دلالة إلا فيما بعد: تلك هى **ثغرات الذاكرة أو النساوات**[1].

لقد ذكرت لكم أن مهمة العلاج التحليلى يمكن أن تلخص فى العبارة التالية: تحويل كل شيء مسبب للمرض فى اللاشعور إلى منطقة الشعور، وربما يدهشكم أن تعلموا الآن أن هذه العبارة يمكن أن يستعاض عنها بأخرى هى: سد كل الثغرات فى ذاكرة المريض، أى إزالة مما لديه من نساوات، إنها تعنى ما تعنيه العبارة الأولى،

1. Ammensias.

وهو أن نساوات العصابى تقوم بدور كبير فى إحداث ما لديه من أعراض، على أننا لو تأملنا حالة المريضة الأولى، لم يستقم هذا الرأى عن أثر النسيان: فهذه المريضة لم تنس ذلك المنظر الذى اشتق منه فعلها الحوازى، بل كان على العكس ناصعًا فى ذاكرتها، كما لم يكن ثمة نسيان آخر اشترك فى تكوين هذا العرض..

وكذلك كانت حال المريضة الثانية ذات الطقوس الحوازية، فقد كان موقفها شبيها بهذا الموقف إلى حد بعيد، وإن كان دونه وضوحا وظهورا، فقد كانت هى الأخرى تذكر فى وضوح لم يخل من تردد وتمنع، سلوكها فى الأعوام السالفة حين كانت تصر على أن يظل الباب مفتوحا بين حجرتها وحجرة والديها، وعلى أن تترك لها أمها مكانها فى فراش الزوجية، والأمر الوحيد الذى يبعث على الاستغراب هو أن المريضة الأولى كانت تقوم بفعلها مرات لا تعد ولا تحصى، ومع هذا لم يبدر إلى ذهنها مرة واحدة ما بينه وبين المنظر الذى أعقب ليلة الزفاف من تشابه، ولم تخطر لها قط ذكرى تلك الحادثة حين كان يطلب إليها مباشرة أن تبحث عن الدافع إلى فعلها الحوازى، وكذلك كانت حال الفتاة، فقد كانت تعيد كل مساء، وبالطريقة عينها طقوساً كانت تقترن بالموقف الذى يستثيرها.

إذاً فليست المسألة فى هاتين الحالتين مسألة نساوة بالمعنى الصحيح، بل مجرد فقدان للرابطة التى لابد منها لاستحضار الحادثة إلى الذاكرة، على أن هذا الاضطراب فى الذاكرة، إن كان يكفى لتفسير العصاب الحوازى، فالأمر غير هذا فى الهستريا. فهذا العصاب الأخير يتميز عادة بنساوات ذات نطاق واسع، إذ يؤدى تحليل كل عرض هستيرى بمفرده، فى العادة، إلى الكشف عن سلسلة بأكملها من انطباعات سابقة، يجزم المريض بأنها كانت غائبة عن ذاكرته حتى وقت التحليل، وتمتد هذه السلسلة، من جهة، إلى السنوات الأولى من حياة الفرد، بحيث أن النساوة الهسترية يمكن اعتبارها امتداداً مباشراً لنساوة الطفولة، التى تخفى الانطباعات الباكرة من الحياة النفسية، حتى على الأسوياء من الناس..

ومن جهة أخرى فنحن ندهش إذ نرى أن أحدث الخبرات التى مرت بالمريض، تكون هى الأخرى عرضة للنسيان، وأن النسوة تصيب، على التخصيص، تلك الظروف التى هاجت العصاب أو زادت من حدته، فتعفى عليها تعفيةً جزئية على الأقل، إن لم تمحوها محواً تاماً، وأغلب الأمر أن تختفى التفاصيل المهمة من أمثال

هذه الذكريات الحديثة، أو أن تحل محلها ذكريات زائفة، بل يكاد يحدث دائماً، قبيل انتهاء التحليل، أن تطفو ذكريات معينة لخبرات حديثة، وهى ذكريات تسنى لها أن تظل معتقلة أثناء التحليل ، فتركت فى الملابسات ثغرات ملحوظة.

هذه الاضطرابات التذكرية هى كما قلت، مما تتميز به الهستريا، وهى مرض تتخلله، فضلا عن هذا حالات تكون بمثابة الأعراض (النوبات الهسترية) ولا تترك أثراً لها فى الذاكرة بوجه عام، وبما أن الأمر غير هذا فى العصاب الحوازى، فقد يجوز لكم أن تستنتجوا أن هذه النساوات، جزء من الطابع السيكولوجى للهستريا، وليس سمة عامة مشتركة بين الأمراض النفسية جميعاً، على أن أهمية هذا الاختلاف ستبدو لكم أقل مما تظنون، إن نظرتم فى الاعتبار التالى: ذلك أن «معنى» العرض يتألف من شيئين هما **أصله والغرض** منه، بعبارة أخرى من الانطباعات والأحداث التى نشأ منها، ثم من الهدف الذى يرمى إليه، فأما أصل العرض فيدور على انطباعات تأثر بها الفرد من خارج، وكان يشعر بها بالضرورة فى وقت معين، وقد يلفها النسيان بعد ذلك فتمسى لا شعورية. وأما الغرض الذى يخدمه العرض فعملية نفسية باطنية على الدوام، ربما كانت فى أول أمرها شعورية.

ومن الممكن أيضاً أنها لم تكن قط شعورية فبقيت فى اللاشعور منذ نشأتها، فليس، المهم إذاً أن تعفى النساوة على أصل العرض أى على الخبرات والانطباعات التى يرتكز عليها، كما هى الحال فى الهستريا لأن الغرض - وقد يكون لا شعوريا من أول أمره - هو الذى يجعل العرض مرتهناً باللاشعور، وليس هذا العصاب الحوازى بأقل منه فى الهستريا.

إن تأكيد أهمية اللاشعور فى الحياة النفسية على هذا النحو، قد أطلق على التحليل النفسى كل ما تنطوى على نفوس البشر من شر، فلا تعجبوا لهذا ولاتحسبوا أن هذه المعارضة ترجع إلى الصعوبة الظاهرة فى تصور اللاشعور، أو إلى امتناع البيّنات على وجوده، فقد تلقت الإنسانية من يد العلم، فيما سلف، طعنتين خطيرتين أصابتاها فى الصميم من أنانيتها الساذجة.. كانت الأولى عندما بيّن للناس أن الأرض هيهات أن تكون مركز الكون، إن هى إلا هنة زهيدة فى منظومة كونية لا نستطيع أن نتصور ما هى عليه من ضخامة، وتقترن هذه الطعنة فى أذهاننا باسم كوبرنكس، وإن كان فى تعاليم مدرسة الاسكندرية شىء شبيه بهذا كل الشبه، أما الطعنة الثانية فجاءت

على يد علم الأحياء، يوم انتزع من الإنسان ما يدعيه من مكانة ممتازة فى نظام الخلق، فخرج عليه بأنه ينحدر من سلالة حيوانية، وبيّن له ما تنطوى عليه نفسه من طبيعة بهيمية لايمكن أن تستأصل..

وقد قام لهذا الانقلاب فى عصرنا هذا شارلز دارون وولاس ومن سبقهما، فاستهدفوا لأعنف ضروب المقاومة ممن كانوا يعاصرونهم من الناس، وثم طعنة ثالثة يكابدها غرور الإنسانية فى يومنا هذا، وهى أنكى وأمرّ من سابقيتها.. فالبحوث السيكولوجية الحاضرة تجهد فى أن تبرهن **لأنا** كل واحد منا أنه ليس رب البيت الذى يسكن فيه، وليس هذا فقط، بل عليه أن يقنع فوق ذلك، بمعلومات طفيفة مزجاة عما يدور فى النفس التى تحتويه، من وراء الشعور، وما كان أصحاب التحليل النفسى أول من أهاب بالإنسان أن يبصر فى نفسه، وما كانوا نسيجًا وحدهم فى هذا النداء، لكنه يبدو أن كان من حظهم القيام بهذه الرسالة فى دأب وإصرار ، وأن يعززوها ببينات مستمدة من التجارب الجارية التى تتصل بحياة كل فرد اتصالا وثيقًا. ومن ثَم قامت تلك الثورة العامة على علمنا الجديد، وهذا الاطراح التام لقواعد التأدب الأكاديمى فى المساجلة، وتحرر المعارضة من كل قيد يفرضه المنطق الذى لاينحاز ولا يتشيع، يضاف إلى هذا أن آراءنا حريّة أن تهدد أمن العالم من ناحية أخرى كما سترون بعد قليل.

المحاضرة التاسعة عشرة

المقاومة والكبت

لو أردنا أن نمضى فى فهم الأمراض النفسية، فلا بد لنا من معلومات وملاحظات أكثر مما لدينا، وبين أيدينا ملحوظتان تسترعيان الاهتمام إلى حد كبير، وقد كانتا مثاراً لضجة كبيرة يوم أن أميط عنهما اللثام، ولا شك أن دراستنا فى العام الماضى تهيؤنا لبحث هاتين الملحوظتين.

الأولى: أن المريض حين نشرع فى مداواته وتخليصه من أعراضه المرضية، يلقانا بمقاومة عنيفة عنيدة تدوم طوال فترة العلاج. وهذه واقعة على جانب كبير من الإغراب بحيث لايمكننا أن نتوقع أن يؤمن بها الناس. فنحن نحرص على ألا نذكر شيئاً عنها لأقارب المريض، لأنهم يرون فيها بدأ حجة نتعلل بها عن طول العلاج أو إخفاقه، ثم إن المريض نفسه يبدى كل مظاهر المقاومة دون أن يعرفها من حيث هى.. فإذا نحن أفلحنا فى أن نجعله يفطن إلى مقاومته وإلى أن يحسب حسابها، نكون قد خطونا فى سبيل النجاح خطوة واسعة، كيف يصح فى الأذهان أن المريض الذى يقاسى، هو من حوله، الكثير من أعراضه، والذى يضحى راضيا بالكثير من ماله ووقته وجهده وجهاد نفسه للتخلص منها ـ كيف له أن يشد من أزر المرض فيقاوم من يقدم له المعونة ؟ أكبر الظن أن يبدو هذا التصريح فى نظره ونظر أقاربه أمراً ليس من الرأى فى شىء! ومع هذا فهو حقيقة واقعة، فإن اعترض معترض بأنه أمر غير محتمل، فما علينا إلا أن نجيب لذلك أشباهاً عدة: فقد يفزع المرء إلى الطبيب من ألم واصب فى أسنانه، حتى إذا ما أنشب الطبيب كلابه فى السن التالفة، قاومه المريض مقاومة عنيفة.

والمقاومة التى يبديها المريض تفصح عن نفسها بأساليب متنوعة شتى وعلى جانب كبير من الدقة والدهاء حتى ليشق تعرفها فى أغلب الأحيان، فعلى المحلل أن يأخذ حذره وأن يشتبه فى وجودها أبداً، إننا فى العلاج التحليلى نصطنع تلك الخطة التى تعرفونها من قبل فى تأويل الأحلام، فنطلب إلى المريض أن يضع نفسه فى حالة يلاحظ فيها نفسها ملاحظة هادئة، وألا يحاول أن يظهر غير ما يضمر ثم يدلى إلينا بكل ما يرد إلى ذهنه من مشاعر وأفكار وذكريات بالترتيب غير ما يضمر ثم

يدلى إلينا بكل ما يرد إلى ذهنه من مشاعر وأفكار وذكريات بالترتيب الذى تتوارد عليه..

ونحن نحذره صراحة ألا ينساق لأى دافع قد يملى عليه أن يختار من هذه المستدعيات أو أن يستثنى بعضا لأنه «نزق» أو «غير مساغ» أو لأنه «تافه» أو «سخيف» أو «غير هام» فلا يستحق أن يذكر. كما نشدد عليه ألا يلتفت إلا إلى ما يجرى على سطح شعوره، وألا يلقى بالا إلى أى اعتراض يعرض له بصدد ما يبدر إلى ذهنه، ونؤكد له أن نجاح العلاج وخاصة مدته رهن بإخلاصه فى تنفيذ هذه القاعدة الأساسية من قواعد التحليل، وقد أفضى بنا تطبيق هذه الخطة فى تأويل الأحلام إلى أن الأفكار والذكريات التى تستثير الشك والاعتراض أكثر من غيرها، هى بعينها المستدعيات التى تنطوى فى العادة على ما من شأنه أن يعيننا على استكشاف اللاشعور.

وأول نتيجة نصل إليها من إعلان هذه القاعدة الأساسية استهدفها لمقاومة المريض، فإذا به يعمل على الفرار منها بكل وسيلة ممكنة، فتارة يقول إن ذهنه فارغ لا يبدر إليه شىء ما، وطورا يزعم أن ذهنه حاشد بكثير من المستدعيات، فليس فى وسعه أن يقبض على واحدة منها، إذ ذاك لا يفوتنا أن نلحظ فى دهش لا نرتاح إليه أن المريض قد استسلم لاعتراضاته النقدية واحدا بعد آخر، تشهد بذلك وقفاته الطويلة أثناء نطقه، ثم ينتهى به الأمر إلى أن يعترف بأنه يعرف أشياء لايستطيع أن يقولها فهو يخجل من ذكرها، وبأنه ينساق لهذا الدافع على الرغم من وعده، أو أن يصرح بأنه وقع على شىء لكنه شىء لا يخصه بل يتصل بشخص آخر فليس فى وسعه أن يبوح به، وقد يقول لنا إن ما بدر إلى ذهنه خواطر تافهة أو سخيفة أو غير مهمة، وليس من المعقول أن نطلب إليه أن يفضى إلينا بأمثالها، وهكذا يمضى فى سوق اعتراضات لا حصر لها، فلا يبقى لنا لا إن نفهمه ماذا نقصد إليه من أن يذكر كل شىء.

ولايكاد المحلل يلتقى بمريض واحد لا يحاول أن يخفى جانباً من نفسه وأفكاره حتى تكون بمنأى من فضول التحليل، من ذلك أن أحد مرضاى، وكان رجلا على مستوى ملحوظ من الذكاء، حبس على لبضعة أسابيع صلة حبيبة حميمة له، فلما لمته على خرق القاعدة «المقدسة»، أخذ يدافع عن نفسه ويتعلل بأنه كان يعتقد أن هذه

مسألة شخصية خاصة به، وغنى عن البيان أن العلاج التحليلى لا يستطيع أن يمنح المرضى حق الاحتماء بمنطقة حرام، فلو أن الحكومة فى مدينة كڤيينا مثلا، أعلنت وقف القبض على المشتبه فى أمرهم فى أماكن كالسوق الكبير أو الميدان المجاور لكنيسة القديس ستيفان، فمن العبث أن تحاول بعد هذا أن تقبض على مجرم معين، إذ من الطبيعى ألا يوجد على الإطلاق إلا فى هذه المناطق الحرم، ولقد بدا لى ذات مرة أن أمنح هذا الحق لمريض كان موثقًا بيمين ألا يبوح بأشياء معينة إلى أى شخص آخر، والواقع أنه ذهب راضياً عن نتيجة العلاج، لكنى لم أغتبط بذلك، وعاهدت نفسى ألا أعيد هذه المحاولة إطلاقا فى مثل تلك الظروف.

إن المصابين بالحواز على جانب كبير من البراعة فى إحباط هذه القاعدة الفنية فهم يكادون يجعلونها عقيمة لما يحيطونه به من تزمت وارتياب شديدين، ويفلح المصابون بالهستريا الحصرية أحيانا فى الهبوط بها إلى مستوى سخيف، فلا يفضون إلا بمستدعيات تنأى كل النأى عما ننشده، فلا يخرج التحليل منها بشىء، غير أنى لاأريد أن أطالعكم بكل التفاصيل فى هذه الصعوبات الفنية. وحسبنا أن نعرف أننا حين نوفق، آخر الأمر، إلى أن نفرض على المرىء بعض الطاعة لهذه القاعدة الأساسية، فإن المقاومة تتجه إذ ذاك اتجاها يختلف كل الاختلاف عما كانت عليه: إذ تبدو فى صورة معارضة فكرية تتخذ من الحجج سلاحاً لها، وتستغل كل الصعوبات وما يبدو غير محتمل من الأمور فى نظر العقل العادى الذى ساء فهمه لنظريات التحليل، إذ ذاك نسمع من فم المريض الواحد كل الاعتراضات وأوجه النقد التى تعصف بنا متضافرة من فم الأدب العلمى.. إذاً فما يجأر به النقاد ليس شيئا جديداً علينا غريبا عنا، وما هو فى الحق إلا زوبعة فى فنجان، على أن المريض ما يزال مستعدا لأن نناقشه ونجاحه، ويتوق إلى أن نعلمه ونبصره وندحض رأيه، وإلى أن نشير إليه بمراجع يستزيد منها علما، وهو فى هذا على أهبة أن يصبح من أنصار التحليل النفسى، بشرط أن يترفق به التحليل وينقذه مما هو فيه، لكننا نلمس المقاومة من ثنايا هذا الاستطلاع نرفض هذه الرغبة فى الاستطلاع ولا نسمح بها.

وتصطنع المقاومة عند الحوازيين حيلا خاصة نعرفها، فنرى المريض يدع التحليل يطرد سهلا ميسراً لا تعترضه معارضة، يعلل نفسه بأنه ألقى الضوء متزايداً على ألغاز الحالة ومعمياتها، ثم لا يسعنا آخر الأمر إلا أن ندهش إذ نرى أن ليس لما

ظفرنا منه من تفاسير أثر عمل أو تحسن يناظره فى الأعراض، إذ ذاك يتضح لنا أن المقاومة قد اعتصمت بالشك الذى يوسم به هذا العصاب، وأنها أوقعتنا فى شرك نصبته لنا، فكأن المريض يقول بلسان حاله: «هذا حسن جداً وطريف جداً، ولا بأس من أن أمضى فى ذلك، وأنا على يقين أن التحليل قد يفيدنى كثيراً إن كان حقاً، لكنى لا أعتقد إطلاقاً أنه حق، ومادمت كذلك، فلن يؤثر فى مرضى بحال» وقد يظل الموقف على هذه الحال زمناً طويلاً حتى يتسنى لنا أن نهاجم المقاومة فى معتصمها نفسه، وعندئذ تبدأ المعركة الحاسمة.

وليست المقاومة الفكرية أخطر أنواع المقاومة وأسوأها، إذ من الممكن دائما أن تتغلب عليها. لكن المريض يعرف كيف يقيم مقاومات فى نطاق عملية التحليل نفسها، وهى مقاومات لا تقهر إلا بشق الأنفس. فبدل أن يتذكر شيئا من عواطفه واتجاهاته النفسية الماضية، إذا به يحيى هذه العواطف والاتجاهات من جديد، «يطرحها» على شخص المحلل، حتى لتصبح ذات أثر فعال فى مقاومة العلاج، فإن كان المريض رجلا، استعار هذه العواطف والاتجاهات من صلاته الماضية بأبيه: فإذا به يقيم فى وجه المحلل مقاومات قوامها نضاله للظفر باستقلال شخصيته واستقلال أحكامه، وطموحه الذى كان يحفزه فى الماضى على أن يعادل أباه أو أن يفوقه، وميله عن أن يجشم نفسه مؤونة الاعتراف بالجميل مرة أخرى فى حياته..

بل إن هناك لحظات يشعر فيها المحلل بأن رغبة المريض فى تضليله وإشعاره بعجزه والتغلب عليه، قد ظهرت رغبته فى الخلاص من مرضه ظهوراً تاماً، أما المريضات من النساء فيبرعن فى استغلال ظاهرة «الطرح»[1] لصالح المقاومة، إذ يخلعن على المحلل عاطفة رقيقة مصطبغة بصبغة شهوية قوية، حتى إذا بلغت هذه العاطفة درجة معينة من الشدة، تلاشى كل اهتمام بالموقف الحالى للعلاج، ولم تعد المريضة تفكر فى مرضها أو فى الالتزامات التى قبلتها عند بدء العلاج، ثم إن الغيرة التى لا مناص من انبعاثها فى مثل هذه الحال، وخلف ظن المريضة من فتور المحلل إزاء عاطفتها المشبوبة، من شأنهما أن يسيئا إلى العلاقة الشخصية التى لابد أن تقوم بينهما، وبذا يعطل عامل من أقوى العوامل المحركة للتحليل.

---

(١) Transference انظر المحاضرة السابعة والعشرين، «المترجم».

ليس لنا أن نبخع أنفسنا على أمثال هذه المقاومات الأخيرة فنبتئس بها ابتئاساً كبيراً، فهى تحتوى على كثير من المواد المهمة جداً فى حياة المريضة السابقة تفصح عنها بصورة لاتدع مجالا للشك فى أنها تعين التحليل عوناً كبيرا إن عرف أن يستخدم خطة ماهرة تنتفع بهذه المواد على خير وجه، ومما يجدر ملاحظته أن هذه المواد تخدم غرض المقاومة دائما فى أول الأمر، فلايبدو منها إلا مظهرها المناصب للعلاج. ومن الممكن أن يقال أيضاً إن هذه المقاومات سمات خلقية واتجاهات لأنا يحشدها المريض لمناهضة التغييرات التى نحاول الوصول إليها عن طريق العلاج.

ولئن درسنا هذه السمات الخلقية ـ رأينا كيف يرتبط ظهورها بظروف الصعاب، وكيف تكون بمثابة رد فعل لمطالبه، ومن ثم نستطيع أن نسميها سمات كامنة، بمعنى أنها لم تكن لتظهر قط من دون العصاب، أو لم تكن لتظهر بهذه الدرجة من الشدة والوضوح على الأقل، ومع هذا فلا يذهب بكم الظن إلى أن ظهور هذه المقاومات من شأنه أن ينال من نفاذ العلاج التحليلى وصلاحيته فنحن نعرفها ونرقب ظهورها ولانبتئس إلا حين نعجز عن استثارتها استثارة واضحة، وحين نعجز عن أن نجعل المريض يفطن إليها من حيث هى. وهكذا يتاح لنا أخيراً أن نفهم أن التغلب على هذه المقاومات هو المهمة الأساسية للتحليل، وأنه الشطر الوحيد من عملنا الذى يجعلنا على يقين من أننا صنعنا للمريض شيئا ذا بال.

يضاف إلى هذا أن المريض يتلمس كل مناسبة تطرأ إبان العلاج فيتخذها تعلّة للإعراض عن بذل الجهد فيه سواء، أكانت حادثة عارضة من شأنها أن تصرفه عنه وتمنعه منه، أم ملحوظة عدائية عن التحليل يوجهها إليه أحدٌ من يحسب لرأيهم حساباً، أم مرضاً عضويا طارئاً أو مضاعفا للعصاب، بل إنه قد يتعلل فى الواقع بكل تحسن فى حالته فيتخذه ذريعة للتراخى، إذا جمعنا كل أولئك بضعه إلى بعض، خرجنا بصورة تقريبية، ولا أقول كاملة، عن أشكال المقاومة وما تتخذه من وسائل لابد من مواجهتها والتغلب عليها أثناء كل تحليل..

ولئن كنت قد تناولت هذه النقطة بشىء من التفصيل، فلكى أقول لكم إن خبرتنا بالمقاومات التى يقيمها المرضى فى سبيل الشفاء من أعراضهم، كانت أساس نظرتنا الديناميكية إلى الأمراض النفسية، لقد بدأت العلاج النفسى مع بروير عن طريق التنويم المغناطيسى، وقد عولجت المريضة الأولى لبروير وهى فى حالة إيجابية

تنويمية، فلم أحجم أول الأمر عن أن أسلك هذا السبيل، وأعترف أن عملى كان فى ذلك الحين يسير فى سهولة ويسر ولايستغرق إلا وقتاً قصيراً نسبياً. لكن النتائج كانت متقلبة سريعة الزوال، لذا هجرت التنويم المغناطيسى إلى غير رجعة، وعندئذ فقط أدركت أنه كان من المحال فهم العوامل الديناميكية فى هذه الأمراض لو أنى مضيت فى اصطناع التنويم، ذلك أن المقاومات يخفى وجودها على المحلل فى هذه الحال، فالنوم المغناطيسى يصد المقاومات ويتراجع بها فيخلو بعض المجال للتحليل، لكنها تظل معتقلة وراء حدود هذا المجال؛ بحيث لايمكن النفاد إليها والظهور عليها، فيكون تأثيرها كتأثير الشك فى العصاب الحوازى، وعلى كل، فأنا فى حل من أن أقول إن التحليل النفسى بمعناه الصحيح لم يبدأ إلا حين انصرفنا عن التنويم المغناطيسى.

لئن كان رصد المقاومات على هذه الدرجة من الأهمية، فمن الحكمة أن نلزم أقصى حدود الحرص والارتياب حتى لا نسارع إلى التسليم بوجودها، فربما كانت هناك حالات من العصاب تقصر فيها المستدعيات لأسباب أخرى، وربما كانت الحجج التى يعترض بها علينا فى هذه الناحية حرية أن نضعها موضع اعتبار، فنكون خاطئين إذ نصم الاعتراضات الفكرية للمريض بقولنا إنها مقاومات، غير أنى أؤكد لكم أن حكمنا على هذا الموضوع لم يكن متعجلا مبسراً، فقد عرضت لنا فرص لاحظنا فيها هؤلاء المرضى الناقدين عند ظهور المقاومة وبعد زوالها، ورأينا أن المقاومة تختلف شدتها أبداً أثناء العلاج؛ فهى تزداد دائما حين نتناول عنصراً جديداً، وتصل إلى نهايتها العظمى من الشدة أثناء تقليب هذا العنصر ، ثم تفتر وتتضاءل حين يستنفد الموضوع، يضاف إلى هذا أننا إن لم نتورط فى أخطاء فنية خاصة، لم نلتق على الفور قط بأقصى ما يستطيعه المريض من مقاومة.

لذا نستطيع أن نؤكد أن نفس المريض يتشبث بموقفه الاعتراضى ثم يتخلى عنه مرات عدة أثناء التحليل، فيحنما نكون على وشك أن نستدرج إلى شعوره نتفة لاشعورية تؤلمه بوجه خاص اشتط فى نقده واعتراضه، وحتى إن سبق له أن فهم وتقبل أشياء كثيرة عن هذا الأمر لم يغنه هذا الفهم شيئا، فهو يقاوم ويعارض بكل ثمن، حتى ليبدو فى سلوكه هذا صورة من البله الوجدانى والسخف الانفعالى، فإن وفقنا إلى معونته على التغلب على هذه المقاومة الجديدة، ارتد إليه فهمه واستبصاره، ذلك أن ملكة النقد عنده لاتعمل مستقلة عن غيرها، ومن ثم فهى لاتنال ما هى جديرة به من احترام، وما هى إلا مطية لاتجاهاته الوجدانية، وأداة تزجيها المقاومة،

فإن لم يستسغ شيئا، استطاع أن يدفعه عن نفسه فى حذق كبير مشبع بروح النقد، وإن طاب له شيء سارع إلى قبوله فى سذاجة بادية، وربما كان جميعا فى الأمر سواء، غير أن إذعان الفكر للحياة الوجدانية يبدو ظاهراً على هذا النحو عند من يجرى عليه التحليل، لأن التحليل يرده إلى آخر حصونه ويعصره عصراً.

والآن كيف يتسنى لنا تعليل هذه الواقعة المشاهدة من صد المريض فى عنف عن التخفف من أعراضه، وإعادة عملياته النفسية إلى مجراه الطبيعى؟ نقول إن هذه القوى التى تقوم تغيير الحالة المرضية، لابد أن تكون القوى عينها التى استثارت هذه الحالة من قبل، ولابد أن تكون الأعراض قد تكونت فى إثر عملية نستطيع أن نعيد تركيبها من جديد بفضل ما لدينا من خبرة عن تفكيك الأعراض وتفصيلها.

نحن نعرف من ملاحظات «بروير» أن وجود العرض مشروط بإعاقة عملية نفسية عن أن تصل إلى نهايتها الطبيعية، بحيث لايتسنى لها أن تصبح شعورية، فيكون العرض بديلا عن شيء لم يتح أن يتم ويكتمل، ومن هنا نستطيع أن نحدد مكان القوى التى نشتبه فى نشازها وتأثيرها، إن الحيلولة دون ولوج عملية نفسية منطقه الشعور لابد أن كانت نتيجة لمعارضة عنيفة، وبذا ظلت العملية لاشعورية فكانت لها القدرة على تكوين العرض، هذه المعارضة نفسها تبدو أثناء العلاج التحليلى فتحبط سعينا لاستدراج ما فى اللاشعور إلى الشعور، وهى ما نراه ونلمسه فى صورة مقاومة، هذه العملية المولدة للمرض، والتى تفصح عن نفسها عن طريق المقاومة هى ما نسميها **بالكبت**.

يتعين علينا الآن أن نحدد تصورنا لعملية الكبت هذه، إنها الشرط التمهيدى الأساسى لتكوين الأعراض، لكنها إلى هذا شيء آخر لا نعرف له نظيراً. لنأخذ على سبيل الإيضاح نزعة نفسية أو عملية نفسية تسعى إلى أن تتحول إلى فعل: نحن نعرف أن هذه النزعة يمكن نبذها وكظمهما أو إدانتها وحظرها، ومن ثم ينسحب ما يلابسها من طاقة فتسبح لا حول لها ولا قوة؛ لكنها تستطيع أن تبقى بمثابة ذكرى من الذكريات، وإن عملية العزم والتصميم هذه تحدث بأسرها تحت إشراف الأنا وتفطنه، غير أن الأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف حين تتعرض هذه النزعة نفسها للكبت: فهى تحتفظ بطاقتها فى هذه الحال ولا تترك وراءها ذكرى، هذا إلى أن عملية الكبت تحدث دون تفطن الأنا وشعوره، على أن هذه الموازنة لا تقربنا من فهم طبيعة الكبت بحال.

سأعرض عليكم التصورات النظرية التى ظهر أنها تفيد فى تحديد مفهوم الكبت، ولكى يكون هذا العرض واضحاً، يتعين علينا أولا أن نستبدل بالمعنى الوصفى المحض لكلمة «اللاشعور» معناها النظامى[1]، وبعبارة أخرى يتعين علينا أن ننظر إلى شعور المرء أو لا شعوره بعملية نفسية على أنه مجرد خاصة من خصائصها، لا يتحتم أن تكون الخاصة الوحيدة النهائية، فحين تبقى عملية نفسية فى اللاشعور، قد يكون احتجازها عن الشعور مجرد دلالة على المصير الذى حاق بها، وليس هذا المصير نفسه، ولكى نكون لأنفسنا فكرة عيانية واضحة عن هذا المصير، لنفترض أن كل عملية نفسية ـ باستثناء واحدة سنتكلم عنها فيما بعد ـ توجد أول الأمر فى حالة أو فى طور لاشعورى، ثم تنتقل بعد هذا إلى الطور الشعورى، مثلها فى ذلك مثل الصور الشمسية تكون فى أول أمرها سالبة، ولا تصبح الصورة النهائية إلا بعد الطبع. لكن كل صورة سالبة لايتحتم أن تصبح صورة موجبة، كذلك لايتحتم أن تتحول كل عملية نفسية إلى عملية شعورية، ويمكن التعبير عن هذا بصيغة خير من تلك فنقول: إن كل عملية تنتمى بادئ ذى بدء إلى النظام النفسى اللاشعورى، وتستطيع فى ظروف خاصة أن تجتازه إلى النظام الشعورى.

وأبسط تصوير ملائم لهذين النظامين هو التصوير المكانى؛ فنحن نشبه النظام اللاشعورى بغرفة انتظار نفسية، تزاحم فيها النزعات النفسية بعضها بعضاً، كما لو كانت كائنات حية. تتصل بهذه الغرفة غرفة استقبال أصغر منها، يقيم فيها الشعور، وعلى العتبة الموصلة بينهما يقوم حارس يفتش كل نزعة نفسية ويرصدها فيمنعها من دخول غرفة الاستقبال إن لم يرض عنها. وسواء رفض الحارس نزعة معينة عند العتبة، أو ردّها بعد أن تلج غرفة الاستقبال فليس هذا بذى بال؛ إذ تكاد النتيجة تكون واحدة فى الحالين، وهو أمر مرهون بما يكون عليه الحارس من يقظة وسرعة فى التعرف ـ يتيح لنا هذا التشبيه أن نفسح فى مصطلحاتنا الفنية، فالنزعات اللاشعورية المقيمة فى غرفة الانتظار لاتراها عين الشعور المقيم فى الغرفة المجاورة، وبذا تظل لاشعورية فى أول الأمر، فإذا تدافعت إلى العتبة فردّها الحارس، لم يتسن لها أن تصبح شعورية، فنقول فى هذه الحال إنها **كبتت**، وحتى إن تيسر لها أن تجتاز العتبة، لم تصبح بالضرورة شعورية، فهى لا تستطيع أن تصبح شعورية إلا إذا أفلحت فى استدعاء نظر الشعور.

---

1. Systematic.

ومن هنا نستطيع أن نسمى هذه الغرفة الثانية **بالنظام القبشعورى**[١]. على هذا النحو تحتفظ العملية التى تصبح بها النزعات شعورية، بمعناها الوصفى المحض، ويكون جوهر الكبت هو عجز نزعة معينة عن الإفلات من النظام اللاشعورى وولوج النظام القبشعورى لعدم ارتياح الحارس إليها ورضائه عنها. وهذا الحارس هو ما يبدو لنا فى صورة مقاومة حين نحاول إرخاء الكبت فى العلاج التحليلى.

ستقولون دون شك إنها تصورات ساذجة بمقدار ما هى مُغرية، فلا مجال لها فى عرض علمى، وأنتم على حق فى هذا، فأنا أعرف أنها فجة ساذجة، بل أعرف فى الواقع أنها غير صحيحة. وستكون لدينا فيما بعد - إن لم أخطئ التقدير - بدائل خيراً منها، لا أعلم ما إذا كانت ستبدو لكم، هى الأخرى، على هذه الدرجة من الإغراب. فلنأخذ بها الآن على أنها وسائل نافعة تعيننا على الفهم، كذلك الشخص - فى قاعدة أمبير - الذى نتصوره سابحاً فى التيار الكهربى. ومادامت تعيننا على الفهم، فليس لنا أن نغض منها. على أنى أستطيع أن أؤكد لكم أن هذه الفروض الساذجة - الغرفتين: الأولى والثانية - تزودنا بفكرة تقترب من الواقع الفعلى اقتراباً، وأود فوق هذا أن أستمع إليكم توافقون على أن مصطلحات اللاشعور والقبشعور والشعور أبعد عن الانحياز وأدنى إلى أن تجد لها تأييداً وتبريراً من غيرها من المصطلحات المقترحة أو المستعملة: كتحت الشعور[٢] وما بين الشعور[٣]، وشريك الشعور[٤] إلى غير تلك.

لئن كان الأمر كذلك، فمما أعلق عليه أهمية كبرى أن تمضوا فتقولون إن تنظيم الجهاز النفسى كما افترضه لتفسير الأعراض العصابية، لو كان ذا صدق مطلق، للزم أن يجلو لنا سير الوظائف فى الحالات السوية أيضًا. هذا هو الحق بعينه، غير أنه لايتسنى لنا فى هذا المقام أن نقتفى أثر هذه النتيجة إلى نهايتها، ومن المحقق أن اهتمامنا بسيكولوجية تكون الأعراض سيزداد ازدياداً هائلاً، إن لاح لنا بصيص من الأمل فى أن نظفر - عن طريق دراسة الحالات المرضية - بمعلومات تبصرنا بسير الوظائف النفسية فى حالتها السوية، وهو الموضوع الذى لايزال خافياً إلى اليوم.

---

1. Preconsious system.
2. Sub-Conscious.
3. Inter-Consciuos.
4. Cp-Conscious.

وهذا التشبيه الذى قدمت لكم عن النظامين النفسيين، وما بينهما وبين الشعور من صلات، ألا يذكركم بشىء؟

لو فكرتم قليلا لرأيتم أن ذلك الحارس الذى يقوم بين اللاشعور والقبشعور ما هو إلا الرقيب الذى يضفى على الحلم الظاهر شكله النهائى. إن بقايا اليوم السابق، وقد رأينا أنها المنبهات التى تستثير الحلم، كانت مواد قبشعورية تخضع أثناء النوم لتأثير رغبات وتنبيهات لا شعورية، فتشترك معها، وتنتفع بما تنطوى عليه من طاقة فى صوغ الحلم الكامن: إذ يتناولها «التكثيف» و«النقل»، وهى تحت تأثير النظام اللاشعورى، بالتعديل والتحوير على نحو لا تعهده الحياة النفسية السوية ولا تقبله إلا فى حالات استثنائية، وتعنى بالحياة النفسية السوية النظام القبشعورى، وبما أن هذا الاختلاف فى كيفية أداء الوظيفة هو ما يميز هذين النظامين أحدهما عن الآخر، فالصلة ـ هى ما تدلنا على انتماء هذه الظاهرة لأى من هذين النظامين، فإذا نظرنا إلى الحلم من هذه الناحية، لم نجده ظاهرة باثولوجية، إذ إنه يحدث لكل شخص سوى، حين يكون نائماً، ومن ثم فذلك الفرض الذى صغناه عن تكوين الجهاز النفسى، وهو فرض يفسر كلا من انصياغ الأحلام وتكون الأعراض العصابية، من شأنه ـ الذى لايدحض ولا ينقض ـ أن ينطبق وأن يصدق على الحياة النفسية السوية أيضاً.

هذا ما نستطيع أن نقوله وأن نفهمه عن الكبت فى الوقت الحاضر، فما هو إلا شرط ضرورى سابق لتكوُّن الأعراض، ونحن نعرف أن العرض بديل عن عملية أخرى صدها الكبت واعتقلها، لكننا مع هذا لانزال بعيدين عن أن نفهم هذا التكوين البديل.. فثمة جوانب أخرى من مشكلة الكبت نفسها تستثير أسئلة، علينا أن نجيب عنها: ما نوعية النزعات والتنبيهات النفسية التى يصيبها الكبت؟، وما القوى التى تفرض الكبت؟، وما الدوافع التى تبعث عليه؟ ليس لدينا إلى الآن ما نجيب به عن هذه الأسئلة إلا نقطة واحدة، فقد عرفنا، ونحن ندرس مشكلة «المقاومة»، أن القوى التى تقوم وراءها، تصدر عن الأنا، عن سمات خلقية ظاهرة أو كامنة: فلابد إذاً أن تكون هذه العوامل هى ما يسبب الكبت أيضاً، أو ما يشترك فى فرضه على الأقل، أما غير هذا فلا نعلم من أمره شيئا فى الوقت الحاضر.

هنا يأتينا العون من ملاحظة ثانية واعتبار ثان من الاعتبارات، التى أشرت إليها من قبل، ذلك أن التحليل يتيح لنا دائما أن نكشف عن الغرض الذى تخدمه الأعراض

العصابية، وليس هذا بجديد عليكم بطبيعة الحال: فقد أشرت إليه فى حالتين من العصاب، لكن هل تغنى حالتان اثنتان فى الاستشهاد وإقامة الدليل؟ لكم الحق فى أن تطلبوا إلى أن أبرهن لكم على صدق دعواى بمائتين من الحالات أو بحالات لا عداد لها، وهذا ما لا أملكه، فأحيلكم إلى خبراتكم الشخصية أو أقول لكم إن إجماع المحللين النفسيين قد انعقد على تأييد هذه الدعوى.

تذكرون من دون شك أن التحليل قد أسلم بنا، بعد الفحص للأعراض فى الحالتين المذكورتين، إلى صميم الحياة الجنسية وأسرارها الحميمة عند المريضتين، وفوق هذا كان الغرض من الأعراض واضحاً فى الحالة الأولى بوجه خاص، أما فى الحالة الثانية فربما كان يحجبه، إلى حد ما، عامل آخر سنذكر فيما بعد. فلابد إذاً أن نلتقى فى كل حالة نجرى عليها التحليل بما وجدناه فى هذين المثالين، أى لابد أن يسلم بنا التحليل فى كل مرة إلى الخبرات والرغبات الجنسية للمريض، ولابد أن يتأكد لنا فى كل مرة أن الأعراض تخدم الغرض نفسه، وقد بان لنا أن هذا الغرض لايعدو أن يكون إرضاء للرغبات الجنسية، فالأعراض تهدف إلى الإشباع الجنسى للمريض، وهى بديل عن هذا الإشباع حين لا يظفر به المريض فى حياة الواقع.

تأملوا فى الفعل الحوازى الذى يستبد بمريضتنا الأولى، لقد حرمت هذه المرأة من زوجها الذى تحبه حباً شديداً، والذى لا تستطيع معاشرتها لما به من قصور وتخاذل، فكان عليها أن تظل وفية له، لا تستبدل به أحد غيره. ومن هنا جاء العرض يمنحها ما تصبو إليه: إذ فيه إكبار وسمو بالزوج، وغضٌ عن عيوبه وتقويم لها، خاصة ما به من عنة، فهذا العرض ليس فى صميمه غير تحقيق لرغبة، مثله فى ذلك مثل الحلم على وجه التحديد، وفوق هذا فهو تحقيق لرغبة شهوية، وهذا ما لا يكون دائماً فى حالة الحلم، أما فى حالة مريضتنا الثانية، فلعلكم رأيتم أن ما تقوم به من إجراءات وطقوس يهدف إلى منع الاتصال الجنسى بين الوالدين للحيلولة دون ولادة طفل آخر، أكبر الظن أنكم حدستم أيضاً أن هذا العرض، ينزع، فى باطن الأمر، إلى إحلال الفتاة محل أمها. من هذا نرى أن العرض، فى هذه الحالة أيضاً، يرمى إلى إزالة العقبات التى تعترض الإرضاء الجنسى، وإلى تحقيق الرغبات الجنسية للمريضة، وسأحدثكم عما قليل عن أوجه التعقيد التى ألمعت إلى وجودها فى حالة هذه المريضة.

يتعين على أن أوجه أنظاركم إلى أن كل ما ذكرت عن الكبت وعن تكون الأعراض ودلالتها، قد استنتجناه من تحليل طرز ثلاثة من الأمراض النفسية: **الهستريا الحصرية والهستريا التحولية والحواز،** فهو لا ينطبق إلا على هذه الأمراض وحدها، وقد رأيت أن أنبهكم إلى هذا لأبرر ما قد أقوم به فيما بعد من تقييد وتحديد لما عرضت من قضايا وتصريحات قد تبدو لكم عامة مطلقة، هذه الأمراض الثلاثة التى اعتدنا أن نسلكها فى فئة واحدة نسميها **الأمراض النفسية الطرحية**[1] هى المجال الذى يجدى فيه العلاج بالتحليل النفسى.

أما الأمراض النفسية الأخرى فلم يدرسها التحليل بعد دراسة وافية، وقد استعصت طائفة منها على التأثير العلاجى، فكان سببًا فى اطراحها والإعراض عنها، ولايعزب عن أذهانكم أن التحليل النفسى مايزال علمًا ناشئًا تحتاج دراسته إلى كثير من الوقت والعناء، ولم يكن يمارسه منذ عهد غير بعيد إلا رجل واحد ليس غير: ومع هذا فنحن نبذل الجهود من كل صوب للنفاذ فى طبيعة الأمراض الأخرى غير الطرحية والعمل على الاستزادة من فهمها، وأرجو أن يتاح لى كذلك أن أحدثكم عما أصاب فروضنا ونتائجنا من تحسن وتهذيب أثناء تطبيقها ومواءمتها لهذه النواحى الجديدة، وأن أبين لكم أن هذه الدراسات الجديدة لم تؤد بنا إلى نقض ما كنا نذهب إليه، بل سمت بمعلوماتنا إلى درجة عالية من التوحد والتكامل، وبما أن كل ما ذكرت لاينسحب إلا على الأمراض الطرحية الثلاثة، فسأزيدكم تفصيلا جديدا يلقى ضوءاً أكثر على دلالة الأعراض.

إن الفحص المقارن للمواقف والأسباب التى تفضى إلى هذه الأمراض الثلاثة يسلم بنا إلى نتيجة يمكن أن تلخص فى الصيغة الآتية: إن هؤلاء المرضى يسقطون رغباتهم صرعى العصاب من حرمان[2] يكابدونه حين يصدمهم الواقع عن إشباع رغباتهم الجنسية، ولعلكم رأيتم من هذا أن هاتين النتيجتين تكمل إحداهما الأخرى إكمالا بديعياً، فخير سبيل لفهم الأعراض هو اعتبارها إشباعاً بديلا لرغبات لم يتح لها الارتواء فى حياة الواقع.

---

1. Tranference Neuroses
2. Privation

من الممكن دون ريب أن تقوم اعتراضات شتى على القول بأن الأعراض العصابية بدائل عن الإشباع الجنسى. وسأناقش اليوم اعتراضين من تلك الاعتراضات، لو أن أحدكم أجرى التحليل بنفسه على عدد كبير من العصابيين، فلعله يقول فى شىء من اللوم: «إن تصريحك هذا لاينطبق إطلاقا على حالات معينة يبدو فيها أن الأعراض تنطوى على غرض مضاد لما تزعم، أى على الإشباع الجنسى أو وقفه». ولست أجادل فى صحة هذا التأويل، فالأمور تجرى غالباً فى التحليل النفسى على نحو أعقد بكثير مما نريد: ولو أنها كانت أبسط مما هى عليه وأيسر، فربما لم تكن بالتحليل حاجة إلى إيضاحها وكشف الغطاء عنها، من تلك أن بعض الملامح فى الطقوس التى تقوم بها مريضتنا الثانية تشير فى وضوح إلى ذلك الطابع الزاهد المناصب للإشباع الجنسى: كاستبعادها الساعات، وهو فعل سحرى تحسب أنه يعفيها من التوتر الجنسى أثناء النوم، أو محاولتنا منع الآنية والأصص من أن تسقط وتتحطم، وفى ذلك إشارة إلى رغبتها الاحتفاظ ببكارتها..

وفى حالات أخرى أتيح لى فيها تحليل الطقوس التى تسبق النوم، كنت ألاحظ ذلك الطابع السلبى أكثر ظهوراً وبروزاً منه فى حالات مريضتنا هذه، فقد كانت الطقوس بأسرها تتلخص فى إجراءات وقائية يدفع بها المريض عن نفسه ذكريات جنسية وضروباً من الإغراء الجنسى. غير أن التحليل النفسى قد علمنا أكثر من مرة أن الأضداد لا تتعارض ولا تتمانع، ومن ثم نستطيع أن نفسح فى رأينا فنقول أن الغرض من الأعراض إما أن يكون إشباعا جنسيًا، أو درءاً لهذا الإشباع وصدا عنه. ففى الهستريا، يكون الطابع الإيجابى، هو الإشباع غالبًا، فى حين يكون الطابع السلبى العفّ هو الغالب فى العصاب الحوازى.

ولئن كانت الأعراض تستطيع أن تخدم كلا من الغرضين المتضادين (الإشباع والحرمان)، فهذا الازدواج أو القطبية[1] مما يمكن تفسيره تاماً عن طريق حيلة من الحيل التى تتكون بها الأعراض، لم يتح لنا أن نتكلم عنها بعد، فالواقع أن الأعراض، كما سنرى، نتائج لحلول ودية[2] بين نزعتين متعارضتين تداخل إحداهما الأخرى، فهى تصور ما هو مكبوت وكذلك ما كان السبب فى الكبت وأفضى إلى ظهور

---

1. Polarity.

2. Compromises.

الأعراض، وقد يكون تصوير أحد هذين العاملين غالباً على الآخر فى العرض، لكن يندر جداً أن يكون العرض تصويرا لأحدهما فقط من دون الآخر، ففى الهستريا تصور النزعتان عادة فى عرض واحد، أما فى الحواز فتكون النزعتان منفصلتين متميزتين فى أغلب الأحوال. ومن ثم يكون العرض مزودجاً: يتلخص فى فعلين متعاقبين يبطل أحدهما الآخر.

أما الاعتراض الثانى فليس من السهل أن نرد عليه كما فعلنا بالاعتراض الأول، فلو أنكم استعرضتم عدداً من تآويل الأعراض، فأكبر الظن أن يميل بكم هذا إلى أن تروا أن من الشطط والإسراف أن نذهب فى تأويل الأعراض كلها إلى الإشباع البديل لرغبات جنسية، ولن يفوتكم أن تلحظوا أن تلك الأعراض لا تنطوى على شىء واقعى يكفل الإشباع، فهو ينحصر على الأغلب فى تنشيط إحساس أو ابتعاث صورة خيالية تنتمى إلى عقدة جنسية، وفضلا عن هذا فسترون أن الإشباع الجنسى المزعوم يتسم فى الكثير الغالب من الأحيان بطابع طفلى غير ذى بال، قد يقترب من الاستمناء، أو ربما كان تذكاراً لعادة من العادات المستهجنة التى نحظرها على الأطفال ونعمل على إقلاعهم عنها، وفوق هذا كله فستذهلون إذ ترون أننا سندخل فى نطاق الإشباع الجنسى ما يجب ألا يوصف إلا بأنه إشباع لشهوات جافية قاسية أو مستبشعة، بل إشباع لشهوات تجافى الطبيعة الإنسانية، الحق أنه يستحيل علينا أن نتفق على هذه النقاط الأخيرة، إلا إذا قمنا بفحص مسهب للحياة عند الإنسان، يحدد لنا الأشياء التى يجوز أن نسميها «جنسية»..

المحاضرة العشرون

الحياة الجنسية للإنسان

قد يحسب أحدكم أن الناس جميعًا متفقون على المعنى الذى يفهم من كلمة «جنسى». أليست تفيد أولا وقبل كل شىء ما هو «مستهجن غير لائق»؛ بحيث لا يصح ذكره والكلام عن؟ لقد سمعت قصة عن تلاميذ لطبيب عقلى مشهور أرادوا أن يقنعوا أستاذهم بأن أعراض الهستريا لها فى أغلب الأحيان طابع جنسى فجاءوا به إلى سرير لمريضة بالهستريا كانت نوباتها تحاكى عملية الولادة على نحو لا يخطئه التقدير، غير أنه اعترض عليهم قائلا: «وهل فى عملية الولادة شىء جنسى؟». والحق أن الولادة لا تكون بالضرورة على الدوام عملا غير لائق.

كأنى بكم لا تستسيغون أن أتناول هذه الأمور الجدية بالفكاهة والتندر، غير أن ما ذكرت لكم ليس من الفكاهة فى شىء، والجد أنه ليس من اليسير تعريف ما يفهم من اصطلاح «جنسى»، فإن قيل إن «الجنسى» هو كل ما يتصل بالفوارق بين الجنسين، كان تعريفاً غامضاً فضفاضاً أكثر مما يجب، وإن لم ننظر إلا إلى الفعل الجنسى نفسه، فربما تقولون إن «الجنسى» هو كل ما يدور على طلب اللذة من جسم الجنس الآخر، وخاصة من أعضائه التناسلية، أى كل ما يتصل بالرغبة فى التواصل والقيام بالفعل الجنسى، ولئن أخذنا بهذا التعريف، اقتربنا من الذين يرون أن «الجنسى» هو الشىء غير اللائق بعينه، وحق لنا أن نقول إن الولادة لا تنطوى على شىء جنسى، فإذا جعلنا وظيفة الإنسال نواة الجنسية ولبها، كان تعريفنا غير جامع، لأنه يتجاوز عن طائفة بأسرها من أفعال لا مراء فى أنها جنسية فى صميمها، ولو أنها لاتهدف إلى الإنسال، كالاستمناء بل وكالقبلة أيضًا، على أننا نعرف من قبل أن طلب التعريفات يسلم دائمًا إلى صعوبات، وليس من داع أن يكون الأمر غير ذلك فى محاولتنا هذه، ولنا أن نظن أن مفهوم «الجنسى». قد عرض له عارض أثناء تطوره فنجم عن ذلك خطأ أخفاه وغطى عليه، أو «خطأ ساتر» على حد التعبير البديع لسِلْبرر، والحق أننا نعرف على الإجمال ما يعنيه الناس بقولهم «جنسى».

لو أن تعريفًا جمع بين الفوارق الجنسية واللذة الجنسية ووظيفة الإنسال وطائفة من الأفعال والموضوعات غير اللائقة مما يجب ستره وإخفاؤه ـ لكفى مثل هذا

التعريف لجميع الأغراض العملية في الحياة الجارية، غير أن العلم لا يستطيع أن يرضى به.

لقد أجريت بحوث دقيقة لم تكن ممكنة إلا بفضل ما يبذله الأشخاص المفحوصون من تنزه عن الأغراض وجهاد نفسي شديد، فأماطت اللثام عن وجود فئات بأسرها من الناس تنحرف حياتهم الجنسية عن الحياة السوية بصورة تبهر وتروع، فبعض هؤلاء «المنحرفين»[1] قد شطبوا الفارق بين الجنسين ـ إن صح التعبير ـ من برامجهم في الحياة، فلا يستثير رغبتهم الجنسية إلا أفراد من نفس جنسهم، أما أفراد الجنس الآخر (وخاصة أعضاءهم التناسلية) فلا تحرك منهم ساكناً على الإطلاق، بل قد تثير التقزز والاستفظاع في الحالات المتطرفة، فهم بهذا قد تنحوا عن المساهمة بحال في عملية الإنسال: هؤلاء من نسميهم «المتجنسين»[2] أو «المرتكسين»[3]، وهم في أغلب الأحيان ـ لا على الدوام ـ رجال ونساء على درجة لابأس بها من الثقافة والتربية، وفي مستوى فكرى وخلقي رفيع، إلا أنهم مصابون بهذا الشذوذ المؤسف ليس غير، يزعمون على لسان ممثليهم العلميين أنهم نوع خاص من السلالة البشرية، أو كما يسمون أنفسهم «جنس ثالث»، له من الحقوق مثل ما للجنسين الآخرين، وربما أتيحت لنا فرصة لفحص هذه المزاعم ونقدها، ليس هؤلاء بطبيعة الحال «صفوة» السلالة البشرية كما يميلون إلى الاعتقاد بذلك، إذ تزخر صفوفهم بعدد من السفلة التافهين مثل ما لدى الأسوياء في حياتهم الجنسية.

هؤلاء المنحرفون يكاد يكون سلوكهم إزاء موضوعاتهم الجنسية كسلوك الأسوياء من الناس إزاء موضوعات رغباتهم، غير أننا نلتقي بعد هؤلاء بفئات عدة من طرز شاذة يطرد الحيود في نشاطهم الجنسي، وينأى عن حدود السواء بما يعافه الشخص المعتدل، وهي طرز لايمكن أن تقارن من حيث تنوعها وإغرابها إلا بلوحة «بروغل» Breughel وما بها من مخلوقات مشوهة وممسوخ، جاءت تغوى القديس أنطوان، أو بذلك الموكب الطويل من الآلهة والمتعبدين المنهكين الذين يصورهم فلوبير G. Flaubert ، وهم يمرون أمام التائب الورع، وهذا الخليط المهوش لابد له أن يصنَّف إن كنا

1. Pervets .

2. Homosexuals.

3. Inverts.

نريد ألا نضل فى ثناياه. فنحن نصنفه صنفين: صنف منحرف من حيث الموضوع الجنسى[1] كالمستجنسين، وصنف منحرف: قبل كل شيء الهدف الجنسى[2].

فأما الصنف الأول فينتمى إلى الذين ينصرفون عن تزاوج الأعضاء التناسلية، ويستبدلون بعضو التناسل عند شركائهم فى الفعل الجنسى، جزءاً أو عضواً آخر من أجسامهم (كالفم أو الشرج بدل المهبل)، حتى إن كان تكوين هذا الجزء أو العضو غير موات للإتيان بالفعل، وعلى الرغم مما يكتنف هذا من تقزز ونفور، ومن هذا الصنف أيضاً فريق يلتمسون اللذة الجنسية فى الأعضاء التناسلية، لا بسبب وظيفتها الجنسية، بل من أجل وظائف أخرى تشترك فيها هذه الأعضاء عن طريق الجوار أو التكوين التشريحى، فهم يشهدون بهذا على أن وظائف الإخراج التى تصفها التربية للطفل إبان تنشئته بأنها مبتذلة غير لائقة، لاتزال قادرة على احتكار الإتمام الجنسى بأسره.

يضاف إلى هؤلاء نفر ينصرفون الانصراف كله عن أن يتخذوا من الأعضاء التناسلية موضوعات للإشباع الجنسى، ويستبدلون بها أجزاء أخرى من الجسم، كثدى المرأة أو قدمها أو خصلة من شعرها، فإذا هم يبجلونها ويوقرونها توقيراً، بل ثمة فريق لا يطلبون الإشباع حتى عن طريق جزء من الجسم، إنما يكفيهم لذلك حذاء المرأة أو قطعة من ملابسها الداخلية، أو شيء مما تستعمله لزينتها - هؤلاء هم «الأُثوريون»[3].
ولنذكر أخيراً طائفة تنصب رغباتهم على الموضوع الجنسى فى جملته، غير أنهم يتطلبون منه أشياء معينة مستفظعة أو خارقة للعادة؛ حتى ليودوا أن يروه جثة لاحراك فيها، بل قد تحملهم دفعاتهم الإجرامية على أن يجعلوه كذلك كى يتمتعوا به، فحسبنا هذا القدر من تلك الفظائع!.

أما الصنف الثانى من المنحرفين فيتألف أولاً من أفراد تهدف رغباتهم الجنسية إلى القيام بأفعال هى بمثابة التمهيد أو الإعداد للفعل الجنسى عند الأسوياء من الناس، من هؤلاء من يلتمسون الإشباع فى مد العين أو اللمس أو فى اختلاس النظر إلى الأجزاء الخافية الحميمة من أجسام الجنس الآخر، ومن هؤلاء أيضاً من يكشفون عن

---

1. Sexual obgect.

2. S. aim.

(٣) Fetichists أى الذين يجتزئون بشيء من «أثر» المرأة أى «أطرها» كما تقول اللغة الدارجة. «المترجم».

عوراتهم علانية طمعاً فى أن يستجيب لهم الاخرون بالمثل، ثم تأتى بعد هؤلاء زمرة «الساديين»[1] وهو قوم يحيرون الألباب حقاً، فهم لا يعرفون لذة أخرى غير إيقاع الألم والعذاب بموضوعاتهم الجنسية، من الامتهان والإذلال البسيط إلى الجراح الجسمية الشديدة، وفى مقابل هؤلاء نجد «المازوخيين»[2] الذين لا يجدون لذة إلا فى أن يلقوا العذاب والألم والامتهان من موضوعات حبهم، سواء كان هذا العذاب حقيقياً أو رمزياً، يضاف إلى أولئك وهؤلاء فريق يجمعون بين عدد من النزعات الشاذة، وقد تشابك بعضها فى بعض، وتذكر أخيراً أن أفراد كل من هذين الصنفين الكبيرين من الانحراف على نوعين: نوع يطلب الإشباع الجنسى فى الواقع، وآخرون يقنعون بالخيال فليست بهم حاجة إلى موضوع واقعى بتة، بل قادرون على أن يستبدلوا به شيئا من نسيج خيالهم.

ليس ثمة أدنى مجال للشك فى أن هذه الحماقات والأمور المغرية المستفظعة تتكون منها بالفعل أوجه النشاط الجنسى لهؤلاء الناس، وهم ينظرون إليها أنفسهم بمثل ما ننظر به إليها، ويقرون أحياناً بطابعها البديل، غير أننا يجب أن نعترف أيضاً بأن هذه الحماقات تقوم فى حياة هؤلاء بالدور نفسه الذى يقوم به الإشباع الجنسى السوى فى حياتنا نحن، وأنها تتطلب منهم عين التضحيات، وغالباً ما تكون جسيمة، ولو أننا استقصينا التفاصيل الكبيرة والصغيرة لهذه الانحرافات ، لأمكننا أن نكشف عن النواحى التى تقترب فيها من حالة السواء، وعن تلك التى تبتعد فيها عنها، ولا شك أنكم لاحظتم ما توسم به هذه الانحرافات من ذلك الطابع المستهجن غير اللائق الذى يلتصق بالنشاط الجنسى: حتى أنه ليبدو فى أغلبها بارزاً إلى درجة الخزى والشناعة.

والآن أى موقف يتعين علينا أن نتخذه إزاء هذه الوسائل الشاذة من الإشباع الجنسى؟

من البديهى أنه لا يغنى شيئا أن نقف منها موقف الترفع والاستنكار، وأن نقول إننا بمنجاة من هذه السوءات، فهذا ليس موضع نزاع، إن هى، آخر الأمر، إلا مجموعة من الظواهر جديرة بالاهتمام كغيرها من الظواهر الأخرى، ولئن أعرضنا

---

1. Sadists.

2. Masochists.

عنها ولم نلق لها بالا بحجة أنها مجرد فضول، لا يحدث إلا على قلة وندور، فقد ظلمنا الواقع وتعرضنا لتكذيب عاجل، ذلك أنها على العكس ظواهر مذاعة مشاعة إلى حد كبير: فإن قال قائل إن هذه الانحرافات الجنسية لا تتطلب منا أن نعيد النظر فى تصورنا للحياة الجنسية، كان ردنا على هذا حاضراً: ذلك أننا إن لم نفهم هذه الأشكال المرضية من الحياة الجنسية، وإن لم نستطع أن نربط بينها وبين الحياة الجنسية السوية، استحال علينا كذلك فهم لهذه الأخيرة، وموجز القول أن واجبنا الذى لا سبيل إلى إنكاره هو أن نجد لهذه الانحرافات تعليلا نظرياً معقولا، وأن نفسر صلتها بالحياة الجنسية التى تسمى بالسوية.

وسنستعين على عملنا هذا بوجهة من وجهات النظر وبملاحظتين جديدتين تنطويان على دليل، فأما وجهة النظر فهى ما يراه «إيفان بلوخ» Ivan Bloch من أن كل الانحرافات «أمارات على انتكاس»[١]، وهذه وجهة غير صحيحة، لأن أمثال هذه الضروب من الزيغ عن الهدف الجنسى، وتلك الصلات المنحرفة بالموضوع الجنسى، مما يعهده الناس فى كل العصور المعروفة، وفى كل سلالة إنسانية بدائية أو على درجة رفيعة من الحضارة، بل إنها أفلحت حيناً من الدهر أن تظفر بتسامح القوم واعترافهم العام بها. وأما الملاحظتان فقد وقعنا عليهما خلال الفحص التحليلى للعصابيين، ولا شك فى أنهما لابد أن تؤثرا فى تصورنا للانحرافات الجنسية تأثيراً حاسماً.

لقد قلنا إن الأعراض العصابية بدائل عن الإشباع الجنسى، وأشرنا إلى أن البرهان على هذه القضية من تحليل الأعراض، يرتطم بصعوبات كثيرة، والواقع أن هذا البرهان ليس له ما يبرره إلا أن أدمجت الحاجات الجنسية التى تسمى بالمنحرفة فى نطاق الإشباع الجنسى، لأن تأويل الأعراض على هذا الأساس يفرض نفسه علينا فرضاً وفى كثرة تثير الدهش، أما ادعاء المستجنسين[٢] أو المرتكسين بأنهم صفوة من الناس، فلا يلبث أن ينقض حيال ما نشاهده من أنه لا يوجد عصابى واحد لا تكشف عنده عن أدلة على ميول استجناسية، ومن أن عدداً كبيراً من الأعراض ليس إلا

---

(١) Degeneration .

(٢) Homosexuals .

تعبيراً عن هذا الارتكاس الكامن.

إن الذين يسمون أنفسهم مستجنسين فى صراحة ليسوا إلا نفراً يكون الارتكاس لديهم ظاهراً شعورياً، وليسوا إلا أقلية ضئيلة تهمل بالقياس إلى من يكون الارتكاس فيهم كامناً، والحق أننا مضطرون إلى أن ننظر إلى الاستجناس على أنه فضولة مطردة تتفرغ على حياة الحب، كما أن أهميته تزداد فى نظرنا يوما بعد يوم كلما تعمقنا دراسة هذه الحياة.. ولسنا بهذا نلغى ما بين الاستجناس الصريح والحياة الجنسية السوية من فوارق، فلئن نقصت قيمة هذه الفوارق من الناحية النظرية نقصاناً كبيراً، فإن خطرها العملى لايزال باقيًا كما هو عليه، بل لقد استخلصنا فى الواقع أن «البرانويا»[1] ـ وهو اضطراب عقلى لم يعد يدرج بعد فى زمرة الأمراض النفسية الطرحية ـ ينجم على الدوام عن محاولة دفاعية يقوم بها المريض للتغلب على دفعات استجناسية مسرفة فى العنف، ولعلكم تذكرون أن إحدى المريضات التى تقدم ذكرهن كانت تقوم بدور الرجل فى فعلها الحوازى ـ بدور زوجها الذى كانت منفصلة عنه، وأمثال هذه الأعراض التى تمثل دور الرجل، مما نلتقى به عند العصابيات من النساء فى الكثير الغالب من الأحيان، ولئن لم تكن هذه الحالات استجناساً بمعناه الصحيح، فمن المحقق أنها تتصل بأصوله اتصالا وثيقاً.

أكبر الظن أنكم تعرفون أن عصاب الهستريا يستطيع أن يفصح عن أعراضه فى أجهزة الجسم جميعًا (الجهازين النفسى والدورى وغيرهما)، وبذا قد يفسد كل الوظائف، ويبين لنا التحليل أن جميع النزعات التى توصف بأنها منحرفة، والتى تهدف إلى الاستعاضة عن العضو التناسلى بعضو آخر، تفصح عن نفسها فى هذه الأعراض، وبذا تكون هذه الأعضاء الأخرى بمثابة بدائل عن الأعضاء التناسلية، وقد أسلمت بنا دراسة الأعراض الهسترية، تحديداً، إلى أن نرى أن أعضاء الجسم جميعها تقوم ـ فضلا عن وظيفتها العادية ـ بدور جنسى شهوى، قد يصبح فى بعض الآونة غالبا سائدا بحيث يبعث الاضطراب فى الوظيفة العادية.. وعلى هذا فما نلتقى به فى الأعراض الهسترية من أحاسيس وضروب لا تحصى من التوتر العصبى فى الأعضاء لا صلة لها فى الظاهر بالجنسية، لايعدو أن يكون فى جوهره تحقيقاً لرغبات جنسية منحرفة تقوم به الأعضاء الأخرى التى اغتصبت وظيفة الأعضاء التناسلية.

---

1. Paranoia

على هذا النحو أيضاً يتضح لنا سبب كون أعضاء التغذية والإخراج، بوجه خاص، مصادر للتهيج الجنسى فى كثير من الأحيان، الواقع أن هذا بعينه ما يبدو فى الانحرافات. غير أنه ينكشف فى الانحرافات دون عناء ودون أن يخطئه التقدير، فى حين أننا فى الهستريا لابد أن نبدأ بتأويل الأعراض، ثم نعزو تلك النزعات الجنسية المنحرفة إلى الجانب اللاشعورى من شخصية المريض لا إلى جانبها الشعورى.

لقد وجدنا أن أهم الأعراض الكثيرة التى يتميز بها الحواز، هى تلك التى يستثيرها ضغط نزعات جنسية سادية عنيفة، أى نزعات منحرفة من حيث الهدف، وأن هذه الأعراض ترمى فى المقام الأول ـ ووفق بناء هذا العصاب ـ إلى اتقاء هذه الرغبات، أو أن تكون تعبيراً عن الصراع بين إشباعها ونبذها، بيد أن الإشباع نفسه يعرف كيف يفصح عن نفسه فى سلوك المريض بطريق ملتو، بدل أن يسلك أقصر طريق، ويؤثر أن يرتد على شخص المريض نفسه، فإذا بالمريض ينزل بنفسه كل ألوان العذاب، ومن الصور الأخرى لهذا العصاب أن يغلو المريض فى القيام بأفعال مصطبغة بصبغة جنسية مسرفة، لاتكون عند الأسوياء من الناس إلا تمهيداً للإشباع الجنسى: كالرغبة فى النظر واللمس والفحص والتدقيق، وفى هذا ما يفسر لنا الأهمية البالغة التى يبدو بها الخوف من اللمس أو الاغتسال الحوازى عند هؤلاء المرضى، ولايخالجنا الشك فى أن عدداً كبيراً من الأفعال الحوازية ما هى إلا تكرار مقنّع أو تحوير للاستمناء، وهو كما نعرف الفعل المطرد الوحيد، الذى يصاحب جميع الأشكال المختلفة للحيود الجنسى.

لا يشق علىّ أن أفصل لكم فى موضوع الصلات التى تربط الانحراف الجنسى بالمرض النفسى، لكنى أعتقد أن ما قلته يكفى لما نهدف إليه. على أننا يجب أن نحذر فلا نهوّل وجود النزعات المنحرفة وشدتها عند الإنسان، بعد أن كشفنا عن أهميتها فى تأويل الأعراض لقد سمعتم أن زمت[1] الاشباع الجنسى السوى قد يؤدى إلى تكون العصاب؛ إذ يُقسر الحاجة الجنسية عندئذ على أن تسلك سبلا شاذة بعد ما لاقته من صد وحرمان فى دنيا الواقع، وستعرفون فيما بعد كيف تجرى الأمور فى هذه الحال.

غير أنكم تفهمون منذ الآن أن النزعات التى انحرفت من جراء هذا التزمت لابد

---

(١) Frustation هو الخنق والإحباط.

أن تبدو أشد عنفا مما كانت عليه لو لم يرتطم الإشباع الجنسى السوى بعقبة واقعية، وإنا لنلحظ تأثيراً مشابهاً لهذا فى حالة الانحرافات الجنسية الصريحة. فهى تستثار أو تنشط فى حالات كثيرة حين يصطدم الاشباع الجنسى السوى بصعاب لا تقهر إقامته ظروف عابرة أو قيود اجتماعية دائمة. غير أنه من المحقق أن النزعات المنحرفة تظهر، فى حالات خرى، مستقلة عن أمثال هذه الظروف، فكأنها الطراز الطبيعى للحياة الجنسية عند من تبدو لديهم.

ربما تخالون الان أننا لم نجل الصلات القائمة بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة فلم نزدها إلا خلطاً وتعقيداً، فليقر فى أذهانكم ما سأقول: لئن صح أن العقبات الواقعية التى تعترض الإشباع الجنسى من شأنها أن تظهر النزعات المنحرفة لدى أناس ما كان لهم أن ينحرفوا من دون هذا الزمت، تعين علينا أن نسلم أن فى هؤلاء الناس شيئا يهيؤهم لهذه الانحرافات، أو إن شئتم فقولوا إن هذه الانحرافات كانت توجد لديهم فى صورة كامنة، فإن سلمنا بهذا وصلنا إلى الملاحظة الجديدة الثانية فيما أشرت إليه سلفاً.

لقد وجد التحليل النفسى نفسه مضطراً إلى أن يهتم بالحياة الجنسية عند الأطفال أيضاً؛ لأن الخواطر والذكريات التى تتوارد على المرضى أثناء تحليل أعراضهم، تعود بالتحليل أبداً إلى السنوات الأولى من طفولة هؤلاء الأشخاص، وقد عززت الملاحظة المباشرة للأطفال كل ما استخلصناه من نتائج تتصل بهذه الواقعة، نقطة بنقطة، وعلى هذا النحو وجدنا أن جميع النزعات المنحرفة ترجع أصولها إلى عهد الطفولة، وأن الأطفال يحملون بذورها جميعًا ويفصحون عنها بالقدر الذى يتماشى مع عدم نضجهم، وموجز القول أن **الجنسية المنحرفة** ليست شيئا آخر غير الجنسية الطفلية مضخمة ومفككة إلى مكوناتها الجزئية.

لعلكم تنظرون الآن إلى الانحرافات من زاوية أخرى، تختلف كل الاختلاف عما كنتم ترونها من قبل، ولن يسعكم بعدُ أن تنكروا صلتها بالحياة الجنسية للإنسان، لكن كم من انفعالات أليمة تستثيرها هذه الكشوف المذهلة المغرية فى نفوسكم!

من المؤكد أنكم ستميلون بادئ الرأى إلى إنكار كل شيء: إنكار تلك الواقعة التى تقول إن فى الأطفال شيئا يمكن أن يسمى حياة جنسية، وإنكار الدقة والضبط على

ملاحظاتنا، هذا إلى إنكار حقى فى أن أرى فى سلوك الأطفال صلة بما نصمه عند الكبار بالانحراف، فأذنوا لى أولا فى أن أشرح لكم أسباب معارضتكم هذه، ثم أقدم لكم بعدها مختصراً لملاحظاتنا. أما زعم بأن الأطفال لاينبغى أن تكون لهم حياة جنسية - اهتياج جنسى، وحاجات جنسية، وإشباع جنسى من نوع ما - لكنها تنبعث فيهم على حين فجأة فيما بعد الثانية عشرة والرابعة عشرة من العمر، فزعم غير مرجوح من الناحية البيولوجية، بصرف النظر عما نلحظه لديهم من أمارات عليها، بل لا يعدله فى السخف إلا أن نفترض أنهم يولدون بغير أعضاء تناسلية، وأن هذه الأعضاء لاتبدأ فى الظهور إلا فى سن البلوغ.

إن ما يستيقظ فى نفوسهم بالفعل فى هذه السن هى الوظيفة التناسلية التى تستخدم لبلوغ غايتها جهازاً جسمياً ونفسيا يوجد من قبل، فأنتم تخطئون إذ تخلطون بين الجنسية والتناسل، وبذا تجعلون فى طريقكم سداً يحجب عنكم فهم الجنسية والانحرافات والأمراض النفسية، على أن هذا الخطأ ينطوى على دلالة ومغزى، ومن الغريب أن يكون مصدره فى أنكم جميعًا كنتم أطفالا، فكنتم لهذا خاضعين لتأثير التربية ، ومن أهم الواجبات الاجتماعية للتربية، ضبط الغريزة الجنسية وكبحها حين تتخذ مظهر عملية التناسل، ثم إخضاعها لإرادة الفرد التى تمتثل لمطالب المجتمع، ومن صالح المجتمع أيضًا أن يرجئ النمو المكتمل للغريزة الجنسية حتى يبلغ الطفل مستوى معيناً من النضج العقلى، فحالما يتم هذا النمو، لا يعود للتربية من سلطان على الطفل، ومن دون هذا يخشى أن تحطم الغريزة كل القيود والسدود، وأن تكتسح أمامها ما شادته الحضارة من صروح اقتضتها جهودا شاقة، ومع هذا فإن كبح هذه الغريزة ليس بالأمر الهين أبدا، إذ غالباً ما يكون النجاح فى هذا الاتجاه ضئيلا طفيفا، أو يكون فى بعض الآونة أكثر مما ينبغى..

إن الدافع الذى يحمل المجتمع على هذا هو فى باطن الأمر دافع اقتصادى: فليس لدى المجتمع من وسائل العيش ما يكفل لأفراده أن يعيشوا دون أن يعملوا، لذا فهو مضطر إلى تحديد عدد هؤلاء الأفراد، وإلى صرف طاقتهم عن النشاط الجنسى وتوجيهها إلى العمل - وهكذا نجد أنفسنا إزاء الكفاح الأبدى من أجل العيش، ذلك الكفاح الذى ولد مع الإنسان وما يزال قائما إلى اليوم.

ولابد أن المربين قد علمتهم الخبرة أن تطويع الإرادة الجنسية للجيل التالى لاسبيل إليه إلا بفرض تأثيرهم فى سن مبكرة جداً، وتدخلهم فى الحياة الجنسية للأطفال قبل البلوغ، بدلا من الانتظار حتى تهب العاصفة. من أجل هذا حرموا على الأطفال كل نشاط جنسى طفلى أو صرفوهم عنه، فقد كان مثلهم الأعلى أن يجعلوا حياة الطفل لاجنسية، حتى قد انتهى بهم الأمر إلى الاعتقاد بأنها كذلك بالفعل، وهو اعتقاد، أسهم العلم نفسه فى تأييده وتعزيزه، وهكذا غض النظر عن النشاط الجنسى للأطفال حتى لا يتعارض مع الاعتقادات المؤيدة والأهداف المنشودة ـ ما هو عليه هيهات أن يكون سهلا هينا ـ فى حين قنع العلم بتفسيره تفسيراً يخالف ما هو عليه، فالمفروض أن الطفل الصغير طاهر برىء، ومن وصفه بغير هذا فقد دنس العواطف الإنسانية أكثرها رقة وقداسة.

أما الأطفال فهم الذين لم ينخدعوا بهذه المواضعات من دون غيرهم، فهم يثبتون طبائعهم الحيوانية فى سذاجة تامة، ويدللون فى كل لحظة على أنهم ما يزالون فى حاجة إلى أن يتعلموا «الطهر». ومن الغريب أن هؤلاء الذين ينكرون الجنسية الأطفال، هم آخر من يكف عن التربص لها بالإجراءات التربوية الصارمة، وأشد من يتعقب كل مظهر من مظاهر «عبث الأطفال»، على الرغم من أنهم ينكرون وجوده، يضاف إلى هذا شيء له أهمية بالغة من الناحية النظرية، هو أن الخمس أو الست السنوات الأولى من الطفولة، وهى العهد الذى ينقض الزعم، «بطهر» الطفولة نقضًا صارخاً، هى على التحديد تلك المرحلة التى يلفها النسيان عند أغلب الناس، وهو نسيان لا يفلح فى محوه إلا التحليل، وإن كان يسمح لبعض أحلام الطفولة أن تنبثق من ثناياه حتى من دون تحليل.

سأحدثكم الآن عن أوج ما يبدو من أوجه النشاط الجنسى عند الطفل، وأرى الظرف مواتيا لأقدم لكم فكرة عما نعنيه باصطلاح اللبيدو Libiodo. إن اللبيدو شبيهة من كل الوجوه بالجوع، فكما أن الجوع هو القوة التى تعبر بها غريزة التغذية عن نفسها، كذلك اللبيدو هى القوة التى تفصح بها الغريزة الجنسية عن نفسها.

أما التهيج الجنسى والإشباع الجنسى فاصطلاحان ليست بهما حاجة إلى الشرح والتحديد، إن أوجه النشاط الجنسى عند الرضيع تفتح للتأويلات ميدانا لا حد له، كما

سترون فى غير عناء، ولا شك فى أنها ستكون مثاراً لاعتراضات منكم، ونحن نصل إلى هذه التأويلات عن طريق تحليل الأعراض تحليلا تراجعيا، إن المظاهر الأولى التى تبدو بها الجنسية عند الرضيع، تتصل بوظائف أخرى حيوية مهمة، فالرضيع، كما تعرفون، ينصب اهتمامه الرئيسى على الرضاعة، حتى إذا نال حظه موفورا منها، فأخذه النوم على صدر أمه، بدت عليه من أمارات الرضا والارتياح ما سوف تبدو به فيما بعد من حياته حين يقضى لبانته من الإشباع الجنسى، على أن هذه الظاهرة لاتكفى أن تكون أساساً نبنى عليه نتيجة، لكن المشاهد المعروف أن الرضيع ينزع دائما إلى أن يكرر الحركات التى تقترن عادة بعملية الرضع، لا لأنه فى حاجة إلى التغذية بالفعل، بل لمجرد القيام بهذه الحركات: فنقول عنه فى هذه الحال إنه «يتمصص». وإنه ليمضى فى فعله هذا حتى يحتويه النوم مرة أخرى هانئا مغتبطاً، مما يحملنا على أن نرى إلى أنه يجد فى هذا التمصص، فى ذاته، لذة وسروراً، وسرعان ما ينتهى به الأمر أنه لايستطيع النوم دون أن يتمصص، لقد كان الدكتور لندنر Lindner طبيب الأطفال فى بودابست أول من أكد الطبيعة الجنسية لهذه العملية.

ويبدو أن المراضع ومن يقمن على رعاية الطفل يرين فى التمصص مثل هذا الرأى، مع أنهن لا يقفن منه موقفاً نظرياً، فهن على يقين من أن الرضيع لا يرمى من ورائه إلا إلى طلب اللذة، ويعتبرنه من قبيل «العادات السيئة»، فإن لم يقلع عنه الرضيع من تلقاء نفسه، اتخذن بشأنه من الإجراءات الشديدة ما يكفل الإقلاع عنه..

من هذا نرى أن الرضيع يقوم بأفعال لا ترمى إلى غرض آخر غير الظفر باللذة، ونعتقد أنه يشعر بهذه اللذة، فى أول الأمر، حين يرتشف اللبن، لكنه سرعان ما يتعلم كيف يستمتع بها منفصلة عن عملية الرضع، وبما أن هذه اللذة لايمكن أن ترتبط إلا بمنطقة الفم والشفتين، فنحن نسمى هذه المنطقة من الجسم منطقة شهوية، ونعتبر أن اللذة المستمدة من التمصص لذة جنسية، والحق أن هذين الاصطلاحين لا يزالان يتطلبان منا أن نناقش ما يبرر استخدامهما على هذا النحو.

لو تسنى للرضيع أن يفصح عن نفسه، لصرح من دون شك، بأن أهم شىء فى حياته هو الرضع من ثدى أمه، ولن يكون خاطئا فى تصريحه هذا، فعملية الرضع

تشبع فى الآن نفسه أخطر حاجتين من حاجات الحياة، وهنا يعلمنا التحليل النفسى ما لهذه العملية من أهمية نفسية عميقة، تبقى آثارها ملازمة للفرد طول حياته ـ وهذا أمر لايسعنا إلا أن ندهش له، فالرضع من الثدى يصبح نقطة البدء فى الحياة الجنسية جميعًا، والنموذج الأولى الذى يعز إدراكه فى كل إشباع جنسى لاحق، وهو نموذج يرنو إليه الخيال فى حالات الحاجة الملحة والحرمان الشديد، وبما أن الرغبة فى الرضع تحمل فى ثناياها الرغبة فى ثدى الأم، إذاً يصبح الثدى أول موضوع للغريزة الجنسية، وليس فى وسعى أن أزودكم بفكرة كافية عن أهمية هذا الموضوع الأول فى تعيين كل موضوع جنسى آخر لاحق به، أو عن الأثر العميق الذى يتركه فى أقصى الأقطار من حياتنا النفسية، على أن الرضيع سرعان ما يذر الثدى ويستبدل به جزءا آخر من جسمه، فيأخذ فى مص إبهامه أو لسانه، وهكذا يستطيع أن يظفر باللذة دون أن تكون به حاجة إلى أن يوافقه العالم الخارجى على ذلك.

يضاف إلى هذا أنه يزيد من شدة تهيجه حين يلتجأ إلى منطقة ثانية من جسمه. ولنذكر أن المناطق الشهوية ليست سواء جميعها مّن حيث ما تثيره من اللذة، فمنطقة الأعضاء التناسلية قابلة للتهيج بوجه خاص، لذا فمن الأحداث المهمة فى حياة الرضيع أن يكشف عن هذه المنطقة وهو يتحسس أعضاء جسمه، وبذا يتخذ سبيله من التمصص إلى الاستمناء.

إن بيان الأهمية التى تنطوى عليها عملية التمصص قد أسلم بنا إلى خاصتين لازمتين من خصائص الجنسية الطفلية؛ فهذه الجنسية ترتبط بإشباع الحاجات العضوية الأساسية، كما أنها شهوية ذاتية، أى أنها تجد موضوعاتها فى جسم الرضيع نفسه. إنّ ما بدا لنا، فى عملية التغذية، على أكبر قسط من الجلاء والوضوح ، ليبدو إلى حد ما فى عملية الإخراج، ونحن نستنتج من ذلك أن الرضيع يجد لذة فى إخلاء مثانته وإمعائه، وسرعان ما يعمل على تنظيم هذه الأفعال بحيث تمنحه أكبر قسط من اللذة؛ بفضل التهيج المصاحب لها فى الأغشية المخاطية لهذه المناطق الشهوية..

وقد أبدى (لو أندرياس) بهذا الصدد ملحوظة لطيفة، حين قال إن الطفل عندما يكون فى هذه المرحلة، يبدو له العالم الخارجى عقبة وقوة مناصبة تعارض رغبته فى التماس اللذة ـ وهذه أول إشارة يلقاها عما سيعرض له فى حياته التالية من ألوان للصراع الداخلى والخارجى، ذلك أن هذا العالم يمنعه من التبول والتبرز متى أراد، بل

فى أوقات يحددها له غيره من الناس. ثم يحاول أن يصرفه عن هذا المصدر من مصادر لذته بأن يقول له إن كل شىء يتصل بهاتين الوظيفتين «غير لائق»، فلابد أن يخفى عن العيون.

على هذا النحو يجد الطفل نفسه مرغمًا على التخلى عن لذته باسم الوقار الاجتماعى، أما موقف الطفل نفسه إزاء فضلاته، فيختلف فى أول الأمر عن موقف الناس منها كل الاختلاف. فهى لا تثير فيه أى تقزز أو اشمئزاز، وهو يعتبرها جزءاً من جسمه، ولا يود أن يتخلى عنها، بل يريد أن يجعل منها أول «هدية» يختص بها من يحبهم من الناس بوجه خاص. وحتى بعد أن تفلح التربية فى صده عن هذه النزعات، فإنه لايبرح يضفى على «هداياه» و«نقوده» من القيمة والاعتبار ما كان يضفيه على فضلاته، كما أن عملية التبول تظل عنده شيئا يفاخر به ويزهو به على غيره من الأطفال[1].

كأنى بكم تمسكون أنفسكم عن أن تقاطعونى صائحين: «بحسبنا هذه الفظائع! أتزعم أن التبرز مصدر للإشباع الجنسى اللذيذ يستغله حتى الطفل الرضيع! وأن الفضلات مواد قيمة نفسية، وأن الشرج نوع من أعضاء التناسل! كيف لنا أن نصدق ما نقول، ولقد فهمنا لمِ يعرض المربون وأطباء الأطفال فى شدة عن التحليل النفسى ونتائجه!». فاصبروا أنفسكم، لقد نسيتم أنى كنت أحاول أن أبين لكم ما بين الحقائق الواقعة فى الجنسية الطفلية والحقائق الواقعة فى الانحرافات الجنسية من صلة وارتباط.

لمِ لاينبغى لكم أن تعرفوا أن الشرج يستعمل بالفعل بدل المهبل فى التواصل الجنسى عند كثير من الناضجين الكبار، سواء أكانوا من ذوى الجنسية المثلية أو الغيرية؟

ولمِ لاينبغى لكم أن تعرفوا أن التبرز يبقى طول الحياة عند كثير من الناس، مصدراً للذة لايستخفون به؟

وفى وسعكم أن تستمعوا من الأطفال أنفسهم، حين يشتد عودهم بعض الشىء ويستطيعون الكلام عن هذه الأمور، أى اهتمام تثيره فى نفوسهم عملية التبرز، وأية

(١) يشير المؤلف إلى ما يحدث بين الأطفال من تنافس، أيهم يكون تبوله أبعد مدى من غيره «المترجم».

لذة يستشعرون حين يراقبون غيرهم إبان هذه العملية، ومن الطبيعى ألا تظفروا بشىء منهم إن كنتم قد أنشأتموهم على خوف من الكلام فى هذه الشئون، أما فيما يتصل بالأمور الأخرى التى لا تريدون أن تصدقوها، فأحيلكم إلى نتائج التحليل وأدلته، وإلى ملاحظة الأطفال ملاحظة مباشرة، وأوكد لكم أنه ليشق على المرء فى كثير ألا يرى هذه الأمور، أو أن يراها على غير ما هى عليه، على أنى لست بكاره أبداً أن تروعكم تلك الصلة بين أوجه النشاط الجنسى فى عهد الطفولة والانحرافات الجنسية..

والحق أن ليس فى هذه الصلة شىء غير طبيعي: فالطفل إن كانت له حياة جنسية إلى وظيفة الإنسال، يضاف إلى هذا أن الانحرافات تتميز جميعًا بعزوفها عن الهدف الجوهرى للجنسية وهو الإنسال، والواقع أننا نصف كل نشاط جنسى بالانحراف متى كان يعرض عن الإنسال، وينزع إلى التماس اللذة مستقلة عن هذا الهدف، من هذا تدركون أن الحد الفاصل ونقطة التحول فى ترقى الحياة الجنسية رهن بخضوعها لغايات الإنسال، فكل ما يحدث قبل هذا التحول، وكل ما يمتنع عن الامتثال له، وكل ما يهدف إلى طلب اللذة مجردة عنه ـ كل أولئك يسمى بذلك الاسم المستنكر وهو «الانحراف»، فهو حرى بالازدراء من حيث هو.

دعونى إذاً أمضى فى بيانى الموجز عن الجنسية الطفلية، واعلموا أن كل ما ذكرته لكم بصدد جهازين من أعضاء الجسم يمكن أن ينسحب على أجهزة أخرى. إن الحياة الجنسية للطفل تتلخص بأسرها فى نشاط سلسلة من النزعات الجزئية (هى ما تسمى مكونات الغريزة الجنسية) تلتمس كل واحدة منها الإشباع مستقلة عن الأخرى، فبعضها يلتمسه فى جسم الطفل نفسه، والبعض الاخر فى موضوعات خارجية، على أن الأعضاء التناسلية لا تلبث أن يكون لها مركز الصدارة بين الأعضاء الأخرى التى يدور عليها النشاط الجنسى للطفل، ومن الناس من لا يعرفون للإشباع الجنسى مصدراً آخر غير أعضائهم التناسلية، منذ ممارسة الاستمناء اللاشعورى فى الطفولة الأولى إلى الاستمناء الملح فى سنى البلوغ، ومنهم من يظل على هذه الحال إلى ما بعد البلوغ بزمن طويل، وأشير عرضاً إلى أن موضوع الاستمناء لايمكن استيعابه بهذه السهولة، فهو ينطوى على مادة يجب أن ينظر إليها من نواح مختلفة.

وعلى الرغم من أنى لا أريد أن أطيل هذه المناقشة، أرانى ما أزال مضطراً إلى أن أقول كلمة عن حب الاستطلاع الجنسى عند الأطفال، فهو مما تتميز به الجنسية

الطفلية تميزاً ظاهراً، هذا إلى أهميته البالغة من ناحية تكوّن الأعراض فى الأمراض النفسية، يبدأ هذا الاستطلاع من سن مبكرة جداً، قد تكون قبل الثالثة من العمر، وليس الباعث عليه ما بين الجنسين من فوارق، فهذه الفوارق لا وجود لها فى نظر الأطفال، خاصة الذكور منهم، فهؤلاء يعتقدون أن كلا الجنسين يشتركان فى عضو التناسل الذكرى، وحين يستكشف الولد الصغير وجود المهبل عند أخت له أو زميلة فى اللعب، فإنه لا يلبث أن يكذب ما تراه عيناه، لأنها لايستطيع أن يتصور إنساناً مثله من دون هذا العضو الذى هو أهم صفاته المميزة، ثم إنه يأخذ فيما بعد، فى أن يشعر بتأثير التهديدات السابقة التى كانت توجه إليه حينما كان يسرف فى العبث بعضوه الصغير، إذ ذاك يرتد فزعاً حيال ما يمكن أن يجازى به، ويقال عندئذ إنه يعانى ضغط «عقدة الخصاء» وهى عقدة تقوم بدور خطير فى تكوين خلقه إن ظل سليماً سوياً، وفى العصاب إن أصابه المرض، وفى المقاومات التى يبديها إن اتفق له أن يعالج علاجاً تحليلياً.

أما فيما يتصل بالبنت الصغير، فنحن نعرف أنها تشعر بنقص كبير لأنها حرمت أن يكون لها قضيب طويل شاخص تحسد الولد عليه، ومن هنا تنبعث فى نفسها الرغبة فى أن تكون رجلا، تلك الرغبة التى نجدها لديها فيما بعد فى ثنايا العصاب الذى قد يصيب من جراء إخفاقها فى القيام برسالتها كأنثى، يضاف إلى هذا أن البظر يقوم عند البنت الصغيرة بالدور نفسه الذى يقوم به القضيب سواء بسواء، فهو محط تهيجية خاصة، وعضو تظفر منه بالإشباع الشهوى الذاتى، وإن تحول البنت الصغير إلى امرأة مرتهن إلى حد كبير بانتقال هذه الحساسية برمتها وفى عهد مبكر، من البظر إلى داخل المهبل، وليس ما يسمى بالبرودة الجنسية عند بعض النساء إلا نتيجة لاحتفاظ البظر بهذه الحساسية احتفاظاً شموساً.

إن الاهتمام الجنسى للطفل ينصب بادئ ذي بدء على مشكلة الولادة - أى على المشكلة نفسها التى تختفى وراء لغز أبى الهول فى مدينة طيبة الإغريقية، وغالباً ما يكون مبعث هذا الاهتمام خوفه الأنانى من مجىء طفل جديد، أما الجواب الذى تجيبه به - وهو أن طائر اللقلق هى الذى يجىء بالأطفال - فلا ينظر إليه حتى إن كان طفلا صغيراً إلا فى ارتياب يزيد فى الكثير عما نظن، وإن شعوره بخداع الكبار له وتمويههم عليه بالكذب، يخلق فى نفسه إحساساً بأنه منقطع الصلة بهم، وينمى فيه روح الاستقلال إلى حد كبير.

على أن الطفل ليس فى مقدوره أن يجد حلا لهذه المشكلة من تلقاء نفسه؛ فتكوينه الجنسى غير الناضج لا يتيح له معرفتها وفهمها، وهو يظن فى أول الأمر أن الأطفال ترد هذه الدنيا متى يستطيع إنجاب الأطفال، ثم يؤكل، وأنه لايزال يجهل أن النساء وحدهن من يستطيع إنجاب الأطفال، ثم يعرف هذا فيما بعد، ويهجر الفكرة التى تقول إن الأطفال تصنع من طعام يؤكل، ولو أنها فكرة تحتفظ بها القصص الخرافية، على أنه سرعان ما يفطن، بعد هذا بقليل، إلى أن الأب يقوم بدور فى صنع الأطفال، لكنه لا يستطيع تحديد هذا الدور، فإن اتفق له أن يشهد فعلا جنسيا حسبه محاولة لقهر المرأة ونضالا وحشياً معها: وهذا هو التصور السادى الباطل للوقاع، غير أنه لا يربط فى أول الأمر بين هذا الفعل وبين إنجاب الأطفال، فإن رأى ذات يوم أثراً من الدم على فراش أمه أو على ملابسها الداخلية، اتخذه دليلا على أذى وقعه الأب على أمه، وأكبر الظن أنه يحرز، فيما يلى هذا من سنى طفولته، أن عضو الذكورة عند الرجل يقوم بدور أساسى فى إنسال الأطفال، لكنه لايزال عاجزاً عن أن يعزو إلى هذا العضو وظيفة أخرى غير إخلاء المثانة.

ويشترك الأطفال جميعًا، منذ البداية، فى الاعتقاد بأن الطفل يولد من الشرج - أى إنه يخرج كما تخرج القطعة من فضلات الجسم - ولايألون على اعتقادهم هذا حتى يصرف اهتمامهم عن هذا العضو، فيعرضون عن هذه النظرية، ويستبدلون بها أخرى فحواها أن الطفل يولد من السُّرّة التى تنفتح لهذا الغرض، أو أنه يخرج من بين الثديين، على هذا النحو يقترب الطفل المستطلع من الأمور الجنسية، إلا أن يضله جهله فيجعله يغفل عنها ويهملها حتى يتلقى عنها، قبيل البلوغ عادة، تفاسير معيبة بتراء، تترك فى نفسه على الأغلب أثراً كأثر الصدمة النفسية.

لا ريب أنكم سمعتم أن التحليل النفسى قد بسط اصطلاح «الجنسى» بسطاً مسرفا حتى تستقيم قضاياه عن التعليل الجنسى للأمراض النفسية وعن الدلالة الجنسية للأعراض. وفى وسعكم أن تحكموا الآن ما إذا كان لهذا البسط ما يبرره، إننا لم نتوسع فى مفهوم الجنسية إلا بمقدار ما يجعلها تشمل الحياة الجنسية للمنحرفين وللأطفال أيضاً، أى إننا لم نصنع أكثر من أن أعدنا لها سعتها الحقيقية، أما ما يسمى بالجنسية خارج نطاق التحليل النفسى، فلا ينطبق إلا على الحياة الجنسية بمعناها الضيق: تلك التى تخدم غرض الإنسال ليس غير والتى تسمى بالحياة الجنسية السوية.

المحاضرة الحادية والعشرون

تطور الليبدو والتنظيمات الجنسية

يخيل إلى أنى لم أوفق إلى إقناعكم إقناعاً تامًا بما للانحرافات من أهمية وخطر فى نظرتنا إلى الحياة الجنسية وتصورنا لها، لذا أريد أن أعيد النظر فيما قدمت لكم عن هذا الموضوع، وأن أتناوله بالتهذيب على قدر ما أستطيع.

لا يذهب بكم الظن إلى أن الانحرافات وحدها هى التى حدت بنا إلى تحوير مفهوم الجنسية، وذلك التحوير الذى استثار معارضة عنيفة، فقد ساهمت دراسة الجنسية الطفلية فى هذا التحوير بنصيب أكبر، وكان اتفاق النتائج فى الحالتين قاطعاً باتاً، غير أن مظاهر الجنسية الطفلية، وإن بدت واضحة فى السنوات الأخيرة من الطفولة، إلا أنها تبدو فى صورها الأولى شاحبة غير محددة، فمن لم يحسب للتطور أو للصلات التى يكشف عنها التحليل حسابا، لم يسعه إلا أن يمارى فى طبيعتها الجنسية، وكان أدنى أن يعز إليها طابعاً آخر غير متمايز، ولايعزب عن أذهانكم أننا لم نصطلح بعد على معيار عام للطبيعة الجنسية للعمليات والظواهر، إلا أن يكون ارتباطها بوظيفة الإنسال، وقد أسلم بنا هذا إلى تعريف رفضناه لأنه تعريف غير جامع، فأما المعايير البيولوجية كتلك الدوريات المؤلفة من ٢٣ و٢٨ يوما فيما يقترحه فلايس W. Fliess، فلاتزال موضع خلاف شديد، وأما الخصائص الكيمياوية للعمليات الجنسية، وهى خصائص نشتبه فى وجودها، فشىء لانزال ننتظر أن يماط عنه اللثام، غير أن الأمر على عكس هذا فى الانحرافات الجنسية للكبار الناضجين، فهى أشياء ملموسة لاتنطوى على إبهام، وإن اتفاق الناس جميعاً على تسميتها باسمها هذا، شاهد لامراء فيه على طبيعتها الجنسية.

وسواء وصفها القوم بأنها علامات على الانتكاس والانحلال أو بغير هذا، فإن أحداً لم يجرؤ بعد على أن يدرجها فى غير ظواهر الحياة الجنسية، ولو لم يكن ثمة غير الانحرافات، لكفت وحدها لتبرير ما نؤكده من أن الجنسية والتناسل لايفيدان شيئا بعينه، فالانحرافات تتنكب جميعها هدف الإنسال.

ولهذه الحال شبيه لايخلو من طرافة، فقد انعقد الرأى عند أغلب الناس على أن «النفسى» مرادف «للشعورى»، لكنا وجدنا أنفسنا مضطرين إلى أن نوسع مفهوم

«النفسي» حتى يشمل شطراً آخر من النفس غير شعوري. كذلك يرى أغلب الناس أن «الجنسي» مطابق لما «ينتمي إلى الإنسال» أو «التناسلي»، لكن لا يسعنا إلا أن نسلم بوجود أشياء «جنسية» ليست «تناسلية» ولا صلة لها بالإنسال، فالأمر لا يعدو أن يكون تطابقا صوريا، لكنه لا يخلو من دلالة أعمق مما يبدو عليه.

لئن كان وجود الانحرافات الجنسية مما يحتج به احتجاجا حاسما في هذه المسألة فكيف غفل الناس عن قوة هذه الحجة منذ زمن طويل، فظلت المسألة قائمة إلى اليوم؟ الحق أني لا أستطيع أن أجيب عن هذا، لكن يلوح لي أن الانحرافات الجنسية قد أُحيطت بجو خاص من الاستنكار والنبذ منع من دراستها النظرية، بل كان عقبة في سبيل الحكم عليها حكما علمياً، فكأن الناس لايرون فيها شيئا يثير التقزز فحسب، بل شيئاً مروعاً مستبشعاً أيضاً، وكأنهم يخشون أن يقعوا في حبالة إغرائها، أو كأنهم في باطن الأمر يحملون في نفوسهم لذوي الانحرافات غيرة صامتة يتعين عليهم ذمُّها وكبحها، كتلك الغيرة التي يعترف بها الكونت الذي يحتكم إليه في المهزلة الشهيرة لتانهاوزر Tannhasuuer :

إذاً لقد نسي الشرف والواجب في جبل الزهرة!
أسفاً إن لم يكن هذا حظي ولو مرة!

الواقع أن المنحرفين أدنى أن يكونوا قوما تعساء، تبهظهم تكاليف تلك اللذة التي يلقون العسرة في الظفر بها.

إن ما يجعل النشاط المنحرف نشاطاً جنسياً لانزاع فيه، على الرغم من غرابة موضوعه وهدفه، هو أن الفعل في الإشباع المنحرف ينتهي عادة بإنعاظ مكتمل وقذف للسائل المنوي، وهذا لا يحدث بطبيعة الحال إلا عند الكبار الناضجين، أما عند الأطفال فلا يكون الإنعاظ والقذف ممكنين دائما، بل تحل محلهما ظواهر يتعذر أن نعزو إليها، على التحقيق، طابعاً جنسياً.

يتعين عليّ أن أضيف إلى ماذكرت شيئا آخر أتم به ما قدمت عن أهمية الانحرافات الجنسية، إن الانحرافات مهما نظر الناس إليها بعين المقت والاستفظاع ومهما اتسعت الشقة بينها وبين النشاط الجنسي السوي، فالمشاهد المعروف أن الحياة الجنسية السوية لاتكاد تخو من وجه من وجوهها، فالقبلة مثلا يمكن أن توصف بأنها

فعل منحرف، لأنها تتلخص فى اتصال منطقتين شهوتين، هما الفمان بدلا من اتصال عضوى التناسل، غير أن أحداً لا يستنكرها لذلك، بل الأمر على عكس هذا، إذ هى مباحة فى التمثيل المسرحى كتعبير مقنع عن الفعل الجنسى، ومع هذا فليس من العسير أن تنقلب القبلة فتصبح انحرافا مطلقا - وذلك حين تبلغ من الشدة حداً يصحبه الإنعاظ والإفضاء مباشرة، كما هى الحال عند عدد غير قليل من الناس، ثم إن التحديق فى «موضوع الحب» ولمسه باليد شرط ضرورى للمتعة الجنسية عند بعض الأفراد، كذلك يذهب آخرون وهم فى ذروة الاهتياج الجنسى إلى حد العض والقرص.

يضاف إلى هؤلاء فريق لا تستثير فيهم المنطقة التناسلية أقصى درجة من الانتشاء، بل منطقة أخرى أياً كانت من جسم «الموضوع». هذا إلى أنواع أخرى لا تعد ولا تحصى، وليس من الرأى فى شىء أن تخرج من عداد الأسوياء نفراً تبدو لديهم نتف من أمثال هذه الخصال فنحشرهم فى زمرة المنحرفين، بل الواضح الذى يطرد وضوحه أن السمة الأساسية للانحرافات لا تتلخص فى تجاوز الهدف الجنسى، أو فى الاستعاضة عن الأعضاء التناسلية بغيرها، أو فى تغيير «الموضوع» بل فى شىء واحد ليس غير، هو **الاقتصار** على هذه الضروب من الزيغ والتشبث بها بحيث تتنافى مع الفعل الجنسى الذى يخدم غرض الإنسال. فما دامت الأفعال المنحرفة لا تتدخل فى القيام بالفعل الجنسى السوى، بحيث لا تكون منه إلا بمثابة الأفعال المنحرفة لا تتدخل فى القيام بالفعل الجنسى السوى، بحيث لا تكون مه إلا بمثابة التمهيد أو التنشيط، فلايصح أن تسمى انحرافات بالفعل. وغنى عن البيان أن أمثال هذه الوقائع من شأنها أن تقرب الشقة بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة قربا كبيراً، أما النتيجة البديهية التى نخرج بها من هذه الوقائع، فهى أن الجنسى السوية نتاج لأشياء كانت توجد قبلها، وأنها لم يتسن لها أن تتكون إلا بعد أن حذفت بعض هذه الأشياء السابقة لأنها لاجدوى منها، واحتفظت بأخرى كى تخضعها لهدف جديد، هو هدف الإنسال.

فى وسعنا الآن أن ننتفع بهذه المعلومات عن الانحرافات، فنتعمق على ضوئها مشكلة الجنسية الطفلية، غير أنه يجب علىّ أن أوجه أنظاركم قبل هذا إلى فارق مهم بينهما، فالجنسية المنحرفة تكون فى العادة مركزة تركيزاً شديداً، يتجه نشاطها بأسره، فى أغلب الأحوال، نحو هدف واحد لا شريك له، وقد غلبت إحدى النزعات الجزئية وبرزت، إما وحدها من دون النزعات الأخرى، أو بعد أن طوعت النزعات الأخرى، لأغراضها الخاصة.

ومن هذه الناحية لا يوجد فارق بين الجنسية السوية والجنسية المنحرفة إلا فى اختلاف النزعة الجزئية الغالبة فى كل منهما، ومن ثم فى الخدف الجنسى. حتى ليمكن القول بأن فى كل منهما حكومة مستبدة محكمة التظيم، وليس من اختلاف بينهما فى ذلك إلا فى اختلاف الحزب المسيطر فى كل منهما، أما الجنسية الطفلية فعلى العكس من هاتين، ذلك أننا لو نظرنا إليها فى مجموعها، لم نجد فيها تركيزا ولاتنظيما، بل تتمتع جميع النزعات الجزئية فيها بحقوق واحدة، وتلتمس كل واحدة منها اللذة مستقلة عن غيرها، وإن انعدام التركيز (فى الطفولة)، ووجوده (فى سن النضج) ينتميان بطبيعة الحال مع ما نعرفه من أن كلتا الجنسيتين، المنحرفة والسوية، مشتقتان من أصل واحد هو الجنسية الطفلية، على أن هاك فى الواق حالات من الانحراف تشبه الطفلية بدرجة أكبر من تلك، بمعنى أن عدة نزعات جزئية فيها تتطور مستقلة بعضها عن بعض من حيث أهدافها، أو بعبارة أدق، تبقى وتدوم من عهد الطفولة، والأدنى إلى الصواب أن توصف هذه بأنها حالات لطفالة[1] جنسية وليست بانحرافات.

لعلنا الآن على استعداد لأن نناقش اعتراضا من المحقق أن يوجد إلينا قد يقول قائل:

«لم تصر على أن تصف هذه المظاهر الطفلية بالجنسية، تلك المظاهر التى تعتبرها نفسه مبهمة غير محددة ولا تصبح جنسية إلا يما بعد؟ ولِمَ لا تقنع بوصفها وصفا فسيولوجيا؟».

فتقول فى بساطة إننا نلاحظ عند الرضيع ضروبا من النشاط كالتمصمص وإمساك الفضلات، يتضح منها أنه يلتمس اللذة عن طريق أعضاء معينة من جسمه، وبذا تكون فى غنى عن أن تنسب حتى للرضعاء حياة جنسية، وهى فكرة تستفز مشاعر من يستمعون إليك!. الحق أن ليس لدىّ ما اعترض به على أن تكون اللذة مشتقة من أعضاء الجسم، وأعلم علم اليقين أن اللذة الكبرى للوصال الجنسى ليست إلا لذة جسمية مستمدة من نشاط الأعضاء التناسلية، لكن أتستطيعون أن تخبرونى متى تصطبغ هذه اللذة المحلية، التى تكون مبهمة غير محددة فى أول الأمر، بالصبغة الجنسية التى لا نزاع فيها، فى مراحل النمو اللاحقة؟ وهل نعرف عن هذه «اللذة الموضعية للأعضاء أكثر مما نعرف عن الجنسية؟.

(١) Infantilism الطفالة بقاء صفات الطفولة إلى ما بعد البلوغ «المترجم».

ستقولون إن تلك الصبغة الجنسية تضاف حين تبدأ الأعضاء التناسلية فى القيام بوظيفتها تحديداً، أى إن «الجنسى» لا يعدو أن يكون «التناسلى»، وستدحضون الاعتراض الذى قد استمده من وجود الانحرافات، إذ تقولون إن الهدف من أغلب الانحرافات، يتلخص آخر الأمر، فى الظفر بإنعاظ تناسلى، ولو بوسيلة أخرى غير اتصال الأعضاء التناسلية.

ولو أنك استبعدت من الخصائص الجوهرية للجنسية صلتها بالانسال، لأنها صلة تتنافى مع وجود الانحرافات، وأكدت نشاط الأعضاء التناسلية بدلا عن ذلك، لكان موقفك خيراً وأبقى مما هو عليه، غير أنى لو فعلت هذا لكانت مسافة الخلف بيننا أقل مما تظنون: إذ يتلخص الأمر حينئذ فى وضع الأعضاء التناسلية مقابل الأعضاء الأخرى، ترى ماذا تقولون فى الأدلة العديدة التى تبين أن الأعضاء التناسلية قد تستبدل بها أعضاء أخرى التماساً للإشباع، كما هو الشأن فى القبلة العادية أو فى بعض الممارسات المنحرفة عند الداعرين، أو فى أعراض الهستريا؟.

الغالب فى هذا العصاب أن تنقل ظواهر التنشيط والإحساس والتعصيب، بل عملية الانتصاب نفسها، من الأعضاء التناسلية إلى مناطق أخرى من الجسم، غالبا ما تكون بعيدة عنها (كما هو مشاهد فى ظاهرة النقل من أسفل إلى أعلى، إلى الرأس والوجه مثلا). من هذا ترون أنه لم يبق لكم شيء مما تتمسكون بأنه خاصة جوهرية للجنسية، ومن ثَم يتحتم عليكم أن تتبعونى فيما سرت عليه وأن توسعوا مفهوم «الجنسى» حتى يشمل ضروب النشاط فى الطفولة الأولى مما يهدف إلى اللذة المحلية عن طريق الأعضاء.

وأرجو أن تأذنوا لى الآن فى أن أقدم إليكم اعتبارين آخرين تعزيزاً لرأيى هذا.. نحن نصف ضروب النشاط المبهمة غير المحددة لتى تهدف إلى اللذة فى الطفولة الباكرة بأنها ظواهر «جنسية» لأننا نصل إليها أثناء تحليل الأعراض عن طريق مواد لانزاع فى أنها جنسية، غير أنكم قد تعترضون بأن هذه الضروب من النشاط لايتحتم أن تكون من نوع جنسى لأننا اهتدنا إليها من مواد جنسية لا ريب فيها، فأسلم معكم بهذا، وسأضرب لكم مثلا شبيها بحالتنا هذه:

لنفرض أننا نريد أن نتتبع نمو نباتين من ذوات الفلقتين (شجرة التفاح ونبات الفول) ابتداء من بذرة كل منهما، وليست لدينا وسيلة لملاحظة هذا النمو إلا بطريقة

تراجعية، أى بأن نبدأ من النبات المكتمل النمو حتى ننتهى إلى الجنين ذى الفلقتين، لكن جنين أحد النباتين يشبه الآخر كل الشبه بحيث لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر، فهل لنا أن نستنتج من هذا أن أحد النباتين عين الآخر بالفعل، وأن الفروق النوعية بين شجرة التفاح ونبات النوق لا تظهر إلا فيما بعد أثناء النمو؟. أم الأدنى إلى الصواب، من الناحية البيولوجية، أن نسلم بأن هذا الفارق موجود فى الأجنة من قبل، على الرغم من التطابق الظاهرى بين فلق البذور؟

هذا ما نصنع حين نسمى اللذة التى يستشعرها الرضيع من أوجه نشاطه، لذة جنسية. ترى هل نستطيع أن نسمى كل لذة مشتقة من الأعضاء لذة جنسية، أم أن هناك نوعا آخر من اللذة غير جدير بهذا الاسم ـ هذه مسألة لايسعنى أن أناقشها فى كل المكان، على أنى لا أعرف إلا القليل عن اللذة المستمدة من الأعضاء، وعن شروطها، وليس من المستغرب أن يسلم بنا التحليل التراجعي آخر الأمر، إلى عوامل لا نستطيع تحديدها فى الوقت الحاضر.

ثمة ملحوظة أخرى! إنكم لم تظفروا إجمالا بشىء ذى بال مما تتوقون إلى الاستمساك به ـ وهو الطهر الجنسى للأطفال ـ حتى إن استطعتم أن تقنعونى بأن هناك أسبابا وجيهة تحملنا على أن لا تنظر إلى وجوه النشاط عند الرضيع على أنها جنسية، فأما الحياة الجنسية للطفل، ابتداء من الثالثة من عمره، فلم تعد أمراً يرقى إليه الشك، فمنذ هذه السن تبدو أمارات التهيج فى الأعضاء التناسلية، بل غالباً ما نلحظ فى ذلك الحين مرحلة استمناء طفلى، أى نوعاً من الإشباع فى نطاق الأعضاء التناسلية، وأما المظاهر النفسية والاجتماعية للحياة الجنسية فمما لايمكن أن يفوت الناظر: اختيار الموضوع، وإيثار أشخاص معينة بالمودة، بل والانحياز لأفراد أحد الجنسين، والغيرة، وغير تلك من الوقائع التى أقرها باحثون مقسطون خارج نطاق التحليل النفسى وقبل ظهورها، والتى يمكن أن يتأكدها كل من سلم من التشيع، وربما اعترضتم على هذا بأنكم لم ترتابوا قط فى ظهور المودة عند الطفل فى سن مبكرة، لكنكم تشكون فى صبغتها «الجنسية»..

من المؤكد أن الأطفال بين الثالثة والثامنة من العمر يتعلمون كيف يخفون هذه الصبغة ويموهون عليها، غير أننا إن أنعمنا النظر، ظهرت لنا أدلة عدة على الطابع «الشهوانى» لهذه المودة، ولئن غاب هذا عن ملاحظتكم المباشرة، فإنه يبدو فى سهولة

ووضوح أثناء الفحص التحليلى، إن الأهداف الجنسية فى الأهداف الجنسية فى هذه المرحلة من الحياة تتصل اتصالا وثيقًا بالاستطلاع الجنسى الذى يشغل بال الأطفال فى هذه المرحلة نفسها، وقد سقت لكم بضعة أمثلة له، أما الطابع المنحرف لبعض هذه الأهداف فنتيجة طبيعية للتكوين الفج للطفل، فالطفل لايكون قد كشف بعد عن الغرض من عملية التواصل الجنسى.

وابتداء من السادسة أو الثامنة من العمر، يتوقف النمو الجنسى أو يتراجع فنكون بصدد مرحلة إن شب الطفل فيها على معايير خلقية سامية، كانت جديرة أن تسمى مرحلة الكمون، وقد لاتظهر هذه المرحلة، غير أنها لا تستتبع بالضرورة توقفًا تامًا لأوجه النشاط والاهتمام الجنسى، وإن أغلب الأحداث النفسية والنزعات التى خبرها الفرد قبل هذه المرحلة، تبتلعها فى فترة الكمون، تلك النساوة الطفلية التى سبق أن تكلمنا عنها، والتى تحجب عنا طفولتنا الأولى وتجعلها غريبة عنا، ولنذكر أن مهمة كل تحليل نفسى هى أن أوائل الحياة الجنسية التى تنتمى إلى هذه المرحلة هى الدافع إلى هذا النسيان، أى أنه نسيان ينجم عن الكبت.

إن الحياة الجنسية للطفل ابتداءً من السنة الثالثة تشترك فى كثير من الوجوه مع الحياة الجنسية للراشد الكبير، ولو أنها تختلف عنها، كما نعرف، فى افتقارها إلى تنظيم ثابت تتزعمه الأعضاء التناسلية، وفى طابعها المنحرف الذى لا ريب فيه، هنا إلى ما تكون عليه الغريزة إجمالا فى الطفولة من ضعف نسبى بطبيعة الحال. غير أن أكثر الأطوار طرافة، من الناحية النظرية، فى النمو الجنسى أو فى تطور **الليبدو** كما نسميه، هى الأطوار التى تسبق هذه المرحلة[1]. فهو تطور يحدث فى سرعة كبيرة بحيث أنامللاحظة المباشرة لم تكن لتفلح وحدها فى تحديد صوره المتداركة بل لقد استطعنا أن ننفذ إلى أبعد من هذا فنكشف عن أطوار أبعد من تلك، ولم يكن يتسنى لنا إلا بمعونة الفحص التحليلى للأمراض النفسية، ومن المؤكد أن هذه الأطوار ليست إلا منشآت نظرية، غير أن ممارسة التحليل النفسى قد بينت لنا أنها منشآت لازمة وذات قيمة، وسترون عما قليل كيف تمكننا الحالات المرضية من الكشف عن ظواهر يفوتنا إدراكها على التحقيق فى الحالات السوية.

---

1. Pre-genital

فى وسعنا الآن أن نحدد الصور التى تتخذها الحياة الجنسية للطفل قبل زعامة الأعضاء التناسلية ـ تلك التى يمهد لها فى مرحلة الطفولة الباكرة قبل مرحلة الكمون، ثم تنتظم وتبقى ابتداء من سن البلوغ، ففى أثناء الطفولة الباكرة يوجد نوع منفك من التنظيم الجنسى ـ نسميه التنظيم **القبلتناسلى**[١] ـ لا يكون للأعضاء التناسلية فى إبانه مركز الصدارة، بل تكون النزعات **السادية والشرجية** هى الغالبة السائدة. كما أن التباين بين **المذكر والمؤنث** لا يقوم بعد بأى دور، بل نجد بدله تباينا بين **فاعل وقابل**[١]، يمكن اعتباره طليعة القطبية الجنسية التى سيندمج فيها ويلتحم بها فيما بعد.

أما أوجه النشاط التى تبدو لنا مذكرة فى ذلك الحين ـ إذ ننظر إليها من ناحية المرحلة التناسلية ـ فما هى إلا تعبير عن نزعة إلى السيطرة، سرعان ما تمسى ضرباً من القسوة، كذلك ترتبط النزعات ذات الهدف السلبى القابل بالمنطقة الشهوية للشرج، الذى يقوم فى هذه المرحلة بدور مهم، كما تتأكد الرغبة فى مد العين[٢] والرغبة فى الاستطلاع وتصبحان على جانب كبير من الفاعلية والنشاط، أما عضو التناسل فلا يشترك فى الحياة الجنسية إلا من حيث عضو يسكب البول.

إن مكونات الغريزة، «النزعات الجزئية»[٣] لاتعوزها فى هذه المرحلة موضوعات تتعلق بها، غير أنها لايتحتم أن تجمتع هذه الموضوعات برمتها فى موضوع واحد، والتنظيم الشرجى السادى آخر طور تمهيدى يسبق المرحلة التى تسودها الأعضاء التناسلية، ويرينا البحث الدقيق مقدار ما يبقى من عناصر هذا الطور التمهيدى فى البناء النهائى للغريزة، والوسائل التى تكره بها هذه المكونات الجزئية على خدمة **التنظيم التناسلى** الجديد، من وراء هذا الطور الشرجى السادى، نلمح طوراً من أطوار التنظيم أكثر بداوة منه، إذ تقوم فيه منطقة الفم الشهوية بالدور الرئيسى، ولا يشق عليكم أن تحرزوا أن النشاط الجنسى الذى تعبر عنه عملية التمصمص (مص الشفتين طلباً للذة) مما يتسم به هذا الطور. أليس مما يثير الإعجاب ببراعة قدماء المصريين وقوة إدراكهم أنهم كانوا يصورون الطفل فى نقوشهم ـ وإن كان حورس المقدس ـ وقد وضع إصبعه فى فمه؟. وقد بين لنا «ابراهام» حديثًا ما يتركه هذا الطور **الفمى** البدائى من بقايا وآثار فى الحياة الجنسية التالية جميعا.

---

1. Passive.
2. Skoptophilia.

(٣) يلاحظ أن هذين الاصطلاحين يعنيان الشيء نفسه «المترجم».

الحق أنى أخشى أن يكون فيما ذكرت لكم عن التنظيمات الجنسية ما أتعبكم، ولم يزدكم بالموضوع علما، وربما أكون قد أسرفت فى التفاصيل، لكنى أطلب منكم الصبر، فستتاح لكم فرص ترون فيها أهمية ما ذكرت وفائدته حين نتناوله بالتطبيق فيما بعد، وليقر فى أذهانكم الآن أن الحياة الجنسية - أو **وظيفة الليبدو** كما نسميها - لاتبزغ مكتملة فى صورتها النهائى، بل إنها لا تتطور فى الاتجاهات التى تتخذها صورها الأولى، إنما تجتاز سلسلة من أطوار متعاقبة لا يشبه بعضها بعضاً، أى تصيبها تغييرات كثيرة كتلك التى تصيب الدودة فى تطورها لتصبح فراشة، وإن نقطة التحول فى هذا التطور هى **خضوع مكونات الغريزة جميعها أى نزعاتها الجزئية لزعامة الأعضاء التناسلية**، وبالتالى خضوع الجنسية لوظيفة الإنسال، فقبل هذا كانت الحياة الجنسية مبعثرة، إن صح التعبير، قوامها عدد كبير من النزعات الجزئية، تعمل كل واحدة منها مستقلة عن الأخرى ابتغاء لذة موضوعية مشتقة من أعضاء الجسم، غير أن هذه الفوضى تحورها تنظيمات قبلتناسلية، أهمها الطور الشرجى السادى، ومن قبله الطور الفمى الذى ربما يكون أقدم طور فيها.

يضاف إلى هذا عمليات مختلفة - لا نعرف عنها إلا القليل - تكفل الانتقال من تظيم إلى التنظيم الذى يليه، وسترى عما قريب دلالة هذا التطور التدريجى الطويل للبيدو، وأهميته لفهم الأمراض النفسية.

أما اليوم، فسنتناول مظهرا آخر من مظاهر التطور، هو الصلة بين النزعات الجزئية للغريزة الجنسية و**موضوعاتها**، والأدنى إلى الصواب أننا سنلقى نظرة عابرة على هذا التطور؛ ليتسنى لنا أن نقف برهة أطول عند نتيجة من نتائجه المتأخرة نسبيّا، إن بعض النزعات الجزئية تتجه من أول أمرها إلى موضوع، وتتشبث به: كالنزعة إلى السيطرة (السادية)، والرغبة فى مد العين والاستطلاع. وأخرى - وهى التى ترتبط ارتباطا واضحا بمناطق شهوية معينة من الجسم - لا يكون لها موضوع إلا فى أول الأمر فقط، ماظلت تعتمد على الوظائف غير الجسية، ثم تذر هذا الموضوع حين تنسلخ عن تلك الوظائف، من ذلك أن أول موضوع للنزعة الفمية للغريزة الجنسية هو ثدى الأم، الذى يرضى حاجة الرضيع إلى التغذية، ثم يستقل عنصرها الشهوى الذى كان يظفر بالإشباع من ثدى الأم فى الوقت نفسه الذى يشبع الطفل جوعه، ويدور على التمصمص فى ذاته، أى إنه ينسلخ عن الموضوع الخارجى ويتجه إلى عضو أو منطقة من جسم الطفل نفسه.

وهكذا تصبح النزعة الفمية **شهوية ذاتية** منذ البداية، والأمر بالمثل فى النزعة الشرجية وغيرها من النزعات الشهوية الأخرى، موجز القول أن التطور اللاحق يرمى إلى هدفين، أولهما: نبذ الشهوية الذاتية، أى الاستعاضة عن الموضوع الذى هو جزء من جسم الطفل ذاته بموضوع خارجى، وثانيهما: تكامل الموضوعات المختلفة للنزعات المستقلة والاستعاضة عنها بموضوع واحد. ولايمكن أن يتم هذا بطبيعة الحال إلا إذا كان هذا الموضوع الواحد بدوره جسما مكتملا شبيها بجسم الفرد. كذلك لايمكن أن يتم إلا إذا استغنى الفرد عن عدد معين من النزعات الشهوية الذاتية.

إن العمليات التى تنتهى باختيار موضوع جنسى معين، عمليات بها شىء من التعقيد، ولم توصف بعد وصفًا يبعث على الرضا. وحسبنا أن نؤكد أنه حين تبلغ الدورة الطفلية التى تسبق مرحلة الكمون حدا معينا، فإن الموضوع المختار يكاد يطابق أول موضع للذة الفمية، ولئن لم يعد هذا الموضوع ثدى الأم، فإنه يكون الأم نفسها على الدوام، لذا فنحن نقول إن الأم أولا موضوع للحب، وأود أن أشير هنا إلى أننا نتكلم عن «الحب» حين نؤكد الجانب النفسى من النزعات الجنسية، ونتغاضى أو نتناسى، لحظة من الزمن، مطالب الجانب الجسمى أو «الشهوانى» لهذه النزعات، حوالى ذلك الوقت الذى تصبح الأم فيه موضوع الحب، تكون عملية الكبت قد بدأت تفعل فعلها فى نفس الطفل، فإذا بها تحجب عن شعوره جانباً من أهدافه الجنسية، وإن اختيار الأم موضوعا للحب ليرتبط بتلك المجموعة المعقدة من العواطف التى أسميناها **عقدة أوديب**، التى أصبح لها شأن عظيم فى تفسير التحليل النفسى للأمراض النفسية، والتى ربما كانت سبباً مهما فى معارضته والكيد له.

استمعوا إلى هذه الحادثة الصغيرة التى وقعت إبان الحرب الحاضرة:

اختير أحد أنصار التحليل المخلصين طبيبا فى الجبهة الألمانية ببولندة، وقد استرعى انتباه زملائه ما كان يظفر به من نتائج لم تكن فى الحسبان مع أحد المرضى، فلما سئل فى هذا، صرح بأنه يصطنع طرق التحليل النفسى، وأنه مستعد لأن يحيط زملاءه علما بها.. فكان رجال القسم الطبى من زملائه ورؤسائه يجتمعون كل مساء ليطلعهم على ألغاز التحليل، وقد سارت الأمور سيراً حسنا لفترة من الزمن، حتى إذا ما بدأ صاحبنا يحدث مستمعيه عن عقدة أوديب، نهض أحد الرؤساء وأعلن أنه لا يعتقد فى شىء منها، وأنه لا يجوز أن تروى أمثال هذه الأشياء لرجال من الأبطال، هم أرباب أسر يقاتلون من أجل الوطن، ثم أمر بوقف المحاضرات..

وكانت هذه خاتمة القصة التى وجد المحلل نفسه فى إثرها مضطرا إلى نقله إلى مكان آخر من الجبهة، وأرى من سوء الطالع أن يكون انتصار الألمان وقفا على مثل هذا «التنظيم» للعلم، كما أعتقد أن العلم الألمانى لن يزدهر بمثل هذا التنظيم.

من المحقق أنكم تنتظرون بفارغ الصبر أن تعرفوا فيم تتلخص هذه العقدة المروعة ـ عقدة أوديب، إن اسمها يحدثكم عنها: كلكم تعرفون الأسطورة اليونانية للملك أوديب الذى قدِّر له أن يقتل أباه وأن يتزوج من أمه، والذى عمل كل ما فى وسعه ليتفادى نبوءة المنجم، فلما لم يفلح عاقب نفسه، حين نمى إليه أنه تورط فى هاتين الجريمتين على غير علم منه، وأعتقد أن كثيرا منكم قد هزه انفعال شديد حين قرأ المأساة التى يماط فيها اللثام رويداً عن جريمتى أوديب، وكيف يلقى عليها الضوء تدريجاً بعد تحر برع المؤلف فى إطالته وتعزيزه أبداً ببينات جديدة: فكان هذا العرض شبيها من بعض الوجوه بأساليب التحليل النفسى. وقد حدث فى أثناء الحوار أن عارضت جاكوستا، الزوجة الأم، التى أعماها الحب وطلبت وقف التحقيق بحجة أن كثيرا من الناس يرون فى أحلامهم أنهم يضاجعون أمهاتهم، لكن الأحلام غير جديرة أن توضع موضع اعتبار ـ ونحن لا نغض من شأن الأحلام، وخاصة الأحلام النموذجية التى تعرض لكثير من الناس، كما نعتقد اعتقاداً لا يرقى إليه الشك أن الحلم التى ذكرته جاكوستا يتصل اتصالا وثيقا بمضمون الأسطورة الفاجع المروع .

مما يدعو إلى الدهش أن مأساة سوفوكليس لا تستثير السخط والاستنكار فى نفوس القارئين أو المشاهدين، ولو قد استنكروها لكان لهم من العذر ما ليس لذلك الطبيب العسكرى الفظ، ذلك أنها فى باطن الأمر، مأساة تناهض الأخلاق؛ فهى ترفع التبعة عن الإنسان، وتعزو إلى القوى الإلهية الإيعاز بالجريمة، كما أنها تظهر عجز الدوافع الخلقية للإنسان عن مقاومة النزوات الإجرامية، فلو أن شاعرا ناقداً مثل يوريبيدوس عالج هذه المأساة، وهو شاعر ليس بينه وبين الآلهة ود موصول، لا تخذ منها تعلة لاتهام الآلهة والأقدار، لكنها فى يد شاعر مؤمن من مثل سوفوكليس لايمكن أن تكون شكاة واتهاماً، فهو يتخلص من المأزق فى لطافة ودعة، إذ يصرح أن أسمى الخلق هو أن يمتثل الفرد لإرادة الآلهة حتى إذا أمرته بارتكاب الجريمة.

وعندى أن هذا المغزى ليس من مزايا المأساة أو من مظاهر قوتها، غير أنه لاينال من تأثيرها فى شىء. فالقارئ لا يستجيب لهذا المغزى، بل يستجيب للمعنى

الخفى والمضمون المستتر فى ثنايا الأسطورة ، أى إنه يستجيب كما لو كان قد اكتشف عقدة أوديب فى نفسه عن طريق التحليل الذاتى، كما لو كان يرى فى إرادة الآلهة ونبوءة النجم أقنعة ممجِّدة للاشعوره الخاص، أو كما لو كان يشعر بصدى الرغبة فى استبعاد الأب والزواج من الأم، ويا لها من ذكرى مستبشعة!. فكأن صوت الشاعر يهيب به:

«عبثا تحاول أن تنكر أنك مسئول، وعبثا تصرح بأنك جاهدت هذه النيات الآثمة، إنك آثم على الرغم من هذا كله، قد عجزت عن إخماد هذه النيات التى لاتزال مستعرة فى لا شعوره».

وهذه حقيقة سيكولوجية، فالإنسان وإن كان قد كبت هذه الرغبات الآثمة فى لا شعوره، وعلى الرغم من اعتقاده أنه يستطيع أن يقول لنفسه إنه لم يعد مسئولا عنها، فهو مرغم على أن يشعر بهذه المسئولية فى صورة إحساس بالذنب لا يعرف له أساساً.

لا ريب فى أن عقدة أوديب مصدر من أهم المصادر لذلك الإحساس بالذنب الذى يعذب العصابيين فى الكثير الغالب من الأحوال، بل هنالك ما هو أكثر من هذا: فقد نشرت فى عام ١٩١٣ بحثا بعنوان «الطوطم»[١] و«الطابو»[٢]، تناولت فيه الصور الأولى للدين والأخلاق، وافترضت أن عقدة أوديب هى التى بثت فى نفوس الإنسانية بوجه عام، فى مطالع تاريخها، ذلك الإحساس بالإثم الذى هو المصدر الأساسى للدين والأخلاق، وكنت أحب أن أكثر لكم من الحديث عن هذا الموضوع، لكنى أوثر ألا أفعل، إذ يشق علينا أن نتخلص منه متى بدأنا فى عرضه، ولابد لنا من العودة إلى علم نفس الفرد.

تُرى ماذا تكشفه لنا الملاحظة المباشرة للأطفال عن عقدة أوديب، فى مرحلة اختيار «الموضوع» التى تسبق مرحلة الكمون؟

لا يعز علينا أن نرى أن الصبى الصغير يريد أن يستأثر بأمه كلها لنفسه وحده، لكنه يجد الأب فى طريقه، وأنه ليحرن ويتجهم حين يرى أباه قد أخذ يبدى لها الود والتلطف، ولايخفى رضاه حين يكون الأب غائبا أو على سفر، وكثيرا مما يفصح عن

---

(١) الطوطم Totem حيوان أو كائن آخر تتخذه القبائل البدائية جداً لها، وتقيم له من المناسك والشعائر الشىء الكثير «المترجم».

(٢) الطابو Tabou شخص أو شىء أو مكان يحرم على أبناء القبيلة، فهو من المقدسات التى يخشى تنجيسها «المترجم».

عواطفه نحو أمه باللفظ مباشرة فيعدها أن يتزوج منها، وقد لا يبدو هذا شيئا ذا بال إذا قيس إلى ما فعله أوديب، لكنه يكفى فى الواقع للإشارة إلى لب أسطورة أوديب..

ومما يثير الحيرة فى أغلب الأحيان أن نرى الطفل نفسه يبدى لأبيه كثيراً من المودة فى مناسبات أخرى من هذه المرحلة، غير أن هذه الاتجاهات العاطفية المزدوجة المتباينة[1] التى لابد أن يصطرع بعضها مع بعض إن هى وجدت لدى الراشد الكبير، تستطيع أن تعيش متوافقة فى نفس الطفل ولوقت طويل، كما يساكن بعضها البعض فيما بعد، بصورة دائمة، فى ثنايا اللاشعور، وقد يعترض بأنه من الممكن تفسير سلوك الصبى الصغير بدوافع أنانية، وأن ليس ثمة ما يبرر تفسيره بعقدة شهوية، فالأم تقضى للطفل كل حاجاته، فمن صالحه إذاً ألا تشغل نفسها بأحد غيره، هذا حق لا ريب فيه، غير أنه سرعان ما يتضح لنا أن الاهتمام الأنانى، فى هذا الموقف وأمثاله، لا يعدو أن يتيح الفرصة تنتهزها النزعات الشهوية، فالولد الصغير يبدو استطلاعه الجنسى لأمه سافراً صريحاً، وهو يريد أن ينام إلى جانبها فى الفراش، ويصر على أن يكون معها وهى تقوم بزينتها، بل ويحاول إغراءها بوسائل لا يفوتها فى الغالب إدراكها، فتقصها مستضحكة على الناس، ولا ريب فى أن هذا التعلق طبيعة شهوية لا مراء فيها.

ولا يعزب عن بالنا، فضلا عن هذا، أن الأم ترعى ابنتها الصغيرة بالعناية نفسها دون أن تستثير فيها الأثر نفسه، وأن الأب غالبًا ما ينافس الأم فى رعاية الصبى والتلطف به، دون أن يحظى منه بما تحظى به الأم من اهتمام.

وموجز القول أن عامل الإيثار الجنسى ظاهر فى الموقف بحيث يستطيع أن يصمد لأى نوع من أنواع النقد، وحتى إن نظرنا إلى الموقف من ناحية الاهتمام الأنانى، فلابد أن يكون الصبى أحمق إذ لا يتعلق إلا بشخص واحد هو الأم، فى حين لا يشق عليه أن يكتسب ولاء شخصين هما: أمه وأبوه.

هذا موقف الولد الصغير من أمه وأبيه، وهو على وجه التحديد عكس الموقف الذى تقفه البنت منهما، فالطفلة تظهر لأبيها وداً رقيقاً، وتضيق بوجود أمها فتود لو تحل محلها، وتبدى له من فنون التدلل ما تبديه النساء، فإذا بها صورة فاتنة رائعة قد تنسينا ما يمكن أن يتمخض عن موقفها هذا من عواقب خطيرة فيما بعد، ونسارع إلى

---

1. Ambivalent.

القول بأن الوالدين نفسيهما غالبًا ما يكون لهما أثر حاسم فى تأريث عقدة أوديب وإذكائها فى نفوس الأطفال باستسلامهما لما أشرنا إليه من جذب جنسى، وذلك فى الأسر التى تحتوى على أكثر من طفل واحد. فإذا بالأب يحبو ابنته الصغيرة بمودة ظاهرة، فى حين ينصب عطف الأم وحنانها بأسره على ولدها الصغير: بيد أن هذا العامل نفسه - على الرغم من أهميته وخطره - لايمكن أن يحتج به على الطبيعة التلقائية لعقدة أوديب فى الطفل، فإذا ما كبرت الأسرة وظهر فيها أطفال آخرون، تضخمت هذه العقدة وأمست «عقدة الأسرة» وهى عقدة يزكيها، هى الأخرى، ما يصيب الميول الأنانية للأطفال الأُوَل من أذى حين يولد لهم أخوة وأخوات جدد، فمن شأنها أن تستثير الكراهية والنفور من هؤلاء القادمين، ورغبة عارمة فى التخلص منهم.

بل إن الأطفال ليعبرون فى أغلب الأحيان، عن هذه العواطف البغيضة بأصرح مما يعبرون به عن العواطف التى تستفزها «العقدة الوالدية». فإن اتفق أن تحققت تلك الرغبة السيئة، وبادر الموت إلى الوليد الدخيل، كشف لنا التحليل فيما بعد عما كان لهذه الحادثة من دلالة وخطر فى نفس الطفل، وإن يكن قد نسيها نسياناً تاما إن الطفل حين يولد له أخ أو أخت فيصبح فى المقام الثانى من عناية أمه، ويكاد ينفصل عنها لأول مرة انفصالا تامًا، فإنه يعز عليه أن ينسى وأن يصفح عن هذا الهجران الذى يبث فى نفسه عواطف شبيهة بما يشعر به الكبار من تنغص ومرارة، وغالبًا ما يكون أساساً لنفور وصدد دائمين تجاه الأم.

وقد أسلفنا أن الاستطلاع الجنسى وكل ما ينجم عنه من عواقب يرتبط عادة بهذه الخبرات من حياة الطفل، على أن موقف الطفل من إخوته وأخواته الجدد تصيبه تغييرات على درجة بالغة من الأهمية كلما كبر هؤلاء. فقد يتخذ الولد أخته موضوعاً لحبه بدل أمه التى لم تبق على إخلاصها، أو يسابق عدة إخوة إلى كسب رضاء أخت صغيرة، فيدب بينهم تنافس عدائى ظاهر، يكون له أثر خطير فى حيواتهم المقبلة، وقد تتخذ الأخت الصغيرة أخاً أكبر بديلا عن أبيها، الذى لم يعد يعاملها بمثل ما كان يلقاها بها من مودة فى سنواتها الأولى، أو تتخذ أختها الصغرى بديلا عن الطفل «الذى كانت تصبو أن تظفر به من أبيها.

هذه بعض الوقائع، أستطيع أن أسرد لكم كثيرا من أمثالها تزودنا به الملاحظة المباشرة للأطفال، والتأويل المقسط لذكرياتهم الواضحة، التى لم يؤثر فيها التحليل أى

تأثير، وقد تخرجون من هذه الوقائع بنتائج كثيرة، منها أن مركز الطفل فى أسرته بين أخوته وأخواته له خطر كبير جداً وأثر عميق فى سير حياته المقبلة، فهو عامل يجب أن يوضع موضع اعتبار فى تاريخ حياة كل فرد، غير أن ما هو أهم من هذا بكثير، أننا حيال هذه الاعتبارات والتفسيرات التى نظفر بها دون جهد وعناء، لايسعنا إلا أن نبتسم متى ذكرنا ما بذله العلم من جهود، وما صاغه من نظريات علمية تعلل حظر مضاجعة المحارم..

لقد قيل إن اشتراك الأفراد فى العيش منذ الطفولة الباكرة من شأنه أن يصرف الشوق الجنسى للطفل عن أعضاء الجنس الآخر فى أسرته، كما قيل إن هناك نزعة بيولوجية إلى مجانبة الزواج بالقربى، وإن لهذه النزعة عدلُها النفسى فى ذلك الإستفظاع الفطرى للاتصال بالمحارم! ولئن صح أن الطبيعة قد أقامت تلك للسدود المنيعة العزيزة فى وجه إغراء المحارم، فعلام إذاً ذلك الحظر الصارم الذى يفرضه العرف والقانون؟.

الواقع أن الحق عكس هذ، فأول موضوع تتعلق به الرغبة الجنسية للإنسان، موضوع يتصل بمحارمه، ويتجه إلى الأم أو الأخت، ولكى لا يبلغ هذا الميل الطفلى ما ينزع إليه فيتحقق بالفعل، لا مفر من أن تقام دونه سيوج منيعة من الحظر والتحريم، ولنذكر أن الشعوب الهمجية والبدائية التى لاتزال تعيش إلى اليوم، تحيط تلك الفاحشة بضروب من التحريم أشد بأساً وصرامة مما تعهده الشعوب المتحضرة، وقد بين تيودور رايك Theodore Rike فى بحث بديع نشره حديثاً أن الحفلات الدينية التى يقيمها المتوحشون عند حلول سن البوغ، لتمثيل ولادة الفرد مرة أخرى تهدف إلى فصم ذلك التعلق المحرمى الذى يربط البالغ بأمه وإلى التوفيق بينه وبين أبيه.

وتعلمنا الأساطير أن مضاجعة المحارم على ما تثيره فى النفوس من مقت واستفظاع، شىء لم يتردد الناس فى إباحته لآلهتهم، كما يحدثنا التاريخ القديم أن الزواج بالأخت كان واجباً مقدساً على الملوك (فراعنة مصر وانكاس بيرون)[1]، فكان بذلك حكراً لهم لايباح لسائر الناس.

إن مضاجعة الأم كانت إحدى جريمتى أوديب، وكانت الأخرى قتل الأب، ولنشر عرضاً إلى أن هاتين الجريمتين هما أكبر ذنبين فى نظر «الطوطمية» ـ وهى أول نظام دينى اجتماعى عرفه الناس، فلننتقل الآن من الملاحظة المباشرة للأطفال إلى الفحص

---

(١) سلالة أمريكية جنوبية . «المترجم» .

التحليلى للعصابيين من الكبار الناضجين، لنرى ما يمكن أن يضيفه هذا الفحص إلى ماعرفتنا بعقدة أوديب. وإليكم ما وجدناه:

إن الفحص التحليلى يكشف عن هذه العقدة كما ترويها الأسطورة على وجه التحديد، ويبين لنا أن كل عصابى كان نفسه من طراز أوديب، أو أنه أصبح على شاكلة «هملت» فى استجابته لهذه العقدة ـ وكلا الأمرين يعنى الشىء نفسه، والحق أن صورة عقدة أوديب كما تبدو فى التحليل طبعة ثانية مكبرة للطبعة الطفلية التخطيطية: إذ تبدو فيها كراهية الأب والرغبة فى موته بصورة بارزة لابتلك الصورة الطفلية الشاحبة، كما تبدو فيها محبة الأم بصورة صرية تهدف إلى الاستحواز عليها كزوجة.

ترى أيجوز لنا أن ننسب هذه العواطف الفظة الغليظة إلى عهد الطفولة الرقيق، أم يضلنا التحليل إذ يقحم فى الموضوع عاملا جديداً؟.

لا يشق علينا فى الواقع أن نكشف عن عامل جديد، ذلك أن الإنسان كلما شرع يصف أحداثاً وقعت فى الماضى، فإنه يضفى على هذا الماضى، منغير قصد منه،ـ حتى إن كان مؤرخاً ـ أشياء تتصل بالحاضر أو بالفترة بين الماضى والحاضر، مما يزيف الماضى ويموه عليها، فلابد إذاً أن نضع هذه الإضافة والتحوير موضع اعتبار وأن نعمل لهما حساباً، بل يجوز لنا، فى حالة العصابى، أن نتساءل عما إذا كان هذا التخليط بين الماضى والحاضر تخليطاً غير مقصود إطلاقاً.

وسنرى فيما بعد أن هناك دوافع لهذا التخليط، كما سيتعين علينا أن نحيط بموضوع «التخيل الرجعى» الذى يتناول أحداث الماضى البعيد، كذلك لا يعز علينا أن نرى أن كراهية الأب تعزى إلى دوافع عدة تنشأ فى مراحل لاحقة وفى مناسبات أخرى، وأن الرغبات الجنسية التى تتجه إلى الأم تتخذ أشكالا غريبة عما كان يعهده الطفل. غير أننا لو حاولنا أن نفسر عقدة أوديب بأسرها عن طريق «التخيل الرجعى» والدوافع التى تنشأ فى مراحل لاحقة من حياة الطفل، لكانت محاولة عابثة، فالراشد العصابى يحتفظ بالنواة الطفلية لهذه العقدة مع بعض ما أضيفت إليها ولحق بها من إضافات ولواحق.. هذا ما تؤكده الملاحظة المباشرة للأطفال.

إن الوقائع الكلينيكية التى نلمسها وراء عقدة أوديب كما يصورها التحليل، وقائع على أكبر جانب من الأهمية العملية، فمما نعرفه أنه حين يحل وقت البلوغ، وتسلط الغريزة الجنسية مطالبها على الفرد بكل ما أوتيت من قوة لأول مرة، تأخذ الموضوعات القديمة، العائلية، والمحرمية، فى الظهور مرة أخرى وهى محونة بشحنة شهوية..

لقد كان اختيار الطفل «للموضوع» مغامرة أو تجربة ماجنة مخزية، إن صح التعبير، غير أنه رسم الاتجاه الذى يتخذه اختيار الموضوع وقت البلوغ. أما اليوم فتجيش العواطف جيشاناً شديداً حول عقدة أوديب، أوتكون رد فعل عليها، وبما أن السوابق النفسية لهذه العواطف قد أصبحت لا تحتمل ولا تطاق، فلابد أن يبقى أغلب العواطف بعيداً عن الشعور.

الحق أن الفرد ، ابتداء من سن البلوغ، يتعين عليه أن يكرس نفسه لعمل خطير هو **تحرير نفسه من والديه**. وإن طفولته لا تنتهى فيصبح عضواً فى الجماعة التى ينتمى إليها، إلا بعد أن يتم فصاله هذا، فأما الابن فختم عليه أن يفطم رغباته الشهوية عن أمه ليتجه بها إلى موضوع حب خارجى فى دنيا الواقع، كما يتعين عليه أن يعقد الصلح مع أبيه إن كان لايزال على موقفه العدائى منه ، أو أن يتحرر من تسلطه عليه إن كانت ثورته على أبيه فى عهد الطفولة قد انتهت باستسلامه وخضوعه له، هذا ما يتحتم على كل فرد أن يعمله، ومما هو حرى بالذكر إن هذه العمليات لا تتم على الوجه الأمثل إلا على قلة وندور، أى يندر أن تتم على وجه يبعث على الرضا من الناحيتين النفسية والاجتماعية، أما العصابيون فلا يفلحون فى هذا التحرر على أى وجه من الوجوه، إذ يظل الابن طول حياته خاضعاً لسيطرة أبيه، عاجزاً عن تحويل طاقته الجنسية (الليبدو) إلى موضوع جنسى جديد، والأمر عكس هذا فى حالة البنت. وبهذا المعنى يحق لنا أن نعتبر عقدة أوديب نواة الأمراض النفسية.

لعلكم لاحظتم أنى أمر مراً سريعًا على كثير من التفاصيل المهمة التى تتصل بعقدة أوديب، والتى لها خطر بالغ من الناحيتين النظرية والعملية، ولا أريد أن أمضى أكثر مما فعلت فى سرد ما يطرأ عليها من تغييرات، وما يمكن أن يصيبها من قلب وانتكاس، بل سأقتصر على الإشارة إلى أثر من آثارها غير المباشر، وهو أنها كانت مصدراً فياضاً للإنتاج الأدبى، وقد بيّن أوتو رانك فى مؤلف قيم جداً له أن الروائيين، فى كل العصور، قد استلهموا موضوعاتهم، فى المقاوم الأول من عقدة أوديب، وعقدة المحارم ومن صورهما المقنّعة..

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن جريمتى أوديب كان يعترف بأنهما المظهران الحقيقيان للحياة الغريزية الجامحة، من قبل عصر التحليل النفسى بزمن طويل، ففى الحوار الشهير الذى كتبه ديدرو Diderot ـ أحد رجال الموسوعة الفرنسية ـ وهو الحوار المعروف باسم «ابن أخ رامو»، وقد نقله إلى الألمانية «جوته» نفسه، نجد هذه الفقرة التى تسترعى النظر حقاً:

«لو أن المتوحش الصغير تُرك وشأنه» فاحتفظ بكل ما لديه من حمق وخرق، وجمع إلى قلة عقل الطفل فى مهده، عنف الشهوات التى تحرك الرجل فى الثلاثين من عمره، لحز عنق أبيه وضاجع أمه».

غير أن هناك شيئا آخر لا يسعنى أن أتجاوز عن ذكره .. لقد ذكرتنا الزوجة الأم لأوديب بالأحلام، وليست هذه الذكرى عبثًا وفى غير طائل، فلعلكم لاتزالون على ذكر من نتتج تحليلنا الأحلام، ومن أن الرغبات المثيرة لها كانت فى أغلب الأمر ذات طبيعة منحرفة محرمية، أو كانت تكشف عن عداء لا ريب فيه للأقارب والأعزاء، على أننا لما نفسر أصل هذه النزعات الشريرة الآثمة، أما الآن فيثب هذا التفسير إلى أعيننا من تلقاء نفسه .. فليست تلك النزعات إلا اتجاهات لليبدو وتحريفات لبعض موضوعاتها، ترجع بأسرها إلى عهد لطفولة الأولى، وقد اختفت من الشعور منذ زمن طويل، غير أنها لا تبرح تثبت وجودها أثناء النوم، وتدل على أنها قادرة على أن تحدث نوعاً من النشاط على وجه ما.

وبما أن الأحلام المنحرفة المحرمية الإجرامية من حظ الناس جميعاً، وليست وفقاً على العصابيين وحدهم، فنحن فى حل من أن نستنتج أن الأسوياء من الناس الذين ينعمون اليوم بصحة نفسية قد مروا، هم الآخرون، خلال الانحرافات التى توسم بها عقدة لنمو الطبيعى، إلا أن العصابيين يبدو لديهم بصورة بارزة مبكرة ما يكشفه لنا تحليل الأحلام أيضاً عند الأسوياء من الناس، وهذا سبب من الأسباب التى حملتنا على أن نتخذ من دراسة الأحلام مدخلا إلى دراسة الأعراض العصابية.

المحاضرة الثانية العشرون

مظاهر التطور والنكوص

اقتصاص الأسباب

عرفنا أن وظيفة اللبيدو تمر فى مراحل عدة، قبل أن يتسنى لها أن تخدم غرض الإنسال على الوجه الذى يعرف بالوجه السوى، وأريد أن أبيّن لكم اليوم دلالة هذه الواقعة فى تعليل الأمراض النفسية.

أعتقد أننى لا أجانب مذاهب علم الأمراض، إذا سلمت بأن تطور اللبيدو يخشى عليه من شيئين: **التعطل والنكوص**. وبعبارة أخرى، إذا راعينا نزعة العمليات البيولوجية إلى التغير بوجه عام، فمن الممكن أن يحدث ما يمنع أطوارها التمهيدية من أن تتابع تتابعًا مكتملاً صحيحًا لا تشويه شائبة، ومن ثم تتخلف بعض مكونات الوظيفة تخلفًا دائمًا عند أحد الأطوار الأولى، وبذا يقترن التطور العام بقدر معين من التوقف والتعطل.

ولنبحث عن أشباه لهذه الظاهرة من ميادين أخرى، ففى العصور الأولى من تاريخ الإنسان، كثيراً ما كانت العشائر تترك ديارها لتنتج بقعًا أخرى من الأرض، ومن المحقق أن العشيرة لم تكن تصل برمتها إلى المستراد الجديد، بل تتخلف مجموعات وزمر صغيرة منها فى الطريق، فتستقر فى نواح منه، على حين يمضى السواد الأعظم من العشيرة فى مسيره ـ هذا بغض النظر عما تفقده العشيرة لأسباب أخرى، بل هناك تشبيه أقرب من هذا: فالغدتان المنويتان عند الثدييات العليا توجدان أصلا فى أعماق التجويف البطنى ثم تأخذان فى التحرك ـ فى لحظة معينة من الحياة داخل الرحم ـ حتى تكادا تصلان إلى تحت الجلد من ظرف الحوض، غير أننا نجد، عند عدد من الذكور، أن أحد هذين العضوين قد بقى فى الحوض، أو أنه قد استقر استقراراً نهائيا فى القناة الأربية التى يجب أن تجتازها الغدتان فى الأحوال الطبيعية، أو نجد أن هذه القناة ظلت مفتوحة فى حين أنها يجب أن تغلق عادة بعد مرور الغدتين فيها.

وأذكر أنى يوم كنت طالبا ناشئًا، كان أول بحث علمى لى يشرف عليه «فون بروكه» V. Brücke، وكان يدور على أصل جذور الأعصاب الظهرية فى الحبل

الشوكى لسمكة صغيرة من طراز مايزال بدائيًا جدًا، لكنى ما لبثت أن اكتشفت أن هذه الخلايات العصبية توجد أيضًا خارج المادة السمراء، وتشغل كل الطريق الذى يمتد إلى ما نسميه بالعقدة الشوكية للجذور الخلفية، ومن ثَم استنتجت أن خلايا هذه العقدة قد هاجرت من الحبل الشوكي حتى استقرت على طول جذور الأعصاب، وهذا ما يؤكده تاريخ التطور أيضاً، على أن طريق الهجرة، فى تلك السمكة الصغيرة، كان مسوماً بخلايا توقفت فى مسيرها، لا يشق علينا إن أنعمنا النظر أن نرى نواحى الضعف فى هذ التشبيهات، لذا أقول لكم مباشرة أننا نعتبر أنه من الممكن أن تتخلف بعض العناصر المكونة لكل نزعة جنسية بمفردها، وتبقى عند مرحلة سابقة من التطور، فى حين تصل عناصر أخرى إلى غايتها النهائية، من هذا ترون أننا ننظر إلى كل من هذه النزعات كأنها تيار يتدفق دون انقطاع من بدء الحياة، ولئن قسمنا هذا التدفق أقساماً، موجات منفردة متلاحقة، فهو تقسيم اصطناعى إلى حد ما.

وإذا كنتم ترون أن هذه التطورات بها حاجة إلى مزيد من الإيضاح، فأنتم على حق فى هذا، لكنها محاولة تذهب بنا إلى أبعد مما يجب ،وحسبى أن أذكر أننا نسمى توقف النزعة الجزئية عند مرحلة مبكرة من التطور (أى تعطلها) **بالتثبيت** (أى بتثبيت النزعة).

أما الخطر الثانى الذى تعرض له التطور بالمراحل، فيتلخص فى ارتداد بعض العناصر الأمامية المتقدمة إلى الوراء ورجعتها إلى مراحل سابقة: وهذا ما نسميه بالنكوص، ويحدث النكوص متى ارتطمت النزعة، وهى فى إحدى المراحل المتقدمة، بعقبات خارجية كبيرة تحول بينها وبين تأدية وظيفتها، أى تحول بينها وبين أصول إلى هدفها، وهو الارتواء والإشباع، ولا يعز علينا أن نرى أن التثبيت والنكوص ليسا مستقلين أحدهما عن الآخر، فكلما كان التثبيت أثناء التطور قوياً، سهل على الوظيفة أن تستسلم للصعوبات الخاجية وأن تنكص على أعتابها إلى مواطن التثبيت، أى قلت مقاومتها للعقبات الخارجية التى تعترض سبيلها. فلو أن قافلة تخلف منها فى الطريق نفرٌ كثيرون، فاستقروا فى مراكز معينة منه، على حين مضى الباقون فاصطدموا فى سيرهم بـعدوٍ لا قبل لهم به أو انهزموا أمامه، فطبيعى أن يولوا الأدبار ليعتصموا بتلك المراكز، وكلما كثر عدد المتخلفين، زاد الاحتمال فى هزيمة المتقدمين.

ولتقر فى أذهانكم هذه الصلة بين التثبيت والنكوص، فلها أهمية بالغة فى فهم الأعراض النفسية، ذلك أنها نقطة ارتكاز مكينة لاقتصاص أسباب هذه الأمراض وتعليلها، وهذا ما سننظر فيه عما قليل.

ولنشغل أنفسنا برهة أخرى بموضوع النكوص.. إن ما سمعتموه عن تطور الليبيدو من شأنه أن يجعلكم ترقبون أن يكون النكوص على نوعين: ارتداد إلى الموضوعات الأولى التى تتعلق بها الليبيدو والتى تعرفون أنها ذات طابع محرمى، وارتداد التنظيم الجنسى بأسره إلى أطوار سابقة، الواقع أننا نلحظ هذين النوعين فى الأمراض النفسية الطرحية، وهما يقومان بدور كبير فى كيفية تكونها، أما الارتداد إلى الموضوعات الأولى لليبيدو فهو على التخصيص ما نلتقى به فى إطرادٍ مليل عند العصابيين، وفى وسعنا أن نقول أكثر من هذا بكثير عن نكوصً الليبيدو، إذا نحن تناولنا طائفة أخرى من الأراض النفسية هى الأعصبة النرجسية لكنا لانريد أن نشغل بها أنفسنا فى هذا المكان.

ذلك أن هذه الطائفة من الأمراض تكشف لنا عن أساليب أخرى لتطور الليبيدو، لم نذكرها بعد، كما تبين لنا أيضاً طرزاً جديدة من النكوص، ويتعين علىّ الآن أن أحذركم من أن تلبسوا النكوص بالكبت، وأن أعينكم على أن تكونوا لأنفسكم فكرة واضحة عن الصلة بين هاتين العمليتين، **فالكبت**، كما تذكرون،هو العملية التى يكره بها فعل نفسى يملك أن يصبح شعورياً (أى فعل ينتمى إلى النظام القبشعورى) على التراجع إلى النظام اللاشعورى، كما يطلق اصطلاح **الكبت** أيضاً حين لا يسمح للفعل النفس اللاشعورى أن يلج النظام القبشعورى المجاور له على الإطلاق، بأن يرده الرقيب على عقبيه عند العتبة الفاصلة بينهما، وبذا لا يكون هناك ارتباط بين مفهوم **الكبت** ومفهوم الجنسية ـ فأرجو أن تقر هذه الحقيقة بوجه خاص فى أذهانكم، وبعبارة أخرى فالكبت عملية نفسية صرفة، قد يكون من الخير أن نصفها وصفاً **طبوغرافياً**، أى أن نحدد موضعها من العلاقات المكانية التى افترضناها فى النفس. وإن شئنا ألا نأخذ بها التشبيه الساذج، قلنا إن الكبت عملية تنشأ من أن الجهاز النفسى مكوّن من عدة أنظمة متميزة.

يتضح لنا أن من المقارنة السالفة أننا لم نكن نستخدم اصطلاح **النكوص** إلى الآن بمعناه العام بمعنى خاص غاية فى التخصيص، ولو أنكم أخذتموه بمعناه العام، وهو الارتداد من مرحلة عليا إلى مرحلة دنيا من التطور، لكان الكبت نكوصاً كذلك،

لأنه رجعة إلى مرحلة دنيا سابقة فى تطور الفعل النفسى غير أننا حين نتكلم عن الكبت، لايهمنا هذا الاتجاه التراجعى فى شىء، لأننا نستخدم اصطلاح الكبت أيضاً بالمعنى الديناميكى، أى حين يعتقل الفعل النفسى قبل أن يترك المرحلة الدنيا وهى اللاشعور، وهكذا يكون الكبت تصوراً طبوغرافيا وديناميكيا، فى حين أن النكوص تصور وصفى محض، أما ما كنا نسميه بالنكوص حتى الآن، ونصل بينه وبين التثبيت، فلم يكن يعنى إلا تراجع اللبيدو إلى مراحل سابقة من تطورها، أى إنه كان يفيد شيئا يختلف اختلافا جوهريا عن الكبت، كما أنه مستقل عنه الاستقلال كله، بل لا نستطيع أن تقرر أن نكوص اللبيدو عملية سيكولوجية محضة، وليس فى مقدورنا أن نحدد لها موضعا فى الجهاز النفسى. فهو وإن كان يؤثر فى الحياة النفسية تأثيراً بالغا عميقاً، إلا أن العامل العضوى هو الغالب فيه.

لاشك أن أمثال هذه المناقشات تلوح لكم جافة جدباء، فلنتجه إلى وسائل الإيضاح الكلينيكية لينجلى لنا ما نقول. تعرفون أنالهستريا والحواز هما الممثلان الرئيسيان لطائفة الأعصبة الطرحية، ففى الهستريا تنكص اللبيدو إلى الموضوعات الجنسية الأولى ذات الطابع المحرمى، ولا ريب فى أن هذا النوع من النكوص مطرد فى كل مرحلة من حالاتها، غير أننا لانلحظ فيها - أو لانكاد نلحظ - نكوصاً إلى طور سابق من التنظيم الجنسى.

ومن ثم فالكبت هو ما يقوم بالدور الرئيسى فى كيفية تكونها، ورذا أذنتم لى فى أن أعرض عليكم المعلومات اليقينية التى ظفرنا بها عن هذا العصاب حتى الآن، وصفت لكم الموقف كما يلى:

يتم التحام النزعات الجزئية بزعامة الأعضاء التناسلية، غير أننا نجد أن نتائج هذا الالتحام تصطدم بمقاومة النظام القبشعورى المرتبط بالشعور، وعلى هذا يكون التنظيم التناسلى لابأس به من وجهة نظر اللاشعور، لكنه لايستقيم فى نظر القبشعور، ومن هنا تنشأ صورة تشبه، من بعض الوجوه، الحالة السابقة لزعامة الأعضاء التناسلية، لكنها تختلف عنها بالفعل كل الاختلاف..

إن نكوص اللبيدو إلى طور سابق من التنظيم الجنسى، وهو أظهر نوعى النكوص، وأكثرهما استرعاء للانتباه. لكننا لا نجد له أثراً فى الهستريا، وبما أن نظرتنا إلى الأمراض النفسية لاتزال بأسرها متأثرة إلى حد بعيد بدراسة الهستريا - التى كانت سابقة لهذه النظرة - لم تظهر لنا أهمية نكوص اللبيدو، إلا بعد أن عرفنا أهمية الكبت بزمن طويل.

ونحن على يقين أن وجهات نظرنا هذه سوف يتناولها من التحوير والبسط الشيء الكثير، يوم ننظر فى الأعصبة النرجسية بالإضافة إلى الهستريا والحواز. أما فى العصاب الحوازى، فتنكص الليبيدو إلى طور التنظيم الشرجى السادى. وهذا النكوص أظهر عامل فى خلق هذا العصاب. وهو الذى يعين الشكل الذى تتخذه الأعراض، فلابد إذاً أن تبدو نزعة الحب مقنّعة فى زى نزعة سادية فالفكرة المستحوذة التى فحواها «أريد أن أقتلك» تعنى فى باطن الأمر (حين تنتزع منها بعض العناصر الزائدة التى لايتكون مع هذا عارضة بل لازم لها) «أريد أن أنعم بمحبتك». فإذا فرضنا علاوة على هذا أن حدث فى الوقت نفسه نكوص إلى الموضوعات الأولى؛ بحيث لاتنصب هذه النزعة إلا على أقرب الأشخاص وأحبهم إلى الطفل، تسنى لنا أن نكون فكرة عن الذعر الذى تستثيره هذه الأفكار المستحوذ، فى نفس المريض، تلك الأفكار التى تبدو فى نظر شعوره غريبة عنه كل الغرابة، فلا يستطيع أن يجد لها تعليلا.

على أن الكبت يقوم هو الآخر بدور مهم فى هذا العصاب، وهو دور ليس من اليسير تحديده فى عجالة كهذه، إن نكوص اللبيدو إن لم يقترن بالكبت فلن يؤدى البتة إلى مرض نفسى بل إلى انحراف جنسى، من هذا نرى أن الكبت هو العملية التى تختص بها الأمراض النفسية والتى تتميز بها خير تمييز، وربما عرضت لى فرصة أشرح لكم فيها ما نعرفه عن كيفية تكون الانحرافات الجنسية، فسترون عندئذ أن الأمور تجرى على أوجه أصعب بكثير مما نتصور.

أظن أنكم لن تلبثوا أن ترضوا عما قدمت لكم عن تثبيت اللبيدو ونكوصها لو أنكم اعتبرتموه تمهيداً لدراسة أسباب الأمراض النفسية، أما هذا الموضوع الأخير فلم أذكر عنه إلى الآن إلا شيئا واحداً، هو أن الناس تصيبهم الأمراض النفسية متى حيل بينهم وبين إشباع اللبيدو ـ أى إنهم يصبحون مرضى من جراء الزمت[1] كما أسميته من قبل، وما الأعراض إلا بدائل فعلية عن الإشباع المفتقد.

وهذا لا يفيد بطبيعة الحال أن كل زمت لإشباع اللبيدو ويسلم بالفرد إلى المرض النفسى، بل لايزيد على أن يعنى أن عامل الزمت ظاهر فى كل حالة من حالات العصاب التى فحصت، أى إن عكس هذه العبارة غير صحيح، ولاشك أنكم أدركتم

(١) Frustration الزمت فى اللغة هو التضييق والحنق، لذا فهو يحمل معنى الحرمان وحبوط المسعى وما يمنى به الفرد من إخفاق وفشل «المترجم».

أنى لم أرد بهذه العبارة أن أكثر عن كل الأسرار التى ينطوى عليها تعليل الأمراض النفسية، بل أردت أن أؤكد بها شرطا من الشروط الضرورية المهمة لهذه الأمراض.

ولو أردنا أن نمضى فى مناقشة هذه العبارة، فإنا لاندرى أنؤكد طبيعة الزمت ونجعل لها مركز الصدارة، أم خلق الشخص المزموت، وطابعه الخاص؟

ذلك أن الزمت لايكون تامًا مطلقًا إلا فى أحوال نادرة جداً. ولكى يكون مصدراً للمرض، لابد أن يتناول الشكل الوحيد من الإشباع الذى يتطلبه الفرد، الشكل الوحيد الذى يقدر عليه، وثمة طرق شتى يستطيع بها الفرد، فى العادة، أن يحتمل أثر الزمت دون أن يقع صريع المرض. فنحن نعرف أناسًا فى وسعهم أن يطيقوا مثل هذا الزمت دون أن يكون لهم منه أذى كبير، صحيح أنهم ليسوا سعداء، فهم يكابدون أثر رغباتهم المصدودة، لكنهم لا يصبحون مرضى.

لذا يتعين علينا أن نخرج من هذا بأن النزعات الجنسية على درجة خارقة للعادة من «اللدونة» إن صح هذا التعبير، تستطيع الواحدة منها أن تنوب عن الأخرى، فإن حرمت إحداها من الإشباع فى الواقع، قامت أخرى تعوض هذا الحرمان تعويضاً تاماً. كما أنها يرتبط بعضها ببعض كأنها شبكة من قنوات متصلة مملوءة بالماء، وذلك على الرغم من خضوعها لزعامة الأعضاء التناسلية، وهاتان خاصتان ليس من اليسير تصويرهما والتوفيق بينهما، يضاف إلى هذا أن النزعات الجزئية للغريزة الجنسية، كالغريزة الجنسية المتكاملة التى تشملها جميعاً، قادرة على تغيير موضوعها، أى على الاستعاضة عنه بآخر أسهل منه منالا ـ ومن شأن هذا الخاصة أن تقاوم الأثر المرضى للزمت والحرمان..

ومن بين العوامل التى تقى الفرد من التأثير السيئ للزمت، ثمة عامل قد اكتسب أهمية اجتماعية خاصة فى نمو الحضارة وتقدمها، ويتلخص فى انصراف النزعة الجنسية عن التماس اللذة الجزئية أو اللذة التى تجليها عملية الإنسال، وإبدالهما بهدف آخر بينه وبين الهدف الأول صلات تكوينية[1] لكنه لم يعد ذا طابع جنسى، بل أصبح ذات طابع اجتماعى ـ هذا هو عامل الإعلاء كما نسميه، وعلى هذا نكون قد اتفقنا مع الرأى العام الذى يضفى على الأهداف الاجتماعية قيمة أسمى من الأهداف الجنسية

1. genetic .

التى هى فى باطن الأمر أهداف أنانية، ونشير عرضاً إلى أن الإعلاء لايعدو أن يكون حالة خاصة من ارتباط النزعات الجنسية بأخرى لاجنسية. وستتاح لنا فرصة نناقش فيها هذا الموضوع مرة أخرى.

لاشك أنكم تميلون الآن إلى الظن بأن هذه الوسائل الكثيرة التى يحتمل بها الفرد الزمت، و«الخيبة»، من شأنها أن تقلل من خطره حتى لتجعله كمًا مهملا، لكن الواقع غير هذا، فالزمت يحتفظ بكل ما له من قوة مسببة للمرض، وليست تلك الوسائل التى تطامن من خطره بكافية دائمًا، فالشخص المتوسط لايستطيع أن يحتمل الزمت والحرمان إلا بمقدار، كما أن مرونة اللبيدو وقابيلتها للتنقل هيهات أن تكونا مكتملتين عند كل الناس، ثم إن الإعلاء لا يستطيع أن يتصرف إلا فى جزء معين من اللبيدو، هذا إلى أن القدرة على الإعلاء طفيفة يسيرة عند كثير من الناس.

وواضح أن أهم هذه القيود ما يتصل بقابلية اللبيدو للتنقل؛ لأنها تقصر الفرد على بلوغ عدد قليل جداً من الأهداف والتعلق بعدد زهيد من الموضوعات. وحسبكم أن تذكروا أن التطور غير المكتمل للبيدو يترك وراءه مواطن تثبيت عديدة منوعة عند أطوار سابقة من التنظيم وعند موضوعات سابقة، وهى أطوار وموضوعات لا تستطيع أن تظفر بإشباع واقعى فى أغلب الأحوال، بحسبكم أن تذكروا هذا لتعرفوا أن تثبيت اللبيدو هو أقوى عامل ـ بعد الزمت ـ فى تسبيب المرض، ونستطيع أن نعبر عن هذا بصورة موجزة فنقول إن تثبيت اللبيدو هو العامل الداخلى المهيئ للأمراض النفسية وأن الزمت هو العامل الخارجى العارض.

وأنتهز هذه الفرصة لأحذركم من إقحام أنفسكم فى جدل سطحى ضحل: فقد جرت العادة فى تناول المسائل العلمية أن يمسك الناس بجانب من الحق، ويعلنون أنه الحق كله، ثم يدحضون ما بقى من الحق ليستقيم الجانب الذى يتشبثون به. على هذا النحو انسلخت من حركة التحليل النفسى تيارات عدة، ينكر بعضها النزعات الجنسية ولا يرى غير النزعات الأنانية، فى حين لا يرى آخر غير تأثير التكاليف التى تفرضها الحياة الواقعية، وينكر تأثير الحياة الماضية للفرد إنكاراً تاماً، إلى غير تلك.

وها نحن أولاء بإزاء إحدى هذه المسائل الخلافية التى تثير الجدل: هل تنشأ الأمراض النفسية من داخل أو من خارج ـ هل هى نتيجة ضرورية لجبلة[1] معينة، أم

---

1. Constitution.

أنها نتاج صدمات تبهظ حياة الفرد؟ وهل هى على وجه التخصيص مما يستثيره تثبيت الليبيدو (وخصائص أخرى للجبلة الجنسى) أم مما تحدثه مضاضة الزمت والحرمان؟.

عندى أن هذه المسألة لا تقل إشكالا عن مسألة أخرى هى: هل يخلق الطفل نتيجة لفعل الأب أو لحمل الأم؟ ستقولون بحق إنهما شرطان ضروريان لا غنى عنهما، كذلك الحال فى الأمراض النفسية، فشروطها شبيهة كل الشبه بهذين الشرطين، إن لم تكن مطابقة لهما كل المطابقة. فالأمراض النفسية، من ناحية أسبابها، تترامى بين طرفي سلسلة يمثل عليها عاملان: الجبلة الجنسية والأحداث التى يمر بها الفرد، وبعبارة أخرى تثبيت الليبيدو والزمت، بحيث إذا غلب أحدهما وزاد مقداره، نقص الآخر بالنسبة نفسها، ففى أحد طرفى السلسلة، تقع الحالات المتطرفة التى نستطيع أن نقول عن أصحابها أنهم يسقطون فريسة للمرض مهما ترفقت بهم الحوادث وتلطفت بهم الحياة، لأن الليبيدو تطورت لديهم تطورا شاذاً، وفى الطرف الآخر تقع الحالات التى نستطيع أن نقول عن أصحابها إنهم كانوا لا شك يفلتون من ربقة المرض لو لم يهدهم هذا العبء أو ذاك.

أما الحالات الوسطى من السلسلة فيختلط فيها قدر كبير من العامل المهيئ (الجبلة الجنسية) بقدر متفاوت من أحداث الحياة وتكاليفها المؤذية. فالجبلة الجنسية فى هؤلاء لم تكن لتسلم بهم إلى العصاب من دون ما كابدوه من عنت وأحداث مضنية، وهذه الأحداث لم تكن لتفعل فى نفوسهم فعل الصدمات، لو كانت ظروف الليبيدو عندهم غير ما هى عليه، وربما استطعت أن أسلم ببعض العلية المهيئ فى هذه السلسلة، غير أن هذا التسليم مرتهن بالحدود التى ترسمونها للاختلال العصبى.

وأقترح أن نسمى أمثال هذه السلسلة **بسلاسل التتام**، وأقول لكم سبقاً أننا سنلتقى فيما بعد بسلاسل أخرى من هذا النوع.

إن تشبث الليبيدو باتجاهات خاصة وموضوعات معينة، أو **لزوجتها**[1] إن صح التعبير، تلوح كأنها عامل مستقل يختلف من فرد لآخر، وهو عامل لانزال نجهل أسبابه جهلا تاماً، ولئن تعين علينا ألا نغض من شأن هذا العامل فى تعليل الأمراض النفسية، فيجب ألا نغلو كذلك فى تقدير صلته الوثيقة بأسباب هذه الأمراض، نحن

1.Abhesiveness.

نلحظ مثل هذه «اللزوجة» المجهولة الأسباب عند الأسوياء من الناس فى ظروف كثيرة، كما نجد أنها العامل الحاسم عند ذوى الإنحرافات الجنسية، وهم نقائض العصابيين بمعنى ما، وقد كان من المعروف قبل عصر التحليل النفسى أن استعراض تاريخ المنحرفين يكشف غالبًا عن انطباع قديم جدًا، خلفه توجيه شاذ للغريزة أو اختيار شاذ للموضوع، قد تشبثت به لبيدو المنحرف من ذلك الحين طيلة حياته (Bi-net) .

ومن الصعب فى كثير من الأحيان أن نقول شيئًا عما مكّن لهذا الانطباع من اجتذاب اللبيدو وبمثل هذه القوة العارمة، وإليكم بهذا الصدد حالة من هذا النوع شاهدتها بنفسى: تلك قصة رجل لم يعد يكترث لأعضاء المرأة التناسلية ولا لمفاتنها الأخرى، لكنه يحس مع هذا باهتياج جنسى لا يقاوم متى رأى قدمًا محذوة بشكل معين. وهو يذكر حادثة وقعت له عندما كان فى السادسة من عمره، فكان لها أثر حاسم فى تثبيت اللبيدو عنده.

لقد كان يجلس على كرسى إلى جوار مربيته التى كان عليها أن تعطيه درساً فى الإنجليزية، وكانت عانسًا جدباء ساذجة ذات عينين زرقاوين دامعتين وأنف أفطس، وقد كانت قدمها تؤلهما فى ذلك اليوم فوضعتها فى خف من المخمل ومدتها على وسادة، أما ساقها فكانت مستورة بطريقة محتشمة لا لوم عليها، فلما أدرك الحلّم وهمّ بمحاولة مستخزية لتصريف جنسى سوى، رأى أن موضوعه الجنسى الوحيد قد أصبح بعد هذه الحادثة قدمًا هزلة مسمورة كقدم مربيته، فإذا أضيفت إلى القدم ملامح أخرى تذكره بطراز مربيته الإنجليزية، اهتاج اهتياجا لا حيلة له فيه، هذا التثبيت للبيدو لم يجعل من صاحبنا عصابيا با منحرفا، فقد أصبح «عبّاد»[1] قدم كما تسميه.

من هذا ترون أن التثبيت المفرط ـ المبكر بالإضافة إلى ذلك ـ وإن كان شرطا ضروريا فى تسبيب الأمراض النفسية، غير أن أثره يتجاوز نطاق هذه الأمراض، ومن ثم لا يكون لهذا الشرط فى ذاته أثر حاسم قاطع، شأنه فى ذلك شأن «الزمت» الذى تكلمنا عنه من قبل.

وهكذا يبدو أن مشكلة الأسباب التى تسلم إلى الأمراض النفسية، قد أصبحت أكثر تشابكا وتعقيداً. الواقع أن الفحص التحليلى النفسى يكشف لنا عن عامل جديد لم يظهر

---

(١) Fetichist من هذا ما يقال فى اللغة الدارجة إن فلانا قد أصبح «عباد أثر» «المترجم».

في سلسلة الأسباب التي قدمنا، وهو عامل يبدو على درجة تامة من الوضوح عند من يصيبهم المرض على حين فجأة وهم في تمام الصحة. فنحن نجد عند هؤلاء أبداً أمارات على رغبات متعاندة متعارضة أو على **صراع نفسي**، كما نقول. إذ يقف شطر من الشخصية إلى جانب رغبات معينة، في حين يتربص بها شطر آخر، ويرفضها، وليس ثمة دون صراع من هذا النوع، على أن هذا لا يبدو مستغربا، فنحن نعرف أن الحياة النفسية لكل فرد منا تهزها على الدوام أصرعة يجب أن تحل وتحسم، فلابد أن تكون هناك شروط معينة تجعل مثل هذا الصراع مصدراً للمرض، ولنا أن نتساءل عن هذه الشروط، وعن القوى النفسية التي تشترك في هذه الأصرعة المولدة للمرض، وعن الصلة بين الصراع وبين العوامل العليّة الأخرى.

أرجو أن أوفّق إلى الإجابة عن هذه الأسئلة بصورة تبعث على الرضا ،وإن تكن موجزة تخطيطية، إن الصراع ينجم عن الزمت والحرمان، فاللبيدو التي يحال بينها وبين الإشباع السوي، ترغم على التماس موضوعات أخرى ومسالك أخرى، ومن شروط الصراع أن تقابل هذه الموضوعات والمسالك بالاستنكار والرفض من أحد جوانب الشخصية: فينتج عن هذا نوع من «الفيتو» (حق الرفض والاعتراض) يجعل طريقة الإشباع الجديدة، في أول الأمر، شيئا مستحيلا، هذه نقطة البدء في تكون الأعراض، وسنتأثره فيما بعد.

أما النزعات اللبيدو المحظورة فتسعى إلى الإفصاح عن نفسها بطريقة ملتوية، غير أن هذا لايتم لها إلا إذا دفعت ضريبة «للعامل» الذي يحظرها، وتنازلت عن بعض مطالبها فبدت في صور محروفة متنكرة، هذه الطرق الملتوية هي طرق تكون الأعراض: فالأعراض هي مظاهر الاشباع الجديدة أو البديلة التي يحتمها الزمت والحرمان.

على أننا نستطيع أن نجلو أهمية الصراع النفسي بطريقة أخرى، فنقول: «لكي يكون الزمت الخارجي مصدراً للمرض، لابد أن يضاف إليه زمت داخلي. وغني عن البيان أن الزمت الخارجي يختلف عن الزمت الداخلي من حيث الموضوعات التي ينصب عليها والسبل التي يسلكها، فالزمت الخارجي يستبعد إحدى إمكانات الإشباع، والزمت الداخلي يعمل على إقصاء أخرى، وهذه الإمكانة الثانية هي التي تصبح محط النزاع ومحور الصراع، وقد آثرت أن أستعرض الموضوع على هذا النحو؛ لأنه ينطوي على أمر مضمر: فهو يتضمن أن الدوافع الداخلية نشأت أصلا من عقبات خارجية واقعية في المراحل البدائية من ترقي الإنسان.

لكن ما تلك القوى التى تفرض الحظر على النزعات اللبيدية، وما الطرف الآخر فى الصرع الباعث على المرض؟ لو أردنا أن نعبر عن ذلك بصوة عامة جداً، قلنا إنها النزعات غير الجنسية، التى نطلق على مجموعها اسم **نزعات الأنا**، وإن تحليل الأمراض النفسية الطرحية لايتيح لنا فرصة كافية لتقصى هذه النزعات والاستزادة من تمحيصها، وكل ما فى الأمر أننا عرفنا شيئا عنها من المقاومات التى تعترض التحليل، فالصراع الذى يولد المرض، إذاً، هو صراع بين نزعات الأنا والنزعات الجنسية، ويلوح لنا فى بعض الحالات أننا بصدد صراع بين نزعات جنسية محضة، غير أن هذا لايتنافى فى حقيقة الأمر مع ما نقول، لأن إحدى النزعتين الجنسيتين المتصارعتين تكون ملتئمة أبداً من الأنا «متناغمة» معه، فى حين تستثير الأخرى منه احتجاجا، وهذا يعود بنا إلى صراع بين الأنا والجمسية.

لقد كان التحليل النفسى يقابل بعاصف النقد كلما نظر إلى حدث نفسى على أنه نتيجة لنزعات جنسية وتعبير عنها، وكان يعترض عليها بأن الحياة النفسية تنطوى على نزعات وميول أخرى غيرر النزعات والميول الجنسية، فلا ينبغى أن نشتق «كل شىء» من الجنسية ... إلى غير ذلك..

والحق أن لا شىء أدعى إلى الغبطة من أن يرى المرء نفسه على وفاق مع خصومه ولو مرة واحدة، إن التحليل النفسى لم يغفل قط عن وجود نزعات غير جنسية، وقد أقام صرحه على التمييز الحاسم بين النزعات الجنسية ونزعات الأنا، هذا إلى أنه لم ينتظر اعتراض المعترضين ليؤكد ويصر على أن الأمراض النفسية ليست **نتيجة** للجنسية، بل نتيجة **لصراع** بين الأنا والجنسية. وليس لديه دافع معقول يحمله على أن ينكر وجود نزعات الأنا أو خطر عندما يبحث فى الدور الذى تقوم به النزعات الجنسية فى استحداث المرض وفى الحياة بوجه عام، ولئن كان التحليل النفسى قد شغل نفسه قبل كل شىء بالنزعات الجنسية واهتم لها، فذلك أنه أظهر ما يتمخض عنه البحث فى الأمراض النفسية الطرحية، ومن ثم فقد تعين عليه أن يهتم بما غفل عنه الآخرون.

كذلك ليس من حق أن يقال إن التحليل النفسى لم يكترث قط للجانب الجنسى من الشخصية.. فقد ميزنا بين الأنا والجنسية، وبين لنا هذا التمييز بعينه، فى وضوح خاص، أن نزعات الأنا تتطور هى الأخرى تطوراً مهماً، وأن هذا التطور ليس مستقلا تمام الاستقلال عن تطور اللبيدو، وليس يحدث دون تأثير فيه، والحق أن ما نعرفه عن

تطور الأنا يقل فى الكثير عما نعرفه عن تطور الليبيدو؛ لأننا لم نطمع فى الاستبصار ببناء الأنا إلا بعد دراسة الأمراض النفسية النرجسية، ومع هذا فثمة محاولة مشهورة قام به «فرنزوي» Ferenczi[1] لتحديد مراحل تطور الأنا من الناحية النظرية، ولدنا على الأقل نقطتا ارتكاز مكينتين للحكم على هذا التطور، على أننا لا نظن إطلاقًا أن اهتمامات[2] الليبيدو تتعارض، فى أول الأمر مع اهتمامات حفظ الذات، بل الأدنى إلى الصواب أن نقول إن الأنا يعمل، فى كل مرحلة من مراحل تطوره، على أن ينسجم مع المرحلة المناظرة من التنظيم الجسى وعلى أن يوائم نفسه لها.

ومن المحتمل أن تتابع المراحل المختلفة فى تطور الليبيدو يسير وفق خطة مرسومة من قبل، ومع هذا فلا نزاع فى أن هذا التتابع قد خضع لتأثير الأنا، كذلك نستطيع أن نفترض أن هناك نوعًا من التوازى والتناظر بين مراحل تطور الأنا ومراحل تطور الليبيدو، وأن الاضطراب فى هذا التناظر قد يصبح عاملا مسببًا للمرض. وأهم من هذا أن نعرف كيف تتصرف الأنا حين يحدث لليبيدو تثبيت قوى عند مرحلة مبكرة من تطورها، إن الأنا قد يسلك فى هذه الحال أحد سبيلين، أو يصبح طفليًا ـ وكلاهما شىء واحد. وإما أن ينفر من التثبيت ويثور عليه، فينجم عن هذا أن يقوم بعملية **كبت** فى المكان الذى حدث فيه **تثبيت** الليبيدو.

وهكذا نصل إلى نتيجة تزيد من معرفتنا بتعليل الأمراض النفسية: فالعامل العلّى الثالث لهذه الأمراض؛ وهو **القابلية للصراع** يتوقف على تطور الأنا بقدر ما يتوقف على تطور الليبيدو، وعلى هذا يكون الشرط العام لإحداث هذه الأمراض هو الزمت والحرمان، يأتى بعد ذلك تثبيت الليبيدو الذى يقسرها على اتخاذ سبل خاصة، أما الشرط الثالث فهو القابلية للصراع، وينجم عن تطور الأنا وإنكاره تلك النزعات الليبيدية الخاصة، فالموقف إذاً ليس من الغموض والتعقيد ما بدا لكم من دون شك خلال استعراضى له.. والحق أننا لم نقل كل شىء عن الموضوع، ولايزال علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا شيئا جديداً، ونتعمق تحليل أشياء نعرفها من قبل.

---

1. Ferenczi: «Contrbutions to Psycho-analysis» English transiation by Earnest Jones 1916 ch. VIII P. 181
2. Interests

لكى أبين لكم أثر تطور الأنا فى تهيئة الفرد للصراع، ومن ثم فى تسبيب العصاب، سأضرب لكم مثلا خيالياً لكنه غير بعيد الاحتمال بأية حال، وسأطلق عليه عنوان تمثيلية «نسترى» المضحكة: «فى الطابق الأرضى وفى الطابق الأولى»:

أما الطابق الأرضى فيسكنه البواب، فى حين يسكن صاحب البيت فى الطابق الأول، وهو رجل ثرى محترم، ولكل من الرجلين أطفال، ولنفرض أن ابنة صاحب البيت الصغيرة يباح لها أن تلعب على سجيتها مع طفلة البواب، دون رقابة، فمن الميسور حينئذ أن يتخذ لعب الطفلتين شكلا «غير لائق»، أى شكلا جنسيا: فتلعبان لعبة «العريس والعروس» أو تختلس إحداهما النظر إلى الأخرى وهى تقوم بأفعال حميمة، أوتقوم إحداهما بتهييج الأعضاء التناسلية للأخرى، ومن المحتمل أن تكون ابنة البواب قد أتيحت لها فرص اطلعت فيها على بعض مظاهر النشاط الجنسى عند الكبار؛ مما يجعلها أدنى إلى تمثيل دور المغرية فى اللعب، على أن هذه الألوان من «العبث» - حتى إن لم تدم غير فترة قصيرة - تكفى لإثارة نزعات جنسية معينة عند الطفلتين، تفصح عن نفسها فى صورة استمناء خلال بضع سنوات بعد الانصراف عنها، هذا ما تشترك فيه الطفلتان معا.

أما النتيجة النهائية فتختلف بينهما اختلافا كبيراً، فسوف تمضى ابنة البواب فى ممارسة الاستمناء ربما بعد ظهور الطمث، ثم تنصرف عنه فى غير عناء، وسوف تقع على حبيب بعد هذا ببضع سنين، وقد تنجب طفلا، وتمتهن مهنة ما، وربما أصبحت ممثلة شهيرة وانتهى بها المطاف أن تكون من زمرة الأرستقراطيين، أو يكون مصيرها دون ذلك ظهوراً أو بروزاً، غير أنها لن يصيبها أذى من نشاطها الجنسى الباكر، وستقضى بقية حياتها بمنجاة من العصاب.

أما مصير ابنة صاحب البيت فيختلف عن هذا الاختلاف كله، إذ سرعان ما يستولى عليها - وهى ماتزال طفلة شعور بأنها ترتكب إثمًا، فلا تلبث أن تصد عن التماس اللذة من الاستمناء بعد كفاح نفسى قد يكون عنيفاً، غير أن هذا لا يعفيها من شعور داخلى بالانقباض والانهباط، حتى إذا ما أصبحت فتاة وكان عليها أن تلم بشىء عن الصلات الجنسية الحميمة، أعرضت عن ذلك فى ذعر لا تستطيع تفسيره، وآثرت أن تظل على جهلها، وأكبر الظن أن تعاودها فى هذا العهد دفعة لا تقاوم إلى ممارسة الاستمناء دون أن تجرؤ على أن تبوح بها لأحد، فإذا بلغت السن التى تبدأ الفتيات فيها

بالتفكير فى الزواج، أضحت فريسة للمرض النفسى، يخلف ظنها فى الزواج ويسلبها متعة الحياة، ولئن مكننا التحليل من النفاذ فى أصل هذا العصاب، رأينا أن هذه الفتاة الذكية المهذبة المثالية قد كتبت رغباتها الجنسية كبتًا تاماً، وأن هذه الرغبات التى لاتفطن إلى وجودها تتصل بتلك الألعاب الشيطانية التى كانت تلعبها مع صديقة الطفولة.

إن الاختلاف بين مصيرى هاتين الطفلتين، علي الرغم من اشتراكهما فى الخبرات الأولى نفسها، يرجع إلى أن الأنا عند إحداهما قدر له أن يتطور تطوراً يغاير تطوره عند الأخرى، فالنشاط الجنسى يبدو لابنة البواب فى مستقبل حياتها شيئا طبيعياً لاضرر منه، كما كان يبدو لها فى طفولتها، أما ابنة صاحب البيت فقد أنشئت تنشئة «حسنة»، وامتثلت لتأثير التهذيب ومتطلباته، ومن ثم خلق أناها لنفسه مثلا بطهر المرأة وعفافها تتنافى مع الأفعال الجنسية، كما أن تربيتها العقلية جعلتها تغض من شأن الدور الذى يتعين عليها أن تقوم به بوصفها أنثى، فهذا النمو العقلى والخلقى الرفيع الذى مرّ به الأنا جعلها فى صراع مع متطلبات غريزتها الجنسية.

سأحاول بعد هذا أن أستقصى مظهراً آخر من تطور اللبيدو لأنه يسلم بنا إلى آفاق معينة فسيحة، ولأن فيه تبريراً للتمييز الحاسم الذى نراه بين نزعات الأنا والنزعات الجنسية، ذلك التمييز الذى لا يبدو واضحاً لأول وهلة، ولكى يتسنى لنا أن نصدر حكماً على هذين التطورين (تطور الأنا وتطور اللبيدو) لابد لنا أن نسلّم بمقدمة لم تلق إلى الآن ما هى خليقة به من اهتمام، إن كلا منهما ليس فى باطن الأمر إلا ميراثا وتكراراً مقتضياً للتطور الذى اجتازته الإنسانية بأسرها منذ عصور ما قبل التاريخ، وامتد على أحقاب مديدة من الزمن، أما فيما يتصل بتطور اللبيدو فلا معدى عن أن نعترف له، طواعية واختياراً، بهذا الأصل الذى يتصل بنشوء النوع وتطوره، وحسبنا أن نذكر أن الجهاز التناسلى فى صنف من الحيوانات يتصل اتصالا وثيقا بالفم، وأنه لا يمكن تمييزه عن جهاز الإخراج فى صنف آخر، فى حين أنه جزء من أعضاء الحركة فى صنف ثالث... إلى غير تلك من الوقائع التى تجدون له له وصفًا طريفًا ألفه بولشه Bölsche وإنا لنلحظ فى الحيوانات كل أنواع الانحرافات الجنسية متحجرة، إن صح التعبير، فى الشكل الذى يتخذه التنظيم الجنسى عندها.

أما عند الإنسان فالمظهر الذى يتصل بنشوء النوع وتطوره يبدو غامضاً خفياً إلى حد ما، لأن الخصائص الموروثة أصلا، لابد أن يكتسبها الفرد من جديد خلال نموه

وتطوره، ومن المحتمل أن يكون السبب فى هذا أن الظروف التى فرضت على الإنسان اكتساب خاصة معينة فى الماضى، لاتزال باقية إلى اليوم تفرض سلطانها على كل فرد من الأفراد.

وأستطيع أن أقول :ن هذه الظروف التى كانت خالفة فى العصور الخوالى، أصبحت اليوم ظروفاً مثيرة، توقظ استعدادات موجودة من قبل، وفضلاً عن هذا فمما لا مراء فيه أن سير التطور المقرر مسبقاً لكل فرد قد تفسده أو تحوره تأثيرات خارجية حديثة، أما القوة التى فرضت على الإنسانية هذا التطور، والتى لايزال أثرها مستمراً إلى اليوم فى الاتجاه نفسه، فقوة نعرفها جميعا: إنها الحرمان الذى يفرضه الواقع، وإن أردنا أن نسميها باسمها الحقيقى الضخم، قلنا إنها الضرورة التى تنجم عن الكفاح من أجل الحياة، إن الضرورة رئيس صارم، ومنها تعلمنا الشىء الكثير، وما العصابيون إلا ولائدها وصرعاها الذين كان لهذه الصرامة آثار وخيمة فى نفوسهم، لكنه خطر يتعرض له كل فرد مهما كان نوع التربية التى يلقاها، ونشير عرضاً إلى أننا وإن قررنا أن الكفاح من أجل الوجود هوالقوة المحركة للتطور، فنحن لا نغض بهذا من قيمة «النزعات التطورية الداخلية» إن ثبت أنها توجد.

ومما يجدر ذكره أن غريزة حفظ الذات يختلف سلوكها عن سلوك الغريزة الجنسية[1] حين توجهان بضرورة الحياة الواقعية، فغريزة حفظ الذات وكل ما يتصل بها، أسهل تشكلا وأكثر امتثالا للتربية، فهى تتعلم من عهد مبكر أن توائم نفسها للضرورات وأن تكيف تطورها لمطالب الواقع، وهذا واضح مفهوم، لأنها لا تستطيع أن تظفر بالموضوعات التى تحتاج إليها بوسيلة أخرى، ومن دون هذه الموضوعات لابد أن يهلك الفرد.

أما النزعات الجنسية فأعصى على التهذيب والتثقيف من تلك، لأنها ليست فى حاجة إلى موضوع فى أول الأمر، ولأنها تجهل هذه الحاجة، وبما أنها توجد على صورة طفيلية إذ ترتبط بوظائف جسيمة أخرى، وأنها تستطيع أن تظفر بإشباع شهوى ذاتى دون أن تتجاوز جسم الفرد نفسه، فهى تفلت بادئ ذى بدء من التأثير التربوى للضرورة الواقعية، كما أنها تحتفظ عند أغلب الناس، فى بعضها نواحيها، بذلك الطابع الشموس المستعصى «الجامح» وتظل لديهم كذلك طول الحياة.

---

(١) يلاحظ أن المؤلف يستعمل كلمة «الغريزة» تارة الدلالة على مجموعة من النزعات، وطوراً على الدلالة على النزعات فرادى. «المترجم».

يضاف إلى هذا أن الشخص الصغير تنتهى قابليته للتربية عادة حين تصل رغباته الجنسية إلى قوتها النهائية، وهذه حقيقة يعرفها المربون ويتصرفون وفاقاً لها، فلعلهم يذرون عقوله تقتنع بنتائج التحليل النفسى ويعترفون أن التربية فى الطفولة الأولى، ابتداء من الرضاع هى التربية التى تترك أعمق الآثار فى نفس الفرد، إن الكائن البشرى الصغير ينتهى صوغه وتكوينه غالبا فى السنة الرابعة أو الخامسة من عمره، ثم يفصح تدريجيًا عن الكامن الخبئ فى نفسه خلال السنوات التالية من حياته.

ولكى تظهر الدلالة الكاملة لهذا الفارق بين هاتين الغريزتين، لا معدى لنا عن أن نستطرد وأن ندخل فى حسابنا اعتباراً من الاعتبارات الجديرة أن توصف بأنها **اقتصادية**، هنا نلج ميداناً من أهم ميادين التحليل النفسى، وإن كان للأسف من أكثرها غموضاً، قد يكون لنا أن نتساءل عما إذا كان هناك غرض رئيسى لصيق بنشاط جهازنا النفسى، ونجيب عن هذا السؤال، ابتداء، بأن نشاطنا النفسى بأسره يهدف، فيما يبدو، إلى **الظفر باللذة، وتفادى الألم**، أو أنه يعادل من تلقاء نفسه وفق **مبدأ اللذة**، الحق أن أكثر ما نتوق إلى معرفته فى هذه الحياة الدنيا، هى الظروف تحديداً..

والشيء الوحيد الذى يباح لنا توكيده هو أن اللذة مرتبطة **على نحو ما**، بخفض التنبيهات المتراكمة فى جهازنا النفسى أو نقصانها أو زوالها، وأن الألم مرتبط بازدياد هذه التنبيهات أو ثورانها.

ولو تأملنا أشد نوع من أنواع اللذة يستطيع أن يظفر به الإنسان، وهى اللذة التى يشعر بها أثناء الفعل الجنسى، لكان هذا كفيلاً أن يزيل الشك عن هذه النقطة. وبما أن أمثال هذه العمليات اللذيذة تقترن بتوزيع كميات من التنبيهات والطاقة النفسية، فنحن نصف الاعتبارات التى تتصل بها بأنها اقتصادية على أنه يبدو أننا نستطيع أن نصف أعمال الجهاز النفسى ونشاطه بطريقة أخرى أعم من الظرف باللذة، ففى وسعنا أن نقول إن الجهاز النفسى يهدف إلى ضبط وتفريغ التنبيهات وضروب التهيج الداخلية والخارجية.

أما فيما يتصل بالنزعات الجنسية، فواضح أنها تهدف إلى الإشباع من بدء تطورها إلى نهايته، وأنها تحتفظ بهذه الوظيفة الأولية دون أن يصيبها تغيير، وتلك حال نزعات الأنا فى أول أمرها، لكنها سرعان ما تتعلم أن تستعيض عن مبدأ اللذة

بصورة محوّرة له، وذلك بتأثير الضرورة والتربية، ومن ثم يصبح لتفادى الألم من الأهمية والإلحاح ما لالتماس اللذة، ويتعلم الأنا أنه لا معدى له عن أن يرجئ التماس اللذة، وأن يتنازل عن الإرضاء المباشرة، وأن يحتمل قدراً من الألم، بل وأن يعرض إطلاقاً عن بعض مصادر اللذة.

وهكذا يصبح الأنا «عاقلا» بفضل هذه التربية، فلا يعود ينساق لمبدأ اللذة، بل يسير وفق **مبدأ الواقع**، وهو مبدأ يهدف، هو الآخر، فى باطن الأمر إلى اللذة، لكنها لذة يضمنها تحقيقها فى دنيا الواقع، وصلتها بدنيا الواقع، ولو أنها مرجأة بتراء.

إن الانتقال من مبدأ اللذة إلى مبدأ الواقع من أهم خطوات التقدم فى تطور الأنا، ونحن نعرف من قبل أن النزعات الجنسية لا تجتاز هذه المرحلة من تطور الأنا إلا فى عهد متأخر، وكأنها مكرهة على ذلك.

وسنرى فيما بعد أية عواقب يمكن أن تصيب الإنسان من إشباع نزعاته الجنسية إشباعًا لا يتصل بالواقع الخارجى إلا غراراً، ولئن كان الأنا عند الإنسان يتطور فى مراحل كما تفعل اللبيدو، فليس من المستغرب أن نعرف أنه عرضة، هو الآخر، لضروب من النكوص، ولعلكم تتوقون إلى معرفة الدور الذى يمكن أن يقوم به ارتداد الأنا إلى مراحل سابقة من تطوره، فى الأمراض النفسية.

المحاضرة الثالثة والعشرون

كيف تتكون الأعراض

يرى عامة الناس أن الأعراض هى جوهر المرض وحقيقته، وأن الشفاء يعنى زوال الأعراض، أما الطب فيرى من المهم أن نميز بين الأعراض والمرض، ويقرر أن زوال الأعراض لايعنى الشفاء من المرض بحال، فما يبقى من المرض بعد اختفاء الأعراض هى القابلية لتكوين أعراض جديدة، على أننا سنتماشى مع وجهة نظر العامة مؤقتاً فنعتبر أن تحليل الأعراض مرادف لفهم المرض.

إن الأعراض ـ ونقصد الأعراض النفسية (أو نفسية المنشأ) والأمراض النفسية بطبيعة الحال ـ هى أوجه نشاط ضارة مؤذية، أو أنها على الأقل لاتنفع الفرد فى حياته إجمالا، وكثيراً ما يقوم بها وهو كاره لها، أو يشكو مما يصاحبها من الهم والغم والعذاب، ويتلخص ضررها الرئيسى وما تؤدى إليه من خسران، فى المجهود النفسى الذى يبذله المريض فى القيام بها، وفى المجهود الذى تتطلبه مقاومتها ووقفها كذلك. وحين تكون الأعراض مشتطة غلابة، قد يؤدى بذل هذين المجهودين إلى نقصان خطير فى الطاقة النفسية للفرد، حتى ليعجز عن القيام بكل عمل ذى شأن فى الحياة بأسرها، وبما أن هذه النتيجة تتوقف على كمية الطاقة المستنفدة، فلا يشق علينا أن نرى أن تصورنا المرض تصور عملى فى صميمه، غير أنكم إن تأملتم فى الأمر من ناحية نظرية، دون اعتبار للفارق فى الدرجة والمقدار، استطعتم أن تقولوا فى غير حرج إننا كلنا مرضى، أى عصابيون، لأن الشروط التى تهيمن على تكون الأعراض تتوافر كذلك لدى الأسوياء من الناس.

تعرفون أن الأعراض العصابية تنجم عن صراع يقوم حين تلتمس اللبيدو وجهاً جديداً من وجوه الإشباع، إذ ذاك تلتقى القوتان المتعارضتان فى العَرض مرة أخرى، وتتراضيان بفضل **الحل الودى** الذى يتضمنه العرض، وهذا ما يفسر لنا قدرة العرض على المقاومة: فهو معضَد معزّز من كلا الجانبين، كذلك تعرف أن أحد طرفى الصراع هى اللبيدو غير المشبعة التى أحبط الواقع سعيها فأكرهت على التماس سبيل أخرى للإشباع، فإذا اشتد تعنت الواقع وإلحاحه أرغمت اللبيدو على أن تسلك، آخر الأمر، سبيل النكوص، وأن تطلب الإشباع فى أحد التنظيمات التى اجتازتها من

قبل، أو في أحد الموضوعات التي هجرتها سبقاً، وذلك حتى إن كانت مهيأة لأن تتخذ موضوعا آخر بدل الموضوع الذي صدها الواقع عنه، وإن ما يجتذب اللبيدو ويغريها بالنكوص، هي مراكز التثبيت التي خلفتها في تلك المراحل من تطورها.

إن طريق النكوص في حالة الانحراف الجنسي يختلف اختلافاً بينا عنه في حالة المرض النفسي، فإن لم تستثر أساليب النكوص أية مقاومة من الأنا، لم ينجم عن ذلك مرض نفسي، بل تظفر اللبيدو بإشباع واقعي، ولو أنه ليس إشباعًا سوياً، أما إذا لم يرض الأنا عن هذه الأساليب ـ وهو الذي يشرف على الشعور وعلى مداخل التعصيب الحركي أيضاً، أي على تحقيق النزعات النفسية تحقيقاً فعلياً ـ ترتب على ذلك صراع نفسي. هنا تعتقل اللبيدو، إن صح التعبير، ولابد لها من أن تجد مخرجاً تستطيع أن تنفس به عن شحنتها[1] من الطاقة وفاقًا لمتطلبات مبدأ اللذة، أي لا معدى لها عن أن تتملص من الأنا وتتنحى عنه..

ومما ييسر للبيدو عملها هذا، مراكز التثبيت التي خلفتها وراءها أثناء تطورها، والتي كان الأنا يقي نفسه منها عن طريق عملية الكبت، وهي إذ تتراجع فتحتل تلك المراكز المكبوتة، فإنها تتحرر من ربقة الأنا ومن قوانينه، كما تذر في الوقت نفسه كل ما تلقته من تربية وتهذيب بتأثيره ونفوذه، لقد كانت اللبيدو سهلة طيّعة ما ظلت تطمع في الإشباع والارتواء، لكنها تصبح شموساً جموحًا حين يلح عليها الزمت الداخلي والخارجي، فإذا بها تصبو وتحن إلى نعيم الأيام السالفة، هذا هو صميم خلقها الذي لا يتغير..

أما الأفكار والموضوعات التي تطرح عليها اللبيدو، من الآن، شحنتها من الطاقة، فتنتمي إلى النظام اللاشعوري، لذا لامناص من أن نجد أنفسنا حيال موقف يطابق على التحديد موقف صياغة الحلم، فنحن نعرف أن الحلم الكامن ينصاغ في اللاشعور أولاً، ويكون بمثابة تحقيق لرغبة خيالية لاشعورية، ثم لايلبث أن يرتطم بنشاط قبشعوري معين يفرض على الحلم اللاشعوري رقابته، فينجم عن ذلك حل ودي يبدو أثره في الحلم الظاهر، كذلك الحال في الأفكار والموضوعات التي تتعلق بها اللبيدو في اللاشعور، فلابد أن تتعرض لمقاومة الأنا القبشعوري. وإن هذه المقاومة التي تعرض

1. Cathexis

لها من جانب الأنا، تكون بمثابة «هجوم مضاد» يُوجَّه إلى اللبيدو فى مركزها الجديد، ويرغمها على أن تتخذ أسلوباً جديداً من التعبير، يستطيع أن يفصح به الأنا عن نفسه فى الوقت عينه، على هذا النحو يتكون العرض، فما هو إلا اشتقاق أو نتاج محرَّف غاية التحريف لإشباع لاشعورى لرغبة لبيدية، أو كأنه «تورية» صيغت صوغاً بارعاً، فبدت فيها دلالتان على طرفى نقيض، على أن تكوّن الأعراض يختلف عن انصياغ الحلم من حيث هذهِ الناحية الأخيرة؛ ذلك أن الغرض القبشعورى فى حالة الحلم لايهدف إلا إلى وقاية النوم، وصد ما من شأنه أن يقلقه، من اقتحام الشعور، فهو لايعترض على الرغبة اللاشعورية اعتراضاً باتاً قاطعاً، ولا يهيب بها قائلا: «لا، أريد عكس هذا!» بل فى وسعه أن يكون أكثر تسامحاً، لأن موقف النائم أقل خطراً من موقف العصابى، فحالة النوم فى ذاتها كافية لأن تحول دون الرغبة أن تتحقق بالفعل.

من هذا ترون أن قرار اللبيدو على هذا النحو، من الظروف التى يخلقها الصراع، لايكون ممكناً إلا لوجود مراكز التثبيت، وإن نكوصها إلى تلك المراكز يجعلها تتملص من أثر ضروب الكبت، وتظفر بنوع من التفريغ[1] ـ أو الإشباع ـ تراعى فيه الشروط التى يتطلبها الحل الودى. وبهذه اللفة فى ثنايا اللاشعور ومراكز التثبيت القديمة، تفلح اللبيدو آخر الأمر فى أن تصل إلى إشباع واقعى، وإن يكن محدوداً إلى حد بعيد فلايكاد يبين، وأرجو أن تأذنوا لى فى أن أضيف ملحوظتين بصدد هذه النتيجة الأخيرة: أولاهما أن أوجه أنظاركم إلى ما بين اللاشعور واللبيدو، وإلى ما بين الشعور والواقع، من صلات وثيقة، ولو أن كلا من هذين الزوجين لا يكون مرتبطاً بعضه ببعض بأية صلة فى بادئ الأمر، الثانية، أن كل ما ذكرت وكل ما لا يزال علىّ أن أقوله، فى هذه الناحية، لا ينصبُّ إلا على العصاب الهسترى وحده ليس غير.

لكن أين تجد اللبيدو مراكز التثبيت التى تحتاج إليها لكى تشق لنفسها طريقاً خلال ضروب الكبت؟.

تجدها فى خبرات الجنسية الطفلية وأوجه نشاطها، فى النزعات الجزئية وفى موضوعات الطفولة التى هجرتها وتنحَّت عنها.. فإلى هذه كلها تتراجع اللبيدو، إن للطفولة دلالة مزدوجة: ففى أثنائها تبدو لدى الطفل للمرة الأولى، غرائز ونزعات يأتى بها إلى هذا العالم فى صورة استعدادات موروثة هذا من جهة، ومن جهة أخرى

---

1. Discharge.

تنشط لديه غرائز ونزعات أخرى، توقظها التأثيرات الخارجية والأحداث العارضة التي يخبرها، وأعتقد أننا في حل من أن نأخذ بهذه النظرة المزدوجة، فأما مظاهر الاستعدادات الموروثة فليست على التحقيق مما يثير جدلا أو اعتراض، لكن الملاحظات التحليلية تضطرنا أن نذهب إلى أن الخبرات العارضة المحضة في عهد الطفولة قادرة على أن تترك مواضع ترتكز عليها اللبيدو وتثبت، ولا أرى في هذا أية صعوبة من الناحية النظرية، فلا مراء في أن الاستعدادات الجبلية الموروثة بقايا وآثار خلّفها لنا أجدادنا الأقدمون، وقد كانت هذه الاستعدادات بدورها صفات اكتسبها الإنسان في عصر ما، فمن دون اكتساب لايمكن أن تكون وراثة. أيصح في الأذهان أن تبطل هذه القدرة على اكتساب صفات جديدة تنقل بالوراثة، وأنتقف على حين فجأة في الجيل الذي تلاحظه اليوم تحديداً؟

لقد غض الناس كثيراً من شأن خبرات الطفولة وخطرها، وانحازوا إلى جنب تجارب الأجداد أو الأحداث التي يخبرها الفرد في مرحلة النضج والكبر، وهذا ما لاينبغي أن يكون، فالخبرات التي يزخر بها عهد الطفولة جديرة، على العكس، باعتبار خاص، لما تتمخض عنه من عواقب ونتائج خطيرة، فهي تقع في عهد لا يكون النمو فيه قد تم واكتمل، ولهذا السبب بعينه، بات من المرجح أن يكون لها تأثير الصدمات. وقد دلت بحوث «رو» Roux وغيره في كيفية حدوث النمو على أن الندبة الطفيفة، كوخزة الإبرة مثلا، إذ تصيب الجنين أثناء انقسام الخلايا، قد تؤدي إلى اضطرابات خطيرة في النمو بيد أن هذه الندبة نفسها إن أصابت اليرقة أو الحيوان المكتمل النضج، لا يكون لها أي أثر ضار.

وعلى هذا فتثبيت اللبيدو لدى الراشد الكبير ـ وقد أشرنا إلى أنه يمثل العامل الجبلي في نشأة الأمراض النفسية ـ يمكن أن نرده الآن إلى عاملين آخرين: الاستعداد الموروث من جهة، والاستعداد المكتسب في الطفولة المبكرة من جهة أخرى، ولنلخص ما بين هذه العوامل المختلفة من صلات بالمعادلة الآتية، فهي أدنى إلى توضيح الموضوع لطالب العلم:

أسباب المرض النفسي = استعداد ناتج من تثبيت اللبيدو + خبرات طارئة (صدمات)

الجبلة الجنسية   خبرات الطفولة

(خبرات الأجداد)

والجبلة الجنسية الموروثة تتمخض عن أنواع شتى من الاستعدادات، تبعاً لما تكون عليه هذه النزعة الجزئية أو تلك من شطط وبروز، سواء كانت بمفردها أو مجتمعة مع نزعات أخرى، ومتى ارتبطت هذه الجبلة بخبرات الطفولة، نتجت عن ذلك «سلسلة متتامة» أخرى شبيهة كل الشبه بتلك السلسلة التى قررنا وجودها نتيجة للارتباط بين استعداد الراشد والخبرات الطارئة التى تعرض له. وفى كلتا السلسلتين نلتقى بالحالات المتطرفة نفسها الدرجات الوسطى نفسها بين العوامل الجبلية الموروثة هوالشرط الرئيسى الغالب الذى يتعين به أظهر نوعى النكوص (ونعنى بذلك نكوص اللبيدو إلى مرحلة سابقة من مراحل التنظيم الجنسى)، غير أنه يحمل بنا أن نرجئ الإجابة عن هذا السؤال حتى ينفسح أمامنا مجال النظر فى صور أخرى من الاضطرابات العصابية.

ولنقف برهة نتأمل تلك النتيجة التى أسلم إليها البحث التحليلى، إذ بين لنا أن لبيدو العصابيين تكون عالقة بخبراتهم الجنسية الطفلية، يبدو لنا من هذا ما لتلك الخبرات من أهمية حيوية للإنسان، وما يمكن أن تقوم أن تقوم به من دور خطير فى نشأة الأمراض النفسية. وما دمنا لا ننظر إلى الموضوع إلا من ناحية العلاج، لم يساورنا الشك فى ضخامة هذه الأهمية وجسامة ذلك الدور، بيد أننا إن نظرنا إلى الموضوع من ناحية أخرى، لم يشق علينا أن نرى أننا فى خطر من أن نسىء الفهم فلا ننظر إلى الحياة إلا من جانب واحد، هو جانب المرضى بالعصاب، على أن أهمية الخبرات الطفلية لا تلبث أن تقل وتخفت متى قدرنا أن اللبيدو لا تتراجع ناكصة إليها إلا بعد أن تطرد من مراكزها اللاحقة المتأخرة، وهذا قد يسلم بنا إلى نتيجة مضادة، هى أن الخبرات اللبيدية للطفولة لا يكون لها أهمية حين حدوثها، إنما تصبح ذات أهمية وخطر من جراء النكوص فيما بعد، ولعلكم تذكرون أننا عرضنا من قبل لموقف شبيه بهذا حين كان نناقش عقدة أوديب.

لايعز علينا أن نفصل فى هذا الأمر، فالرأى الذى يقول إن النكوص يزيد من شحنة الخبرات الطفلية باللبيدو إلى حد كبير، ومن ثم فهو يزيد من خطورة الدور الذى تقوم به هذه الخبرات فى أحداث المرض - رأى صحيح ما فى ذلك شك، لكنه قد يورطنا فى الخطأ إن نحن تقلبناه دون تحفظ واحتياط، فهناك اعتبارات أخرى يتعين علينا أن نعمل لها حساباً، أولها ما تبينه لنا الملاحظة بصورة لا يرقى إليها الشك من

أن الخبرات الطفلية لها أهميتها الخاصة التى تبدو منذ مرحلة الطفولة، فثمة أمراض تصيب الأطفال أيضاً، لا يقوم النكوص الزمانى فيها إلا بدور ذى بال، أو لا يحدث على الإطلاق، بل يثور فيها المرض مباشرة فى إثر صدمة نفسية، وفى دراسة هذه الأعصبة الطفلية ما يعصمنا من التورط فى أخطاء عدة تجعلنا نسيء فهم الأعصبة عند الكبار الراشدين: شأنها فى ذلك شأن أحلام الأطفال، إذ أتاحت لنا دراستها فهم أحلام الكبار..

الواقع أن الأمراض النفسية مشاعة بين الأطفال بدرجة أبعد بكثير مما نتصور فى العادة، غير أن الناس لا يلتفتون إليها إلا فى أغلب الأحيان، أو يعتبرونها مظاهر للعرامة أو لتربية فاسدة، وكثيراً ما يخمدها من بيدهم السلطة والنفوذ على الأطفال، لكننا لا يشق علينا تعرفها عادة، متى تلفتنا إلى الأحداث التى تسبقها، وهى تبدو فى الغالب الكثير من الأحيان فى صورة **هستريا حصرية** ستعرفون ماهيتها فى مناسبة أخرى.

ويكشف لنا التحليل أبداً أن العصاب الذى يثور فيما بعد مرحلة الطفولة ليس إلا امتداداً مباشرا لعصاب طفلى ربما لم يفصح عن نفسه إلا بصورة مقنعة أو بشكل ابتدائى، غير أن هناك ـ كما أسلفنا ـ حالات يبقى فيها هذا التهيج العصبى الطفلى[1] ويظل مرضا يلازم الفرد طول حياته دون انقطاع، وقد أتيح لنا أن نفحص بضع حالات لأطفال يعانون مرضاً نفسياً بالفعل، غير أنه كان يتعين علينا غالباً أن نقنع بأن نستنتج وجود عصاب فى عهد الطفولة من عصاب يعانيه الفرد فى سنى نضجه، وهذا أمر كان يقضى علينا أن نتخذ احتياطات معينة، وأن نقوم بتصويبات معينة.

أما الاعتبار الثانى فيتلخص فى أن هذا النكوص المطرد لليبيدو إلى عهد الطفولة، لايمكن فهمه وتفسيره إن لم يكن فى ذلك العهد شيء يغرى الليبيدو ويجذبها جذباً، والتثبيت الذى نفترض وجوده فى مراحل معينة من التطور، لايكون له معنى إن لم نعتبره تبلوراً وتركيزاً لقدر معين من طاقة الليبيدو، وأشير آخر الأمر إلى أن خبرات **الطفولة** تقوم بينها وبين الخبرات **التالية** «علاقة تتام» كالعلاقة التى وجدناها فى

---

(١) يلاحظ أن المؤلف يستعمل أحياناً اصطلاح «التهيج العصبى» أو «الاضطراب العصبى» على أنه مرادف للعصاب «المرض النفسى»، وقد آثرنا أن ندع اصطلاح المؤلف على ما هو عليه، لنحمل إلى القارئ صورة مضبوطة للأصل. «المترجم».

سلسلاين التقينا بهما من قبل، من حيث عنف الخبرات وتأثيرها المَرضى، فثمة حالات تكون فيها الخبرات الجنسية لمرحلة الطفولة، العامل المسبب الوحيد، وهذه حالات يكون فيها للخبرات تأثير الصدمات ما فى ذلك شك، ولا يتطلب ظهور المرض فيها شيئاً أكثر من جبلة جنسية متوسطة وما هى عليه من فجاجة وقصور فى النضج، على أن هناك حالات أخرى يقع فيها وزر المرض كله على كاهل الأصرعة النفسية التالية، ويبدو الدور الذى تقوم به انطباعات للطفولة ـ التى يكشف عنها التحليل ـ كأنها نتيجة للنكوص وحده، وهكذا نكون بصدد طرفين أحدهما «تطور معطل» والثانى «نكوص»، وبين هذين الطرفين درجات شتى يمتزج فيها هذان العاملان بنسب شتى.

لهذه الوقائع كلها جانب من الأهمية عند من ينشدون وقاية الفرد من الأمراض النفسية بالتدخل المبكر فى حياة الطفل الجنسية، إذ ما دام الاهتمام موجهاً فى المقام الأول إلى الخبرات الجنسية الطفلية، فقد يحسب الناس أن الوقاية من هذه الأمراض فيما بعد لاتحتاج إلى أكثر من إرجاء التطور الجنسى، وتحريز الطفل من مثل هذه الخبرات. غير أننا نعرف أن الشروط المسببة للعصاب أكثر تعقيداً وتشابكاً من تلك، وأنه لايمكن التأثير فيها بوجه عام إن راعينا عاملاً واحداً ليس غير. فالرقابة الصارمة فى عهد الطفولة لا حيلة لها فى العامل الجبلى، هذا إلى أن تنفيذها ليس من اليسر ما يحسبه المربون، وإلى أنها تستتبع خطرين آخرين لا نستطيع أن نغفل عنهما أو أن نغض منهما: فهى قد تتجاوز القصد، وتيسر الكبت الجنسى المسرف ذا العواقب الضارة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهى تلقى بالطفل فى أحضان الحياة عطلاً من قوة يقاوم بها المطالب الملحة للنزعات الجنسية المنتظرة فى سن البلوغ، ومن ثم كان نجاح الوقاية الجنسية فى عهد الطفولة أمراً يكتنفه كثير من الشك، ويدعونا إلى التساؤل عما إذا كان من الخير أن نتخذ من الواقع موقفاً آخر غير هذا، ترتكز عليه الوقاية من الأمراض النفسية.

ولنعد إلى النظر فى الأعراض، لقد قلنا إنها تتيح للفرد إشباعاً بديلا عن الإشباع الذى حرمه الواقع منه، عن طريق نكوص اللبيدو إلى عهد سابق من حياة الفرد أى إلى أطوار سابقة تتميز بموضوعات جنسية خاصة أو تنظيم جنسى خاص. كما عرفنا أن العصابى **موثق** بصورة ما إلى فترة معينة من حياته الماضية، وهى فترة لم تكن

الليبيدو فيها محرومة من الإشباع، وكان الفرد فى أثنائها سعيداً، فهو يتلفت إلى ماضيه باحثًا فيه عن مثل هذه الفترة على حسب ماترسمها له ذاكرته أو يصورها له خياله، تبعاً لأمارات وشواهد لاحقة، وإنه ليمضى فى بحثه هذا حتى إن رجع به إلى طفولته الأولى يوم أن كان وليداً يرضع من الثدى، وليس هذا العرض إلا تكراراً ـ على نحو ما ـ لذلك الإشباع الذى كان يظفر به في طفولته الأولى، ولو أنه إشباع تنكره الرقابة المتضمنة فى الصراع، ويصحبه فى العادة إحساس بالألم، وتختلط به عناصر من نزعة من الخبرات التى تؤدى إلى انفجار المرض، وهذا النوع من الإشباع الذى يجلبه العرض، يتسم بكثير مما يثير الدهش والاستغراب، فالمريض لا يفطن إليه، ويشعر بما نسميه الإشباع كأنه نوع من الألم يكون مصدراً لشكاته:

وليس هذا التحول الوجدانى إلا نتيجة للصراع النفسى الذى يتكون العرض بتأثير ضغطه وإلحاحه، فما كان يستشعره الفرد فى الماضى إشباعاً، لابد أن يستثير فى نفسه اليوم إعراضاً ونفوراً، ولدينا مثال بسيط يعيننا على أن نفهم مثل هذا التحول: فالرضيع الذى كان بالأمس يمتص اللبن فى شراهة من ثدى أمه، نراه فى الغالب ينفر من لبن الثدى نفوراً شديداً بعد بضع سنين من الرضاع، وهو نفور تجد التربية عناء كبيراً فى الظهور عليه، وقد يشتد هذا النفور حتى يبلغ حد الذعر والتقزز إن رأى اللبن أو ما امتزج به فى غشاء رقيق من الجلد، فلعل هذا الغشاء يوقظ فى نفس الطفل ذكر ثدى أمه الذى كان يتلهف إليه فى شوق شديد. بيد أنه يتعين علينا أن نذكر أن الفطام قد تخلل هذه الفترة، وهو خبرة تعتبر من قبيل الصدمات النفسية.

على أن هناك سبباً آخر يجعل الأعراض تبدو لنا غريبة غير مفهومة من حيث هى وسائل لإشباع الليبيدو، فهى لا تذكرنا على الإطلاق بما قد ألفنا أن نسميه الإشباع فى العادة، كما أنها لا تنصب فى الغالب الكثير من الأحيان على موضوع، وبذا تكون منقطعة الصلة بالواقع الخارجى، ونحن نفهم هذا على أنه نتيجة لنبذ مبدأ الواقع والارتداد إلى مبدأ اللذة، غير أنه علاوة على هذا، ارتداد إلى نوع من الشهوية الذاتية المضخمة، إلى ذلك النوع الذى كان يمنح الغريزة الجنسية لذاتها الأولى، فالأعراض تحدث تغييرا فى الجسم نفسه بدل أن تحدث تغييراً فى العالم الخارجى، أى إنها تستبدل تأثيراً داخلياً بتأثير خارجى، وتقوم بنوع من التكيف بدل أن تقوم بوجه من زوجه النشاط ـ وهذا بدوره نكوص ذو دلالة كبرى إن نظرنا إليه من ناحية نشوء

النوع الإنسانى وتطوره، وسوف يزداد فهمنا لهذا كله حين نعرض له من ناحية عامل جديد بين العوامل التى تكشف عنها بحوثنا التحليلية بصدد تكون الأعراض، ولنذكر فضلا عن هذا أن الحيل اللاشعورية العاملة فى صياغة الأحلام - ونعنى بها التكثيف والنقل - تتضافر نفسها كذلك فى تكوين الأعرض فالعرض كالحلم يصور شيئا كأنه قد تحقق، فهو إشباع يحمل طابع الطفولة، لكنه إشباع قد يركزه التكثيف المفرط فى إحساس واحد أو تعصيب واحد، وقد يقصره النقل المفرط على جزء يسير من المركب اللبيدى بأسره، فلا غرابة أن يشق علينا فى الغالب أن نرى فى الأعراض ذلك الإشباع اللبيدى الذى نشتبه فى وجوده، والذى يمكن التحقق منه دائماً.

ذكرت لكم منذ لحظة أنه لايزال علينا أن نعرف شيئاً جديداً، والحق أنه ليس شيئاً جديداً فحسب، بل شيء يدعو إلى كثير من الدهش والارتباك. تعرفو أننا نصل من تحليل الأعراض إلى خبرات الطفولة التى تثبت عندها اللبيدو وتصاغ منها الأعراض، والمستغرب فى هذا أن تلك الخبرات الطفلية ليس خبرات حقيقية على الدوام، فالواقع أنها غير صادقة فى الكثير الغالب من الأحيان، كما أنها تجافى الحقيقة التاريخية بصورة مباشرة فى بعض الحالات، أليس فى هذا الكشف وحده - أكثر من أى كشف آخر - ما ينزع الثقة بالتحليل لأنه يُسلم إلى مثل هذه النتيجة، أو ما ينزع الثقة بالمريض الذى ينهض التحليل وفهم الأمراض النفسية على ما يقول: يضاف إلى هذا أنه كشف يدعو إلى كثير من الحيرة والارتباك، فلو كانت خبرات الطفولة التى يميط التحليل عنها اللثام، واقعية فى كل حالة، لأنسنا أننا نبنى على أساس ثابت مكين، ولو أنها كانت باطلة على الدوام، لا تخرج أبداً عن أن تكون من نسج خيال المريض، كنا فى حل أن نذر هذا الأساس القلق وأن نبحث عن آخر.

لكن الأمر غير هذين: فخبرات الطفولة التى يستثيرها التحليل أو يعيد إنشاءها تكون فى بعض الآونة زائفة على نحو لا يقبل الجدل، وفى أخرى صادقة عن يقين، لكنها تكون فى أغلب الأحوال خليطاً من الحق والباطل، وعلى هذا تكون الأعراض تارة تصويرياً لخبرات وقعت بالفعل فلا مندوحة عن أن نعترف بتأثيرها فى تثبيت اللبيدو، كما تكون طوراً تصويراً لتخييلات من عند المريض، فلايمكن أن نعزو إليها بطبيعة الحال دوراً فى تسبيب المرض، وهذا مصدر اختلاط وريك شديدين، على أنى أذكر بهذا الصدد أن بعض ذكريات الطفولة التى تظل ماثلة فى شعور الناس دواماً،

قابلة لأن تزيف، هى الأخرى، على هذا النحو، أو أن تكون على الأقل خليطاً من أشياء حقيقية وأخرى زائفة، دون أن يتناولها أى تحليل، ولا يشق علينا فى مثل هذه الحالات أن نبرهن على ما تنطوى عليه تلك الذكريات من زيف وتحريف. فلعل هذا ـ على الأقل ـ ما يطمئننا بأن المريض ـ لا التحليل ـ هو المسئول عن الارتباك الذى نشير إليه.

لو أننا أنعمنا النظر قليلا، لما عزّ علينا أن نتبين ما يجعلنا فى حيرة من أمر هذا الموقف، فما هو إلا بخس المريض للواقع وغفلته عما بين الواقع والخيال من تفاوت واختلاف ـ وفى هذا ما يحملنا على التبرم به أن يستنفد وقتنا فى سرد قصص مختلفة، نحن نرى الواقع متميزاً عن الخيال، مفترقًا عنه افتراق الأرض عن السماء، ومن ثم كان تقديرنا لأحدهما يختلف سويًا، فإذا ما شرع يستحضر المواد المستترة وراء الأعراض، تلك المواد التى تكشف عن مواقف قامت على خبرات الطفولة، والتى تتكون نواتها من رغبة تلتمس الإشباع، بدأنا نشك ونتساءل عما إذا كنا بصدد أشياء واقعية أو خيالية، ثم تبدو لنا بعد ذلك علامات معينة تخول لنا القطع فى هذه المسألة، إذ ذاك يتعين علينا أن نطالع المريض بهذه النتيجة.

غير أن هذا الأمر لايتم دون عناء، فلو أننا أخبرناه من أول الأمر أنه بسبيل أن يقص علينا حوادث خيالية ينسج منها تاريخ طفولته كما يستعيض القوم بالأساطير عن تاريخ ماضيهم المنسى، لاحظنا اهتمامه بالمضى فى الرواية قد خفت على حين فجأة ـ وهذا شىء لانريده ولانرضاه، فهو يريد أيضًا أن يقع على أشياء واقعية، ويصرح بأنه يمقت الأشياء الخيالية، لكننا إن تركناه يعتقد أن ما يقصه علينا هو الأحداث الواقعية لطفولته، إلى أن يتم هذا الشطر من التحليل بسلام، لم نسلم من أن يؤاخذنا على هذه المغالطة فيما بعد، ولم ننج من سخريته على ما زعمناه من تغافل، وإنه ليشق عليه أن يفهمنا حين نقول له إننا ننظر إلى الواقع والخيال بعين سواء، وحين نطلب إليه ألا يرونها، قد وقعت له بالفعل أم أنها من نسج خياله.

ومع هذا فمن الجلى أن هذا هوالموقف الوحيد الذى يتعين علينا أن نوصى به حيال المنتجات النفسية التى يفضى بها إلينا، ذلك أن هذه المنتجات واقعية، هى الأخرى، بمعنى ما: صحيح أن المريض هوالذى خلق هذه التخييلات من عنده، لكننا إن نظرنا إلى الأمر من ناحية المرض النفسى، فهذه الظاهرة لا تقل خطراً عما إذا كان المريض قد خبر بالفعل تلك الأحداث التى يرويها؛ فالتخييلات جزء من واقع

نفسى يقابل الواقع المادى، وهذا يقربنا تدريجيًا من أن نفهم أن الواقع النفسى فى دنيا الأمراض النفسية هو العامل الغالب الحاسم.

من بين الخبرات التى نكاد نلتقى بها دائمًا فى طفولة كل عصابى، أحداث لها دلالة خاصة، فهى جديرة منا باهتمام خاص.. من تلك: اطلاع الطفل على الفعل الجنسى بين أبويه، أو أن يقوم شخص كبير بإغرائه وإغوائه، ومنها تهديده الخصاء، ومن الخطأ الجسيم أن نحسب أن هذه الأحداث لا تعدو أن تكون تخييلات لا أساس لها من الواقع، بل هى على العكس مما يمكن تأكيد وقوعه بصورة، لا يرقى إليها الشك فى أغلب الأحيان، وذلك بشهادة الكبار من أقارب المريض، فليس من النادر مثلا أن نعلم أن ولداً صغيراً شرع يلعب بعضوه التناسلى، وهو لا يعرف بعد أن هذا عمل غير لائق يجب ستره، فكان جزاؤه أن هدده أبواه أو من يقوم بحضانتها ببتر قضيبه أو قطع يده الآثمة.

ولايتردد الآباء غالبًا فى الاعتراف بهذه الواقعة حتى إن سألناهم فيها، لأنهم يرون أنهم كانوا علي حق فى زجر الطفل على هذا النحو، بل إن كثيراً من المرضى يحتفظون بذكرى شعورية واضحة لذلك التهديد، خاصة إن كان قد وجه إليهم فى طفولتهم المتأخرة، فإن قامت الأم أو امرأة أخرى بهذا التهديد، أشارت فى العادة إلى أن الأب أو الطبيب هو الذى سيقوم بتنفيذ ما وعدت به، وتجدون فى الكتاب الشهير Struwelpeter الذى ألفه «هوفمان» طبيب الأطفال بفرنكفورت، والذى يدين بذيوعه وروعته إلى ما ينطوى عليه من فهم عميق للعقد الجنسية وغيرها عند الأطفال ـ تجدون فيه تحويرا لفكرة الخصاء يستعض عنها ببتر إبهام الطفل عقاباً له على إمعانه فى مصه.

ومع هذا فمما يتعذر تصديقه أن يهدد الأطفال بالخصاء بهذه الكثرة الغالبة التى تبدو لنا من تحليل العصابيين،وثمة ما يحملنا على أن نفترض أن الطفل يتصور هذا التهديد فى بادئ الأمر على أساس من إشارات وتلميحات معينة، حين يعرف أن الإشباع الشهوى الذاتى شيء محرم محظور، ثم حين يكتشف العضو التناسلى للأنثى فيكون لهذا الاكتشاف وقع فى نفسه، كذلك ليس من البعيد إطلاقا، حتى فى أسر الطبقات غير العاملة أن يكون الطفل ـ وهومن يحسبه الناس عاجزاً عن الفهم والتذكر ـ قد اطلع على تواصل جنسى بين والديه أو غيرهما من الكبار، فلما فهم ما رآه فيما بعد، أخذ يستجيب لوقع هذا الانطباع فى نفسه.

غير أنه حين يصف عملية التواصل الجنسى التى اطلع عليها فيردفها بكثير من التفاصيل الدقيقة، التى لايمكن أن يكون قد لاحظها بنفسه أو عندما يصفها، كما هى الحال فى أغلب الأحيان، كأنها تحدث من خلف، فليس ثمة مجال للشك فى أن هذا التخييل قد نشأ من ملاحظته السفاد بين الحيوانات (الكلاب مثلا) . أما الدافع إليه فحالة الحرمان التى يشعر بها الطفل فى سن البلوغ، وهو الذى لم يصب مما رآه إلا انطباعا بصرياً، على أن أكثر هذه التخييلات تطرفاً وإغراباً، أن يدعى الطفل أنه اطلع على الفعل الجنسى بين أبويه وهو لمّا يزل جنيناً فى بطن أمه.

أما الإغواء الذى يتعرض له الطفل فخليق باهتمام خاص، لأنه لايكون فى أغلب الأحيان شيئاً متخيلاً بل ذكرى حادثة وقعت له، غير أنها لحسن الطالع لاتكون فى أغلب الأحوال واقعية بالقدر التى تبدو به من نتائج التحليل لأول وهلة، إن إغواء الأطفال من قبِل أطفال فى أعمارهم نفسها أو يكبرونهم سناً، أكثر تواتراً وشيوعاً من إغواء الكبار لهم، وحين تقص علينا البنات أن الأب هو الذى يقوم بدور المستغوى (كما هى الحال دائما أو تكاد) لايعود ثمة مجال للشك فى الطابع الوهمى لهذا الافتئات، أو فى الدافع الذى يستتر وراءه، على أن الإغواء إن لم يقع بالفعل ، كان التوهم فى العادة وسيلة يغطى بها الطفل على مرحلة الشهوية الذاتية من نشاطه الجنسى؛ فهو إذ يعزو موضوع رغبته الجنسية، واهماً، إلى هذا العهد الباكر من حياته، فإنه يتفادى بذلك شعوراً بالخجل من ممارسته الاستمناء، ومع هذا فلا تحسبوا أن انتهاك الأطفال من قبل أقاربهم الذكور شىء لايوجد البتة إلا فى عالم الوهم والخيال، فقد عالج أغلب المحللين حالات وقع فيها هذا الانتهاك بالفعل، وأمكن إثباته بصورة لايتطرق إليها الشك، غير أنه حدث فى سن متأخرة عن السن التى يحدده فيها الطفل.

يلوح لنا من هذا كله أن خبرات الطفولة التى من هذا النوع عنصر ضرورى لابد منه للمرض النفسى، فإن كانت خبرات واقعية حدثت بالفعل، فذاك، وإن لم تصدر عن الواقع كانت مصوغة من شواهد وتلميحات يتممها الخيال، والنتيجة واحدة فى الحالتين، فلم يتح لنا إلى اليوم أن نلحظ فارقًا فى النتائج ينجم عن غلبة التخييل أو غلبة الواقع فى هذه الخبرات، هنا نلتقى مرة أخرى بواحدة من «علاقات التتام» التى عرضت لنا من قبل فى أكثر من موضع، وإن تكن هذه العلاقة الأخيرة أكثرها غرابة من دون شك.

تُرى من أين تأتى الحاجة إلى هذه التخييلات، ومن أى معين يستمد الطفل ما تتضمنه من مواد؟.

أما الدافع الغريزى إليها فلا يمكن أن يكون موضع شك، غير أنه لايزال علينا أن نفسر لمَ تنطوى التخييلات نفسها دائما على المحتوى نفسه والمضمون، لدىّ الجواب عن هذا السؤال، وأعلم أنه سيبدو لكم على جانب كبير من الجرأة، فأنا أعتقد أن هذه **التخييلات البدائية**[1] (كما أحب أن أسميها هى وبعض تخييلات أخرى كذلك) ميراث يرجع إلى نشأة النوع الإنسانى وتطوره، ميراث يستمد منه الفرد خبرة العصور الأولى حين تعوزه خبراته الخاصة.

ومن الممكن، فيما أرى، أن كل ما يُروى لنا اليوم أثناء التحليل على صورة أوهام وتخييلات ـ كالإغواء فى مرحلة الطفولة، والتهيج الجنسى لرؤية الفعل الجنيب بين الأبوين، وكالتهديد بالخصاء، أو الخصاء نفسه على وجه أصح ـ من الممكن أن كل تلك كانت فى المراحل البدائية للأسرة وقائع حاصلة، وأن الطفل، فى تخييلاته، لايعدو أن يسد ما فى خبراته الشخصية الحقيقية من ثغرات بخبرات حقيقية ترجع إلى ماض سحيق، وهكذا نرى ـ كما كان يلوح لى كثيراً ـ أن سيكولوجيا الأمراض النفسية من شأنها أن تزودنا علما بالمراحل البدائية من التطور الإنسانى، وأن تلقى عليها من الضوء ما لا يلقيه أى ميدان آخر.

هذه المسائل التى نناقشها تتطلب منا أن نتأمل فى أصل ذلك النشاط النفسى المسمى «بنسج الخيال» وأن ننعم النظر فى الدور الذى يقوم به.. تعرفون أن الخيال موضوع له شأن كبير، وإن كان مكانه من الحياة النفسية لم يفهم بعد فهمًا واضحًا، وإليكم ما أستطيع أن أخبركم به عن هذا الموضوع:

تعلمون أن الإنسان تحمله الضرورة الخارجية تدريجيًا على أن يراعى الواقع، وهذا يعلمه أن يوائم بين سلوكه وما سميناه «مبدأ الواقع»، لذا فهو مضطر إلى أن يتنازل بصورة مؤقتة أو دائمة عن موضوعات مختلفة وأهداف تلتمسها رغباته فى طلب اللذة، بما فى تلك رغبته الجنسية، غير أن التنازل عن اللذات كان على الدوام أمراً شاقاً تألم له نفس الإنسان، فهو لا يقدر على تحقيقه دون أن يعوضه على وجه من الوجوه، لذا أخرج الإنسان لنفسه لوناً من النشاط النفسى يتيح لمصادر اللذة المهجورة،

---

1. Primitive P[illegible]eantasies

ولوسائل طلبها أن تبقى وأن تحتفظ بوجودها فى صورة تجعلها بمنجاة من مطالب الواقع، وتعفيها من «اختبار الواقع»، وهكذا لاتلبث كل رغبة أن تلبس اللبوس الذى تبدو فيه راضية مشبعة، وليس من شك فى أن تحقيق الرغبات فى الخيال يجلب الرضا للفرد، حتى وهو يعلم أنه تحقيق متوهم غير واقعى، ففى الخيال إذاً يستطيع الإنسان أن يتحرر من إسار العالم الخارجى، وأن ينعم بتلك الحرية التى اضطر إلى التنازل عنها فى عالم الواقع منذ عهد بعيد، وهو بهذا قد استنبط لنفسه حيلة يكون بها، على التناوب، حيواناً يلتمس اللذة، وإنساناً يحكمه العقل؛ ذلك أن الإشباع الطفيف الذى يستطيع أن يظفر به من الواقع لا يروى له غليلا.

ولقد قال فونتين Fontane : «من المحال أن يستغنى الإنسان عن حيل وذرائع مساعدة»، وإن خلق الإنسان لهذه المملكة النفسية من الأخيلة والأوهام، شبيه كل الشبه بما يحتفظ به من «رحبات طبيعية» يحتجزها فى الأماكن التى يخشى أن تبدلها مقتضيات الزراعة والصناعة والتجارة غير ما كانت عليه، وأن تذهب كل تلك بمظهر الأرض الأصيل، فلا يعود يعرفه الإنسان أن يضحى بها آسفًا من أجل الضرورة فى أماكن أخرى ـ فيها ينمو كل شىء ويترعرع كما يحلو له، حتى ما لانفع وما قد يضر، وأن مملكة الأوهام والأخيلة رحبة من هذا النوع، انتزعها الإنسان من جور مبدأ الواقع.

إن أظهر مثال لمنتجات الخيال، «أحلام اليقظة» التى سبق أن تكلمنا عنها، ورأينا أنها ذرائع خيالية لإشباع رغبات شهوية أو رغبات فى الطموح والعظمة، وهو إشباع يكون على درجة من الوفرة والرخاء، بقدر ما يكون الواقع ملحًا فى طلبه الصبر والامتثال من الفرد، بل إنا لنرى فى هذه الأحلام لب السعادة الخيالية فى وضوح أخاذ، تلك السعادة التى تجعل الظفر باللذة غير مرتهن بموافقة الواقع. ونعرف أن أحلام اليقظة هذه، نواة أحلام النوم ونماذج مصغرة لها. والحق أن حلم النوم لا يعدو أن يكون فى جوهره حلم يقظة يحرفه النشاط النفسى الذى تتميز به حالة النوم، وتجعله حرية النزعات أثناء النوم أكثر مرونة مما هو عليه، ونعرف من قبل أن أحلام اليقظة لاتكون بالضرورة شعورية، فثمة أحلام يقظة لا شعورية، لذا قد تكون أحلام اليقظة اللاشعورية مصدراً لأعراض عصابية كما هى مصدر لأحلام النوم.

أما الدور الذى تقوم به الأخيلة فى تكوين الأعراض فيتضح لكم مما يلى: لقد قلت لكم إن الليبدو فى حالة الحرمان تنكص على عقبيها فتحتل المراكز التى احتازتها

وتركت بها مقادير معينة من طاقتها، ولست أريد أن أصحح هذا القول أو أن أحذف منه شيئا، بل يتعين عليّ أن أدخل فيه حلقة رابطة، هى: كيف تجد الليبيدو لنفسها طريقا يعود بها إلى مراكز التثبيت هذه؟

إن ما خلفته الليبيدو وراءها من موضوعات واتجاهات لم تهجره بصورة تامة مطلقة، فهذه الموضوعات والاتجاهات أو مشتقاتها، ما تزال باقية محفوظة بدرجة معينة من الشدة فى شكل تصورات خيالية، وليس على الليبيدو إلا أن تنسحب إلى تلك التصورات؛ لكى تجد الطريق الذى يعود بها إلى مراكز التثبيت المكبوتة طراً، لقد كانت هذه الأخيلة تنعم بقدر معين من التسامح، ولم يدب الصراع بينها وبين الأنا مهما كان التعارض بينها وبينه قوياً شديداً، لكن هذا الوضع لايدوم إلا إذا توافر شرط معين - هو شرط من نوع **كمى** لا يعود يتوافر الآن، بعد أن ارتد مجرى الليبيدو إلى الموضوعات الخيالية، ونتيجة لهذا الارتداد، تزداد شحنة تلك الموضوعات بالطاقة الليبيدية بينها وبين الأنا أمراً لا محيص عنه، فهى وإن كانت شعورية أو لا شعورية من قبل، فإنها تتعرض الان للكبت من جانب الأنا، كما تتعرض لجذب شديد من جانب اللاشعور، وهكذا تقفل الليبيدو راجعة من أخيلة وأوهام أصبحت الآن لا شعورية إلى أصول هذه الأخيلة فى اللاشعور؛ أى تعود إلى مراكز التثبيت الخاصة بها مرة أخرى.

إن نكوص الليبيدو إلى الموضوعات الخيالية مرحلة تتوسط الطريق الذى يفضى إلى تكوين الأعراض وهى مرحلة جديرة باسم خاص يدل عليها، لقد اقترح «يونج» Jung أن يسميها **بالانطواء**(١)، وهى تسمية ملائمة جد موفقة، إلا أنه يسىء استعمالها فيطلقها كذلك على أشياء أخرى، أما نحن فنعنى «بالانطواء» انصراف الليبيدو عن الإمكانات التى تتيح لها الإشباع الواقعى، وتراكمها الشديد على أخيلة كانت مباحة من قبل لأنها غير ضارة؛ فالشخص المنطوى شخص لم يصبه العصاب بعد، لكنه فى حالة غير مستقرة، فإن لم يجد مخارج أخرى لطاقة الليبيدو المكبوتة ظهرت لديه أعراض المرض عند أول اختلال يصيب القوى غير المستقرة التى تؤثر فى حالته، أما الطابع غير الواقعى للإشباع العصابى، وزوال الفارق بين الخيال والواقع، فيوجدان لدينا ابتداء من مرحلة الانطواء.

---

1. Introversion.

لاشك أنكم لاحظتم أنى أدخلت فى شروحى الأخيرة عاملا جديداً فى سلسلة الأسباب التى تسلم إلى المرض: وأعنى بذلك عامل الكم والمقدار فى الطاقات التى لها دخل فى الأمر، وهو عامل يتعين علينا دائما أن نضعه موضع اعتبار؛ فالتحليل الكيفى المحض للشروط المسببة لايكفى، وبعبارة أخرى.. فإن النظرة **الديناميكية** المحضة للعمليات النفسية التى نحن بصددها غير كافية، ولابد لنا أن نتناول هذه العمليات من ناحية **اقتصادية أيضًا**.. فعلينا أن نعرف أن الصراع لايثور بين نزعتين متعارضتين إلا متى بلغت الشحنات الوجدانية درجة معينة من الشدة، حتى إذا كانت الشروط الناجمة عن مضمون هاتين النزعتين قائمة منذ عهد طويل..

والأمر بالمثل فى أهمية العامل الجبلي كشرط مسبب للمرض؛ إذ تتوقف هذه الأهمية على الغلبة الكمية لإحدى النزعات الجزئية للغريزة على أخرى فى الاستعداد الجبلى، بل فى وسعنا أن نقول إن كل الاستعدادات البشرية متشابهة من حيث الكيف تشابها تامًّا، فلا يختلف بعضها عن بعض إلا من حيث نسبها الكمية.. كذلك لايقل هذا العامل الكمى أهمية وخطراً من ناحية قدرة الفرد على مقاومة الأمراض النفسية، فالأمر مرتهن هنا **بكمية** الليبيدو غير المنصرفة التى يستطيع الفرد أن يحتفظ بها فى حالة معلّقة، كما هو مرتهن **بمقدار** ما يستطيع أن يوجهه منها إلى أهداف غير جنسية عن طريق «الإعلاء».

إن الهدف النهائى للنشاط النفسى، وهو الهدف الذى يمكن أن تصفه، من الناحية الكيفية، بأنه نزوع إلى التماس اللذة وتفادى الألم، يبدو لنا، إن نظرنا إليه من الناحية الاقتصادية، كأنه مجهود يهيمن على توزيع تلك المقادير من التنبيهات المستقرة فى الجهاز النفسى، ويعمل على منع الألم الذى ينجم عن تجمعها وتراكمها.

هذا كل ما نويت أن أخبركم به عن تكوّن الأعراض فى الأمراض النفسية. وأرى لزاما علىَّ أن أذكركم مرة أخرى بأن كل ما بسطته لكم لاينصبّ إلا على تكون الأعراض فى الهستريا، أما فى الحواز فالأمر يختلف عن هذا من عدة نواح، وإن كانت الوقائع الأساسية واحدة فى الحالتين، من تلك أن المقاومات التى يبذلها الأنا فى وجه النزعات التى تطلب الإشباع ـ وهى مقاومات سبق أن تكلمنا عنها بصدد الهستريا ـ تبدو على نحو أكثر ظهوراً وبروزاً فى حالة الحواز، وإنها لتطغى على الصورة الكلينيكية لهذا العصاب متخذة شكل ما نسميه «بالردائد»[1].

---

1. Reaction - formations

وإنا لنجد هذه الفوارق نفسها وأخرى أبعد منها مدى فى الأمراض النفسية الأخرى التى لم يكتمل البحث بعد فى كيفية تكون أعراضها.

وقبل أن أختتم هذا الحديث، أود أوجه أنظاركم إلى جانب من أطرف ما تتسم به حياة الخيال، ذلك أن هناك طريقاً يعود بالمرء من مملكة الخيال إلى دنيا الواقع - وهذا هو الفن، فالفنان، هو الآخر، شخص ذو استعداد منطو، وليس بينه وبين العصاب شقة بعيدة، وهو شخص تحفزه نزعات عنيفة صاخبة، فهو يصبو إلى الظفر بالقوة والتكريم والثراء والشهرة ومحبة النساء، ولكن تعوزه الوسائل إلى تلك الغايات.. لذا فهو يعزف عن الواقع - شأنه فى ذلك شأن كل فرد لم تشبع رغباته - وينصرف بكل اهتمامه وبكل طاقته اللبيدية أيضًا، إلى الرغبات التى تخلقها حياته الخيالية، مما قد يسلم به فى سهولة إلى المرض النفسى، فلابد أن تواتيه كثير من الظروف حتى لا يؤول إلى هذا المصدر، ومن المشاهد المعروف أن كثيراً من الفنانين تتعطل قدراتهم تعطلا جزئياً من أثر المرض النفسى.

أكبر الظن أن تكون جبلّة الفنان ذات قدرة كبيرة على الإعلاء، كما أنه يتميز بمرونة خاصة تمنعه من القيام بضروب الكبت التى تسبب النزاع، وإليكم كيف يقع الفنان على طريق يعود به إلى الواقع ليس الفنان بالشخص الوحيد الذى اختصت حياته بالخيال؛ فالخيال المعتدل يرضى نفوس البشر جميعًا، وكل نفس محرومة عطشى تتطلع إليه وتلتمس فيه العزاء والسلوى، لكن غير الفنانين من الناس لا يستطيعون أن ينهلوا من منابع الخيال إلا لمامًا أو متاعًا محدوداً، فما يكابدونه من ضروب قاسية للكبت يحول بينهم وبين الاستمتاع به، إلا أحلامًا نادرة من أحلام اليقظة لابد لها، فوق هذا، أن تصبح شعورية، لكن الفنان الحق يستطيع أكثر من هذا، فهو يعرف، أولا، كيف يفرغ على أحلام يقظته صورة تجذرها من طابعها الشخصى الذى يثير التبرم والضيق فى نفوس الغير، وبذا تصبح مصدراً للذة والإمتاع، كما أنه يعرف أيضًا كيف يحورها تحويراً يخفى به ما هو عالق بأصولها من آثار للألم والصراع والحرمان.

وأخيراً فلدى الفنان قدرة عجيبة على تشكيل هذه المادة الخاصة؛ حتى يجعل منها صورة تعبر عن الأفكار التى يتضمنها خياله تعبيراً صادقاً، وهو يعرف بعد ذلك كيف يضفى على هذه الأفكار مسحة قوية من الإمتاع تصفيها من شوائب الكبت أو

تموه عليها، ولو بصورة مؤقتة على الأقل، ومتى أفلح فى هذا كله، أتاح للآخرين فرصة هى بلسم وعزاء ومتنفس لمنابع اللذة اللاشعورية لديهم، تلك المنابع التى أضحت بعيدة الإدراك عزيزة المنال، ومن ثم فهو خليق بتقديرهم وإعجابهم، وبذا يكون قد ظفر عن طريق خياله بما لم يوجد من قبل إلا فى خياله : التكريم والقوة ومحبة النساء.

المحاضرة الرابعة العشرون

التهيج العصبى العادى

لقد قطعنا مرحلة شاقة من بحثنا فى المحاضرة السابقة، لذا يطيب لى أن أترك الموضوع مؤقتا، وأن أتجه بالحديث إليكم.

ذلك أنى أعرف أنكم غير راضين.. فقد كنتم تحسبون أن «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى» لابد تختلف عما نحن بصدده كل الاختلاف، وكنتم تتوقعون أمثلة منتزعة من الحياة لا استعراضاً لنظريات، وقد تقولون إن قصة الطفلتين اللتين تسكن إحداهما الطابق الأرضى والأخرى فى الطابق الأول - قد كشفت لكم عن شىء يتصل بتعليل الأمراض النفسية، غير أنها من نسج الخيال، وكان الأجدر أن تكون مستمدة من صميم الحياة، أو تقولون إننى حين وصفت لكم فى أول الأمر عرضتين (لم يكونا من نسج خيالى كذلك)، وأطلعتكم على حل ألغازهما وعلى صلتهما بحياة المريض، اتضح لكم ما نعنيه «بمعنى» الأعراض ودلالتها.

وودتم لو مضيت على هذا المنوال، غير أنى بدل أن أفعل هذا، مضيت أعرض عليكم نظريات طوالا غامضة لم تكن مكتملة قط ، وكنت أضيف إليها على الدوام شيئًا ما، كما تناولت أفكاراً لم أطالعكم بها من قبل، هذا إلى أنى عدلت عن التفسير الوصفى إلى النظرة الديناميكية، ثم أعرضت عن هذه النظرة بدورها إلى النظرة التى أسميتها «الاقتصادية»، وكان لكم أن تتساءلوا عما إذا لم يكن بين الاصطلاحات الفنية التى كنت أستعملها ما يحمل نفس المعنى والمدلول، فلم أكن أستبدل بعضها ببعض إلا طلبا للتفصح وتنويع اللفظ.. الحق أنى جعلت أسرد عليكم وجهات نظر فسيحة ضخمة كمبدأى اللذة والواقع، وكالبقايا الموروثة من نشأة النوع الإنسانى وتطوره، وبدل أن أفسر لكم شيئا منها، كنت أتركها تمر بكم سراعا حتى تختفى من أنظاركم.

لِمَ لم أبدأ التمهيد لدراسة الأمراض النفسية بموضوع «التهيج العصبى»، وهو شىء تعرفونه جميعا، ويستثير اهتمامكم منذ عهد طويل؟

لِمَ لم أبدأ بالحديث عن الطبيعة الخاصة للعصبيين، واستجابتهم غير المفهومة للتأثيرات الخارجية وحين يتعاملون مع الناس، وعن سرعة التهيج لديهم، وعما يتسمون به من تعذر الركون إليهم والاعتماد عليهم، ومن عجزهم عن إتقان أى عمل يقومون به؟

لِمَ لم أسر معكم رويداً رويداً فأبدأ بشرح الأشكال البسيطة المعهودة للتهيج العصبى؛ حتى نصل إلى المشكلات التى تتصل بمظاهره المتطرفة المعماة؟

الحق أنى لا أستطيع أن أنكر شيئا من هذا، أو أن أقول إنكم مخطئون، ولست مختالا بقدرتى على العرض حتى يخيل إلىّ أن لكل عيب فيه فتنة خاصة، بل أعتقد أنى لو كنت سلكت غير هذا السبيل لكان خيراً لكم. والواقع أنى كنت أقصد إلى هذا، غير أن الإنسان لايملك دائمًا أن يحقق ما يقصد إليه حتى إن كان خير المقاصد وأنفعها، ففى مادة البحث نفسها ما يهيمن عليه ويباعد بينه وبين مقاصده الأولى، حى أن عملا عاديا كترتيب مادة البحث لا يخضع برمته لسلطان الباحث وإرادته، بل إنه ينصاغ من تلقاء نفسه فلا يسع المرء إلا أن يدهش ويتساءل فيم رتبت المواد على هذا النحو لا على غيره.

أكبر الظن أن عنوان هذه الأحاديث «محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى» لم يعد يوافق بعد هذا القسم الذى يتناول الأمراض النفسية، فقد كانت دراسة الهفوات والأحلام تمهيداً للتحليل النفسى، أما نظرية الأمراض النفسية فهى التحليل نفسه، ولاأعتقد أنى استطعت أن أقدم لكم معلومات كافية عن نظرية الأمراض النفسية فى مثل هذا الوقت القصير وعلى هذا النحو المسرف فى التركيز.. فقد كانت أرمى قبل كل شىء إلى أن أعرض عليكم فكرة مجملة عن معنى الأعراض ودلالاتها، وعن كيفية تكوُّنها، والشروط الداخلية والخارجية اللازمة لاستحداثها، هذا على الأقل ما حاولت أن أفعله، وهو على وجه التقريب لب ما يمكن أن يزودنا به التحليل اليوم.

ولقد أتيح لنا أن نردفه بكثير مما يتصل باللبيدو وتطورها، وبشىء عن نمو الأنا، أما المبادئ الرئيسية لطريقة التحليل، والأفكار العريضة التى يتضمنها مفهومى اللاشعور والكبت (المقاومة)، فقد عرفتموها من قبل فى المحاضرات التمهيدية، وسترون فى إحدى المحاضرات التالية إلى أى حد يمتد صرح التحليل وبناؤه، على أننى لم أخف عنكم أننا استخلصنا كل ما وصلنا إليه من نتائج من فئة واحدة فقط من الاضطرابات العصبية، وهى ما أسميناه «الأعصبة الطرحية»، ومع هذا فلم نترسم أنكم لم تظفروا بمعلومات مكتملة متقنة عن الموضوع، ولم تحتفظوا بكل تفصيل فيه، فآمل أن تكونوا قد كونتم لأنفسكم فكرة عامة عن الوسائل التى يصطنعها التحليل النفسى والمشكلات التى يتناولها ، والنتائج التى وصل إليها.

لقد خلتكم ترغبون أن أبدأ موضوع الأمراض النفسية بوصف لسلوك الشخص العصبى وكيف يقاسى من مرضه، ويدرؤه عن نفسه ويتكيف له، وهذا لاشك موضوع على جانب كبير من الطرافة، كما هو جدير بالبحث والدرس، فضلاً عن أنه سهل المأتى، لكن هناك أسباباً تدعو إلى عدم البدء به، فلو أننا بدأنا بالتهيج العصبى العادى، لما تسنى لنا أن نميط اللثام عن اللاشعور، وأن نكشف عن الأهمية البالغة للبيدو، ولكنا فى وضع يجعلنا نحكم على الوقائع ونقدرها كما تبدو لأنا المريض، وغنى عن البيان أن هذا الأنا ليس حكماً مقسطا يمكن الركون إليه، فالأنا هو القوة التى تنكر وجود اللاشعور، وتفرض عليه الكبت، فكيف نتخذه حكماً يعتمد عليه فيما يتصل باللاشعور؟..

إن المطالب الجنسية المستهجنة هى أول شىء يتناوله الكبت، فمن البديهى أننا لانستطيع البتة أن نكوّن لأنفسنا فكرة عن أهميتها ومداها من نظرة الأنا إليها، ومن ثَم يجدر بنا، حالما تأخذ طبيعة الكبت فىَ أن تتكشف، ألا نتخذ من أى الخصمين المتصارعين حكَماً، وخاصة الخصم المنتصر، فنحن نعرف أن كل ما يمكن أن يخبرنا به الأنا من شأنه أن يورطنا فى الخطأ، وقد كنا نستطيع أن نثق بالأنا، لو كنا نعرف أنه القوة الفعالة فى هذه المظاهر كلها، أى إنه الذى يريد الأعراض وينشؤها إنشاءً، غير أننا نعلم أن الدور الذى يقوم به فى عدد كبير من هذه المظاهر دور سلبى منفعل، وأنه يحاول أن يخفى هذا الطابع السلبى وأن يموّه عليه.. ومع ذلك فليس فى وسعه أن يمضى فى ادعائه هذا على الدوام، إذ هو مضطر ـ فى أعراض العصاب ـ الحوازى ـ أن يعترف هناك قوى غريبة تناهضه، وأنه لايملك مقاومتها إلا فى عسر وعناء.

أما الذين لايكترثون لهذا التحذير، فيأخذون ما يقول به الأنا على ظاهره، ولايحفلون بما ينطوى عليه من زيف، فهم يتخلصون بهذا، دون شك، من جميع الصعوبات التى تعترض تأويل التحليل النفسى للاشعور والجنسية والدور السلبى للأنا، وفى وسع هؤلاء أن يقولوا ـ مع الفرد أدلر A. Adler ـ إن «الخلق العصبى» هو سبب العصاب لا نتيجة له.. غير أنهم يكونون فى الوقت عينه عاجزين عن تفسير أدنى تفصيل فى تكون الأعراض، أو تأويل حلم واحد.

رب قائل يقول: «أليس من الممكن أن نُنصف الأنا فنقر بالدور الذى يقوم به فى التهيج العصبى وفى تكوين الأعراض، دون أن نهمل العوامل الأخرى التى كشفها

التحليل إهمالا صارخاً؟».

وأجيب عن هذا «بأن الأمر لابد أن يكون ممكناً على التحقيق، وسوف يتم فى يوم من الأيام، غير أن الاتجاه الذى يسلكه التحليل النفسى فى الوقت الحاضر لا يصلح للبدء بهذا العمل» .. على أننا نستطيع أن نتنبأ باللحظة الذى يفرض فيها هذا العمل نفسه على التحليل، فهناك أعصبة يبدو فيها دور الأنا أكثر ظهوراً وأبعد غوراً منه فى تلك التى تناولناها بالبحث، وقد أسميناها الأعصبة النرجسية وسيعيننا الفحص التحليلى لهذه الاضطرابات على تعيين أثر الأنا فى الأمراض النفسية تعييناً دقيقًا بعيداً عن الانحياز.

على أن هناك موقفًا يتخذه الأنا من عُصابه، وهو موقف بارز أخاذ بحيث كان من الممكن أن يوضع موضع اعتبار منذ البداية، وهو موقف لاتخلو منه أى حالة فيما يبدو. لكنه يكون ظهر ما يكون عليه فى اضطراب لانزال بعيدين عن معرفته وفهمه ـ هو **عصاب الصدمات**[1]، عليكم أن تعرفوا أننا حين نبحث فى تعليل الأشكال المختلفة للأعصبة جميعاً، وفى كيفية تكوينها، فإننا نلتقى دائماً بالعوامل نفسها، نجدها بعينها فعالة فى كل حالة، إلا أن يقوم عامل معين بالدور الرئيسى فى تكوين الأعراض لعصاب معين، وأن يقوم عامل آخر بهذا الدور بالنسبة لعصاب آخر.

مثل ذلك على التحديد كمثل فرقة مسرحية يقوم كل فرد منها بتمثيل دور معين ـ البطل، أمين السر، الشرير .... إلخ، غير أن هذا لا يحول بينه وبين أن يختار دوراً آخر غير دوره المعتاد، متى اقتضت مصلحته ذلك، فالأخيلة والأوهام التى تستحيل أعراضا، تكون على درجة من الوضوح والظهور لا نظير لها فى غير الهستريا، على حين تطغى المقاومات والرواند[2] التى يكوّنها الأنا وتسود الصورة الكلينيكية للحواز، أما فى البارانويا[3] فالسمة البارزة فى أهجسته هى تلك الحيلة التى أسميناها «الصياغة الثانوية» أو «اللأم»[4] ونحن نتحدث عن الأحلام، إلى غير تلك.

---

(١) Traumatic neurosis وهو ما سبق أن أسميناه الصُّدام (بضم الصاد).

2. Reaction - formations

3. Paranoia

4. Secondary elaboration

من هذا أننا نكشف فى **أعصبة الصدمات**، خاصة تلك التى تنشأ من أهوال الحرب، عن دافع شخصى، أنانى نفعى، يهدف إلى وقاية الفرد وحمايته وربما لايكون هذا الدافع وحده كافيا لخلق المرض، غير أنه يفضى إلى انفجاره ثم يعمل على الاحتفاظ به والإبقاء عليه متى تكوّن، وهو دافع يهدف إلى وقاية الأنا من الأخطار التى دهمت الفرد فكانت سببًا عارضاً فى انفجار المرض كما أنه لا يتيح له الشفاء إن لم يطمئن المريض إلى أن هذه الأخطار لن تعود، أو لم يظفر بما يعوضه عما تعرض له من خطر.

على أن الأنا، فى كل الطرز الأخرى من العصاب، يبدى هذا الاهتمام نفسه بنشوء المرض والإبقاء عليه، فقد ذكرنا من قبل أن الأنا يفضى إلى تكوين العرض إلى حد ما، لأن للعرض جانبا يرضى نزعة الأنا إلى الكبت، يضاف إلى هذا أن حل الصراع عن طريق تكوين العرض هو أنسب الحلول جميعاً، وأكثرها تماشياً مع مبدأ اللذة، فلا مراء فى أنه يوفر على الأنا مجهودا داخليا مضنيا شاقا، والواقع أن هناك حالات يضطر فيها الطبيب نفسه أن يسلِّم بأن حَلّ الصراع عن طريق العصاب هو أقل الحلول ضرراً وأدناها إلى تسامح المجتمع..

فلا تدهشوا إن قلت لكم إن الطبيب نفسه قد ينحاز أحيانا إلى جانب المرض الذى يحاربه، ليس على الطبيب حرج إذا لم يقصر رسالته فى مواقف الحياة جميعًا على التعصب للصحة وشئونها، فهو يعرف أن فى الدنيا ألوانا أخرى من الشقاء إلى جانب الشقاء العصابى، وضروبا من الألم الحقيقى الذى لايمكن تفاديه، كما يعرف أن الضرورة قد تقسر الإنسان على أن يضحى بصحته لأن التضحية بشخص واحد قد تدرأ العذاب غالبا عن كثير من الناس، فإن استطعنا أن نقول إذاً إن المريض **يعتصم بالمرض** ويستعيذ به من شر الصراع، فلا معدى لنا عن أن نسلم أن لهذا الاعتصام ما يبرره فى كثير من الأحيان، وهنا يتعين على الطبيب أن ينسحب فى صمت وفى حرص وكياسة.

على أننا إن صرفنا النظر عن هذه الحالات الخاصة، فالظاهر فى الحالات العادية أن الأنا يظفر، عن طريق العصاب، بنوعية من **الربح** الداخلى، قد يضاف إليه فى ظروف معينة ربح خارجى بيِّن تتفاوت قيمته الواقعية من حالة لأخرى، وإليكم أكثر الأمثلة ذيوعًا لهذا الربح: ذلكم مثل الزوجة التى يسرف زوجها فى إساءتها والبطش

بها، فإذا بها تكاد تعتصم أبداً بالعصاب إن كان استعدادها يهيؤها لهذا الاعتصام، أو كانت على درجة من الاستحياء أو الوفاء تمنعها أن تعقد صلات سرية برجل آخر، أو لم تكن على درجة كافية من الشجاعة تتحدى بها المواضعات الاجتماعية وتنفصل عن زوجها، كذلك إن لم يعد لها أملٌ في أن تعول نفسها أو تقع على زوج خير منه، وفوق هذا كله إن كانت لاتزال تتعلق بهذا الزوج الجافي تعلقا جنسيا شديداً.

هنا يصبح المرض في يدها سلاحا تصطنعه في كفاحها مع هذا الرجل، سلاحا تستخدمه لحمية نفسها أو للانتقام منه، فهي تستطيع أن تشكو من مرضها ، في حين لا تجرؤ على الشكاة من زوجها، وبما أنها تجد في الطبيب حليفا لها، فهي ترغم زوجها على أن يترفق بها ـ وهو الذي كان يمعن في إساءتها في الظروف العادية ـ وعلى أن ينفق المال من أجلها، وعلى أن يأذن لها في ترك البيت، وبذا يتسنى لها أن تتحرر بعض الوقت من ربقة الحياة الزوجية، فإذا كان هذا الغنم الخارجي أو «العارض» الذي يظفر به الأنا عن طريق المرض ـ إذا كان هذا الغنم كبيراً لايستطيع الفرد أن يجد في الواقع بديلا خيراً منه، ضعف الأمل في علاج العصاب إلى حد كبير.

ربما يعترض أحدكم فيقول إن هذا الربح الذي يظفر به المريض من مرضه، أدنى إلى أن يكون حجة تعزز الرأي الذي نبذته، وهو أن الأنا نفسه يرغب في العصاب ويخلقه خلقا.. رويدكم لحظة! فربما كانت الوقائع التي ذكرت لاتعني أكثر من أن الأنا يحلو له أن يقبل العصاب الذي لا يقدر على منعه بحال، لأنه يحاول أن يستغله خير استغلال وأن يظفر من العصاب بكل ما يستطيع أن يتيحه له، وعلى قدر ما يكون هناك ربح من وراء العصاب، يطيب للأنا أن يكون على وئام معه.

لكن للعصاب مساوئه وعيوبه أيضاً، ونحن نرى في العادة أن صفقة الأنا خاسرة حين يتقبل العصاب ويرضخ له، ذلك أن حسمه الصراع على هذا النحو يكلفه ثمناً باهظاً، إذ ربما كانت الآلام الناجمة عن الأعراض تعدل آلام الصراع الذي تحل محله، وأكبر الظن أنها تزد عليها أذى وسوءاً، فيود الأنا أن يتحرر من ألم الأعراض لكن دون أن يفلت منه الربح الذي يجنيه من المرض ، وهذا مالا يفلح في الوصول إليه تحديداً.. من هذا نرى أن الأنا يبعد أن يكون له في هذا الشأن ذلك الأثر الفعّال الذي كان يظنه، وهذه ناحية يجب أن تقر في أذهاننا.

ستعرض لكم فرص كثيرة تقومون فيها على أمر العصابيين بوصفكم أطباء، ولن يفوتكم أن تلحظوا أن أكثر هؤلاء توجعاً وشكاة من أمراضهم، ليسوا أكثرهم طواعية وتقبلا للعلاج وأقلهم مقاومة له، بل الواقع غير هذا، فلن يشق عليكم أن تدركوا أن كل ما من شأنه أن يزيد ربح المريض من مرضه، يعزز فى الآن نفسه المقاومة الناجمة من الكبت، ويزيد من صعوبات العلاج.

إن الربح الذى يجلبه المرض والذى يولد مع العرض، إن صح التعبير، يضاف إليه فيما بعد ربح ثان، فحينما يقوم فى النفس تنظيم كالمرض ويتشبث بها مدة طويلة من الزمن، فإن الأمر ينتهى به إلى أن تكون له صفة الكيان المستقل، وإلى أن يحتفظ بذاته لأن له غريزة تحافظ على بقائه، كما يقوم بينه وبين القوى النفسية الأخرى - حتى القوى المناصبة له - نوع من الميثاق على العيش بسلام، ويندر ألا تواتيه فرص وظروف تتضح فيها فائدته من نواح أخرى، وبذا يكتسب وظيفة ثانية تعزز مركزه وتعمل على استمرار وجوده.

وإليكم مثلا لهذا لا أستمده من علم الأمراض، بل من الحياة الجارية: ذلكم مثل عامل كفء يكتسب رزقه من عمله وكده، قد أصابته عاهة أثناء قيامه بعمله فأقعدته عنه، وهو يعيش الآن من دخل صغير جعل له تعويضاً عما أصابه، كما أنه عرف كيف يستغل عاهته فى التسول، واستجداء الناس، فحياته الجديدة على ما هى عليه من سوء هى وليدة الشىء نفسه الذى حطم حياته الأولى، فلو أننا أزلنا عاهته كان أول ما يصيبه حرمانها مما يقيم أوده، لأننا سنكون إذ ذاك بإزاء مشكلة قدرته على أن يستأنف عمله الأول.. مثل هذا الاستغلال الثانوى للمرض، يمكن اعتباره فى حالة العصاب **ربحاً ثانياً** يضاف إلى الربح الأول.

وأود أن أنصح لكم بوجه عام ألا تغضوا من الأهمية العملية للربح الناجم عن المرض، على ألا تغلوا فى التأثر بدلالته النظرية، وبصرف النظر عن الحالات الخاصة التى قدمنا، فهذا الربح يذكرنا بأحد الأمثلة التى أوردها «أوبرلاندر» Obérlander فى رواية «الأوراق الطائرة» عن ذكاء الحيوانات:

يروى أن أعرابيا كان يركب جمله فى درب ضيق على حافة جبل شاهق عميق. حتى إذا كان عند منعطف بالدرب، إذا به يجد نفسه على حين فجأة إزاء أسد يريد أن يثب عليه.. أين المفر؟ الجبل قائم عن يمينه،والهاوية فاتحة فاهها عن شماله، ولاسبيل إلى الارتداد والهرب، فأما الأعرابى فقد استسلم للتهلكة، وأما الجمل فلم يشاركه هذا الرأى، بل قفز بصاحبه فى الهوة تاركاً الأسد ينظر إلى ما فعل، فالعون

الذى يستمده المريض من عصابه، شبيه فى العادة، بما يكسبه الراكب من هذه القفزة فى الهاوية، وربما كان السبب فى هذا حسم الصراع بتكوين الأعراض عملية آلية تشهد بعجز الفرد عن مواجهة متطلبات الحياة وتصرفه عن استغلال خير ما لديه من قوى.. ولو كان ثمة مجال للاختيار، لآثر الإنسان أن يختار أشرف الهزيمتين، وهى الهزيمة التى تتلو صراعاً نبيلا مع الأقدار.

على أن هناك سبباً آخر حملنى على ألا أبدأ نظرية الأمراض النفسية بموضوع التهيج العصبى العادى، وربما تحسبون أنى اخترت هذا الطريق، لأنى لو سلكت الطريق المضاد، لشقَّ علىَّ أن أقدم الدليل على الدور الذى تقوم به العوامل الجنسية فى تسبيب الأمراض النفسية، غير أنكم تكونون خاطئين، ففى الأعصبة الطرحية يتعين علينا أن نتناول الأعراض بالتأويل قبل أن نصل إلى هذا التصور، أما فى الطرز العادية من الأعصبة المسماة بالفعلية[1]، فتبدو الأهمية العليّة للحياة الجنسية فى صورة خام تثب من تلقاء نفسها إلى العين.

لقد فطنت إلى هذه الحقيقة منذ أكثر من عشرين عاماً، عندما ساءلت نفسى عن السبب الذى يجعلنا لا نلقى بالاً قط فى الحياة الجنسية للعصابيين ونحن نقوم بفحصهم، وقد ترتب على بحوثى فى تلك الناحية أن فقدت ما كنت أنعم به من عطف من لدن مرضاى، غير أن تلك الجهود ما لبثت أن أسلمت بى إلى النتيجة الآتية. وهى : أن العصاب ـ وأقصد العصاب الفعلى ـ لا قيام له متى كانت الحياة الجنسية سوية.

صحيح أن هذه العبارة تغفل الفروق الفردية بين الناس إغفالا كبيراً، ومما يعيبها أيضاً أن مفهوم كلمة «سوي» مفهوم غير محدد، غير أنها من حيث اتجاهها العام لاتزال تحتفظ بقيمتها إلى اليوم، وقد استطعت فى ذلك الحين أن أكشف عن بعض الصلات التى تقوم بين طرز معينة من التهيج العصبى واضطرابات جنسية معينة، وأنا على يقين أنى لو أوتيت اليوم مادة للبحث شبيهة بما كانت أعالجها إذ ذاك، لاستطعت أن أظفر بتلك الملاحظات السالفة.

لقد كنت ألحظ أن الرجل الذى يقنع بنوع من الإشباع الجنسى المنقوص ـ كممارسة العادة السرية مثلا ـ يصاب بطراز معين من العصاب الفعلى، وأن هذا العصاب سرعان ما يزول لتحل محلة صورة أخرى من المرض متى عمد الرجل إلى

1. Actual neuroses.

لون آخر من الإشباع الجنسى الذى لايكفل الإرضاء، من هذا كان يتسنى لى أن أحدس التغيير فى أسلوب المريض للإشباع الجنسى من التغير الذى يطرأ على حالته، ولقد تعلمت من هذه التجربة أن أتشبث بما كنت افترضته، وأظنه اضطرنى إلى أن أتغلب على مراوغة المرضى وأضطرهم إلى الاعتراف وتأييد ما أراه، والحق أن المرضى كانوا من أجل هذا يؤثرون أن يلتمسون العون من أطباء آخرين، لا يصرون على استخبار حياتهم الجنسية.

كذلك لم يغب عنى فى ذلك الحين أن السبب فى العصاب لايمكن رده دائما إلى الحياة الجنسية.. فلئن كان المرض يصيب بعض الناس من جراء اضطراب فى حياتهم الجنسية، فهو يصيب آخرين فى أعقاب خسارة مالية فادحة أو مرض عضوى خطير. على أن تفسير هذه الاحتمالات المختلفة لم يتضح إلا فيما بعد، حين بدأنا نُبصر بالصلات المتبادلة بين الأنا واللبيدو. وكانت إلى ذلك العهد صلات ظنية، وقد توطد هذا التفسير وازداد ثباتاً وغناء بتعدد الأدلة على وجود هذه الصلات؛ فالفرد لايسقط صريعًا إلا حين يفقد الأنا قدرته على كبح اللبيدو بطريقة أو بأخرى، فكلما قوى الأنا سهل عليه القيام بهذه المهمة، ومتى أصابه الضعف لسبب من الأسباب، نجمت عن هذا الضعف النتيجة نفسها التى تنشأ عن إسراف اللبيدو فى متطلباتها، ومن ثم يمهد الطريق للعصاب. وهناك صلات أخرى أكثر توثقًا من تلك بين الأنا واللبيدو، لكنها لا تعنينا فى هذا المقام، فسنتركها إلى ما بعد، على أن الشىء الأساسى الذى يلقى لنا الضوء أكثر من غيره على هذه الناحية هو أن الطاقة التى تدعم الأعراض وتساندها، مستمدة من اللبيدو فى كل حالة من الحالات، ومهما تكن الظروف التى تستفز المرض، وهذا يقتضى صرف قسط كبير من اللبيدو.

يتعين علىَّ الآن أن أوجه أنظاركم إلى الفارق الأساسى بين «الأعصبة الفعلية» والأعصبة النفسية[1] التى أشبعنا القول فى الفئة الأولى منها - وهى الأعصبة الطرحية، فى هذين الصنفين من العصاب، تصدر الأعراض عن اللبيدو أى إنها طرق شاذة لاستخدام اللبيدو، ووسائل بديلة لإشباعها، غير أن أعراض الأعصبة الفعلية - كالصداع والإحساس بالألم، وتهيج عضو من الأعضاء، وضعف وظيفة معينة أو تعطيلها - ليس لها «معنى» وذلالة نفسية، وهى أعراض جسمية، لا فى مظاهرها فحسب (كما هى الحال أيضاً فى أعراض الهستريا مثلاً) بل ومن حيث العمليات التى

---

1. Psychoneuroses.

تحدثها، فهى تنشأ دون أن تشترك فى إحداثها أية حيلة[1] من تلك الحيل النفسية المعقدة التى نعرفها، مثلها فى ذلك مثل أعراض الأعصبة النفسية، فيما كان يظنه الناس وقتاً طويلاً.

لكن كيف يمكن أن تكون الأعراض، فى هذه الحال، مظاهر لليبيدو التى نعرف أنها قوة نفسية ؟.

أما الجواب عن هذا فليس أبسط منه شيء، فأذنوا لى أن أذكركم باعتراض، كان من أول الاعتراضات التى وجهت إلى التحليل النفسى. لقد قيل إن التحليل النفسى يحاول أن يفسر الأعراض العصابية بنظريات علم النفس وحدها، وتلك محاولة عقيمة فاشلة، فالنظريات السيكولوجية ليس فى وسعها أن تفسر عصابا على الإطلاق، لقد طاب لهؤلاء النقاد أن يتناسوا أن الوظيفة الجنسية ليست وظيفة نفسية محضة، كما أنها ليست وظيفة بدنية محضة، وأنها تؤثر فى الحياة البدنية كما تؤثر فى الحياة النفسية، فإذا كنا نلتقى بالمظاهر النفسية للاضطرابات الجنسية فى أعراض الأعصبة النفسية، فليس من المستغرب أن نجد الآثار البدنية المباشرة لاضطرابات هذه الوظيفة فى الأعصبة الفعلية.

فى الطب الكلينيكى إشارة قيمة تعيننا على فهم الأعصبة الفعلية، وهى إشارة يعترف بها كثير من الباحثين، تلك أننا لو نظرنا إلى تفاصيل الأعراض التى تتميز بها هذه الأعصبة، وإلى قدرتها على التأثير فى جميع أجهزة الجسم ووظائفه، فلا يفوتنا أن نلحظ أنها تتشابه تشابها لايخطؤه التقدير بالحالات الباثولوجية التى تنشأ من التأثير المزمن لتوكسينات خارجية، أو من أثر زوالها فجأة، أى بحالات التسمم أو حالات الحمية والامتناع، ويزداد التشابه بين هاتين المجموعتين من الإضطرابات لو وازنا بينهما وبين حالات مرضية ـ كمرض بازدو Basdow[2] ـ تعزى إلى فعل سموم لاتلج الجسم من خارج، بل تتكون من عملية الأيض[3] الداخلى.

1. Mechanism.

(٢) مرض يتميز بجحوظ ظاهر فى المقلتين، وتضخم فى الغدة الدرقية، وارتجاف عضلى وسرعة فى خفقان القلب، يصحبه اضطراب نفسى بقدر قليل أو كبير. ويقال إنه يرجع إلى إفراط فى نشاط الغدة الدرقية «المترجم».

3. Metabolism

وعندى أن هذه الأوجه للتشابه تحتم علينا أن نذهب إلى أن الأعصبة الفعلية تنشأ من اضطرابات فى أيض المواد الجنسى، تنجم إما عن إفراط فى التوكسينات الجنسية لا يحتمله الفرد، أو عن ظروف داخلية بل ونفسية تحول دون استغلال هذه المواد استغلالا صحيحا.

وقد تضمنت الحكم الشعبية منذ القدم مثل هذه الأفكار عن طبيعة الرغبة الجنسية، إذ تقول إن الحب نوع من «السُكر أو التسمم» Intoxication تحدثه مشروبات أو جرعات معينة - ولو أن هذه الحكم تعزو أثره الفعال إلى عامل خارجى، وإنا لنجد فى هذا الصدد ما يذكرنا بالمناطق الشهوية وما يدعو إلى التأمل فى العبارة التى تقول إن التهيج الجنسى دق ينشأ فى الأعضاء المختلفة من الجسم..

أما بعد هذا، فما نسميه «بالأيض الجنسى» أو «كيمياء الوظيفة الجنسية» لايزال ميدانا مجهولا لا نعلم عنه شيئا، بل لا نستطيع أن نقول بوجود مادتين جنسيتين إحداهما «ذكرية» والأخرى «أنثية»، أو أن نقنع فنفترض وجود توكسين جنسى واحد هو السبب فى كل ما يصدر عن الليبدو من تنبيهات، ولنذكر أن هذا الصرح النظرى الذى نرفعه للتحليل النفسى ليس فى الواقع إلا الطبقة الفوقانية من بناء، يجب أن يرتكز على أساسه العضوى يوماً ما، وهو أساس لانزال نجهله حتى اليوم.

إن ما يتميز به التحليل النفسى، من حيث هو علم من العلوم، هو طرقه فى البحث، لا المادة التى يتناولها، وهى طرق تطبيقها - دون أن تجور على طبيعتها الجوهرية - فى دراسة تاريخ الحضارة وعلم الأديان وعلم الأساطير، كما تطبق فى دراسة الأمراض النفسية، والتحليل النفسى لا يهدف إلا إلى غرض واحد، ولا يصنع شيئا أكثر من الكشف عن اللاشعور فى الحياة النفسية، لذا فالمسائل المتصلة بالأعصبة الفعلية - تلك الأعصبة التى تنشأ أعراضها فى أكبر الظن من إصابات تسمية مباشرة - ليست مما ينصاع للبحث التحليلى، وبما أنه لايستطيع أن يلقى الضوء على موضوعها، فهو يذرها للبحوث الطبية والبيولوجية.

ولعلكم أدركتم الان لِمَ رتبت مادة البحث التى عرضتها عليكم، على هذا النحو فلو كنت أريد أن أقدم لكم **تمهيدًا لدراسة الأمراض النفسية**، لكان الرأى أن أبدأ من الأشكال البسيطة للأعصبة الفعلية حتى أصل إلى الاختلالات النفسية المعقدة التى تنجم عن اضطراب الليبدو: فهذا هو الطريق الطبيعى للعرض ما فى ذلك شك.

ومن ثم كان يتعين على أن أعرض عليكم كل ما عرفناه فى نواحٍ شتى عن الأعصبة الفعلية، أو كل ما نظن أننا نعرفه عنها، حتى إذا بلغنا الأعصبة النفسية، قدمت لكم التحليل النفسى على أنه أهم الوسائل الفنية التى تعنينا على الاستبصار فى هذه الحالات، غير أن ما أردت إليه هو أن أقدم لكم **تمهيداً للتحليل النفسى**، وهذا ما صرحت به.. لذا كان الأجدر أن أطالعكم بفكرة عن التحليل النفسى، فذلك أولى من أن أعلمكم شيئاً عن الأمراض النفسية، وبذا لم أر مبرراً للبدء بدراسة الأعصبة الفعلية، فموضوعها لا يسلم إلى شىء تنتفع منه دراسة التحليل، كذلك أعتقد أن اختيارى هذا كان خيراً لكم، فالتحليل النفسى خليق أن يحفل به كل شخص مثقف، لما يقوم عليه من مقدمات جزلة، ولما له من صلات عدة بغير من العلوم والفنون، أما نظرية الأمراض النفسية فباب من الطب كغيره من الأبواب.

ومع هذا، فأنتم على حق إن كنتم ترقبون أن نهتم بموضوع الأعصبة الفعلية أكثر من ذلك، بل إن صلتها الكلينيكية الوثيقة بالأعصبة النفسية تحتم علينا هذا الاهتمام، لذا أقول لكم إننا نميز ثلاثة أشكال خالصة من الأعصبة الفعلية: **النورستانيا والحصار**[١] **و وسواس المرض**[٢]، على أن هذا التصنيف لم يسلم من الاعتراض، فمع أنها اصطلاحات دارجة مشاعة إلا أن مفهوماتها غامضة غير مستقرة، بل إن من رجال الطب نفراً يناهضون كل محاولة للتصنيف فى ذلك العالم المريك للظواهر العصابية، ويعترضون على التمييز بين وحدات كلينيكية أو طرز من الأمراض، حتى أنهم لا يقرون التفرقة بين الأعصبة الفعلية والأعصبة النفسية..

وعندى أنهم مسرفون ينتكبون الطريق الذى يمشى بهم إلى التقدم والرقى، هذه الأشكال الثلاثة من العصاب قد توجد أحياناً على صورة نقية محضة، لكنها توجد غالباً وقد امتزج بعضها ببعض، أو وقد اندمجت مع اضطراب عصابى نفسى. على أن هذا لاينبغى أن يمنعنا من أن نميز بين بعضها وبعض. وحسبنا أن ننظر إلى التفرقة التى يقيمها علم المعادن بين المعادن والأتبار.. فالمعادن تصنف فرادى؛ لأنها لاشك توجد فى الغالب على شكل بلورات تتميز تميزاً واضحاً عن البيئة المحيطة بها، فى حين أن الأتبار تتكون من معادن شتى، التأم بعضها ببعض التئاماً يبعد أن يكون عارضاً بل يخضع، على التحقيق، للظروف التى تكونت فيها، أما الأمراض النفسية

1. Anxiety - neurosis.

2. Hypochondria.

فلانزال نجهل الكثير عن عملية تطورها بحيث لايجوز لنا أن نصوغ بشأنها نظرية تشبه نظرية الأتبار، ومن المحقق أننا نسلك الطريق الصحيح لو بدأنا بعزل العناصر الكلينيكية التى نعرفها، وفصلها عن الكتلة التى تحتويها ـ تلك العناصر التى يمكن أن نقارنها بالمعادن.

ثم إن هناك صلة جديرة بالذكر بين أعراض الأعصبة الفعلية والأعصبة النفسية، فهى تزيد من معرفتنا بتكون الأعراض فى الأعصبة الأخيرة: تلك أن عرض العصاب الفعلى غالبا ما يكون نواة العرض فى العصاب النفسى والمرحلة الممهدة له.

وتبدو هذه الصلة فى وضوح ظاهر بين النورستانيا والعصاب الطرحى المسمى بالهستريا التحولية، وبين الحصار والهستريا الحصرية، كما تبدو كذلك بين وسواس المرض وأشكال أخرى من الاضطراب النفسى، سنتكلم عنها فيما بعد باسم «البرانرفينيا» (الخبل المبكر والجنون الهجاسى)[1].

ولنضرب لذلك مثلا وجعَ الرأس أو الظهر، إذ يُظهر لنا التحليل أن هذه الأوجاع قد أصبحت ـ بفضل حيلتى التكثيف والنقل ـ إشباعًا بديلاً عن مجموعة بأسرها من الأخيلة أو الذكريات اللبيدية، غير أن هذه الأوجاع كانت فى يوم من الأيام أوجاعًا واقعية حقيقية، إذ كانت عرضاً مباشراً لتسمم من توكسين جنسى، وتعبيراً جسميا عن تهيج لبيدى، ونحن لا نزعم بأية حال أن لكل الأعراض الهسترية نواة من هذا النوع، وإن كان هذا هو الواقع فى الكثير الغالب من الحالات، فالهستريا تستغل كل الآثار (السوية والباثولوجية) التى تحدثها التنبيهات اللبيدية فى الجسم، وتكيفها تكييفا خاصاً بقصد تكوين أعراضها، فكأن التنبيهات الوجدانية تقوم بدور حبة الرمل التى تحيج حيوان المحار فيغلفها بصدفة الدرّة، على هذا النحو يستغل العصاب النفسى العلامات العابرة للتهيج الجنسى التى تصاحب الفعل الجنسى، فيتخذ منها أنسب المواد وأكثرها ملاءمة لتكوين أعراضه.

وثمة عمليات أخرى من هذا النوع ذات أهمية خاصة من ناحيتى التشخيص والعلاج؛ إذ يحدث غالبا عند الأشخاص المهيئين للعصاب الذين لم يستبد بهم بعد جهاراً والذين يعانون حالة عضوية مَرَضية، كالتهاب أو إصابة ـ يحدث غالبا أن

---

1. Paranoia.

تستثير هذه الحالة عملية تكون الأعراض، وإذا بهذه العملية تنشب أظفارها على التو في العرض الواقعى فتصور به الأخيلة اللاشعورية، التى كانت رابضة ترقب أول مناسبة تعبر بها عن نفسها، في أمثال هذه الحالات يحاول الطبيب علاجا بعد آخر، وقد يعمل على إزالة الأساس العضوى الذى ترتكز عليه الأعراض دون أن يحفل بالهيكل العصابى الصاخب الذى يقوم على هذا الأساس، أو يهاجم العصاب الذى أتاحت له هذه الفرصة الظهور، دون أن يكترث للسبب العضوى، الذى كان له حجة يعتل بها. وإن صلاحية هذه الطرق رهن بما تصادفه من نجاح؛ فليس من اليسير أن تصوغ عامة لمثل هذه الحالات المختلفة.

المحاضرة الخامسة والعشرون

الحصـر

لاريب فى أن ما قدمته لكم عن التهيج العصبى العادى فى محاضرتى السابقة قد بدا لكم على أكبر جانب من النقص والقصور عن استيفاء الموضوع، فأنا أعلم ذلك، وأظن أن أكثر ما أثار دهشتكم منه، أنى لم أشر بكلمة إلى «الحصر»[١] مع أنه عرض يشكو منه أغلب العصابيين، ويصفونه بأنه أفظع ما ترزح تحته نفوسهم من أعباء. والحق أن الحصر قد يبلغ عند هؤلاء درجة بعيدة من الشدة تدفعهم إلى القيام بأكثر الأعمال إغراباً وأقربها إلى الجنون، غير أنى لم أرد إلى أن أتملص من دراسة هذا الموضوع، بل كنت أقصد على العكس أن أطرحه أمامكم فى أوضح صورة له، وأن أناقشه معكم تفصيلا.

إن الحصر ليست به حاجة فى ذاته إلى الوصف، فمن المؤكد أن كل فرد منا قد خبر هذا الإحساس شخصياً، أو بعبارة أدق قد خبر هذه الحالة الوجدانية ولو مرة واحدة فى حياته، غير أنه يلوح لى أن الناس لم تتساءل قد تساؤلا جدياً عن السبب فى أن العصابيين هم، على التحديد، أشد الناس عذاباً من الحصر، وأكثرهم تعرضاً لشره وأذاه، فلعلهم وجدوا هذا أمراً طبيعيا: ألا نراهم يخلطون فى استعمال كلمتى «عصبى»[٢] و«قليق»[٣] كما لو كانتا تعنيان المدلول نفسه؟ على أنهم ليسوا على حق فى هذا فثمة أناس يكابدون الحصر دون أن يكونوا عصابيين بحال، كما أن من العصابيين من تبدو لديهم أعراض عدة ليس من بينها الحصر.

ومهما يكن من أمر فمن المحقق أن مشكلة الحصر نقطة مركزية تلتقى عندها ألوان شتى من مسائل على أكبر جانب من الأهمية، كما أنها لغز يلقى حله فيضاً من الضوء على حياتنا النفسية بأسرها، ولا أقول إنى سأعرض عليكم حلا كاملا لهذه المشكلة غير أنكم تتوقعون من دون شك أن يكون التحليل النفسى قد تناول هذه المشكلة بوسائل تختلف عن وسائل الطب الأكاديمى.

---

(١) Anxiety .

(٢) Nervous .

(٣) Anxious .

إن الطب يركز اهتمامه الرئيسى فى العمليات التشريحية التى تحدث عن طريقها حالة الحصر، ويصرح بأن الأمر يتلخص فى تهيج النخاع المستطيل، ثم يقول للمريض إنه يعانى «عصاباً» فى العصب الحائر. والواقع أن النخاع المستطيل لشىء عجيب ظريف، لازلت أذكر كم كلفتنى دراسته بالأمس من وقت وعناء، غير أنه يتعين علىّ اليوم أن أعترف بأن العلم بالمسالك العصبية التى تطرقها التنبيهات الصادرة من النخاع المستطيل، لا يقدم لنا شيئا يعيننا على فهم الحصر من الناحية السيكولوجية.

فى وسعنا أن نتكلم عن الحصر وقتاً طويلاً، دون أن نلقى بالا إلى التهيج العضبى بتة، ولن يشق عليكم أن تفهمونى متى وصفت لكم هذا الحصر بأنه حصر **موضوعى (واقعى)**[1] يقابل نوعًا آخر هو الحصر **العصابى**[2]. فالحصر الواقعى يبدو لنا شيئا طبيعيا مفهومًا، إذ نرى أنه استجابة لإدراك خطر خارجى؛ أى لأذى يتوقعه الفرد ويتنبأ به، وأنه مرتبط بمنعكس الهرب[3]، ومن ثم يمكن اعتباره مظهراً لغريزة المحافظة على النفس..

أما الظروف التى تستثير الحصر، ونعنى بها الموضوعات والمواقف التى يشعر الفرد إزاءها الحصر، فغنى عن البيان أنها تتوقف إلى حد كبير على مبلغ معرفة الفرد وشعوره بالقوة إزاء العالم الخارجى، فنحن نرى من الطبيعى أن يخاف الرجل البدائى من إنطلاق مدفع أو من كسوف الشمس، فى حين لايخافها إنسان متحضر يعرف المدفع ويتنبأ بالكسوف، وقد تكون المعرفة نفسها سبباً من أسباب الخوف أحياناً، لأنها لا تسارع إذ ذاك بالكشف عن موضع الخطر، فالإنسان البدائى ينكص فزعا إن رأى فى الغابة أثراً لأقدام حيوان مفترس، لأنه يعرف من هذا أن الحيوان غير بعيد عنه، فى حين أن هذا الأثر نفسه يستغلق على الرجل المتحضر فلا يحرك منه ساكناً، كذلك يفزع البحار المجرب إن آنس من جانب الأفق سحابة صغيرة تعنى عنده اقتراب العاصفة، بينما تبدو السحابة نفسها لمسافر على السفينة شيئا لا يؤبه له.

---

1. Objective, real.
2. Neurotic.
3. Reflex of flight.

على أننا لو أنعمنا النظر، لرأينا أن القول بأن الحصر الواقعى (الموضوعى) حصر معقول ملائم للظرف الذى يستثيره، قول يقتضى أن نعيد النظر فيه؛ ذلك أن الموقف الملائم الوحيد الذى يجب اتخاذه حيال الخطر الداهم، هو أن يبدأ الإنسان بأن يوازن فى هدوء بين قواه الخاصة وبين جاسمة الخطر المحيق به، ثم يقطع بعد ذلك بما إذا كان الهرب أو الدفاع أو الهجوم، خير وسيلة للخلاص من الخطر، وفى مثل هذا الموقف ليس ثمة مجال للخوف ولاداعى له، إذ من الممكن أن تجرى الأمور من دونه، بل من الراجح أن تكون خيراً مما هى عليه، إن لم يتدخل الخوف، لذلك ترون أن الخوف متى زاد عن حده، كان عقبة فى سبيل العمل، بل وفى سبيل الهرب، والغالب أن تكون الاستجابة للخطر خليطاً من الشعور بالخوف والسلوك الدفاعى، فالحيوان المذعور يشعر بالرعب ثم يهرب، لكن الهرب لا الرعب هو العنصر الملائم المعقول فى موقفه هذا.

قد يميل بنا هذا إلى أن نقرر أن تمخُض[1] الحصر لايكون البتة أمراً مواتيًا معقولا، على أننا لو حللنا الموقف الذى يحيط بالحصر تحليلا دقيقًا، فربما وسعنا أن ننفذ إلى حقيقته وأن نستبصر فى أمره، إن أول ما نلحظه فى هذا الموقف هو «التأهب» للخطر، يبدو فى صورة انتباه مرهف وتوتر حركى، ولا ريب فى أن هذه الحالة من التأهب والترصد، حالة ملائمة مناسبة، قد يتعرض المرء من دونها لعواقب خطيرة. ثم يتلو هذه الحال نشاط حركى قد يتخذ شكل الهرب أو السلوك الدفاعى من جهة، وذلك الإحساس الذى نسميه بالحصر من جهة أخرى، وكلما كان تمخض الحصر محدوداً بحيث لم يزد على أن يكون مجرد لمحة أو إشارة، كان أثره طفيفا فى إعاقة الانتقال من حالة التأهب القلق إلى حالة الفعل، وجرت الأمور بأسرها فى يسر وعلى نحو غير معقول، من هذا يلوح أن **التأهب القلق**[2] هو العنصر الملائم المواتى فى موقف الحصر، وأن تمخض الحصر هو العنصر الذى لايتناسب الموقف.

لا أريد أن أتعرض لما تنطوى عليه ألفاظ «الحصر» و«الخوف» و«الذعر» فى اللغة الدارجة من مدلولات: أتعنى بها الشيء نفسه أم أشياء مختلفة، والرأى عندى أن

---

(١) Development يراد بالتمخض التولد والتحرك والظهور. «المترجم».

2. Anxious readiness.

الحصر[1] يتصل بالحالة النفسية لا بالموضوع، وأن الانتباه فى **الخوف**[2] يكون مركزاً فى الموضوع على التحديد، فى حين يبدو أن **للذعر**[3] معنى خاصاً ـ فهو يشير بوجه خاص إلى الحالة التى يستثيرها الخطر حين يبدو الفرد وهو غير متوقع له، وغير مستعد لملاقاته بتلك الحالة السابقة من التأهب القلق، حتى ليمكن القول إن المرء يتقى الذعر ويرؤه عن نفسه عن طريق الحصر.

ومهما يكن من أمر، فأحسب أنه لم يفتكم أن كلمة «الحصر» تستعمل بمعان كثيرة حتى لقد صار مدلولها غامًا غير محدد. فهى تعنى بوجه عام تلك الحالة الذاتية[4] التى تنشأ من إدراك ما أسميناه «تمخض الحصر»، ويطلق على مثل هذه الحالة الذاتية اسم الحالة الوجدانية أو «الوجدان»[5]، والآن ماذا يراد بالحالة الوجدانية من الناحية الديناميكية ؟.

إنها على التحقيق شىء على جانب كبير من التعقيد، فهى تنطوى قبل كل شىء على طائفة معينة من تعصيبات[6] أو تفريغات[7] حركية تتلوها إحساسات خاصة، وهذه الإحساسات على نوعين: نوع ينتظم إدراك الأفعال الحركية التى قام بها الفرد، وآخر يشتمل على الإحساسات المباشرة السارة وغير السارة التى تصبغ الحالة الوجدانية بما نسميه «مصحتها» الغالبة..

على أنى لا أعتقد أن هذا الوصف ينفذ إلى صميم الحالة الوجدانية وطبيعتها، ففى حالات وجدانية معينة يلوح لنا أننا نستطيع أن ننفذ إلى أبعد من هذه العناصر، وأن نرى أن النواة التى يتبلور حولها بناء الحالة الوجدانية برمته، قوامها تكرار خبرة معينة من خبرات الماضى كان لها أثر عميق فى حياة الفرد، وقد لاتكون هذه الخبرة سوى انطباع قديم سحيق فى القدم من طراز عام شامل، أى انطباع لاينتمى إلى التاريخ الماضى للفرد، بل إلى التاريخ الماضى للسلالة، وبعبارة أقرب، أقول إن الحالة الوجدانية تتكون على غرار نوبة الهسريا، أى إنها كهذه النوبة أثر وبقية لذكرى من الذكريات ، ومن ثم يمكن مقارنة نوبة الهستريا بحالة وجدانية فردية تومن حديثا،

1. Anxiety.
2. Fear.
3. Fright .
4. Subjective.
5. Affext.
6. Jnnervations.
7. Discharges.

كما يمكن اعتبار الحالة الوجدانية العادية تعبيراً عن هستريا عامة شاملة أصبحت وراثية.

لاتحسبوا أن ما أقوله الآن عن الحالات الوجدانية ميراث خلفه لنا علم النفس الأسوياء، بل الأمر على عكس هذا، فهذه الآراء نبتت فى تربة التحليل النفسى، ولاتعرف لها وطناً غيره، أما ما يقوله لنا علم النفس عن الحالات الوجدانية ـ نظرية جيمز ـ لانج مثلاً ـ فشىء لا يصح فى أذهاننا نحن أصحاب التحليل، ويتحصل علينا أن نناقشه، ومع هذا فليس ما نعرفه نحن عن الحالات الوجدانية هو العلم اليقين، إن هو إلا محاولة ابتدائية نوجه بها أنفسنا فى هذا الميدان الغامض، وأعود إلى حيث كنا فأقول:

نحن نعتقد أننا نعرف ما هو ذلك الانطباع القديم الذى ينشأ وجدان الحصر كأنه تكرار له، نعتقد أنه خبرة الولادة ـ وهى خبرة تتركز فيها طائفة من مشاعر أليمة وإحساسات جسيمة وألوان من تفريغ التنبيهات تؤلف فى مجموعها أول نموذج لأثر المواقف التى تكون الحياة فيها مهددة بالخطر.. ذلك الأثر الذى تكرر شعورنا به منذ الميلاد مرات عدة فى حالات الحصر.

والسبب فى وجدان الحصر عن الولادة هو تلك الزيادة الجسيمة فى التهيج التى تنجم عن انقطاع تجديد الدم (التنفس الداخلى): لذا فأول حصر يخبره الفرد من نوع تسممى، إن كلمة «الحصر» باللاتينية Angustiae ومعناها «الضيق»[1] تشير فى وضوح إلى ذلك العسر الضيق فى التنفس الذى ينجم عند الولادة من موقف واقعى، ثم يتكرر بعدها باطراد فى الحالة الوجدانية، ومما لا يخلو من دلالة أيضاً أن أول حالة للحصر تنبعث حين ينفصل الجنين عن أمه.

نحن نعتقد بطبيعة الحال أن النزعة إلى تكرار هذه الحالة الأولى للحصر، نزعة غرزت فى الجسن غرزاً عميقاً خلال أحقاب مديدة لا عدد لها، بحيث لايستطيع أى فرد أن يفلت من وجدان الحصر، حتى إن كان «مكدوف» Macduff الخرافى[*] الذى تحدثنا الأسطورة «أنه انتزع من أحشاء أمه»، أى لم يخبر عملية الولادة، أما أول

---

(١) مما يشار إليه فى هذا المقام أن «الحصر» فى العربية ـ وبابه طرب ـ هو ضيق الصدر، ومنه قوله تعالى ﴿حصرت صدورهم﴾. وهذا ما دعانى إلى استعمال هذه الكلمة الموفقة فى معناها وفى جرسها بدل كلمة «القلق» التى شاع استعمالها ترجمة للفظة الأفرنجية. «المترجم».

(*) مكدوف، هو قاتل ماكبث، انتقاماً لأبيه فى رواية شكسبير، التى تحمل اسم، «ماكبث» «المراجع».

نموذج لحالة الحصر عند غير الثدييات من الحيوان، فلا نستطيع أن نقول عنه شيئا، كذلك لا نعلم شيئا عن مجموعة الإحساسات التى تناظر شعورنا بالحصر، عند هذه الحيوانات.

ربما تودون أن تعرفوا كيف تسنى لنا أن نصل إلى هذه الفكرة، التى ترى أن الولادة هى أصل وجدان الحصر وأول طراز له.. لم تكن هذه الفكرة وليدة التأمل والنظر، بل لقد استعرتها على العكس من الفطنة الساذجة لسواد الناس، فقد كنت مجتمعا ذات يوم - وكان ذلك من سنوات خلت - مع نفر من الأطباء الناشئين حول مائدة للطعام، فأخذ أحد المساعدين بعيادة التوليد يقص علينا واقعة ظريفة حدثت خلال الامتحان الأخير للقابلات، فقد سئلت إحدى الطالبات عما يدل عليه وجود غائط الجنين فى مياه الولادة، فأجابت من فورها: «يدل على أن الطفل مذعور» وقد أثار جوابها هذا سخرية الممتحنين فلم يجيزوها، أما أنا فقد انحزت فى أعماق نفسى لما قالته القابلة، وذهب بى الظن إلى أن هذه المرأة الفقيرة من عامة الشعب، فقد كشفت بحدسها الصادق، عن صلة على جانب كبير من الأهمية.

ولنتجه إلى الحصر العصابى.. نتساءل عن مظاهره الخاصة وشروطه الخاصة عند العصابيين؛ وهو موضوع نستطيع أن نفيض القول فيه، إن أول شيء نلحظه عند هؤلاء المرضى، نوع من التوجس العام، وحصر هائم طليق - كما نسميه - يتأهب لأن يلقى بنفسه على مضمون أول فكرة يستطيع أن يتخذ منها حجة وتعلّة، وأنه ليؤثر فى أحكام المريض، ويستثير ألواناً من التوقع والترقب، ويتربص لكل فرصة يأنس فيها تبريراً لوجوده، ونحن نسمى هذه الحالة **حصر التوقع**[1] أو «الترقب القلق»، فالذين يسامون هذا النوع من الحصر، لاينفكون يتوقعون أسوأ ما يكون أن تنطوى عليه نتائج الأمور، ويرون فى كل حدث عارض نذيراً بالشر، ويؤولون كل ظن على أسوأ وجه. والنزعة إلى هذا النوع من توقع الشر سمة خلقية عند كثير من الناس، من دونها لايبدو عليهم المرض بحال من الأحوال. ونحن نعيب على هؤلاء مزاجهم الكدر وما هم عليه من تشاؤم، على أن حصر التوقع يوجد على الدوام وبدرجة ملحوظة فى اضطراب عصابى سميته «الحصار»، وأدخلته فى زمرة الأعصبة الفعلية.

يقابل هذا الطرز من الحصر، طراز آخر أكثر تحديداً وتركيزاً؛ إذ يتعلق بموضوعات ومواقف معينة، هذا هو الحصر الذى تتسم به المخاوف الشاذة الكثيرة

1. Expectant dread.

العدد التى تستثير الدهش غالبًا - والتى تسمى **بالموجسات**(١). ولقد عنى ستانلى هول - عالم النفس الأمريكى الشهير - منذ عهد قريب بأن يقدم لنا سلسلة بأسرها من هذه الموجسات تحمل أسماء يونانية أنيقة، شبيهة فى جرسها بالأسماء التى تطلق على «نقم مصر العشر»، إلا أن عددها يفوق العشر بكثير.

وإليكم طائفة من أشياء يمكن أن تصبح موضوعا أو مطرحًا لموجسة من الموجسات: الظلام، الهواء الطلق، الأماكن المفتوحة، القطط، العناكب، الثعابين، الفئران، الرعد، الأسنان المدببة، الدم، الأماكن المقفلة، الجماهير، الوحدة، عبور الجسور، السفر براً وبحراً،.. إلى غير تلك ، فإذا أردنا أن نشق لأنفسنا طريقاً وسط هذا الهرج، كان فى وسعنا أن نميز بين فئات ثلاث من الموجسات.

الواقع أن كثيراً من الموضوعات والمواقف المخوفة لها طابع بشع مستكره حتى بالنسبة لنا نحن الأسوياء، ولها صلة بالخطر، لذا فهذه الموجسات لا تبدو لنا مستغربة غير مفهومة، وإن كنا نجدها على درجة مسرفة من الشدة. من تلك أن أغلبنا يشعر بالنفور والتقزز حين يلتقى بثعبان مثلا، حتى لنستطيع أن نقول إن موجسة الثعابين عامة تشمل النوع البشرى بأسره، ولقد وصف شارل داروم، فى صورة نابضة، كيف أنه عجز عن أن يمسك نفسه عن الرعب إذ رأى ثعبانا يتأدى إليه زحفًا، مع أنه كان يعلم أن بينه وبين الثعبان حاجزاً سميكاً من الزجاج، أما الفئة الثانية فتندرج فيها المواقف التى لايزال بينها وبين الخطر فى السفر بالسكة الحديدية (خطر التصادم) أكبر منه لو مكثنا فى بيوتنا، كما نعرف أن السفينة قد يبتلعها اليم فنموت غرقى، لكنا لا نحفل بهذه الأخطار ولانعمل لها حساباً، بل نركب القطار والسفينة من دون حصر، كذلك لايمكننا أن ننكر أن الجسر قد ينقض فى اللحظة التى نعبره فيها، فيلقى بنا فى الماء، غير أن هذا لايحدث إلا على قلة وندور، فلا يمسى خطراً جدياً أن نضعه موضع اعتبار، وللوحدة أخطارها أيضاً، بل نحن نتفاداها فى ظروف معينة، لكن هذا لايعنى أن نكون عاجزين إطلاقا عن احتمالها برهة من الزمن وفى أية ظروف كانت.

والأمر بالمثل فيما يتصل بالجماهير والأمكان المقفلة والزوابع وغيرها. إن ما يبدو لنا مستغرباً فى هذه الموجسات ليس هو موضوعها بقدر ما هو شدتها، والواقع أن الحصر الذى يصاب الموجسة يتعذر وصفه على التحقيق! فقد يلوح لنا أحيانا أن

---

1. Phobias.

العصابيين لا يشعرون فى الواقع بخوف على الإطلاق إزاء موضوعات ومواقف قد تستثير خوفنا فى ظروف معينة، وهى موضوعات ومواقف يسمونها أنفسهم بما نسميها نحن.

بقيت فئة ثالثة من الموجسات، وهى فئة تبدو لنا مستعصية على الفهم مستغلقة كل الاستغلاق.. فحين نرى رجلا قويا ممتلئا بالعافية يتخطفه الخوف إن كان عليه أن يعبر شارعا أو ميدانا فى بلده الخاص الذى اعتاده وألف كل جانب فيه، أو حين نرى امرأة ناضجة صحيحة الجسم، تكاد تجن من الرعب إن مس أطراف ثوبها قط، أو انداس فى غرفها فأر، فكيف نستطيع أن نقيم الصلة بين الخوف فى هاتين الحالتين وبين الخطر الذى لايراه إلا هؤلاء الناس؟.

أما الموجسات التى تكون الحيوانات موضوعاته، فلايمكن أن تفسر بأنها شطط فى نفور من الحيوان يشترك فيه الناس جميعا، ولدينا الدليل على عكس هذا فى أن كثيراً من الناس لايستطيعون أن يمروا بجوار قط دون أن ينادوه ويداعبوه، والجرذ حيوان يخشاه كثير من النساء، ومع هذا فقد استعير اسمه فى اصطلاح من اصطلاحات التحبب والتدليل، فكأين من فتاة يحلو لها أن يناديها خطيبها بهذا الاسم، لايسعها إلا أن تصرخ فزعا حين ترى هذا الحيوان الصغير نفسه، أما الذين يخافون أن يعبروا الشوارع والميادين، فلا نستطيع أن نفسر سلوكهم هذا إلا بأن نقول إنهم يتصرفون كما يتصرف صغار الأطفال. فالتربية تعلم الطفل مباشرة أن يتفادى أمثال هذه المواقف الخطرة، والواقع أن الحصر لايجد إلى نفوس هؤلاء سبيلا، حين يعبر أحدهم الشارع أو الميدان فى صحبة غيره من الناس.

هذان الطرازان من الحصر: حصر التوقع «الهائم الطليق» والحصر المرتبط بالموجسات، مستقل أحدهما عن الآخر، فلا يسعنا أن نقول إن أحدهما يمثل مرحلة متقدمة عن الآخر، كما أنهما لايجتمعان معاً إلا فى حالات نادرة وكأنهما اجتمعا مصادفة واتفاقا، فأشد حالات الحصر العام لا تؤدى بالضرورة إلى موجسة من الموجسات، وثمة أناس تنغص حياتهم موجسة الأماكن المفتوحة، ومع هذا قد يكونون بمنجاة تامة من حصر التوقع، مصدر التشاؤم وترقب الشر.

ومن الثابت أن هناك موجسات معينة كموجسة الأماكن المفتوحة، وموجسة السفر بالسكة الحديد، لا تكتسب إلا فى سن النضج والكبر، فى حين أن أخرى كموجسات الظلام والرعد والحيوانات، يبدو أنها تظهر منذ السنوات الأولى من العمر،

فأما الأولى فتدل على أمراض خطيرة، وأما الأخرى فتبدو كأنها خصال مغرية وطباعة غريبة، وحين تبدو لدى الفرد موجسة من هذا النوع الثانى فلحن فى حل أن نشتبه فى وجود موجسات أخرى لديه من النوع نفسه، وأضيف إلى هذا أننا ندرج كل هذه الموجسات فى نطاق الهستريا الحصرية؛ أى إننا نعتبرها وثيقة الصلة بالاضطرابات المعروف باسم الهستريا التحولية.

أما الطراز الثالث من الحصر العصابى فيفضى بنا إلى مشكلة مبهمة معمّاة، إذ لانعود نرى على الإطلاق بين الحصر وبين الخطر المخوف، ففى الهستريا مثلا يظهر ذا الحصر فى صحبة الأعراض الهسترية الأخرى، أو فى ظروف مختلفة للتهيج نرقب فيها ظهور حالة وجدانية ما، ولشد ما ندهش إذ نرى وجدان الحصر بدلا منها، وهو أبعد شيء نتوقعه فى هذا الظرف، وأخيراً قد يبدو الحصر فى الهستريا دون أن تكون له صلة بأية ظروف لم يستثرها خطر داهم أو ظرف عصيب، ومما نلحضه أثناء هذه النوبات التلقائية أن تلك الحالة المعقدة التى سميناها الحصر قابلة لأن تنفك وتنحل إلى عناصر وأجزاء، فالنوبة فى جملتها يمكن أن يستبدل بها عرض واحد على جانب كبير من الشدة، كالارتعاد، والإغماء، وخفوق القلب، وتعسر التنفس، أما ذلك الوجدان العام الذى نعرف به الحصر فقد لا يوجد أو لا يكاد يبين، ومع ذلك فهذه الحالات التى نسميها، «مكافئات الحصر» هى عدل الحصر نفسه من الناحيتين الكلينيكية والعليّة.

هنا يعرض لنا سؤالان: هل هناك صلة ما بين الحصر العصابى الذى لا يقوم فيه الخطر بدورالبتة أو بدور طفيف، وبين الحصر الواقعى الذى هو فى صميمه استجابة لخطر؟

وعلى أى وجه يجب أن نفهم الحصر العصابى؟

ذلك أننا نريد أن نذود عن المبدأ الذى يقول: «كلما كان هناك حصر، فلابد أن يكون ثمة شيء يخافه الإنسان».

إن الملاحظات الكلينيكية تزودنا بأدلة تعيننا على فهم الحصر العصابى، وسأناقش الآن دلالاتها أمامكم:

(أ) لايشق علينا أن نرى أن حصر التوقع أو حالة التوجس العام تتوقف إلى حد كبير على عمليات معينة فى الحياة الجنسية، وبعبارة أدق على أساليب معينة لاستغلال الليبيدو، وإن أبسط الأمثلة وأبلغها لهذا النوع حالة الأشخاص الذين يعرضون أنفسهم لما يعرفون بالزمت الجنسى؛ أى لتهيج جنسى عنيف لايجد

تصريفا كافيا ولا يصل إلى غاية تشبع، تلك حال بعض الرجال أثناء فترة الخطبة، وبعض النساءاللاتى لايتمتع أزواجهن بقدرة جنسية سوية، أو اللاتى يعمل أزواجهن على ابتسار الفعل الجنسى أو اقتضابه لتفادى الحمل، فى هذه الظروف يختفى التهيج اللبيدى ليحل محله الحصر، إما فى صورة حصر التوقع، أو فى صورة نوبة حصر أو مكافئاتها، كما أن «العزل»[1] إن أصبح النظام المعتاد لهذا الفعل، كان سببا مطرداً للحصار عند الرجال وخاصة عند النساء، حتى ليجدر بالأطباء أو يتحروا هذا السبب قبل كل شىء فى أمثال هذه الحالات جميعا، وثمة أمثلة لاتحصى تدل على زوال الحصار حين يعرض الفرد إحباط الفعل الجنسى على هذا النحو.

إن الصلة بين التحفظ الجنسى وحالات الحصر لم تعد ـ فيما أعلم ـ مثاراً للجدل حتى عند نفر من الأطباء لا صلة بينهم وبين التحليل النفسى. ومع هذا لا يشق علىَّ أن أتصور أنهم سيحاولون قلب الوضع فيذهبون إلى أن أمثال هؤلاء الأشخاص يحبطون الفعل الجنسى ويأخذون حذرهم من عواقبه، لأنهم مهيئون للحصر من قبل، غير أن هذا الرأى يدحضه دحضًا قاطعًا موقف المرأة التى تكون الوظيفة الجنسية عندها سلبية مطاوعة فى صميمها، أى التى تمتثل وتذعن للتوجيه الذى يريده الرجل، وكلما زاد شوق المرأة إلى الاتصال الجنسى وقدرتها على الإرتواء منه، كانت على التحقيق أدنى إلى أن تستجيب لعنة الرجل أو لعملية العزل بمظاهر الحصر، فى حين أن هذه المظاهر لاتكاد تبدو لدى امرأة فاترة أو أخرى لا يستبد بها الجوع الجنسى.

أما التأبى الجنسى[2] الذى يتحمس أطباء اليوم فى التوصية به فلا ييسر تولد حالات الحصر بطبيعة الحال، إلا حين تكون اللبيدو ـ التى حرمت من مخرج يشبعها ـ على درة معينة من الشدة والإلحاح، ولم يستغلها الإعلاء استغلالا كبيراً، وسواء نجمت عن ذلك حالة مرضية أو لم ينجم، فهذه مسألة تتوقف دائماً على عوامل كمية، وحتى إن صرفنا النظر عن المرض، وتأملنا فى خلق الشخص، لم يشق علينا أن نرى أن التأبى الجنسى من حظ أناس يتسمون بالقلق والحذر والتردد، فى حين أن الجرأة والمغامرة وعدم التهيب من خلق أولئك الذين لا يضنون على حاجاتهم الجنسية بالإشباع.

---

1. Coitus interruptus.

2. Sexual Abstinence.

ومهما تناولت المضار بالتحوير والتعقيد تلك الصلات القائمة بين الخلق والحياة الجنسية، فثمة حقيقة لا مراء فيها هى أن الحصر يرتبط ارتباطاً وثيقاً وبالتأبى الجنسى عند الشخص العادى السوى.

هيهات أن أكون قد أحطتكم علمًا بكل الملاحظات التى تؤيد هذا الارتباط التكوينى بين اللبيدو والحصر، فلايزال علينا أن نتكلم عن حالات الحصر التى تنشأ من تأثير بعض مراحل الحياة، كمرحلتى البلوغ وانقطاع الطمث. وهما مرحلتان يشتد فيهما عنفوان الشهوة بدرجة بالغة، وفى وسعنا أيضاً أن نلاحظ بصورة مباشرة امتزاج الحصر باللبيدو فى كثير من حالات التهيج الجنسى، وكذلك استبدال الحصر بالتهيج اللبيدى استبدالا نهائيا، والنتيجة التى نخرج بها من جراء إعاقتها عن السير فى مجراها السوى، وأن العمليات التى نحن بصددها عمليات جسمية ليس غير ، أما كيف ينشأ الحصر من الرغب الجنسية، فمسألة لا تزال غامضة إلى يومنا هذا. وكل ما نستطيع أن نقرره هو غيبة الرغبة الجنسية وحلول الحصر محلها.

(ب) ثمة دليل آخر نخرج به من تحليل الأعصبة النفسية، خاصة الهستريا، نحن نعرف من قبل أن الحصر غالباً ما يصاحب الأعراض فى هذا المرض، لكننا نشهد فيه أيضاً وجود حصر مستقل عن الأعراض يفصح عن نفسه فى صورة نوبات أو يوجد بصورة مزمنة، فلا يعرف المرضى مم يخافون ، بل يربطون بين حالتهم وبين إحدى الموجسات التى تناسب المقام:

موجسة الموت أو الجنون أو نوبة السكتة إلى غير تلك، ويكون هذا الربط عن طريق عملية «لأم»[1] بيِّنة، فإذا حللنا الموقف الذى نشأ فيه الحصر أو العرض الذى يصاحبه الحصر، فمن الممكن عادة أن نكشف عن العملية النفسية التى أعيق مجراها وحلت محلها ظاهرة الحصر.

وبعبارة أخرى نتناول العملية اللاشعورية كما لم يكن قد أصابها الكبت، كما لو كانت مضت فى سبيلها دون عائق حتى تصل إلى الشعور، وهذه العملية لابد أن كان يصاحبها وجدان خاص، لكننا نلحظ فى كثير من الدهش أن هذا الوجدان الذى يصاحب العملية النفسية عادة حتى منطقة الشعور، قد كبت وحل محله الحصر، فى كل حالة من الحالات، ومهما يكن نوع هذا الوجدان.

---

1. Secondary elaboration.

وعلى هذا، فإذا كنا بصدد حصر هستري، فنحن في حل أن نفترض أن مقابلة اللاشعوري قد يكون وجدانا من نفس نوعه كالتوجس والخجل والحيرة، أو تنبيهاً لبيدياً لا ريب فيه، وقد يكون كذلك وجداناً عدوانياً مناصباً كالغيظ أو الغضب، وهكذا يكون الحصر كالعملة الدارجة تبدل به، أو يمكن أن تبدل به الحالات الوجدانية طراً حين يكون مضمونها الفكري في إسار الكبت.

(جـ) أما الملاحظة الثالثة فتأتينا من المرضى ذوي الأفعال الحوازية، الذين يبدون في حرز مكين من الحصر، فلو حاولنا أن نمنع هؤلاء من القيام بتلك الأفعال، كالطقوس المختلفة والاغتسال... إلخ. أو لو أنهم اجترأوا على أن يكفوا أنفسهم عن أحد أفعالهم القهرية، فسرعان ما يشعرون بحصر واصب يرغمهم على تنفيذ الفعل، إذ ذاك ندرك أن الحصر كان مختفياً وراء الفعل الحوازي، وأن المريض لايقوم بهذا الفعل إلا فراراً من الشعور بالحصر. وهكذا لا يتفصح الحصر في العصاب الحوازي لأن الأعراض تظهر بدلا عنه، فإذا اتجهنا إلى الهستريا وجدنا الموقف نفسه قد نشأ من جراء عملية الكبت: فإما حصر خالص، وإما حصر يصاحب الأعراض أو مجموعة من الأعراض لا يصاحبها حصر، ومن ثَم يبدو أننا في حل من أن نقول ـ على سبيل التجريد ـ إن الأعراض جميعها لا تتكون إلا تفادياً وفراراً من الحصر، وإلا فلا مناص من تمخضه وانبعاثه، وهكذا يحتل الحصر مركز الصدارة من اهتمامنا، إذ نبحث مشكلات الأمراض النفسية.

جملة القول أننا خرجنا من ملاحظاتنا عن الحُصار بأن حيود اللبيدو عن مجراها السوي في أداء وظيفتها، وهو حيود يولد الحصر، يرتكز على عمليات جسمية محضة، كما خول لنا تحليل الهستريا والحواز أن نكمل هذه النتيجة، إذ بيّن لنا أن مثل هذه الحيود وما يترتب عليه من حصر قد ينشآن أيضاً من تدخل عوامل نفسية، هذا كل ما نعرفه عن كيفية تكون الحصر العصابي، فإن بدا أنه مايزال شيئا غامضاً غيرمحدد، فأنا لا أعرف في الوقت الحاضر سبيلا آخر، يمضي بنا إلى أبعد من ذلك.

أما المسألة الثانية التي تعرضنا لها فأصعب حلا من سابقتها:

تلك هي إقامة الصلة بين الحصر العصابي الذي ينشأ من استغلال اللبيدو استغلالا شاذاً، وبين الحصر الموضوعي الذي هو استجابة للخطر، فإن يحسب أحدكم أنهما شيئان يختلف أحدهما عن الآخر الاختلاف كله، ومع هذا فليست لدينا أية وسيلة تسمح لنا أن نميز إحساسنا بالحصر العصابي عن إحساسنا بالحصر الواقعي.

على أن هذه الوصلة التى ننشدها، سرعان ما تتضح إذا راعينا ذلك التعارض الذى أكدناه أكثر من مرة بين الأنا والليبيدو، نحن نعرف أن تمخض الحصر رد فعل يقوم به الأنا إزاء الخطر، وأنه الإشارة التى تعلن الهرب وتمهد له، فليس ثمة ما يمنعنا من أن نسلم - عن طريق التشابه - بأن الأنا فى الحصر العصابى يحاول أيضًا أن يتلخص عن طريق الهرب من متطلبات الليبيدو، فهو يتصرف حيال هذا الخطر الداخلى كما لو كان خطراً خارجيا، على هذا النحو يتحقق ما توقعناه من أن وجود الحصر يقتضى أن يكون هناك شيء يخافه الفرد، على أننا نستطيع أن نمضى مع هذا التشبيه إلى أبعد من ذلك، فكما أن محاولة الهرب من خطر خارجى تؤدى إلى التوقف واتخاذ الاحتياطات الدفاعية اللازمة، كذلك يؤدى ظهور الأعراض إلى توقف الحصر العصابى واعتقاله، فإذا به يخلى السبيل أمام هذه الأعراض.

بيد أن الصعوبة التى تعترضنا فى فهم هذه الصلات المتبادلة بين الحصر والأعراض قد انتقلت الآن إلى ناحية أخرى، ذلك أن الحصر الذى يدل على فرار الأنا من الليبيدو ينشأ فى الوقت نفسه من هذه الليبيدو، وهذه حقيقة واقعة وإن كانت تبدو غامضة غير واضحة، لذا يجب ألا يغيب عنا أن الليبيدو عند شخص معين ما هى إلا جزء من صميم هذا الشخص، فلا يجوز أن نباينها به كما لو كانت شيئا خارجاً، أما ما يزال مستغلقاً علينا فهو النشاط الديناميكى الطبوغرافى، الذى يؤدى إلى تولد الحصر - ونعنى بذلك نوع الطاقات النفسية التى تبذل فى مثل هذه الأحوال، ومن أية أجهزة نفسية تنشأ؟

لا أستطيع أن أعدكم بالإجابة عن هذا السؤال أيضًا، لكنه لن يفوتنى أن أطرق بابين آخرين، وأن أستعين مرة أخرى بالملاحظة المباشرة والبحث التحليلى أستمد منها تأييداً لما نستنتجه عن طريق النظر والتأمل، لذا سأتناول نشأة الحصر ومصادرة عند الأطفال، كما سأعالج أصل الحصر العصابى المرتبط بالموجسات.

إن الحصر شائع مذاع بين الأطفال، ومن العسير جداً أن نقطع بما إذا كان حصراً موضوعيا أو حصراً عصابيا، والواقع أن موقف الأطفال أنفسهم هو الذى يجعلنا نرتاب فى قيمة التفرقة بين الحصر عندهم، فنحن لاندهش إذ نرى الأطفال يخافون الغرباء والمواقف الجديدة والأشياء غير المعهودة، ونعلل هذا الرجع دون عناء بضعفهم وجهلهم، أى أننا نعزو إلى الطفل نزعة قوية إلى الحصر الموضوعى، ونرى من الطبيعى أن يقال لنا إن الطفل يخرج إلى هذا العالم مزوداً بهذا الوجدان فى صورة

استعداد قبلى موروث ، فهو لا يعدو أن يعيد موقف أجداده الأولين أو موقف الإنسان البدائى فى الوقت الحاضر، يحمله جهله وقلة حيلته على أن يشعر برهبة إزاء كل ما هو جديد غريب.. إزاء أشياء كثيرة أصبحت مألوفة لنا اليوم، فلم تعد تستثير منا أدنى خوف. ومما يتمشى كذلك مع ما نتوقعه، أن تكون موجسات الأطفال، فى شطر منها على الأقل، هى بعينها نفس الموجسات التى نعزوها إلى تلك المراحل البدائية منحياة الأنسان.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى.. لا يفوتنا أن الأطفال ليسوا سواء من حيث درجة توجسهم، وأن من يشتط الحصر لديهم من مختلف المواقف والأشياء، هم على التحديد من يبهظهم العصاب فيما بعد، فمن العلامات التى يتفصح بها الاستعداد العصابى إذاً نزعة ظاهرة إلى الحصر الموضوعى، أى أن الحصر، لا العصاب، هو الحالة الابتدائية السابقة، وهذا يسلم بنا إلى نتيجة هى: أن الطفل، والراشد فيما بعد، يشعران بالحصر من قوة اللبيدو عندهما، وما ذاك بالتحديد إلا لأنهما يشعران بالخوف من كل شيء، وهى نتيجة تنكر أن الحصر يشتق من اللبيدو، ثم إن البحث فى ظروف الحصر الواقعى تسلم بنا، منطقيًا، إلى أن السبب الأول للعصاب هو الشعور بالضعف والعجز ـ أو الشعور بالدونية[1] كما يسميه آدلر ـ حين يبقى ملازمًا للفرد إلى سن النضج.

هذه حجة تبدو على جانب كبير من البساطة والسداد.. فهى جديرة بأن تسترعى الاهتمام، إذ من شأنها أن تجعلنا ننظر إلى مشكلة الاضطراب العصبى من زاوية غير التى ننظر إليه منها، إن بقاء الشعور بالدونية إلى ما بعد الطفولة ـ مع ما يتبعه من نزعة إلى الحصر، وتكون الأعراض ـ يبدو وفق هذه النظرة، أمرًا محققًا فى غنى عن البيان، أما ما يحتاج إلى تفسير فهو كيف يتفق للحالة التى نسميها «بالصحة» أن تظهر وتتحقق من ثنايا هذا الشعور.

لكن ماذا نخرج به من الملاحظة الدقيقة لحالة الحصر عند الأطفال؟

إن الطفل الصغير يتوجس بادئ ذى بدء من الغرباء، وهو لا يخاف المواقف إلا بقدر ما يكون لها صلة بالناس، أما الأشياء فلا تستثير منه الخوف إلا بعد هذه وتلك بكثير. غير أن الطفل لايخاف الغراء لأنه يعزو إليهم نيات سيئة، أو لأنه يوازن بين

---

1. Inferiority feeling.

قوتهم وضعفه، وبذا يرى فيهم خطراً على وجوده وأمنه وراحته، فالنظرة إليه من هذه الناحية التى تصوره كائناً مرتاباً خائفاً؛ يترقب العدوان من العالم المحيط به نظرة على جانب كبير من السقم والتهافت، بل الأمر على خلاف هذا، فالطفل يفزع من الوجه الغريب لأنه ألف منظر ذلك الشخص المحبوب ـ شخص أمه ـ فهو يتوقع رؤيته، وإن هذه الرغبة وما يتبعها من خلف للظن هما ما يتحولان إلى حصر؛ أى أن اللبيدو عنده لم تجد ما يشغلها ويستغلها، ولم تستطع كذلك أن تبقى معلقة، فتحولت إلى حصر. ولا يشق علينا أن نرى فى هذا الموقف ـ وهو نموذج مصغر للحصر الطفلى ـ تكراراً للظرف الذى أحاط بحالة الحصر الأولى أثناء الولادة، وهو الانفصال عن الأم، ويبعد أن يكون هذا التكرار مجرد مصادفة واتفاق.

إن الخوف من الظلام ومن الوحدة هما أول ما نلحظه من الموجسات التى تبدو لدى إزاء المواقف، فأما الأولى فتلازم الفرد غالباً طول حياته على أن كلتا الموجستين تشتركان فى شىء واحد، هو الرغبة فى شخص غائب يحنو على الطفل ويرعاه ـ ألا وهو الأم.

لقد سمعت ذات مرة طفلا خائفاً من الظلام يصيح بخالته، وكانت فى حجرة مجاورة له: «يا خالة، تكلمى معى، إنى خائف».

قالت: «وما يغنى عنك هذا، إنك لا ترانى!».

فأجابها الطفل: «إذا تكلم أحد، خفّ الظلام»..

على هذا النحو تتحول الرغبة التى يشعر بها الطفل فى الظلام إلى خوف من الظلام؛ فليس من الصحيح إذاً أن نقول إن الحصر العصابى ما هو إلا ظاهرة ثانوية وحالة خاصة من الحصر الموضوعى، بل إنا نرى، على العكس، أن فى الطفل الصغير شيئاً كأنه الحصر الواقعى، يشترك مع الحصر العصابى فى سمة أساسية هى انبعاثه من لبيدو معطلة غير مصروفة، أما الحصر الموضوعى الحق فيبدو أنه ليس من حظ الطفل إلا على قلة وندور، فالطفل الصغير لا يخاف أى موقف من المواقف، التى يمكن أن يكون موضوع موجسة فيما بعد، كالأماكن المرتفعة، والجسور الضيقة فوق الماء، والسفن والقطارات، وكلما قلت معرفته بها، قل خوفه منه، وحبذا لو كان ميراثه الفطرى ينطوى على عدد أكبر من غرائز المحافظة على الحياة.. إذاً لهانت علينا فى كثير مراقبته والحيلولة دونه أن يتعرض لشتى الأخطار المتلاحقة.

والواقع أن الطفل ينزع بادئ ذى بدء إلى الغلو فى إظهار ما لديه من قوة، ويتصرف من دون حصر لأنه يجهل الأخطار، فإذا به يجرى على حافة الماء، ويصعد على عتبة النافذة، ويلعب بالنار والأشياء الحادة، وعلى الجملة فهو يفعل كل ما يضره، ويقلق المنوطين برعايته. وبما أننا لا نستطيع أن نتركه يخبر العواقب القاسية لهذه التجارب بنفسه، فالتربية وحدها هى التى تخلق فيه الحصر الواقعى آخر الأمر.

فإذا امتثل بعض الأطفال لهذه التربية التى تعلمهم الخوف فى سرعة وسهولة، ثم وجدوا بعد ذلك، من أنفسهم، أخطاراً لم نحدثهم بها ولم نحذرهم منها، فهذا يرجع إلى أن تكوينهم الجبلى محمل بمقدار من الحاجة اللبيدية يزيد عما عند غيرهم، أو إلى أنهم اكتسبوا منذ سن باكرة عادات سيئة فيما يتعلق بالإشياع اللبيدى، فلا غرو إذن أن يكون مصير هؤلاء إلى العصاب فيما بعد، لأننا نعرف أن أنسب الظروف لتكوين العصاب هو عجز الفرد عن أن يحتمل مقداراً كبيراً من اللبيدو المكبوتة لمدة من الزمن قد تطول أو تقصر، من هذا ترون أننا نعمل للعامل الجبلى حسابه، وإن كنا لم نشك قط فى خطره، وكل ما فى الأمر أننا نحتج على أولئك، الذين يؤكدون خطر هذا العامل وحده، ويغضون من شأن غيره من العوامل، فيجعلون فى المقام الأول حتى فى الحالات التى تدل الملاحظة والتحليل على أن لا أثر له فيها، أو على أنه لايقوم فيها إلا بدور ثانوى طفيف.

فلنلخص النتائج التى ظفرنا بها من ملاحظة حالة الحصر عند الأطفال: إن الحصر الطفلى لايكاد يشترك فى شيء مع الحصر الواقعى الموضوعى، بل هو على العكس، يقترب اقتراباً كبيراً من الحصر العصابى عند الكبار الناضجين، وهو كالحصر العصابى ينشأ من لبيدو معطلة، لم تنل حظها من التصريف، فلما لم تجد موضوع حب تتعلق به، واستبدلت بذلك موضوعاً أو موقفاً خارجياً.

أما تحليل الموجسات فلا يكاد يعلمنا أكثر مما نعلم، فما يحدث في الموجسات هو بعينه ما يحدث فى حصر الأطفال:

لبيدو معطلة تتحول دون انقطاع إلى حصر «موضوعى» ظاهرى، ومن ثم يصبح أقل خطر خارجى بديلا عما ترغب فيه اللبيدو، على أن الاتفاق بين هذين الطرازين من الحصر يجب ألا يستثير دهشتنا؛ لأن موجسات الأطفال ليست النماذج الأولى للموجسات التى تظهر فى الهستريا الحصرية فيما بعد، بل إنها الشرط التمهيدى المباشر الذى يسبقها، فكل موجسة هسترية يمكن رجعها إلى حصر طفلى، فهى امتداد

واستمرار له، حتى إن كان موضوعها غير موضوعه واسمها غير اسمه، والفارق بين الحالتين فارق فى كيفية تكوين كل منهما، فلكى تتحول الليبيدو إلى حصر عند الراشدين الكبير، لايكفى أن تظل معطلة برهة ما. إن الراشد قد تعلم منذ عهد طويل أن يدع الليبيدو فى حالة معلقة أو أن يستغلها بطرق مختلفة.. لكنها إن كانت تتعلق بتنبيه نفسى أصابه الكبت، كانت هذه الحالة شبيهة بحالة الطفل، الذى لايعرف بعد أن يميز بين الشعور واللاشعور، وهذا النكوص إلى الموجسة الطفلية يتيح لليبيدو وسيلة ملائمة، تتحول بها إلى حصر لعلكم، تذكرون أننا عالجنا موضوع الكبت بشىء من الإفاضة، لكن حديثنا كان منصبا بأسره على مصير **الأفكار** التى لابد أن تكبت.

وكان ذلك بطبيعة الحال؛ لأن هذه الناحية أيسر فى ملاحظتها وأسهل فى عرضها، غير أننا لم نشغل أنفسنا بمصير **الحالات الوجدانية** المتصلة بتلك الأفكار المكبوتة، وها نحن أولاء نعرف للمرة الأولى أن المصير المباشر لهذه الحالات الوجدانية هو تحولها إلى حير، مهما كان نوعها فى الظروف العادية، يضاف إلى هذا أن تحول الحالات الوجدانية على هذا النحو هو أهم شطر فى عملية الكبت، وليس من اليسير ملاحظته وعرضه كسابقه؛ لأننا لا نستطيع أن نثبت وجود حالات وجدانية لاشعورية بالطريقة نفسها التى نثبت بها وجود أفكار لا شعورية، فالفكرة تظل بعينها إلى حد ما، سواء كانت شعورية أم لا شعورية.

وفى وسعنا أن نشير إلى ما يقابل الفكرة اللاشعورية، أما الحالة الجدانية فعملية تتضمن تعريفا للطاقة، فلابد أن ننظر إليها نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتنا إلى الفكرة، ومن المحال أن نشير إلى ما يقابلها فى اللاشعور، من دون أن نفحص فروضنا عن العمليات النفسية ونوضحها إيضاحاً كبيراً، وهذا عمل لانملك أن نقوم به فى هذا المكان، غير أننا نريد أن يقر فى أذهاننا ذلك الانطباع الذى خرجنا به، وهو أن تولد الحصر يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام اللاشعورى.

لقد قلت إن المصير المباشر لليبيدو التى يصيبها الكبت هو تحولها إلى حصر، أو بعبارة أدق تصريفها فى صورة حصر. ويتعين علىّ أن أضيف إلى ما قلت إن هذا ليس مصيرها الوحيد أو مصيرها النهائى.. فثمة عمليات تحدث خلال الأمراض النفسية من شأنها أن تمنع تولد الحصر وتمخض، وهى تفلح فى هذا بوسائل مختلفة، منها أننا نستيع ، فى الموجسات مثلاً، أن نميز فى وضوح بين طورين يتعاقبان العملية العصابية: الأول هو طور كبت الليبيدو وتحولها إلى حصر يكون متعلقا إذ ذاك بخطر خارجى، أما الثانى فيتلخص فى عمل تحفظات وتحوطات، ترمى إلى تحاشى

الاتصال بهذا الحظر الذى يخلعه المريض على العالم الخارجى. فالكبت محاولة من جانب الأنا للفرار من اللبيدو التى يشعر بأنها خطرة.. أما الموجسة فيمكن اعتبارها حصناً يقاوم فى وجه الخطر الخارجى الذى يحل الآن محل اللبيدو المخوفة.

إنّ ضَعف هذا النظام الدفاعى فى حالة الموجسات يرجع بطبيعة الحال إلى أن هذا الحس، الذى لايمكن مهاجمته من خارج، يظل معرضاً للخطر من داخل، فإلقاء اللبيدو للخطر الذى تتمثله، على العالم الخارجى لايكون البتة إلقاءً كاملا، ومن ثَم تصطنع فى الأعصبة الأخرى نظم دفاعية أخرى للحيلولة دون إمكان تولد الحصر، وهذا باب على جانب كبير من الطراقة فى سيكولوجية الأعصبة، غير أنا لا نستطيع ، للأسف، أن نتناوله فى هذا المكان؛ لأنه قد يذهب بنا إلى أبعد ما ينبغى، هذا إلى أن فهمه يتطلب معلومات خاصة عميقة عن الموضوع، فليس لى إلا أن أضيف بضع كلمات إلى ما ذكرت:

لقد حدثتكم من قبل عن «السلاح المضاد» الذى يلجأ إليه الأنا فى حالة الكبت، ذلك السلاح الذى يجب أن يظل قائمًا على الدوام حتى يبقى الكبت، وإن مهمة هذا السلاح هى تحقيق وسائل الدفاع المختلفة، التى تقى من تولد الحصر الذى يعقب الكبت.

ولنعد إلى الموجسات: فأرجو أن أكون قد بينت لكم أنه لا يكفى أن نقتصر على تفسير موضوعها، فلا نهتم إلا بمعرفة السبب الذى يجعل من موضوع معين أو موقف معين نواة الموجسة، إن لموضوع الموجسة، من الأهمية ما للحلم الظاهر ـ فكلاهما واجهة لشىء باطن، ويمكننا أن نسلم بعد أن نتخذ الاحتياطات اللازمة، بأن كثيراً من الموضوعات الموجسات المختلفة صالحة بوجه خاص لأن تصبح موضوعات مخوفه عن طريق الوراثة السلالية ـ وهذا ما أشار إليه ستانلى هول، ومما يؤيد هذا الفرض أن كثيراً من تلك الموضوعات المخوفة ليس لها بالخطر إلا صلات رمزية محصنة.

وهكذا استطعنا أن نفطن وأن نقتنع بأن مشكلة الحصر تشغل موضوعاً مركزياً فى سيكولوجيا الأمراض النفسية؛ فقد خرجنا بانطباع قوى عن الكيفية التى يرتبط بها تولد الحصر بمصير اللبيدو وباللاشعور، على أن نظرتنا هذه مازالت تنطوى على ثغرة وحلقة اتصال مفقودة: تلك أن الحصر الموضوعى لابد من اعتباره مظهراً لغريزة المحافظة على الذات، وهذه حقيقة لايمكن أن تكون مثار جدل، لكننا لا نعرف كيف نربط بينها وبين ما نعرف.

المحاضرة السادسة العشرون

نظرية الليبدو والنرجسية

اتفق لنا أكثر من مرة، بل ومنذ عهد قريب، أن نميز بين نزعات الأنا والنزعات الجنسية.. وقد بيّن لنا الكبت ، بادئ ذى بدء، كيف تتعارض هذه مع تلك تعارضاً ينتهى بهزيمة النزعات الجنسية فى الظاهر، فإذا بها ترغم على أن تلتمس الإشباع بطريقة ملتوية نكوصية، وبما أنها نزعات شموس لا تراض، فهى تجد فى شموسها هذا تعويضاً عن هزيمتها، ثم رأينا بعد ذلك أن هاتين المجموعتين من النزعات يختلف سلوكهما حيال المربية الكبرى، وهى «الضرورة» بحيث تتخذ كل مجموعة منهما فى تطورها سبلا تختلف عن سبيل الأخرى، وبحيث يختلف موقف كل منهما من مبدأ الواقع.

وأخيرا نعتقد أننا استطعنا أن نقرر أن النزعات الجنسية أوثق ارتباطاً بوجدان الحصر من نزعات الأنا ـ وهى نتيجة يلوح أنها لاتزال غير مكتملة فى ناحية مهمة واحدة فقط؛ لذا نسوق تعزيزاً لها واقعة تسترعى النظر، هى أن عدم إشباع الجوع أو العطش، وهما أبسط غرائز المحافظة على الذات، لا يترتب عليه إطلاقا تحول هاتين الغريزتين إلى حصر، فى حين أننا نعرف أن تحول الليبيدو غير المشبعة إلى حصر، ظاهرة مشاعة تلاحظ فى الكثير الغالب من الأحيان.

إذاً فلنا حق لايمارى فى أن نميز بين نزعات الأنا والنزعات الجنسية، والواقع أننا أعطينا هذا الحق لأنفسنا من وجود الغريزة الجنسية كوجه خاص من أوجه نشاط الفرد، والسؤال الوحيد الذى يمكن أن يوجه إلينا هو مبلغ ما نعلقه على هذا التمييز، وإلى أى حد نعتبره تمييزاً أساسياً حاسماً، لكننا لانملك أن نجيب عنه إلا بعد أن نحدد مدى الفوارق فى السلوك بين النزعات الجنسية، فى مظاهرها الجسمية والنفسية، والنزعات الأخرى التى تقابلها بها، وبعد أن نرى أهمية النتائج التى تنجم عن هذه الفوارق، وليس لدينا بطبيعة الحال سبب يحملنا على أن نقول بوجود فارق فى النوع بين هاتين المجموعتين من النزعات، فهو فارق من الصعب إدراكه، فكل واحدة منهما لا تعدو أن تكون وصفاً لمصادر الطاقة فى الفرد، أما إذا أردنا أن نعرف ما إذا كانتا فى جوهرهما شيئا واحداً أو شيئين يختلف أحدهما عن الاخر فى النوع، ولئن كانتا شيئا واحداً فمتى انفصلت إحداهما عن الأخرى.. فتلك مسألة لايمكن أن تناقش

على أساس من أفكار مجردة، بل على أساس من وقائع يزودنا بها علم الأحياء، وإن معلوماتنا عن هذه الناحية لاتزال قاصرة إلى حد كبير، وحتى إن كانت أكثر مما هى عليه، فليس لنا أن نشغل أنفسنا بهذه المسألة التى لا تخص التحليل النفسى.

وغنى عن البيان أننا لا نفيد شيئا إن أصررنا ـ مع يونج ـ على وجود وحدة أصلية الغرائز كلها، وأطلقنا اصطلاح «اللبيدو» على الطاقة التى تتدفق من واحدة منها.؛لأننا سنجد أنفسنا مضطرين عندئذ إلى أن نتكلم عن لبيدو جنسية وأخرى لاجنسية، إذ إن الوظيفة الجنسية لايمكن أن تقصى من ميدان الحياة النفسية بمثل هذا التحايل، أما نحن فنحتفظ ـ وبحق ـ بكلمة اللبيدو للقوى الغريزية الجنسية كما نستخدمها دائماً.

وعلى هذا أعتقد أن التساؤل عن الحد الذى يجدر بنا نذهب إليه فى التمييز بين النزعات الجنسية والنزعات الصادرة عن غريزة المحافظة على الذات، تساؤل لاينطوى على أهمية كبرى للتحليل النفسى، هذا إلى أن التحليل ليس أهلا للإجابة عن هذا السؤال، على أن علم الأحياء يزودنا بأدلة مختلفة، تبيح لنا أن نسلم بأن لهذا التمييز دلالة بالغة، فالوظيفة الجنسية فى الواقع هى الوظيفة الوحيدة للكائن الحى التى تتجاوز تكفل ارتباطه بنوعه..

ولا مراء فى أن أداء هذه الوظيفة يبعد أن يكون ذا فائدة للفرد فى كل الأحوال كما هو الشأن فى أداء الوظائف الأخرى، بل إنه قد يسلم بالفرد إلى أخطار تهدد حياته، وكثيراً ما يفضى عليه، حين يلتمس الظفر بلذة على درجة مسرفة من الشدة، وفضلا عن هذا، فمن المحتمل أن هناك عمليات أيض خاصة، تختلف عن كل ما سواها من العمليات الأخرى، ومن شأنها أن تحتفظ بجزء من حياة الفرد من ناحية بيولوجية ـ وهو الذى يضع نفسه فى المقام الأول من الأهمية ولايرى فى وظيفته الجنسية إلا وسيلة لإشباعه كغيرها من الوسائل.. فما هو إلا عرض عابر فى سلسلة من الأجيال، وزائدة قصيرة الأجل لإرثه[١] خالدة بالقوة، مثله فى ذلك مثل من يحمل وديعة لفترة مؤقتة، مآلها أن تبقى بعد موته.

---

(١) جرثومة البروتوبلازم الناقلة للوراثة . «المترجم».

على أن التفسير التحليلى للأمراض النفسية ليس فى حاجة إلى أمثال هذه الاعتبارات البعيدة المدى، وقد هيأ لنا التمييز بين النزعات الجنسية ونزعات الأنا وسيلة كانت عوناً لنا على فهم مجموعة الأعصبة الطرحية، فاستطعنا أن نرد هذه الأعصبة إلى صراع بين النزعات الجنسية والنزعات الصادرة عن غريزة المحافظة على الذات، أو بعبارة بيولوجية - وإن تكن أقل دقة - إلى صراع بين الأنا من حيث هو كائن فردى مستقل، والأنا إذ تعتبره عضواً فى سلسلة من الأجيال، وثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الازدواج لايوجد إلا عند الإنسان.

ومن هنا تفرد الإنسان عن الحيوانات جميعا بما لديه من استعداد موات للعصاب، ويبدو أن التطور المفرط للبيدو عنده، وما ينجم عن ذلك من ثراء وتنوع فى حياته النفسية، قد خلق فى نفسه الظروف التى تولد مثل هذا الصراع، وغنى عن البيان أن هذه الظروف هى بعينها ما أتاح للإنسان أن يمضى فى سبيل التقدم إلى أبعد بكثير مما يشترك فيه مع الحيوان، بحيث أن استعداده للعصاب لايعدو أن يكون المقابل لقدرته على الرقى الثقافى، على أن تلك لاتخرج عن أن تكون تأملات، يجدر بنا أن ندعها جانباً حتى لا تشغلنا عما نحن فيه.

لقد مضينا فى بحثنا إلى الآن على فرض أنه يمكن التمييز بين مظاهر النزعات الجنسية ومظاهر نزعات الأنا، وقد تسنى لنا أن نقيم هذا التمييز فى حالة الأعصبة الطرحية من دون عناء.. ثم أطلقنا اسم «اللبيدو» على الشحنات الوجدانية[1] للطاقة التى يفرغها الأنا على موضوع نزعاته الجنسية، كما أطلقنا اسم «الاهتمام»[2] على كل الشحنات الوجدانية الأخرى، التى تصدر من غرائز المحافظة على الذات. ولما تأثرنا بالمشحونات اللبيدية، وما يصيبها من تحوير وتغيير، وما تؤول إليه آخر الأمر، تسنى لنا أن نظفر بفكرة أولى عن الكيفية التى تعمل بها القوى النفسية. وقد كانت الأعصبة الطرحية أنسب المواد لهذا الاستقصاء، غير أن الأنا نفسه، والتنظيمات المختلفة التى يتألف منها، وبناء هذه التنظيمات، وكيفية عملها - كل أولئك ظل خافيا عنا. وقد أفضى بنا هذا إلى أن نعتقد أنه لامناص من تحليل اضطرابات نفسية أخرى، إن أردنا أن نستوضح هذه الموضوعات.

---

(1) Investments.

(2) Interest.

لقد بدأنا منذ عهد مبكر نبسط آراء التحليل النفسى على هذه الاضطرابات الأخرى.. من هذا ما كان يراه ك. إبراهام K. Abraham عام ١٩٠٨ ـ بعد مناقشة لى معه ـ من أن الخاصة الرئيسية للخبل المبكر هى **أن الموضوعات لا تكون مشحونة باللبيدو فيه**، ومن ثم عرض لنا أن نتساءل:

وماذا يكون مصير اللبيدو عند المصابين بهذا الخبل حين تنصرف عن موضوعاتها؟

أما إبراهام فلم يتردد فى أن يجيب بأن اللبيدو ترتد فى هذه الحال إلى الأنا، وأن **هذا الارتداد المنعكس مصدر أهجسة العظمة فى الخبل المبكر**. إن هجاس العظمة شبيه من كل الوجوه بما نعهده فى الصلات الحبية من غلو فى تقدير الموضوع الجنسى، وهكذا أتيح لنا للمرة الأولى أن نفهم سمة يتميز بها اضطراب عقلى بأن نصل بينها وبين ما يحدث فى الحياة الحبية العادية.

وأسارع إلى القول بأن التحليل النفسى قد احتفظ بهذه الآراء الأولى لأبراهام؛ فأصبحت أساسًا لموقفنا من الأمراض العقلية؛ ذلك أننا أخذنا نألف بالتدريج تلك الفكرة التى تتلخص فى أن اللبيدو، التى نجدها متعلقة بموضوعات معينة، والتى هى تعبير عن رغبة فى الظفر بإشباع عن طريق هذه الموضوعات، تستطيع أيضًا أن تنصرف عن هذه الموضوعات وأن تستعيض عنها بالأنا نفسه ومن ثم عملنا على تنمية هذه الفكرة وإتمامها بأن بيّنا ما بين عناصرها من صلات منطقية، وأطلقنا اسم **النرجسية** على انتقال اللبيدو بهذه الصورة، وهو اسم يطلقه «ناكه» P. Näcke على انحراف جنسى يصيب الراشد الكبير، فإذا به يحبو بدنه بألوان من التلطف والمداعبة، لا تفرغ فى العادة إلا على موضوع جنسى خارجى.

وسرعان ما هدانا التفكير إلى أن قدرة اللبيدو على أن تثبت بهذه الصورة على بدن الفرد وعلى شخصه، بدل أن تتعلق بموضوع خارجى، لايمكن أن تكون ظاهرة شاذة أو لا تنطوى على دلالة، بل الأرجح أن تكون النرجسية هى الحالة العامة الأصيلة التى تتمخض عنها محبة الموضوعات فيما بعد، دون أن يترتب على هذا بالضرورة اختفاء النرجسية أى عشق الذات. وفى هذا ما يذكرنا بما نعرفه عن تطور موضوعات اللبيدو، فنحن نعلم أن كثيراً من النزعات الجنسية تظفر بالإشباع، فى أول الأمر، على بدن الطفل نفسه ـ أى على أسلوب شهوى ذاتى كما أسميناه ـ وأن هذه الشهوية الذاتية هى التى تفسر لنا تأخر الوظيفة الجنسية فى التكيف لمبدأ الواقع الذى

تفرضه التربية، وهكذا ظهر أن الشهوية الذاتية هى النشاط الجنسى، الذى يتميز به الطور النرجسى فى سيرة اللبيدو.

موجز القول أن الفكرة التى كوناها لأنفسنا عن الصلة بين «اللبيدو الأنوية»[١] و«اللبيدو الموضوعية»[٢]، يمكن أن نوضحها بتشبيه نستعيره من علم الحيوان:

تصوروا أبسط أشكال الكائنات الحية التى تتكون من كتلة صغيرة من مادة بروتوبلازمية لاتكاد تتمايز، هذه الكائنات تبرز نتوآت أنتسحب تسمى بالأقدام الكاذبة، تفرغ فيها مادته الحية، على أنها تستطيع أيضاً أن تسحب هذه النتوآت وتكور نفسها مرة أخرى، فنحن نشبه بروز هذه النتوات بإشباع اللبيدو على الموضوعات إشعاعاً قد يبقى وراءه أكبر جانب منها متعلقًا بالأنا، كما نسلم بأن اللبيدو الأنثوية لا يشق عليها أن تتحول، فى الظروف العادية، إلى لبيدو موضوعية، وأن هذه الأخيرة قد ترتد إلى الأنا فى هذه الظروف أيضاً.

فى وسعنا الآن أن نستعين بهذه التصورات على تفسير عدد كبير من الحالات النفسية. وإن شئنا أن تكون أكثر تواضعا، قلنا نستعين بها على أن نصف بلغة نظرية اللبيدو عدداً كبيراً من الحالات النفسية التى تنتمى إلى الحياة العادية السوية: كالموقف النفسى فى حالة الحب، وفى أثناء الأمراض العضوية، وفى حالة النوم.

أما فيما يتصل بحالة النوم، فقد سلمنا بأنها تقوم على انسحاب الفرد من العالم الخارجى وامتثاله للرغبة فى النوم، ثم وجدنا أن النشاط النفسى الذى يبدو فى الأحلام يخدم هذه الرغبة، وأن الدوافع التى تهيمن على هذا النشاط دوافع أنانية ليس غير. فإذا أردنا أن نصف هذه الحالة على ضوء نظرية اللبيدو، قلنا إن النوم حالة تنسحب فيها جميع الشحنات المفرغة على الموضوعات - سواء كانت شحنات لبيدية أم أنانية - وترتد قيمتها الأنا مرة أخرى، ألا ترون فى هذا التصور ما يلقى ضوءاً جديداً على الاستجمام الذى تظفر به من النوم، بل وعلى طبيعة التعب بوجه عام؟

لقد أسلفنا أن حالة النوم التى ينشدها الفرد فى كل ليلة شبيهة بتلك العزلة الهانئة التى تتسم بها الحياة داخل الرحم، وها نحن أولاء نرى الآن ما يؤيد هذا التشابه ويكمله

---

1. ego - libido.
2. object - libido.

من الناحية النفسية؛ ففى التو تعاد الحالة الأولى لتوزيع الليبيدو، حالة النرجسية المطلقة، التى توجد فيها الليبيدو متحدة مع اهتمامات الأنا غير متميزة منها، تساكن إحداهما الأخرى فى الأنا المستكفى بذاته.

وأرى الظرف مواتياً لأقدم لكم ملحوظتين، الأولى:

كيف يتميز مفهوم «النرجسية» عن مفهوم «الأنانية»؟

عندى أن النرجسية هى التكملة الليبيدية للأنانية. فإذا تكلمنا عن الأنانية لم تفكر إلا فيما ينفع الفرد، أما النرجسية فتشير إلى إشباع حاجاته الليبيدية أيضاً، ومن الممكن أن نتماشى مع هذا التمييز، من الناحية العملية، إلى حد بعيد، فقد يكون المرء ذا أنانية مطلقة، دون أن يمنعه هذا من أن يفرغ مقادير ضخمة من طاقة الليبيدو على موضوعات معينة، بقدر ما يكون الإشباع الليبيدى من هذه الموضوعات حاجة يلتمسها الأنا: هنا ترقب أنانيته ألا يكون فى طلب هذه الموضوعات ما يضر الأنا، وقد يكون المرء أنانياً وعلى درجة بارزة من النرجسية فى الآن نفسه؛ أى لايشعر إلا بحاجة طفيفة إلى الموضوعات الجنسية، إما من ناحية الإشباع الجنسى المباشر، أو من ناحية تلك النزعات السامية التى تشتق من الحاجة الجنسية، والتى اصطلح الناس على تسميتها «الحب» للمباينة بينها وبين «الشهوانية» المحضة، فى هذه المواقف جميعا نرى أن الأنانية هى العنصر الثابت الواضح، فى حين أن النرجسية هى العنصر المتغير، أما ما يقابل الأنانية وهى الغيرية فلا تعنى إفراغ الليبيدو على الموضوعات، بل تتميز بأنها لا تلتمس الإشباع الجنسى فى الموضوعات.

لكن متى بلغت حالة الحب تمامها من الشدة والعنفوان، أصبحت الغيرية مطابقة لتركيز الليبيدو على الموضوع؛ ذلك أن الموضوع الجنسى يجتذب إليه فى العادة جزءاً من نرجسية الأنا، ومن ثم ينشأ ما يسمى «بالإغراق فى تقدير القيمة الجنسية للموضوع»، فإذا أضيفت إلى هذا غيرية موجهة إلى الموضوع ومشتقة من أنانية المحب، أصبح الموضوع الجنسى على درجة بالغة من القوة والسمو، ونستطيع أن نقول عندئذ إنه امتص الأنا بكليته.

وأخالكم ترحبون الآن ـ بعد هذا العرض الجاف لتلك الكشوف العلمية ـ بأن تستمعوا إلى وصف شعرى يصور ذلك التباين «الاقتصادى» بين حالة النرجسية وحالة الحب فى تمام عنفوانه، وأقتبس هذا الوصف من محاورة بين زليخة وحبيبها فى رواية جوته «الديوان الشرقى» Westostliche Divan .

زليخه

اعترف الجماهير والعبيد وأرباب النصر فى صوت واحد

أن السعادة الحقة لأطفال الأرض

فى أن يحس الإنسان بشخصه وكيانه

ومهما كانت الحياة استطاع الإنسان أن يحياها

ما دام يعرف نفسه حق المعرفة

وليس هناك شيء يفقده الإنسان

متى ظل على ما هو عليه.

حاتم

أفهكذا يقولون! فليكن ما يقولون!

لكنى لا أرى هذا الرأى

إن كل ما فى الدنيا من سعادة وهناء.

أراه مجتمعا كله فى زليخة ليس غير

فإن حبتنى بجميلها وأجزلت لى النعيم

أصبحت لنفسى قيمة فى نفسى

وإن هى أعرضت عنى

فإنى لابد فاقد نفسى

وهكذا لن يكون لحاتم وجود

لكنى أعرف ما سوف أصنع

فسأندمج فى شخص ذلك الحبيب السعيد

الذى تحبوه بالحب والقبلات

أما الملحوظة الثانية.. فأوردها تكملة لنظرية الأحلام، نحن لا نستطيع أن نفسر نشوء الحلم إلا إذا سلمنا بأن ما هو مكبوت فى اللاشعور قد أصبح مستقلا عن الأنا إلى حد ما، بحيث لا يخضع للرغبة فى النوم وبحيث يحتفظ لشحناته، ولو أن كل الشحنات الموضوعية الأخرى (أى المفرغة على الموضوعات) الصادرة عن الأنا تكون قد انسحبت بغية النوم.. بهذا وحده يتسنى لنا أن نفهم كيف تستطيع هذه المادة

اللاشعورية أن تستغل ضعف الرقيب أو غفلته أثناء النوم، وأن تستحوذ على بقايا اليوم السابق فتكوِّن رغبة حلم محظورة من مواد هذه البقايا، ومن جهة أخرى.. فإن بعض المقاومة التى تعترض الرغبة فى النوم وانسحاب اللبيدو تبعاً لذلك، قد يكون سببها صلة موجودة من قبل بين بقايا اليوم السابق والمادة اللاشعورية المبكوتة. ومن هنا يتعين علينا الآن أن ندخل هذا العامل الديناميكى المهم فى تصورنا لتكوّن الأحلام.

إن المرض العضوى أو التهيج المؤلم أن التهاب عضو من الأعضاء، يخلق فى نفس الفرد، حالة من الجلى أن يترتب عليها فطام اللبيدو عن موضوعاتها. هذه اللبيدو المنسحبة تلقى بنفسها مرة أخرى فتتعلق تعلقاً شديداً بالجزء المريض من الجسم، والحق أننا قد نجترئ فنقول إن انسحاب اللبيدو عن موضوعاتها فى مثل هذه الحالات أكثر استرعاءً للنظر من انسحاب الاهتمامات الأنانية عن مطارحها فى العالم الخارجى، ويبدو أن هذا يمهد لنا الطريق لفهم، وسواس المرض، الذى يصبح فيه عضو من الأعضاء مصدر هم وقلق للأنا، دون أن يكون مريضاً بالفعل.

على أنى لن أستسلم لميل يدفعنى إلى المضى فى هذا الطريق، أو إلى مناقشة مواقف أخرى أصبح من الممكن فهمها وتفسيرها على ضوء الفرض الذى يقول بارتداد اللبيدو الموضوعية إلى الأنا: ذلك أنى أشعر بأنه يتعين علىَّ أن أجيب عن اعتراضين، أعرف أنهما يسترعيان كل اهتمامكم فى هذه اللحظة، فأنتم تريدون أن تعرفوا، أولا، لِمَ أصر على التمييز بين اللبيدو والاهتمام، بين النزعات الجنسية ونزعات الأنا، حين أتكلم عن النوم والمرض وما شابههما من الحالات، فى حين أنه يمكن تفسير الملاحظات تفسيراً يغنى إن افترضنا وجود طاقة واحدة موحدة الصورة، حرة الحركة، تستطيع أن تلقى بنفسها على الموضوع أو على الأنا، وتستطيع أن تخدم أغراض أحدهما وأغراض الآخر، الثانى: أنكم تريدون أن تعرفوا كيف اجترأت على أن أرى فى انفصال اللبيدو عن موضوعاتها مصدراً لحالة باتولوجية، فى حين أن تحول اللبيدو الموضوعية إلى لبيدو أنوية على هذا النحو، أو إلى طاقة أنوية بوجه عام، عملية نفسية سوية يتكرر كل يوم وكل ليلة.

أما اعتراضكم الأول فيبدو سليما، فأكبر الظن أن فحص حالات النوم والمرض والحب لم يكن ليسلم بنا قط إلى التمييز بين اللبيدو الأنوية واللبيدو الموضوعية، بين اللبيدو والاهتمامات، غير أنكم تسيتم تلك البحوث التى بدأنا بها، والتى ننظر على ضوئها إلى المواقف النفسية التى نناقشها الآن.

إنّ بصرنا بالصراع الذى تنشأ منه الأعصبة الطرحية، هو الذى حتم علينا أن نميز بين اللبيدو و«الاهتمامات»، بين الغرائز الجنسية وغرائز حفظ الذات، فلم نعد نملك أن نغفل عن هذا التمييز، ثم إن إمكان تحول اللبيدو الموضوعية إلى لبيدو أنوية، أى إن ضرورة الاعتراف بلبيدو أنوية، قد بدا لنا أنه التفسير الوحيد الذى يستطيع به حل اللغز الذى يكتنف الأعصبة النرجسية كالخبل المبكر مثلا، والذى يستطيع أن يوضح لنا ما بين هذه الأعصبة وبين الهستريا والحواز من أوجه للتشابه والاختلاف، فنحن نطبق تأكيداً لايمكن دحضه، ونحن فى حل من أن نمضى فى هذه التطبيقات لنرى إلى أين تسلم بنا، إن النتيجة الوحيدة التى لا تقوم على تجاربنا التحليلية مباشرة هى أن اللبيدو تظل اللبيدو، سواء تعلقت بموضوعات أو بالأنا نفسه، وأنها لا تتحول البتة إلى اهتمامات أنانية، والأمر بالمثل فى هذه الاهتمامات الأنانية، على أن هذه العبارة ما هى إلا طريقة أخرى تعبر عن التمييز بين النزعات الجنسية ونزعات الأنا، ذلك التمييز الذى فحصناه من قبل ونقدناه، والذى عزمنا على أن نستمسك به لأسباب تتعلق بطريقة البحث حتى يظهر ما يدحضه.

أما اعتراضكم الثانى فله ما يبرره أيضاً، لكنه موجّه فى اتجاه خاطئ.. لا شك أن انسحاب اللبيدو الموضوعية إلى الأنا لا يولد المرض مباشرة، ألا ترون إلى حدوث هذه الظاهرة فى كل ليلة قبل حلول النوم، وإلى انعكاسها عند الاستيقاظ؟ كذلك الحيوان الميكروسكوبى يسحب أقدامه الكاذبة، ثم يبرزها مرة أخرى عند أول فرصة تسنح له . لكن الأمر يختلف عن هذا كل الاختلاف حين ترغم اللبيدو على الانفصال عن موضوعاتها فى إثر عملية على جانب كبير من القوة والتأثير، إذ ذاك لايتسنى للبيدو ـ وقد أصبحت نرجسية ـ أن تعود بعد إلى موضوعاتها، وهذه الإعاقة التى تمنى بها الحركة الحرة للبيدو هى ما يولد المرض من دون شك.

إن تراكم اللبيدو النرجسية وتجاوزها حداً معيناً شيء لايطاق، فيما يبدو، حتى ليجوز لنا أن نفترض أن هذا هو ما يدعوها إلى أن تطلب الموضوعات وتتعلق بها فى أول الأمر، عندما يرى الأنا نفسه مضطراً إلى أن يطلق ما لديه من لبيدو ليتفادى بذلك الآثار المرضية التى تنجم عن تراكمها المفرط، ولو كان من بين ما نهدف إليه أن نمضى فى تفاصيل الخبل المبكر، عملية تقترب اقتراباً كبيراً من عملية الكبت، ويجب اعتبارها نظيرة لها. ولن يكون من الغريب عليكم إن قلت إن الشروط التمهيدية

التى يؤى إلى هذه العملية تكاد تتشابه تشابهًا تاماً، فيما نعرف القوى نفسها، ولئن كانت نتيجة ذلك تختلف عما نشاهده فى الهستريا مثلا، فهذا لايمكن رجّعه إلا إلى اختلاف فى الاستعداد.

إن نقطة الضعف فى تطور اللبيدو عند المصابين بالخبل المبكر توجد فى مرحلة أخرى، فالتثبيت الحاسم الذى يعين على تكون الأعراض وظهورها، كما تذكرون، يقع فى نقطة أخرى أكبر الظن أنها فى طور النرجسية الابتدائية، الذى يرتد إلى الخبل المبكر آخر الأمر.

ومما يستلفت النظر إلى حد بعيد أننا مضطرون، فى حالة الأعصبة النرجسية كلها، إلى التسليم بأن مراكز تثبيت اللبيدو تقع فى مراحل من التطور أسبق بكثير من نظيراتها فى الهستريا أو العصاب الحوازى، على أنكم تعرفون من قبل أن الأفكار التى ظفرنا بها من دراسة الأعصبة الطرحية تسمح لنا كذلك بأن نشق لأنفسنا طريقاً خلال الأعصبة النرجسية التى هى أشد عسراً وتعقيداً من الناحية العملية، والواقع أن السمات المشتركة بين هذه الأعصبة جميعًا عديدة جداً، وأنها فى صميمها ظواهر تنتمى إلى فصيلة واحدة، ومن ثَم لا يشق عليكم أن تدركوا مدى الصعوبة - إن لم تكن الاستحالة - التى تعترض من يحاول تفسير هذه الاضطرابات (التى تنتمى بحق إلى الطب العقلى)، دون أن يكون مزوداً من قبل بما يعرفه التحليل النفسى عن الأعصبة الطرحية.

إن الصورة المؤلفة من الأعراض فى الخبل المبكر، وهى صورة جد متغيرة، لاتقتصر على الأعراض الناجمة عن إكراه اللبيدو على التراجع عن الموضوعات، وعن تراكمها فى الأنا فى شكل نرجسية، فثم ظواهر أخرى تشغل جزءاً كبيراً من هذه الصورة، وهى ظواهر يمكن رجعها إلى الجهود التى تبذلها اللبيدو للعودة إلى موضوعاتها، أى التى يمكن اعتبارها محاولة لاسترداد الصحة وللظفر بالشفاء، بل إن هذه الأعراض الأخيرة أكثر ظهوراً واصطخاباً، كما أن بينها وبين أعراض الهستريا تشابهاً ملحوظاً، وإن كانت لا تشبه أعراض الحواز إلا غراراً، على أنها تختلف عن هذه وتلك من كل الوجوه، ويبدو أن جهود للبيدو - فى الخبل المبكر - للعودة إلى موضوعاتها، أى إلى الصورالذهنية لموضوعاتها، جهود تفلح حقًا فى التعلق بشىء

منها، لكن ما تناله من هذه الموضوعات ليس إلا ظلالها أى الصور اللفظية والكلمات المرتبطة بها، ولايسعنى أن أمضى فى مناقشة هذا الموضوع فى هذا المكان، لكنى أعتقد أن سلوك اللبيدو على هذا النحو وهى تستهدف العودة إلى الموضوعات، قد أتاح لنا أن ندرك الفارق الحقيقى بين «الفكرة» الشعورية و «الفكرة» اللاشعورية.

بهذا أكون قد عرفتكم بالمجال الذى ترجى منه الفتوح القريبة وخطوات التقدم التالية فى البحوث التحليلية، فمن اليوم الذى ألفنا فيه فكرة اللبيدو الأنوية، أصبحت الأعصبة النرجسية سهلة المأتى غير عزيزة المنال، وكان علينا أن نجد تفسيرا ديناميكياً لهذه الاضطرابات، وأن نكمل معلوماتنا عن الحياة النفسية، فى الوقت نفسه، بأن نتعمق فيما نعرفه عن الأنا. إن سيكولوجيا الأنا التى نرمى إلى إقامتها لايمكن إرساؤها على المفروضات[1] التى يزودنا بها التأمل الباطنى فى أنفسنا، بل على تحليل الإضطرابات وضروب التفكك التى يمنى بها الأنا - كما هى الحال فى سيكولوجيا اللبيدو، وأكبر الظن أننا حين ننتهى من هذا العمل، ستقل فى أعيننا قيمة معلوماتنا الحاضرة عن مصير اللبيدو، تلك المعلومات التى زودتنا بها دراسة الأعصبة الطرحية، غير أننا لم نقطع فى هذا السبيل إلا شوطاً يسيراً، إن الأعصبية النرجسية لا تتصارع إطلاقًا للخطة التى استخدمناها فى الأعصبة الطرحية، وسترون السبب فى هذا بعد لحظة، فكلما مضينا مع المصابين بهذه الأعصبة خطوة ونفذنا فى حالتهم بعض النفاذ، اعترضنا سياج منيع لا نستطيع أن نظهر عليه.

ولعلكم تذكرون أننا نلتقى فى الأعصبة الطرحية أيضاً بسدود من المقاومة، غير أننا نستطيع فى هذه الحالة أن نحطم هذه العقبات شيئا فشيئًا، أما فى الأعصبة النرجسية فالمقاومة عاتية لا تقهر، وأكثر ما نستطيعه هو أن نختلس نظرة استطلاعية من فوق السد لنرى ما يجرى فى الجانب الآخر، وهذا يقضى علينا أن نستبدل بخطتنا العادية خطة أخرى، وإن كنا لا نعرف ما إذا كنا سنوفق إلى أن نجد لها بديلا..

الواقع أن هؤلاء المرضى لا تعوزهم مادة يفضون بها إلينا، بل هم يفصحون عن حالتهم بطرق عدة، ولو أنها لاتكون دائما أجوبة عن الأسئلة التى نوجهها إليهم، وكل ما نستطيع أن نصنعه فى الوقت الحاضر أن نؤول ما يقولون على ضوء الأفكار التى

1. Data.

حصلنا عليها من دراسة الأعصبة الطرحية. وإن أوجه الشبه بين هذين الطرازين من المرض لتكفى أن تكون لنا عوناً، فى أول الأمر، على أن نصل إلى نتائج تبعث على الرضا مع هؤلاء المرضى، وإن كنا لا ندرى إلى أى حد تصل بنا هذه الخطة.

وفضلا عن هذا، ثم صعوبات أخرى تعترض سبيلنا فى التقدم والمضى، من تلك أن الاضطرابات النرجسية والأمراض العقلية المتصلة بها لايمكن أن تبوح بسرها إلا لباحثين دربوا على الدراسة التحليلية للأعصبة الطرحية، ولكن أطباء العقول عندنا يجهلون التحليل النفسى، ونحن أصحاب التحليل لانرى إلا القليل من حالات الطب العقلى، فنحن فى حاجة إلى جيل من أطباء العقول يتعرفون بالتحليل النفسى ويدربون به، مادة تمهيدية فيما يدرسون، وقد بدأت أمريكا فى الوقت الحاضر تسلك هذا الاتجاه، فكثير من أطباء العقول النابهين هناك يحاضرون طلابهم فى نظريات التحليل النفسى، كما أن بعض مديرى ملاجئ الأمراض العقلية، الخاصة والعامة، يعملون على ملاحظة المرضى على ضوء هذه النظريات، على أننا قد أفلحنا نحن الآخرين فى أن نلقى بنظرة من فوق السد النرجسى، وسأحدثكم فيما يلى عن القليل الذى تسنى لنا أن نظفر به من هذه النظرة.

إن الجنون الهجاسى[1] ـ وهو طراز مزمن من الجنون يقوم على أفكار منظومة ـ لايزال وضعه قلقاً فى تصانيف أطباء العقول المحدثين، ومع هذا فمما لاجدال فيه أنه يتصل بالخبل المبكر اتصالا وثيقاً، حتى لقد اقترحت ذات مرة أن يطلق على الاثنين معاً اسم «بارافرينيا» Peraphrenia . وتسمى الأشكال التى يتخذها الجنون الهجاسى تبعاً لمحتوى الهجاس ومضمونه، فيقال هجاس العظمة، وهجاس الاضطهاد، وهجاس الغيرة، وهجاس العشق إلى غير تلك..

نحن لا ننتظر من الطب العقلى محاولة لتفسير هذا المرض وأشكاله، وأذكر لكم بهذا الصدد مثلا (وإن يكن مثلا عتيقا فقد كسراً من قيمته) محاولة أريد بها استنتاج أحد أعراض هذا المرض من عرض آخر، وهى محاولة تتضمن أن يعزى إلى المريض نوع من التبرير العقلى: فالمريض الذى يحمله استعداد ابتدائى لديه على الاعتقاد بأنه مضطهد، لايلبث أن يستخلص من هذا أنه شخص على جانب كبير من الأهمية ومن ثم ينشأ لديه هجاس العظمة..

1. Paranoia.

أما التحليل النفسى فيرى أن هذه العظمة نتيجة مباشرة لتضخم الأنا بطاقة اللبيدو المنتزعة من الموضوعات، فهو نرجسية ثانوية تعرض كأنها بعض للنرجسية الأصلية فى الطفولة الباكرة، غير أنى لاحظت فى حالات هجاس الاضطهاد أشياء حملتنى على أن أسير فى اتجاه خاص. فقد لاحظت أولا أن الشخص المضطهد ينتمى فى أغلب الأحيان إلى جنس المضطهد نفسه.

وقد كان من الممكن تفسير هذه الظاهرة تفسيراً بريئا، غير أنه يعتقد المريض أنه موضع اضطهاد منه، كان شخصا يحبه المريض حبًا جماً قبل مرضه، وقد تتطور الحالة تبعاً لأساليب التداعى المعروفة، فإذا بشخص المحبوب قد استبدل به شخص آخر، كما يستبدل المدرسون والرؤساء بشخص الأب، غير أنه تسنى لنا أن نخرج من هذه الملاحظات بوسيلة يدرأ بها الفرد نزعة استجناسية أصبحت على درجة كبيرة من الشدة، وإن تحول المودة إلى كراهية الذى قد يصبح خطراً كبيراً على حياة الموضوع المحبوب المكروه فى الآن نفسه، يناظر فى هذه الحالات تحول النزعات اللبيدية إلى حصر، فيما ينجم باطراد عن عملية الكبت..

وإليكم على سبيل المثال آخر حالة شهدتها من هذا النوع:

اضطر طبيب شاب أن يهجر بلدته لأنه هدد بالقتل ابن أستاذ بجامعتها، وكان قبل هذا خير صديق له، لقد كان الطبيب يعزو إلى هذا الصديق القديم قوة خارقة للعادة، ومقاصد شيطانية، وكان يتهمه بكل ما حل بأسرته فى السنوات الأخيرة من مصائب، وبكل ما صادفه من متاعب خاصة وعامة، بل هناك ما هو أكثر، فهذا الصديق التعس وأبوه أستاذ الجامعة هما السبب فى نشوب الحرب وفى استدعاء الروس إلى الحدود، وقد عمل هذا الصديق على تحطيم حياة الطبيب أكثر من ألف مرة، فكان الطبيب يعتقد أن موت هذا المجرم يضع حدًا لكل ما فى العالم من شرور، ومع هذا كله، فما زال حبه القديم لهذا المجرم على درجة بالغة من العنف بحيث عرضت له ذات يوم فرصة، يطلق فيها الرصاص على عدوه هذا، فما لبثت يده أن شلت عن الرماية..

لقد ظهر لى من حديث موجز مع المريض أن صلات الصداقة بين الرجلين ترجع إلى عهد المدرسة، وأن هذه الصلات قد تجاوزت، ذات مرة على الأقل، حدود الصداقة إلى الإتصال الجنسى الصريح فى ليلة أمضياها معًا، يضاف إلى هذا أن

المريض لم يكن يشعر نحو النساء بذلك الود المشبوب الذى يتفق مع سنه وشخصيته الجذابة.

وقد اتفق له أن خطب فتاة ذات ظرف وجمال، لكنها صدفت عنه وفسخت الخطبة حين فطنت إلى ما هو عليه من تخاذل وفتور، وبعد سنوات عدة من ذلك، تفصح المرض لديه، وبان، وكان ذلك على التحديد فى لحظة أفلح فيها للمرة الأولى أن يتصل بامرأة فيشبعها إشباعاً تاما، فلما أحاطته المرأة بذراعيها شاكرة له حسن صنيعه، إذا به يحس من فوره بألم غريب كأنه طعنة سكين أصابت يأفوخ دماغه، وقد استطاع أن يصف هذ الإحساس فيما بعد فيشبهه بإحساس خصم يحطم دماغه لتعرية مخه كما هى الحال فى عملية ثقب الدماغ أو فحص الجثة التشريحى، وبما أن صديقه كان متخصصاً فى التشريخ الباثولوجى، فقد تسنى للمريض رويداً رويداً أن يستنتج أن هذا الصديق وحده هو من يستطيع أن يبعث إليه بهذه المرأة لتغريه؛ إذ ذاك أخذت عيناه تتفتح فيفهم كل ضروب الاضطهاد الأخرى التى تقض مضجعه من كيد صديقه القديم.

لكن ما بال تلك الحالات التى لا يكون فيها الشخص المضطهد من جنس الشخص المضطهد؟

أليس فيها يناقض تفسيرنا هذا المرض بأنه درء لليبدو استجناسية؟

لقد أتيح لى منذ عهد قريب أن أفحص حالة من هذا النوع، وأن أنتزع من ذلك التناقض الظاهرى تأييداً لوجهة نظرى، تلك حالة فتاة كانت تعتقد أنها موضع اضطهاد من رجل اجتمعت به مرتين فى لقاء حميم، غير أن هجاسها كان منصباً بالفعل، فى أول الأمر، على امرأة يمكن اعتبارها بديلا عن أمها، ولم تفلح فى أن تحول هجاسها من هذه المرأة إلى الرجل إلا بعد أن اجتمعت به للمرة الثانية. وهكذا يتحقق شرط الجنس المثيل فى هذه الحالة كما تحقق فى الحالة الأولى، غير أن المريضة لم تذكر فى شكواها لطبيبها ومحاميها ذلك الطور السابق من هجاسها ،فبدا الأمر فى ظاهره تفنيداً لرأينا عن الجنون الهجاسى.

إن اختيار موضوع من نفس الجنس يكون، بادئ ذى بدء، أكثر اتصالا بالنرجسية من اختيار موضوع من الجنس الآخر، ومن ثم فإذا اقتضى الحال نبذ نزعة استجناسية قوية ممجوجة، سهلت العودة بوجه خاص إلى النرجسية..

لم تتح لى فرصة إلى الآن أشبع فيها القول عن أسس حياة الحب كما أراها، ولايسعنى أن أسد تلك الثغرة فى هذا المكان، فكل ما أستطيع أن أقوله لكم هو أن اختيار الموضوع أو تطور اللبيدو بعد مرحلة النرجسية قد يتخذ شكلين أو طرازين مختلفين: **الطرز النرجسى**، وفيه يختار الإنسان شخصاً يشبهه على قدر المستطاع بدل أن يكون الأنا نفسه موضوع المحبة، **والطراز الكفلى**[1]، وفيه ينصب الاختيار على أشخاص، أصبح الفرد لا يستغنى عنهم لأنهم يكفلونه ويقومون على إرضاء حاجاته الحيوية، والرأى عندنا أن تثبيت اللبيدو تثبيتاً قوياً على الطراز النرجسى فى اختيار الموضوع سمة يتميز بها الاستعداد للاستجناس الصريح.

لعلكم تذكرون أنى وصفت لكم فى المحاضرة الأولى لهذا الموسم حالة امرأة مصابة بهجاس الغيرة، ولا شك أنكم تتطلعون الآن، وقد أشرفت محاضراتنا على النهاية، أن تعرفوا كيف يعلّل الهجاس من وجهة نظر التحليل النفسى، على أنى آسف أن أحدثكم عن هذا الموضوع قدر ما تنتظرون، إن إحصاء الهجاس على الحجج المنطقية والخبرات الواقعية يمكن أن يعلل ـ كما هو الشأن فى الحواز أيضاً ـ بارتباطه بالبطانة اللاشعورية التى يعبر عنها ويعتقلها فى الوقت نفسه، وليس بين الاضطرابين فارق إلا من الناحيتين الطوبوغرافية والديناميكية.

والأمر بالمثل فى **المرض السوداوى**[2] (السُّواد)، وهو مرض يبدو فى صور كلينيكية مختلفة شتى، فقد تسنى لنا أن نظفر بنظرة فى بنائه الداخلى كتلك التى أتيحت لنا فى حالة الجنون الهجاسى.. لقد لاحظنا أن ضروب اللوم والتبكيت التى يشقى بها السُّواديون ويعذبون أنفسهم بها فى غير رحمة، تنصب فى حقيقة الأمر على شخص آخر، على الموضوع الجنسى الذى فقدوه أو فقدوا تقديرهم له فى أثر خطأ ارتكبه، فاستطعنا أن نستنتج من هذا أن السوادى قد سحب من الموضوع ما كان متعلقاً به من لبيدو، وأنه نصب الموضوع فى ثنايا الأنا نفسه، كأنه أسقطه عليه، عن طريق عملية يمكن أن نسميها **التقمص النرجسى**[3].

---

1. Anaclitic type.
2. Melancholia.
3. Narcissistic identification.

وليس فى وسعى أن أقدم لكم هنا وصفًا طوبوغرافيا ديناميكيا لهذه الحالة، بل تصويراً مجازياً ليس غير، عندئذ يُعامل الأنا كأنه الموضوع المهجور، فيكابد كل ضروب الانتقام والعدوان الموجهة إلى الموضوع .

كذلك لايشق علينا أن نفسر نزعة السواديين إلى الانتحار على ضوء هذا الفرض أيضاً. فالمريض ينزع فى الآن ذاته إلى القضاء على نفسه وعلى الموضوع الذى يحبه ويكرهه فى الوقت عينه، ومما يشار إليه أننا نلحظ فى السواد وفى الاضطرابات النرجسية الأخرى سمة من سمات الحياة الوجدانية تتجلى بصورة واضحة بارزة، تلك هى السمة التى اعتدنا أن نسميها - بعد بلويلر - بالتناقض الوجدانى، وهو وجود عاطفتين متناقضتين (من المحبة والكراهية) نحو شخص بعينه..

ومما أنا آسف له أنى لا أملك أن أطيل الحديث عن التناقض الوجدانى فى هذه المحاضرات، إلى جانب التقمص النرجسى ثم تقمص هستيرى نعرفه من عهد طويل، وكنت أود أن يتسنى لى أن أبين لكم الفوارق بين هذين النوعين من التقمص ببضعة أمثلة مختارة، على أنى أستطيع أن أقص عليكم شيئا طريفًا دون شك عن الأشكال الدورية والنوابية للسواد، ذلك أنه من الممكن فى الظروف المواتية (وقد أجريت هذا بنفسى مرتين) أن نحول دون عودة الحالة السوادية أو قسيمتها، بفضل علاج تحليلى نجريه فى الفترات التى يصفو فيها ذهن المريض بين النوبات، وإذ ذاك نلاحظ أن الأمر يدور - فى السواد وفى الهوس[1] - على حل لصراع من نوع خاص، وأن عناصر هذا الصراع هى على التحديد العناصرنفسها التى توجد فى الأعصبة الأخرى، وعسى ألا يشق عليكم أن تدركوا المدى، الذى لايزال على التحليل النفسى أن يدركه فى هذا المجال.

كذلك ذكرت لكم أننا نستطيع بفضل التحليل النفسى للاضطرابات النرجسية أن نظفر بمعلومات عن تكوين الأنا والعناصر التى تدخل فى بنائه، بل لعلنا بدأنا نستشف هذا التكوين وتلك العناصر، فقد خرجنا من تحليل «هاجس الترصد»[2] بأن فى الأنا ملكة أو قوة تراقب وتنفذ وتوازن على الدوام، فهى بهذا تناهض الجانب الآخر من

1. Mania.

2. Delusion of observation.

الأنا، وأرى أن المريض يكشف لنا عن ظاهرة لم تلق ما هى جديرة به من التقدير حين يشكو من أن كل خطوة من خطواته مرصودة مراقبة، وأن كل خاطر من خواطره يماط عنه اللثام ويعرض له بالنقد، وخطؤه الوحيد أنه ينسب هذه القوة التى يضيق بها إلى شىء خارجى غريب عنه.

إنه يشعر فى نفسه بسلة تزن أناه الفعلى وكل وجه من وجوه نشاطه بميزان أنا مثالى[1] خلقه بنفسه لنفسه خلال نموه وتطوره، بل أعتقد أنه خلق هذا الأنا المثالى بقصد أن يستعيد رضاه عن نفسه، ذلك الرضا الذى كان لصيقًا بالنرجسية الطفلية الأولى، والذى لاقى كثيراً من الصدمات وضروب الحرمان منذ ذلك الحين، هذه السلطة الراصدة الناقدة للأنا هى ما تعرف بالضمير، وهى الرقابة نفسها التى ترصد الأحلام أثناء النوم، والتى تفرض الكبت على الرغبات المرفوضة، حتى إذا ما انحلت هذه السلطة بتأثير هاجس الترصد، أماطت لنا اللثام عن أصلها: فهى تنشأ من تأثير الأبوين والمربين والبيئة الاجتماعية، عن طريق عملية تقمص لبعض الأشخاص الذين يتخذهم الطفل نموذجا ومثالا.

هذه بعض النتائج التى وصلنا إليها من تطبيق التحليل النفسى على الاضطرابات النرجسية، وأعترف أنها ليست بالكثيرة وأن كثيرا منها لايزال فى حاجة إلى ذلك الوضوح الذى لايمكن أن نظفر به فى مجال جديد إلا إذا وصلنا إلى درجة معينة من معرفته والألفة به.. نحن مدينون بهذه النتائج إلى اصطناع فكرة اللبيدو الأنوية أو للبيدو النرجسية، فقد خولت لنا أن نبسط النتائج التى أتاحتها لنا دراسة الأعصبة الطرحية حتى تنسحب على الأعصبة النرجسية.

على أنكم لاشك سائلون عما إذا كان من الممكن أن ندخل الاضطرابات النرجسية والعقلية كلها فى نطاق نظرية اللبيدو، وهما إذا كان العامل اللبيدى فى الحياة النفسية هو المسئول عن المرض دائماً دون أن نعزو شيئًا من الأسباب إلى تغيير فى وظائف الغرائز الأخرى- غرائز حفظ الذات، والجواب عن هذا السؤال لايبدو لى الآن شيئا عاجلا؛ خاصة أنه لم يختمر بعد وينضج بحيث يسمح لنا أن نجازف بصوغه، فلنتركه فى هدوء حتى يقطع تقدم العلم فى أمره، ولن تأخذنى الدهشة إن علمت فى يوم أن

1. Ego-ideal.

القدرة على إحداث المرض من شأن النزعات اللبيدية وحدها فعلا، وأن نظرية اللبيدو قد انتشرت على طول الخط من أبسط الأعصبة الفعلية إلى أشد الأمراض العقلية وأعظمها خطرا، ألسنا نعرف أن من خصائص اللبيدو رفضها الامتثال لواقع الحياة ولمقتضيات الضرورة؟

على أنى أرى، فى أكبر الظن، أن غرائز الأنا معرضة هى الأخرى لاختلالات وظيفية تنجم عن اختلالات لبيدية مولدة للمرض ، ولو علمت فى يوم أن غرائز الأنا يصيبها الاختلال بادئ ذى بدء، فى أشد الأمراض العقلية خطراً، فلن أرى فى هذا حيوداً عن الاتجاه العام الذى تسير فيه بحوثنا، وهذه مسألة يفصل فيها المستقبل ـ لكم على الأقل.

ولنعد لحظة إلى موضوع الحصر لنجلو ناحية غامضة تركناها هناك، لقد قلنا إن الصلة المعروفة بين الحصر واللبيدو لاتنسجم مع الافتراض الذى لايكاد يختلف فيه، وهو أن الحصر الموضوعى إزاء الخطر، مظهر لغرائز حفظ الذات، أليس من الممكن أن يستمد وجدان الحصر عناصره من اللبيدو الأنوية لا من الاهتمامات الصادرة من غرائز الأنا؟

إن حالة الحصر فى صميمها حالة ضارة، وإن مساوئها لتتضح حين تبلغ درجة معينة من الشدة، لأنها تعطل العمل إذ ذاك ـ سواء كان هربا أو دفاعا ـ وهو الشىء الوحيد الذى يكفل المحافظة على الذات، فلو أننا عزونا الشطر الوجدانى من الحصر الموضوعى إلى اللبيدو الأنوية، وعزونا الفعل الذى يحدث فى هذا الظرف إلى غرائز حفظ الذات.. فإننا نكون بهذا قد ظهرنا على كل صعوبة نظرية تحيط بهذا الموضوع، ولا أخالكم تصدقون، فيما أرجو، أننا نهرب لأننا نشعر بالخوف. كلا، بل نحن نشعر بالخوف، ونهرب نتيجة للدافع نفسه، الذى يستثيره إدراك الخطر، ويحدثنا رجال قدر لهم أن ينجوا من أخطار داهمة جسيمة، أنهم لم يشعروا بأدنى خوف، بل كانوا يتصرفون ليس غير ـ كأن يسددوا أسلحتهم إلى الوحش الذى يهم بهم ـ ولا شك أن هذا كان خير ما يمكن أن يصنعوه.

المحاضرة السابعة والعشرون

الطـــرح

لقد أشرفنا على النهاية من أحاديثنا، وأنا على يقين أنكم تنتظرون شيئا، فأرجو ألا يكون فى هذا الانتظار ما يخلف ظنكم، أكبر الظن أنكم تقولون لأنفسكم إنى لم أمر بكم خلال هذه المتاهات المعقدة من التحليل النفسى؛ لكى أترككم آخر الأمر دون أن أقول كلمة عن العلاج الذى يتوقف عليه إمكان ممارسة التحليل ، والحق أنى لاأستطيع أن أغض النظر عن هذا الموضوع، إذ فى بعض الظواهر التى تتصل به ما يعلمكم حقيقة من دونها، لا يتسنى لكم أن تفهموا الأمراض التى كنا ندرسها حق الفهم.

وأعرف أنكم لا تنتظرون منى توجيهات تتصل بالخطة التى يمارس بها التحليل لأغراض علاجية، بل تريدون أن تعرفوا الكيفية التى يؤثر بها العلاج التحليلى على الإجمال والنتائج التى يصل إليها هذا العلاج على التقريب، ولكم حق لايمارى فى معرفة هذا، غير أنى لن أذكر لكم منه شيئا، بل أؤثر أن أدعكم تقعون عليهم بأنفسكم وبطرقكم الخاصة.

وحسبكم أن تفكروا ! فأنتم تعرفون الآن كل الشروط الأساسية للمرض، وكل العوامل التى تفعل فعلها فى الشخص المريض، فأين المدخل فى كل هذا إلى التأثير العلاجى؟

لدينا أول الأمر، الاستعداد الموروث: ونحن لا نشير إليه فى أغلب الأحوال لأن غيرنا يؤكده توكيدا شديداً، وليس لدينا شىء جديد نقوله عنه، ومع هذا فلا تحسبوا أننا نغض من شأنه، لأننا كمعالجين نعرف قوته وأثره حق المعرفة، على أننا لانملك أن نغير منه شيئا، فهو بالنسبة لنا أيضًا مفروضة ثابتة فى المسألة، وقوة تضع الحدود لجهودنا، يأتى بعد ذلك تأثير أحداث الطفولة الباكرة وخبراتها التى اعتدنا أن نجعل لها مركز الصدارة فى التحليل، إنها تنتمى إلى الماضى، وليس فى وسعنا أن ننكر وجودها.. ولدينا أخيراً كل ما يمكن أن نسميه «الحرمان والخيبة فى دنيا الواقع»، كل ألوان الشقاء التى تطيح بالمحبة، وتبعث على الفقر والخلافات العائلية، والزواج غير الموفق، إلى الظروف الاجتماعية غير المواتية وصرامة المطالب الأخلاقية..

الحق أن هذه كلها مداخل إلى العلاج النافذ، لكنها لابد أن يكون علاجها على

غرار ما وصّى به الإمبراطور يوسف فى الأسطورة الفينيقية، وهو: الإحسان الصادر من قادر قاهر تنحى أمام إرادته الرجال وتتلاشى الصعوبات!.

لكن من نكون نحن حتى نملك أن نبذل مثل هذا الإحسان؟ هل زدنا على أن نكون من زمرة الفقراء، لاحظٌ لنا من النفوذ الاجتماعى، ولا سبيل لنا إلى العيش إلا بممارسة مهنتنا، بل ولا نملك أن نقدم المعونة من غير أجر للمعوزين من الماضى، كما يستطيع غيرنا من الأطباء الذى يصطنعون طرقاً أخرى للعلاج، ذلك أن ما يتطلبه العلاج بالتحليل من وقت طويل وعناء كبير لايسمح لنا بذلك.

غير أن هناك عاملا من العوامل التى ذكرت لعله استرعى انتباهكم بوجه خاص، فآنستم فيه منفذا إلى التأثير العلاجى الذى ننشده، فلئن كانت قيود العرف التى يفرضها المجتمع مسئولة عن الحرمان الذى يكره عليه المريض، ففى وسع العلاج أن يشجعه بل وأن يغريه مباشرة بتحدى هذه القيود، وبالتماس الإشباع وطلب الصحة فلا يذعن إلى مثل أعلى يوقره المجتمع لكن الناس لا تحفل به أغلب الأحوال، وهكذا يكون السبيل إلى الشفاء أن يعيش الفرد على أقصى ما تصبو إليه وظيفة الجنسية عنده، غير أن العلاج التحليلى إن سلك هذا السبيل كان جديراً باللوم من دون شك، وبأن يعاب عليه مناهضته للأخلاق العامة، فما يعطيه للفرد فى هذه الحالة، ينتزعه من المجتمع وبقية العالم.

من أين نشأت هذه الفكرة البالة عن التحليل؟

إن نصح الفرد بأن يمعن فى إشباع لباناته الجنسية، نصح لا صلة له بالعلاج التحليلى.. ألم أذكر لكم نفسى أن المريض يكابد صراعا عنيداً بين رغباته اللبيدية والكبت الجنسى، بين نزعاته الشهوانية ونزعاته المتزهدة؟

فهل السبيل إلى حل هذا للصراع أن نعين أحد الخصمين حتى يتغلب على الآخر؟

نحن نرى أن الجانب الزاهد هو الغالب السائد عند العصابيين، وقد ترتب على هذا أن وجدت النزعات الجنسية المكبوتة لنفسها فى الأعراض متنفسا ومنصرفا، فلو أننا عملنا على أن ينتصر الجانب الشهوانى، لقاء الجانب الزاهد المنبوذ، بتعويض مايصيبه من الكبت عن طريق الأعراض، فليس فى أى من هذين الإجراءين حسم للصراع الداخلى: إذ يظل أحد الجانبين غير مشبع فى الحالتين.

بيد أن هناك حالات نادرة يكون فيها الصراع على درجة من الضعف بحيث قد تجدى فيه نصيحة طبيب، وهذه الحالات لا تتطلب فى الواقع علاجًا تحليليًا. فمن يتأثرون بالأطباء فى مثل هذه السهولة يستطيعون أن يظفروا بالنتيجة نفسها من دون تدخل الطبيب. وتعرفون أن الشاب المتأبى عن الجنس حين يعزم على اتصال جنسى غير مشروع، فإنه لاينتظر عادة أن يأذن له الطبيب بهذا فضلا عن المحلل النفسى، والأمر بالمثل فى الزوجة المتحرقة التى تلتمس الإشباع عند رجل آخر.

إن الناس لايلتفتون فى العادة إلى ناحية أساسية فى هذه المسألة، هى أن الصراع المولد للمرض عند العصابيين يختلف كل الاختلاف عن الصراع العادى بين دافعين متعارضين، يقعان فى عين المستوى النفسى. فالصراع العصابى حرب بين قوتين أفلحت إحداهما فى بلوغ مستوى الشعور أو القبشعور فى حين ظلت الأخرى محبوسة فى اللاشعور، وهذا هو السبب فى أنه لايمكن حل الصراع بينهما إطلاقا؛ لأن القوتين المتعارضتين لا تتقابلان وجها لوجه.. مثلهما فى ذلك الحوت والدب القطبى فى القصة المعروفة، ولايمكن الوصول إلى قرار حاسم إلا إذا واجهت إحدهما الأُخرى فى مستوى واحد، وتلك هى المهمة الوحدة للعلاج التحليلى فيما أعتقد.

فى وسعى أن أؤكد لكم، فضلاً عن هذا، أنكم تخطئون أن حسبتم أن نصح الفرد وإرشاده فيما يتصل بسلوكه فى الحياة، من مقومات طريقة التحليل. بل الأمر على عكس هذا.. فنحن نبتعد ما وسعنا البعد عن أن نقوم بدور الناصح ولا نريد من المريض إلا شيئا واحداً هو أن يصل بنفسه إلى حلوله وقراراته؛ لذا فنحن نطلب إليه إن يرجئ إلى ما بعد العلاج كل قرار مهم يتصل بحياته: كاختيار مهنته أو زوجته، أو القيام بمشروع تجارى، أو الطلاق إلى غير ذلك.. ألا تقرون بأن ما أذكره لكم يختلف كل الاختلاف عما كنتم تظنون؟

على أنه إن كان علينا أن نعين شخصًا صغير السن أو شخصًا لا حول له ولاحيلة.. تعذر علينا أن نحصر أنفسنا فى مثل هذه الحدود الصارمة، وتعين علينا أن نقوم بدو الطبيب والمربى فى وقت واحد؛ إذ ذاك نلزم جانب الحرص، ونتخذ من التحوطات الضرورية ما يمليه علينا الشعور بالمسئولية.

ولايغرنكم دفاعى الحار عن العلاج التحليلى، فتحسبون أنى أدرأ به تهمة لصقت بهذا العلاج، وهى أنه يشجع العصابيين على «العيش عيشة طليقة متحررة» ثم تخرجون من ذلك بأنه يعمل لصالح العرف الأخلاقى. فهذه الفكرة بعيدة عنا بعد

الفكرة الأولى.. صحيح أننا لسنا مصلحين بل ملاحظين، لكننا لا نستطيع أن نمسك أنفسنا عن أن نلاحظ بعين ناقدة: ومن ثم رأينا أنه يستحيل علينا أن ندافع عن المواضعات الأخلاقية التى تتصل بالأمور الجنسية، أو أن نرضى عن الطريقة التى يحاول بها المجتمع أن يحل المشكلات العملية للحياة الجنسية، ولا يعزّ علينا أن نبيّن أن ما يسميه المجتمع بالقانون الأخلاقى يتطلب من التضحيات أكثر مما يستحق، وأن أساليبه لايمليها الإخلاص ولا ترتكز على الحكمة، ولسنا خاطئين إذ نسمع المرضى هذه الاعتراضات؛ فنحن نعودهم عدم التشبع فى التفكير، فى الشئون الجنسية وفى غيرها على حد سواء، فإذا ما انتهى العلاج فأصبحوا بنعمته أحرارا مستقلين، واختاروا لأنفسهم طريقًا وسطا بين الاستباحة الجنسية المطلقة ولتأبى الجنسى المطلق، لم يكن فى هذا مانلوم أنفسنا من أجله..

والرأى عندنا أن من جاهد وأفلح فى معرفة حقيقة نفسه، كان لمنجاة من أخطار الفساد، حتى إن مال ميزان القيم الخلقية عنده بعض الميل عن الميزان المشاع فى المجتمع. وأشير عرضًا إلى أننا يجب أن نحذر فلا نغالى فى تقدير خطر التأبى الجنسى والدور الذى يقوم به فى خلق الأمراض النفسية، فالاتصال الجنسى الذى يظفر به الفرد من دون عناء لا يؤدى إلى التخفف من الأثر المرَى الذى ينشأ من الزمت وتراكم لليبدو إلا على ما قل وندر.

من هذا نرى أنه لا يجوز لنا أن نفسر التأثير العلاجى للتحليل النفسى بأن نقول إنه يأذن للمرضى بالاستباحة الجنسية،. فلنبحث عن تفسير آخر، أعتقد أننى بينما كنت أدفع عنكم ظنكم بخطر هذه المسألة، تقدمت بإشارة لعلها وجهتكم التوجيه الصحيح: تلك هى إبدال شيء لا شعورى بآخر شعورى، وتحويل أفكار لاشعورية إلى أخرى شعورية، والواقع أن هذه هى وظيفة العلاج التحليلى على وجه التحديد. فبهذا الاستدراج تبطل ضروب الكبت، وتنتفى الشروط التى تهيمن على تكوين الأعراض، ويتحول الصراع المولد للمرض إلى صراع سوى، ينتهى به الأمر إلى أن يحل على وجه ما، ونحن لا نصنع للمرضى شيئا أكثر من أن نعنيهم على هذا التغيير النفسى، وعلى قدر ما نوفق فى هذا، يكون نجاح العلاج، فإن لم يكن ثمة كبت أو عملية نفسية شبيهة فليس للعلاج بالتحليل ما يعمله.

فى وسعنا أن نعبر عن الهدف الذى ترمى إليه جهودنا بعبارات مختلفة: جعل اللاشعورى مشعوراً به، أو إبطال ضروب الكبت، أو سد ثغرات الذاكرة. وكلها تفيد

المعنى نفسه على أنكم ربما لاترضون عن هذا التصريح، فلعلكم كانت تتصورون شفاء المريض على غير هذا، وتحسبون أنه يصبح بعد عملية التحليل الشاقة شخصاً آخر، فإذا بى أقول لكم إن الشفاء يتلخص فى نقصان المواد اللاشعورية لديه بعض النقص، وازدياد المواد الشعورية بعض الزيادة عن ذى قبل..

وأكبر الظن أنكم لاتقدرون خطر هذا التغيير الداخلى حق قدره، فالعصابى الذى يشفى من مرضه يصبح فى الواقع شخصاً آخر، ولو أنه يظل فى باطن الأمر هو نفسه بطبيعة الحال، أى إنه يصبح ما كان يمكن أن يكون عليه فى خير الظروف وأنسبها، وهذا ليس بقليل. فإذا عرفتم هذا ثم سمعتم بكل ما يجب أن يعمل، بكل الجهود التى يجب أن تبذل طلباً لهذا التغيير النفسى الذى لايعتد به فى ظاهر الأمر، لم يخامركم الشك بعد فى خطورة تحويل المواد النفسية من مستوى نفسى إلى مستوى آخر.

وأود أن أستطرد قليلا فأسائلكم: هل تعرفون ماذا يقصد بالعلاج العلى؟

هذا اصطلاح يلق على طرق العلاج التى تعمل على إزالة أسباب المرض بدل أن تهاجم مظاهره وأعراضه، فهل العلاج بالتحليل علاج علّى؟.

إن الجواب عن هذا غير بسيط، لكنه قد يتيح لنا فرصة نعرف منها عقم هذا السؤال وأمثاله، فحين لايهدف العلاج التحليلى مباشرة إلى إزالة الأعراض ، فهو بهذا القدر علاج علّى، لكننا إن نظرنا إليه من نواحٍ أخرى، بدا أنه علاج غير على، فقد كنا نرتد على آثار الأحباب قصصًا، من خلال ضروب الكبت ونتأثرها إلى الاستعدادات الغريزية:

ما هى عليه من شدة نسبية فى جبلة الفرد، وما يصيبها من حيود وانحراف أثناء تطورها، ولنفرض أننا استطعنا أن نؤثر فى هذا البناء النفسى بوسائل كيميائية، فنزيد أو ننقص من كمية اللبيدو فى لحظة معينة، أو نقوى نزعة على حساب أخرى.. لكان هذا علاجا علّيًا بالمعنى الحرفى، ولكان التحليل النفسى قد مهد له وراد الطريق إليه، لكنكم تعرفون أن أحداً لا يفكر فى الوقت الحاضر فى التأثير فى عمليات اللبيدو على هذا النحو، عند أصل الظواهر التى نشهدها ونلمسها، لكنها بعيدة نسبيًا عن الأعراض نفسها، وهى حلقة يتاح لنا إدراكها وتناولها فى ظروف تبهر وتروع حقاً.

كيف السبيل إذاً إلى استدراج ما هو لا شعورى إلى شعورى المريض؟

لقد أتى علينا حين من الدهر، كنا نحسب أن هذا العمل جد بسيط، فما علينا إلا

أن نكشف عن اللاشعور ثم نبسطه أمام عينى المريض، غير أنه تبين لنا اليوم أننا لم نكن بعيدى النظر، ذلك أن ما نعرفه عن لا شعور المريض لا يستوى البتة بما يعرفه هو عنه، فإذا أخبرناه بما نعرفه لم **يستعض** عن أفكاره اللاشعورية بما تقدمه له من معلومات، بل يضع يده هذه إلى **جنب** تلك.

وهكذا يظل اللاشعور عنده على ما هو عليه لا يكاد يصيبه تغيير، وأولى لنا أن ننظر إلى هذه المادة اللاشعورية نظرة طوبوغرافية[1]، وأن نلتمسها فى ذكريات المريض عند النقطة التى تكونت فيها أصلا فى إثر الكبت، ولو تسنى لنا أن نزيل هذا الكبت، تحول اللاشعور إلى شعورى مباشرة، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟ هنا تبدأ المرحلة الثانية من عمل التحليل، بأن نكشف عن ظاهرة الكبت أولا ثم نزيل المقاومة التى تحتفظ به ثانياً.

وكيف تُزال هذه المقاومة؟

بالطريقة عينها: أى بالكشف عنها ووضعها أمام نارى المريض، ذلك أن المقاومة تنأ هى الأخرى عن كبت، قد يكون الكبتَ الذى تعم على إزالته بعينه، أو كبتاً آخر أسبق منه.. فهى ترتكز على الشحنة المضادة التى نهضت لتكبت النزعة المنبوذة، وعلى هذا فما تقوم به الآن هو بعينه ما كنا نحاول أن نعمله من قبلك.. نؤول ونكتشف ونطلع المريض على ما نصل إليه، غير أننا نقوم به الآن فى الموضع الصحيح، إن الشحنة المضادة أو المقاومة ليست جزءاً من اللاشعور، بل جزء من الأنا الذى يتعاون معاً، وذلك حتى إن كانت المقاومة غير شعورية بالفعل، هنا تعترضنا صعوبة تنشأ من المدلول المزودج لكلمة «اللاشعور»: اللاشعور من حيث هو ظاهرة، واللاشعور من حيث هو نظام، وهذا يبدو شيئاً غامضاً معقداً، لكنها مسألة أن تناولناها من قبل، إذاً فنحن ننتظر أن تختفى المقاومة وأن تنسحب الشحنة المضادة حالما يتسنى للمريض أن يتعرفهما عن طريق عملية التأويل..

لكن ما القوى الغريزية الدافعة التى تمكننا من بلوغ هذه الغاية؟

نحن نعتمد أولاً على رغبة المريض فى الشفاء، وهى الرغبة التى حدت به أن يمتثل للتحليل وأن يتعاون معنا، ثم نعتمد بعد ذلك على ذكائه نعززه بما نقدمه له من تأويل، ولا شك أن من الأيسر على المريض أن يتعرف المقاومة بذكائه، وأن يكشف

---

(١) أى نظرة تحدد موضعها وموقعها فى الجهاز النفسى. «المترجم».

المادة اللاشعورية التى تناظرها، لو أننا أعطيناه من أول الأمر فكرة عما يراد تعرفه والكشف عنه، فلو أننى قلت لكم : «انظرو إلى السماء فسترون منطاداً، لرأيتموه بأسرع مما لو طلبت إليكم أن تشخصوا إلى السماء دون أن أحدد لكم ما ترونه، وكذلك الطالب الذى ينظر فى المجهر للمرة الأولى، فإنه لا يرى شيئا إلا أن يخبره أستاذه بما سيراه.

ولنتناول الوقائع الآن.. لقد صحت فروضنا هذه فى عدد كبير من الاضطرابات العصبية والأشكال المختلفة من الهستريا والحصار والحواز، فنحن نفلح بالفعل إذ نبحث عن الكبت ونكشف عن المقاومة ونميط اللثام عما هو مكبوت، نفلح فى أن نحل المشكلة، ونظهر على المقاومات،و نبطل الكبت، ونحيل شيئا لا شعوريا إلى شىء شعورى، ومتى نقوم بهذا نشعر شعوراً واضحاً بأن صراعا عنيفا يدور فى نفس المريض حيال كل مقاومة يراد التغلب عليها. وهو صراعٌ نفسى طبيعى يجرى فى صعيد واحد بين دوافع متعارضة، يريد بعضها أن يحتفظ بالشحنة المضادة، ويعمل البعض الآخر على إزالتها، فأما الدوافع الأولى فهى الدوافع القديمة التى نصبت الكبت أصلا، وأما الدوافع الأخرى.. فنجد من بينها ما نشأ عند المريض منذ عهد قريب، وهى الدوافع التى نأمل أن تحسم الصراع فى الاتجاه الذى نريد.

على هذا النحو، أفلحنا فى بعث الصراع القديم الذى إنتهى أمره إلى الكبت، وفى إعادة النظر فى المسألة التى ختم عليها منذ زمن بعيد، ومما يعيننا على هذا أمران: أولهما أن نبين للمريض أن الحل الأصلى القديم للصراع هو الذى أدى إلى المرض، فلعل حلاً يمهد الطريق إلى العافية والشفاء، الثانى أن نبين له أن الأمور قد تغيرت تغيراً كبيراً منذ ذلك العهد الذى رفضت فيه النزعات بادئ ذى بدء، ففى ذلك العهد كان الأنا ضعيفاً طفيلياً، وربما كان له العذر فى أن يفزع من مطالب اللبيدو إذ يراها خطرة عليه، أما اليوم فهو أشد مراساً وأكثر خبرة، وله فى شخص المعالج مساعد مخلص أمين، ومن ثم فلنا أن ننتظر أن يحل الصراع المبتعث حلاً أسلم وأنسب من حله بالكبت، وإنما أحرزناه من نجاح فى حالات الهستريا والحصار والحواز ليبرر ما نراه، فى أغلب الأحوال.

على أن هناك طرزاً أخرى من المرض لاتجدى فى خطتنا العلاجية هذه فتيلا، على الرغم من تشابه ظروفها بظروف الأمراض السابقة، ذلك أن هذه الأمراض تتميز هى الأخرى بصراع بين الأنا واللبيدو كان مصيره إلى الكبت، ولو أنه يختلف من حيث موقفه ومكانه عن الصراع فى الأعصبة الطرحية، وكذلك يتسنى لنا أن

تتأثر حياة المريض فيها فنكشف عن الظروف التي حدثت فيها ضروب الكبت تحديداً، ونحن نطبق الخطة نفسها على هؤلاء المرضى ونعدهم بما نعد به العصابيين، ثم نعنيهم فنخبر الواحد منهم بما يتعين عليه أن يبحث عنه، هذا إلى أن الفترة بين العهد الذى حدث فيه الكبت وبين الوقت الحاضر من شأنها أن تعين على شدة تمخض الصراع.

وعلى الرغم من هذا كله، فنحن لانوفق فى التغلب على أية مقاومة، أو فى إزالة أى من ضروب الكبت.. فهؤلاء المرضى: هجاسيين كانوا أم سوداويين أم فصاميين يستعصون إجمالا على العلاج بالتحليل، ترى ما السبب فى هذا؟

إنه لا يرجع إلى قصور فى الذكاء ـ والتحليل يتطلب بطبيعة الحال قدراً معيناً من الذكاء ـ فليس لدى الهجاسيين مثلا قصور فى هذه الناحية، وهم القادرون على الاستنتاج وخلق التآليف البارعة، كذلك لا نستطيع دائما أن ننسب هذا إلى غيبة إحدى القوى الدافعة الأخرى: فالسواديون مثلا ـ على خلاف الهجاسيين ـ يفطنون إلى أنهم مرضى، وإلى أن آلامهم ترجع إلى المرض، لكن هذا لايجعلهم امتثالاً للعلاج التحليلى، وهكذا نجد أنفسنا بصدد ظاهرة لانفهمها بحيث يبدو لنا أن نتساءل عما إذا كنا قد استوعبنا حقاً جميع الشروط التى تكفل النجاح فى الأعصبة الأخرى.

ولو أننا رجعنا إلى المصابين بالهستريا والحواز، لم نلبث أن نلتقى لديهم بظاهرة أخرى، لم نكن على أهبة للالتقاء بها، تلك أننا لا نكاد نمضى فى علاج هؤلاء ردحاً من الزمن حتى نلحظ أن سلوكهم نحونا قد جعل يتغير على وجه غريب شديد الغرابة، لقد كنا نظن إننا أحطنا بكل العوامل والقوى التى تؤثر فى العلاج، وأننا جلونا الموقف بيننا وبين المريض حتى أصبح ظاهراً واضحاً كأنها مسألة حسابية، وها نحن أولاء نرى أن عنصراً جديداً قد انسرب إلى الموقف مما لم يكن فى الحسبان، هذا العنصر الجديد يبدو فى صور مختلفة شتى سأصف أبسطها وأكثرها تواتراً.

فنحن نرى أن المريض قد أخذ يهتم بشخص الطبيب اهتماماً خاصاً، فى حين أننا لا ننتظر منه أن يشغل نفسه بشىء آخر غير الخلاص من صراعاته الأليمة، فكل ما يتصل بالطبيب يبدو فى نظره أهم من شئونه الخاصة فيحيد به عن الاهتمام بمرضه، عندئذ تصبح الصلات بينه وبين الطبيب راضية مقبولة إلى حد بعيد، وإنها لتظل كذلك فترة من الزمن يبدو فيها المريض طيعاً بوجه خاص، يجهد فى أن يظهر

اعترافه بالجميل ما وسعه الأمر، ويبدى من أمارات التلطف والخصال الحميدة الأخرى ما لم نكن نتوقعه فيه، وهكذا يخرج الطبيب بفكرة طيبة عن المريض، ويمد الظروف التى أتاحت له أن يعين هذا الشخص المدهش، فإذا اتفق للطبيب أن يتحدث إلى أقارب المريض، سمع ما يريه من تقديره له والثناء عليه، فإذا بالمريض لاينى عن ذكره وشكره وعن أن ينسب إليه فى كل يوم فضائل ومحاسن جديدة، وإذا بأقاربه يقولون: «إنه لايحلم إلا بك، ولا يثق إلا فيك، وكل ما تقوله له وحى منزل» وبين الحين والحين نسمع من بين هذه الأصوات من يقول :

«لقد أصبح مملا فهو لايتحدث إلا عنك، ولا ينطق إلا باسمك».

وأرجو أن يكون الطبيب على درجة من التواضع فلا يرى فى هذا الإطراء والتقدير إلا تعبيرا عن رضاء المريض من أمله فى الشفاء الذى يتيحه له الطبيب، ونتيجة لاتساع أفقه العقلى، من تلك الكشوف الرائعة التى زوده بها العلاج وما لها من تأثير يمشى به إلى الحرية والخاص، لذا يتقدم التحليل فى هذه الظروف تقدماً باهراً: فإذا بالمريض يفهم الاقتراحات التى تقدم له، ويتعمق المشكلات التى يبتعثها أمامه العلاج، وترد الخواطر والذكريات إلى ذهنه زرافات ووحدانا، كما أن التأويلات التى يدلى بها تكون على درجة من الدقة والوثوق ما يدهش المحلل، فلا يسعه إلا أن يلحظ بعين الرضا كيف يسارع المريض إلى قبول هذه الآراء السيكولوجية الجديدة كله، وهى التى تستثير عاصف النقد من أصحاء الناس. وإن هذه العلاقة الراضية أثناء عملية التحليل من شأنها أن تؤدى إلى تحسن واقعى شامل فى حالة المريض لا يخفى على أحد ملاحظته.

على أن هذا الجو الجميل لايمكن أن يدوم طويلا، فسيأتى يوم يتلبد فيه بالغيوم ويرتطم التحليل بصعوبات، إذ ذاك يدعى المريض أنه لا يعود يستطيع أن يفكر فى شىء. كما يشعر المحلل شعوراً واضحاً أن المريض لا يعود يحفل بالعلاج، وأنه بسبيل أن يتملص من ذلك العهد الذى أُخذ عليه أن يبوح بكل شىء يعن لخاطره وألا يلقى بالا إلى أى اعتراض أو نقد يعن له بصددها، وإذا به يتصرف ويسلك سلوكا لا يمليه موقف العلاج، وكأنه لم يتخذ من الطبيب موثقا، وغنى عن البيان أنه قد انشغل باله بشىء يريد أن يحتفظ به لنفسه، وهذا موقف غير موات للعلاج، ، فلا مراء فى أن مقاومة عنيفة جداً قد اعترضت الطريق، ترى ماذا حدث؟

لو تسنى لنا أن نجلو هذا الموقف بالنظر إليه من زاوية أخرى، لوجدنا أن السبب في هذا الاضطراب شعور شديد بالمودة طرحه المريض على شخص الطبيب: هو شعور لايبرره سلوك الطبيب أو العلاقة بينه وبين المريض أثناء العلاج. أما الشكل الذى تتخذه هذه المودة والهدف الذى ترمى إليه فيتوقفان بطبيعة الحال على ظروف الموقف بين هذين الشخصيت، فإذا كانت المريضة فتاة، وكان الطبيب شاباً كذلك، شعرت الفتاة نحوه بعاطفة حب طبيعية، إذ من الطبيعي أن تحب الفتاة رجلا يقضى معها بمفرده وقتا طويلا، وتستطيع أن تبوح له بأشياء شخصية حميمة، هذا إلى مايخلعه عليه مركزه من نفوذ يستمده من موقفه كناصح ومنقذ ـ هذا بغض النظر عما يتوقع من الفتاة العصابية غالباً من اضطراب فى طاقتها على الحب.

لكن المستغرب حقا هو أن نلتقى بهذا الاتجاه الوجدانى فى نفسه حتى فى الحالات التى تختلف فيها ظروف الموقف عن ظروف هذه الحالة المفترضة اختلافًا كبيراً، كذلك لا يستعصى على الفهم أن نلحظ مثل هذا الاتجاه الوجدانى فى امرأة شابة تشقى من زواجها، فهى تجهد فى أن تظفر بود مشبوب من طبيبها إن كان لايزال عزباً، وكانت على استعداد أن تطلب الطلاق لتتزوجه، أو أن تعقد به صلات غير مشروعة إن حالت بينها وبين الطلاق ظروف اجتماعية..

والواقع أن هذه الأمور تحدث حتى فى غير العلاج التحليلي، لكننا فى حالات التحليل نستمع من أفواه النساء والفتيات إلى اعترافات مثيرة للدهشة تكشف عن موقفهن الغريب من العلاج ونظرتهن إليه: إذ يدعين أنهن كن يعرفن دائما أن لا شىء غير الحب فى مقدوره أن يشفيهن، وأنهن منذ بدء العلاج على يقين من أن مثل هذه الصلة بالطبيب المعالج ستمنحن آخر الأمر ما حرمتهن الحياة منه، وبهذا الأمل وحده بذلن ما بذلن من جهود إبان التحليل ، وتغلبن على كل الصعاب التى تعترض البوح بأسرارهن.

ونستطيع بدورنا أن نضيف إلى هذا: «وبهذا الأمل وحده لم يشق عليهن أن يفهمن ما يشق على الناس فهمه وتقبله فى العادة»، غير أن مثل هذا الاعتراف من شأنه أن يوقعنا فى حيرة، وأن يطيح بكل حسابنا وتقديراتنا، فهل سقط من حسابنا عامل هو أهم عامل وأخطره فى الموضوع بأسره؟

هذا ما حدث فعلا.. إذ كلما زادت خبرتنا بالموضوع، لم يعد فى وسعنا أن نمارى فى هذا العامل الجديد الذى يغير الموضوع بأسره، والذى يسخر من تقديراتنا العلمية،

لقد كان لنا أن نظن فى أول الأمر أن العلاج التحليلى قد ارتطم بعقبة أثارتها حادثة اتفاقية لا صلة لها بالعلاج وهدفه، لكننا حين نرى هذا التعلق الحبى بالطبيب يحدث باطراد فى كل حالة جديدة نلتقى بها، وفى أقل الظروف مناسبة، بل فى حالات يكون التناسب فيها بين المريض والطبيب غريبا مضحكاً، كأن تتعلق امرأة مسنة بطبيبها ذى اللحية البيضاء، أو فى حالات نقطع بأن لا مجال فيها للفتنة والإغراء، إذ ذاك نرى أنفسنا مضطرين إلى أن نسلم بأن الأمر لايتلخص فى مجرد مصادفة وحادثة اتفاقية، وإلى أن نعترف أننا بصدد ظاهرة ترتبط فى جوهرها بطبيعة المرض نفسه.

والظاهرة الجديدة التى نرى أنفسنا مكرهين على الاعتراف بها هى ما تسمى **بالطرح**، ونعنى بها طرح العواطف على شخص الطبيب، فنحن نعتقد أن الموقف الذى يخلقه العلاج لا يستطيع أن يعلل مصدر هذه العواطف وأصلها، بل نحن أدنى إلى الظن أن هذه اللهفة الوجدانية بأسرها تنشأ من مصدر آخر، فقد كانت توجد عند المريض بصورة كامنة، ثم انتهزت فرصة العلاج فخلعت نفسها على شخص المعالج.

وقد يبدو الطرح فى صورة حب عنيف صاخب، أو فى صورة أقل تطرفا من تلك، فبدل أن تشعر الفتاة حيال طبيبها المسن برغبة فى أن تكون زوجته أو خليلته،إذا بها تود لو يعاملها كما لو كانت ابنته الأثيرة عنده، أو قد تتحور رغبتها اللبيدية فإذا بها تتطلع إلى أن تعقد به صداقة مثالية موصولة منزهة عن الشهوة، ويستطيع كثير من النساء أن يتسامين بالطرح ، وأن يشكلنه بصورة تبرر وجوده على وجه ما، فى حين يبدو لدى أخريات على صورة بدائية غليظة، يستحيل تحقيقها فى أغلب الأحوال، لكن الظاهرة هى هى بعينها فى باطن الأمر وفى كل حال، كما أن مصدرها واحد لايخطؤه التقدير.

وقبل أن نتساءل عن مصدر هذه الظاهرة الجديدة وموضعها فى الحياة النفسية، أرى أن أمضى فى وصفها قليلا.. ترى كيف تجرى الأمور حى يكون المرضى من الذكور؟

لنا أن نظن على الأقل أن هؤلاء المرضى يكونون بمنجاة من التأثير الوعر للفارق الجنسى والجاذبية الجنسية، غير أن الواقع هو أن هؤلاء شأنهم شأن النساء سواء بسواء، فهم يتعلقون ـ كما يفعل النساء، بشخص الطبيب، ويسرفون فى إطراء صفاته، ويهتمون اهتماماً بالغًا بكل ما يتصل به، ويغارون كالنساء من كل من يتصل به من الناس.

على أن الصور المعلاة من الطرح بين رجل ورجل هي الأكثر شيوعًا، كما أن التصريح للمريض لأساليب أخرى تستطيع أن تتفصح بها هذه النزعة الجزئية، يضاف إلى هذا أن المحلل يلاحظ نوعًا من الطرح أكثر وروداً عند الذكور منه عند الإناث، وهو طرح يبدو لأول وهلة أنه يتناقض مع كل ما وصفناه به إلى الآن.. ذلك هو «الطرح العدائي» أو **السلبي**.

ونبادر إلى القول بأن الطرح يبدو لدى المريض من أول العلاج، ويبقى مدة من الزمن أقوى محرك لعملية العلاج، على أننا لا نلحظ منه شيئاً، وليست بنا حاجة إلى أن نشغل أنفسنا به ما دام أثره مواتيًا للتحليلي الذي تقوم به في تعاون مع المريض، فإذا ما بدأ يتحول إلى مقاومة فلا مناص من الالتفات إليه، وعندئذ لا يفوتنا أن نرى أن صلاته بالعلاج قد يصيبها التغيير في أحد من اتجاهين مختلفين متقابلين: أولهما أن تصبح المحبة المعتدلة حبا عنيفًا تفوح منه رائحة مصدره الجنسي في شدة ووضوح؛ بحيث يقتضي بذل مقاومة داخلية في سبيله.. الثاني أن تنقلب عواطف الود والمحبة إلى عداء وكراهية، على أن عواطف العداء لا تظهر في العادة إلا بعد عواطف المحبة وتحت ستار منها، ومتى اجتمع بعضها إلى بعض في آن واحد، كان ذلك مثلا رائعاً لظاهرة التناقض الوجداني، التي تهيمن على أغلب صلاتنا الحميمة بغيرنا من الناس..

من هذا يتضح لنا أن عواطف العداء تشير إلى تعلق وجداني كعواطف المحبة سواء بسواء، كما هي الحال في التحدي والطاعة، فكلاهما يشير إلى اعتماد شخص على آخر، وإن تكن المظاهر متضادة، ومما لاقناع فيه أن خلع العواطف العدائية على المحلل حرى بأن يسمى هو الآخر «طرحا» لأن الموقف في العلاج لا يهيئ فرصًا كافية لتكوينها، من هذا نرى أن الضرورة التي حملتنا على التسليم بطرح سلبي، تبرهن لنا على أننا لم نكن خاطئين في أحكامنا السابقة عن الطرح الإيجابي الذي تخلع فيه عواطف المودة على الطبيب.

من أين ينشأ الطرح؟

وما الصعوبات التي يقيمها في وجوهنا؟

وكيف يتسنى لنا أن نظهر على هذه الصعاب؟

وما الفائدة الذي نستطيع أن نجنيها منه آخر الأمر؟

هذه مسائل لايمكن أن تعالج تفصيلاً إلا في استعراض فني لطريقة التحليل،

وحسبى أن أمسها مساً رفيقا فى هذا المقام، غنى عن البيان أنه لا ينبغى لنا أن نستسلم لمطالب المريض المنبعثة من الطرح ، لكنه ليس من الرأى فى شىء أن يرفض هذه المطالب فى خشونة وغضب، ونحن نتغلب على الطرح إذ نبين للمريض أن عواطفه لاتنشأ من الموقف الراهن، وأنها لاتنسحب فى الواقع على شخص الطبيب، بل إنها لاتعدو أن تكون تكراراً لموقف مر به منذ عهد بعيد، وبذا تحمله على أن يحيل هذا التكرار إلى **ذكرى** فإذا ما ظفرنا بهذه النتيجة، أصبح الطرح، الحى أو العدائى ـ الذى كان يبدو لنا أكبر خطر يتهدد العلاج ـ خير أداة للشفاء، وكان فى يدنا مفتاح يتيح لنا أن ننفذ إلى المقصورات المستغلقة فى نفس الإنسان.

على أنى أريد أن أفضى إليكم ببضع كلمات تزيل ما يكون قد اعتراكم من دهش لهذه الظاهرة التى لم تكن فى الحسبان، فلا يعزب عن بالكم أن المرض الذى نتناوله بالتحليل ليس ظاهرة متكملة متحجرة تم تكوينها، بل ظاهرة يطرد نموها وتطورها على الدوام، شأنها فى ذلك شأن الكائن الحى، ثم إن بداية العلاج لا تقف هذا النمو والتطور، غير أنه حالما يستحوذ العلاج على المريض، نرى أن كل التطورات الجديدة للمرض قد تركزت فى اتجاه واحد ـ هو الصلة بين المريض والطبيب، ومن ثم نستطيع أن نشبه الطرح بطبقة النسيج التى تتوسط الخشب والقشرة فى النباتات النامية من الظاهر، وهى طبقة يبدأ منها تكون أنسجة جديدة وازدياد سمك الجذع، ومتى وصل الطرح إلى هذه النقطة الحرجة، فتر النشاط الذى يدور على شكريات المريض وتباطأ إلى حد بعيد.

لذا لانكون خاطئين إن قلنا حينئذ إنه لم يعد لنا شأن بالمرض السابق، بل أصبحنا إزاء عصاب جديد محوّل، حل محل المرض القديم، ولقد تتبعنا هذه الطبعة الجديدة من المرض القديم منذ بدايتها، واطلعنا عليها وهى تبزغ وتتطور، ولم يشق علينا أن نعرفها حق المعرفة لأننا نشغل مركز اهتمام المريض فيها، فرأينا أن كل أعراض المريض قد فقدت دلالتها الأصلية واتخذت معنى جديدا يتصل بالطرح، أو لم يبق من الأعراض إلا ما تسنى له أن يوائم هذا الوضع الجديد، وعلى هذا فالظهور على هذا العصاب الاصطناعى الجديد يتضمن زوال العصاب الذى كان يوجد قبل العلاج، فإن وفقنا إلى ذلك انتهت مهمة العلاج، فإذا بالشخص قد أصبح سويا وتحرر من تأثير نزعاتها الغريزية المكبوتة، فى موقفه من الطبيب، وإنه ليبقى كذلك فى حياته العادية وهى بمنأى عن الطبيب.

هذه الأهمية المركزية البالغة للطرح تتضح فى علاج الهستريا والهستريا الحصرية والعصاب الحوازى؛ ومن ثم حق لنا أن نسميها «الأعصبة الطرحية»، وكل من مارس العلاج التحليلى وخبره لا يفوته أن يخرج بفكرة صادقة عن حقيقة الطرح ولايعود يخامره الشك فى طبيعة النزعات المبكوتة، التى تفصح عن نفسها عن طريق الأعراض فى هذه الأعصبة؛ كما أنه لا يعود فى حاجة إلى دليل أقوى على حقيقة طابعها الليبدى.. وفى وسعنا أن نقول إن دلالة الأعراض من حيث هى إشباع بديل لليبدو لم تتأيد لنا بصورة نهائية، ولم نقتنع بها إلا بعد أن كشفنا عن ظاهرة الطرح.

على أنه يتعين علينا الآن أن نصحح نظرتنا الديناميكية السابقة إلى عملية الشفاء، وأن نوفق بينها وبين الكشف الجديد، إن المريض حين يكون على وشك أن يعلن الكفاح العادى على المقاومات التى يكشف عنها التحليل، فإنه يكون فى حاجة إلى دافع قوى يميل به إلى الاتجاه الذى ننشده، أى الذى يفضى إلى الشفاء، ومن دون هذا قد يعقد العزم على تكرار الذريعة السابقة، فيوقع الكبت مرة أخرى على ما استدرج إلى منطقة الشعور، وإن ما يبت فى أمر هذا الكفاح ليس استبصاراً المريض وتعقله؛ إذ ليس هذا الاستبصار على درجة من القوة أوالتحرر تسمح له بمثل هذا العمل ـ بل موقفه من الطبيب ليس غير.

فعلى قدر ما يكون الطرح إيجابيا، فإنه يخلع على الطبيب الكثير من النفوذ والسلطة فتصبح آراؤه وكشوفه عقيدة وإيمانا، وإن كان الطرح غير هذا أو كان طرحاً سلبياً، لم يحفل المريض بشىء مما يقوله الطبيب: هنا تتضح لنا صورة الإيمان حين يعيد تاريخ نشأته، فالإيمان ثمرة المحبة، وليست به أول الأمر حاجة إلى أدلة وحجج، وهو لا يعلق على هذه الحجج أهمية فيعرض لها بالفحص والنقد إلا فيما بعد، عندما يقدمها إليه أشخاص يكونون موضع محبته، فالحجج التى لا يعززها أن تكون صادرة من شخص محبوب لا وزن لها عند المريض، ولا أثر لها فى نفوس أغلب الناس، فالإنسان، إجمالاً، لايمكن التأثير فيه، حتى من جانبه الفكرى، إلا على قد ما يكون قادراً على أن يفرغ الليبدو على الموضوعات، ولدينا من الأسباب الوجيهة ما يحملنا على الاعتقاد ـ وهذا شىء نخشاه حقا ـ بأن درجة تأثره بالعلاج التحليل، حتى خير أنواع، مرتهنة بدرجة النرجسية عنده، فكلما زادت النرجسية قل التأثر بالعلاج.

إن القدرة على إفراغ الطاقة الليبدية على الأشخاص الآخرين خاصة من خصائص كل إنسان سوى، وليس النزعة إلى الطرح عند من يسمون بالعصابيين إلا

مظهراً مسرفا وشططا فى هذه الخاصة العامة، ومن الغريب حقّاً ألا تنال سمة خلقية على هذا القدر من الخطر والذيوع ما هى أهل له من التقدير، وألا تكون قط موضوعا للملاحظة، لكنها لم تغب فى الواقع عن فطنة بعض الباحثين من ذوى الفكر الثاقب، من ذلك أن برنهايم، بما له من نظرة نفاذة، قد أقام نظرية ظواهر التنويم على مبدأ فحواه أن الناس جميعا «قابلون للإيحاء» بدرجات متفاوتة، وإن ما يسميه «بالقابلية للإيحاء» ليس شيئاً آخر غير النزعة إلى الطرح قد نظر إليها نظرة ضيقة فلم تشمل الطرح السلبى، غير أن برنهايم لم يتسن له قد أن يقول لنا شيئاً عن ماهية الإيحاء أو كيفية نشوئه، فقد كان عنده من الحقائق البديهية، ولم يستطع أن يفسر أصله ونشأته. كما أنه لم ير إلى أن «القابلية للإيحاء» مرتهنة بالجنسية ونشاط اللبيدو، ويتعين علينا أن نعترف أننا صدفنا عن اصطناع التنويم فى خطتنا؛ لنلتقى بالإيحاء مرة أخرى فى صورة الطرح.

وهنا أتوقف عن الحديث وأدع لكم الكلام، ذلك أنى ألحظ أن اعتراضا قد استحوذ على أذهانكم فى عنف لا يسمح لكم بالمضى فى تركيز انتباهكم حتى يفصح عن نفسه. فكأنى بكم تقولون: «لقد انتهى بك الأمر إذاً إلى أن تعترف بأنك تستعين بالتنويم كما يفعل المنومون؛ وهذا ما كنا نعتقد طول الوقت، ففيم يغنيك إذاً أن تستثار ذكريات الماضى، وأن يماط اللثام عن اللاشعور، وأن تؤول التحريفات وتعاد ترجمتها؟.

فيم هذا العناء كله وما إليه من إنفاق كبير للمال والوقت، إذا كان الإيحاء هو العامل النافذ الوحيد؟

ولم لا تصطنع الإيحاء مباشرة ضد الأعراض، كما يفعل غيرك من المنومين الأمناء؟

فإن كانت تريد أن تعتذر بأن هذه الطرق الملتوية قد أتاحت لك تلك الكشوف السيكولوجية المهمة العديدة التى لايفلح الإيحاء المباشر فى إماطة اللثام عنها، فمن يضمن صدق هذه الكشوف وصحتها؟

أليست هذه الكشوف، هى الأخرى نتيجة للإيحاء خاصة الإيحاء غير المقصود؟

ألا تستطيع بطريقتك التى تستخدمها أن توحى إلى المريض بما تريد وبما يبدو لك حقا؟».

إن اعتراضكم هذا على جانب كبير من الوجاهة ولا مفر من الإجابة عنه، لكنى لا أستطيع أن أجيب عنه اليوم فقد أوشك الوقت على الانتهاء، فلنعد إليه مرة أخرى، أما اليوم فيتعين علىّ أن أنهى ما بدأت، لقد وعدت بأن أشرح لكم ـ عن طريق ظاهرة الطرح ـ لم تخفق مساعينا فى علاج الأعصبة النرجسية.

فى وسعى أن أشرح لكم هذا ببضع كلمات ترون منها أن حل هذا اللغز أيسر مما يبدو لكم، وأنه يتماشى مع كل ما ذكرت.. لقد بيّنت لنا الخبرة والملاحظة أن المصابين بالأعصبة النرجية ليست لديهم قدرة على الطرح، أو لا يملكون منها إلا آثاراً غير ذات بال. فهم لايصدفون عن الطبيب عدوانا عليه بل لأنهم لا يكترثون له، ومن ثَم لايمكنه التأثير فى حالتهم، فكل ما يقوله لايحرك فيهم ساكنا ولا يترك فى نفوسهم أثراً، ومن هنا لا تجدى فيهم إجراءات الشفاء التى تجدى فى غيرهم ـ وهى بعث الصراع المولد للمرض والتغلب على المقاومات التى ترجع الكبت.. فهم يبقون على ما هم عليه، لقد سبق أن قاموا من تلقاء أنفسهم بمحاولات عدة لإصلاح حالتهم، لم تفض بهم إلا إلى عواقب مرَضية ولا حيلة لنا فى تغيير هذه الحال.

لقد دلتنا ملاحظاتنا الكلينيكية على أن اللبيدو عند هؤلاء لابد أن تكون قد انسحبت من الموضوعات، وتحولت إلى لبيدو أنوية، وقد اتخذنا هذه الصفة أساسا للتمييز بينهم وبين الفريق الآخر من العصابيين (المصابين بالهستريا أو الحُصار أو الحُواز) وكان فى سلوكهم أثناء العلاج ما يؤيد وجهة نظرنا هذه إذ إنهم لا يقدرون على الطرح، فلا نقدر على التأثير فيهم، ولا تشفيهم الطرق التى نتبعها.

المحاضرة الثامنة العشرون

العلاج التحليلى

تعرفون موضوع حديثنا اليوم، فقد سألتمونى عمّ يمنعنا من استخدام الإيحاء المباشر فى العلاج التحليلى، بعد أن سلمنا بأن تأثير هذا العلاج يرتكز فى جوهره على الطرح، أى على الإيحاء، ثم خامركم الشك فى موضوعية كشوفنا؛ نظراً إلى الدور الكبير الذى يقوم به الإيحاء، فوعدت أن أجيبكم عن هذا تفصيلا.

إن الإيحاء المباشر هو الإيحاء الذى يوجه مباشرة ضد الأشكال التى تتخذها الأعراض.. هو نضال بين سيطرة المعالج والدوافع التى يقوم عليها المرض. فمتى التجأتم إلى الإيحاء، لم تشغلوا أنفسكم بهذه الدوافع، ولم تزيدوا عن أن تطلبوا إلى المريض أن يكف عن التعبير عنها فى صورة أعراض، ويستوى الأمران حينئذ: إن نومتم المريض أو لم تنوموه، لقد كان برنهايم يرى بثاقب نظره فى كثير من الأحيان أن الإيحاء جوهر مظاهر التنويم، وأن النوم المغناطيسى نفسه نتيجة الإيحاء، فهو حالة موحاة، وقد كان يؤثر أن يصطنع الإيحاء فى حالة اليقظة، ففى وسعه أن يسلم فى هذه الحالة إلى النتائج نفسها التى يسلم إليها أثناء النوم المغناطيسى.

تُرى بأى شىء تريدون أن أبدأ لكم هذا الموضوع: أبنتائج الخبرة أم بالاعتبارات النظرية؟

فلنبدأ بالأولى، لقد كنت تلميذاً لبرنهايم، وقرأت عليه فى نانسى عام ١٨٨٩، كما ترجمت كتابه عن الإيحاء إلى الألمانية، ثم استخدمت العلاج المغناطيسى، سنوات عدة، مقترناً أول الأمر بالإيحاء الرادع الذى يكف الأعراض ويردها، ومقترنا بعد ذلك بطريقة بروير التى تستقصى حياة المريض استقصاء تاماً، فلدى إذاً خبرة كافية تتيح لى أن أتكلم عن نتائج العلاج التنويمى أو الإيحائى.

ولو صح ذلك المثل الطبى القديم الذى يقول إن العلاج المثالى هو العلاج السريع الذى يمكن الركون إليه والوثوق به والذى لا يستكره المريض.. فإن طريقة برنهايم تحقق شرطين على الأقل من هذه الشروط؛ إذ كانت أسرع بكثير من طريقة التحليل، لاينال المريض منها ضيق ولايناله منها وصب، غير أنها أصبحت فى يد الطبيب على مر الزمن طريقة رتيبة تجرى فى كل حالة على وتيرة واحدة، وتستخدم

الإجراءات نفسها لتُبطل الأعراض المختلفة، دون أن تكون قادرة على أن تفطن إلى شيء من دلالتها أو معناها.

لقد كانت نوعا من الشغل الآلى لا العمل العلمى، تذكرنا بالسحر والشعوذة والتعزيم، وكان الطبيب بغض النظر عن هذا كله من أجل صالح المريض، على أنها لم تحقق الأمنية الثالثة، إذ لم تكن طريقة يركن إليها ويعتمد عليها بحال، فقد كان من الممكن تطبيقها فى حالات معينة فقط لا فى غيرها، وكانت كبيرة النفع لبعض المرضى عقيمة مع آخرين، دون أن نعرف لهذا سببًا وأسوأ من هذا التقلب فى أطوارها، أن نتائجها لم تكن ثابتة دائمة، فقد كان المرض يعود بعد مدة من الزمن إلى ما كان عليه، أو يحل محله مرض آخر.

وكان فى وسعنا أن نعود إلى التنويم «المغناطيسى» مرة أخرى، غير أن بعض الثقات الأكفاء كانوا يحذرون من الإسراف فى التنويم؛ حتى لا يحرم المريض من استقلاله واعتماده على نفسه، وخشية أن يألف العلاج ويعتاده كما يعتاد أحد المخدرات.

والحق أننا كنا نوفق فى بعض الحالات، فنحظى بنجاح تام موصول من دون عناء كبير، لكننا لم نكن نعلم شيئا عن ظروف هذه النتيجة الموفقة وشروطها، فقد اتفق لى ذات مرة أن أزيل حالة مرضية شديدة إزالة تامة بعد علاج تنويمى قصير الأمد، غير أنها ما لبثت أن انتكست عندما أخذت المريضة تبدى لى شعوراً عدائيا على غير أساس عادل، وقد وفقت بعد زوال هذا الشعور إلى شفائها مرة أخرى على وجه خير من الحالة الأولى، لكن الحالة ظهرت من جديد حين تجهمت إلى المريضة مرة ثانية، واتفق لى مرة أخرى أن كنت أعالج مريضة أفلحت مرات عدة فى أن أخلصها منتوبات عصبية، فإذا بها تطوق عنقى بذراعيها، على حين فجأة بينما كنت أتعهدها خلال نوبة شموس، إن أمثال هذه الوقائع تضطرنا ـ طوعا أو كرها ـ إلى أن نتساءل عن طبيعة النفوذ الإيحائى ومصدره.

هذه خبرتنا بالتنويم، وهى ترينا أننا لو هجرنا الإيحاء المباشر لما فقدنا شيئا لايمكن الاستغناء عنه، وأذنوا لى الآن فى أن أعقب على هذا الموضوع ببضعة تعلقات، إن اصطناع طريقة التنويم لاتكلف المريض أو الطبيب فى أغلب الدوائر الطبية، ألا ترون الطبيب يقول للعصابى:

«ما بك من شيء، فما هو إلا مجرد اهتياج عصبي، وفي وسعي أن أبدد متاعبك كلها في خمس دقائق بعد بضع كلمات».

غير أن هذا الاتجاه يتنافى إجمالا مع ما نعرفه عن الطاقة: أيصح فى الأذهان أن الجهد اليسير في وسعه أن يحرك حملا ثقيلا إن هو تناوله مباشرة، دون أن يستعين بأداة خاصة مناسبة؟

كلا! إذ تدلنا الخبرة على أن هذه الحيلة الطبية ليست أكثر غناء في علاج الأمراض النفسية منها في الميكانيكا، على أن أعرف أن هذا التدليل ليس بمنجاة من النقد والاعتراض، وأن هناك أحوالاً تشبه الانفجارات.

إن المعلومات التى أسلمنا إليها التحليل النفسى تأذن لنا أن نصف الفوارق بين الإيحاء فى النوم المغناطيسى، والإيحاء فى التحليل النفسى بالصورة الآتية: فالعلاج التنويمى يعمل على إخفاء شيء يوجد فى الحياة النفسية والتمويه عليه، والعلاج التحليلى يعمل بالعكس على إماطة اللثام عنه وإزالته، أى إن الأول يعمل على طريقة «المزين» فى حين يعمل الآخر على طريقة الجراح، فالعلاج التنويمى يحاول الحجر على الأعراض وتقوية ضروب الكبت، لكنه لايمس واحدة من العمليات التى تفضى إلى تكوين الأعراض، أما العلاج التحليلى فيحاول النفاذ إلى أصول المرض حيث توجد الأصرعة التى نشأ منها، ثم يصطنع الإيحاء لتغيير عواقب هذه الأصرعة.

يضاف إلى هذا أن العلاج التنويمى يترك المريض خاملا منفعلاً لم يصبه تغيير، ومن ثم يصبح عاجزاً عن مقاومة أى مثير جديد للمرض، أما العلاج التحليلى فيتطلب من المريض ومن الطبيب جهوداً وعناء كبيراً بقصد التغلب على المقاومات الداخلية، ومتى تم الظهور على هذه المقاومات، تغيرت الحياة النفسية للمريض تغيراً دائما، وارتفعت إلى مستوى أعلى من التطور وأصبحت فى حرز من كل مرة ممكن؛ فالتغلب على المقاومات هو المهمة الأساسية للعلاج التحليلى، وهى مهمة يتعين على المريض أن يقوم بها، يمكّنه من ذلك الطبيب مستعيناً بالإيحاء، الذى يكون فى هذه الحالة بمثابة تربية للمريض، ومن هنا قيل بحق إن العلاج التحليلى نوع من التربية المجددة.

وأرجو أن أكون بهذا قد وضحت لكم فرق ما بين طريقتنا فى استخدام الإيحاء، والطريقة الممكنة الوحيدة للعلاج التنويمى، وبما أننا قد رجعنا تأثير الإيحاء إلى الطرح فسترون من هذا كذلك لم تكون نتائج العلاج التنويمى على هذه الدرجة من التقلب

وعدم الاستقرار، فى حين أن نتائج العلاج التحليلى مما يمكن الوثوق بها والركون إليها، فنحن فى التنويم نعتمد اعتماداً كليا على حالة الطرح ودرجته عند المريض، دون أن نكون قادرين بحال على التأثير فى هذه الحالة نفسها، والطرح عند المريض المنوّم قد يكون سلبياً أو على الغالب متناقضاً[1].

وقد يتخذ المريض اتجاهات نفسية خاصة يتحرز بها من حالة الطرح عنده: ونحن لا نعرف عن هذا كله شيئاً، أما فى التحليل النفسى فنحن نؤثر فى الطرح نفيه، ونزيح كل ما يعترض سبيله، ونستخدم الأداة التى نريد التأثير بها. ومن ثم يتسنى لنا أن ننتزع من قوة الإيحاء فائدة أخرى جديدة، إذ تصبح طيّعة فى أيدينا، فلا يعود المريض وحده من يتصرف فى قابليته للإيحاء كما يحلو له، بل نقوم نحن بتوجيه هذه القابلية على قدر ما يفيد من تأثيرها.

ستقولون ليس المهم أن نسمى القوة المحركة للتحليل «طرحاً» أو «إيحاءً»، فهذا لاينفى أن تأثر المريض بالتحليل من شأنه أن يشكك الناس فى القيمة الموضوعية لكشوفنا، وأن ما يفيد فى العلاج قد يضر بالبحث، هذا هو الاعتراض الذى يوجه إلى التحليل غالباً، ويجب أن نسلم بأنه حتى إن كان اعتراضاً خاطئاً فليس لنا أن نرفضه كما لو كان اعتراضا غير معقول، فإن كان له ما يبرره، لم يكن التحليل النفسى آخر الأمر إلا نوعاً من العلاج الإيحائى المثمر يبدو فى لبوس غير لبوسه، ولم يكن لنا أن ننظر بعين الجد إلى ما يصوغه من نتائج عن الخبرات الماضية للمريض، وعن الديناميكية النفسية، واللاشعور وغير ذلك، هذا ما يظنه خصومنا فى الواقع، فهم يزعمون أن أهمية الخبرات الجنسية بوجه خاص..

بل إن هذه الخبرات نفسها، لا تعدو إن تكون من نسج خيالنا السقيم، وأن كل ما يقوله المرضى فى هذا الموضوع فنحن الذين نغرسه فى عقولهم بأنفسنا، ولايعز علينا أن ندحض هذه الاتهامات ببينات من الخبرة لا عن طريق اعتبارات نظرية، فكل ما مارس التحليل النفسى قد أتيح له أكثر من مرة أن يستوثق أن من المحال الإيحاء إلى المريض على هذا النحو..

إن المحلل لا يشق عليه بطبيعة الحال أن يجعل المريض من أنصار نظرية معينة، أو أن يجتذبه إلى صف معتقد خاطئ يؤمن به، لكن موقف المريض عندئذ

---

1. Contraditional.

2. Ambivalent

شبيه بموقف كل فرد آخر، بموقف التلميذ مثلا، لاينال التأثير من مرضه بل من ذكائه وفكره، إن حل الأصرعة التى يكابدها المريض، والتغلب على ما لديه من مقاومات، لا يفلح إلا حين تكون الأشياء التى نطلب إليه من يفتش عنها فى نفسه، مطابقة لما يوجد بالفعل فى نفسه. فإن كان ما يفترضه الطبيب لايطابق ما يقوم فى نفس المريض بالفعل، زال هذا الافتراض الخاطئ من تلقاء نفسه أثناء التحليل، ولزم أن يستبعد وأن يستبدل به ما هو أصح منه، ثم إننا نصطنع خطة دقيقة حذرة، تحول دون الإيحاء أن يسلم إلى نتائج عابرة مؤقتة، وحتى إن تورطنا فى أمثال هذه النتائج، فليس منها ضرر كبير لأننا لا نقنع أبداً بأول نتيجة؛ فالتحليل لاينتهى حتى تنجلى كل الأركان الغامضة فى الحالة، وحتى تسد كل ثغرات الذاكرة، ويماط اللثام عن الظروف الأصلية التى حدث فيها الكبت.

على أننا ننظر إلى النتائج السريعة المبتسرة على أنها عقبات تعترض التحليل لاظروف مواتية له، فإذا بنا نهدم هذه النتائج بأن نبطل الطرح الذى تقوم عليه، والواقع أن هذه السمة الأخيرة هى ما يميز العلاج التحليلى عن العلاج الإيحائى المحض، وما يدرأ عن نتائج التحليل أن تشتبه بنتائج الإيحاء فالطرح فى أى نوع آخر من العلاج الإيحائى، لا يمس بل يحتفظ به فى عناية كما هو عليه، لكنه يكون فى العلاج التحليلى هدف العلاج نفسه، يفككه ويميط عنه اللثام أبداً مهما يكن الشكل الذى يبدو به، ولا بد فى نهاية العلاج التحليلى أن ينحل الطرح نفسه وأن يزول، فلئن ظفرنا بنجاح دائم، لم يكن هذا النجاح مرتكزاً على مجرد الإيحاء، بل على النتائج التى نصل إليها عن طريق الإيحاء: إبطال المقاومات الداخلية، والتغيير الداخلى الذى يتم فى نفس المريض.

من المحتمل أن ما يحول دون ظهور الآثار الجزئية للإيحاء أثناء التحليل، هى تلك الحرب الموصولة ضد المقاومات التى تعرف كيف تنقلب إلى طرح سلبى (عدائى).. ولايفوتنا أن نقدم دليلا يدحض ما بهت به التحليل من أن كثيراً من كشوفه ما هى إلا نتائج للإيحاء وهو دليل نستمده من مصادر لايرقى إليها الشك.. فشواهدنا على هذا هم الفصاميون والهجاسيون الذين لايشك أحد بطبيعة الحال فى استعصائهم على التأثر بالإيحاء:

إن ما يقصه هؤلاء المرضى عن طريق تخيلاتهم أو عن طريق تراجمهم للرموز لينطبق كل الانطباق على النتائج، التى أدت إليها بحوثنا عن اللاشعور فى الأعصبة

الطرحية، لذا فهو يؤيد صدق تأويلنا تأييداً موضوعيا، تلك التأويل التى ينظر إليها غالباً بعين الريبة، وأعتقد أنكم تكونون بمنجاة من التورط فى الخطأ إن وثقتم بالتحليل فى هذه النواحى.

ولنعد الآن إلى العملية التى يتم بها الشفاء، فنعبر عنها بلغة نظرية اللبيدو، إن العصابى يعجز عن أن يستمتع بالحياة وعن أن ينتج: فهو يعجز عن الاستمتاع لأن اللبيدو عنده لا تتعلق بموضوع واقعى، ويعجز عن الإنتاج لأنه يستنفذ قسطاً كبيراً من طاقته كى يحتفظ باللبيدو فى حالة الكبت، وكى يكون فى حرز من تسلطها عليها، وهو لا يشفى إلا حين ينتهى الصراع بين الأنا واللبيدو، وحين تمسى اللبيدو فى قبضة الأنا مرة أخرى، ومن ثم تتلخص مهمة العلاج فى تحرير اللبيدو من متعلقاته السابقة التى ليسات فى متناول الأنا، وتطويعها للأنا من جديد لكن أين توجد لبيدو العصابى؟.

إنها تكون عالقة بالأعراض التى تتيح لها الأشباع البديل الوحيد، ومن هنا يتعين علينا أن نسيطر على الأعراض أى أن نحلها، وهذا ما يطلبه المريض منا تحديداً، ولكى يتسنى لنا حل الأعراض، لامناص من أن نعود إلى أصولها، وأن نطلع على الصراع الذى نجمت عنه، ثم نوجه هذا الصراع إلى حل جديد، مستعينين على ذلك بالقوى الدافعة التى لم تكن فى متناول المريض عندما نشأت الأعراض..

إن إعادة النظر فى هذه العملية التى انتهت بالكبت، لايمكن أن تتم إلا بصورة جزئية إذا نحن تتبعنا الآثار والذكريات التى خلفتها، فالشطر الحاسم من العلاج يتلخص فى أن نبدأ من صلة المريض بالطبيب ـ أى من الطرح ـ فتنبعث من ثنايا هذه الصلة طبعات جديدة من الأصرعة القديمة يحاول المريض أن يتصرف حيالها كما كان يتصرف فى الماضى، لكنه يحشد فى هذه المرة كل ما فى وسعه من قوى نفسية؛ كى يصل إلى حل يختلف عن الحل الأول، وهكذا يكون الطرح الجبهة التى تتلقى فيها جميع القوى المتصارعة.

فإذا تركزت اللبيدو وكل ما يوجه إليها من مقاومة فى شىء واحد، هو موقف المريض من الطبيب ترتب على ذلك بالضرورة أن تجرد الأعراض مما يعلق بها من لبيدو، فإذا بالمرض الأصلى قد حل محله «طرح اصطناعى»، أو إن شئتم «مرض طرحى»، وإذا بموضوع واحد، هو شخص الطبى ـ وهو موضوع (خيالى) أيضاً ـ قد حل محل الموضوعات المختلفة غير الواقعية التى تتعلق بها اللبيدو.

أما الصراع الجديد الذى يدور على هذا الموضوع الجديد ،فتنتشله إيحاءات المحلل فترفعه إلى أعلى مستوى الحياة النفسية، وإذ ذاك لايعدو الأمر أن يكون صراعا نفسيا سويا، وبما أننا نتفادى حدوث كبت جديد، إذا بالتعارض بين الأنا واللبيدو قد زال، وإذا بالوحدة النفسية قد ردت إلى المريض.. ومتى فطمت اللبيدو عن هذا الموضوع العارض، وهو شخص الطبيب لم تعد تستطيع أن ترتد إلى موضوعاتها السابقة، بل تظل الآن فى حوزة الأنا، أما القوى التى تعترضنا فى هذا الكفاح أثناء العلاج، فهى من جهة نفور الأنا من نزعات لبيدية معينة، وهو نفور يفصح عن نفسه فى نزوع إلى الكبت، ومن جهة أخرى تشبث اللبيدو أو «تلزجها» الذى يجعلها لاتنفصل فى يسر عن الموضوعات، التى كانت عالقة بها من قبل.

من هذا نرى أن العلاج يمر فى طورين:

فى أولهما تُكره اللبيدو بأسرها على أن تنسحب عن الأعراض كى تثبت وتتركز فى الطرح، وفى الثانى تدور المعركة حول هذا الموضوع الجديد لكى تحرر اللبيدو منه، وليس فى مقدورنا أن نظفر بهذه النتيجة الطيبة إن لم نوفق ـ أثناء هذا الصراع الجديد ـ إلى أن نحول دون حدوث كبت جديد تفلت به اللبيدو من قبضة الأنا وتفر إلى اللاشعور، ونحن نفلح فى هذا بفضل ما يحدث فى الأنا من تغييرات، تنجم عن إيحاءات المحلل.. ذلك أن عملية التأويل التى تستدرج المواد اللاشعورية إلى الشعور، من شأنها أن يكبر الأنا ويربو على حساب اللاشعور، كما أن النصائح التى يتلقاها، من شأنها أن توفق بينه وبين اللبيدو فيرضى أن يمنحها شيئا من الأشباع، هذا إلى مايكسبه الأنا من قدرة جديدة على إعلاء قدر معين من اللبيدو من شأنه أن يخفف عنه بعض ما كان يشعر به من ذعر حيال مطالب اللبيدو، فعلى قدرما يتماشى سير العلاج مع هذا الوصف المثالث، يكون حظه من النجاح كبيرا، أما مايحصر النجاح فى حيز محدود، فهو من جهة جمود اللبيدو واستعصاؤها على الانفصال عن موضوعاتها، ومن جهة أخرى تصلب النرجسية عند المريض مما لا يسمح بتحول اللبيدو إلى الموضوعات إلا بقدر معين، وربما زاد فهمنا الديناميكى عملية الشفاء لو وصفناها فقلنا:

إننا نستحوذ على كل اللبيدو التى لم يكن يهيمن عليها الأنا، إذ تجتذب إلى أنفسنا جزءا منها عن طريق الطرح.

ويجدر بكم أن تعرفوا أن مطارح اللبيدو التى تبدو أثناء التحليل وبوساطته لاتسمح لنا أن نستنتج منها استنتاجًا مباشراً إذا كان مطرحها إبان الحالة المرضية السابقة للتحليل، فلو فرضنا أننا لاحظنا أثناء العلاج أن اللبيدو مطروحة على أب المريض، وأننا أفلحنا فى فصمها عن هذا الموضوع وخلعها على شخص الطبيب: فمن الخطأ أن نستنتج من هذا أن المريض كان يعانى بالفعل تثبيتاً لبيدياً لا شعورياً على أبيه، إذ ليس الطرح على شخص الأب إلا ميدان الحرب الذى نقهر فيه اللبيدو ونأسرها، ولم تكن اللبيدو من قبل فى هذا الميدان، بل كانت فى معاقل أخرى أشد قوة ومناعة، إن ميدان الحرب الذى نقاتل فيه لايتحتم أن يكون أحد مراكز العدو المهمة، كما لا يتحتم أن يكون الدفاع عن عاصمة العدو أمام أبوابها مباشرة، وعلى هذا فليس فى مقدورنا أن نحدد ـ فى أذهاننا بالطبع ـ مطرح اللبيدو أثناء المرض نفسه، إلا بعد أن ينحل الطرح الأخير ويزول.

وإليكم كلمة أخيرة عن الأحلام أقولها فى ضوء نظرية اللبيدو، إن أحلام العصابيين كهفواتهم وخواطرهم التلقائية تعيننا على أن ننفذ إلى مغزى الأعراض عندهم، وأن تكشف عن مطارح اللبيدو لديهم، فهى إذ تبدو فى صورة رغبات تتحقق، تنم عن الرغبات التى تناولها الكبت وعن الموضوعات، التى تعلقت بها اللبيدو بعد أن انسحبت عن الأنا، وهذا هو السبب فى أن تأويل الأحلام يقوم بدور مهم فى التحليل النفسى، بل هو الأداة الرئيسية التى تستغرق أغلب وقته فى كثير من الحالات، وتعرفون من قبل أن حالة النوم فى ذاتها تؤدى إلى فتور الكبت بمقدار، فإذا ما تخففت الرغبة المكبوتة من هذا الحمل الثقيل، تسنى لها أن تبدو فى الحلم بصورة أوضح بكثير، مما يمكن أن تبدو بها فى العرض إبان اليقظة، ومن ثم كانت دراسة الأحلام أيسر مدخل تنفذ منها إلى معرفة اللاشعورى المكبوت، الذى تنتمى إليه اللبيدو بعد أن تفلت من سيطرة الأنا.

على أن أحلام العصابيين لا تختلف عن أحلام الأسوياء فى أية ناحية أساسية، بل ربما شق علينا فى الواقع أن نميز بين هذه وتلك بحال، فمما يجافى المنطق أن نؤول أحلام العصابيين تأويلا لا يصدق على أحلام الأسوياء، وعلى هذا فنحن فى حل أن نقول إن الفارق بين العصاب والصحة لايتضح إلا فى حالة اليقظة، فلا وجود له فى الأحلام، ومن ثم يتحتم علينا أن نطبق على الأسوياء عدداً من النتائج، التى ظفرنا بها من دراسة الصلات القائمة بين الأحلام والأعراض العصابية، من تلك أن الفرد

السوى يحمل، هو الاخر، فى طيات نفسه تلك العوامل التى تهيىء لصياغة الأحلام وتكوين الأعراض، وأن نستخلص أيضاً أنه قد نصب على نفسه ضرورياً من الكبت، وأنه يستنفذ قسطاً معيناً من الطاقة حفاظاً عليها، هذا إلى أن نفسه اللاشعورية تضمن نزعات مكبونة لا تزال مشحونة بالطاقة، **وأن جزءًا من اللبيدو عنده يفلت من زمام أناه.**

إن الإنسان السوى إذاً عصابى بالقوة، غير أن العرض الوحيد الذى يبدو أنه قادر على إنشائه هو الحلم . والحق أن هذا لا يعدو أن يكون ظاهر الأمر لا باطنه ولبه: فلو أننا فحصنا الفرد السوى أثناء يقظته فحصاً دقيقاً ناقداً، لبدا لنا أن حياته السوية، كما نسميها، تزخر بأعراض لا تحصى، لكنها ليست ذات بال من الناحية العملية.

وهكذا يصبح الفارق بين الصحة النفسية والعصاب فارقًا عمليًا، يتعين بنتيجته العملية، ويتوقف على الدرجة التى لايزال فيها الفرد قادراً على الاستمتاع بالحياة والإنتاج، ومن المحتمل أنه يرجع إلى النسبة بين كمية الطاقة التى بقيت حرة طليقة، وكمية الطاقة التى جمدت من جراء الكبت، وبعبارة أخرى أنه فارق كمى لا كيفى. وليست بى حاجة إلى أن أذكركم بأن وجهة نظرنا هذه هى الأساس النظرى الذى يقوم عليه اعتقادنا بأن الأعصبة فى جوهرها قابلة للشفاء، وذلك على الرغم من أنها ترتكز على استعداد موروث.

هذا ما نستطيع أن نستنتجه عن خصائص الصحة النفسية من التطابق بين أحلام الأسويا وأحلام العصابيين، أما فيما يتصل بالحلم نفسه، فثمة نتيجة أخرى تخرج بها من هذا التطابق: هى أنه ليس من الممكن أن نفصل الحلم عن صلاته بالأعراض العصابية، وأنه لا يجوز لنا أن نعتقد أننا استوعبنا طبيعة الحلم حين نقول إنه ليس شيئا أكثر من «صورة أثرية للتعبير عن الأفكار»، هذا إلى أننا مضطرون إلى التسليم بأنه يكشف عن مطارح اللبيدو ومراكز تثبيتها الموجودة فعلا.

* * *

لقد أوشكت الآن على الختام، وربما أخلفت ظنكم إذ لم أحدثكم إلا عن اعتبارات نظرية فى محاضرة عنوانها «العلاج التحليلى»، ولم أذكر شيئا عن الظروف التى نقوم فيها بالعلاج أو عن النتائج التى نصل إليها، لقد اقتصرت على النظريات لأنى لم أرد قط أن أقدم لكم «مرشداً» عمليا فى ممارسة التحليل النفسى، كما كان لدى من الأسباب الخاصة ما حملنى على ألا أتكلم عن إجراءات العلاج ونتائجه.

وقد أكدت لكم من بدء أحاديثنا هذه أننا نظفر، فى الظروف المواتية، بنتائج علاجية رائعة، ليست دون أظهر النتائج وأروعها فى الميادين الأخرى من العلاج الطبى، وفى وسعى أن أضيف إلى هذا أن النجاح الذى يتاح للتحليل النفسى لايمكن أن تظفر به أية طريقة أخرى من طرق العلاج، ولو قلت لكم أكثر من هذا، فربما ذهب بكم الظن إلى أنى أريد بهذا الإعلان الصاخب أن أطمس على أصوات خصومنا، وقد تعالت أكثر مما يجمل ويجب..

لقد هددنا بعض الزملاء حتى فى اجتماعات مهنية عامة، بأن يفتحوا أعين الناس ويحذروهم من عقم طريقتنا فى العلاج، بأن ينشروا على الملأ طائفة من الحالات التى أخفق فيها التحليل ومن الآثار الضارة التى تترتب عليه، وبغض النظر عما يتسم به هذا الإجراء من طابع كريه، لايعدو أن يكون تشهيراً ممقوتاً، فإن مثل هذه القائمة التى يهددنا بها لا تستقيم دليلا كافياً على عقم العلاج التحليلى، فهذا العلاج كما تعرفون، لا يزال فى نشأته، وقد استنفذ منا سنين عدداً كى نرفع القواعد من خطته، وهى خطة لايمكن تعديلها إلا أثناء العمل نفسه استجابة للخبرة المتزايدة المباشرة، ونظراً إلى الصعوبات التى تعترض تدريس التحليل النفسى، فلا مناص من أن يترك المبتدئ فيه لينمى قدرته عليه بجهوده الخاصة.. وتلك حالة لانجد لها نظيراً فى أى فرع من فروع الاختصاص ـ لذا فالنتائج التى يصل إليها فى سنواته الأولى لايمكن أنت تتخذ دليلا على جدوى العلاج التحليلى أو على عقمه.

لقد أخفقت محاولات كثيرة للعلاج فى بداية التحليل النفسى؛ لأنها أجريت على حالات لا تناسب طريقته البتة، فهى مما نخرجه اليوم من نطاقه أصلب، على أننا لم نستطع تحديد نطاق الطريقة إلا بفضل هذه المحاولات. فلم نكن نعرف فى أول الأمر أن الجنون الهجاسى والخبل المبكر يستعصيان على التحليل متى كانا فى طور متأخر، كذلك كنا على حق فى أن نجرب طريقة التحليل على أنواع شتى من الإضطرابات، ومع هذا فمن الإنصاف أن نقول إن أكثر ما منينا به من فشل فى السنوات الأولى لايرجع إلى خطأ الطبيب أو إلى سوء اختيار الحالة، بل إلى ظروف خارجية غيرمواتية، نحن لم نتكلم إلى الآن إلا عن المقاومات الداخلية التى تنشأ فى نفس المريض، وهى مقاومات لا مفر منها، وفى وسعنا أن نتغلب عليها.

لكن هناك مقاومات خارجية تنشأ من بيئة المريض ومن ظروفه الخاصة، وهى مقاومات لا أهمية لها من الناحية النظرية، لكن خطرها جسيم من الناحية العملية، إن العلاج التحليلى شبيه بالعملية الجراحية، فلايمكن القيام به إذاً إلا فى ظروف يكون احتمال الفشل فيها على أقله، وتعرفون كم من التحوطات يتخذه الجراح قبل البدء فى عمله: حجرة مناسبة، وإضاءة جيدة، ومساعدون من ذوى الخبرة، واستبعاد أقارب المريض، إلى غير تلك..

تُرى كم من العمليات الجراحية يمكن أن تتم على خير لو حضرها أعضاء أسرة المريض جميعاً، يحيطون بالجراح، ويصيحون لكل حز يحزه المشرط؟

كذلك الحال فى العلاج التحليلى، فتدخل الأقارب خطر محقق، وهو خطر لانعرف كيف ندرؤه ونتقيه،فى وسعنا أن نسوس المقاومات الداخلية للمريض.. تلك المقاومات التى نعرف أنها شىء ضرورى، لكن ما حيلتنا فى هذه المقاومات الخارجية، وكيف نقى أنفسنا منها؟

من المحال أن نقنع أقارب المريض بأى نوع من الشرح والإيضاح، أو أن نستدرجهم حتى ينأوا عن الموضوع بأسره، كما يتعين علينا ألا نقف إلى جانبهم أو أن ننحاز إليهم إطلاقا خشية أن تضيع ثقة المريض فينا، فالمريض يتطلب من الرجل الذى يكون موضع ثقته وبحق ما يفعل - أن يكون إلى صفه أبداً وفى كل حال، وكل منعرف شيئا عن ألوان الشقاق التى تحز فى كيان الأسر عادة، لايدهش إذ يرى، وهو يمارس التحليل النفسى، أن أقرب الناس إلى المريض لايهتمون فى الغالب لشفائه بقدر ما يهتمون لبقائه على ما هو عليه.

وفى الأحوال التى يكون للعصاب فيها صلة بصراع يدب بين أعضاء الأسرة الواحدة - وما أكثر هذه الحالات - لا يهون على السليم أن يجود بشىء من مصلحته الخاصة فى سبيل شفاء المريض. فلا غرابة إذاً فى ألا يرحب الزوج بعلاج يرى، وبحق ما يرى، أنه سيميط اللثام عن ذنوبه وعيوبه، ونحن معشر المحللين لاندهش لهذا، لكننا نبرئ أنفسنا من اللوم حين لا تتوج جهودنا بالنجاح، أو حين لايكون بدٌ من وقفها ؛لأن مقاومة الزوج جاءت تعزز مقاومة الزوجة المريضة، ذلك أننا نقوم بشىء من المحال تحقيقه فى مثل هذه الظروف.

ولن أقص عليكم أمثلة كثيرة، فحسبى حالة واحدة فرضت علىّ أن أكون ضحية صامتة من أجل ذمة المهنة الطبية، منذ سنوات عدة، كنت أقوم على علاج فتاة شملها الخوف منذ عهد بعيد، فإذا بها لا تستطيع أن تخرج إلى الطريق أو أن تبقى وحدها فى البيت.

وقد اعترفت الفتاة بعد تردد طويل أن بالها ظل منشغلا إلى حد كبير لما لاحظته مصادفة من صلات حبية بين أمها وأحد الأثرياء من أصدقاء الأسرة. غير أنها لم تكن على جانب كبير من الحصافة ـ أو كانت بارعة كل البراعة ـ فألقت فى روع أمها بما كنا نناقشه فى جلسات التحليل، وذلك بأن غيرت موقفها منها، وأصرت على أن ليس هناك من يستطيع أن يدرأ عنها خوف الوحدة غير أمها، فكانت تعارضها كلما همت بالخروج من المنزل..

وقد كانت الأم نفسها مصابة باهتياج عصبى من قبل، وتم شفاؤها قبل سنوات من هذا فى دار من دور الاستشفاء بالمياه، يضاف إلى هذا أنها تعرفت فى هذا الدار بذلك الرجل الذى عقدت به صلة تبعث على الرضا من كل الوجوه، وقد ارتابت الأم فى تلك المطالب الحارة التى كانت تفرضها ابنتها عليها **وفطنت** على حين فجأة إلى ما ينطوى عليه خوفها من مغزى ودلالة، فقد أدركت أن ابنتها تستسلم للمرض حتى يحتجزها فتحول بينها وبين المضى فى صلاتها بحبيبها، إذ ذاك لم تلبث الأم أن قر قرارها على إنهاء ذلك العلاج الضار، وأرسلت الفتاة إلى دار للأمراض العصبية؛ حيث ظلت هناك سنوات عدة يشار إليها بأنها «ضحية مسكينة من ضحايا التحليل النفسى».

وكم أصابنى من لوم وكيد جزاء ذلك العلاج الفاشل! على أنى آثرت الصمت حفاظاً على سر المهنة وميثاقها، وبعد سنين من هذا، عرفت من زميل زار تلك الدار ورأى الفتاة التى تخاف من الخروج إلى الشارع، عرفتُ منه أن الصلة بين أمها وبين الرجل الغنى كانت على لسان كل إنسان، وأكبر الظن أن الزوج الأب كان يتستر عليها، وهكذا كان شفاء الفتاة فداءً لهذا «السر».

لقد قطعت على نفسى عهداً فى السنوات التى سبقت الحرب ـ يوم كان الأجانب يتدفقون من كل صوب وحدب فأستغنى بهم عما ألاقيه فى مسقط رأسى من استحسان

أو استهجان - قطعت على نفسي عهداً ألا أقوم بعلاج شخص لا يكون مستقلا عن غيره، ولا يملك أن يقضى بنفسه لنفسه في كل صلاته الأساسية فى الحياة، وهو عهد لا يستطيع كل محلل نفسى أن يتبعه أو أن يفرضه على نفسه، على أنكم قد تستخلصون مما حذرتكم منه عن أقارب المريض أن المحلل يجب أن ينتزع المريض من دائرة أسرته لصالح التحليل، وأن يقصر علاجه على الذين يستشفون فى مؤسسات خاصة، لكنى لست من أنصار هذا الرأى فى شيء: فمن الأجدى على المرضى - إن لم يكونوا فى حالة إعياء شديد - أن يظلوا أثناء العلاج وسط الظروف التى يتعين عليهم أن يحلوا مشاكلها، وبين المطالب التى تفرضها عليهم حياتهم العادية، وعلى أقاربهم ألا يبطلوا هذه الميزة بموقفهم، وألا يفسدوا جهود المحلل باتجاههم العدائى، لكن كيف لكم أن تقنعوا أن تستميلوا أناسًا ليس لكم عليهم سلطان أن يتخذوا الموقف الذى تريدون! كذلك من الطبيعى ألا يفوتكم ما للبيئة الاجتماعية والحالة الثقافية للأسرة من أثر بالغ فى مصير العلاج.

فيالها من نظرة شاحبة إلى جدوى العلاج التحليلى، حتى إن كان أغلب ما يمنى به فشل غير مرهون إلا بهذه العوامل الخارجية! ولقد ذكر بعض أصدقاء التحليل بأن أحصى الحالات التى أتيح لنا فيها النجاح، وأن أقابل هذا الإحصاء بآخر للحالات التى أخفقنا فيها.. لكنى لم أتقبل هذه النصيحة، واحتججت لهذا بأن الإحصاء لا قيمة له إن لم تكن الوحدات المقارنة التى يتألف منها متشابهة، والواقع أن الحالات التى تناولها التحليل بالعلاج كان بعضها يختلف عن بعض من وجوه كثيرة.

يضاف إلى هذا أن الفترات التى تعقب العلاج كانت أقصر مما يسمح لنا أن نقطع بأن الشفاء دائم أو موقوت، بل كان يستحيل علينا أن نقدم بياناً عن كثير من الحالات التى كان يحتفظ أصحابها بمرضهم وعلاجهم فى طى الخفاء، فبقى شفاؤهم كذلك سراً مستوراً، على أن أقوى دافع جعلنى لا أذعن لهذه النصيحة هو ما أعرفه عن طريق الخبرة من أن موقف الناس بصدد مسائل العلاج، ينطوى على قدر كبير من السخف والتناقض، فلا سبيل إلى إقناعهم عن طريق الحجج المنطقية، حتى إن كانت من نزعة من الملاحظة والتجريب، «فالبدعة» فى العلاج إما أن تستقبل بحماسة جنونية، كما كانت الحال عند نشر «كوخ» Koch نتائجه عن التيوبركلين لأول مرة، أو أن تقابل بارتياب مسرف كما قوبل لقاح «جنز» Jenner ، وهى نعمة أرسلتها السماء، فلا يزال له خصوم ألداء حتى اليوم.

وقد ارتطم التحليل النفسى بقدر كبير من التشبع الصريح، فكان يقال لنا حين نشفى حالة عويصة:

«هذا لا يدل على شىء، فقد كان مصيرها إلى الشفاء بعد هذا الوقت الطويل».

ولقد جاءتنى مريضة مرت من قبل بأربع دورات من الاكتئاب والهوس، فتعهدتها بالتحليل فى فترة أعقبت نوبة السواد، ثم بدأت تعرض لها نوبة الهوس بعد ثلاثة أسابيع من هذا، فما لبث أفراد أسرتها جميعاً ـ يعززهم فى ذلك فريق من الثقات النابهين فى الطب طلب إليهم فحص المريضة ـ ما لبث هؤلاء جميعًا أن أكدوا اعتقادهم بأن هذه النوبة الجديدة لايمكن أن تكون إلا نتيجة للعلاج الذى قمت به، وما حيلتنا فى الآراء السابقة وأحكام الهوى!

لامناص من أن ننتظر وأن نترك للزمن أن يعفى على هذه الأحكام والانحيازات، وسيأتى يوم ينظر فيه الناس أنفسهم إلى الأشياء نفسها نظرة تختلف كل الاختلاف عن نظرتهم إليها بالأمس، ترى لِم لم ينظروا إليها بالأمس نظرتهم إليها اليوم؟

إنه لغز يستعصى علينا وعليهم حله وإيضاحه.

ومع هذا فمن المشاهد أن مناهضة العلاج التحليلى قد أخذت تخف وتفتر؛ ذلك أن نظريات التحليل النفسى أخذت تشيع وتنتشر باطراد، كما أخذ كثير من الأطباء يمارسون العلاج التحليلى فى كثير من الأقطار..

لقد قُدر لى وأنا طبيب ناشئ أن أرى الدوائر الطبية تقابل العلاج عن طريق الإيحاء التنويمى بتلك العاصفة نفسها من السخط التى يقابل بها «العقلاء» التحليل النفسى فى يومنا هذا، على أن التنويم من حيث هو أداة علاجية لم يحقق الآمال التى عقدت عليه فى أول الأمر، ونحن معشر المحللين يجب أن نعتبر أنفسنا ورثته الشرعيين، ولا ننسى ما ندين به إليه من تشجيع وتنوير فى الناحية النظرية..

أما الآثارالضارة التى تعاب على التحليل النفسى، فليست فى حقيقة الأمر إلا ظواهر عابرة تنجم عن ثوران الصراع فى الحالات التى لا يجرى فيها التحليل بحرص وحذق، أو التى يتوقف فيها على حين فجأة، لقد سمعتم وصفاً لما نصنعه

بالمرضى، وفى وسعكم أن تحكموا أنفسكم بماذا كان من شأن جهودنا أن تسلم بالمريض إلى ضرر مقيم، الحق أن التحليل معرض لأن يساء استعماله من نواح شتى: «فالطرح» بوجه خاص أداة خطرة فى يد الطبيب المستهتر السادر، لكن هل تعرفون وسيلة علاجية بمنجاة من سوء الاستعمال؟ إن المشرط إن لم يقطع، لم يفد منه الجراح أيضاً.

* * *

وأعترف لكم فى ختام أحاديثى - وليس هذا الاعتراف من الموضوعات الشكلية - أنى آسف للعيوب والثغرات الكثيرة التى تخللت محاضراتى هذه؛ وآسف بوجه خاص لأنى كثيراً ما وعدتكم بالعودة إلى تناول موضوع معين، مسته مساً رفيقاً فلم يتحْ لى سياق الحديث أن أفى بوعدى، لقد أخذت على نفسى أن أقدم لكم بياناً عن فرع من العلم لم يكتمل بعد، ومازال آخذاً فى التطور والنمو، وقد أردت أن ألخصه لكم فجاء التلخيص نفسه مبتورا، وكثيرا ما كنت أجمع طائفة بأسرها من المواد ابتغاء الوصول إلى نتيجة، ثم أحجم عن أن استخلصها بنفسى، ولكنى لم أكن أطمع فى أن أجعل منكم خبراء بالتحليل النفسى، وكل ما أردت إليه هو أن أقربكم من فهمه وأن أستثير اهتمامكم به.

محاضرات تمهيدية فى

التحليل النفسى

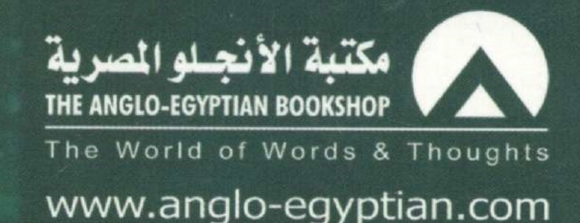
هذا الكتاب

مما لا شك فيه أن هناك قناعة راسخة ، لدى كل المشتغلين فى أوساط علم النفس والتحليل النفسى ، أن " سجموند فرويد " كان أكثر من مؤسس مدرسة ، إذ يعود إليه الفضل ، كل الفضل ، فيما حدث من انقلاب مدوٍ فى علم النفس ، وفى نظرة الناس إلى الطبيعة البشرية بأسرها .. فقد بدأت المدرسة التى أسسها " فرويد" طريقة لعلاج بعض الاضطرابات النفسية ، ثم ما لبثت أن تحولت على يديه إلى نظرية ونظام سيكولوجى ، لم يؤثر فى علم النفس وحده ، بل امتد تأثيره إلى سائر العلوم الإنسانية من اجتماع وفلسفة وسياسة .

ويضم هذا الكتاب بواكير إنتاج " فرويد " المبشرة الواعدة ، فى مجموعة محاضرات ، ثبت من خلالها أقدام هذا العلم بشكل غير قابل للاهتزاز ، ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، يضم أولهم تمهيدًا مباشرًا وتحديدًا لأنواع سيكولوجيا الهفوات .. بينما يتطرق القسم الثانى إلى مجموعة محاضرات مسماة بالأحلام .. والصراع الدائر بين الظاهر والكامن من خلال عرض تفصيلى دقيق .. أما القسم الثالث ، والأخير فيتضمن ملامح وأبعاد النظرية العامة للأمراض النفسية ، فى منظومة ذات ثلاثة عشر بعدًا ، بما يجعلها مانعة جامعة لكل م قد يعترى النفس البشرية من ظواهر وأعراض ..

إن كتاب بهذا الجهد الدقيق من المؤلف فى التتبـ والطرح ، ليقف بجدارة على أبواب العمل الموسوعـ المتكامل .. فهنيئًا به للقارئ .





www.anglo-egyptian.com